المحتويات

مُقدّمة ٧

- الشبهة الأولى ١٥

ادعاء تناقض القرآن في مادة خلق آدم عليه السلام، ومخالفته لما ورد في السنة النبوية

- الشبهة الثانية ٢٠

الزعم أن الله لم يُكَرِّمْ آدم عليه السلام، ولم يأمر الملائكة بالسجود له

- الشبهة الثالثة ٢٣

ادِّعاءُ طَرْدِ آدم عليه السلام من الجنة لوقوعه في الخطيئة بأكله من الشجرة

- الشبهة الرابعة ٢٨

الفهم الخاطئ لبعض الحقائق في قصة آدم عليه السلام

- الشبهة الخامسة ٣٨

إنكار نبوة آدم عليه السلام

- الشبهة السادسة ٤٢

الزعم أن آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ قد أشركا بالله تعالى

- الشبهة السابعة ٥٠

الزعم أن القرآن أخطأ في ذكر اسم إدريس عليه السلام وقصة رفعه حيًّا إلى السماء

- الشبهة الثامنة ٥٥

الفهم الخاطئ لدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك

- الشبهة التاسعة ٦١

ادِّعاء أن طُوفان نوح أسطورةٌ وليس حقيقة كما ورد في القرآن

- الشبهة العاشرة ٦٨

التشكيك في أبوّة نوح عليه السلام لابنه

www.kalemasawaa.com

- الشبهة الحادية عشرة ٧٢

ادعاء وقوع نوح في الخطأ؛ بسؤاله المولى ﷻ أن ينجِّي ابنه الكافر من الغرق

- الشبهة الثانية عشرة ٧٧

الزعم أن نوحًا عليه السلام لم يؤمن به أحد من قومه

- الشبهة الثالثة عشرة ٨٠

التشكيك في صحة قصة نوح عليه السلام في القرآن

- الشبهة الرابعة عشرة ٨٢

ادِّعاء خطأ القرآن في ذكر قصة هود عليه السلام، التي لا وجود لها في التوراة

- الشبهة الخامسة عشرة ٨٤

ادعاء أن ناقة صالح عليه السلام خرافة تتنافى مع العقل

- الشبهة السادسة عشرة ٨٧

ادِّعاء وقوع إبراهيم عليه السلام في الشرك

- الشبهة السابعة عشرة ٩٣

توهم أن إبراهيم عليه السلام وقع في الكذب

- الشبهة الثامنة عشرة ٩٩

إنكار لقاء إبراهيم عليه السلام بالنمروذ

- الشبهة التاسعة عشرة ١٠٢

ادِّعاء أن إبراهيم عليه السلام تزوَّج من سارة، وهي أخته

- الشبهة العشرون ١٠٥

إنكار ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الجزيرة العربية، وبنائه الكعبة

- الشبهة الحادية والعشرون ١٠٨

ادِّعاء تباين القرآن المدني عن المكِّي بشأن إبراهيم عليه السلام؛ استمالة لليهود

- الشبهة الثانية والعشرون ١٢٠

الزعم أن إبراهيم عليه السلام شكَّ في قدرة الله على إحياء الموتى

www.kalemasawaa.com

- الشبهة الثالثة والعشرون ١٢٣

إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

- الشبهة الرابعة والعشرون ١٢٥

ادعاء أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام وليس إسماعيل عليه السلام

- الشبهة الخامسة والعشرون ١٢٩

ادِّعاء أن إسماعيل عليه السلام ليس نبيًّا من الأنبياء

- الشبهة السادسة والعشرون..... ١٣٢

ادِّعاء وجود صراع بين إسماعيل وإسحاق عليهما السلام

- الشبهة السابعة والعشرون..... ١٣٨

ادِّعاء أن النبوة مقصورة على إسحاق عليه السلام وولده دون إسماعيل عليه السلام

- الشبهة الثامنة والعشرون ١٤٠

الزعم أن لوطا عليه السلام عرض على قومه إتيان الفاحشة مع بناته

- الشبهة التاسعة والعشرون ١٤٤

التشكيك في توكُّل لوط عليه السلام حق التوكُّل على الله

- الشبهة الثلاثون ١٤٨

ادعاء وقوع الفحشاء في بيت لوط عليه السلام

- الشبهة الحادية والثلاثون ١٥٨

دعوى خطأ القرآن في قصة تآمر إخوة يوسف عليه السلام عليه والمكر به

- الشبهة الثانية والثلاثون ١٦١

ادِّعاء كتمان يوسف عليه السلام للحق بعدم إظهار حريته عند بيعه

- الشبهة الثالثة والثلاثون ١٦٣

ادعاء وقوع السرقة من يوسف عليه السلام

- الشبهة الرابعة والثلاثون ١٦٦

ادِّعاء خطأ القرآن في اتهام يوسف عليه السلام بالهمِّ بالفاحشة

www.kalemasawaa.com

- الشبهة الخامسة والثلاثون ١٧٦

إنكار وليمة امرأة العزيز الواردة في قصة يوسف عليه السلام

- الشبهة السادسة والثلاثون ١٨٣

ادِّعاء أن يوسف عليه السلام أدان نفسه واتهمها بارتكاب الذنب

- الشبهة السابعة والثلاثون ١٨٦

دعوى اضطراب القرآن الكريم في حديثه عن يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز

- الشبهة الثامنة والثلاثون ١٩٣

ادِّعاء أنَّ استعانة يوسف عليه السلام بالساقي تخالف توكله على الله

- الشبهة التاسعة والثلاثون ١٩٦

ادِّعاء خطأ يوسف عليه السلام بطلبه الإمارة

- الشبهة الأربعون ١٩٩

ادِّعاء أن يوسف عليه السلام خان إخوته وأساء إلى أبيه بحبسه أخاه بنيامين

- الشبهة الحادية والأربعون ٢٠٥

دعوى خطأ القرآن في ذكر عدد مرات مجيء إخوة يوسف عليه السلام لمصر وسجنه أخاه بنيامين

- الشبهة الثانية والأربعون ٢٠٩

إنكار حقيقة قميص يوسف عليه السلام، ومعجزة شفاء يعقوب عليه السلام

- الشبهة الثالثة والأربعون ٢١٣

الفهم الخاطئ لسجود إخوة يوسف له عليه السلام

- الشبهة الرابعة والأربعون ٢١٦

ادِّعاء أن نبي الله أيوب عليه السلام كان غضوبًا

- الشبهة الخامسة والأربعون ٢١٩

ادِّعاء أن ذا الكفل عليه السلام ليس نبيًّا

- الشبهة السادسة والأربعون ٢٢١

دعوى وقوع سيدنا يونس عليه السلام في المعصية برحيله عن قومه

www.kalemasawaa.com

- الشبهة السابعة والأربعون ٢٢٦

دعوى اضطراب القرآن في مسألة نبذ يونس عليه السلام بالعراء

- الشبهة الثامنة والأربعون ٢٣٠

ادِّعاء أن القرآن أخطأ في إخباره أن من عثر على موسى عليه السلام هي امرأة فرعون

- الشبهة التاسعة والأربعون ٢٣٣

ادِّعاء أن موسى عليه السلام قتل قبطيًّا لمجرد أن رجلا من شيعته استنصر به عليه

- الشبهة الخمسون ٢٣٥

إنكار استئجار الرجل الصالح لموسى عليه السلام

- الشبهة الحادية والخمسون ٢٣٧

ادِّعاء أن موسى عليه السلام اعتذر عن حمل الرسالة، وطلب من الله أن يكلِّف بها هارون عليه السلام

- الشبهة الثانية والخمسون ٢٤٠

الزعم أن شريعة موسى عليه السلام هي أولى الشرائع للبشر

- الشبهة الثالثة والخمسون ٢٤٢

الزعم أن القرآن خالف التوراة في عدد ألواح موسى

- الشبهة الرابعة والخمسون ٢٤٦

دعوى خطأ القرآن الكريم بشأن إيمان سحرة فرعون

- الشبهة الخامسة والخمسون ٢٥١

دعوى مخالفة القرآن الكريم التوراة في عدد آيات موسى

- الشبهة السادسة والخمسون ٢٥٣

ادِّعاء أن موسى عليه السلام استهان بكلام الله واعتدى على نبي الله هارون عليه السلام

- الشبهة السابعة والخمسون ٢٥٥

ادِّعاء أن موسى وهارون لم يكونا مؤمنَيْنِ، وأن موسى عليه السلام وَصَّى قومه بسرقة المصريين

- الشبهة الثامنة والخمسون ٢٥٩

ادِّعاء أن موسى عليه السلام كان وصيًّا على محمد ﷺ وأمته

www.kalemasawaa.com

- الشبهة التاسعة والخمسون ٢٦٣

استنكار تعلم موسى عليه السلام من الخضر

- الشبهة الستون ٢٦٧

توهم وقوع موسى عليه السلام في المعصية، لعدم وفائه بشرطه مع الخضر

- الشبهة الحادية والستون ٢٧٠

ادِّعاء أن موسى عليه السلام تعدى على ملك الموت بلطمه، وَفَقَأ عينه

- الشبهة الثانية والستون ٢٧٢

توهُّم وقوع الخلط في القرآن بشأن قصة قارون

- الشبهة الثالثة والستون ٢٧٥

ادِّعاء أن القرآن أخطأ في ذكر عقيدة ذي القرنين

المصادر والمراجع ٢٨٣

www.kalemasawaa.com

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... وبعد؛

فإن الله ﷻ ما خلق الخلق ليعتز ويتفاخر بهم، أو لينتفع منهم بقضاء حوائج وتحقيق مصالح، حاشاه ﷻ، تقدست أسماؤه وتنزهت صفاته، بل هو الغني والكل إليه فقير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ (فاطر)؛ وإنما خلق الله عباده من أجل غاية سامية هي عبادته ﷻ، وأمرهم أن يكون ذلك منشودهم ووظيفتهم في الحياة، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ (الذاريات)، وأخذ عليهم الميثاق بذلك وهم أمثال الذَّر في صلب أبيهم آدم، فأشهدهم على ألوهيته وربوبيته وعبوديتهم له، فشهدوا وأقرّوا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ (الأعراف)، ولكن هل يدرك الإنسان أن الله خلقه لعبادته وطاعته وهو لا يذكر هذا الميثاق الذي أخذ عليه وهو في ظهر أبيه آدم؟! أي نعم ذلك ميثاق مكنون مَرْكوز[1] في أصل فطرته، ولكنه لا يذكره.

وربما أنعم الإنسان النظر فتوصل بعقله إلى وجود الخالق، ولكن كيف يعرف حقه عليه؟! وكيف يؤدي هذا الحق على الوجه الصحيح؟!

لا شك أن معرفة هذا الحق وتأديته لن تكون إلا عن طريق وسيلة تأخذ من الخالق وتخبر عن أسمائه وصفاته، وتتناسب مع الطبيعة البشرية، وليس ذلك إلا عن طريق وحي السماء، فالعقل البشري لا يستغني عن الوحي مهما ترقَّى وتزكَّى، إذ إن للعقل البشري حدوده التي لا يتعداها، وهناك أمور لا يستطيع إدراكها؛ لأنها غير داخلة في مجاله، فلا بد فيها من الوحي الذي هو للعقل كنور الشمس أو الضوء للعين، فإذا حُجِبَ الوحي لم ينتفع الإنسان بعقله.

ويصف الإمامُ ابنُ تيميةَ الرسالاتِ الإلهيةَ في ضرورتها للعباد، بأنها روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مُظْلِمَةٌ ملعونة إلا إذا ما طلعت عليها شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تُشرق في قلبه شمس الرسالة فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا

١. المَرْكوز: متأصِّل الوجود.

www.kalemasawaa.com

﴿يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأنعام).

ويوضح ابن القيم مدى حاجة الناس إلى الرسل فيقول: "فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرِضَتْ فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير".

وبعد ذلك نقول: لما كان العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر، وكانت هناك الأمور الغيبية التي لا يمكن للإنسان معرفتها إلا عن طريق الوحي، وعن طريق الشرع، كالإيمان بالله ﷻ، وبصفاته العليّة، والإيمان بالملائكة، وبالبعث والنشور... إلى غير ذلك من الأمور الغيبية، فقد اقتضت حكمة الله ﷻ ألا يدع الناس هَمْلًا [1] وألا يتركهم سُدًى [2]؛ فأرسل إليهم ما بين حين وآخر مبلغين عنه، يهدون الناس إليه ويدلونهم عليه، ويرشدونهم إلى مراضيه، ويحذرونهم من مساخطه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء).

وهؤلاء الرسل قد اختارهم الله من بين خلقه، ليكونوا نموذجًا للكمال، وعنوانًا للفضل، وحملة لمشاعل النور والضياء، وقادة لركب الحضارة الإنسانية على مدى الأزمان وكرِّ الدهور. اصطفاهم المولى جلت حكمته؛ ليكونوا هداة مصلحين، فاختارهم على علمه، ورباهم على عينه، وشرفهم بأكمل الأوصاف؛ فأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل، وسداد الرأي، وجعلهم أئمة وقدوة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الأنبياء)، ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ (الحج)، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ (مريم)، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنعام).

لذلك جاء هذا العمل في جزأين، يذبُّ [3] عن أنبياء الله ورسله الكرام تلك المحاولات البذيئة التي تَنْسِبُ إليهم مُنْكَرًا من الأفعال المشينة، وتلصق بهم قدرًا فاحشًا من الصفات الرذيلة، بهتانًا [4] وزورًا، للنيل من منزلتهم السامية، والحطِّ من أقدارهم، بهدف صرف الناس عن اتباع مناهجهم في الهدى والإيمان، والحَيْلُولة [5] دون تَرَسُّمِ خطاهم في الخير والإحسان، فتفسد البشرية في أخلاقها وقيمها، وتضطرب الموازين في عقول الناس وأفهامهم، حين تشوه

١. الهَمْل: المتروك.
٢. سُدًى: مهمل.
٣. يَذبُّ: يدافع.
٤. البهتان: الظلم.
٥. الحيلولة: الحجز والمنع.

www.kalemasawaa.com

القدوة في عيونهم.

ومما يدعو للأسف الشديد أن جُلَّ الافتراءات التي رُمِي بها الأنبياء والمرسلون كانت من أهل الكتاب[١] الذين استأمنهم الله على كلامه فحرفوه، واشتروا به ثمنًا قليلًا فبئس ما يشترون، وربما اتبعهم شِرْذِمة [٢] من العَلْمانيِّين[٣] والإلحاديِّين[٤] في العصر الحديث، بهدف إنكار الأديان جملة وتفصيلًا، وكلٌّ يبكي على لَيْلَاهُ.

فأما أهل الكتاب وخاصة اليهود فإنهم يودُّون تبرير إفسادهم في الأرض؛ فحرفوا دينهم وشوَّهوا سير الأنبياء؛ إيهامًا للناس وتزيينًا لأنفسهم أنهم يتبعون في ذلك الرسل والشرائع، وأما العلمانيون فقد وجدوا في تلك الصورة المشوهة عن الأنبياء في اليهودية والنصرانية مسوغًا للخروج من رِبْقَة [٥] الأديان، والفسوق عن ضوابط الأخلاق وقيودها؛ لذا كانت الأمة الإسلامية هي المدافعة عن الأنبياء والرسل، المُشِيدَة بمآثرهم، فهي وارثة الأنبياء المقيمة لدينهم، وهذا من فضل الله عليها، ومن شمائل أمة الإسلام على سائر الأمم.

أما عن أهم خلاصات المناقشات حول هذه الشبهات الموجَّهة للأنبياء والرسل في هذه الدراسة فهي:

- النبوة هبة ربانية وفضل إلهي، يهبها الله لمن يشاء من عباده، ويختص بها من يريد من خلقه، وهي لا تُدرك بالجد والتعب، ولا تُنال بكثرة الطاعة والعبادة، أو بطريق الرياضة النفسية والعزم والمثابرة، إنما هي بمحض الفضل

---

١. مما نسبه اليهود إلى الأنبياء من قبائح:

- زعموا أن نبي الله هارون صنع عجلًا وعبده مع بني إسرائيل. (الخروج ٣٢: ١).
- أن إبراهيم خليل الرحمن قدَّم امرأته سارة إلى فرعون حتى ينال الخير بسببها. (التكوين ١٢: ١٣).
- أن لوطًا شرب الخمر حتى سكر، ثم قام على ابنتيه فزنا بهما الواحدة تلو الأخرى. (التكوين ١٩: ٣١).
- أن يعقوب سرق مواشي من حميه وخرج بأهله خلسة دون أن يعلمه . (التكوين ٣١: ١٧).
- أن روأبين زنى بزوجة أبيه يعقوب، وأن يعقوب علم بهذا الفعل القبيح وسكت. (التكوين ٣٥: ٢٢).
- أن داود زنى بزوجة رجل من قواد جيشه، ثم دبر حيلة لقتل الرجل، وبعدئذ أخذ داود الزوجة وضمَّها إلى نسائه فولدت له سليمان. (صموئيل الثاني١١: ٢).
- أن سليمان ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها المعابد. (الملوك الأولى ١١: ٤).

هذه بعض المخازي والقبائح والكبائر التي نسبها اليهود إلى الأنبياء الأطهار، وحاشاهم مما وصفوهم به، ولكنها النفوس المريضة التي تَنْسِبُ إلى خيرة الله من خلقه القبائح، ليسهل عليهم تبرير ذنوبهم ومعايبهم عندما ينكر عليهم منكر أو يعترض عليهم معترض.

أما النصارى فإضافة إلى تصديقهم التوراة المحرفة فقد نسبوا إلى الأنبياء قبائح أيضًا منها:

- أن عيسى من نسل سليمان بن داود، وأن جدهم فارص الذي هو نسل الزنا من يهوذا بن يعقوب. (متى ١: ١ ـ ١٦).
- أن يسوع أهان أمه أمام جمع من الناس. (يوحنا ٢: ٤).
- أن يسوع شهد بأن جميع أنبياء بني إسرائيل هم سراق ولصوص. (يوحنا١٠: ٨)، هذا فيض من غيض مما تطفح به تلك الأناجيل المحرَّفة من وصف الأنبياء والمرسلين بما هم بريئون منه.

٢. شِرْذِمة: طائفة قليلة.

٣. العَلْمانيُّون: الذين يُنسبون إلى العلمانية، وهي مذهب يخرج الاعتبارات الدينية من العلاقات المدنية والتعليم العام.

٤. الإلحاديُّون: جمع إلحادي، وهو مَنْ يُنْكِر الألوهية، ويرفض أدلتها.

٥. الرِّبْقَة: العَقْد.

www.kalemasawaa.com

الإلهي: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ (البقرة)، فالأنبياء هم صفوة البشر وخِيرة الخلق.

• وظيفة الرسل هي البلاغ والإنذار، ودعوة الخلق إلى الإيمان بوحدانية الله وعبادته وحده: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء)، وذلك لئلا يبقى لأحد حجة على الله ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء)، وكان لا بد أن يكون المبلِّغ للأوامر الإلهية إلى البشر واحدًا منهم، ليمكن الأخذ عنه؛ لذا اختار الله الرسل من البشر، وقد أدى الرسل الكرام هذه الوظيفة على أكمل الوجوه فلم يتأخر واحد منهم عن تبليغ دعوة الله، وإقامة الحجة وإصلاح النفوس وتزكيتها، وتقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة، وسياسة الأمم وتدبير أمورها بما يتفق مع منهج الله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء).

• الرسل والأنبياء بشر من الناس، يحتاجون إلى ما يحتاج إليه الناس، من الطعام والشراب والتناسل وسائر أعمال الناس، ولكنهم معصومون، وعصمتهم لا تعني أنَّ فيهم من صفات الألوهية شيئًا، لذلك فإن الرسل يتبرءون من الحَول والطَّول [1]، ويعتصمون بالله الواحد الأحد، ولا يدَّعون شيئًا من صفات الله ﷻ، قال ﷻ مبينًا براءة عيسى مما نسب إليه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة).

• لقد اختار الله الرسل ليكونوا سفراءَ بينه وبين عباده؛ ولذا اقتضت حكمته العلية أن يجعلهم أكملَ البشر خَلْقًا وأفضلَهم علمًا وأشرفَهم نسبًا وأعظمَهم أمانة، وأن يحفظهم بعنايته، ويَكْلَأهم برعايته، ويربيهم على عينه، فهم قدوة للناس، وفيهم الأسوة الحسنة، فلا بد أن يمتازوا بالصدق والأمانة، والفطانة والسلامة من العيوب المنفرة في تبليغ الرسالة.

• إذا تتبعنا القرآن الكريم في حديثه عن النبوة والأنبياء نجد فيه الذكر العاطر، والثناء المجيد لهؤلاء الصفوة المختارة لحمل مشعل الهداية والإصلاح، وقيادة ركب الإنسانية إلى طريق السعادة وشاطئ الأمن والسلام، فتطالعنا صور ونماذج لم يخلق الله أجمل منها في الكون ـ على خلاف صورتهم القبيحة ونماذجهم السيئة التي ترسمها لهم الكتب المحرَّفة ـ ونرى أسلوب القرآن الكريم في الحديث عنهم أسلوبًا يتدفق بالحياة، ويَفِيض [2] بالبشر

---

١. الحَول والطَّول: الحول: هو القوة والقدرة. والطول: الفضل والغنى والمنّ.

٢. يَفِيض: ينتشر منه بكثرة.

www.kalemasawaa.com

ويَنُمُّ عن[١] الحب والإيثار، فيذكرهم بالثناء الجميل، ويصفهم بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية، كل ذلك ليدل على أنهم الصفوة والقدوة والمثل العليا الكاملة للبشرية.. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (الأنعام).

• الأمة الإسلامية مجمعة على عصمة الأنبياء والرسل من الشرك والمعاصي والذنوب وقبائح العيوب، كالزنا والسرقة والمخادعة وصناعة الأصنام وعبادتها والسحر ونحو ذلك، وقد برَّأ كتاب الله وسنة رسوله أنبياء الله ورسله من افتراءات المفترين، ومما نسبه إليهم المحرِّفون لكتبهم، فإن الأنبياء قد امتازوا ببعدهم عن المعاصي وعُزُوفهم[٢] عن الشهوات، واجتنابهم لكل ما يُخِلُّ بالمروءة، أو يُهدر الكرامة، أو يَحطُّ من قدر الإنسان، فإنهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أكمل الناس خُلُقًا، وأزكاهم عملًا وأطهرهم نفسًا وأعطرهم سيرة؛ لذا أمر الله بالتخلق بأخلاقهم والسير على مناهجهم في جميع شئون الحياة. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنعام)[٣].

• لقد امتازت دعوة الأنبياء بأن مصدرها الوحي الإلهي الذي يُصْطَفَون له ويُكْرَمون به، فلا يُقاسون أبدًا على الحكماء أو الزعماء أو المصلحين، وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية، وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل، والذين هم نتيجة بيئتهم، وغرس حكمتهم، وصدى محيطهم، ورد فعل لما كان يَجِيش[٤] به مجتمعهم من فساد وفوضى، قال ﷻ: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (يونس)، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ (الأحقاف)؛ لذا فإن الرسول لا يستطيع أن يحدث تغييرًا أو تبديلًا أو تَحْوِيرًا[٥] في الرسالة وأحكام الله، فهو لا يخضع لعوامل نفسية أو حوادث وقتية خارجية، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ (يونس)[٦].

• كما امتازت دعوة الأنبياء أيضًا بأنهم لا يطلبون الأجر عليها من أحد، إنما أجرهم على الله في بساطة وعدم تكلف، فهم يسيرون مع الفطرة، ويخاطبون الناس على قدر عقولهم، إذ هي دعوة واضحة الهدف والغاية، لا تعقيد فيها ولا غموض: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (ص)، ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ

---

١. ينُمُّ عن: يدل على.

٢. عُزُوفهم: انصرافهم وبعدهم.

٣. اقتَدِه: اقتدى بهم وتأسَّى بهم.

٤. يَجِيش: يمتلئ.

٥. التَّحْوِير: النقص.

٦. تِلْقاء نفسي: من عند نفسي.

www.kalemasawaa.com

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾ (يوسف).

• أفضل الرسل هو خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، فهو آخر الأنبياء في البعثة وأفضلهم في المنزلة والرتبة.. ومن أعظم الدلائل على ذلك أنه لم يُبعث نبي قطُّ إلا وقد أخذ الله ﷻ عليه العهد والميثاق إن أدرك محمدًا ﷺ في حياته ليؤمنن به، وليكونن من أنصاره وأتباعه، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ (آل عمران)، والأدلة على ذلك كثيرة في كتب أهل الكتاب رغم تحريفها، إلا أنه قد بقيت إشارات واضحة تبشر ببعثة أفضل الأنبياء والمرسلين وخاتمهم، غفل عنها المحرفون ولم ينتبهوا إليها كما حرَّفوا النصوص الصريحة باسمه ﷺ؛ حقدًا وحسدًا: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ (البقرة).

• من أصول الإيمان التصديق الجازم بالرسالات التي أنزلها الله إلى عباده بواسطة رسله وأنبيائه، والتصديق أنهم بلغوها للناس، فالإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾ (آل عمران)، ومن لم يؤمن بالرسل فقد ضل ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا، ولم يَقْدُرِ الله حق قدره: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)﴾ (النساء)، وقال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ (٩١)﴾ (الأنعام) [1]، وكذلك الكفر برسول واحد هو كفر بجميع الرسل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١)﴾ (النساء).

هذه هي أهم الخلاصات التي انتهت إليها هذه الدراسة التي دارت حول الشبهات الموجهة للأنبياء والرسل، وقد حاولنا أن تتَّسم معالجتنا لها بالحوار الهادئ المستنير، والمقارنة الموضوعية بين النصوص الدينية التي تتحدث عن الأنبياء والرسل في الأديان السماوية كلها، ثم تركنا الحكم للعقل المنصف، الذي قطع جازمًا بعصمة الأنبياء المرسلين من المعاصي، ونزاهتهم من القبائح، وبراءة ساحتهم من المنكرات، وأن النصوص التي طعنت في عصمتهم ليست إلهية، وأن كلماتها ليست ربانية، وأن الكتاب المشتمل عليها ليس سماويًّا خالصًا، وذلك لأن الأنبياء والمرسلين اُختيروا لهداية الناس، فلا بد أن يكونوا أسوة حسنة، وقدوة صالحة للبشر حتى تثمر توجيهاتهم، ويتقبل الناس دعوتهم؛ إذ

١. ما قَدَروا الله حقَّ قَدْره: لم يُعَظِّموه حقَّ التعظيم.

www.kalemasawaa.com

كيف ينادون بالإصلاح وهم مفسدون؟! وكيف يدعون غيرهم للخير وهم عنه بعيدون؟! وبهذا قد تبيَّن الرشدُ من الغي والحقُّ من الباطل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران).

www.kalemasawaa.com

www.kalemasawaa.com

الشبهة الأولى

ادعاء تناقض القرآن في مادة خلق آدم عليه السلام، ومخالفته لما ورد في السنة النبوية(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن مضطرب في حديثه عن مادة خلق آدم عليه السلام، ويستدلون على ذلك بقوله الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران)، وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (المؤمنون)، وقوله عز وجل: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ (الصافات)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ (الحجر). وقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ (النور). ففي الموضع الأول يذكر أن مادة خلق آدم هي التراب، وفي الثاني أن مادة الخلق هي الطين، وفي الثالث أن مادة الخلق هي الطين اللازِب[1]، وفي الرابع أن مادة الخلق هي الحَمَأ[2] المَسْنون[3]، وفي الخامس أن مادة الخلق هي الماء، في حين أن السنة ذكرت أن الله خلق آدم علي صورته.

وهم بذلك يشككون في اتساق آيات القرآن الكريم من جهة، ويزعمون مخالفتها للسنة النبوية من جهة أخرى.

وجها إبطال الشبهة:

١) الفهم السليم لمراحل خلق آدم من: التراب اليابس والطين، والطين المتماسك، والحمأ والصلصال، وطبيعة كل مرحلة ـ يزيل هذا الادعاء الباطل بوقوع الاضطراب في القرآن.

٢) سبب ورود حديث خلق آدم وتأويلات العلماء والمفسرين له يثبتان عدم التشبيه بين آدم عليه السلام والله عز وجل ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ والحديث خبر آحاد من المتشابه الذي يرد إلى المحكم قطعي الثبوت، وهو القرآن الكريم، وعليه فلا تعارض بين القرآن والسنة.

التفصيل:

أولا. الفهم الصحيح لمراحل خلق آدم يزيل هذا الادعاء:

إن حديث القرآن الكريم عن خلق آدم موزع في سور القرآن الكريم: (آل عمران، والنور، والحجر، والصافات، وغيرها)، وهذا لا يعني تعارضًا أو اضطرابًا، فالآيات على تعددها تذكر مراحل تكوُّن آدم، وعناصر تكوينه، فحين يذكر القرآن الكريم أن الله عز وجل خلق آدم عليه السلام من تراب فهذا حق؛ لأن التراب عنصر تكوينه الأول، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران)، وعندما يذكر أن آدم خُلق من طين فهو حق

(*) البيان في تحليل وتوجيه الإشكالات التي تثار حول قصص القرآن، د. عاطف قاسم المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠٤م.

١. اللازِب: اللاصق.

٢. الحَمَأ: الطين الأسود المنتن.

٣. المَسْنون: المتغير.

www.kalemasawaa.com

أيضًا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (المؤمنون) ولا تناقض بين هذا النص وسابقه؛ فإن الماء إذا صُبَّ على التراب صار طينًا، وقال الله ﷻ أيضا: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ (النور)، وعندما نقرأ قوله ﷻ: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ (الصافات)، فهذا حق أيضًا؛ لأن الطين إذا مكث فترة فإنه يصير لازبًا؛ إذ إن لازبًا بمعنى لاصقًا، وإذا قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الحجر)، فهذا حق، فإن الطين إذا مكث فترة صار يابسًا، فكان صلصالًا، والطين إذا مكث فترة صار أسود متغيرًا، وذلك هو الحمأ، ثم كان مسنونًا.

قال الإمام النَّسفي: "وفي الأول كان ترابًا، فَعُجِنَ بالماء فصار طينًا، فمكث فصار حمأ، فصار سلالة، فصُوِّرَ، ويَبُسَ فصار صلصالًا"؛ ومن ثم فلا تناقض بين هذه المراحل.

ولقد أخبرنا الله ﷻ في كتابه العزيز أنه خلق آدم من تراب شأنه شأن عيسى عليه السلام، وصفته في خلق الله إياه على غير مثال سبق إلا أن آدم قد خُلِقَ من تراب، أي: من غير أم ولا أب، فهو في الإبداع أقوى وأعظم. وقد قال ﷻ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ (آل عمران).

ثم كوَّنه تكوينًا آخر، ذكر أطواره جملة في آيات أخر، طين ثم صلصال من حمأ مسنون، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الحجر)، وقال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ (السجدة).

والصلصال: هو الطين اليابس، والحمأ: هو الطين الأسود، والمسنون: هو المتغير بسبب التفاعل الكيميائي، وقد شُبِّهَتْ طينةُ آدمَ في يبسها وصلصلتها بالفخار؛ لأن الفخار ـ كما يقول د. محمد وصفي ـ لا يُصنَع ولا يُتكوَّنُ إلا من طين غني بالعناصر التي يتركب منها الإنسان، وينشأ منها النبات.

إذن فعدد الأطوار التي مر بها آدم عليه السلام قبل نفخ الروح فيه خمسة على الجملة لا على التفصيل هي:

١. طور التراب اليابس الذي لا حِراك فيه، ولا حياة.

٢. طور الطين الذي لم تتفاعل عناصره بعد.

٣. طور الطين المتماسك الذي أشار إليه سبحانه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ (الصافات).

٤. وما لبث هذا الطين حتى اسود وتفاعلت عناصره، فكأنه حمأ.

٥. طور الصلصال، فقد يبس هذا الطين ـ بعد أن تفاعلت عناصره ـ يبوسة تامة، حتى صار له رنين كرنين الفخار.

وبين كل طور من هذه الأطوار أطوار لا يعلمها إلا الله. ثم سَوَّاه الله ونفخ فيه من روحه؛ أي من سره المكنون، فصار إنسانًا سويًّا مزودًا بالعقل والعلم، وبكل المؤهلات التي تجعله قادرًا بإذنه ﷻ على تأدية وظيفته، التي خلقه من أجلها.

www.kalemasawaa.com

وقصة خلق آدم هي قصة خلق البشرية كلها، فهو مخلوق من طين وذريته مخلوقون من طين أيضًا؛ إذ إن النطفة التي خلقوا منها هي من الطين على الحقيقة، فمن الطين كان النبات، ومن النبات كان المني، ومن المني كانت النطفة.

قال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ ﴾ (الأنعام)، أي: ابتدأ خلقكم وخلق أبيكم من طين، وقد عَرَفَ العلماء في هذا العصر أن الطين يحمل عناصر كثيرة تبلغ في جملتها تسعين عنصرًا يحمل النبات منها جملة، فإذا أكله الإنسان تحولت بعض العناصر إلى منويات، ومن هذه المنويات تتكون النطف، فتكون هذه النطف حاملة لخلاصة صالحة من هذه العناصر، يسميها الله ﷻ "سلالة" في قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ﴾ (المؤمنون)[١].

تلك هي مراحل خلق الإنسان الأول عبر بعض سور القرآن الكريم، توالت فيها وتتابعت وتكاملت معاني المصطلحات: التراب، الماء، الطين، الحمأ المسنون، الصلصال، دونما أية شبهة للتعارض أو التناقض، إذن فالمراحل السابقة لآدم عليه السلام بالأصالة، ولذريته بالتبعية.

ثانيًا. سبب ورود الحديث و تأويلات العلماء له يثبتان عدم التشبيه والتجسيم:

إن حديث رسول الله ﷺ: "خلق الله آدم على صورته"[٢] له سبب لم يذكره الراوي اختصارًا، ذلك أن النبي ﷺ مر برجل يضرب ابنه أو عبده، في وجهه لطمًا، ويقول: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فقال ﷺ: "إذا ضرب أحدكم فليتجنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته"[٣]. وإنما قال النبي ﷺ ذلك له؛ لأنه سمعه يقول: "قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك". بدليل أنه نهى عن ذلك بقوله: "ولا تقل قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك"[٤]. وذلك سب للأنبياء، والمؤمنين، فزجره عن ذلك، وخص آدم بالذكر؛ لأنه هو الذي ابتدِئت خِلْقة وجهِه على الحد الذي يُحتذى عليها من بعده، كأنه ينبهه على أنك قد سببت آدم، ومن وَلَدَ، مبالغة في الردع له عن مثله[٥].

وللعلماء في تأويل الحديث وجوه أخرى أشهرها وأرجحها ما تقدَّم، وفَهْمُ الحديث على أن الضمير يعود على لفظ الجلالة فَهْمٌ ضعيف إذا الضمير في "صورته" يعود إلى أقرب مذكور وهو آدم، وإن كان للعلماء مخارج

---

١. انظر: أطوار الخلق وحواس الإنسان، موسوعة ما فرطنا في الكتاب من شيء، د. أحمد شوقي إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٩: ٣٢.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب بدء السلام (٥٨٧٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل ... (٧٣٤٢).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٧٣١٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الحظر والإباحة (٥٦٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٦٢).

٤. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٧٤١٤)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب الخدم والمماليك، باب لا تقل قبح الله وجهه (١٧٣)، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (٥١٩).

٥. مشكل الحديث وبيانه، ابن فورك، تحقيق: د. موسى محمد علي، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٤٨، ٤٩ بتصرف يسير.

www.kalemasawaa.com

وتأويلات في ذلك بما يدفع التشبيه، والتجسيم الذي لا تقره النصوص الصريحة القاطعة في القرآن، كقوله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ (الإخلاص)، وقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، وهما من الآيات المحكمات قطعية الثبوت، والحديث السابق، وإن كان صحيحًا فهو خبر آحاد، وهو من المتشابه، والمتشابه يرد إلى المحكم ويفهم على ضوئه[1].

ويعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لهذا الحديث فيقول: "أما من يزعمون تناقض هذا الحديث مع قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ (الشورى)، فإن يسر الله لهم الجمع، فليجمعوا، وإن لم يتيسر؛ فليقولوا كما قال الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧)، وعقيدتنا أن الله لا مثيل له؛ فبهذا تسلم من الزيغ والضلال.

هذا كلام الله تعالى، وهذا كلام رسوله ﷺ، والكل حق، ولا يمكن أن يكذِّب بعضه بعضًا؛ لأنه كله خبر وليس حكمًا كي يُنْسَخَ، فأقول: هذا نفي المماثلة وهذا إثبات الصورة؛ لأن من قال: "إن الله خلق آدم على صورته"[2] رسول الذي قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. والرسول لا يمكن أن ينطق بما يُكذِّب القرآن، والذي قال: "خلق آدم على صورته" هو الذي قال: "أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر"[3].

فهل يعتقد هؤلاء أن الذين يدخلون الجنة على صورة القمر من كل وجه، أم أنهم على صورة البشر، لكن في الوضاءة والحسن، والجمال، واستدارة الوجه، وما أشبه ذلك مما هو على صورة القمر، لا من كل وجه؟!

فإن قلنا بالأول؛ فمقتضاه أنهم دخلوا، وليس لهم أعين، وليس لهم أنوف وليس لهم أفواه، وإن شئنا قلنا: دخلوا وهم أحجار.

وإن قلت بالثاني؛ زال الإشكال، وتبيَّن أنه لا يلزم من كون الشيء على صورة الشيء أن يكون مماثلًا له من كل وجه.

وإن أبى هؤلاء المدَّعون إلا المماثلة، فهناك جواب آخر، وهو أن الإضافة هنا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه؛ فقوله: "على صورته"؛ مثل قوله ﷻ في آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ (ص: ٧٢)، ولا يمكن أن يكون الله ﷻ قد أعطى آدم جزءًا من روحه، بل المراد الروح التي خلقها الله ﷻ، لكن إضافتها إلى الله بخصوصها من باب التشريف؛ كما نقول: عباد الله؛ فيشمل الكافر، والمسلم، والمؤمن، والشهيد، والصديق والنبي.

لكننا لو قلنا: محمد عبد الله؛ فهذه إضافة خاصة، ليست كالعبودية السابقة. فقوله: "خلق آدم على

---

١. المرجع السابق، ص٥٥ بتصرف.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، النهي عن ضرب الوجه (٦٨٢١).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر (٧٣٢٩).

www.kalemasawaa.com

صورته"؛ يعني: صورة من الصور التي خلقها الله تعالى وصورها؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ (الأعراف)، والمصوَّر آدم، إذن فآدم على صورة الله؛ يعني: أن الله هو الذي صوره على هذه الصورة التي تعد أحسن صورة في المخلوقات، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (التين)، فإضافة الصورة إلى الله تعالى من باب التشريف، كأنه ﷻ اعتنى بهذه الصورة، ومن أجل ذلك لا تضرب الوجه؛ فتعيبه حسًّا، ولا تقبحه فتقول: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك؛ فتعيبه معنًى؛ من أجل أنه الصورة التي صورها الله وأضافها إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا؛ أي: لا تقبحها بعيب حسي، ولا بعيب معنوي، وهذا التأول: إضافة الصورة إلى الله تعالى إضافة تشريف له وله نظير، كما في: بيت الله، وناقة الله، وعبد الله؛ لأن هذه الصورة ـ أي صورة آدم ـ منفصلة بائنة من الله، وكل شيء أضافه الله إلى نفسه وهو منفصل بائن عنه؛ فهو من المخلوقات؛ فحينئذ يزول الإشكال.

ولكن إذا قال قائل: أيهما أسلم للمعنى الأول أم الثاني؟ قلنا: المعنى الأول أسلم، مادمنا نجد أن لظاهر اللفظ مستساغًا في اللغة العربية وإمكانًا في العقل؛ فالواجب حمل الكلام عليه، ونحن نجد أن الصورة لا يلزم منها مماثلة الصورة الأخرى، وحينئذ يكون الأسلم أن نحمله على ظاهره.

وإذا قالوا: ما الصورة التي تكون لله ويكون آدم عليها؟ قلنا: إن الله ﷻ له وجه، وله عين، وله يد، وله رجل ﷻ، لكن لا يلزم من أن تكون هذه الأشياء مماثلة للإنسان؛ فهناك شيء من الشبه، لكنه ليس على سبيل المماثلة؛ كما أن الزمرة الأولى من أهل الجنة فيها شبه من القمر، لكن بدون مماثلة.

وبهذا يصدق ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة؛ من أن جميع صفات الله ﷻ ليست مماثلة لصفات المخلوقين؛ من غير تحريف ولا تَعْطيل[1]، ومن غير تَكْييف[2] ولا تمثيل[3].

الخلاصة:

- الفهم الخاطئ لمراحل تكوُّن آدم، وتعدد صور خلْقِه أدَّى إلى هذا الزعم، فالمراحل التي ذكرها القرآن هي: طَوْر التراب اليابس الذي لا حِرَاك فيه ولا حياة، ثم طَوْر الطين الذي لم تتفاعل عناصره بعد، ثم طَوْر الطين اللازب، ثم طور الحمأ المسنون، ثم مرحلة التسوية، ثم نفخ الروح... هذه هي مراحل تكوُّن الخلق كما اقتضتها حكمة الله وقدرته، وإن تحدث القرآن عن تلك المراحل في سور القرآن المختلفة فلا يعني هذا تعارضًا أو اضطرابًا، إنما هي عملية مرحلية حتى وصلت إلى الصورة النهائية.
- بالرجوع إلى سبب ورود الحديث ـ الذي أغفله الراوي اختصارًا ـ يتضح لنا أن النبي ﷺ أراد زجر الرجل؛ إذ إن سبَّ الغلام وتقبيح وجهه إنما هو سب للأنبياء والصالحين، وقد خصَّ النبي ﷺ آدم عليه السلام اعتبارًا بالأصل الأول.

---

١. التَّعطيل: مذهب يُنكر صفات الله ﷻ.

٢. التَّكييف: هو تعيين كُنْه الصفة؛ يقال: كيَّف الشيء؛ أي: جعل له كيفية معلومة.

٣. شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، ابن العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ، ج١، ص١٠٩ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

• الحديث خبر آحاد وَرَدَ في المتشابه، والمتشابه من خبر الآحاد يُرَدُّ إلى قطعي الثبوت؛ أي القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والرد إلى الآية يثبت عدم التعارض ومن ثم فلا إشكال.

الشبهة الثانية

الزعم أن الله لم يُكَرِّمْ آدم عليه السلام، ولم يأمر الملائكة بالسجود له(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن الله ﷻ لم يأمر ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام، ولم يرد تكريمه ولا تشريفه، بل إن الملائكة هي التي أرادت أن تشرفه بسجودها له دون أمر من الله، فحال بينهم وبين ذلك أن الله ﷻ جعل آدم عليه السلام ينام؛ فلم يتمكنوا من السجود له، ذاهبين من وراء ذلك إلى تجريد نبي الله آدم عليه السلام مما شرفه الله به من سجود الملائكة له.

وجها إبطال الشبهة:

١) الملائكة لا تفعل شيئًا دون أمر من الله ﷻ، وسجودهم لآدم عليه السلام أمر إلهي، وهو سجود تكريم، لا سجود عبادة.

٢) القرآن الكريم لم يذكر أن آدم عليه السلام كان نائمًا، وماذا يُجْدِي نومه من عدمه في شأن إثبات السجود ونفيه؟! وما تذكره التوراة من ذلك؛ لتحليل الخطيئة، وارتكاب المعاصي لا دليل عليه.

التفصيل:

أولا. الملائكة لا تفعل شيئًا دون أمر من الله ﷻ، وسجودهم لآدم أمر إلهي، فضلا عن كونه سجود تكريم لا سجود عبادة:

ما كان للملائكة أن تفعل شيئًا لم تؤمر به، فهم مَجْبُولون[1] على الطاعة، مفطورون عليها، لكن أمرهم الله بالسجود تتمة لصور التكريم التي خصَّ الله بها آدم، وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة وتعظيم، كما أننا يجب أن نعلم أن الحديث عن آدم والملائكة لا يخضع لاجتهاد عقلي، ولا لعلم تجريبي، ولا لاستقراء تاريخي، ولا طريق لمعرفته إلا النقل الصحيح من رسول موحًى إليه، ولا يتحقق ذلك إلا فيما جاءنا عن رسول الله ﷺ من القرآن الكريم، المقطوع بثبوته عن رسول الله، والمنقول إلينا بالتواتر القطعي الثبوت.

والقرآن الكريم صريح في أن الله ﷻ أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأن الملائكة استجابوا لأمر الله فسجدوا، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (البقرة)، وسجود الملائكة لآدم هو عين طاعة الله وعبادته، فقد سجدوا؛ لأن الله أمرهم بالسجود، فأطاعوا أمر الله، وهذا يتفق مع طاعة الملائكة المطلقة لأمر ربهم؛ لأنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (النحل).

(*) موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق بحث من المستشرقين، ترجمة نخبة من الأساتذة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١. المجبول: المطبوع.

www.kalemasawaa.com

وليس للملائكة هوى واجتهاد من قبل أنفسهم، فهذا يتناقض مع طبيعة جِبِلَّتهم وعبوديَّتهم لخالقهم، فهم ينتظرون أمر الله، فحق فيهم قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ (التحريم).

فما كان للملائكة أن تفعل ما لم تُؤْمر به، وما سجدت الملائكة إلا استجابة لأمره ﷻ، وهذه كرامة أخرى من كرامات الله تعالى لآدم عليه السلام، وهو ﷻ القائل: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ (البقرة).

والسجود في اللغة: التذلل والخضوع، ويطلق أيضًا على الانحناء من أجل التحية والتكريم كما في قوله ﷻ حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ (يوسف: ١٠٠).

ويطلق السجود في الشرع على وضع الجبهة واليدين، والركبتين، والقدمين على الأرض، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ.

وسجود الملائكة لآدم عليه السلام ليس من باب السجود لغير الله، ولا عبادة آدم من دون الله، إنه سجود لله في الحقيقة؛ لأن الله هو الذي أمرهم أن يسجدوا لآدم، أي هو الذي كلفهم بذلك، ولو كان عبادة لغيره لما أمرهم به ﷻ؛ لأن الله لا يأذن لأي مخلوق أن يعبد غيره، وعندما سجد الملائكة لآدم كانوا عابدين لله[١].

ولكي نفهم معنى العبادة نقول: "إن العبادة هي طاعة أوامر الله واجتناب نواهيه، فما قال الله لنا: افعلوا، فإننا نفعل، وما قال: لا تفعلوا، فإننا لا نفعل؛ لأن العبادة هي طاعة الخلق لخالقهم في أوامره ونواهيه؛ ولذلك عندما نذهب إلى الحج، فإننا نقبل الحجر الأسود في الكعبة، ونرجم الحجر الذي يمثل إبليس في مِنًى، نقبل حجرًا، ونرجم حجرًا، هذا هو معنى عبادة الله واتباع منهجه، كما أُمرنا نفعل، لا شيء مقدس عندنا إلاّ أمر الله ومنهجه؛ فالملائكة لم يسجدوا لآدم، ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم، وفرق كبير بين السجود لشيء، وبين السجود لأمر الله"[٢].

بيد أننا نوضح الأمر لمن التُبِس عليه قائلين: إن سجود الملائكة لآدم كان أمرًا إلهيًّا، وفي هذا إظهار لعلو شأنه عليه السلام، كما أن فيه تكريمًا لهذا النوع البشري؛ حيث أسجد الملائكة لأبيهم آدم عليه السلام، وقد خص الله آدم بأربع مزايا، هي آية الفضل وعنوان الشرف الرفيع وهي: خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وعلمه أسماء كل الأشياء[٣].

والسجود الذي فعلته الملائكة هو الانحناء على هيئة مخصوصة حسب طبيعة خِلقتهم، وقد أُمِرُوا به تعظيمًا له وتحية، وفي تعظيمه تشريف لذريته ـ أيضًا ـ وفيه تنبيه لأولي الألباب على وجوب شكرهم لله على هذه المنة[٤].

---

١. القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م، ص٣٠٨.

٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ج١، ص٢٥٤.

٣. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، مكة، ١٢٩٠هـ ص١١٩.

٤. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

www.kalemasawaa.com

ويدل هذا على أن السجود كان أمرًا إلهيًّا، ولم تفعله الملائكة من تلقاء ذاتها أو على هواها®.

ثانيًا. لم يذكر القرآن الكريم - وهو الحق المبين - أن آدم عليه السلام كان نائمًا، ثم ماذا يُجْدِي نومه من عدمه؟!

هذا، وقد أغفلت التوراة أمورًا حدثت بالفعل، منها: توبة آدمَ واستغفاره لتحليل الخطيئة، وارتكاب المعاصي. فأيهما نصدق: القرآن الكريم أم التُّرَّهَاتِ التوراتية؟!

فمن أخبرهم أن آدم عليه السلام حينما أراد الملائكة أن يسجدوا له كان نائمًا؟ وأي فائدة في نومه أو عدم نومه؟ أكان يمنعهم نومه من أن يسجدوا له؟! ثم إنه لا عبرة بما جاء في التوراة أو غيرها من الكتب السابقة إذا خالف القرآن الكريم، أو لم يُذْكَرْ فيه، فليست هذه الكتب هي التي أنزلها الله تعالى على رسله ﷺ ولكنها أوهام سطَّرتها أيدي البشر، وهذا بشهادة أهل هذه الكتب، واقرأ إن شئت نقد اسبينوزا للكتاب المقدس.

وكيف نؤمن بكتب لعبت بها الأيدي تبديلًا وتحريفًا فهؤلاء لم يسلم من عبثهم وافتراءاتهم[1] أيٌّ من أنبياء الله تعالى؛ فهذا آدم عليه السلام قد ذكر العهد القديم أنه بسبب مخالفته أَمْرَ ربِّه له بالامتناع عن الأكل من الشجرة لُعِنَت الأرض "ملعونةٌ الأرضُ بسببك". (التكوين ٣: ١٧)، فكيف يلعن الله الأرض بسبب مخالفة آدم التي لم تقع منه وهو في الأرض، وإنما كان في الجنة، وما ذنب الأرض في أن تصيبها لعنة بسبب معصية وقعت في غير عالمها؟!

لقد كان نزول آدم إلى الأرض وخروجه من الجنة جزاء معصيته، بِقَدَرٍ كَوْنِي سابق، فإنه ﷻ ما خلق آدم ليسكن الجنة، بل خلقه لِيَعْمُرَ[2] الأرض هو وذريته؛ قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) والجزاء إنما يستحقه من تقع منه المعصية دون غيره من البشر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (فاطر)[3].

ثم إذا كانت اللعنة قد أصابت الأرض بسبب مخالفة آدم، ألا تستحق أن ترفع عنها اللعنة من أجل طاعات البشر، ممن عاشوا فيها من الأنبياء والصديقين والصالحين، والعلماء العاملين، وكل من أطاع الله فوقها؟!

وكيف تُلعن الأرض بسبب معصية آدم وقد اختاره الله وذريته لسكناها وعِمَارَتِها دون الملائكة، وهم يسبحون بحمده ويقدسونه ﷻ؟!

والتوراة التي بأيديهم لم تذكر شيئًا عن توبة آدم عليه السلام، واستغفاره ربَّهُ من مخالفته ومغفرة الله له، في حين أن ذلك مُوَضَّحٌ في القرآن الكريم، وهو ما تقبله العقول السليمة إذ كيف تقع المخالفة من نبي ولا يندم

® في "**حقيقة سجود الملائكة لآدم**" طالع أيضًا: الوجه الرابع، من الشبهة الخامسة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي "**دعوى أن خيرية إبليس تمنعه من السجود لآدم**" طالع: الشبهة الرابعة والثلاثين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد إليها).

١. الافتراء: الكذب والاختلاف.

٢. يَعْمُر: يعيش فيها ويسكنها.

٣. ولا تَزِر وازِرة وِزْر أخرى: لا يُؤاخذ أحد بذنب غيره. المُثْقَلة: النَّفْس التي أثقلتها الآثام.

www.kalemasawaa.com

عليها ولا يتوب منها؟!

ثم إنه في إغفال التوراة توبةَ آدمَ تشجيع لذريته من بعده على التمادي في عصيانهم، وعدم الرجوع بالتوبة إلى ربهم، وهل بهذا تصلح الحياة؟ كلا[١]!

نخلص مما سبق إلى أن التوراة أغفلت ما يُفيد ذكرُه وذكرت ما لا يُفيد، وهذا يدلنا على أنها من صنع البشر، فلا ينبغي أن نصدق كل ما جاء بها خاصة إذا خالف القرآن الكريم؛ لأن القرآن هو الحق من الله المصدق لما سبقه من كتب قبل تحريفها وتبديلها من قِبَلِ البشر.

الخلاصة:

- ما كان للملائكة أن تفعل شيئًا لم تؤمر به، فهم مجبولون على الطاعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ (التحريم)[٢].

- لقد أمر الله الملائكة بالسجود تتويجًا لصور التكريم التي خصَّ الله بها آدم عليه السلام فقد جعله خليفته في الأرض، ونفخ فيه من روحه، وأمر ملائكته بالسجود له إجلالًا وتعظيمًا لشأنه، ولنسله من بعده، كما علمه الأسماء كلها. والحديث عن آدم والملائكة لا يخضع لاجتهاد عقلي، ولا استقراء تاريخي، بل السبيل إلى معرفته هو النقل الصحيح من رسول موحى إليه.

- لم يذكر القرآن الكريم ـ وهو الحق المبين ـ أن آدم كان نائمًا، ثم ماذا يجدي نومه من عدمه؟! هذا وقد أغفلت التوراة أمورًا حدثت بالفعل منها: توبة آدم واستغفاره لتحليل الخطيئة وارتكاب المعاصي من قبل نسله، كما ذكرت خطأً أن الله لعن الأرض بمخالفة آدم، وهذا ظلم، ومحالٌ على الله تعالى الظلمُ؛ لقوله في الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا"[٣].

فأيهما نصدق؛ القرآن الكريم المصون عن التحريف أم الترهات التوراتية المحرفة؟! والتي أقرَّ بتحريفها أهلها ودارسوها من أمثال اسبينوزا وغيره.

الشبهة الثالثة

ادِّعاءُ طَرْدِ آدم عليه السلام من الجنة لوقوعه في الخطيئة بأكله من الشجرة(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن آدم عليه السلام وقع في الخطيئة بأكله من الشجرة، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ (طه)[٤]، ويتساءلون: كيف

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص١٩٧: ١٩٩.

٢. قُوا أنفسكم: احفظوها.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٣٧).

(*) إظهار الحق، قساوسة وعلماء مستشرقون أشهروا إسلامهم، محمد عبد الحليم عبد الفتاح، القاهرة، ٢٠٠٥م.

® في "انتفاء وقوع الشرك من آدم وحواء" طالع: الشبهة السادسة، من هذا الجزء.

٤. غَوَى: ضلَّ سبيل الرشاد.

www.kalemasawaa.com

يتوافق هذا مع عصمة الأنبياء؟

وجها إبطال الشبهة:

١) استخلافُ الله لآدم ونزولهُ إلى الأرض ظاهرُه العصيان، بيد أن حقيقتَه وقوعُ مراد الله ﷻ بخلق الحياة على ظهر الأرض، وهذا لا يتنافى مع العصمة.

٢) ما فعله آدم بأكله من الشجرة، يعدُّ خطأً وليس خطيئة، وهو نسيان وغفلة أو فهم النهي على سبيل الإرشاد لا التحريم، وهذا لا يتنافى مع العصمة.

التفصيل:

أولا. الاستخلاف وانتقال آدم إلى الأرض حقيقته أن يقع مراد الله وليس بسبب عصيان آدم:

الأنبياء ـ عليهم السلام ـ هم أشرف الخلق وأزكاهم، وأتقاهم لله وأخشاهم له، ومقامهم مقام الاصطفاء والاجتباء، وواجبُ الخَلْقِ نحوهم التأسي والاقتداء بهم، فالواجب أن يُحفظ لهم هذا المقام، وأن يُنَزَّهُوا عن[1] مدِّ الألسن إليهم بالنقد والاتهام. غير أن نفوسًا قد غلبها الفسق، مَدَّت ألسنتها إلى الأنبياء بالعيب والتُّهم، فلم تدع نبيًّا دون أن ترميه بدعوى العيب والإثم تريد بذلك انتقاصهم، والحط من أقدارهم، بل والطعن في القرآن الكريم الذي ذكر أحوالهم، فكان الذب عن أنبياء الله ﷻ متعينًا؛ صونًا لدين الله، وحفظًا لحق أنبيائه، عليهم السلام.

والعصيان هو مخالفة الأوامر سواء أكانت صغيرة أم كبيرة، والاستشهاد بقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ (الجن) استشهاد فاسد؛ لأن إطلاق اللفظ على كبائر الذنوب لا ينفي إطلاقه على صغارها، ومثال ذلك: قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنعام)[2]، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لَمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢) شقَّ[3] ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه. قال: ليس ذلك إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣)[4]. وعلى هذا لا يكون آدم قد ارتكب كبيرة من الكبائر.

وهنا يُثار سؤالٌ مفاده: كيف يكون آدم نبيًّا معصومًا وقد خالف أمر ربه؟ وقال الله تعالى فيه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ (طه)[5]. وليس هناك جواب أحسن من جواب الله سبحانه حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ (طه)[6].

ولعل آدم عليه السلام ظن صدق إبليس في قسمه فما جرب من قبل كذبًا ولا خداعًا، أو ظن أنَّ النهي هو عن

---

١. يُنَزَّهُوا عن: يبعدوا عن.

٢. لَمْ يَلْبِسُوا: لم يخلطوا.

٣. شقَّ: صَعُبَ.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ (لقمان: ١٢) (٣٢٤٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه (٣٤٢).

٥. طَفِقَا يَخْصِفَانِ: جَعَلا يلصقان الورق على جسديهما ليسترا عوراتهما.

٦. العَزْم: التصميم.

www.kalemasawaa.com

خصوص هذه الشجرة، لا عن جنسها ونوعها، ومع ذلك فإن هذا الامتحان كان قبل أن يهبط إلى الأرض، وقبل أن يصير رسولًا مسئولًا عن رسالته، ولله في هذه التجربة حكمة يجب أن نمسك ألسنتنا عن الخوض فيها كما جاء في الحديث المتفق عليه عن محاجة موسى لآدم - عليهما السلام - بقوله: أنت أخرجتنا من الجنة، فكانت لآدم عليه السلام الحجة والغلبة عليه[1]، فذلك قضاء الله وترتيبه، ولولاه ما كانت هذه الحياة[2].

الهدف من خلق آدم عليه السلام الاستخلاف في الأرض:

من توهم أن آدم عليه السلام نزل إلى الأرض بسبب وقوعه في المعصية فقد أبطل مرادات الله من خلق آدم، فلم يقل الله إنه خلق آدم ليعيش في الجنة، بل خلقه ليعيش في الأرض، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ولكن أدخله الجنة أولًا وأمره بأوامر وحذَّره من الشيطان لتكون فترة تدريب عملي عما سيحدث في الأرض إذا أطاع واتَّبع هذا المنهج، وما سيحدث له إذا عصاه... هذه هي الحكمة من دخوله الجنة أولًا.

ويوضح د. أبو النور الحديدي ذلك الأمر قائلًا: "أمر الله تبارك وتعالى ملائكته أن يسجدوا لآدم عليه السلام، وذكر سبحانه أنه اختص آدم عليه السلام بعلم الأسماء دون الملائكة يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ (البقرة)، وعِلمُ آدمَ بالأسماء مبرر لتفضيله، وإسجاد الملائكة له.

فلا بد أن آدم عليه السلام قد شابه الملائكة في التخلق بخُلُقِهِم من فِعْلِ المأمورات، وتَرْكِ المحظورات، ثم امتاز عليهم بعلم الأسماء دونهم؛ فلهذا كله استحق شرف إسجادهم له. وأما مخالفته عليه السلام النهي الموجه إليه من ربه بألاّ يأكل من الشجرة التي عينها له، فهي مخالفة من آدم تحقيقًا لقضاء الله الكَوْنِي؛ لأن الحق عز وجل أخبر ملائكته أنه سيجعل في الأرض خليفة - آدمَ وذريتَه - يخلف بعضُهم بعضًا، جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، ويكون منهم من يفصل فيما بين بعضهم من المظالم، ويَرْدَعُهم[3] عن المحارم، وَعَرَفَتْ الملائكة أن من هذا الجنس من سيفسد في الأرض، ويسفك الدماء.

ولهذا سألت الملائكة ربهم تعالى سؤال استعلام فهم يعبدون الله تعالى ويسبحون بحمده، فأجابهم الحكيم الخبير عز وجل بأنه يعلم من المصلحة في استخلاف البشر ما لا يعلم الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ (البقرة)[4].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله (٦٢٤٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى - عليهما السلام - (٦٩١٢).

٢. المصطفون الأخيار، عطية صقر، دار مايو، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٤٦، ٤٧.

٣. يَرْدَع: يزجر ويمنع.

٤. يَسْفِك الدِّماء: يقتل.

www.kalemasawaa.com

ومن ذلك: أن الإفساد في الأرض، وسفك الدماء لن يقع من جميع ذرية آدم عليه السلام، وإنما من بعضهم، وسيكون من ذرية آدم أنبياء ورسل يهدون الناس إلى التي هي أقوم، كما سيكون منهم الصدِّيقون، والشهداء، والصالحون، والعلماء العاملون، كما أن بعضًا ممن يخطئ ويفسد لا يلبث أن يعود إلى رشده فيتوب ويصلح أمره، فإذا كان من ذرية آدم العصاة، والطائعون، والخطَّاءون والتوَّابون، فهم ليسوا شرًّا محضًا، ولا فسادًا خالصًا وإنما فيهم خير وشر، واستقامة واعوجاج، يقول البيضاوي في تفسيره: إن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإنَّ تركك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير.

كذلك من الحكمة في استخلاف آدم وذريته في الأرض كشف دفائنها[1]، وإخراج ما اختزن بين طبقاتها، واحتوته بطون جبالها، وضمّته أعماق بحارها من خيرات لا تحصى، ونِعَمٌ لا يبلغ العد منتهاها، وكنوز لا يأتيها الحصر، وثروات تفي بحاجات البشرية من مبدئها إلى منتهاها.

والبشر هم الذين تدفعهم الحاجة إلى الطعام والشراب، وتسوقهم الضرورة إلى اتخاذ المسكن والكساء، ويحثهم حب الراحة وكراهية الألم إلى السعي الدَّائب[2] في ربوع الأرض، وبهذا تعمر الأرض، وتزدهر فوقها الحياة، أما الملائكة فهم مستغنون عن كل ذلك، غير محتاجين إلى طعام أو مسكن أو كساء، ولذا فلن يجهدوا في الأرض طلبًا لخيراتها، وانتفاعًا بثرواتها فلو استُخْلِفُوا فيها لبقيت كما هي يوم خلقها الله، لا يُسْتَعْمَرُ فيها قفر، ولا يُكْشَفُ لها سر، ولا يُسْتَزْرَعُ فيها زرع.

وحكمة الحكيم الخبير تقتضي أن تُظْهَر آلاؤه، وتُكْشَفُ نعمُه، وتُرَى آثارُ قدرته وعظمته، وإنما يكون ذلك بعمارة الأرض وازدهارها على أيدي المحتاجين إلى هذا وهم آدم وذريته، فإذا أُسْكِنَ آدم وزوجه الجنة فإنما هي سكن ظاعن[3]، وإقامة راحل، حددت له غاية لا بد أن يبلغها، ومهمة لا مفر من القيام بها، وهي عمارة الأرض، وبعث الحياة في رُبُوعها[4]؛ بعد ابتلاء مَحْتُوم[5]، وامتحان مقدور، فإن سنة الله في خلقه أن ترتبط المسببات بأسبابها، وأن تؤدي إلى الغايات وسائلُها؛ فليكن لانتقال آدم إلى الأرض ـ وهو لا بد منتقل إليها ـ بسبب يستدعيه، وداع يقتضيه، ظاهره المخالفة لله، والعصيان لأمره، وحقيقته أن يقع مراد الله، ويتم مقدوره.

ولله في خلقه أسرار، فالقرآن كون مسطور ينبئ عن الكون المستور، ولكن بالقدر الذي نحتاجه في شئون ديننا ودنيانا، أما الأسرار التي لا حاجة لنا بها فقد طَواها[6] الله عنا فلا نكلف أنفسنا مُؤْنَةَ[7] البحث عنها.

ولذلك يقول بعض الصالحين ممن ذاقوا حلاوة الإيمان: "رُبَّ معصية أورثت ذلًا وانكسارًا، خيرٌ من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا "كأنهم عرفوا أن الخالق

١. الدَّفائن: ما هو موجود في باطن الأرض.

٢. الدَّائب: المستمر.

٣. الظَّاعن: الراحل.

٤. الرُّبوع: الأنحاء، جمع رَبْع.

٥. المحتوم: الواجب واللازم.

٦. طَوَى: أخفى.

٧. المُؤْنَة: الجُهد.

www.kalemasawaa.com

أوجد الذلة للنفس البشرية حتى يعتدل ميزانها، ولا تدخل في باب التيه بالعبادة.

ومن هنا كانت الحكمة من المعصية فهو أمرٌ قَدَرِي أراده العلي القدير من خلق آدم عليه السلام. لذا لا يتوجه إلى آدم عليه السلام اللومُ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قُدِّر عليّ قبل أن أُخْلَق. فقال رسول الله ﷺ: فحج آدمُ موسى مرتين"[١][٢].

ثانيًا. ما فعله آدم يعدُّ خطأً وليس خطيئة، وللعلماء في تأويل هذا الخطأ وجوه:

لم يكن الذي صدر عن آدم عليه السلام وهو الأكل من الشجرة خطيئة كما يصور النصارى؛ فإن الخطيئة ارتكاب محظور عن إصرار وعلم بأنه محظور. وبالتالي يستلزم التكرار والفساد في الأرض مثل: القتل وسفك الدماء.... إلخ. وهذا ما لم يحدث من آدم عليه السلام، أمَّا ما وقع منه فهو عن غير تعمد وإصرار، وللعلماء في ذلك تأويلات.

تأويلات العلماء لهذا الخطأ:

الأول: أن يكون ذلك منه على سبيل النسيان، وإنما سمي ما أتاه ناسيًا معصية وغواية؛ لأن النبي ﷺ ليس كأحد من الناس. فإذا نسي عُدَّ ذلك معصية في حقه، وإن كان ـ ما صدر منه ـ غيرَ معصية إن صدر من غيره.

الثاني: أنه تأوَّل فيما فعل؛ إذ فُهِمَ أن الأمر والنهي ليسا جازمين بحيث يترتب على المخالفة الغضب والمجازاة، بل فَهْمُه على أنه إرشاد فقط، ونهي إرشاد، وما كان من هذا القبيل لم تَحْرُمْ مخالفته، كما حمل الفقهاء الأمرَ بكتابة الدَّيْن على أنه أمر إرشاد ولا إثم بتركه.

الثالث: أن ما حصل من الذنوب الصغيرة، وهذا لا يتأتى إلا على رَأْي من يقول: إن الأنبياء غير معصومين من الصغائر.

الرابع: أن ذلك كان قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية... ودليل ذلك قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ (طه)، والاجتباء: هو اصطفاء الله له بالرسالة، فتكون المعصية قد وقعت من آدم عليه السلام قبل النبوة[٣].

الخامس: أن آدم تأوَّل في أكله من الشجرة؛ لأن الله أراه الشجرة التي نهاه عن الأكل منها، فتأوَّل أنَّهُ نهاه عن عينها، ولم ينهه عن جنسها، فأكل من شجرة أخرى من جنسها[٤].

السادس: أن الذي حدث من آدم مرة واحدة؛ فلا يجوز نعته بأنه عاصٍ أوغاوٍ؛ فإنهما تطلقان على من تكررت منه المعصية والغواية.

ولا يطلق عليه عاصٍ أو غاوٍ إذا كانت المعصية قبل النبوة؛ لتشريف الله له بالنبوة والرسالة، كما لا يطلق

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى عليه السلام، وذكره بعد (٣٢٢٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٦٩١٥)، واللفظ للبخاري.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٤٣: ١٤٥.

٣. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص٦٢.

٤. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص١٩، ٢٠ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

على من أسلم بعد كفره كافر، ولا يطلق عليه ذلك إن كانت بعد النبوة؛ لأن الله قَبِل توبته.

إن كلمة عاص أوغاو تطلقان على من كثرت فيه المعصية، والغواية، وهما تطلقان بهذه الصيغة على آدم، وأطلقت عصى، وغوى، والمراد فيما حكاه القرآن عنه؛ أي: في الواقعة المذكورة فقط[1].

ومما يؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾ (الأعراف: ٢٢)، لم يقل: "فلما أكلا من الشجرة"؛ لأن الأكل يقتضي إعادة المعصية مرات ومرات، أما مجرد التذوق فيتبين منه أنها حدثت مرة واحدة فقط، أي أن المعصية لم تتكرر[2].

الخلاصة:

- الاستخلاف، وانتقال آدم إلى الأرض حقيقته أن يقع مراد الله، وتُعَمَّرَ الأرض التي من أجلها خَلَقَ الله الخلقَ فتلك إرادته سبحانه قبل بدء الخليقة.. ومعصية آدم لا تتنافى مع العصمة، فلا أكثر من تبرئة الله تعالى له؛ إذ قال جل شأنه: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ (طه)؛ فلا معصية ولا مؤاخذة مع النسيان، غير أن الله سمى ذلك معصية؛ لأنها على صورتها، وآخَذَهُ بها؛ لأن مقام النبوة غير مقام عامة الناس، وللحبيب مع حبيبه منزلة لا تكون لغيره. على أن آدم وقع في هذه المعصية قبل اختصاصه بالرسالة، وقد صدَّق إبليس حين أقسم له وظنه من الناصحين، فما جرب من قبل كذبًا أو خداعًا، ولله في ذلك حكمة يجب أن نمسك ألسنتنا عن الخوض فيها. فلله في خلقه شئون وعقولنا قاصرة عن إدراك مقتضى حكمته ﷻ.

- كما أن الخطأ يختلف عن الخطيئة التي قال بها النصارى من ضمن عقائدهم الفاسدة؛ فالخطيئة: ارتكاب محظور عن إصرار، وعلم بأنه محظور، وبالتالي يستلزم التكرار والفساد في الأرض مثل القتل، وسفك الدماء. أما الخطأ: فهو ناتج عن الغفلة والنسيان، وهو ما حدث مع سيدنا آدم عليه السلام.

- للعلماء تأويلات في هذا الخطأ الذي وقع فيه آدم عليه السلام بأكله من الشجرة. فبعضهم قال: إن هذا الخطأ ناتج عن النسيان ونسيانه في حد ذاته معصية؛ لأن مقام الأنبياء يختلف عن غيرهم، وبعضهم قال: إن آدم ظن أن أمر الله ونهيه أمر إرشاد فقط، ونهي إرشاد فقط.. وهذا لا يحرم مخالفته.. وآخرون قالوا: إن ما حصل يعد من صغائر الذنوب، وأن ذلك كان قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية.

الشبهة الرابعة

الفهم الخاطئ لبعض الحقائق في قصة آدم عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن الجنة التي خُلق فيها

١. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، عند تفسير الآية ١٢١ من سورة طه.

٢. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٠.

(*) استحالة تحريف الكتاب المقدس، القمص مرقص عزيز خليل، كنيسة القديسة العذراء، والشهيدة دميانة المعلقة، مصر، ٢٠٠٣م.

www.kalemasawaa.com

آدم عليه السلام كانت في الأرض في جدة أو الهند، وأن الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام هي شجرة العلم والمعرفة والبصيرة، وكان الله عز وجل قد نهاه عن الأكل منها؛ خوفًا من أن يكتسب هذه الأشياء، فلما خالف آدم عليه السلام وارتكب خطيئته وأكل من الشجرة، صار ذا علم وبصيرة ومعرفة، فغضب الله عليه. وعندما تاب لم تكن توبته صادقة؛ بدليل أنه طُرد من الجنة، ولو كانت توبته صادقة ما استحق الطرد منها. وأنه وَرَّث خطيئته تلك للبشرية من بعده، وتحملوها دون ذنب اقترفوه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ليس هناك أي فائدة من معرفة الجنة التي خُلق فيها آدم عليه السلام أهي جنة الخلد أم غيرها؟ ومن تمام الإيمان السكوت عمَّا سكت عنه القرآن؛ إذ لو أفاد ذكره ما سكت عنه القرآن الكريم أو الرسول ﷺ.

٢) كيف ينهى الله آدم عليه السلام عن الأكل من شجرة العلم ـ على فرض صواب من قال ذلك ـ خوفًا من أن يكتسب المعرفة، وهو الذي اختصه دون الملائكة وعلَّمه الأسماء كلها؟!

٣) لم يغضب الله تعالى على آدم عليه السلام، بل عاتبه عتابًا خفيفًا استلزم توبته، فتاب الله عز وجل عليه واجتباه، ونزوله إلى الأرض كان تحقيقًا لمراد الله بتعمير الأرض وليس طردًا له من الجنة.

٤) إثبات القرآن الكريم لكل الحقائق السابقة الخاصة بآدم عليه السلام دون لَبس أو غموض دليل قاطع على صدقه.

٥) الخطيئة لا تورث، فالعدل الإلهي يقضي بأنه لا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى.

التفصيل:

أولا. من تمام الإيمان السكوت عمَّا سكت عنه القرآن الكريم؛ إذ لو أفاد ذكره ما سكت عنه القرآن الكريم أو الرسول ﷺ:

ما الذي يعود علينا، وما الفائدة التي تُرتجى إذا علمنا طبيعة الجنة التي سكنها آدم عليه السلام وزوجه هل كانت جنة الجلد أم أنها جنة من جنات الدنيا؟

فالزعم أن الجنة التي سكنها آدم عليه السلام وزوجه في جدة أو في الهند دعوى لا دليل عليها، والتوراة نفسها ـ على علاتها ـ لا تذكر هذا المكان المزعوم أو ذاك. فهذا كله رَجْم بالغيب، وتَخَرُّصٌ[1] باطل، والقرآن لم ينص على طبيعة هذه الجنة أهي جنة الخلد أم جنة خاصة لآدم وزوجه، أم جنة من جنات الأرض، كل هذه احتمالات واردة، وقال بها بعض العلماء ذلك، في حين أن بعضهم توقف في شأنها، ورجح الشيخ عبد الوهاب النجار هذا التوقف والتفويض في علمها لله تعالى، فيقول: رأى الجمهور أنها جنة المأوى، آخذين بظاهر الآيات والأحاديث كقوله عز وجل: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (البقرة)، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: يجمع الله تعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: "يا أبانا استفتح لنا الجنة"، فيقول: "وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم"[2]. قال ابن كثير في البداية

١. التَّخَرُّص: الكذب.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٥٠٣).

www.kalemasawaa.com

والنهاية: "وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى، وليس تخلو عن نظر، إذ لو كانت الجنة التي عاش فيها آدم عليه السلام وزوجه، من جنات الدنيا ـ كما يزعمون ـ فكيف يبحث آدم عليه السلام عن شجرة الخلد في دار لا خلود فيها"[1]؟!

ثانيًا. كيف ينهى الله آدم عليه السلام عن الأكل من شجرة العلم وهو الذي علمه الأسماء كلها؟!

بل كيف يخشى الله من أن يكتسب آدم عليه السلام المعرفة فهل كان الله يريده جاهلًا؟! أم كان يخشى الله ـ تعالى عما يقولون ـ من أن يتعلم فيضاهي علم الله تعالى؟! فهو لذلك لا يريده متعلمًا؟! ولماذا يخشى الله من علم آدم؟! وإذا كان قد منعه من الأكل من شجرة المعرفة خوفًا من أن يكتسب هذه الأشياء؟! فلماذا علَّمه الأسماء كلها؟! إن هذه الخرافة التي تزعم أن الله حرم آدم هي خرافة تتماشى مع سائر معتقدات اليهود الفاسدة التي تصف الله بما لا يجوز من صفات النقص والعجز تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وإذا سلَّمنا ـ جدلًا ـ بأن الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام هي شجرة العلم والبصيرة، فلماذا يسعى آدم عليه السلام للأكل منها، وقد أعطاه الله العلم قبل أن يسكن الجنة؟

هذا فضلًا عن أن القرآن الكريم لم يذكر نوع هذه الشجرة التي نهي عنها آدم عليه السلام وزوجه، ولم يذكر أكثر من أنها أبيح لهما الأكل من كل ما في الجنة باستثناء تلك الشجرة؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (البقرة). ولكن التوراة تذكر أن هذه الشجرة هي شجرة معرفة الخير والشر: "وأوصى الرب الإله آدمَ قائلًا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلًا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت". (التكوين٢: ١٦، ١٧).

أما زعمهم أن الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام كانت شجرة العلم والمعرفة والبصيرة فليس كذلك؛ لأن الله تعالى وهب العلم لآدم عليه السلام قبل أن يُؤمر بسكن الجنة ويُنهى عن الأكل من الشجرة، قال عز وجل: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (البقرة).

ومن العجيب أن تَنُصَّ التوراة على أن آدم عليه السلام ما كان يعلم الفرق بين الطاعة والمعصية؛ لأن الشجرة التي أكل منها هي نفسها "شجرة معرفة الخير والشر"، فكيف يُعاتَبُ على شيء ما كان يعلم أنه شر؟!

ثالثًا. لم يغضب الله تعالى على آدم عليه السلام، بل عاتبه عتابا خفيفا استلزم توبته، فتاب الله عز وجل عليه واجتباه، ونزوله إلى الأرض كان تعميرًا لها، وليس طردا له من الجنة:

لم يذكر القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى غضب على آدم عليه السلام، أو أن توبته كانت غير صادقة، ولكن جاء فيه أن الله تعالى عاتبه هو وزوجه قائلًا: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأعراف).

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٢٢.

www.kalemasawaa.com

فتاب آدم عليه السلام عن خطئه وطلب ضارعًا[1] من ربه أن يغفر له ويرحمه ومعه زوجه، قال تعالى حكاية عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأعراف). فَقَبِل الله توبتهما واجتباه[2] ربه تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة)، وقال عز وجل: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ (طه).

وللحبيب مع حبيبه ما لا يكون لغيره. والقرآن صرَّح أنهما ـ آدم عليه السلام وحواء ـ لم يأكلا: أي لم يستمرا في المعصية، ولكن ذاقا: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾ (الأعراف: ٢٢) أي مرة واحدة حدث التنبه بمجرد الحدوث ولم يُصِرَّا على المعصية، حينئذ وقع العتاب من الله تعالى.. كما في الآية السابقة بالاستفهام المنفي حتى يكون الجواب من أفواههما: نعم يارب نهيتنا.

هنا وقف آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ أمام الله تعالى مُقِرَّين بالخطأ والمخالفة، معترفين بالذنب، متيقنين أن الله تعالى حق، وقوله حق، وأنهما لم يستطيعا حمل نفسيهما على اتباع المنهج فظلما نفسيهما، ثم طلبا من الله تعالى المغفرة والرحمة في ذل وانكسار لئلا يكونا من الخاسرين.

فقد صدَّقا كلام إبليس وظنوه من الناصحين حين أقسم لهما؛ فلم يجربا من قبل كذبًا أو خداعًا. والله تعالى جعل التوبة، لكنه يقبلها بشروط منها: الإخلاص، والصدق والإنابة، والندم على ما فات من ذنب، والعزم على عدم العودة للذنب ثانية. وهو ما تحقق حِيال[3] آدم عليه السلام وزوجه[4].

وقد سبق أن أوضحنا أن هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض ليس بسبب معصيته أو غضب الله عليه، بل هو مراد الله من خلق آدم عليه السلام من قبل أن يخلقه، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، وليس نزوله إلى الأرض طردًا من الجنة كما يدعي المتوهمون، بل هو قضاء كَوْني سابق، وقبول التوبة يدل على عدم الغضب.

فقد ذكر الله تعالى ـ أنه قَبِلَ توبة آدم عليه السلام وزوجته عندما رجعا إلى الله تعالى ـ ومن أصدق من الله قيلًا.. ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة)، كما أخبر الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ (طه) ®.

رابعًا. إثبات القرآن الكريم لكل الحقائق السابقة الخاصة بآدم عليه السلام دون لَبس أو غموض:

إن آدم عليه السلام تاب إلى الله توبة نصوحًا، وكان خروجه من الجنة تنفيذًا لحكمة الله السابقة على وجوده. فهو لم يُطْرد، وإنما خرج من الجنة، وهبط إلى

---

١. الضَّارع: الذَّليل.

٢. اجتباه: قرَّبه واصطفاه.

٣. حِيال: تجاه.

٤. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٢١: ٢٤.

® في "سبب خروج آدم من الجنة ونزوله إلى الأرض" طالع أيضًا: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

الأرض كما اقتضت حكمة الله في خلق الأرض، وتعميرها، وابتلاء بني آدم، فقد قدر ﷻ قبل أن يخلق آدم عليه السلام أنه سيجعل فيها آدم عليه السلام وذريته خلفاء في الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة).

إذن فالحكمة من معصية آدم عليه السلام أن الله تعالى درَّبه عليه السلام قبل أن يباشر مهمة الاستخلاف في الأرض تدريبًا يؤهله لمسئولية الاستخلاف في الكون، وكان التدريب في مكان يَكْفُل[1] الراحة والأمن، وما كان الله تعالى ليزجَّ[2] بآدم عليه السلام في ذلك الكون الواسع دون أن يدربه أولًا على مهمته.

أوضح الله له الأوامر، وأَجْلَى[3] له النواهي، وحذره من الشيطان.. ولم يكتف الخالق الرحيم بذلك، بل قدَّم لآدم عليه السلام الفرصة للتوبة إن أصابته الغفلة، وأَعْلَمَنَا الحقُّ كيف أن الشيطان قد ثأر لنفسه من آدم عليه السلام بإيقاعه في الخطيئة، وكذلك سيفعل مع أبنائه؛ لينبهنا الله ﷻ لعداوة إبليس، ومن ثَمَّ اجتنابه، ثم حذَّرنا الله تعالى من عدونا إبليس ومن خطواته التي يتبعها ليوقع الإنسان في دَرَكِ المعصية.

إذن فخروج آدم عليه السلام من الجنة وهبوطه إلى الأرض قَدَر الله الذي لا رادَّ له، وحكمته التي لا مُعَقِّبَ لها... فقد أسكنه الجنة وهو يعلم أنه سيخرج منها بسبب الأكل من الشجرة ليعمر الأرض، ويصلحها هو وذريته، ويعبدوه فيها طوعًا وكرهًا، وقد جرت سنة الله تعالى أن يقرن الأسباب بمسبباتها؛ لِيعلم الإنسان أن كل شيء قد خلقه الله بِقَدَرٍ، وليعرف أن النَّصَبَ[4] بعده الراحة[5].

وقال الله ﷻ محذِّرًا بني آدم من عداوة إبليس لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأعراف).

وطاعة آدم عليه السلام: اختيار، وانكسار، واعتذار، ورغبة في أن يقبل الله توبته. لماذا؟ محبة منه في الله الخالق.. ويعد هذا تقعيدًا لمبدأ نوراني مهم في حياة الجماعة، فطَلَبُ آدم عليه السلام للتوبة، وقبول الله لتوبته، إنما وضع أساسًا هامًا لمسيرة الإنسان، وهو أن مرتكب الذنب سوف يجد باب التوبة مفتوحًا، فيقبل على الله بانكسار، ولا يتمادى في معصيته.

والله تعالى تاب على آدم عليه السلام واجتباه، وجعله نبيًّا ـ كما أسلفنا ـ ووفَّقه لعمارة الأرض، وإصلاحها بكلمات الله وهدايته، فاستحق الجزاء الأخروي من الله تعالى، بدخول الجنة، فكانت الجنة دار جزاء، وليست تركة تُورَّث بحق وبغير حق كما يفهمها النصارى ومن على شاكِلَتهم[6].

---

١. يَكْفُل: يوفِّر.

٢. يزجَّ: يرمي.

٣. أَجْلَى: أوضح.

٤. النَّصب: التعب.

٥. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٧: ٣٠.

٦. شاكِلَتهم: من شابههم، أو على طريقتهم.

www.kalemasawaa.com

خامسًا. الخطيئة لا تورث، فالعدل الإلهي يقضي بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى:

١. الآيات والأحاديث التي استدلوا بها على توارث الخطيئة مصروفة عن ظاهرها بغير صارف:

ادَّعى المبطلون أن ميراث الخطيئة ثابت في القرآن والسنة لقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف)، ولقول رسول الله ﷺ: "فجحَد آدم فجحَدت ذريته، ونُسِّي آدم فنُسِّيَتْ ذريته، وخَطِئَ آدم فخَطِئَتْ ذريته"[١].

فزعموا أن الله أخذ الميثاق من آدم نيابة عن ذريته، و أن الحديث يفيد توريث الخطيئة، وهذا ادعاء باطل وزعم لا دليل عليه لا من قرآن ولا سنة.

أما الآية الكريمة فلم تذكر أن الله أخذ الميثاق من آدم بالنيابة عن ذريته، فهذا صرف للآية عن ظاهرها بغير صارف ولا مُسوِّغ لذلك، اللهم إلا أهواء النصارى!

والآية صريحة العبارة؛ بأن الرب أخرج ذرية آدم من ظهره بالفعل وأشهدهم على أنفسهم، وهو ما أكَّدته الأحاديث الصحيحة منها:

قال رسول الله ﷺ: "لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نَسَمَةٍ هو خالقها من ذُرِّيَّته إلى يوم القيامة، وجعل بين عَيْنَي كل إنسان منهم وَبِيصًا[٢] من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرَأَى رجلًا منهم أعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أورب، من هذا؟ قال: رجل من آخر الأمم من ذريتك يُقال له: داود، فقال: ربِّ، كم جَعَلْتَ عُمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زِدْهُ من عمري أربعين سنة، فلما قُضِي عُمر آدم جاءهُ ملك الموت، فقال: أولم يَبْقَ من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تُعْطِها ابنك داود؟ قال: فجَحَد[٣] آدم فجحدت ذريته، ونُسِّي آدم فنُسِّيت ذريته، وخَطِئ آدم فخطِئت ذريته"[٤].

وعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: "يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي"[٥].

وجاء ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: "أخذ الله الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان ـ يعني عرفة ـ فأخرج من صُلْبه كل ذرية ذَرَأَها[٦] فنَثَره[٧] بين

---

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأعراف (٣٠٧٦)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأعراف (٣٢٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٩).

٢. الوَبِيص: اللمعان.

٣. جَحَد: أنكر.

٤. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأعراف (٣٠٧٦)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأعراف (٣٢٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٩).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب (٦١٧٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا (٧٢٦٣).

٦. ذَرَأ: خلق.

٧. نَثَر: بعثر.

www.kalemasawaa.com

يديه كالذَّرِّ، ثم كلَّمهم قِبَلًا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ (الأعراف)"[1]. وغير ذلك كثير مما أورده ابن كثير في تفسيره[2].

وأما قول رسول الله آخر الحديث: "فجحَد آدم فجحَدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطِئ آدم فخطِئت ذريته"، فلا يفيد توريث الخطيئة وإنما توريث الطباع، والفارق بينهما كبير، فهذه الصفات هي من طبيعة الإنسان التي خلقه الله تعالى عليها، فكل الناس ينسون ويجحدون ويخطئون؛ لأنهم خلقوا ضعافًا كما قال ﷻ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء)، وكما قال رسول الله ﷺ: "كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطائين التَّوَّابون"[3].

ولكن لا يرث أحدهم خطيئة الآخر ولا يرث الإنسان جحود غيره! فكل إنسان يتحمل خطأه هو، والقاعدة القرآنية المحكمة: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (النجم)، وقوله ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ (الإسراء)[4]، وقوله ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ (الزلزلة)، وحسبنا في الرد على من يعتقدون أن الطفل البريء يولد مُلطَّخًا بخطيئة آدم ويريدون إلصاق ذلك العبث كرهًا بالإسلام ـ أن نذكر نيفًا من كلمات رسول الله ﷺ في وصف من تطهر من كل الذنوب والآثام: "من حجَّ هذا البيت فلم يَرْفُث[5] ولم يَفْسق[6] رجع كيوم ولدته أمه"[7]، وأن الله يقول: "إني إذا ابتليتُ عبدًا من عبادي مؤمنًا فحَمِدَني على ما ابتليته فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا". ويقول الرب ﷻ: "أنا قيَّدتُ عبدي وابتليته، وأجروا له كما كنتم تُجْرُون[8] له وهو صحيح"[9].

لما فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس سأل الله ثلاثًا: حكمًا يصادف حكمه، وملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وألا يأتي هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٢٤٥٥)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، باب سورة الأعراف (١١١٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٠١).

٢. انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت، ج٣، ص٣٦٣.

٣. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٣٠٧٢)، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٥).

٤. أَلْزَمناه طائره في عُنُقه: ألزمناه عمله.

٥. لم يَرْفُث: لم يفحش في القول.

٦. لم يَفْسق: لم يَأْتِ ما حرَّم الله عليه.

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور (١٤٤٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (٣٣٥٨).

٨. تُجْرُون: تكتبون له من الأجر.

٩. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث شداد بن أوس ﷺ (١٧١٥٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٢٧٩)، باب الشين: شداد بن أوس ﷺ (٧١٣٦)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٠٩).

www.kalemasawaa.com

فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فقال النبي ﷺ: "أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أعطى الثالثة"[١].

ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أن خروج آدم من الجنة ما كان بسبب زلته هذه، ولكن لأن الله تعالى قدَّر منذ القدم أن يَبتلي الإنسانَ باستخلافه في الأرض، كي يَعْمُرَها بالتوحيد ويعبده فيها بظاهر الغيب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة)، وليتم بذلك اختبار الإيمان على الإنس والجن، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات)، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ (الملك).

ومن أدلة ذلك حديث محاجة آدم موسى، قال رسول الله ﷺ: "احتج آدم وموسى فقال له موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخطَّ لك بيده أتلومني على أمر قدره اللهُ عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة فحج آدم موسى، فحج آدم موسى (ثلاثًا)"[٢].

ومن المعلوم أنه لا يجوز الاحتجاج بالقَدَر لتبرير المعصية، وإنما يجوز ذلك في تعليل الابتلاء العجيب. إننا نقرأ في القصة التوراتية أن آدم عليه السلام ما كان يعلم الفرق بين الطاعة والمعصية؛ لأن الشجرة التي أكل منها هي نفسها "شجرة معرفة الخير والشر"، فكيف يعاتب على شيء ما كان يعلم أنه شر؟

٢. وراثة خطيئة آدم عقيدة النصارى، والإسلام يُصَوِّبها، ونصوص القرآن تنطق بالعدل الإلهي:

فالخطيئة في الإسلام لا تُوَرَّثُ، وإنما هي من كسب الإنسان، ومن عمله، وهو يحاسب عليها، ولا يؤاخذ على خطيئة غيره قال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة)، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (الأنعام).

وقال ﷻ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ (النجم)، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (فاطر)، وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ

---

١. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس (١٤٠٨)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل الصلاة في مسجد بيت المقدس (١٣٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٩٠).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله (٦٢٤٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى (٦٩١٢).

www.kalemasawaa.com

﴿أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ (الطور) [1].

أما ما استدل به أصحاب هذا الادعاء من أكل آدم عليه السلام من الشجرة، وخروجه من الجنة، نتيجة لذلك.. فليس ثمة دليل على ما يعتقدون، فإن الله تعالى أهبط الإنسان ـ آدم ـ عليه السلام وذريته من بعده إلى الأرض ليتم البلاء، ويتنافس الناس في العمل، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى حُرِم من دخول الجنة، ودخل النار.

فالخروج من الجنة ليس عقوبة على خطيئة موروثة ـ كما توهموا ـ وإنما ليكون الإنسان مستحقًّا للجزاء بعمله وكسبه.

وليأت هؤلاء المدعون بآية واحدة، أو حديث واحد يعترف بأن الخطيئة موروثة، فكلها تنطق بالعدل الإلهي، وهذا من محاسن الإسلام.

فهل من العدل أن أتحمل وزر غيري؟! وهل من العدل أن يحمل وزري غيري؟!

وتجربة آدم وزوجه ـ عليهما السلام ـ ليست خطيئة موروثة؛ فقد تم تصويبها، ولا وجود لإنسان بمفرده قادر على أن يحمل عن البشر خطاياهم، كذلك ليست هناك واسطة بين الله تعالى وبين البشر.

ولكنها تجربة البشرية بكاملها ممثلة في شخص آدم عليه السلام، فيها الصعود والهبوط، والتدني والتسامي، فهو مُزَوَّد بالشهوات والنَّزَوات[2]، مُهَيّأٌ للرقي بعد الرجوع والتوبة. فكما انزلق لنَزَغات[3] الشيطان بحكم تكوينه البشري، لا بسبب امرأته حواء كما تُصوِّر التوراة؛ إذ تقول: "وكانت الحيَّة أَحْيَل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: "أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟" فقالت المرأة للحية: "من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه، ولا تمساه لئلا تموتا". فقالت الحية للمرأة: "لن تموتا! بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر". فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل". (التكوين ٣: ١ـ ٦)، وسلك الشيطان لإغوائهما كل مسلك (أزلهما ـ وسوس لهما ـ دلاهما بغرور)، بهذه الحيل الماكرة نسيا عهد الله، ونهيه لهما، ثم بعد أن نبههما الله ﷻ تنبها، وتابا فتاب الله عليهما، واجتبى الله آدم للرسالة وزوده بأسباب الهداية. على أن ما فعله آدم ليس خطيئة وإنما هو خطأ، أما الخطيئة كالقتل، وسفك الدماء، والدس بين الناس، وإثارة الوقيعة بينهم فالعقاب عليها إما في الدنيا أو في الآخرة، وأما الخطأ فهو ابن للغفلة والسهو®، لذا يجب ألا ينظر أبناء آدم إلى أبيهم على أنه أول من ارتكب الخطيئة، وإنما هي التجربة البشرية التي تقبل أن تمر بكل واحد من أبناء البشر، فالحكم العدل ﷻ لا يُحَمِّل أحدًا وزر أحد®.

---

١. أَلَتْناهم: نقصناهم.

٢. النَّزَوات: الإغراءات الشيطانية والشهوات.

٣. النَّزَغات: الإغراءات.

® في "أكل آدم من الشجرة خطأ لا خطيئة" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

® في "فكرة الإسلام عن خطيئة آدم" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

www.kalemasawaa.com

فما أبعَدَ الفارق بين ما جاء في التنزيل الحكيم، وبين ما سطَّرته أوهام المبطلين!!

إذا قارنا هذه الحقائق القرآنية ببعض ما جاء في التوراة أدركنا الفارق بين الحق والباطل، والنور والظلمات، ففي التوراة كانت المرأة مغرية لآدم بالأكل من الشجرة؛ لذا عاقبها الله ﷻ بآلام الحمل، والولادة، وسيادة الرجل عليها، كما عوقب آدم بالشقاء والتعب، وإنبات الأرض له شوكًا: "وقال للمرأة: "تكثيرًا أُكَثِّر أتعاب حَبَلِك، بالوجع تلدِين أولادًا. وإلى رَجُلك يكون اشتياقك وهو يَسُود عليك". وقال لآدم: "لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتُكَ قائلًا: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكًا وحَسَكًا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل". (التكوين ٣: ١٦ـ ١٨).

أما حقائق الإسلام في هذا الشأن فلا تخفى على أحد بمكان، وقد أوضحناها في الأوراق السابقة.

الخلاصة:

- من المنطقي أن نسكت عما سكت عنه القرآن الكريم، إذ لو أفاد ذكره لذكره القرآن؛ فالهدف من القصص القرآني العبرة والعظة؛ لذلك لا نسلم بتأويلات وردت عن بعض العلماء لِلْجَنَّةِ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، والتي هبط منها آدم عليه السلام فعلمها عند الله؛ لأنها من الغيبيات التي نؤمن بها على أي كيفية كانت، والجمهور على أنها جنة المأوى أخذًا بظواهر الآيات والأحاديث، ومن ثم فليست جنة من جنات الأرض؛ إذ كيف يطلب آدم شجرة الخلد في دار لا خلود فيها؟! كما أن في مخالفة آدم عليه السلام أمر ربه، وتوبته منها دروس وعبر للبشرية جمعاء.

- كيف ينهى الله آدم عليه السلام عن الأكل من شجرة المعرفة وهو الذي علمه الأسماء كلها، وإذا كانت الشجرة شجرة المعرفة فلماذا يسعى آدم عليه السلام إلى الأكل منها وقد أعطاه الله العلم قبل أن يدخل الجنة.

- إن الله ﷻ لم يغضب على آدم عليه السلام الغضب الذي يوجب الخروج من رحمة الله تعالى، بل عاتبه عتابًا خفيفًا استلزم توبته عليه السلام؛ فتاب عليه واجتباه وهداه.

- أما نزوله إلى الأرض فكان تعميرًا لها وليس طردًا من الجنة أو عقوبة... فكان امتحانه في الجنة تدريبًا على مسألة الاستخلاف في الأرض، إذ هكذا اقتضت حكمة الله قبل خلقه عليه السلام. كما أراد المولى ﷻ أن يتعلم بنو آدم درسًا يفيدهم في ابتلائهم في الدنيا والذي خُلِقُوا من أجله، أراد أن يعلموا أن الشيطان عدو لهم ليجتنبوه؛ فبمكره وخداعه أخرج أبويهما من الجنة؛ ثأرًا لنفسه، فقد صور له غروره أنه أكرم خلقًا من آدم، فكان العداء بتكريم الله لآدم دون سائر خلقه.

- أما وراثة خطيئة آدم فعقيدة النصارى، والإسلام بريء منها، ونصوص القرآن تنطق بالعدل الإلهي؛ إذ إنه "لا تزر وازرة وزر أخرى"؛ وما استدلوا به من نصوص مصروفة عن ظاهرها بغير صارف، كما أن هناك فرقًا بين الخطأ والخطيئة، فالخطأ: ناتج عن الغفلة والنسيان، وهو ما حدث مع سيدنا آدم عليه السلام. أما الخطيئة: فيندرج تحتها سفك الدماء، والقتل، وخلافه مع توافر شرط العمد.

- تختلف حقائق القرآن عن سائر الكتب الأخرى

www.kalemasawaa.com

المحرفة فهو النور، وما عداه الظلمات، وهو الحق وما عداه الباطل، وبالاستقراء يتضح لنا أن القرآن هو المصوِّب لأخطاء وعقائد السابقين كما يضيف ما لا علم لهم به، وفيه دلالة على قدسيته فهو وحي من الله إلى رسوله ﷺ، ولم تمسه يد التحريف بالعبث والفساد، فقد تَعَهَّدَ الله تعالى بحفظه وهو خير الحافظين.

الشبهة الخامسة

إنكار نبوة آدم عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن نوحًا عليه السلام أول الأنبياء وليس آدم عليه السلام، ويستدلون على ذلك بأن القرآن لم يذكره ـ أي آدم عليه السلام ـ باعتباره نبيًّا أو رسولًا، ويهدفون من وراء ذلك إلى إنكار نبوته عليه السلام.

وجه إبطال الشبهة:

النبوة: هي الوحي، والنبي هو ما نزل عليه هذا الوحي وأمر بتبليغه للناس وهذا متحقق في آدم عليه السلام. والقرآن أشار إلى نبوته إذ اجتباه ربه.

التفصيل[1]:

أشار القرآن الكريم إلى نبوة آدم عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (طه:١٢٢) والاجتباء هنا: النبوة؛ بدليل قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام، قال: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ (مريم: ٥٨) يعني من النبيين، وقال في قصة يونس عليه السلام بعد قصة الحوت: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ (القلم: ٥٠)[2].

كما أشارت السنة النبوية إلى نبوة آدم عليه السلام فعن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: "نعم نبي مكلم". قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضع عشر جمًّا غفيرًا[3] [4].

وفي رواية عن أبي أمامة قال أبو ذر: قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا[5].

ولقد اهتم القرآن في حياة كل نبي بموطن العبرة والعظة وصَوَلات الصراع وجَوَلاته[6] بين الأنبياء وأقوامهم، بيد أن الصراع في حياة آدم عليه السلام كان مع

(*) المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، دار الشروق، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١. انظر: الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف: د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢. تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م، ص٧٨.

٣. جمًّا غفيرًا: جمع كثير.

٤. صحيح: أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، أحاديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه (٤٧٨)، وأحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أبي بن كعب رضي الله عنه (٢١٥٨٦)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٧٣٧).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة رضي الله عنه (٢٢٣٤٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢١٧)، باب الصاد: صدي بن عجلان أبو أمامة رضي الله عنه (٧٨٧١)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٧٣٧).

٦. صَوَلات الصراع وجَوَلاته: مراحله المتعددة.

www.kalemasawaa.com

الشيطان، وكذلك كانت العبرة في كيفية نشأته ووجوده أكثر من الصراع في حياته باعتباره نبيًّا؛ فركز القرآن على ذلك، ومن الأدلة أيضًا على نبوة آدم قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (آل عمران)، وقد ثبت أنه تعالى اختار هؤلاء لدينهم وإسلامهم وهؤلاء كلهم أنبياء، فكيف يقال: إن الله لم يذكر آدم عليه السلام ضمن الأنبياء وهو مذكور معهم بل وفي مقدمتهم؟

وإذا كان القرآن لم يذكر آدم عليه السلام كما ذكر غيره من الأنبياء، بالتفصيل في حياته باعتباره نبيًّا، فإنه ذكر أن الله خاطبه بلا واسطة، فأحل وحرم، وأمر ونهي، دون أن يرسل إليه رسولًا، وهذا هو معنى النبوة:

ويتجلى ذلك في العديد من الأمور منها:

١. تعليمه الأسماءَ ـ وحيًا ـ دون الملائكة، وتفضيله وذريته بالعلم:

فبعد أن تغلغلت الروح في جسده، كساه الله من نور جلاله، وجماله، فظهر نور الكرامة على وجهه، وألبسه من حلل الجنة، وعلمه من لدنه علمًا. وأظهر فضله على الملائكة.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (البقرة)، قال الطَبَري فيما يرويه عن الحسن وقَتَادَةَ: "علَّمه الله تعالى اسم كل شيء: هذه الجبال، والبغال، والإبل، والجن، والوحش"[1].

وجعل يسمي كل شيء باسمه، وعرضت عليه كل أمة[2]؛ حتى يستطيع أن يتعامل مع مجريات الأحداث في الكون. فآدم عليه السلام لو لم يكن قد تعلم الأسماء كلها لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده قائلًا ـ مثلًا ـ: انظر هل أشرقت الشمس أم لا؟

إذن كان لآدم عليه السلام أن يتعلم الأسماء كلها، وكان لا بد من معلم يعلمه إياها، والملائكة لا تدري ذلك فقد قالت: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ (البقرة).

لذا علَّمَه الحكيم الخبير عن طريق الوحي والإلهام، فقذف في قلبه ووجدانه وإدراكه الأسماءَ، والمسمياتِ. فهذا يدل على نبوته واصطفاء الله له، واللغة بنت المحاكاة فلا أحد يستطيع أن يتكلم إلا بعد أن يكون قد سمع من الآباء، والآباء سمعوا من الأجداد، وهكذا حتى تنتهي السلسلة إلى سيدنا آدم عليه السلام.

فممَّن سمع آدم عليه السلام حتى يتكلم؟! ومن أسمعه وعلَّمه الأسماء كلها وهو أول البشر؟ إنها قدرة الله الذي يوحي إلى من يشاء من عباده.. فهي مسألة يجب أن يعترف بها كل عاقل، والدليل على صدق ذلك هو أن المسميات قد تم عرضها على الملائكة فلم تعرف أسماءها ولم تتعرف على المسميات، وذلك من طلاقة قدرة الله تعالى.

---

١. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٤٨٥)، تفسير سورة البقرة، آية ٣١، برقم (٦٥٧).

٢. سلسلة القصص القرآني، د. حمزة النشرتي وآخرون، مؤسسة الأهرام، د. ت، القاهرة، ج١، ص١٩.

www.kalemasawaa.com

وإدراك آدم عليه السلام كان إدراكًا توفيقيًّا، أي أنه عرَّف كل اسم لكل مسمى كما خلقه الله تعالى، ثم نزل إلى الأرض لتتطور هذه المسميات، ويعمل العقل الإنساني لتطوير وتحديد الأشياء مما استدعى أن يضع لها أسماء مشتقة مما تلقاه آدم عليه السلام من الحق ﷻ[1].

وبعد أن علَّمَه الله تعالى الأسماء كلها أورث الله ﷻ هذا العلم لذريته من بعده، وبهذا العلم نشأت المجتمعات، وتطورت الحياة، وظهرت المخترعات.

٢. استخلافه في الأرض واختصاصه بالعديد من التشريعات والتكاليف التي يجب أن يبلغها البشر:

قال الحق ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، فالمتأمل لكلمة "خَلِيفَةً" يجد أن الخليفة هو مَن استخلفه الله تعالى في الأرض، وجعل الأشياء تتفاعل له؛ يوقِد النار فتشتعل، ويَزرَع الأرض فتنبت، ويَستأنس الحيوان فيأنس له، ويستخدم الأنعام في الطعام والتنقل ويأخذ منها اللبن ليشربه، والصوف ليغزله، وغيرها العديد من النعم التي لا تُعَدُّ ولا تحصى.

كل ذلك ما كان للإنسان أن يَعِيَه لولا أن مَنَّ عليه خالقه ﷻ بوحيه ذلك لعبده آدم عليه السلام حتى يُعلِّم ذريته من بعده؛ تتمة لسلسلة الفضائل والتكريمات والنعم.

وإمعانًا في ترابط البشر، وتعايشهم في أمن ونظام.. كانت التشريعات والتكاليف التي أمر الله آدم عليه السلام أن يُقَعِّدها من أجل سعادة البشر، واستقرارهم، ومن هذه التشريعات:

- **شريعة الزواج:**

فلا يكون النسل المشروع الذي يباركه الله إلا من زوجين سلكا الطريق الصحيح في التزاوج. هذا ما جرت عليه طبيعة الحياة التي اقتضتها حكمة الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم).

وقد حثَّ النبي ﷺ على الزواج قال ﷺ: "من استطاع الباءة[2] فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجاء"[3][4].

وقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء)[5].

إن هذا تعبير عن خلق جديد مستقل وليس من قبيل الصدفة فهو أمر محكوم بنظام دقيق وقوانين محكمة... حيث يختلف النوعان وينشأ عن التقائهما جنين قد يكون ذَكَرًا وقد يكون أنثى بعد مدة زمنية... هل هذا الأمر المنظم بدقة يمكن أن يكون صدفة؟!

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص١١، ١٢ بتصرف.

٢. الباءة: الجماع.

٣. وِجاء: وقاية.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة (١٨٠٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة (٣٤٦٦).

٥. بثَّ: نشر.

www.kalemasawaa.com

إن هذا النظام الدقيق الذي أوجد اللقاء بين الرجل والمرأة على لذة ومتعة واشتهاء؛ ليكون به عِمارة الكون على أسس وقواعد محسوبة من التكليف[١]. عن طريق الوحي، والله لا يوحي إلا إلى الأنبياء، فكيف تُنكَر نبوة آدم عليه السلام وقد أُوحي إليه بهذه التكاليف وتلك الشرائع؟!

وعلى هذا فقد أُمِرَ آدم عليه السلام بتكليف من ربه ﷻ أن يتزوج كل من ولديه توأم أخيه، فقد كانت السيدة حواء تلد اثنين في كل بطن... ولذلك أمر آدم عليه السلام ابنيه قابيل وهابيل، أن يتزوج كل منهما توأم أخيه، وألا يتزوج الأخت التي ولدت له، وسوف يتضح لنا بعد عرض أحداث قصة قابيل وهابيل أن الأخ القاتل قد فعل هذا ليبرأ من عصيان أمر أبيه الذي هو وحي سماوي لنطمئن إلى نبوة آدم عليه السلام، أما رسالته فالأمر فيها مختلف وشأنه أن نُفوِّض[٢] علم ذلك إلى الله[٣].

- **النهي عن القتل وسفك الدماء:**

وإذا عُدْنا أدراجنا[٤] إلى المشهد السابق من قصة قابيل وهابيل، فإننا نجد التكليفات والشرائع التي بلغها آدم عليه السلام لأبنائه تشهد بنبوته؛ فامرأة هابيل التي هي توأم قابيل كانت أجمل من توأم هابيل، فأباها قابيل على أخيه، وأرادها لنفسه، ثم اتفقا على أن يحتكما إلى الله ﷻ وذلك بأن يقدم كل منهما قربانًا[٥] إليه سبحانه، فتقبَّل الله من هابيل ولم يتقبل من قابيل الذي ظل على موقفه العِنادي، وعداء أخيه، وعصيان الله، وهداه شيطانه وسلطان الهوى إلى قتل أخيه الذي حكى عنه القرآن خشيته من الله، وتقواه له، وملاطفته لأخيه قال ﷻ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ (المائدة).

إن الذي حَمَل قابيل على ارتكاب هذه الجريمة في حق أخيه وأبيه ـ بل في انتهاك حرمات الله، فقد قتل نفسًا بغير وجه حق ـ إنما هو الحسد، الذي بسببه طُرِد إبليس من الجنة، وبسببه أُلْقِي يوسف في الجُبِّ[٦]، وبسببه كفر من كفر.

وقوله ﷻ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۖ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ (المائدة)، دعوة من الأخ الصالح إلى أخيه بالهدى والتقوى. فهو يخبره أن رضا الله تعالى مقرون بطاعته واتباع أوامره، فلو كان تقيًّا مثله لقبل قربانه، ولكنه يتمادى في غيه، ويصر على قتله. بينما يستمر التقي في دعوته إلى الهدى، ويكشف له معالم الطريق إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويلقاه ملاطفًا موادعًا.

فمن أين عُرِفت هذه الأخلاق وتلك التشريعات من الحلال والحرام؟ ومن أين عُرف ما يرضي الله وما يغضبه إلا أن يكون وحيًا يوحي؟ وإذا كان القرآن لم

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص١٠: ١٢.

٢. نفوِّض: نسلِّم.

٣. للمزيد انظر: قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٢٤ وما بعدها.

٤. أدراجنا: رجعنا.

٥. القُربان: ما يُتَقَرَّب به إلى الله.

٦. الجُبُّ: البِئْر.

www.kalemasawaa.com

يذكر آدم عليه السلام بالنبوة صراحة فقد أشار إلى ذلك كما سبق في الآيات وذكره مع مَن اصطفاهم بالنبوة وأوحى إليه كما أوحى إلى أنبيائه. فكيف يأتي بعد ذلك مَن ينكِر نبوة آدم عليه السلام ويزعم أنه لم يكن نبيًّا.

الخلاصة:

- لم يذكر القرآن الكريم نبوة آدم عليه السلام كما ذكر غيره من الأنبياء، ولكن ذكر أن الله خاطبه بلا واسطة، فأحل، وحرم، وأمر، ونهى، دون أن يُرسِل إليه رسولًا. وهذا معنى النبوة.
- ومن دلائل نبوة آدم عليه السلام:
  - أن الله تعالى أوحى إليه بتعليم الأسماء دون الملائكة الكرام، إذ لم تعرف عندما عرض الله عليهم الأسماء والمسميات، إذن كان هناك إلهام ووحي؛ وعلى هذا فسيدنا آدم ليس بشرًا عاديًّا بل هو نبي موحى إليه.
  - كذلك فقد أراد الله تعالى بعد خلق آدم عليه السلام خلق ذرية تكون خليفته في الأرض تعمرها ويتحقق مراد الله من وجودها.. وكان لزامًا أن تعي البشرية العديد من التشريعات والأحكام الإلهية التي تساعدها على الاستقرار وتحمل مَغَبَّة [1] هذه الحياة التي لم يجربوها من قبل، فكان إرشادهم تكريمًا من الله عز وجل وفضلًا. ومن هذه التشريعات شريعة الزواج، والنهي عن القتل وسفك الدماء... إلخ. ومن ثم فلا يصح أن يَدَّعِي الواهمون عدم نبوة آدم عليه السلام.

١. مَغَبَّة: عاقبة.

الشبهة السادسة

الزعم أن آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ قد أشركا بالله تعالى (*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن آدم عليه السلام قد أشرك بالله تعالى هو وزوجه حواء ـ عليهما السلام ـ حينما جاءهما الشيطان ونصحهما أن يُسميا ولدهما عبد الحارث[2]؛ كي يحيا، وكان لا يعيش لهما ولد قط.. ويستدلون على ذلك بقول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف)، كما يستدلون بحديث الصحابي الجليل سَمُرَةَ بن جُنْدُبٍ رضي الله عنه: "لما حملت حواء، طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمّوه عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره"[3]. ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك في عصمة آدم عليه السلام.

(*) مكتبة شبكة التفسير، والدراسات القرآنية.
www.tafsir.com

® في "ثبوت عصمة آدم" طالع: الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

٢. الحارث: هو اسم إبليس.

٣. ضعيف: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث سمرة بن جندب عن النبي ﷺ (٢٠١٢٩)، والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأعراف (٣٠٧٧)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٤٢).

www.kalemasawaa.com

وجه إبطال الشبهة:

اتفق العلماء على تنزيه آدم عليه السلام وعصمته من الشرك واختلفوا في قبول الحديث وتأويل الآية على مذهبين:

- قبول الحديث والآية على ظاهرهما في قصة آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ والقول أن الشرك لم يكن شركًا في العبادة بل شركًا في التسمية أو الطاعة.
- تضعيف الحديث وتأويل الآية في غير آدم وحواء، وإنما للجنس البشري عمومًا، فالشرك لم يقع منهما ولكن كان في ذريتهما من بعدهما.

التفصيل:

مذاهب العلماء في تفسير الآية والحديث:

اتفق العلماء على تنزيه مقام آدم عليه السلام من الشرك، وأن ذلك لم يقع منه، ولا من الأنبياء قط، وقد عدُّوا هذه الآية والحديث الوارد في تفسيرها من مشكلات التفسير، ولهم في تأويلها أقوال خلاصتها راجعة إلى مذهبين:

الأول: مذهب قبول الحديث، والآية على ظاهرهما في قصة آدم وحواء:

وهذا رأي الجمهور من المفسرين، حيث ذهبوا إلى أن الآية معني بها آدم وحواء ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ حيث سميا ابنهما عبد الحارث. ورُوِي ذلك عن: أُبَي بن كَعْبٍ، وسمرة بن جندب، وابن عباس. وهو اختيار جمع من المفسرين كما سيأتي ذكرهم. واختلف هؤلاء في معنى الشرك المضاف إلى آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ على أقوال:

القول الأول: أنه كان شركًا في التسمية، ولم يكن شركًا في العبادة كما روي عن قَتَادَةَ، والسُّدِّي، واختاره الطَبَرِي، والبَغَوِي، والأَلُوسِي... وغيرهم[1].

قال البغوي: جعلا له شريكًا إذ سمياه عبد الحارث، ولم يكن هذا إشراكًا في العبادة، ولا أن الحارث ربهما؛ فإن آدم عليه السلام كان نبيًّا معصومًا من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه، وقد يُطْلَق اسمُ العبد على من يراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف، على وجه الخضوع، لا على وجه أن الضيف ربه، ويقول للغير أنا عبدك، وقال يوسف عليه السلام لعزيز مصر: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف)[2]، ولم يُرِد به أنه معبوده، كذلك هذا.

القول الثاني: أنه كان شركًا في الطاعة، ولم يكن شركًا في العبادة. وهذا هو المروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة.

القول الثالث: أن أي إشراك وقع من حواء لا من آدم عليه السلام ولم يشرك آدم قط، وأما قوله: "جعلا له شركاء فيما آتاهما" بصيغة المثنى فلا ينافي ذلك؛ لأنه قد يسند فعل الواحد إلى الاثنين، بل إلى جماعة، وهو شائع في كلام العرب وهذا قول القِنَّوْجِي[3].

واعترض عليه من قال: بأن الله تعالى قال: "جعلا"

---

١. انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٧، ص٣٣٨. مكتبة شبكة التفسير والدراسات القرآنية. www.tafsir.com

٢. هَيْت لك: هلُمَّ وأقبل علي.

٣. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١م، ٨/ ٣٦٧.

www.kalemasawaa.com

حيث نسب الجعل إليهما، والأصل حمل اللفظ على ظاهره، وبأن آدم عليه السلام قد أقرَّ حواء على ذلك، وبأنه في حديث سمرة رضي الله عنه التصريح بأنهما سمياه بذلك معًا[1].

أدلة هذا المذهب:

استدل القائلون بأن الآية معنيٌّ بها آدم وحواء بأدلة منها:

- حديث سمرة رضي الله عنه، وقد صرح بعضهم بصحته، والآخر سكت بما يشعر بإقراره بصحة الحديث.
- أن هذا المذهب هو المروي عن سمرة، وأُبي بن كعب، وابن عباس رضي الله عنهم، ومثل هذا لا يقال بالرأي، فدل على أن للقصة أصلًا؛ فيكون لها حكم الرفع.

الاعتراض على هذا المذهب:

اعتُرِض على هذا المذهب بقوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف) بصيغة الجمع، فلو كان المراد آدم وحواء عليهما السلام لقال: يشركان، بصيغة التثنية، وفي هذا دلالة واضحة بأن الآية معنيٌّ بها الذرية لا آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ.

ردهم على الاعتراض:

وقد أجابوا بأن آخر الآية معنيٌّ بها مشركو العرب من عبدة الأوثان، وأن الخبر عن آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ قد انقضى عند قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ وهذا رأي الطبري، والسُّيُوطِيِّ وغيرهم[2].

المذهب الثاني: مذهب تضعيف الحديث، وتأويل الآية في غير آدم وحواء.

حيث ذهب آخرون إلى تضعيف حديث سمرة رضي الله عنه، وأن الشرك المذكور في الآية معنيٌّ به غير آدم وحواء عليهما السلام، واختلفوا في المعني به على أقوال:

القول الأول: أن الشرك نُسِبَ إلى آدم، وحواء ظاهرًا، والمعني به أولادهما، كاليهود، والنصارى، والمشركين. وآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ بريئان من الشرك، والآية فيها انتقال من ذكر النوع إلى الجنس؛ فإن أول الكلام في آدم وحواء عليهما السلام، ثم انتقل الكلام إلى الجنس من أولادهما.

وقد اشتهر هذا القول عن الحسن البصري، ورُوِي عن ابن عباس في إحدى الروايات عنه[3].

قال الحسنُ البَصْرِي في تفسير الآية: "كان هذا في بعض أهل المِلَل[4] ولم يكن بآدم"، وعنه قال: "عني بهذا ذرية آدم من أشرك منهم بعده". وعنه قال: "هم اليهود، والنصارى رزقهم الله أولادًا فهوَّدوا، ونَصَّرُوا".

واختار هذا القول جمع من المفسرين منهم: النَسَفِي، والقُرْطُبِي، وابنُ الْقَيِّم، وابنُ كَثِير، والسِّعْدِي، ... إلخ.

قال الزَمَخْشَرِي: في قوله عز وجل: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾:

---

١. روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ٩/ ١٨٩.

٢. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧م، ١/ ٢٨١.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٧، ص٣٣٨، ٣٣٩.

٤. المِلَل: جمع مِلَّة، وهي الشريعة والدين، وهي اسم لما شرَع الله لعباده بواسطة أنبيائه؛ ليتوصلوا به إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وتطلق كذلك على الطائفة الدينية، وهي المجموعة المتحدة بعقيدة مشتركة، وتحت اسم واحد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ (الكهف: ٢٠).

www.kalemasawaa.com

أي جعل أولادُهما له شركاءَ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك فيما آتاهما، أي آتى أولادهما.

وآدم وحواء عليهما السلام بريئان من الشرك، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادَهم بعبد العُزَّى، وعبد مَنَاة، وعبد شمس، وما أشبه ذلك، فكان عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم[١].

وقال الحافظ ابن كثير: وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري ـ رحمه الله ـ في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، فذكر آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ أولًا كالتَّوْطِئة[٢] لما بعدهما من الوالدين، وهي كالاستطراد[٣] من ذكر الشخص إلى الجنس، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ (المؤمنون)، وقوله تبارك تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ (الملك).

ومعلوم أن المصابيح، وهي النجوم التي زُيِّنت بها السماء، ليست هي التي يُرمَى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم".

الاعتراض على هذا القول:

اعترض على هذا القول بأن فيه تشتيتًا للضمائر، والأصل اتساق الضمائر، وعودها لمذكور واحد.

أي أن الضمائر في الآية للمثنى فكيف يقصد بها الجمع.

القول الثاني: أن الآية معني بها المشركون من بني آدم عمومًا، وليس فيها تعرض لآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ بوجه من الوجوه. وهذا اختيار: ابن حَزْمٍ، والرَّازِي، والقَفَّال، وابن عُثَيْمِين... وغيرهم.

قال القَفَّال: "ذكر الله تعالى هذه القصة على سبيل ضرب المثل، وبيان أن هذه الحالة صورة من حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك، وتقرير هذا الكلام، كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها إنسانًا يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل؛ دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدًا صالحًا سويًّا لنكونن من الشاكرين لآلائك[٤]؛ فلما آتاهما الله ولدًا صالحًا سويًّا جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما؛ لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع، كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام، ثم قال تعالى: "فتعالى الله عما يشركون": أي تنزه الله عن ذلك الشرك"[٥].

واعترض على هذا القول:

١. بأن قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ

١. الكشاف، الزمخشري، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، د. ت، ٢/ ١٨٠.
٢. التَّوْطِئة: التمهيد.
٣. الاستطراد: الخروج.
٤. الآلاء: جمع الأَلَى أو الإِلى، أي النعمة.
٥. مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق، ١٥/ ٧١. محاسن التأويل، القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٤٠.

www.kalemasawaa.com

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾(الأعراف:١٨٩) لا يصح حمله على غير آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ؛ فهي ضمائر تثنية عائدة على المذكورة في أول الكلام وهي آدم وحواء.

٢. وبقوله: "دعوا الله ربهما" فإن كل مولود يولد من الجنسين لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء[١]. أي أن الزوجين وخاصة الكفار لا يكون منهما هذا الدعاء قبل وضع الولد.

القول الثالث: أن المشركين كانوا يقولون: إن آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام ويرجع إليها في طلب الخير ودفع الشر، فذكر تعالى قصة آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ وحكى عنهما أنهما قالا: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٨٩) أي ذكرا أنه تعالى لو آتاهما ولدًا سويًّا صالحًا لاشتغلوا بشكر تلك النعمة، ثم قال: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾(الأعراف) فقوله: "جعلا له شركاء" ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الإنكار، والتبعيد، والتقرير، والمعنى: أجعلا له شركاء فيما آتاهما؟ ثم قال: "فتعالى الله عما يشركون" أي: تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه إلى آدم عليه السلام.

ذكر هذا التأويل: الفَخْرُ الرَّازِي في تفسيره[٢].

ويرده أن هذه الآية الكريمة وردت بصيغة الخبر، وحملها على معنى الاستفهام يفتقر إلى دليل، وليس ثمة دليل.

القول الرابع: أن الخطاب لقريش، الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصي.

والمراد من قول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي قصي وجعل من جنسها زوجها، عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما، حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد اللات، وجعل الضمير في "يشركون" لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك. ذكر هذا التأويل: الزمخشري، والبيَضْاوِي.

الاعتراض على هذا القول:

قال ابن جزي: وهذا القول بعيد لوجهين:

أحدهما: أن الخطاب على هذا خاص بذرية قصي من قريش، والظاهر أن الخطاب عام لبني آدم.

والآخر: أن قوله: "وجعل منها زوجها" فإن هذا يصح في حواء؛ لأنها خلقت من ضلع آدم، ولا يصح في زوجة قصي.

القول الخامس: أن الضمير في قوله: "جعلا" راجع إلى الولد الصالح، والمعنى جعل ذلك الولدُ الصالحُ ـ الذي رزقهما الله إياه ـ جعل لله شركاء، وإنما قال: "جعلا" لأن حواء كانت تلد في كل بطن ذكرًا وأنثى. ذكره ابن الجَوْزِي، والجَصَّاص[٣].

---

١. فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ٢/ ٤٠١.

٢. مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، مرجع سابق، ١٥/ ١٧.

٣. أحكام القرآن، الجصاص، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت، ٣/ ٤٩. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ، ٣/ ٢٣١.

www.kalemasawaa.com

الترجيح[1]:

الراجح لدينا ـ والله تعالى أعلى وأعلم ـ أن الآية ليست في آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ، وإنما هي خطاب للمشركين من قريش وغيرهم، والمقصود بها ضرب المثل، وأن هذه حالة المشركين، فهو سبحانه يذكر أنه خلق كل واحد منهم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها، ولما كان من طبيعة البشر حب الولد ذكر الله تعالى أن هذين الزوجين كانا حريصين على أن يُرزقا بولد صالح لينتفعا به، وأنهما قد عاهدا الله لإن آتاهما صالحًا ليكونن من الشاكرين، فلما آتاهما صالحًا جعلا لله شركاء فيما آتاهما، حيث نسبا هذه النعمة لغير الله، وعبَّدا أولادهما لغير الله، ثم أخبر سبحانه أنه بريء مما يشرك به هؤلاء، وغيرهم؛ فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف).

والآية الكريمة مراد بها ذكر الجنس لا النوع؛ فقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي من جنس واحد، وقوله: "وجعل منها زوجها" أي وجعل من هذا الجنس زوجة هي على شاكلته، ولم يجعلها من جنس آخر، ولفظ النفس قد يطلق ويراد به الجنس كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران)، أي من جنسهم.

أدلة هذا المذهب:

الدليل الأول: قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف)، وهذا يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة، ولو كان المراد آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ، لعبر عنهما بصيغة التثنية.

الدليل الثاني: أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ (الأعراف)، وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، وليس المراد بها آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ.

الدليل الثالث: لو كان المراد إبليس لقال: أيشركون "من" لا يخلق شيئًا ولم يقل "ما"؛ لأن العاقل إنما يذكر بصيغة "من" لا بصيغة "ما".

الدليل الرابع: أن هذا القول فيه تنزيه لمقام آدم عليه السلام من الشرك والقول الذي فيه تنزيه وإجلال لمقام الأنبياء، مقدم في التفسير على القول الذي فيه قدح بعصمتهم، وحط من منزلتهم.

الدليل الخامس: أن المروي عن سمرة رضي الله عنه في تفسير الآية لم يثبت بسند صحيح، وعليه فلا يصح حمل الآية على أمور مُغَيَّبة لم يثبت فيها دليل من كتاب أو سنة.

الدليل السادس: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ، لكان حالهما إما أن يتوبا من ذلك الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا ماتا عليه، كان في هذا القول فرية عظيمة؛ لأنه لا يجوز موت أحد من الأنبياء على الشرك.

وإن كانا قد تابا من الشرك، فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه،

---

١. التحقيق فيما نسب إلى آدم وحواء، أحمد بن عبد العزيز القصير، شبكة التفسير والدراسات القرآنية، في تفسير سورة الأعراف، آية ١٩٠: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾.

www.kalemasawaa.com

فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ وقد تابا، ثم لا يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم عنها، كما في قصة آدم نفسه عليه السلام حين أكل من الشجرة هو وزوجه ـ عليهما السلام ـ وتابا عن ذلك.

الدليل السابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم عليه السلام يطلبون منه الشفاعة فيعتذر بأكله من الشجرة التي عصى الله تعالى بالأكل منها في الجنة، فلو كان وقع منه الشرك، لكان اعتذاره منه أقوى وأولى وأحرى.

الدليل الثامن: أن الله تعالى أسند فعل الذرية إلى آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ؛ لأنهما أصل لذريتهما، كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ (الأعراف)، أي بتصويرنا لأبيكم آدم عليه السلام؛ لأنه أصلكم، بدليل قوله بعده: "ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم".

الدليل التاسع: أن الله تعالى قال في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء)، وآية النساء معنيٌّ بها آدم، وحواء ـ عليهما السلام ـ باتفاق، وعبّر بقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؛ لأن حواء مخلوقة من نفس آدم عليه السلام، وأما في آية الأعراف فقال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الأعراف: ١٨٩) لأن المراد ذكر الجنس، لا ذكر النوع وهو آدم عليه السلام، والفرق بين الخلق والجعل: أن الخلق هو ابتداء الشيء من غير مثال سابق، وأما الجعل فهو إيجاد شيء وتكوينه منها[1]، وهذا هو حال كل فرد من بني آدم؛ فإنهم يتناسلون ويتوالدون من بعضهم البعض، وأما حواء فإنها خلقت ابتداء من آدم عليه السلام من غير أم ولا أب.

وقد وردت عدة آيات تدل على أنه إذا ورد لفظ "جعل" فالمراد به الجنس، منها: قوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (النحل)[2]، وقال عز وجل: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ (الزمر)[3]، وقال عز وجل: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى).

الدليل العاشر: ومما يؤكد أن الآية معني بها المشركون على وجه العموم: أنه لم يصرح بذكر آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ في الآية، والمتأمل في قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم يلاحظ التصريح بذكر أسمائهم، ومن هؤلاء آدم عليه السلام؛ فإنه إذا ذكرت قصته يذكر باسمه الصريح غالبًا.

الدليل الحادي عشر: ويدل على أن الآية في المشركين

---

١. انظر تفاسير: الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق. مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق. تفسير النسفي، النسفي،دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت، عند تفسير آية الأعراف التي نحن بصددها.

٢. حَفَدَة: حفدة الرجل: أولاد أولاده.

٣. فأنَّى تُصْرَفُون: عجبًا! كيف تصرفون عبادتكم لغيره؟

www.kalemasawaa.com

عامة: الاستطراد في الآيات التي بعد هذه الآية في وصف حال مشركي العرب، وهي صريحة بأنهم هم المرادون بهذا الشرك، وليس آدم وحواء عليهما السلام.

قال ﷻ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (الأعراف).

الدليل الثاني عشر: أنه لم يثبت دليل على أن الآية معنى بها آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ إلا ما رُوي من حديث سمرة ﷺ، وهو ضعيف ـ كما تقدم ـ وما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في الآية يُعدُّ من الإسرائيليَّات [١] الملفقة التي أُخِذَت عن أهل الكتاب، وإنما التَبس على كثير من المفسرين الأمر، وظنوا أنها في آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ بسبب هذه الروايات، وهذه آفة من آفات الإسرائيليات، والتي تعتبر من الدخيل السيئ في التفسير [٢].

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ سيد قطب: "إن بعض الروايات في التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين، فجاء إليهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمي ما في بطنها "عبد الحارث"... والحارث اسم لإبليس؛ ليولد صحيحًا ويعيش؛ ففعلت وأغرت آدم ﷺ معها. وظاهرٌ ما في هذه الرواية من طابع إسرائيلي، ذلك أن التصور الإسرائيلي المسيحي ـ كما حرفوا ديانتهم ـ هو الذي يُلقي عبء الغواية على حواء وهو مخالف تمامًا للتصور الإسلامي الصحيح... ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات لتفسير هذا النص القرآني... فهو يصور مدارج الانحراف في النفس البشرية... ولقد كان المشركون على عهد رسول الله ﷺ وقبله، يَنذِرون بعض أبنائهم للآلهة أو لخدمة معابد الآلهة تقربًا وزُلْفَى [٣] إلى الله! ومع توجههم في أول الأمر لله، فإنهم بعد دحرجة قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا يَنْذِرُون أبناءهم لهذه الآلهة لتعيش وتصبح وتُوقَّى المخاطر" [٤].

الخلاصة:

- اتفق العلماء على تنزيه مقام آدم ﷺ من الشرك وأن ذلك لم يقع منه ولا من الأنبياء قط، وقد عدُّوا هذه الآية والحديث الوارد في التفسير عند بعضهم من مشكلات التفسير، ولهم في تأويلها أقوال خلاصتها راجعة إلى مذهبين:

الأول: مذهب قبول الحديث والآية على ظاهرهما في قصة آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ مع القول الشرك المضاف إليهما هنا ليس شركًا في العبادة، وإنما هو شرك في التسمية أو الطاعة.

الثاني: مذهب تضعيف الحديث، وتأويل الآية في

---

١. الإسرائيليَّات: الأخبار المنقولة عن اليهود في كتب التفسير أو التاريخ وغيرهما.

٢. انظر: التحقيق فيما نسب إلى آدم وحواء، عبد الرحمن بن عبد العزيز القصير، مرجع سابق، في تفسير آية ١٩٠ من سورة الأعراف.

٣. الزُّلْفَى: القُرْبَى.

٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص١٤١٢.

www.kalemasawaa.com

غير آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ، وإنما هي في أولادهما، والمعني بها المشركون من بني آدم عمومًا وليس فيها تعرض لآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ بوجه من الوجوه، وهذا هو الراجح.

كلا المذهبين يبرئ آدم عليه السلام من الشرك؛ لأنه لا يصح أن يقع من نبي من أنبياء الله، فهم معصومون بعصمة الله تعالى من ذلك وغيره، مما لا يليق بمقام الأنبياء.

الشبهة السابعة

الزعم أن القرآن أخطأ في ذكر اسم إدريس عليه السلام وقصة رفعه حيًّا إلى السماء(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم أخطأ في قصة إدريس عليه السلام، ويستدلون على زعمهم هذا بأن اسمه في التوارة ليس إدريس ولكنه أخنوخ، كما يزعمون أن قوله تعالى في إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم) مستوحى من بعض الأساطير التي ذكرت أنه شخص كُتب له الخلود وأُدخل الجنة حيًّا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) وردت أسماء مختلفة لنبي الله إدريس عليه السلام في ثقافات مختلفة (المصرية ـ السامرية ـ اليونانية)، وهذا جائز لاختلاف طبيعة اللغات، فلماذا يُنكَر ذلك على القرآن الكريم وهو مقدم على غيره لثبوت صحته؟! ولا ينكَر على غيره من الثقافات والديانات المحرفة؟!!

٢) من أساسيات عقيدة الإسلام أن البقاء والخلود لله وحده، وأن الفناء والموت من صفات المخلوقين ولا يُستَثنى من ذلك أحد.

٣) لم ينص القرآن الكريم ولا السنة على خلود إدريس عليه السلام أو أنه رفع إلى السماء حيًّا.

٤) اتفقت أقوال المفسرين على أن إدريس عليه السلام قُبض ومات شأنه شأن المخلوقات جميعًا، وما ورد بخلاف ذلك، هو محض روايات أسطورية لا تتفق مع حقائق الإسلام بشأن قبض الأرواح.

التفصيل:

أولا. ورود أسماء مختلفة للشخص الواحد في اللغات المتعددة أمر طبيعي:

الاسم الواحد لمعين سواء كان عَلَمًا على شخص أو مكان أو غير ذلك، قد يرد مختلفًا من لغة أو ثقافة إلى أخرى. وهذا لا يعني خطأ في لغةٍ وصوابًا في أخرى، بل إن ذلك الاختلاف ناشئ من اختلاف النطق والهجاء والتركيب، وكذلك قواعد النحو والنظام الصوتي.

ولقد ورد اسم إدريس عليه السلام في التوراة السامرية "أخنوخ"، وذلك في سفر التكوين "وسار أخنوخ مع الله، ولم يُوجَد لأن الله أخذه". (التكوين ٥: ٢٤). وهو في اليونانية أرميس، وعُرِّبَ بهرمس، ومعنى أرميس عطارد، وهو عند المصريين هرمس الهرامسة، وفي القرآن الكريم إدريس، وقيل: سمي إدريس لكثرة دراسته كتاب الله عز وجل، إذ روي أن الله تعالى أنزل عليه

(*) موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق المستشرقين، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

ثلاثين صحيفة، وأنه أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب، قال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦﴾ (مريم)، علمًا بأن التوراة اليونانية تضيف حرف السين في آخر الاسم ليعلم أنه اسم مثل: يوسيفوس، وإدريس في آخره السين، وكذلك يونس عليه السلام وهو في العبرية "يونان"، وعيسى عليه السلام في اليونانية "إيسوس" وفي العبرية "يهوشوع"، وينطق أحيانا "أيشوع" و "يسوع"[1].

وهكذا نجد أن اسم سيدنا إدريس عليه السلام قد اختلف من لغة إلى أخرى ومن ثقافة إلى أخرى، فلماذا يُنكَر على القرآن الكريم مع العلم بأنه الكتاب الوحيد الذي ثبت عدم تحريفه أو تغييره؛ بل هو محفوظ كما نزل من عند الله وذلك بشهادة الدارسين المحايدين من المسلمين وغير المسلمين من أهل الاختصاص في هذا المجال.

وعلى النقيض تمامًا فقد أثبتت الدراسة المحايدة من أهل الاختصاص تحريف وتبديل ما عدا القرآن الكريم من الكتب السماوية، فضلًا عن الثقافات البشرية التي ليس لها ما لتلك الكتب من العصمة والقداسة.

ومعلوم أن ما ثبتت حجته مقدم على ما لم تثبت حجته، ومع هذا فإننا لا ننكر الأسماء السابق ذكرها لسيدنا إدريس عليه السلام في الثقافات والديانات الأخرى، وذلك أن الخلاف في الاسم خلاف شكلي لا يعني بالضرورة خطأ الاسم عندنا أو عند غيرنا.

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥/ ٢٠٠٤م، ص٤٨٤.

ثانيًا. الدوام والخلود لله وحده في عقيدة التوحيد الإسلامية:

يجب أن نثبت قواعد الإسلام العقائدية قبل مناقشة أي مجادل، فمن أوائل القواعد العَقَدِيَّة في الإسلام: قاعدة مبدأ الفصل بين صفات الله وصفات الخلق، فأول صفات الله ﷻ صفة الوحدانية، وهي تَفَرُّدُ الله تعالى بصفات الألوهية وحده، ومنها البقاء بلا نهاية، أي: دوام البقاء والخلود، فالله باق بذاته ولا شريك له في هذه الصفة، فلا يوصف نبي ولا رسول بهذه الصفة عند المسلمين.

أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فإنهم اعتادوا الخلط بين صفة الخالق سبحانه وصفة الخلق، لذلك نسبوا إلى الله الزوجة والولد، وعندهم اختلط اللاهوت والناسوت[2]، فلا عجب أن يقول اليهود: عُزَيْرٌ ابن الله ويعطونه صفات الألوهية ومنها الخلود، ويقول النصارى: المسيح ابن الله ويعطونه صفات الألوهية ومنها الخلود، أما المسلمون فلا خلط عندهم بين صفات الخالق وصفات المخلوق، فلا يعطون الخلود لمخلوق قط، قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤﴾ (الأنبياء).

والخلود قسمان: خلود الذات، وخلود الزمان، فأما خلود الذات فهو وصف لله وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه، وأما خلود الزمان فهي صفة الخلق في الجنة والنار، والصفتان مستحيلتان في الدنيا، فليس في

٢. اللاهوت والنَّاسوت: اللاهوت: الألوهية في مقابل الناسوت لطبيعة الإنسان، وعلم اللاهوت علم يبحث عن العقائد المتعلقة بالله، وربما أطلق الأول على الروح، والثاني على البدن، أو أطلق الأول على العالم العلوي، والثاني على العالم السُّفلي.

www.kalemasawaa.com

الدنيا خلود ذاتي ولا مكاني ولا زماني: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ (الرحمن)، ونقصد دنيا الخلق ولا يدخل فيها الخالق ﷻ.

ونحن نسأل هؤلاء: هل كتب الله سبحانه الخلود لأحد من خلقه في دنيا الناس من حولنا؟ عقيدتنا ـ والواقع يؤكدها ـ أن أحدًا لا يمكن أن يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب؛ لأن الفناء شأن المخلوقات جميعًا، ولا خلود في اعتقادنا ـ نحن المسلمين ـ لبشر مهما عظمت منزلته وارتفعت درجته، وقد كتب الله الموت على رسوله محمد ﷺ وهو أفضل الرسل وأحبهم إلى الله، وإذا كان الله ﷻ قد كتب الموت على محمد ﷺ فلماذا يكتب الخلود لإدريس عليه السلام؟!

فلا خلود في اعتقادنا ـ نحن المسلمين ـ لبشر وإنما البقاء لله وحده، ولا يَعنينا ما فهمه بعضهم من بعض الروايات من معنى الخلود أو البطولة الأسطورية مما يوافق روايات يهودية أو نصوص توراتية، فالثابت أن هذه الكتب السماوية السابقة على القرآن قد حُرِّفت عن أصولها السماوية الصحيحة، خصوصًا ما توجَّه لبني إسرائيل الذين حكم القرآن بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه.

وهذا ـ كما هو معروف ـ دَيْدَنُ[1] المغالطين من المستشرقين ممن يقعون على الروايات الضعيفة، والأخبار المنقطعة والآراء المرجوحة، فَيبْرُزونها ويجعلونها أصلا، لا سيّما إذا توافقت مع مقولة في التوراة أو الإنجيل المحرَّفَيْن، ليؤيدوا القول بأن القرآن مشتق منهما، وأن محمدًا ﷺ قد لفَّقه من كتب الأقدمين؛ وذلك لإنكارهم نبوَّة محمد ﷺ وسماوية القرآن، ويسلكون لإثبات ذلك كل سبيل.

ثالثًا. لم ينص القرآن الكريم ولا السنة النبوية على خلود إدريس عليه السلام أو أنه رفع إلى السماء:

إن الذي يُحسَب على الإسلام هو ما صرح به القرآن الكريم، وما جاء في صحيح السنة، وأمَّا ما جاء في غيرهما على ألسنة المفسرين فيؤخذ منهم ويُرد عليهم، وما نقلوه عن أهل الكتاب إن وافق ما في الكتاب والسنة قبلناه، وإن خالفهما رددناه، وإن لم يوافقه، ولم يخالفه لا نصدقه، ولا نكذبه، بل هو قول يحتمل الصدق والكذب.

والذي جاء في القرآن الكريم عن إدريس عليه السلام قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (الأنبياء). فهو عليه السلام نبي مرسل صابر صالح له مكانة عالية رفيعة عند الله ﷻ، وهو ممن أدخلهم الله سبحانه في رحمته.

وأما أهل التوراة فليس عندهم من العلم بشأن إدريس عليه السلام إلا أن أخنوخ وُلد له وَلَدٌ، وهو ابن خمس وستين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثمائة سنة، ولم يوجد بعد، لأن الله أخذه، فالله تعالى أعلم بشأنه.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم). لم تنص على أن إدريس عليه السلام رفع حيًّا إلى السماء، إن معنى الآية: ورفعنا ذكره وأعلينا قدره بشرف النبوة والزُّلفى عند الله[2].

---

١. دَيْدَنُ: شَأْن.

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٨، ٣٩..

www.kalemasawaa.com

وما جاء في حديث المعراج[١] من أن النبي ﷺ لقيه عليه السلام في السماء الرابعة ليس دليلًا على رفعه حيًّا؛ فقد لقي ﷺ في السماوات موسى وهارون ويوسف ويحيى وإبراهيم ـ عليهم السلام ـ ولم يُرفَعوا أحياء؛ أما ما ورد في كتاب "تاريخ الحكماء" للقِفْطِي من أن إدريس أول من أنذر بالطوفان، فخاف من ذهاب العلم، فبنى الأهرام والبرابي؛ المِسَلَّات في صعيد مصر، وصور فيها الصناعات، ورسم فيها العلوم حرصًا منه على تخليدها لمن بعده[٢]؛ فهي أخبار لم تُؤَيَّد بنقل صحيح، ولم يُعَضِّدها[٣] نص قاطع نشهد به على الله تعالى أنه صنعه لعبده ونبيه إدريس عليه السلام، وكلها أقوال مما جمعها حُطَّاب الليل من المفسرين الذين لا همَّ لهم إلا جمع كل شاردة وواردة، دون النظر إلى صحتها، ومعظمها أشبه ما تكون بالخرافات.

لذلك فإن الباحثين في هذه الأمور وأهل التاريخ القديم لا يجدون في بحوثهم ما يؤيد هذه الأخبار، بل يجدون ما يناقضها من العلم بأسماء بناة الأهرام والملوك الأولين الذين قاموا بالدولة في مصر مثل مينا، وخوفو، وخفرع وغيرهم، من الذين شيدوا المعابد، ونقشوا عليها ما هو ماثل اليوم، وذلك كله بخطوط خاصة يقرءونها ويفسرونها[٤].

رابعًا. اتفقت أقوال المفسرين على أن إدريس عليه السلام قُبض ومات، شأنه شأن المخلوقات جميعًا، وما ورد بخلاف ذلك هو محض روايات لا تتفق مع حقائق الإسلام بشأن قبض الأرواح:

لقد أوضحنا أنه ليس هناك ثمة نص يدل على خلود إدريس عليه السلام ورفعه حيًّا إلى السماء، أمّا قوله ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم)، فهذا لا يدل على رفعه إلى السماء حيًّا، بل قد لا يكون المراد منه الرفع الحقيقي، ولهذا قال جماعة من المفسرين: هو رفع مجازي، وأما حديث الإسراء فلا حجة فيه أنه رفع إلى السماء حيًّا قبل موته؛ لأنه ذكر فيه عدَّة أنبياء وُجِدوا في السماوات[٥].

هذا وقد ذكر كثير من المفسرين في معنى قوله ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم) في حق إدريس عليه السلام أن الله أوحى إليه: أني أرفع لك في كل يوم مثل جميع عمل بني آدم، فأَحبَّ أن يزداد عملًا، فأتاه خليل له من الملائكة، فقال له: إن الله أوحى إليّ كذا وكذا، فكلِّم ملك الموت حتى أزداد عملًا، فحمله بين جناحيه وصعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقَّاه ملك الموت منحدرًا، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهري، فقال ملك الموت: يا للعجب! بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة. فجعلت أقول له: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة، وهو في الأرض؟ فقبض روحه هناك.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (٤٢٩).

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٤.

٣. يُعضِّدها: يُقوِّيها.

٤. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٤ بتصرف.

٥. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، مج٨، ج١٦، ص١٣١ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

وفي رواية أخرى: أنه رُفِعَ ولم يمت، قيل: أُريد بها أنه رفع حيًّا إلى السماء، ثم قبض هناك؛ فهذا لا ينافي ما تقدم، وأمّا إن أريد بها أنه لم يمت حتى الآن ففيه نظر؛ إذ يتصادم مع قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الزمر)، فإدريس وعيسى ـ عليهما السلام ـ وغيرهما بشر، والبشر من شأنهم الفناء جميعًا بالموت، لا يبقى إلا الحي الذي لا يموت ﷻ، فهذا من ثوابت العقيدة الإسلامية. وقيل: قُبِضَ في السادسة، والمتفق عليه أنه في السماء الرابعة، وقيل: عليًّا؛ أي: إلى الجنة.

أما ما ورد بخلاف ذلك من روايات فلا تقوم بها حجة؛ إذ هي روايات موضوعة ومَنْحُولة[1]؛ فقد رُوي أن ملك الموت سأل الله أن يزور إدريس، فجاءه على صورة إنسان، ودعاه في الليل إلى مائدته، ولكن إدريس عليه السلام أَبى، فكرر ملك الموت دعوته تلك مرتين متتاليتين، وفي المرة الثالثة سأله إدريس عن شخصه، فلما أجابه طلب منه إدريس أن يقبض روحه ساعة من الزمن، ثم طلب منه بعد أن يرد روحه أن يرفعه إلى السماء، ليراها ويرى الجنة فلما دخل الجنة أبى أن يخرج منها، واعتصم بآيتين من القرآن هما: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الأنبياء). والثانية: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (الحجر)، ولذلك أبقاه الله فيها.

وقيل: إنَّه بينما إدريس في رحلة، إذ اشتد عليه الحر؛ فطلب من الله أن يخفف وطأتها عليه ملك الشمس، مقابل أن يؤخر ملك الموت أجله، فحمله هذا الملك إلى مطلع الشمس، وأبلغ في سؤاله ملك الموت، ولم يستطع ملك الموت إجابة سؤاله، فأطلعه ملك الشمس على يوم موته، ولما فتح ملك الموت ديوانه لم يجد فيه وفاة إدريس، وقد وجده ملك الشمس ميتًا بالفعل.

هاتان الأسطورتان لا تتفقان مع حقائق الإسلام التي تنص على أن ملك الموت مُكلَّف من قبل الله تعالى بقبض الأرواح، وأنه لا يستشار أحد من الخلق في وفاته، ولا تتفقان مع الأدب في الحديث عن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وذلك لأنهم ـ صلوات الله عليهم ـ يعلمون أن لكل أجل كتابًا، ولا يطلبون إلا ما يقرُّه الشرع والعقل، كما أن العلم يُكذِّب ويُفنِّد[2] تلك الخرافات.

الخلاصة:

- إن عدم ذكر اسم إدريس عليه السلام في التوراة لا يعني إنكار وجوده في التاريخ؛ لأن التوراة المحرفة ليست حجة فيما تذكر، فضلًا عن أنها ليست حجَّة فيما لم تذكره، لكن الحجة فيما تفرد القرآن الكريم بذكره؛ فهو كلام رب العالمين أنزله على النبي الأمي ﷺ الذي قال تعالى فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ (النجم)، أما الكتاب المقدس فقد ثبت تناقضه ومخالفته للعقل السليم، فما ورد به غير موثوق فيه، وما لم يرد به لا حجة على بطلانه أو عدم وقوعه.
- من قواعد الإسلام العقائدية ضرورة الفصل بين صفات الله تعالى وصفات الخلق، فمن صفات الله

١. المَنْحُولة: المدَّعاة.

٢. يُفَنَّد: يُضعَّف ويُخَطَّأ.

www.kalemasawaa.com

البقاء، ومن صفات الخلق جميعًا ـ بلا استثناء ـ الفناء والموت. والخلود لا يكون إلا لله وحده، فهو صفة له وحده لا يشاركه فيها أحد من خلقه مهما بلغ من المنزلة والمكانة.

- لم نر حولنا في دنيا الناس من كتب الله له الخلود، بل كتب الله الموت على جميع خلقه، ومنهم محمد ﷺ وهو أفضل الرسل وأحبهم إلى الله تعالى.
- ما ورد من الأساطير حول رفع إدريس عليه السلام حيًّا وعدم استطاعة ملك الموت قبض روحه لا يتفق مع حقائق الإسلام التي تنص على أن ملك الموت مكلف من قبل الله تعالى بقبض الأرواح، وأنه لا يستثار أحد في وفاته، وكذلك لا تتفق مع الأدب في الحديث عن الأنبياء، الذين يعلمون أن لكل أجل كتابًا، وأنهم لا يطلبون ما لا يقره الشرع أو العقل، كما بيَّناه.
- إن الذي يُحسب على الإسلام هو ما صرح به القرآن الكريم، وما جاءت به السنة النبوية الشريفة الصحيحة، وأما أقوال المفسرين فيؤخذ منها ما وافق الكتاب والسنة ويطرح ما عداه، والذي جاء في القرآن عن إدريس عليه السلام أنه كان صديقًا نبيًّا، ذا مكانة عالية رفيعة عند الله ﷻ وهو صابر صالح، وأدخله الله تعالى في رحمته، وما جاء في السنة من حديث المعراج أنه ﷺ قد لقي إدريس عليه السلام ليس دليلًا على أنه عليه السلام رفع حيًّا، فقد لَقِي النبي ﷺ العديد من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ولم يرفعوا أحياء.

الشبهة الثامنة

الفهم الخاطئ لدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن نوحًا عليه السلام أخطأ حينما دعا على قومه بالهلاك بما فيهم أطفالهم، كما في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ (نوح). فيزعمون أنه عليه السلام دعا على قومه بالهلاك بما فيهم الأطفال الذين لا ذنب لهم، ويتساءلون: كيف يدعو على ذريَّتهم بالهلاك مع احتمال أن يولد منهم من يؤمن بالله؟! كما يزعمون أنه استغفر لنفسه عقب الدعاء عليهم بالهلاك في قوله ﷻ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ (نوح)، وأنه اعتذر يوم القيامة عن الشفاعة بهذه الدعوة التي دعا بها على قومه. ويتساءلون: ألا يُعدُّ هذا متنافيًا مع ما يتصف به الأنبياء من العصمة؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) دعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك جاء بعد أن أوحى الله له أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن.

٢) الهلاك كان رحمة للأطفال قبل أن يجري عليهم القلم، ولا سيما أن الله أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن أحد إلا من قد آمن، وقيل: مُنعوا الإنجاب قبل الطوفان

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. موقع الكلمة. www.alkalema.net

www.kalemasawaa.com

بأربعين عامًا؛ فلم يكن لديهم أطفال يوم الطوفان.

٣) اعتذار نوح عليه السلام يوم القيامة عن الشفاعة، بل واعتذار جميع الأنبياء لا لأخطاء ارتكبوها، ولكن لشدة وقع أهوال القيامة عليهم.

التفصيل:

أولا. دعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك جاء بعد أن أوحى الله إليه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن:

قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾(هود: ٣٦) فبعد تسعمائة وخمسين سنة من إقامة نوح عليه السلام بين قومه يدعوهم لم ير منهم "إلا آذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، وعقولًا متحجرة، لقد كانت نفوسهم أشدَّ من الصخر، وأفئدتهم أصلب من الحديد، لم ينفعهم نصح أو تذكير، ولم يزجرهم وعيد أو تحذير، وكلما ازداد لهم نصحًا ازدادوا عنادًا، وكلما ذكّرهم بالله زادوا ضلالًا وفسادًا، وظلوا في طريق الضلال سائرين، لا يلتفتون إلى دعوة نوح عليه السلام ولا يبالون بتحذيره وإنذاره"[١]. وقد ظل فيهم داعيًا، مذكّرًا ناصحًا، وكانت دعوته لهم ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، ومع كل ذلك لم تَلِن قلوبهم، بل قابلوا الإحسان بالإساءة، واللطف بالشدة ومالوا عليه بالضرب والأذى، وهو لا يَفْتَأُ يقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ (نوح)[٢].

رَوى المفسرون: أن نوحًا عليه السلام كان يأتي قومه؛ فيدعوهم إلى الله، فيجتمعون عليه ويضربونه الضرب المبرِّح[٣] ويخنقونه حتى يُغْشَى عليه ثم يلفُّونه في حصير ويرمون به في الطريق، ويقولون: إنه سيموت بعد هذا اليوم، فيُعيد الله عز وجل إليه قوته فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله فيفعلون به مثل ذلك، وهكذا ظلَّ يُؤذى ويُعذَّب، وهو مع ذلك صابر لا يدعو على قومه بالعذاب؛ وإنما كان يَأمُل فيهم أو في أبنائهم الخير والصلاح، ويقول: "لعل الله يخرج من أصلابهم من يستجيب لدعوتي ويؤمن بالله".

ولكن مع هذه المدة الطويلة لم يؤمن معه إلا قليل منهم، وكان كلما انقرض جيل جاء من بعده جيل أخبث وألعن، فلقد كانوا يوصون أبناءهم بعدم الإيمان له، وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل: يا بني احذر هذا لا يغرَّنك عن دينك وآلهتك. قال عز وجل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ (هود)، ولهذا دعا عليهم بعد أن يئس من إيمانهم، فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ (نوح). فكان بعد ذلك الطوفان[٤].

---

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص ١٤٠.

٢. استغشوا ثيابهم: غطُّوا رؤوسهم بثيابهم.

٣. المبرِّح: الشديد.

٤. النبوة والأنبياء، الصابوني، مرجع سابق، ص ١٤٠، ١٤١.

www.kalemasawaa.com

ثانيًا. الهلاك كان رحمة للأطفال:

أما قولهم: ما ذنب أطفالهم حتى يهلكوا؟ وكأن الشفقة قد ألهبت قلوب هؤلاء المبطلين تجاه الأطفال الصغار الذين لا جَرِيرة[١] لهم فيما ارتكبه آباؤهم المجرمون، وكأنهم أَلْطَفُ من الله بعباده وأرحم لهم من خالقهم، غير أنه الحنان الكاذب والشفقة المتوهمة، فالله تعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وما كان ليعذب إنسانًا بوزر آخر، فضلًا عن طفل بريء.

ولقد بينت السنة أن كل إنسان سوف يبعث على ما مات عليه حسب قصده ونيته وإن عمَّ البلاء الجميع في الدنيا، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: يغزو جيشٌ الكعبةَ حتى إذا كانوا ببَيْداء[٢] من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم. قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: "يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم"[٣].

ولقد علم نوح بالوحي والتجربة أن نسل قومه سيكون على شاكلة الآباء في الإصرار على الكفر، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (العنكبوت: ١٤) ففي هذه المدة الطويلة عرف طبائعهم وجَرّبهم حتى قيل: إن الرجل فيهم كان ينطلق بابنه إلى نوح، ويقول له: احذر هذا فإنه كذّاب وإنَّ أبي أوصاني بمثل هذه الوصية؛ فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك مما قطع الأمل في إيمانهم، وبذا يكون الخير والراحة في هلاكهم لتتخلص الأرض من شرورهم باستئصالهم، وأما أطفالهم فعلى قول من قال: إن الله تعالى يَسَّبَّس أصلاب رجالهم، وأَعْقَمَ نساءهم قبل الطوفان بأربعين سنة أو سبعين سنة، فلا إشكال لعدم وجود أطفال فيهم، وقد يُستأنس لهذا بقوله ﷻ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ (نوح)، فإنه يفيد ـ بحسب المفهوم ـ أنهم إذا لم يستغفروا فإن الله تعالى لا يمدهم بالبنين.

وأما على قول من قال بوجود الأطفال فيهم، فإن عذاب الله لهم لم يكن على وجه العقاب لهم والصيرورة بعد ذلك إلى عذاب النار كآبائهم، بل كان ذلك لزيادة تعذيب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون ثم لا يعذب الأطفال في الآخرة[٤].

وحتى ندرك مدى الرحمة بهؤلاء الأطفال في هلاكهم قبل أن يجري عليهم القلم على رأى من قال بوجود الأطفال وقت الهلاك، نبين حكم هؤلاء الأطفال في الآخرة.

أما عن أطفال المشركين، فقد اختلفت الآراء فيهم على النحو التالي:

- **الرأي الأول:** التوقف فيهم وعدم الجزم بحكم معين؛ لأن الله تعالى هو الذي خلقهم، وهو أعلم بما كانوا سيعملونه ـ لو عاشوا ـ وذلك لأن النبي ﷺ سُئل

---

١. الجَرِيرة: الذنب.

٢. البَيْدَاء: الصحراء.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق (٢٠١٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٧٤٢٦).

٤. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥٧.

www.kalemasawaa.com

عن أولاد المشركين فقال: "الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين"[1].

• **الرأي الثاني**: أنهم في الجنة؛ لقوله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجِّسانه، كمثل البهيمة، تنتج البهيمة هل ترى فيها جَدْعاء"[2][3].

ويؤيده ما جاء من حديث أنس ﷺ مرفوعًا: "سألت ربي اللاهين من ذرية البشر ألَّا يعذبهم فأعطانيهم"[4].

وورد تفسير "اللاهين" بأنهم الأطفال من حديث ابن عباس مرفوعًا(٥)، وأخرج أحمد من طريق حسناء بنت معاوية بن صُرَيْم عن عمها قال: قلت للنبي ﷺ: من في الجنة؟ قال: "النبي في الجنة والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة والوَئِيدفي الجنة"[6].

واحتجوا أيضًا بقوله عن أطفال المشركين: "هم خدم الجنة"[7]، والقول بأنهم في الجنة هو قول جمع من أهل العلم، وهو اختيار أبي الفرج بن الجوزي وصححه النووي ورجحه القرطبي.

• **الرأي الثالث**: وقد ذهب إليه جمع من أهل العلم، وهو أنهم في مشيئة الله تعالى[8]، وهذا منقول عن حمّاد بن زيد، وحمّاد بن سَلَمَة، وابن المبارك، وإسحاق، ونقله البَيْهَقِي في "الاعتقاد"، عن الشافعي في حق أولاد الكفار خاصة، قال ابن عبد البرّ: وهو مقتضى صنيع مالك، وليس عنده في هذا شيء منصوص، إلَّا أن أصحابه صرحوا بأن أطفال المسلمين في الجنة، وأطفال الكفار خاصة في المشيئة، والحجة في حديث: "الله أعلم بما كانوا عاملين"[9].

وهذا القول حكاه أبو الحسن الأَشْعَرِي عن أهل السنة والجماعة[10]، وهو اختيار شيخ الإسلام، فقد اختار أن الأطفال المشركين في مشيئة الله، وأنهم يُمتحنون في يوم القيامة، وعزا القول بذلك إلى أبي الحسن الأشعري والإمام أحمد، قال شيخ الإسلام: والصواب أن يقال فيهم: الله أعلم بما كانوا عاملين، ولا يُحكمُ لمُعيَّن

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣١٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٩٣٦).

٢. الجَدْعاء: قطع لها طرف من أطرافها.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣١٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٩٢٦).

٤. حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ١٣٨) برقم (٤١٠١)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ١١١) برقم (٥٩٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٩٢).

٥. إسناده حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٣٠)، باب العين: أحاديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١١٩٠٦)، وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٨١).

٦. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث رجال من الأنصار ﷺ (٢٠٦٠٢)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة (٢٥٢٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٠٠).

٧. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٢٤٤)، باب السين: سمرة بن جندب ﷺ (٦٩٩٣)، وفي الأوسط (٢/ ٣٠٢) برقم (٢٠٤٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٦٨).

٨. الجنة والنار، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ج٧، ص١٩٤.

٩. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣١٨)، وفي موضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٩٣٣).

١٠. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ، ٤/ ٤٠٤، ٢٤/ ٣٧٢.

www.kalemasawaa.com

منهم بجنة أو نار، وقد جاء في عدة أحاديث أنهم يوم القيامة يُمتحنون في عَرَصَات [١] القيامة يُؤمرون وينهون، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، وهذا الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة[٢].

وقال في موضع آخر: أطفال المشركين الذين لم يكلفوا في الدنيا يكلفون في الآخرة، كما وردت بذلك أحاديث متعددة، وهو القول الذي حكاه الأشعري في أطفال المشركين، كما تقدم في الصحيح عن النبي ﷺ أنه سئل عنهم؛ فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين[٣].

وقد ذكر ابن حَجَرٍ أنهم يمُتحنون في الآخرة بأن تُرفع لهم نار، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن أبى عُذِّب. وحكى البيهقي في كتاب "الاعتقاد" أنه المذهب الصحيح.

ويدل على هذا القول ما ورد في محكم القرآن في قصة العبد الصالح الذي رحل نبي الله موسى إلى لقائه في مجمع البحرين، فإنه قال مبيّنًا السر في قتله الغلام: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ (الكهف)، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ في الغلام الذي قتله الخَضِر: "طُبع يوم طُبع كافرًا، ولو تُرك لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا"[٤].

قال ابن تيمية مُعلِّقًا على الحديث: "يعني طَبَعه الله تعالى في أم الكتاب، أي أثبته وكتبه كافرًا، أي إنه إن عاش كفر بالفعل".

وهنا يتبين لنا أن الرحمة كانت في هلاك هؤلاء الأطفال مع آبائهم قبل أن يجري عليهم القلم وينشئوا على الكفر ويكونوا من أصحاب الجحيم.

ثالثًا. اعتذار نوح عليه السلام يوم القيامة عن الشفاعة؛ قد يكون لهول هذا اليوم أو لتركه ما كان يجب أن يفعله وهو ترك أمر قومه إلى الله وليس في هذا معصية لله:

لم يدْعُ نوح عليه السلام على قومه إلَّا بعد أن أخبره الله عز وجل أنه لن يؤمن من قومه غير من قد آمن، قال عز وجل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (هود)[٥]، وأما عن اعتذاره عن الشفاعة كما في الحديث: "إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعد مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري.."[٦].

فالواضح من هذا الحديث أن اعتذار نوح عليه السلام عن الشفاعة لقومه لم يكن لخطأ قد ارتكبه فحُرِم من الشفاعة، ولكن لأنه كانت له دعوة مستجابة فدعا بها على قومه ولو أخرها لدعا واستشفع بها في هذا اليوم. وفي هذا يقول النبي ﷺ: "لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة

١. العَرَصَات: أهوال القيامة وشدائدها.
٢. الجنة والنار، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص١٩٥.
٣. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، ٤/ ٢٨١.
٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مسند فضائل الخضر عليه السلام (٦٣١٥).
٥. قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، ص٤٣، ٤٤.
٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ (نوح) (٣١٦٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٥٠١).

www.kalemasawaa.com

لأمتي في الآخرة"[1].

وعلى هذا فإن اعتذار نوح عليه السلام عن الشفاعة يوم القيامة يكون لتركه الأولى؛ إذ كان الأولى أن يوكِّل أمر قومه إلى الله إن شاء أهلكهم وإن شاء أبقاهم.

كما صنع إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ (إبراهيم). وكما صنع عيسى عليه السلام إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ (المائدة).

فلما دعا نوح عليه السلام بإهلاك قومه كان قد تَرَكَ الأولى، وتَرْكُ الأولى ليس ذنبًا كما يدعي بعض الواهمين ومع هذا يستغفر منه الأنبياء؛ لسمو درجتهم عند الله وهذا ما فعله نوح عليه السلام[2].

أما استغفار نوح عليه السلام بعد ذلك: "رب اغفر لي ولوالدي" فلأن النبي ﷺ مهما أطاع وجاهد وعبد فإنه بشر مُعرَّض للخطأ والتقصير، وهذا هو قمة الأدب مع الله تعالى من أنبيائه، وتعليم لنا ألا نستكثر أعمالنا وجهادنا على الله تعالى، بل إننا إذ وفقنا فمن الله تعالى، وعلى الإنسان أن يستغفر الله تعالى حتى بعد عمل الصالحات كما كان النبي ﷺ يستغفر الله تعالى في اليوم والليلة، أكثر من سبعين مرة[3].

وفي رواية: مائة مرة[4]، وليس ذلك لمعصية ارتكبها أو لخطأ فعله.

الخلاصة:

- لم يَدْعُ نوح عليه السلام على قومه إلَّا بعد أن أوحى الله إليه وأيقن أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (هود)، وعرف أن نسلهم سيكون على شاكلة الآباء في الإصرار على الكفر، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفي هذه المدة عرف طباعهم وجربهم حتى يقال: إن الرجل منهم كان يحذِّر ابنه من نوح، ويقول له: احذر هذا فإنه كذَّاب، وهذا مما قطع الأمل في إيمانهم، وبذا يكون الخير في هلاكهم، لتتخلص الأرض من شرهم.
- وأما أطفالهم: فعلى قول من قال: إن الله تعالى يَبَّسَ أصلاب رجالهم، وأَعْقَم أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة، أو سبعين سنة، فلا إشكال، لعدم وجود أطفال فيهم.
- وأما على قول إغراق الأطفال فإن ذلك لم يكن على وجه العقاب للأطفال والصيرورة بعده إلى عذاب النار كآبائهم، بل لزيادة تعذيب الآباء إذا أبصروا أطفالهم يغرقون ثم لا يعذّب الأطفال في الآخرة.
- اعتذار نوح عليه السلام يوم القيامة من الشفاعة لتركه ما كان يجب أن يفعله، وهو ترك أمر قومه إلى الله إن شاء أهلكهم وإن شاء أبقاهم لا أن يدعو عليهم.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة (٥٩٤٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (٥٠٨).

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥٨.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٥٩٤٨).

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٧٠٣٣).

www.kalemasawaa.com

الشبهة التاسعة

ادِّعاء أن طُوفان نوح أسطورةٌ وليس حقيقة كما ورد في القرآن(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين حادثة الطوفان الواردة في قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم، ويدَّعون أنه أسطورة وردت في الكتب القديمة. مستدلين على ذلك بأنه لا يمكن حدوث مثل هذا السيل الذي يغطي الكرة الأرضية كلها بجبالها الشامخة، كما أن سفينة نوح عليه السلام لا يمكن أن تسع كل أصناف الحيوانات ومهما تكن فهي أضيق من أن تضم كل حيوانات الأرض[1].

(*) آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١. جاء في كتاب "الرياضيات المسلية" لـ "ياكوف بيريلمان"، فصل: الرياضيات وأسطورة الطوفان حرفيًا ما يلي: نجد من بين الأساطير البالية الواردة في الكُتب القديمة أسطورة تقول: إن العالم كله قد غرق في غابر الأزمان بفعل أمطار كانت أعلى من أعلى الجبال، وحسب ما يرد فإن الرَّب كان قد ندم مرة على أن خلق الإنسان على الأرض، وقال: سأُهْلك البشر الذين خلقتهم على سطح الأرض. وكان الإنسان الوحيد الذي أراد الله أن يرحمه عندئذ هو التَّقي نوح، لذلك فقد حذَّره الرَّب مما يجري من تحضيرات لهلاك العالم، فأمره ببناء سفينة كبيرة سُمِّيَت "الفُلْك" بالمقاييس الآتية: "طول الفلك ٣٠٠ ذراع، وعرضه ٥٠ ذراعًا، وارتفاعه ٣٠ ذراعًا، ويتألَّف من ثلاثة طوابق، وكان يجب أن ينجو على هذه السفينة نوح وأسرته وأُسَر أبنائه وأصناف الحيوانات على الأرض، وأصدر الرَّب أمره إلى نوح أن يأخذ في الفُلْك زَوْجًا واحدًا من كل أصناف الحيوانات، واختار الرَّب الفيضان الناجم عن الأمطار لإهلاك كل ما هو حي. ويذكر في الكتب القديمة أنه بعد سبعة أيام جاءت مياه الفيضان وهطلت الأمطار مدة ٤٠ يومًا و٤٠ ليلة، وارتفع الفلك فوق الماء وغطَّت المياه كل الجبال العالية تحت السماء وارتفعت فوقها بمقدار ١٥ ذراعًا، فهلك كل موجود على سطح الأرض وبقي نوح فقط وفُلْكُه، وتروي الأسطورة أن المياه بقيت فوق الأرض مدة ١١٠ أيام أخرى ثم اختفت، وغادر نوح الفُلك ومعه كل الأحياء التي أُنقذت لكي يعمر الأرض الخالية مرة أخرى. ثم يتساءل هؤلاء:

١. هل كان ممكنًا حدوث مثل هذا السَّيْل الذي غطَّى الكرة الأرضية كلها؟

٢. هل كان يستطيع فُلْك نوح أن يتَّسع لكل أصناف حيوانات الأرض؟

ثم أجابوا عن الأول بأنه غير ممكن؛ لأن مياه الجو لا تكفي لإحداث الفيضان، وأجابوا عن الثاني بأن السفينة كانت ضيِّقة، فلا يمكن أن تتَّسع لكل الحيوانات.

وانتهى هؤلاء إلى ما يأتي: إنَّ الأسطورة القديمة عن الطُّوفان العظيم لا تتَّفق مع الحسابات الرِّياضية اليسيرة، لدرجة أنه من الصعب أن نجد فيها ولو جزءًا صغيرًا يطابق الواقع، وأغلب الظن أنها أُسْتُوْحِيَتْ من فيضان جزئي استغرق جزءًا من الكرة الأرضية، أما الباقي فهو من ابتداع الخيال الشرقي الفني. (الرياضيات المسَّلية، بيريلمان، ترجمة د. إبراهيم محمود شوشة طباعة دار أمير للطباعة والنشر، موسكو، ١٩٧٧م. فصل الرياضيات وأسطورة الطوفان، ص٢٣٦).

٢. الأركيولوجيا: Archaeology ـــ Archeology علم الآثار القديمة، أو آثار حضارة أو شعب ما.

٣. الجولوجيا: علم طبقات الأرض Geology، وتطلق أيضًا على دراسة المادة الصلبة من جرم سماوي؛ كالقمر.

٤. الغامرة: المُغْرِقة المُغطِّية لمعالم الأرض.

وجوه إبطال الشبهة:

١) أثبتت البحوث التاريخية والأركيولوجية[2] أن الطوفان العظيم غَمر بلاد الرافدين القديم مما يؤكد صحة وجود الطوفان.

٢) توصل علماء المناخ والجيولوجيا[3] إلى أن الجزيرة العربية مرَّت بعصور مطيرة تسببت في فيضانات غامرة[4].

٣) الأدلة العلمية ترجح ما ورد في القرآن الكريم وأقوال المفسرين على ما ورد في التوراة بخصوص الطوفان.

www.kalemasawaa.com

٤) تجمعت عدة أدلة عقلية تثبت أن أحداث الطوفان كانت حدثًا واقعيًّا وحقيقيًّا. وأنه لم يكن ضربًا من الأساطير.

٥) الطوفان معجزة إلهية، والمعجزات لا مدخل للعقل في النظر إليها، وكذلك صنع السفينة كان بوحي من الله وتعليم من الملائكة.

٦) إن السياق القرآني لقصة الطوفان العظيم سياق وعظي، رام إلى اتخاذ العبرة والعظة من قوم أشركوا بالله وعصوا الرسول نوحًا عليه السلام، فحل بهم العقاب ـ الطوفان العظيم ـ فلم يكن حديث خرافة وإنما كان حديث حق.

التفصيل:

أولا. تاريخ بلاد الرَّافدَين القديم والكشف عن آثار الطوفان:

أثبتت البحوث التاريخية والأركيولوجية أن الطوفان العظيم غمر بلاد الرافدين القديم مما يؤكد صحة وجود الطوفان، فلقد مرَّ التاريخ القديم لبلاد الرَّافدين بالعصور الآتية[١]:

١. **العصر الحجري القديم**: اكتشف العالم سويلي آثار هذا العصر سنة ١٩٥٤م في كهف شانيدار شمالي شرقي المُوصِل، حيث عثر على بقايا هياكل عَظْميَّة تعود إلى هذا العصر.

٢. **العصر الحجري الحديث**: ويتضمن ما يأتي:

- **حضارة جرمو**: عثر الأستاذ بريد وود سنة ١٩٤٨م على مركز هام من مراكز هذا العصر في قرية جرمو الواقعة في غربي مدينة السُّليمانية، وأرجع العلماء تاريخ هذا المركز إلى نحو ٦٥٠٠ ق. م، أي إلى ما بعد ظهور المجتمعات القرويَّة الزراعية بقليل.
- **حضارة عصر تل حَسُّونة**: ويقع جنوبي المُوصِل، ويرجع عهد هذا العصر إلى حوالي سنة ٥٧٥٠ ق. م. وكانت بعثة مديرية الآثار العراقية قد نقَّبت في هذا التل سنة ١٩٤٣م، ومن أغرب ما عَثَرَتْ عليه البعثة تماثيل فُخَّار صغيرة الحجم، تمثل أشكالًا مصنوعة من الطين الفُخَّاري، مما يدل على ظهور نوع من العبادات الوثنية. ووجد العالم مالوان سنة ١٩٣١م نماذج مماثلة لـ "حضارة تل حسُّونة" في نينوي بالقرب من المُوصِل، واكتشف نماذج أخرى من هذه الحضارة في أماكن متعددة في شمالي العراق.
- **حضارة تل حلف**: عثر عليها العالم الألماني البارون فون أوبنهايم في قرية تل حلف، بالقرب من ناحية رَأْس العِين في سورية[٢].
- **العصر النحاسي الحجري في وادي الرَّافدين**: تمثل حضارة هذا العصر في ثلاثة مواقع هامة وهي:

○ **تل العبيد**: قرب مدينة أُور القديمة جنوبي بلاد الرَّافدين، وقد اكتشفته بعثة المُتْحَفة البريطانية برئاسة د. هول، وتابع التَّنقيب[٣] المؤرخ ليونارد وُولي، وعثر في أُور على دُمًى[٤] من الطِّين ذات مغزى ديني.

○ **حضارة عصر أوروك (الوركاء)**: عَثَرَت عليها

١. الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز عثمان، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، ١٩٦٢م.

٢. رَأْس العِين: مدينة سورية إلى الغرب من القامشلي، وهي نبع نهر الخابور.

٣. التَّنْقيب: البحث عن الشيء والكشف عنه.

٤. الدُّمَى: جمع دُمْيَة، وهي الصورة المتمثلة من العاج وغيره، ويضرب بها المثل في الحسن.

www.kalemasawaa.com

بعثة ألمانية.

○ حضارة عصر جمدة نَصَّر: اكتشف آثار هذا العصر العالم الأثري لانكدون Langdon سنة ١٩٢٠م في تل صغير يقع بالقرب من مدينة كيش القديمة يدعى جمدة نصر.

وفي نهاية هذا العصر ـ كما تقول كُتب التاريخ ـ حصل الطُّوفان العظيم الذي غمر بلاد ما بين الرَّافدين فقضى على معظم السُّكان، ولم يبقَ منهم إلا عدد ضَئِيل[١]، وقد أثبتت الحفريَّات التي حُفِرَت في أُور وأُورك وكيش وشوروباك، حدوث فيضان عظيم بين عصر العبيد وعصر السُّلالات الأولي، فيضان عظيم حصل في آخر عصر جمدة نَصَّر. وقد وجد العالم الأثري وُولي طبقات كثيفة من الْغِرْيَن في مدينة أُور بعمق مترين ونصف. ووجد وولي آثار السُّكْنَى البشريَّة فوق هذه الطبقات وتحتها، واستنتج من ذلك أن هذا الْغِرْيَن قد أتت به مياه فيضانات دِجْلَة والفُرَات، وقد قدَّر مساحة الأرض التي غمرها الفيضان بأربعمائة ميل طولًا، وألف ميل عرضًا.

ثانيًا. نظرة مناخيَّة وتضاريسيَّة:

لقد مرَّت الجزيرة العربية بعصور مَطِيرَة (البلايستوسين) وهي اليوم جافة تجري فيها سيول عند سقوط المطر، فالظروف المناخية الحالية تختلف عن تلك التي كانت موجودة في المنطقة قديمًا، فبينما كانت أوربا تمرُّ بالعصر الجليدي في بدء الدور الجُيولُوجي الرابع، كان الشرق الأدنى يمرُّ بالعصر المَطِير (البلايستوسين)، وكانت المناطق الصحراوية الممتدة في وسط إفريقية وجزيرة العرب وإيران ذات مناخ معتدل يشبه مناخ أوربا الغربية الآن.

وقرَّر العلماء نتيجة لما سبق، أن الإنسان لم يكن في ذلك العصر المَطِير يعيش في الشرق الأدنى القديم على ضفاف الأنهار؛ لكثرة الفيضانات والمُسْتَنْقَعَات، بل كان يعيش فوق المناطق الجبلية، وفوق الهِضَاب التي كانت أمطارها ومياهها ونباتاتها كثيرة، ولكنها أصبحت بعد ذلك من المناطق الصحراوية بانتهاء عصر (البلايستوسين) المَطِير، وما تزال كذلك حتى اليوم، ذلك أن الدفء والجفاف أخذا ينتشران فيها شيئًا فشيئًا، بينما كانت الثلوج تذوب في أوربا ويعتدل مناخها[٢].

هذا من ناحية المناخ.. أما من الناحية التضاريسية.. فبلاد الرَّافدين كانت رُقْعتها أصغر، حتى إن دِجْلة والفُرَات اللذَيْن يصبَّان اليوم معًا كانا في التاريخ القديم يبعُدان عن بعضهما حوالي ٨٠ كيلو مترًا، وتشكَّل السهلُ الجنوبي في العراق من رواسب هذين النَّهْرَين؛ إذ كانت مياه الخليج العربي تغمر جزءًا كبيرًا من هذا السهل، ويقدر العلماء أن الساحل الحالي يبعد ما يقرب من ١٩٠ كيلو مترًا عن الساحل القديم، وأن الأرض اليابسة كانت تكسب من البحر ما يزيد عن أربع كيلو مترات كل مائة سنة[٣].

---

١. الضَّئيل: القليل.

٢. تاريخ الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز عثمان، مرجع سابق، ص١١.

٣. آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٩٢.

www.kalemasawaa.com

ثالثًا. الأدلة العلمية ترجح ما جاء في القرآن وأقوال المفسرين على ما ورد في التوراة بخصوص الطوفان:

ويؤكد جمهور العلماء على أن الطُّوفان كان في الظاهر عامًّا مُهْلكًا لكل الكافرين، وحفظ الله تعالى منه نبيه نوحًا عليه السلام ومن آمن معه، وقال بعض المفسرين: إن ظواهر الآيات تدل بمعونة القرائن على أنه لم يكن في الأرض كلها في زمن نوح عليه السلام إلا قومه، وأنهم هلكوا كلهم بالطوفان، ولم يبقَ فيها بعده غير ذُرِّيَّته، وهذا يقتضي أن يكون الطوفان في البقعة التي كانوا فيها من الأرض سهلها وجبالها لا في الأرض كلها، فالطوفان كان خاصًّا؛ لأن النوع الإنساني لم يكن في جميع الكُرة الأرضيَّة، بل كان منحصرًا في بلاد الرافدين حيث نوح عليه السلام وقومه.

وإذا ذكرت التوراة أن الأرض قد علاها الماء خمسة عشر ذراعًا، وأباد الله كل ذي حياة من إنسان ووحش وطير على وجه الأرض، وذكرت أبعاد السفينة كما ذكرها أصحاب هذا الادِّعاء، كل ذلك لا يؤخذ به؛ لثبوت أن التوراة كُتبت بعد موسى عليه السلام بزمن بعيد، فاعتراها التَّحريف زيادة ونقصًا حسب آخر الأبحاث العلمية.

أما القرآن الكريم الذي ثبتت علميًّا صِحته، وأن كل ما فيه حقائق ثابتة، فقد وصف السفينة بأنها: ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ (الشعراء)، وبأنها: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ (القمر).

رابعًا. الأدِلَّة العقليَّة على حدوث الطُّوفان:

تجمَّعت عدة أدلة عقلية تثبت أن حدث الطوفان كان حدثًا واقعيًّا وحقيقيًّا، وأنه لم يكن ضربًا من الأساطير كما يقال:

١. الرُّقُم التي اكتُشفت في مكتبة آشور بانيبعل، والتي ذكرت صراحة قصة الطُّوفان، وذكرت أنه بانتهاء الطُّوفان عادت الحياة إلى الأرض فابتدأت بذلك العصور التاريخية، وهذه الرُّقم تعود إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

٢. اكتشاف العالم الأثري وولي طبقات كثيفة من الغِرْيَن في مدينة أُور بعمق مترين ونصف، وفيها آثار السُّكْنَى البشرية فوق هذه الطبقات وتحتها.

٣. وجود الأصداف والأسماك المُتحجِّرة في أعالي الجبال، وهذه الأشياء لا تتكوَّن إلا في البحار، فظهورها في رءوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات، ولا يكون ذلك إلا إذا كان الطوفان بلغ ذُرَاها[1]، وصعود الماء إلى الجبال لمدة أيام معدودة يكفي لوجود الأصداف والأسماك المتحجرة في قمم الجبال.

٤. حدوث الطوفان في أواخر العصر المَطِير (البلايستوسين)، أي: في ظروف مناخية وتغيرات جغرافية غير الظروف والتغيرات الحالية.

٥. وجود قصة الطوفان في كُتب الأَقْدَمين من هنود وفرس وآشوريين.. يجعل الحدث حدثًا معروفًا عالميًّا.

٦. في بعض أرجاء الكرة الأرضية اليوم مناطق جافة، بل معدَّل أمطارها صِفْر مِلَم في السَّنة، ومع ذلك فقد يحدث فيها فيضانات أحيانًا، كما هو الحال في أسوان وسواحل البحر الأحمر؛ حيث مُعَدَّل المطر

١. ذُراها: أعلاها.

www.kalemasawaa.com

المعروف صفر ملم، وقد حصلت عام ١٩٧٩م سيول جارفة وفيضانات رهيبة تركت عشرات الضحايا وآلاف المُشَرَّدِين، مع أن مدة هُطُول الأمطار في هذه المناطق الجافة لم يستمر إلا لبضع ساعات فقط[١].

٧. هذا، ونشرت مجلة (السَّفير) مقالة في عددها يوم الأحد ٢٦/ ٨/ ١٩٨٤م تحت عنوان (البعثة الأمريكية إلى جبل أرارات تعلن اكتشاف بقايا سفينة نوح)، نظَّم الرحلة رائدُ الفضاء السابق جيمس أروين، الذي أصبح مُتَدَيِّنًا بعدما سار على القمر عام ١٩٧١م أثناء رحلة أبولو ١٥، وطالبت البعثةُ الأمريكيةُ الحكومةَ التركية أن تأذن لها بإغلاق المنطقة التي عُثِرَ فيها على الاكتشاف على ارتفاع ١٥٨٥ مترًا[٢].

خامسًا. الطوفان معجزة إلهية فلا يقاس بالعقل وكذلك السفينة كانت بوحي من الله وتعليم الملائكة:

وبعد هذا بالإمكان أن نقول: إن هؤلاء المدَّعين أخطئوا في أمور ثلاثة في مُقدِّماتهم، فجاءت نتائجهم واستنتاجاتهم خطأ، وهذه الأمور الثلاثة هي:

١. أن الطُّوفان عَمَّ الكرة الأرضية كلها، وهذا خطأ قَطْعًا برأي جمهور العلماء. وعليه فالسفينة حملت زوجين من كل الحيوانات الموجودة في هذه البقعة التي شملها الطوفان فقط وهذا ممكن. وحتى لو افترضنا أن الطوفان عمّ جميع الأرض على رأي بعضهم ـ وهم قلة ـ فإن السفينة كانت عظيمة جدًّا بحيث تسع أن تحمل زوجين من كل المخلوقات؛ ولذلك ورد في بعض كتب التفسير أن طولها كان ألف ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات طبقة فيها للوحوش والدواب وطبقة فيها للأنس وطبقة فيها للطير[٣].

٢. الظروف المناخية الحالية التي اعتمد عليها هؤلاء في قياساتهم وحساباتهم، تختلف عن الظروف المناخية قبل آلاف السنين، ومن الخطأ الفادح أن تعتمد في حسابات هؤلاء، فكميّة الأمطار في أواخر العصر المطير (البلايستوسين) غير كمية الأمطار اليوم، وهذه حقيقة علميَّة أضحت بدهيَّة عند الباحثين، فكيف تناساها هؤلاء المدَّعون؟!

٣. وطوفان نوح معجزة إلهية لنوح عليه السلام، والمعجزة خَرْقٌ[٤] للقوانين المألوفة لدى البشر، أما الله عز وجل فلا تعجزه هذه القوانين فهو الذي أبدعها، وهو القادر على تغييرها فتكون معجزة خارقة، فالموضوع إذن موضوع إيمان أو لا إيمان.

والطُّوفان ذُكِرَ في القرآن العظيم ـ كما مرَّ معنا ـ ولمحات القرآن الكريم العلمية أثبتها العلم الحديث، بل جاء العلم الحديث مطابقًا لها تمامًا؛ مما جعل العلماء من غير العرب يقولون بالسَّبْق العلمي للقرآن في كل لمحاته الكَوْنِيَّة والطبيَّة والطبيعيَّة.

يقول د. موريس بوكاي: "صِحَّة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطي النص مكانة خاصة بين كُتب

---

١. هذا ما حدث بتاريخ ٢٣ ـ ١٢ ـ ١٩٨٥م في منطقة تبوك والعلا في المملكة العربية السعودية؛ حيث جرفت السيول والفيضانات ما اعترضها، تاركة وراءها أكثر من ثلاثين قتيلًا.

٢. آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٩٥.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٣٢.

٤. الخَرْق: المخالفة.

www.kalemasawaa.com

التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد"[1].

ويقول عن "رواية الطوفان في القرآن": "يقدم القرآن رواية شاملة مختلفة ولا تثير أي نقد من وجهة النظر التاريخية، فالقرآن يقدِّم كارثة الطوفان باعتبارها عقابًا نزل بشكل خاص على شعب نوح عليه السلام، وهذا يُشكِّل الفرق الأساسي الأول بين الروايتين ـ رواية التوراة ورواية القرآن الكريم ـ وهذا يجعلنا نقول بضرورة ـ بل بحتمية ـ دراسة الأمور العلميَّة والتاريخيَّة الواردة في الكتب المُقدَّسة [2] على ضوء القرآن الكريم فقط، دون سواه، فهو وحده لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث"[3].

وربما كانت قصة الطُّوفان المذكورة في الكُتب المقدَّسة أقدم من هذا الطُّوفان بعصور كثيرة، فقد أَرْجَعها العالِم الأثري كونتنو نقلًا عن العالِم دي مورغان إلى العصر المطير الذي تبع عصر الجليد في نهاية الدور الرابع؛ حيث هلك عدد كبير من الناس، وقد خلَّدت الرُّقُم التي اكتُشِفَت في مكتبة آشور بانيبعل هذا الطُّوفان، وبعد انتهاء الطُّوفان تذكر هذه الرُّقُم أن الملكيَّة عادت إلى الأرض، فابتدأت بذلك العصور التاريخيَّة، وفي بدء هذه العصور اشتدت قوة السُّومَرِيِّين، فسيطرت بعض السُّلالات على بعض المدن، وسُمِّي أول عصر تاريخي بـ "عصر فجر السُّلالات" أو "عصر السُّلالات الأولى القديمة"[4].

عصر السُّلالات الأولى: أهم الكتابات عن هذا العصر كتبها المؤرخ البابلي بوحوشا أو بيروسوس، فقد ترك سجلًّا تاريخيًّا بأسماء ملوك سُومَر وأَكَاد، وينقسم هذا السجل التاريخي إلى قسمين، الأول منهما لملوك ما قبل الطُّوفان، وهو ينتهي بالجملة الآتية: "وبعد ذلك جاء الفيضان، وبعد الطُّوفان هبطت الملكية مرة أخرى من السماء".

سادسًا. الطُّوفان في القرآن الكريم:

إن السياق القرآني لقصة الطوفان العظيم، سياق وعظي رام إلى اتخاذ العبرة والعظة من قوم أشركوا بالله وعصوا الرسول نوحًا عليه السلام، فحل بهم العقاب الذي هو الطوفان العظيم فلم يكن حديث خرافة، وإنما كان حديث حق، ولقد ورد ذكر نوح عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعًا من القرآن الكريم، وذَكَرَت قصتَه مفصَّلةً في السور التالية: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والقمر، ونوح.

وأوضحت القصة أن قوم نوح عليه السلام عكفوا على عبادة غير الله تعالى، واتَّخذوا لهم أصنامًا يعبدونها من دونه، فأرسل الله نوحًا إليهم، واجتهد غاية الجهد في دعوتهم، وبذل منتهى وُسْعِه[5] لكي يتَّبعه قومه في الإيمان بالله، ويُقلعوا عن عبادة تلك الأصنام، وطال

---

١. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دار المعارف الأمريكية، مصر، د. ت، ص١٥.

٢. الكتاب المُقدَّس: العهد القديم عند اليهود، ومجموع العهدين عند النصارى.

٣. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٤٦، ٣٤٧.

٤. تاريخ الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز عثمان، مرجع سابق، ص٢١٣.

٥. وُسْعِه: جهده.

www.kalemasawaa.com

الزمن، وهو يقدِّم النُّصح والموعظة سرًّا وعلانية، وهم لا يزدادون إلا إعراضًا وتأبِّيًا[١] عن طريقته، حتى تبرَّموا به[٢]، فَأَنَالُوه الأذى، فَيَئِس نوح عليه السلام من هداية قومه، فأمره الله ﷻ بعمل الفُلك؛ لتكون أداة لنجاته ومن معه من الغرق فسخِر قومه منه، استبعادًا منهم لوقوعه، فكان هو أيضًا يسخر منهم، ومن غفلتهم عن الحق، وبلادتهم عن أخذ الحَيْطة لأنفسهم باتباعه بإحسان وتَنْجِيَة أنفسهم، وصار نوح عليه السلام يتهدَّدهم بذلك العذاب[٣].

فلما استووا على ظهر السفينة هَطَلَتْ[٤] الأمطار، وانفجرت عيون الأرض، وحملت المياه السفينة ومن فيها، ومكثت ما شاء الله أن تمكث، إلى أن غرق كل ما على الأرض من إنسان وحيوان، ثم استقرت السفينة على الجُودِي من جبال أرارات من ديار بكر، وخرج مَن في السفينة، وبارك الله ﷻ فيهم فكثُروا.

وصفوة القول: أن قوم نوح عليه السلام كفروا وعصوا الرسول فأغرقهم الله بالطُّوفان، ونجَّى نوحًا ومن معه في الفُلْك، وجعل ذُرِّيَّته هم الباقين، قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ (هود)[٥]، وقال تعالى أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ

---

١. تأبِّيًا: رفضًا.

٢. تبرَّموا: سئموا منه وتضايقوا.

٣. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٨ بتصرف.

٤. هَطَلَت: سقطت وأمطرت بغزارة.

٥. يُخْزِيه: يذله. فار التَّنُّور: وجه الأرض؛ أي: نبع الماء منه. مَعْزِل: مكان منعزل. حال: فرق، وقف عائقًا. غِيض الماء: نقص وغار في الأرض.

www.kalemasawaa.com

عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ (القمر)[1].

الخلاصة:

- كان للاكتشافات الأثرية الحديثة في بلاد الرافدين أثر كبير في الكشف عن آثار وجود طوفان عظيم حدث في العصور القديمة، مما يؤيد إمكانية حدوث مثل هذه الكارثة الأرضية.
- النظرة المناخية التضاريسية للجزيرة العربية تبين أن الإنسان في الشرق الأدنى القديم كان لا يعيش على ضفاف الأنهار لكثرة الفيضانات، بل كان يعيش فوق المناطق الجبلية والهضاب خوفًا من المياه.
- ورود قصة الطوفان في الكتب المقدسة ـ وإن كانت متباينة في تفصيلاتها والمعلومات التي أوردتها ـ يؤكد وقوعها من الناحية التاريخية.
- الطوفان مُعْجِزة[2] خارقة للعادة وبالتالي فليس من الصواب أن يكون العقلُ ـ ومجال عمله القوانين المطرده ـ هو المرجع في الحكم عليها بالنفي أو الإثبات، وكذلك السفينة كانت بوحي من الله تعالى وتعليم الملائكة. فالمسألة مسألة إيمان قبل أي شيء، لأن القرآن لم يذكر تفصيلاتها وإن كان العلم الحديث جاء مطابقًا لما في القرآن تمامًا.
- حديث القرآن الكريم عن الطوفان وقصة السفينة وهلاك الناس حديث صحيح، وقد أكدت الاكتشافات الحديثة العثور على بقايا سفينة نوح عليه السلام عند جبل أرارات من ديار بكر.

الشبهة العاشرة

التشكيك في أبوّة نوح عليه السلام لابنه(*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض المتوهمين في أبوَّة نوح عليه السلام لابنه، الذي هلك في الطوفان، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود: ٤٦)، بل يدَّعي بعضهم أنه ابن زنا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ ولأن أمه كانت خائنة كما ذكر القرآن عنها وعن امرأة لوط: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ (التحريم: ١٠). ويتساءلون: كيف يدَّعي نبي معصومٌ الكذبَ ويَنْسِبُ إليه ابنًا ليس من صلبه إذ قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ (هود: ٤٥).

ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة نبي الله نوح عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم ينفي أن يكون ابن نوح من أهله المؤمنين الذين وعد الله بإنجائهم، ويثبت كونه من صلبه حقيقة لقوله ﷻ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ (هود: ٤٢)، وعليه فلم يَكذب نوح عليه السلام في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ (هود: ٤٥) كما يدّعي هؤلاء.

---

١. آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٩١ وما بعدها.

٢. المُعْجِزَة: الأمر الخارق للعادة يظهره الله على يد نبي؛ تأييدًا لنبوَّته، وتكون من جنس ما نبغ فيه قومه. وقيل: هي أمر نادر الحدوث يعجز الإنسان العادي عن الإتيان بمثله.

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ يعني الكفر، والخيانة في قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ راجعة إلى مخالفة الدين والعقيدة لا إلى خيانة الفراش.

التفصيل:

أولا. ابن نوح ليس من أهله الناجين:

القرآن الكريم يثبت الأبوة لنوح عليه السلام، وأن هذا الابن من صلبه؛ لقول الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، فلو لم يكن ابنه لما صرّح بالبنوة، وإنما ينفي الصلة الإيمانية بين نوح عليه السلام وابنه، فأهل الإيمان تجمعهم صلة العقيدة والدين، وهذا الولد وإن كان ابنه فليس من أهل الإيمان، أو ليس من أهله المؤمنين الناجين؛ لكفره وخروجه عن دين الله تعالى وعدم اتباعه أباه الذي هو رسول الله إلى الناس، ولو كان المقصود نفي بنوة النسب لقال: إنه ليس ابنك جوابًا على قول نوح عليه السلام: إن ابني من أهلي، ولكن قال: "إنه ليس من أهلك"، فنفى دخوله معه في مجموع أهل الإيمان لم ينف البنوة؛ لأن المقصود "بأهلك" في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ (هود: ٤٦)، ليس أهل بيتك وعشيرتك، بل هم أهل دينك وعقيدتك، وعلى هذا لم يَكذب نوح عليه السلام في قوله "إن ابني من أهلي" فهو ابنه حقيقة لصلبه لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ (هود: ٤٢).

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود: ٤٦)؛ فمعناه: إما أنه ليس من أهل دينك، فمدار الأهلية هو الصلة الدينية، وقد انقطعت بالكفر، فلا علاقة بين مسلم وكافر؛ ولذا لا يتوارثان[١]، وحُكِي هذا عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، وإما أنه ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم في الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء، وحكي هذا عن ابن جَرِير وعِكْرِمَة.

وعلى هذين القولين فالمعنى: "ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم"[٢].

نعم، كان ابنه ولكن كان مخالفًا له في النية والعمل والدين... وهذا يدل على أن الاتفاق في الدين أقوى من حكم النسب[٣].

وعلى هذا المعنى يؤكد الشيخ الطاهر ابن عاشور إذ يقول: "ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ نفي أن يكون من أهل دينه، ولكنه إعلام بأن قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة، وهذا المعنى شائع في الاستعمال قال النابغة يخاطب عيينة بن حصن:

إذا حاولتَ في أَسَدٍ فُجُورًا

فإنِّي لَسْتُ مِنْكَ ولَسْتَ مِنِّي

وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (التوبة) "[٤].

ويوضح الشيخ الشعراوي أن النبوة ليس لها بنوَّة، بل لها أتباع فيقول: "وحتى نعلم أن الأنبياء لا بنوة لهم إلا بنوة الاتباع نجد المثل في إبراهيم - خليل الرحمن -

---

١. لا يتوارثان: لا يرث أحدهما الآخر.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٦٠.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٤٦.

٤. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص٨٥، ٨٦.

www.kalemasawaa.com

عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ حين قال الحق تعالى فيه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (البقرة).

ويريد الحق تبارك وتعالى أن يلفت نبيه نوحًا عليه السلام إلى أن أهلية الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم، ولكنها أهلية المنهج والاتباع، وإذا قاس نوح عليه السلام ابنه على هذا القانون فلن يجد ابنًا له.

إذن فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتباع لا بنوة نسب، وانظر إلى دقة الأداء في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ثم يأتي الحق سبحانه بالعلة والحيثية لذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ فكأن البنوة هنا عمل، وليست ذاتًا، فالذات منكورة هنا، والمذكور هو العمل، فعمل ابن نوح عليه السلام جعله غير صالح أن يكون ابنًا لنوح. وهكذا نجد أن المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس الدم، وليس اللحم، إنما هو الاتباع بدليل أن الحق وصف ابن نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ ولو كان عملًا صالحًا لكان ابنه"[1].

وجاء في "ظلال القرآن": رب إن ابني من أهلي، وقد وعدتني بنجاة أهلي وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين فلا تقضي إلا عن حكمة وتدبير.. قالها يستنجز ربه وعده، ويستنجز حكمته في الوعد والقضاء.. وجاء الرد بالحقيقة التي غفل عنها، فالأهل ـ عند الله وفي ميزانه ودينه ـ ليسوا قرابة الدم، إنما هم قرابة العقيدة، وهذا الولد لم يكن مؤمنًا، فليس إذن من أهله وهو النبي المؤمن، جاء الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد، وفيما يشبه التَّقريع[2] والتأنيب والتهديد: "إنه ليس من أهلك.." إنها الحقيقة الكبرى في هذا الدين، حقيقة العُرْوَةِ التي ترجع إليها الخيوط جميعًا، عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة، "إنه ليس من أهلك.." فهو مُنْبَتٌّ[3] عنك وأنت منبت عنه، ولو كان ابنك من صلبك، فالعُرْوَة الأولى مقطوعة، فلا رابطة بعد ولا وَشِيجة[4][5].

ومما يؤكد نسبة هذا الولد لسيدنا نوح عليه السلام أن المؤرخين والمفسرين ذكروا أن ابن نوح هذا هو ابن رابع في أبنائه من زوج ثانية لنوح كان اسمها "واعِلة" غرقت، وأنها المذكورة في آخر سورة التحريم، قيل: كان اسم ابنه "يَامَا"، وقيل: اسمه "كَنْعَان"، وهو غير كنعان بن حام جد الكنعانيين[6].

وبهذا البيان تحقق أن نوحًا عليه السلام لم يكذب ـ وحاشاه أن يكذب ـ وهو نبي معصوم، إنما كذب المدّعون.

ثانيًا. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ يعني الكفر، والخيانة في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ راجعة إلى مخالفة الدين والعقيدة لا إلى الفراش:

فمعنى العمل غير الصالح هو الكفر وليس الزنا كما قد يدّعي بعضهم، وأطلق على الكفر "عمل"؛ لأنه

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١١، ص٦٤٨١: ٦٤٨٤ بتصرف.

٢. التَّقريع: التَّوبيخ.

٣. المُنْبَتُّ: منقطع الصلة.

٤. الوَشِيجة: القرابة المشتبكة المتصلة.

٥. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٨٠.

٦. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص٨٥، ٨٦.

www.kalemasawaa.com

عمل القلب ولأنه يظهر أثره في عمل صاحبه كامتناع ابن نوح من الركوب الدال على تكذيبه بوعيد الطوفان[١].

وقرأ بعضهم: "إنه عَمِلَ غَيرَ صالح" أي من الكفر والتكذيب، وقُرِئَ "عملٍ" أي: ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف[٢].

وأما قوله تعالى عن امرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فليس المعنى: أنهما خانتا زوجيهما بالزنا، فما زنت امرأة نبي قط، وقد اتفق أئمة التفسير على أن الخيانة راجعة إلى الدين، لا إلى الفراش.

قال القُرْطُبِي: "والمقصود الخيانة في الدين، لا في الفراش؛ وذلك أن امرأة نوح عليه السلام كانت تقول للناس: إنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أما ينصرك ربك؟ فقال لها: نعم. قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التَّنُّور. فخرجت تقول لقومها: يا قوم، والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفور هذا التنور. فهذه خيانتها، وخيانة امرأة لوط أنها كانت تدلُّ قومها على الأضياف إذا نزلوا عند لوط"[٣].

وتعقب الرازي الزعم أن ابن نوحٍ ولد زنا قائلًا: "وهذا قول خبيث يجب صَوْنُ مكانة الأنبياء عنه، لا سيما وهو على خلاف نص القرآن، أما قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذي ذكروه، قيل لابن عباس: ما كانت تلك الخيانة؟ فقال: كانت امرأة نوح عليه السلام تقول: زوجي مجنون، وامرأة لوط عليه السلام تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به"[٤].

والدليل القاطع على فساد القول بأن المقصود هو خيانة الفراش ـ قول الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ (النور)، وأيضًا قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ (النور).

وقال أبو السُّعود: وما يقال من أنه كان لغير رشده ـ أي: ولد زنا ـ لقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها، فإن جناب الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أرفع من أن يشار إليه بأصبع الطعن، وإنما المراد بالخيانة الخيانة في الدين. ومثل هذا ذكره أيضًا البَيضَاوِي، والأَلُوسِي وغيرهما.

فهذه أقوال عدد من أئمة التفسير تستبعد أن تزني إحدى نساء الأنبياء. ومستند عدم وقوع الزنا من إحدى نساء الأنبياء النقل والعقل:

- **أما النقل**: فالآيات القرآنية الدالة على هذا كثيرة، ومنها الآيات التي نزلت ببراءة السيدة عائشة مما رُمِيت به زورًا وبهتانًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ

١. المرجع السابق، ص٨٦.
٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٤٦.
٣. المرجع السابق، ص٤٦، ٤٧. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٦٢.
٤. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣/ ٤٩٧) سورة التحريم، آية ١٠.

www.kalemasawaa.com

مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (النور) [1].

• **وأما العقل**: فلأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مبعوثون إلى الكفار لدعوتهم إلى الله؛ فلزم ألَّا يكون معهم ما ينفِّر الكفار منهم، ومن أعظم المنفِّرات عن الإنسان أن تكون زوجته مُسافحة، فزنا نساء الأنبياء ـ لو وقع ـ ينفِّر اتباعهم ويخلّ بحكمة البعثة، لهذا حفظ الله تعالى نساء الأنبياء من الزنا؛ حتى لا يعود ذلك بالانتقاص والإخلال بمهمتهم في دعوة الناس إلى الله [2].

وبهذا يتبين لنا ضلال هذا الادعاء الذي يزعم أصحابه أن نبي الله نوحًا عليه السلام قد وقع في الكذب مما يقدح في عصمته كنبي، كما تبطلُ الحجة التي يستند إليها هؤلاء من أن ابنه كان ابن زنا وليس من صلبه، فهو ابنه بشهادة القرآن، وخيانة زوجته كانت في الدين لا في الفراش ®.

الخلاصة:

• القرآن الكريم يثبت أن ابن نوح عليه السلام هو ولده من صلبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ وعليه فلم يكذب نوح عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾؛ فهو ابنه حقيقة لصلبه؛ لقول الله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (هود). أما المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إما إنه ليس من أهل الإيمان، وإمَّا إنه ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم في الفلك، وعلي القولين: ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم، وبهذا تحقق أن نوحًا لم يكذب حتى يكون قد ارتكب المعصية.

• الخيانة في قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ عند امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام راجعة إلى الخيانة في الدين والعقيدة، لا إلى الخيانة في الفراش، وليس معناه أنهما خانتا زوجيهما بالزنا، فما زنت امرأة نبي قط.

الشبهة الحادية عشرة

ادعاء وقوع نوح في الخطأ؛ بسؤاله المولى عز وجل أن ينجِّي ابنه الكافر من الغرق [*]

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن نوحًا عليه السلام قد أخطأ عندما سأل ربَّه نجاةَ ابنه الكافر، مع أن الله قد نهاه أن يطلب منه نجاة أحد من الكافرين، ويستدلون على ذلك بقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (هود). ويهدفون من

---

١. الإفْك: أسوأ أنواع الكذب والبُهْتان. العُصْبة: الجماعة. تولَّى كِبْرَه: تحمل معظم هذا الإفك.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٦١: ٢٦٣.

® في "المقصود بخيانة امرأة لوط" طالع أيضًا: الوجه الثالث، من الشبهة الثلاثين، من هذا الجزء.

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

وراء ذلك إلى الطعن في عصمة سيدنا نوح عليه السلام.

وجه إبطال الشبهة:

إن سؤال نوح عليه السلام ربه أن ينجي ابنه لا يخلو من حالين:

- أن ذلك بعد الغرق، فيكون سؤال كشف واستعلام عن حال ابنه، وقيل: دعاء بالمغفرة في الآخرة فلم يكن ثمة نهي عن الدعاء.
- أن ذلك قبل الغرق، فيكون دعاؤه ليتوب الله على ابنه ويهديه للإيمان فينجو.

وليس في كلا الحالين أي معصية أو مخالفة تقدح في عصمة نبي الله نوح عليه السلام.

التفصيل:

أولا. إذا كان سؤال نوح عليه السلام بعد الغرق، فهو سؤال استعلام عن حال ولده، وقيل: دعاء لابنه بالمغفرة:

- **سؤال كشف واستعلام عن حال ولده:**

ذهب بعض المفسرين إلى أن سؤال نبي الله نوح ربه نجاة ابنه كان بعد الغرق ومنهم ابن كثير الذي قال: هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (هود). أي: وقد وعدتني ربي بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يُخلَف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (هود). أي: ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ (هود). فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره، ومخالفته أباه نبي الله نوحًا عليه السلام.

- **دعاء بالمغفرة في الآخرة:**

وذلك تأسيسًا على أن ابنه قد غرق مع من غرق من الكافرين فلم يبق إلا الدعاء بالمغفرة والرحمة والنجاة من عذاب الآخرة، يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: "موقع الآية يقتضي أن نداء نوح عليه السلام هذا كان بعد استواء السفينة على الجودي نداءً دعاه إليه داعي الشفقة؛ فأراد به نفع ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدنيا؛ لأن الله أعلمه أنه لا نجاة إلا للذين يركبون السفينة، وقد علم أنه لا وسيلة إلى نجاته، فكيف يسألها من الله، فتعين أنه سأل له المغفرة، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾. والنداء هنا نداء دعاء فكأنه قيل: ودعا نوح ربه؛ لأنّ الدعاء يصدّر بالنداء غالبًا، والتعبير عن الجلالة بوصف الربِّ مضافًا إلى نوح عليه السلام تشريف لنوح عليه السلام وإيماء[1] إلى رأفة الله به، وأن نهيه الوارد بعده نهي عتاب.

فالمعنى أن نوحًا عليه السلام لا يجهل أن ابنه كافر، ولذلك فسؤال المغفرة له عن علم بأنه كافر، ولكنه يطمع لعل الله أن يعفو عنه لأجل قرابته به، فسؤاله له المغفرة؛ بمنزلة الشفاعة له عند الله تعالى، وذلك أخذًا بأقصى دواعي الشفقة والرحمة بابنه.

---

١. الإيماء: الإشارة.

www.kalemasawaa.com

وقرينة ذلك كله قول الله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (هود) المفيد بأنه لا رادّ لما حكم به وقضاه، ولكنه مقام تضرع وسؤال ما ليس بمحال.

وقد كان نوح عليه السلام غير منهي عن ذلك، ولم يكن تقرر في شرعه العلم بعدم المغفرة للكافرين، فكان حال نوح عليه السلام كحال النبي ﷺ حين قال ل لعمه أبي طالب: لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك قبل أن ينزل قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ (التوبة).

والاقتصار على هذه الجمل الثلاث: "إن ابني من أهلي ـ وإن وعدك الحق ـ وأنت أحكم الحاكمين "في مقام الدعاء تعريض بالمطلوب؛ لأنه لم يذكره، وذلك ضرب من ضروب التأدب والتردد في الإقدام على المسئول استغناءً بعلم المسئول كأنه يقول: أسألك أم أترك كقول أمية بن أبي الصلت.

أَأَذْكُرُ حاجَتِي أَمْ قَدْ كَفانِي
حَياؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَياءُ[1]

ثانيًا. السؤال كان دعاء إلى الله بهداية ابنه للإيمان:

وذهب آخرون إلى أن سؤال نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه كان قبل الغرق، ومنهم المفسران أبو السعود، والألوسي اللذان علّلا ما ذهبا إليه، بأنه لو كان السؤال بعد الغرق عن موجب إغراقه لما نهى الله نوحًا عليه السلام عن استفسار ما لم يعلم: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فإن النهي عن استفسار ما لم يعلم غير موافق للحكمة؛ إذ عدمُ العلم بالشيء داعٍ إلى الاستفسار عنه لا إلى تركه.

وعلى هذا الرأي فالأمر في سؤال نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه لا يخلو من ثلاثة أوجه عقلية:

الوجه الأول: سؤال نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه وهو يعتقد إيمانه، وقد ذهب إلى هذا القول بعض العلماء منهم الماتريدي الذي قال: ظن نوح عليه السلام أن ابنه على دينه، إذ كان يظهر له ذلك، ويبطن كفره نفاقًا ـ هنالك ـ وإلَّا لما تَأَتّى له أن يقول: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ (هود: ٤٥).

وذكر هذا أيضًا الشِهّاب الخَفَاجي، وعلي القاري، والزمخشري، والقرطبي، وابن المنير الذي قال: لم يكن نوح عليه السلام كاشفًا لحال ابنه، ولا مطّلِعًا على باطن أمره، بل معتقدًا بظاهر الحال أنه مؤمن. وحجتهم في ذلك: أن الله تعالى نهى نوحًا عليه السلام قبل سؤاله هذا أن يسأله نجاة أحد من الكافرين: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (هود)، فلا يليق بنوح عليه السلام أن يسأل ربه نجاة ابنه مع علمه بكفره.

ويرى هؤلاء العلماء أن قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (هود) لا يدل على أنه كافر عنده، بل المقصود به النهي عن الدخول في غمارهم، والقطع بأن ذلك يوجب الغرق، وأن اعتزال ابن نوح عليه السلام عنه، وقصده الالتجاء إلى الجبل ليس بنص في الإصرار على الكفر؛ لجواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة في الفلك، وزعمه أن الجبل

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص٨٣: ٨٥ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

أيضًا يجري مجراه.

ويكون معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (هود). على هذا هو: فلا تطلب مني نجاة ابنك بناء على أنه مؤمن ـ فليس لك علم بحاله، إذ هو كافر، وأنا الذي أعلم كفره.

وعلى هذا فسؤال نوح عليه السلام نجاة ابنه ـ بناء على اعتقاده بإيمانه ـ الذي هو غير الواقع فيه ترك للأولى، إذ كان عليه ـ وقد ظل يدعو إلى الله سنين كثيرة ـ أن يعرف من آمن حقيقة، ومن لم يؤمن، وخاصة ابنه الذي يخالطه كثيرًا فالقرائن، والأمارات الكاشفة عن أحوال الناس في الإيمان والكفر لا تخفى على من خالطهم، مثل هذه المدة الطويلة، فلما خفي عليه هذا كان مخالفًا للأولى فيه، وسمّاه البعض خطأ في الاجتهاد، كالخطيب الشربيني الذي ذكر أن قوم نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام: كافر يُظهر كفره، ومؤمن يُخفي إيمانه، ومنافق لا يعلم حاله في نفس الأمر.

وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة، وحكم الكافرين هو الغرق، وكان ذلك معلومًا، وأما أهل النفاق فبقي أمرهم مخفيًّا، وكان ابن نوح عليه السلام فيهم، وكان يجوز فيه كونه مؤمنًا، وكانت الشفقة التي تكون للأب في حق الابن تَحْمِلُه على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرًا، بل على الوجوه الصحيحة، فأخطأ في ذلك الاجتهاد.

ورغم كثرة القائلين بهذا الرأي ـ وهو نفاق ابن نوح عليه السلام ـ فإننا نرى ضعفه والحديث للدكتور أبو النور الحديدي، وذلك للأسباب الآتية:

- أن نوحًا عليه السلام وهو في معرض الإرشاد، والقيام بأعباء الدعوة تلك المدة المتطاولة لا يشتبه عليه أمر ابنه، ولا يفوته العلم بحاله من إيمان أو كفر، ولكل منهما ما يدل عليه.
- أن اعتزال ابن نوح عليه السلام عنه، وقصده الالتجاء إلى الجبل، وتصميمه عليه بعد أن قال له أبوه: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (هود). يرجح مجاهرة الابن بالكفر والإصرار عليه، خلافًا لما يراه بعض المفسرين من أنه ليس بنص في الإصرار على الكفر.
- أن قول نوح عليه السلام لابنه: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ واضح في أن الابن كان مجاهرًا بالكفر، والقول بأنه لا يدل على أنه كافر عنده، بل هو نهي عن الدخول في غمارهم ـ قول ضعيف.

لو كان نوح يعتقد إيمان ابنه لقال وهو يسأل ربه نجاته: رب إن ابني مؤمنًا، والله قد أعلمه بنجاة المؤمنين من أهله ومن غيرهم في ضمن الأمر بحملهم في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ (هود)، ولو كان ابنه منافقًا لقال له الله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود: ٤٦) إنه منافق ـ بدل: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ وبهذا ظهر ضعف القول: إن ابن نوح عليه السلام كان منافقًا، وثبت رجحان أنه كان كافرًا، مجاهرًا بكفره.

الوجه الثاني: سؤال نوح ربه نجاة ابنه لأنه من أهله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ (هود: ٤٥)،

www.kalemasawaa.com

يفيد أن المبرر لنوح عليه السلام في سؤال نجاة ابنه الكافر هو: أنه من أهله، وقد وعده ربه إنجاء أهلـه، فهـو يـستنجز وعد الله بذلك.

ويُعْتذر لنوح عليه السلام بأنه أخذ بظاهر لفظ الأهـل مـن غير نظر لحقيقته، وفُهِم أنه يشمل الابن الكـافر، فكـان ما وقع منه خطأ في الاجتهاد، وأن أهل المؤمن من كانوا مـؤمنين، أمـا الكـافر مـنهم فلـيس بأهـل ولا قريـب للمؤمن، والكفر يقطع القرابة القريبة.

وهذا القول مستبعد جدًّا؛ إذ كيف يغيب هذا عن نوح عليه السلام ويطلب نجاة ابنه الكافر، وقد نهاه الله عن طلب رفع العذاب عن الكافرين: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (هود)، وأمره أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول ومن آمن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ (هود).

وذلك واضح في أن من سبق عليه القول بـالكفر لا يُحمل في السفينة، ولا يحق لنوح عليه السلام أن يطلب نجاته، ابنًا كان أو غير ابن.

الوجه الثالث: سؤال نوح عليه السلام ربه نجـاة ابنـه كـان بشرط الإيمان، وقد ذكره الفَخْر الرّازِي بقوله: لا نسلِّم أنه دعا لابنه مطلقًا. بل بشرط الإيمان وهذا القـول هـو الأرجح عندنا. على هذا الرأي الثاني القائل بأن سـؤال نوح عليه السلام كان قبل الغرق؛ وذلـك لأن الله تعـالى نهـى نوحًـا عليه السلام أن يـسأله نجـاة الكـافرين في قولـه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (هود) بعـد أن سأل نوح عليه السلام ربه أن يهلك الكافرين جميعًا بقولـه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ (نـوح)، واللائـق بنـوح عليه السلام ألاّ يخـالف هـذا النهـي الصريح، ويكون معنى قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ أسلم واركب معنـا، وممـن فـسر بهـذا النّـسَفِي، وابـن كثير الذي قال: وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ هـذا هو الابن الرابع واسمه يام، وكان كافرًا، دعاه أبوه عند ركـوب الـسفينة أن يـؤمن ولا يغـرق مـثلما يغـرق الكافرون.

وهذا المعنى هو المناسب، إذ لا يليق بنوح أن يـدعو ابنه للركوب مع كفره المـستمر، ويكـون المقـصود مـن قوله: ﴿ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ طلب هدايته للإيـمان ونجاتـه، فكأنه قال: رب إن ابني من أهلي فاهْدِه للإيمان ونَجِّـهِ، فالإنسان يحب الخير لأهله، ولا خير أحسن من الهدايـة والنجاة، وقد وعدتني إنجاء أهلي، ومن آمن، وعلى هذا يكون معنى ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إنه ليس من أهلـك الذين يؤمنـون، فيـستحقون النجـاة؛ لأنـه كفـر كفـرًا مستمرًا لا ينتهي حتى يهلك، لِسَبْقَ القول عليه بـذلك، ويكون النهي المتوجّه إلى نوح عليه السلام في قولـه: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لتحذيره من طلـب الهدايـة والنجـاة لابنه في هذا الوقت، فلن يجاب له هذا المطلـب؛ حيـث إن الابن ممن سبق عليه القول بعدم الإيمان في علم الله، ونوح عليه السلام لا يعلـم بـذلك، فنهـاه الله أن يـسأل إيـمان ونجاة من لا يعلم، إن كان ممن سبق عليه القول أنـه لا يؤمن، أو كان ممن يمكن إيمانهم[1].

١. عصمة الأنبياء، د. الحديدي، مرجع سابق، ص٢٦٥: ٢٧٠.

www.kalemasawaa.com

وبهذا يتبين أن سؤال نوح عليه السلام ربه أن ينجي ابنه ليس فيه أي مخالفة تقدح في عصمته بل هو أمر مشروع، سواء كان هذا السؤال قبل الغرق أم بعده كما بيَّنا.

الخلاصة:

لقد سأل نوح عليه السلام ربه تعالى أن ينجي ابنه، وهذا الأمر من حيث زمنه لا يخلو من حالين:

- أن ذلك بعد الغرق فيكون السؤال حينئذ إما: سؤال استعلام وكشف عن حال ولده الذي غرق، أو هو دعاء بالمغفرة، ولا سيما وأن صيغة الكلام "إن ابني من أهلي وأنت أحكم الحاكمين" تحتمل كلا الوجهين، فليست صريحة في النص على أيهما.
- أن ذلك قبل الغرق؛ فيكون السؤال هنا دعاء من نوح عليه السلام إلى الله تعالى أن يهدي ابنه للإيمان حتى تُحَقَّق له النجاةُ مع المؤمنين، وهذا ما عناه بعضهم بقولهم: إن سؤال نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه كان بشرط الإيمان.

وعلى كلا الرأيين يكون السؤال مشروعًا وليس فيه أي مخالفة أو معصية تقدح في عصمة نبي الله نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

الشبهة الثانية عشرة

الزعم أن نوحًا عليه السلام لم يؤمن به أحد من قومه(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن نوحًا عليه السلام لم يؤمن به أحد من قومه مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الصافات) فلو آمن معه أحد من قومه غير أهله لنجا وبقيت له ذرية مثل نوح عليه السلام، ويستأنسون لذلك بما ورد في العهد القديم من أن نوحًا لم يدخل معه في السفينة إلا امرأته وأولاده ونساء أولاده وهم ليسوا سِفْلَةً[1] وهذا يتصادم مع قوله تعالى: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (هود: ٢٧) الذي يُفهم منه أن نوحًا عليه السلام كان له أتباع من قومه غير أهله، وأنهم كانوا من ضعفاء القوم. ويهدفون من وراء ذلك إلى إنكار حقائق قرآنية وردت عن قصة نوح عليه السلام، كما يرمون إلى ضرب القرآن بعضه ببعض.

وجوه إبطال الشبهة:

١) أرسل الله عز وجل نوحا عليه السلام إلى قومه؛ لهدايتهم، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر.

٢) لم يصف القرآن الكريم أتباع نوح عليه السلام بأنهم أراذل، ولكن الكافرين هم الذين وصفوهم بذلك.

٣) القرآن الكريم هو معيار الصدق والحق؛ لثبوت حجته، فهو حجة على الكتب المنقطعة الحجة والسند؛ لذا يجب تصديقه فيما أخبر به عن قصة نوح عليه السلام مع قومه.

٤) قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الصافات) لا يعني أن نوحًا لم يؤمن به أحد من قومه؛ بل معناه أن البركة والتناسل جُعلت في ذرية نوح عليه السلام فبقوا وغيرهم لم يكن لهم نسل.

(*) موقع الكلمة. www.alkalema.net.

١. السِّفْلَة: الغوغاء وقليلو القَدْر.

www.kalemasawaa.com

التفصيل:

أولا. أرسل الله ﷻ نوحًا عليه السلام إلى قومه؛ لهدايتهم، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر:

أرسل الله ﷻ نوحًا عليه السلام إلى قومه؛ ليدعوهم إلى عبادة الله، فلما بلَّغ رسالة ربه ونصحهم، أعرضوا عن دعوته، ورفضوا نصيحته، وزعموا أنه لا يستحق أن يكون رسولًا إليهم؛ لأنه بشر مثلهم، ولأن متّبعيه هم الضعفاء والفقراء: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (هود)[1]. وأن الله لو شاء إرسال رسول إليهم؛ لأنزل ملكًا من الملائكة، كما زعموا ـ كذبًا ـ أن الذي دعا نوحًا عليه السلام إلى هذا هو رغبته في أن يتفضل عليهم، ويكونوا أتباعًا له، ولكن نوحًا عليه السلام لم يَثْنِه[2] تكذيب قومه إياه عن الاستمرار في دعوته، فواصل تأدية الرسالة، ولبث فيهم تسعمائة وخمسين عامًا، لا يَكَلُّ، ولا يَمَلُّ من دعوتهم، حتى أهلكهم الله بالطوفان، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ (العنكبوت). ولكن لم يزدهم ذلك إلا فرارًا من دعوته، فأوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن ـ وهم قليل ـ وعند ذلك أمره ـ ﷻ ـ أن يصنع السفينة؛ ليركب فيها؛ فينجو هو ومن آمن، ونهاه أن يطلب منه نجاة أحد من الذين كفروا؛ لأنه قد حكم على كل الكافرين بالغرق[3]؛ قال ﷻ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (هود).

ثانيًا. القرآن لم يصف المؤمنين أتباع نوح عليه السلام بأنهم أراذل وإنما هذا ما رماهم به الكافرون:

أما وصف المؤمنين أتباع نوح عليه السلام بأنهم "أراذل" فهو وصف أطلقه المجرمون ـ من قومه ـ الذين لم يؤمنوا به حسدًا وكيدًا لأولئك المؤمنين الذين أنعم الله تعالى عليهم بنعمة الإيمان التي حُرم منها هؤلاء الجاحدون المعاندون.

فالحقيقة أن هؤلاء المؤمنين، ليسوا هم الأراذل، بل هم الأصفياء الذين اصطفاهم الله تعالى على غيرهم بأن حبَّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم.

وعليه، فإن كل من ركب في السفينة مع نوح عليه السلام هم الأخيار المصطفون، وليسوا الأراذل أو سفلة القوم.

ثالثًا. القرآن الكريم كلام الله ﷻ، فهو أصدق من الكتب البشريَّة المحرَّفة؛ فيجب تصديقه بما أخبر في كل شيء عن قصة نوح عليه السلام مع قومه:

لم ينف القرآن الكريم إيمان ثلة من أهل نوح ومن قومه؛ حيث يقول ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ (هود). فالآية تثبت أن من أهل نوح من آمن ومنهم من كفر، ومن الذين لم يؤمنوا من أهله زوجته، فقد ضربها الله

---

١. الأَراذِل: السِّفْلَة والفقراء والضُّعفاء.

٢. لم يُثْنِه: لم يبعده أو يمنعه.

٣. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥٤.

www.kalemasawaa.com

مثلًا للذين كفروا قال ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحريم)، وكذلك ابنه كان من الكافرين، قال ﷻ: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (هود)، وقال ﷻ: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (هود). كما آمن به عدد قليل من قومه.

وقول قومه المكذبين له كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (هود). لا ينفي إيمان بعض قومه وأهله، فالكفار بكبرهم يرون كل من آمن بنوح ﷺ أراذل، "وأن الشرف عندهم والرفعة والرشد في نظرهم هو البقاء على الكفر، ومتى كان قول أهل الباطل حجة على أهل الحق؟!

رابعًا. ذرية نوح ﷺ الباقية هم أهل الإيمان ومن تناسل منهم:

قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الصافات) يستدل بعض المتوهمين بهذه الآية على أن نوحًا ﷺ لم يؤمن به أحد، وهذا خطأ؛ لأن الآية لم تنص على ذلك ولقوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ (هود) وإنما قيل في تفسير هذه الآية: إن نوحًا ﷺ ظل بعد الطوفان زمنًا يعلِّم المؤمنين أمور دينهم، ويزكِّي نفوسهم بما أوحاه الله إليه من المواعظ والعبر، حتى لقي ربه ﷻ، وقد مات المؤمنون الذين كانوا معه في السفينة واحدًا بعد الآخر، ولم يتركوا من بعدهم ذرية تَخلُفهم في الأرض إلا أولاد نوح ﷺ، وهم سَام وحَام ويَافِث، فإنهم قد تركوا من خلفهم ذرية تفرقوا في الأرض وعمروها، فكان جميع أفراد البشر من نسلهم، فسام أبو العرب والعبرانيين، وحام أبو السودان والحبشة وغيرهم من الأفارقة، ويافث أبو الترك وغيرهم من العجم، وقد حفظ الله لنوح ﷺ ذكراه العطرة في كل أمة من العالمين؛ فكل مؤمن يذكره يسلِّم عليه تحية له وتعظيمًا لمكانته؛ فهو الأب الثاني للبشرية، وهو أول من دعا إلى الله على بصيرة، وتعرض للأذى من قومه في سبيل دعوته، وهو من أولي العزم، وأصحاب الهمم العالية والأخلاق السامية، وهو المثل الأعلى لغيره من الأنبياء والمرسلين[1].

قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الصافات)، قال الطاهر ابن عاشور: وظاهر هذا أن من آمن مع نبي الله نوح ﷺ من غير أبنائه لم يكن لهم نسل، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا وُلْده ونساءه"،

١. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٤٨.

www.kalemasawaa.com

وبذلك يندفع التعارض بين هذه الآية وبين قوله ﷻ في سورة هود: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ (هود)[1].

الخلاصة:

- أرسل الله ﷻ نوحًا عليه السلام إلى قومه؛ لهدايتهم ودعوتهم إلى عبادة الله وحده فآمن به بعضهم وكفر به الأكثرون، وليس كما يدَّعي بعضهم أنه لم يؤمن به أحد من قومه.
- أثبت القرآن الكريم إيمان بعض قوم نوح عليه السلام من أهله ومن غيرهم قال ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.
- القرآن الكريم لم يصف أتباع نوح عليه السلام المؤمنين بأنهم أراذل، ولكن القرآن يحكي وصف الكافرين لأتباعه وكيدهم للمؤمنين، فهذا الوصف إنما جاء على لسان هؤلاء المجرمين.
- قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ لا يعني أنه لم يؤمن بنوح عليه السلام أحد من قومه غير أهله ولكن يعني حفظ الله ﷻ لنوح عليه السلام ذكراه العطرة في كل أمة من العالمين، وكان جميع أفراد البشر من نسله عليه السلام، فهو الأب الثاني للبشرية، وهو أول من دعا إلى الله سبحانه وتعالى على بصيرة؛ لذلك فكل مؤمن يذكره يسلِّم عليه تحية له وتعظيمًا لمكانته.

الشبهة الثالثة عشرة

التشكيك في صحة قصة نوح عليه السلام في القرآن(*)

مضمون الشبهة:

يشكّك بعض المتوهمين في قصة نوح عليه السلام التي جاء ذكرها في القرآن الكريم؛ إذ يصفونها بالاضطراب، لأنه يذكر مرة أنه نجَّى نوحًا وأهله في قوله ﷻ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنبياء)، ثم يذكر القرآن أن أحد أبناء نوح كان مصيره الغرق؛ وذلك في قوله ﷻ: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (هود).

وجه إبطال الشبهة:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى نجَّى نوحًا عليه السلام ومن آمن معه من أهله وقومه استجابة لدعوته عليه السلام، وأما الكافرون فالهلاك والغرق كان مصيرهم، وإن كانوا من أهله، ولا اضطراب ولا تناقض فيما أخبر به القرآن بشأن نوح عليه السلام وقصته.

التفصيل:

لم يقل القرآن الكريم إن أهل نوح عليه السلام نجَوا جميعًا،

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٣١.

(*) Ebnmaryam.com.

www.kalemasawaa.com

وذِكْره في بعض الآيات أن أهله نجوا لا يتنافى مع ذكره أن بعض أهله لم ينج، قال ﷻ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنبياء)، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الصافات)، وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ (الصافات)، قال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۗ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ (هود).

وذكر القرآن أن من الذين لم يؤمنوا به ولم يتبعوه، ابنه وزوجته قال ﷻ: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (هود)، قال ﷻ: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (هود).

فالقرآن يفسر بعضه بعضًا. والمطلق فيه يحمل على المقيد فلا تناقض إذن، فأهل نوح هم المتقون الذين آمنوا به، ومن لم يؤمن به ـ ولو كان ابنه ـ لم يستحق أن يُنسب إليه قال ﷻ: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (هود). ونسبة الإيمان تجعل من صاحبها أهلًا للنبي، وإن لم يكن بينه وبين النبي نسب.

استجاب الله ﷻ لدعوة نبيه نوح عليه السلام ونجاته وأهله من الكرب العظيم:

قال ﷻ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنبياء).

يخبر الله تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا من قبل إبراهيم ولوط ومحمد ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام ـ أن يهلك الله قومه الذين كذبوا الله فيما توعدهم به من وعيد، وكذبوه فيما أتاهم به من الحق من عند ربه قال ﷻ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ (نوح). (فاستجبنا له) دعاءه (ونجيناه وأهله) يعني بأهله أهل الإيمان من ولده وحلائلهم: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾؛ أي: العذاب الذي حلَّ[1] بالمكذبين من الطوفان والغرق، وقال ﷻ: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الأنبياء) أي ونصرنا نوحًا عليه السلام على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا، فأنجيناه منهم فأغرقناهم أجمعين إنهم كانوا قوم سوء، أي: يسيئون الأعمال فيعصون الله ويخالفون أمره[2].

الخلاصة:

- ذكر القرآن الكريم أهل نوح عليه السلام الحقيقيين وهم من آمن به، أما من انقطعت صلة الإيمان عنهم؛ فلا يستحقون أن يُنسَبوا إليه، أو أن يكونوا من أهله، قال ﷻ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنبياء).

---

١. حلّ: نزل بهم.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥٨. وانظر: قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٢٦: ٣٦. النبوة والأنبياء، الصابوني، مرجع سابق، ص١٣٣: ١٤٤.

www.kalemasawaa.com

وقال الله ﷻ: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (هود). فنسبة الإيمان تجعل من صاحبها أهلًا للنبي وإن لم يكن بينه وبين النبي نسب.

- استجاب الله تعالى لدعوة نبيه نوح عليه السلام ونجّاه وأهله من الكرب العظيم، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الصافات)، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الأنبياء)، أي: ونصرنا نوحًا عليه السلام على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا فأنجيناه منهم وأغرقناهم أجمعين إنهم كانوا قوم سوء فاسقين.

الشبهة الرابعة عشرة

ادِّعاء خطأ القرآن في ذكر قصة هود عليه السلام، التي لا وجود لها في التوراة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن يخالف التاريخ في إيراده قصة هود عليه السلام، ويستدلون على ذلك بالآيات (٥٠ ـ ٥٩) من سورة هود[1]، وبما ذكره أحد المفسرين من أن قبيلة عاد عاقبها الله بإهلاكهم بالرِّيح العقيم[2] بعد إمساك المطر عنهم ثلاث سنوات. ويتساءلون: من أين أتى القرآن بهذه القصة التي لا وجود لها في التوراة؟! ألا يعد هذا مخالفًا لوقائع التاريخ والتوراة؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) التوراة ليست مرجعًا معتمدًا لمعرفة التاريخ حتى نحاكم بها القرآن ونتخذها معيارًا للحكم على القرآن.

٢) كشفت البحوث الحديثة عن وجود قوم عاد، وعن ديارهم، وهذا دليل على أن القرآن الكريم لا يخالف حقائق التاريخ.

التفصيل:

أولا. التوراة ليست حجة، ولا معيارًا للحق:

القرآن الكريم جاء بما لم تأت به التوراة والكتب السابقة؛ ليثبت للعقلاء أن النبي ﷺ لم يتلق القرآن من أحد من البشر، كما أن القرآن الكريم ذكر الكثير والكثير من قصص السابقين التي تؤكد أن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق والصدق قال ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.islameyat.com

١. الآيات هي قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ (هود).

٢. الرِّيح العقيم: التي لا تسوم سحابًا ولا تُلقِّح شجرًا.

www.kalemasawaa.com

﴿ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم). وهذه القصة لم ترد في التوراة؛ لأن القرآن لم يتابع التوراة ـ المحرفة بأيدهم ـ في قصصه وأخباره، بل إنه صحح أخطاءها وأكمل ناقصها، ولو كان النبي ﷺ ناقلًا من التوراة لأخذ كل ما فيها دون تمييز بين حق وباطل، ولو حاول التخلص من باطلها مرة لوقع فيه مرات، فالقرآن كتاب مستقل بذاته، كما أنه مُهَيْمِن على الكتب السماوية كلها، وكذلك فإن التوراة لم تجمع وتستوعب التاريخ كله، حتى نجعلها حكمًا على ما ذكره القرآن من قصص.

كما أن التاريخ نفسه ليس حجة على القرآن الكريم؛ إذ هو من صنع البشر الذين لا يتخلصون من العاطفة في أحسن الأحوال عندما يدونون التاريخ فضلًا عن النزوات والأغراض والأهواء التي تسيطر على كتاب التاريخ وهم يسجلون وقائعه، أضف إلى ذلك عدم إحاطتهم بكل جوانب الأحداث ومختلف الظواهر التي يرصدونها، فإنهم لا يرصدون إلا ما يتراءى لهم، وأعظم من ذلك كله أن أيدي البشر لا تنفك عن العبث في أحداث التاريخ ووقائعه وتغييره بما يوافق مصالحهم وأغراضهم حتى في التاريخ المعاصر والحديث، وكم من أحداث تُزَيَّفُ حقائقها، وكم من وقائع تُغيَّر معالمها. وإذا كان البشر قد امتدت أيديهم إلى الكتب المقدسة فحرفوها فهل سيَتَوَرَّعون[1] عن العبث بحقائق التاريخ الذي لا قداسة له وهذا لا يعني أن كل أحداث التاريخ أو التوراة مزيفة غير أن هذا يؤكد أن القرآن الكريم هو الحق، وما عداه يؤخذ منه ويرد، وكم من آثار وأحداث ماضية ذكرها القرآن الكريم؛ ليبين بها صدق النبي ﷺ فيما جاء به؛ لأن القصص القرآني ليس تأريخًا للبشرية على النمط الذي يسلكه علماء التاريخ والسير في تتابع الأحداث وتسلسلها، وتحليلها وتعليلها في أزمانها وأماكنها المختلفة، ولكنه قصص مختار من التاريخ بالقدر الذي يخدم الدعوة إلى الله ﷻ، ويفتح للناس أبوابًا واسعة للتأمل والنظر، والعظة والاعتبار. قال ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ (فصلت).

ثانيًا. البحوث الحديثة كشفت عن وجود آثار قوم عاد:

كشفت البحوث الحديثة اليوم عن وجود آثار قوم عاد، وديارهم التي وصفها الله ﷻ بقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ (الفجر)[2]، ويقول د. زغلول النجار: كان علماء التاريخ يشككون في حقيقة قوم عاد؛ لأنهم لم يجدوا لها أثرًا على الإطلاق، وفي رحلة من رحلات الفضاء زودوا المكُّوك بجهاز رادار له قدرة اختراق كبيرة، فصوّر مجرى نهرين، وأنهما يصبان في بحيرة قطرها يزيد على أربعين كيلو مترًا في جنوب شرق الربع الخالي، وصوّر المكوك بين مصبي النهرين وعلى ضفاف البحيرة عمرانًا لا تعرف البشرية له نظيرًا في ضخامته، فجمعوا علماء التاريخ، وعلماء الآثار، وعلماء الأديان، وقالوا: ماذا يمكن أن يكون هذا العمران، فأجمعوا على أنه قصور إرم التي وصفها القرآن الكريم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ (الفجر) فقالوا

١. سيَتَوَرَّعون: سيَتَحَرَّجون.

٢. إرَم: لقب القبيلة. العِماد: صاحبة القوة.

www.kalemasawaa.com

في تقريرهم: إن البشرية لم تعرف في تاريخها الطويل عمرانًا في ضخامة هذا العمران، واكتشفوا ـ حينما بدءوا في إزالة الرمال عن هذه المدينة ـ قلعة ثُمانيَّة الأضلاع على أسوار المدينة، مقامة على أعمدة ضخمة عديدة، وذكر التقرير أن هذه الحضارة التي لم يكن ينافسها في زمانها حضارة أخرى طَمَرتها[1] عاصفة رملية غير عادية، وقد سبق القرآن هذه الاكتشافات بأكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، فقال ﷻ: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ (الذاريات). ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (فصلت).

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾ (القمر)، فما ذكرته الأبحاث ما هو إلا تحصيل حاصل في تصديق كتاب الله ﷻ في كل ما جاء به، وكذلك فإنه أسطع برهان لهؤلاء المنكرين حتي يرجعوا عن أفكارهم وكذبهم، وسيبقى القرآن كتاب الله المعجز في الكون، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت).

الخلاصة:

- إن القرآن الكريم كلام الله المعجز، ومن إعجازه أنه يتحدث عن الأخبار السالفة ويبينها للناس، فهو منهج تربوي حكيم ليس له نظير؛ فلا يستطيع أحد أن يشكك في شيء مما جاء به؛ لأن الله تبارك وتعالى تولَّى حفظه، قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر).

- أما التوراة فقد حرَّفها أصحابها، حتى توافق أهواءهم وشهواتهم، ثم بعد ذلك يريدون أن يجعلوها حكمًا على ما جاء في القرآن الكريم.

- أثبتت الدراسات الحديثة ما جاء به القرآن؛ حيث أثبتت البحوث الحديثة وجود قوم عاد، وظهرت ديارهم لتصدق القرآن فظهر الحق جليًّا، وبطل ما يدعون قال ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت).

الشبهة الخامسة عشرة

ادعاء أن ناقة صالح عليه السلام خرافة تتنافى مع العقل(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن ناقة صالح عليه السلام خرافة غير معقولة؛ فليس من العقل أن تلد الصخرة ناقة تشرب كل ماء البئر ليوم كامل، ثم تسقي كل أهل المدينة من لبنها، ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في معجزة صالح وإنكار نبوته عليه السلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ناقة صالح عليه السلام معجزة إلهية، والله ﷻ يؤيد رسله بالمعجزات، فَلِمَ العجب والمؤيِّدُ هو الله ﷻ؟

---

١. طَمَر: ستر.

(*) موقع الكلمة. www.alkalema.net.

www.kalemasawaa.com

٢) المعجزة أمر خارق للعادة، وهذا ما حدث في قصة الناقة، وهي كغيرها من معجزات الأنبياء، مثل إحياء الموتى وخلق الطائر الناتج عن النفخ فيه، وهما معجزتان لعيسى عليه السلام، ومثل تفجير الحجر عيونًا وفلق البحر، وهما معجزتان لموسى عليه السلام.

٣) التشكيك في معجزة صالح عليه السلام التي أيده الله بها مرده القصور في عقول المنكرين، ولو نظروا في الكون لأبصروا العجب العجاب، والتقدم العلمي الحديث خير دليل على قدرة الله تعالى.

التفصيل:

أولا. الناقة معجزة إلهية، والله يؤيد رسله بالمعجزات، فمن أين العجب والمؤيد هو الله ﷻ؟

إن الله ﷻ يؤيد رسله بالمعجزة؛ فالرسل مبعوثون من قِبلهِ تعالى إلى الناس، ودعواهم النبوة ليست دعاوى معتادة؛ لأن رسالتهم أتت من مصدر سماوِي، وليس من مصدر أرضي معتاد؛ لذا كان لا بد من معجزة تؤيدهم فيما يقولون، وتدل على صدقهم؛ فأيدهم الله ﷻ بهذه المعجزات؛ لتكون برهانًا واضحًا على صدقهم، وحتى لا يجد الجاحد سبيلًا إلا الإيمان قال ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (الحج).

ومن هنا عَرَّف العلماء المعجزة: بأنها أمر خارق للعادة، يظهره الله على يد من اصطفاه تصديقًا له في دعوته، ولما كانت المعجزة فعلًا من أفعال الله ﷻ فأي استحالة في وقوعها؟ إن وقوع المعجزة ليس أعجب من خلق السماوات والأرض وما فيها، وليس بأعجب من خلق الحياة المتجددة كل يوم.

وأي عجب في أن تخرج ناقة من صخرة على سبيل خرق العادة، ونحن نرى الكائنات الحية كالديدان تخرج من موات؟ ألا يقلب المرء صخرة أو يشق تمرة أو يقطع عودًا من أعواد النبات، أو يضرب الأرض بفأس أو يشقها بمجراف فيجد في داخل هذه الأشياء ديدانًا، وكائنات حية تخلقت من داخلها، ولم تأت في بدء أمرها من زوجين اثنين؟ إن الذي أوجد هذه الكائنات الحية الدقيقة في هذه الجمادات والنباتات، هو الذي يوجد كائنًا حيًّا من صخرة، وليس في قدرته كبير وصغير، ومعلوم لدى العلماء أن الإعجاز والدقة في الكائن الصغير، لا تقل درجته عن الإعجاز والدقة في الكائن الكبير.

ومتى كان الشيء الغريب المخالف للمألوف مَدْعَاةً للحكم عليه بالاستحالة العقلية؟ إننا لو سلَّمنا بهذا؛ لحكمنا بالاستحالة العقلية على ما لم نألفه، بل لما ثبت شيء في الوجود أصلًا!!، إذ كل واحد منا يعتاد أشياء لا يعتادها ولا يألفها الآخرون، وهكذا ينتهي بنا إنكار غير المألوف إلى إنكار كل شيء، فوجب علينا أن نثق ونؤمن بقصة الناقة؛ لأنها من فعل الله ﷻ.

ثانيًا. الناقة معجزة الله تعالى لنبي الله صالح عليه السلام جاءت آية على صدق نبوته:

إن الله يؤيد أنبياءه بالبينات، والبينة هي: الدليل على الصدق في البلاغ عن الله تعالى، كما أنه ﷻ يؤيدهم بالمعجزات والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة.

والله قد أيَّد صالحًا عليه السلام بالناقة؛ فحين قام سيدنا صالح عليه السلام بدعوته، تحداه السادة من قومه، وقالوا:

www.kalemasawaa.com

نقف نحن وأنت، نستنجد نحن بآلهتنا، وأنت تستنجد بإلهك، فإن غلبت آلهتنا تتبعنا، وإن غلب إلهك نتبعك، وجلسوا يدعون آلهتهم، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة، وهنا قالوا لسيدنا صالح: إن كنت صادقًا في دعوتك، فهذه صخرة منفردة أمامك في الجبل، اسمها "الكَاثِبة" فليُخْرِج ربك لنا من هذه الصخرة ناقة عَشْرَاء كالبُخْت ـ أحسن أنواع الإبل ـ فدعا الله ﷻ، وانشقت الصخرة عن الناقة، وخروج الناقة من الصخرة لا يدع مجالًا للشك في أنها آية من الله ظهرت أمامهم.

إنها البينة الواضحة لقد انشقت الصخرة عن الناقة، ووجدوها ناقة عشراء، وبرَاء ـ أي كثيرة الوَبَر ـ يتحرك جنينها بين جنبيها، تم أَخَذَها المخاض، فولدت فصيلًا، وهكذا تتأكد الآية بدون أن يجرؤ أحد على التشكيك فيها[1].

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ (الأعراف). وهي كغيرها من معجزات الأنبياء، مثل: إحياء الموتى، وخَلْق الطائر الناتج عن النفخ فيه وهما معجزتان لعيسى ﷺ، ومثل: تفجير الحجر عيونًا، وفَلْق البحر وهما معجزتان لموسى ﷺ، وغير ذلك من معجزات الرسل، وإذا كان النصارى قد اغترّوا بما أجرى الله على يد عيسى ﷺ من معجزات، وبالغوا في ذلك حتى جعلوه إلهًا بسببها، فَلِمَ ينكِرونها في حق نبي الله صالح ﷺ، وهو رسول ـ مثل عيسى ﷺ ـ صدَّقه الله بمعجزة الناقة؟!

وهل يُقبل من كل أحد إنكاره ـ بلا دليل ـ معجزةً من المعجزات أو كرامة من الكرامات، ويقول: إنها خرافة من الخرافات، لا لشيء إلا لأنها استحالت في عقله القاصر؟

ثالثًا. التشكيك في معجزة صالح ﷺ ناتج عن ضيق أفق هؤلاء المنكرين، وعجزهم عن إدراك الأمور على حقيقتها:

فلو نظروا في الكون لوجدوا أشياء كثيرة كنا نُعُدُّها مستحيلة ولكنها الآن متاحة، وهذا من فعل البشر، وهم عاجزون، فما بالك بفعل الله ﷻ القادر العلي المتعال.

إننا نرى اليوم أجهزة تتحدث، ولو كان هذا في زمن السابقين لحكموا على ما يرونه أمامهم بأنَّه ضرب من السحر.

ولا سبيل إلى إنكار معجزة صالح ﷺ؛ لأن ما يثبت من معجزات الأنبياء كمعجزة عيسى ﷺ يثبت لمعجزة صالح ﷺ وغيره من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أجمعين، فإذا كان هناك من يشكّك في معجزة الناقة، ويؤمن بمعجزة إحياء الموتى لعيسى ﷺ، فإن هذا مما يتنافى مع العقل السليم ويدخل في باب الإيمان بالهوى قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: ٨٥).

الخلاصة:

- إن معجزة الناقة كانت تأييدًا من الله ﷻ لنبيه

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٧، ص٤٢١٧، ٤٢١٨.

www.kalemasawaa.com

صالح عليه السلام، فكيف يكون العجب، والصانع هو الله عز وجل؟ أليس الله بقادر على كل شيء؟! وهو الذي خلق السماوات والأرض والجبال والأنهار، فمن ينكر خلق الناقة ـ وهي من فعل الله عز وجل ـ، فهل يستطيع أن ينكر باقي أفعاله تبارك وتعالى؟ إنه في هذه الحالة سينكر وجودَ نفسَه ولن يستطيع، فتثبت المعجزة لصالح عليه السلام؛ لأنها فعلٌ من أفعال الله تعالى، وقوعها ليس بأعجب من خلق السماوات والأرض وما فيها، وليس بأعجب من خلق الإنسان، كما أنه سبحانه هو الذي خلق أول ناقة، أليس بقادر على إخراج ناقة من الصخرة؟

- هل يقبل قول كل من ينكر شيئًا ـ بغير دليل ـ لمجرد الإنكار والحكم بالخرافة؟ ولو كان ذلك مقبولًا؛ لأدخلَنا في نفق مظلم من الخرافات التي لا نهاية لها. ولكننا نُذكِّر هؤلاء المنكرين بمقولة هي: إذا كنت مدّعيًا فأين الدليل، وإلا فكلامك محض افتراء لا فائدة منه.

- إن التطور العلمي في شتى المجالات، في عصرنا الحاضر ولا سيما في وسائل المواصلات والاتصالات لَحَرِي بأن يذهب بالألباب، وتُنكره العقول لو كان في زمان الأولين، الذين لم يعهدوا مثل هذا قط، ولا خطر على بالهم طرفة عين، وليس ذلك إلا لقصور عقولهم عن تقدُّم البشر، فما بالنا بفعل الله عز وجل الذي خلق هؤلاء البشر؟!!

الشبهة السادسة عشرة

ادِّعاء وقوع إبراهيم عليه السلام في الشرك(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن سيدنا إبراهيم عليه السلام عبد الكواكب والقمر والشمس، ويستدلون على ذلك بقول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (الأنعام).[1] كما يستدلون على وقوعه في الشرك أيضًا بأنه نظر في النجوم ليتعرف على حاله وما يحدث له، وذلك لقوله عز وجل: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ (الصافات). ويتساءلون: كيف يغفر الله هذا الشرك، مع أنه سبحانه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ (النساء). ويرمون من وراء ذلك الادعاء إلى الطعن في عصمة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) قول إبراهيم عليه السلام: (هذا ربِّي) على كل من: الشمس، والقمر، والكواكب من باب النظر والاستدلال ومحاجّة قومه، وليس من باب الإقرار بعبوديتها. وقيل: إنه كان مناظر، ولم يكن ناظرًا.

(*) موقع المتنصرين. mutenusserin.net

١. جنَّ: أظلم.

www.kalemasawaa.com

٢) لم يقع شرك من إبراهيم عليه السلام، وإنما استخدم ما يسمى في الجدل بـ "مُجاراة الخصم" للوصول إلى الإقناع بالصواب.

٣) نظرُ إبراهيم عليه السلام في السماء كان للتفكر والتدبر وليس اعتقادًا منه في تأثير أوضاع النجوم في حاله وما يحدث له؛ إذ كيف ينهاهم عن الشرك ثم يقع فيه؟!

التفصيل:

أولا. قول إبراهيم عليه السلام: (هَـٰذَا رَبِّي) على كل من: الشمس، والقمر، والكواكب من باب النظر والاستدلال ومحاجّة قومه، وليس من باب الإقرار بعبوديتها:

إن الله تعالى اصطفى سيدنا إبراهيم عليه السلام وآتاه رُشْدَه[١] قبل أن يبعثه فكان حنيفًا مسلمًا مخلصًا لله رب العالمين، وبدأ دعوته مع قومه بالحكمة والموعظة الحسنة فبين لهم مدى الضلال والفساد العقلي، حين يعبد الإنسان أصنامًا لا تضر ولا تنفع، وأن المستحق للعبادة وحده هو الله الخالق المتفضل عليهم بسائر النعم، واتخذ معهم طرقًا كثيرة في سبيل إقناعهم بالعقل والحجة والمنطق والبرهان، وكان من بين هذه الطرق تلك المحاجة التي استخدم فيها أسلوبًا من أساليب المناظرة في الاستدلال على قوله وإلزامهم الحجة.

ويبدو أن إبراهيم عليه السلام كان سائرًا مع فريق من قومه يشاهدون الكواكب، وكان قوم إبراهيم عليه السلام من الصابئة الذين يعبدون الكواكب، ويصورون لها أصنامًا، وكانت تلك ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم عليه السلام، فرأى كوكبًا ظاهرًا بإشراقه عن سائر الكواكب، فأراد أن ينتهز تلك الفرصة السانحة في الاستدلال على بطلان عبادة الأصنام أمام قومه بالدليل العلمي المنطقي من الواقع، فقال على سبيل الفرض جريًا على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم: ﴿هَـٰذَا رَبِّي﴾، فأظهر أنه موافق لهم ليهَشُّوا[٢] إلى ذلك، ثم يكرُّ عليهم بالإبطال إظهارًا للإنصاف وطلب الحق، ولا يريبك في هذا صدور ما ظاهره كفر على لسانه عليه السلام؛ لأنه لما رأى أن ذلك طريق إلى إرشاد قومه وإنقاذهم من الكفر، واجتهد فرآه أرجى للقبول عندهم، ساغ له التصريح به لقصد الوصول إلى الحق وهو لا يعتقده، ولا يزيد قوله هذا قومه كفرًا، كالذي يُكره على أن يقول كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان؛ فإنه إذا جاز ذلك لحفظ نفس واحدة وإنقاذها من الهلاك كان جوازه لإنقاذ فريق من الناس من الهلاك في الدنيا والآخرة أولى، وقد يكون فعل ذلك بإذن من الله تعالى بالوحي[٣].

والدليل على ذلك أن الله تعالى وصفه قبل هذه الآية مباشرة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الأنعام) والموقن هو العالم علمًا لا يقبل الشك، والمراد الإيقان في معرفة الله تعالى وصفاته، وقوله: ﴿نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فهذه الرؤية الخاصة التي اهتدى بها إلى طريق عجيب في إبْكاته[٤] لقومه مُلجئ إياهم للاعتراف بفساد معتقدهم هي فرع من تلك الإرادة التي عمّت ملكوت السموات

١. الرُّشْد: تمام العقل.

٢. يَهَشُّ: ينشرح صدره.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٤، ج٧، ص٢١٩، ٢٢٠.

٤. إبْكاته: تقريعه وتوبيخه.

www.kalemasawaa.com

والأرض[١].

فإبراهيم لم يقل ذلك إخبارًا، وإنما قاله فرضًا واستدراجًا لقومه ليُظهر لهم الحقيقة، حتى أوصلهم لفساد هذا الفرض قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنعام)، ويفصِّل د. الحديدي القول في هذه القضية مختارًا هذا الرأي من آراء العلماء لأدلة منها[٢]:

الأول: أن القول بربوبية الكواكب كفر، والكفر غير جائز على الأنبياء بالإجماع. قال الخطيب الشربيني: لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو له موحد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء.

الثاني: أن الله تعالى أخبر عنه قبل هذه الواقعة أنه قال لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ (الأنعام)؛ فهذا يدل على أن الخليل إبراهيم عليه السلام قد عرف ربه قبل هذه الواقعة.

الثالث: أنه دعا أباه إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام برفق، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ (مريم).

وفي هذه الواقعة دعاه إلى هذا بالكلام الحسن، والرفق يُقدَّم عادة على العنف؛ فدل هذا على أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد مرارًا، وهو لا يدعو غيره إلى الله إلا إذا كان عارفًا به، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف ربه بمدة.

الرابع: أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض، وقد أكسبته تلك الرؤية يقينًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الأنعام)، أي: ليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين، ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنعام)، والفاء تقتضي الترتيب؛ فدل هذا على أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم عليه السلام من الموقنين العارفين بربهم.

الخامس: النص في أكثر من موضع في القرآن الكريم على أن هذه المحاجة كانت مع قومه، وذلك يتضح من قوله لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (الأنعام)، وفي قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنعام)، في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ (الأنعام)، فهذا يدل على أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا عليه من الشرك، وليس متأملا أو متحيرًا.

---

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص٣١٧.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٧٠: ٢٧٦.

www.kalemasawaa.com

السادس: إخبار الله تبارك وتعالى عنه بأنه آتاه رشده من قبل، وكان عالمًا باستحقاقه الرسالة لتجنبه الشرك وسوء الفِعال[1]، وقبيح الصفات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الأنبياء)[2]، وقال عنه أيضًا: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ (الصافات)[3]، أي: لم يشرك قطُّ ـ كما قال القرطبي.

وقال تعالى عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ (النحل).

فهذه الأدلة على أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظرًا قومه، ومعنى هذا أن قول الخليل عن كل من الكواكب والقمر والشمس: "هذا ربي" ليس عن اعتقاد؛ لأنه من قبيل استدراج الخصم بإظهار موافقته؛ ليسمع الحجة، ويتم إلزامه؛ فإنك عندما ترى الخصم عنيدًا لا يسمع لقولك ودليلك لو صرّحت بمقصودك يكون من الأوفق ـ لتصل إلى هدفك ـ أن تتكلم بما يوهم في الظاهر أنك توافقه على مذهبه ـ وأنت تخالفه باطنًا ـ لكنك فعلت هذا استدراجًا له؛ حتى يأنس إليك، ويستمع لقولك، وحجتك التي تتمكن بها من إبطال مذهبه، وقول الخليل عليه السلام: "هذا ربي" من هذا القبيل، فإنه أراد أن يبُطل قولهم بربوبية الكواكب، إلا أنه كان قد عرف ـ من تقليدهم لأسلافهم وبُعد طباعهم عن قبول الحق ـ أنه لو صرَّح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوا ولم يلتفتوا إلى ما يقول؛ فمال إلى طريقة تُقبِل بهم إليه، وعمد إلى أسلوب يستدرجهم إلى استماع الحجة، وذلك بأن يتكلم بما يوهم أنه موافق لهم وعلى منهجهم ـ مع أن قلبه مطمئن بالإيمان ـ ومقصوده من ذلك أن يتمكن من إقامة الدليل على إبطال معتقدهم.

ومعلوم أثر أسلوب الاستدراج في انقياد الخصم، وتعريفه خطأه، وقوم إبراهيم عليه السلام على خطأ فاحش، وضلال مبين، ولا يقبلون المصارحة بخطئهم وضلالهم؛ فلا مناص من اللجوء إلى أسلوب الاستدراج؛ فإنه الأسلوب الأمثل ـ حينئذ ـ في تسكين الخصم، وانتزاع عناده، حتى إذا سَلِس[4] قياده، وأنس إلى من يحاجه، واستمع إلى قوله أمكن إقامة الدليل على بطلان مذهبه ومعتقده؛ فيتم المراد من إبطال باطله، وإظهار الحق الذي يلزمه.

ومحاجة الخليل عليه السلام لقومه المعاندين لا تستغني عن هذا الأسلوب، ولا يُجدي معهم غيره، وكما قال العلامة أبو السعود: لو صدع إبراهيم عليه السلام بالحق من أول الأمر لتمادوا في المكابرة، والعناد، ولَجُّوا في طغيانهم يعمهون[5][6].

---

١. سوء الفِعال: الأفعال السيئة.

٢. عاكفون: مُقْبِلون على عبادتها.

٣. قَلْب سليم: خالٍ من العيوب، خالص من الذنوب.

٤. سَلِس: لان وسهل وانقاد.

٥. لَجُّوا في طغيانهم يعمهون: تمادوا في ضلالهم يتحيَّرون.

٦. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٧٣: ٢٧٦.

www.kalemasawaa.com

ثانيًا. لم يقع من إبراهيم شرك، وإنما هو مُجاراة للخَصْم[١] للاستدلال عليه:

فلو أن إبراهيم عليه السلام بادرهم بالنقد والتقريع والتأنيب لما اهتموا به ولا سمعوا له، بل أعرضوا عنه، لكن إبراهيم عليه السلام استخدم ما يسمى في الجدل بـ "مجاراة الخصم"؛ ليَسْتَمِيل[٢] آذانهم ويأخذ قلوبهم معه، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر فيأخذ بأيديهم معه، فكأنه قال: سلَّمنا ـ جدلًا ـ أنه ربكم، ولكنه يأفل ويغيب عنكم فقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنعام) يعني أنه غير متعصب ضدهم، وهكذا يثبت لهم أن كل كوكب ـ حتى الشمس ـ مصيره إلى أفول، فكأنه قد وصل بهم بالمنطق إلى أن عبادة الكواكب لا تصلح، واستخدم المنطق الذي يحقق به نيته أن ينكر هذه الربوبية ويستأنس به آذان من يسمعه[٣].

والقرآن يؤكد حنيفية إبراهيم عليه السلام وإسلامه، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران)، والحنيف: هو المائل عن كل باطل إلى الحق. والله عز وجل يخبر عن نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل؛ أي: من صغره ألهمه تعالى الحق والحجة على قومه، كما قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ (الأنعام). والمقصود هنا: أن الله عز وجل أخبر أنه آتى نبيه إبراهيم رشده من قبل؛ أي: من قبل ذلك، وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (الأنبياء)؛ أي: أنه أهَّله لذلك.

فإذا كان الله عز وجل آتاه رشده منذ الصغر، وأهَّله من بواكير حياته لحمل الرسالة، وإقامة الحجة على بطلان الشرك بكل صوره، فهل يتفق مع ذلك وصفه بالشرك، وهو الذي أُوتي الحجة والرشد على بطلان الشرك منذ الصغر؟!

والله عز وجل ذكر الآيات التي استدلوا بها على شرك إبراهيم عليه السلام خطأً، وذكر قبلها وبعدها ما يُبرئ ساحة إبراهيم عليه السلام من الشرك، ويجعلنا نجزم أنه أراد بقول: "هذا ربي" الاستدراج للخصم لإبطال زعمه الفاسد.

فقبل هذه الآيات يقول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الأنعام)، وبعد هذه الآيات يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ (الأنعام). فكيف ينكر إبراهيم على أبيه الشرك ويقع فيه[٤]؟!

---

١. مُجاراة الخَصْم: طريقة جَدَليَّة يستخدمها المناظر لإبطال حُجَّة خصمه؛ وذلك بإظهار موافقته على قوله استدراجًا له ليسلم بالحق بعد ذلك.

٢. يَسْتَمِيل: يستعطف.

٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٦، ص٣٧٥٠.

٤. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٧٥، ٢٧٦.

www.kalemasawaa.com

ثالثًا. نظرُ إبراهيم عليه السلام في السماء للتفكر والتدبر ولم يكن اعتقادًا منه بتأثير أوضاع النجوم في حاله وما يحدث له؛ إذ كيف ينهاهم عن الشرك ثم يقع فيه؟!

إن نظر إبراهيم عليه السلام في النجوم لم يكن ليتعرف حاله من تأثيرها وإنما للتفكّر والتدبّر فيها، وهذا طاعة لله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (يونس: ١٠١). بالإضافة إلى أنه في هذا الوقت خاصةً كان ينظر في النجوم تفكُّرًا فيما يُلهَم به.

وفيما يعتذر به عن الخروج معهم، قال النسفي: نظر في النجوم راميًا بصره إلى السماء متفكرًا في نفسه كيف يحتال.

وقد ذكر بعضهم أن إبراهيم عليه السلام نظر في النجوم ليوهم قومه بهذا النظر ـ بطريق التعريض ـ أنه ينظر فيها ليتعرف حاله من تأثيرها على حسب زعمهم واعتقادهم بتأثير أوضاع النجوم في أحوالهم، وما يحدث لهم؛ لكي يتوصل بذلك إلى مقصده من الانفراد بالأصنام وتكسيرها، وهذا وإن كان يبدو مقبولًا لتنزيه إبراهيم عن الشرك؛ ولأن المَعارِيض[1] هنا جائزة وفيها مندوحة عن الكذب من أجل إحقاق الحق، فإن الحق الذي تؤيده أدلة القرآن من الأمر بالتفكر في السموات والأرض وجعله من سمات أولي الألباب النابهين، وكذلك ما هو معلوم من سيرة أبي الأنبياء عليه السلام في القرآن الكريم وتفكره في ملكوت السموات والأرض، كل ذلك يدل على أنه نظر في النجوم متفكرًا كيف يحتال لا أن يقع فيها.

وهذا ما يرجحه محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره وينقل في تأييده كلام المفسرين والعلماء، فقد قال ابن كثير في تفسيره: قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم، يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكرًا كيف يلهيهم بها. وفي تفسير القرطبي عن الخليل والمبرد: يقال للرجل إذا فكر في شيء يدبره؛ لأن المتفكر يرفع بصره إلى السماء لئلا يشتغل بالمرئيات فيخلو بفكره للتدبر فلا يكون المراد أنه نظر في النجوم وهي طالعة ليلًا بل المراد أنه نظر في السماء التي هي قرار النجوم وذكر النجوم جرى على المعروف من كلامهم.

وجنح الحسن إلى تأويل معنى النجوم بالمصدر، أي أنه نظر فيما نجم له من الرأي، يعني أن النجوم مصدر نجم بمعنى ظهر.

وعن ثعلب: نظر هنا، أي: تفكر في كلامهم لما سألوه أن يخرج معهم إلى عيدهم ليدبر حجة. والمعنى: ففكر في حيلة يخلو بها بأصنامهم، فقال: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ٨٩﴾ (الصافات) ليلزم مكانه ويفارقوه فلا يُرِيبهم[2] بقاؤه حول أصنامهم، ثم يتمكن من إبطال معبوداتهم بالفعل[3]. فلم ينطق إبراهيم بأن النجوم دلته على أنه سَقِيم[4] ولكنه لما جعل قوله: "إني سقيم" مقارنًا لنظره في النجوم ربما توهم قومه أنه عرف ذلك من دلالة النجوم حسب أوهامهم.

ويقول الطاهر ابن عاشور أيضًا: وما وقع في

---

١. المَعارِيض: جمع مِعْراض، وهو الستر والتَّوْرِية، خلاف التصريح.

٢. يُرِيب: يُشكِّك.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٤٢ بتصرف.

٤. السَّقِيم: المريض.

www.kalemasawaa.com

التفاسير في معنى نظره في النجوم وفي تعيين سقمه المزعوم كلام لا يستقيم لدى أصحاب العقول والأفهام، وليس في الآية ما يدل على أن للنجوم دلالة على حدوث شيء من حوادث الأمم ولا الأشخاص، ومن يزعم ذلك فقد ضل دينًا، واختل نظرًا وتخمينًا، وقد دوَّنوا كذبًا كثيرًا في ذلك وسموه علم أحكام الفلك أو النجوم[1].

وبهذا يتبين أن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يقع في الشرك سواء عند محاجة قومه أو عندما نظر في النجوم، وكيف يشرك بالله وهو ينهى أباه وقومه عن الشرك؟!

الخلاصة:

- إبراهيم عليه السلام لم يقر عبادة الأصنام، وإلا فلماذا كان ينكر على أبيه وقومه عبادتها: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (الأنبياء)؟
- استخدم نبي الله إبراهيم أسلوب الاستدراج والاستدلال في محاجه قومه؛ ليُظهر بطلان معتقداتهم، وهو ما يسمى في علم الجدل بـ "مجاراة الخصم" فأظهر أنه يوافقهم لينصتوا، ثم كرَّ عليهم بالإبطال إظهارًا للإنصاف وطلبًا للحق: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ (الأنعام).
- إبراهيم عليه السلام حينما نظر في النجوم كان نظره للتفكر فيما يحتال به على قومه، أو كيف يدبر لهم حجة يلهيهم بها عنه حتى يتولوا عنه ويخلو هو إلى معبوداتهم فيبطلها بالفعل تحطيمًا، ولم يكن نظره في النجوم اعتقادًا منه بتأثيرها في حاله؛ إذ إن الاعتقاد بتأثير أوضاع النجوم أو أدلتها على حدوث شيء من حوادث الأمم والأشخاص كفر وشرك وهو معتقد قومه الذي يحاربه ويحاجهم من أجلهم؛ فكيف يقع فيه ولو على سبيل الخطأ وهو ينهاهم عنه؟!

الشبهة السابعة عشرة

توهم أن إبراهيم عليه السلام وقع في الكذب(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن إبراهيم عليه السلام وقع في الكذب ثلاث مرات، ويستدلون على ذلك بما ورد في الحديث الصحيح: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات... قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ (الصافات)، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ (الأنبياء: ٦٣)، وقوله عن زوجته سارة إنها أخته. ويتساءلون: كيف يكون نبيًّا معصومًا، ثم يقع في مثل هذا الكذب؟

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإخبار بقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ (الصافات) أي: سقيم من أفعالكم الكُفْريّة التي تُمْرِض القلب.

٢) الجواب بقوله عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ (الأنبياء: ٦٣) كان تَهَكُّمًا[2] وسخرية أو تبكيتًا لهم وإلزامًا

---

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٤٣ بتصرف يسير.

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

٢. التَّهكُّم: الاستهزاء والاستخاف.

www.kalemasawaa.com

للحجة عليهم، وتنبيهًا على خطأ عبادتهم للأصنام.

٣) المقصود بقول إبراهيم عليه السلام عن زوجته سارة: "إنها أخته" أي الأخوة في الإسلام.

٤) تسمية هذا الكلام كذبًا في الحديث؛ نظرًا لما فهمه الغير منه لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم.

التفصيل:

أولا. الإخبار بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ أي: سقيم من أفعالكم الكفرية التي تمرض القلب:

إن إبراهيم عليه السلام لم يدّخِر أي جهد في سبيل دعوة قومه إلى الله تعالى، وقد استخدم معهم كل أنواع الأدلة والبراهين العقلية؛ ليثبت لهم بطلان معتقداتهم ويثبت الحق الذي عجزت أفهامهم السقيمة وعقولهم المغلقة التي تأبى أن تتفتح للنور أن تستوعبه فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ إشارة إلى السبب الرئيسي لكفرهم وعنادهم لعدم شعوره بالراحة، وفي ذلك يقول صاحب الظلال:

"ويُروى أنه كان للقوم عيد ـ ربما هو عيد النيروز ـ يخرجون فيه إلى الحدائق والخلوات، بعد أن يضعوا النار بين يدي آلهتهم لتباركها، ثم يعودون بعد الفسحة والمرح فيأخذون طعامهم المبارك! وأن إبراهيم عليه السلام بعد أن يئس من استجابتهم له، وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذي لا صلاح له، اعتزم أمرًا، وانتظر هذا اليوم الذي يبعدون فيه عن المعابد والأصنام لينفّذ ما اعتزم، وكان الضيق بما هم فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه، وأتعب قلبه وهواه، فلما دعي إلى مغادرة المعبد قلّب نظره إلى السماء، وقال: "إني سقيم" لا طاقة لي بالخروج إلى المتنزهات والخلوات، فإنما يخرج إليها طلاب اللذة والمتاع أخلياء القلوب من الهم والضيق، وقلب إبراهيم عليه السلام لم يكن في راحة، ونفسه لم تكن في استرواح.

قال ذلك معبرًا عن ضيقه وتعبه، وأفصح عنه ليتركوه وشأنه، ولم يكن هذا كذبًا منه، إنما كان له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم وإن الضيق ليُمرض ويُسقِم ذويه[1].

وإذا كان صاحب "الظلال" يرى أن إبراهيم عليه السلام قد مرض من أفعالهم مرضًا حقيقيًّا وليس في ذلك استخدام للمعاريض، فإن بعض العلماء يرى أنه لما كانت الأصنام مصدر حزنه وسقمه عليه السلام، شعر بأنه ما لم يهدم هذه الأصنام، ويكسرها فلن يجد طعمًا للراحة، وعندما قال لمن حوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ ظنوه مريضًا من الناحية الجسدية فتولوا عنه، وكانوا يصرون على استصحابه معهم لمشاركتهم في احتفالهم الديني... وما إن خرجوا من عنده، حتى أسرع ليحطم الأصنام مبينًا بذلك السبب الحقيقي لسقمه، غير أنه استعمل في كلامه معهم تعريضًا، يفهمون منه شيئًا غير المقصود الحقيقي، ولكنه لم ينحرف في كلامه هذا إلى الكذب أبدًا، وكل ما هنالك أن قومه لم يفهموا قصده الحقيقي، وليس هذا بغريب على قومه الذين صموا آذانهم عن الاستماع إلى الحق، وكان هذا هو مصدر الخطأ[2].

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٢٩٩٣.

٢. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٥٢.

www.kalemasawaa.com

ثانيًا. الجواب بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ كان تهكّما وسخرية أو تبكيتًا لهم وإلزامًا للحجة عليهم، تنبيهًا على خطأ عبادتهم للأصنام:

وفي هذا يبين صاحب الظلال أن قوله ﷻ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنبياء) هو من قبيل التهكم والسخرية فلا يسمى كذبًا، يقول: والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر، إنما أراد أن يقول لهم: إن هذه التماثيل لا تدري من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذي لا يملك مثلها حراكًا، فهي جماد لا إدراك لها أصلًا، وأنتم كذلك مثلها مسلوبو الإدراك لا تميزون بين الجائز والمستحيل فلا تعرفون إن كنت أنا الذي حطمها أم أن هذا التمثال هو الذي حطمها! ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٣)[١].

فأراد إبراهيم عليه السلام أن يقنعهم أنه لو كانت هذه آلهة ـ كما تدّعون ـ لدافعت عن نفسها، أو دافع عنها الصنم الأكبر، أو حتى تنطق فتخبركم بما حدث ومن فعل بها ذلك.

يقول الشيخ ابن عاشور: وقوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ الخبر مستعمل في معنى التشكيك، أي لعله فعله كبيرهم؛ إذ لم يقصد إبراهيم عليه السلام نسبة التحطيم إلى الصنم الأكبر؛ لأنه لم يدعِ أنه شاهد ذلك، لكنه جاء بكلام يفيد ظنه بذلك حيث لم يبق صحيحًا من الأصنام إلا الكبير، وفي تجويز أن يكون كبيرهم هذا الذي حطمهم إخطار دليل انتفاء تعدد الآلهة؛ لأنه أوهمهم أن كبيرهم غضب من مشاركة تلك الأصنام له في العبودية، وذلك تدرج إلى دليل الوحدانية، فإبراهيم عليه السلام في إنكاره أن يكون هو الفاعل أراد أن يلزمهم الحجة على انتفاء ألوهية الصنم العظيم، وانتفاء ألوهية الأصنام المحطمة بطريق الأولى على نية أن يكرّ على ذلك كله بالإبطال، ويوقنهم بأنه الذي حطم الأصنام، وأنها لو كانت آلهة لدافعت عن أنفسها، ولو كان كبيرهم كبير الآلهة لدافع عن حاشيته وقرنائه؛ ولذلك قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنبياء) تهكمًا بهم وتعريضًا بأن ما لا ينطق ولا يُعرِب عنه نفسه غير أهل للإلهية.

وشمل ضمير ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ جميع الأصنام ما تحطم منها وما بقي قائمًا، والقوم وإن علموا أن الأصنام لم تكن تتكلم من قبل، إلا أن إبراهيم أراد أن يقنعهم بأن حدثًا عظيمًا مثل هذا يوجب أن ينطقوا بتعيين من فعله بهم، وهذا نظير استدلال علماء الكلام على دلالة المعجزة على صدق الرسول بأن الله لا يخرق عادة لتصديق الكاذب، فخَلْقه خارق العادة عند تحري الرسول دليل على أن الله أراد تصديقه[٢].

ولو اعتبرنا أن ذلك تعريضًا بقومه في بداية كلامه فلا يعد كذبًا؛ لأن الكلام لا يحكم عليه حتى يتم كالكلام المعقب بشرط استثناء؛ يقول الشيخ ابن عاشور:

فهذا الإضراب ـ يعني بقوله: بل ـ كان تمهيدًا للحجة على نية أن يتضح لهم الحق بآخره؛ ولذلك

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٣٨٥.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٨، ج١٧، ص١٠١.

www.kalemasawaa.com

قال كما جاء القرآن: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ (الأنبياء).

أما الإخبار بقوله: ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ فليس كذبًا، وإن كان مخالفًا للواقع ولاعتقاد المتكلم؛ لأن الكلام والأخبار إنما تستقر بأواخرها وما يعقبها، كالكلام المعقب بشرط أو استثناء، فإنه قصد تنبيههم على خطأ عبادتهم للأصنام، مهد لذلك كلامًا هو جار على الفرض والتقدير، فكأنه قال: "لو كان هذا تعين أن يكون هو الفاعل لذلك، ثم ارتقى في الاستدلال بأَنْ سَلَب الإلهية عن جميعهم بقوله: ﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنبياء).

ويجمع د. أبو النور الحديدي أقوال العلماء والمفسرين في هذه المسألة، وجميعها توضح عصمة سيدنا إبراهيم عليه السلام وتُبَرِّئه عن الوقوع في الكذب، ويمكن تصنيف هذه الأقوال على النحو التالي:

الأول: نَسَبَ إبراهيم عليه السلام الفعل إلى كبيرهم، وقَصْدُه تقريره لنفسه وإثباته له بأسلوب تعريضي؛ تبكيتًا لهم وإلزامًا لهم بالحجة؛ لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم، وأنه لا يصلح إلهًا، فإن إثبات فعل ـ دائر بين اثنين أحدهما عاجز عنه، والآخر قادر عليه ـ إلى العاجز منهما استهزاء به وإثباته للقادر، وهنا تكسير الأصنام إما أن يكون من إبراهيم عليه السلام، وإما أن يكون من كبيرهم، وكبيرهم عاجز عنه قطعًا، فنسبته إليه استهزاء، وإثباته لإبراهيم عليه السلام بأسلوب تعريضي يتحقق به غرضه من إلزام قومه الحجة، وتبكيتهم على عبادة ما لا يصلح إلهًا؛ حيث لا يقدر على شيء.

وهذا الوجه اختاره كثير من المفسرين كالزمخشري، والفخر الرازي، والألوسي، وذكره غير هؤلاء مرجحًا له، كابن كثير، والقاسمي.

الثاني: أنه لم يسند الفعل إلى الكبير اعتقادًا، بل أسنده حكاية لما يلزم على جوازه، كأنه قال لهم: كيف تنكرون أن يفعله كبيرهم، وحق من يُعْبد ويُدَّعى إلهًا أن يقدر على هذا، وأكثر منه؟ وإذا سلمتم أنه لا يقدر على هذا؛ فكيف تعبدونه، وتدعونه إلهًا؟ إن ذلك يكون عين الجهل، وغاية الغباء.

الثالث: أن إسناد الفعل إلى الكبير مشروط بقوله: ﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنبياء) وأيضًا قوله: ﴿فَسْئَلُوهُمْ﴾ جملة معترضة، جعل النطق شرطًا للفعل وأراد به أنهم إن قدروا على النطق قدروا على الفعل؛ فلما ظهر عجزهم عن النطق تبين عجزهم عن الفعل.

الرابع: أن إسناد الفعل إلى الكبير من قبيل إسناده إلى السبب الحامل عليه؛ فإنه عليه السلام لما رأى الأصنام مصطفَّة مزينة يعظمها المشركون، ورأى زيادة تعظيمهم لكبير الأصنام، وتخصيصهم إياه بمزيد التواضع، والخضوع له اشتد غيظه منه فحمله ذلك على تكسير الأصنام، وأبقى الكبير ـ مع أنه السبب ـ ليورد عليهم هذا القول؛ فيظهر جهلهم وضلالهم في عبادة الأصنام.

وهذه الوجوه الأربعة هي أصح ما تدل عليه الآية ـ والأول أصحها ـ وكل واحد منها ينفي حصول الكذب من الخليل عليه السلام.

وأَرْجَح وجه من هذه الوجوه الأربعة، هو الوجه الأول؛ لأن الخليل إبراهيم عليه السلام إنما أراد أن يبين للقوم

www.kalemasawaa.com

فساد اعتقادهم في عبادتهم الأصنام، بحجة تُلزمهم، واعتراف يصدر من جهتهم بعد التأمل في شأن آلهتهم بأنها لا تقدر على شيء؛ حيث هي جماد، وكبيرهم لا يصدر عنه هذا الفعل؛ لأنه مثلهم في الجمادية، وبذلك تقوم الحجة عليهم بأنهم كيف يعبدون ما لا يصلح إلها؛ لعجزه عن جلب النفع، ودفع الضر، يدل على هذا الآيات الكريمة التي تلي هذه الآية، وهي: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الأنبياء) [1] [2].

ثالثًا. المقصود بقول إبراهيم عن زوجته سارة: "إنها أخته" أي الأخوة في الإسلام:

وأما عن قول إبراهيم عليه السلام عن سارة ـ زوجته ـ: إنها أخته، فهو: ليس كذبًا؛ لأنه إنما يقصد الأخوة في الإسلام، والدين الحق الذي كانا عليه، لا أخوة النسب، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ (الحجرات: ١٠)، وفي الحديث: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلِمه" [3].

فالإيمان هو الرباط الأول، الذي يربط الإنسان بالآخرين، وفي غياب هذه العلاقات؛ فإن الذين يولدون من أب واحد وأم واحدة قد يكونون أعداءً، كما أن اختلاف الزمان والمكان، لا يكون حائلًا بين أخوّة الإيمان، فالمؤمنون والمؤمنات إخوَة فيما بينهم، دون نظر إلى تفرقة بين ذكر أو أنثى، أو بين قطر وآخر.

وأما نقاط التقارب؛ فإنها تأتي بعد ذلك، النبي إبراهيم عليه السلام قد أشار إلى هذه العلاقة ـ وهي الرابطة ـ في قوله: "ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك" [4] ®.

رابعًا. تسمية هذا الكلام كذبًا؛ نظرًا لما فهمه الغير منه، لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم:

أما ما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتين منها في ذات الله عز وجل قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾﴾، وقوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبَّار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتي سارة فقال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخِذ، فقال: ادعي الله ولا أضرك، فدعت الله فأطلق. ثم تناولها الثانية فأُخِذ مثلها أو أشد، فقال:

---

١. نكَسوا: انقلبوا وعادوا للمجادلة. أُفٍّ: اسم فعل مضارع بمعنى: أتضجر من قبيح أعمالكم.

٢. عصمة الأنبياء، د. أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٩١ وما بعدها.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه (٢٣١٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٤٣).

٤. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص٥٥.

® في "حقيقة أخوّة سارة لإبراهيم" طالع أيضًا: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة عشرة، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق، فدعا بعض حَجَبَته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر"[1]، فورد إشكال من نسبة الكذب إلى نبي.

ودفع الإشكال: أن تسمية هذا الكلام كذبًا منظور فيه إلى ما يُفهمه أو يعطيه ظاهر الكلام، وما هو بالكذب بل هو من المعاريض، أي أني مثل السقيم في التخلف عن الخروج، أو في التألم من كفرهم، وأن قوله: "هي أختي" أراد أخوة الإيمان، وأنه أراد التهكم في قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ لظهور قرينة أن مراده التغليظ[2].

وهذا هو رأي أكثر العلماء المفسرين، أما الشيخ الطاهر ابن عاشور فيرى أن ذلك سُمي كذبًا على لغة قومه الذين لا يعرفون البلاغة ولا المجاز ولا أساليب التهكم والسخرية يقول: وجوابه عندي: أنه لم يكن في لغة قوم إبراهيم عليه السلام التشبيه البليغ، ولا المجاز ولا التهكم، فكان ذلك عند قومه كذبًا، وأن الله أذن له فعل ذلك وأعلمه بتأويله، كما أذن لأيوب أن يأخذ ضغثًا[3] من عِصّي فيضرب به ضربة واحدة ليبرَّ قسمه؛ إذ لم تكن الكفارة مشروعة في دين أيوب عليه السلام[4].

ورأي الشيخ ابن عاشور هنا لا يختلف كثيرًا عن الرأي الأول بل إنه يعود فينص عليه في موضع آخر من تفسيره إذ يقول: فالمراد من الحديث أنها كذبات في بادئ الأمر، وأنها عند التأمل يظهر المقصود منها، وذلك أن النهي عن الكذب إنما علته خدع المخاطب وما يتسبب على الخبر المكذوب من جريان الأعمال على اعتبار الواقع بخلافه، فإذا كان الخبر يعقب بالصدق لم يكن ذلك من الكذب بل تعريضًا أو مزحًا أو نحوهما.

وأما ما ورد في حديث الشفاعة فيقول إبراهيم: "لست هناكم"[5] ويذكر ثلاث كلمات كذبها، فمعناه أنه يذكر أنه قال كلامًا خلافًا للواقع بدون إذن من الله بوحي، ولكنه ارتكب قولًا خلاف الواقع لضرورة الاستدلال بحسب اجتهاده، فخشي ألّا يصادف اجتهاده الصواب من مراد الله، فخشي عتاب الله فتخلص من ذلك الموقف[6].

الخلاصة:

- الفهم الصحيح لهذه النصوص الثلاثة: ﴿قَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنبياء)، وقوله عن سارة: "إنها أختي" ـ أنها من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب ـ كما قيل ـ فمعنى "إني

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء: ١٢٥) (٣١٧٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٦٢٩٤).

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٤٣.

٣. الضِّغْث: حزمة من حشيش أو غيره.

٤. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٤٣.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة البقرة (٤٢٠٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٤٩٥).

٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٨، ج١٩، ص١٥٢.

www.kalemasawaa.com

سقيم" قيل: ربما كان عليه السلام مريضًا من قبل، وقيل: سقيم القلب لكفرهم وعنادهم وهو سقم معنوي، وهم فهموه على أنه سقم حسي.

- جاء قوله: "بل فعله كبيرهم" تعريضًا؛ وليرجعوا إلى أنفسهم ويتذكروا إذا كان كبيرهم عجز عن حمايتهم علموا أنه لا يصلح إلهًا، ونسبة تكسير الأصنام إليه استهزاء، وبذلك يكون الخليل عليه السلام بين لهم فساد اعتقادهم في الأصنام، وأنها عاجزة عن جلب النفع أو دفع الضرر.

- وقوله عن سارة: "إنها أخته" ليس كذبًا أيضًا؛ لأنه قصد الأخوة في الإسلام (الدين) والإيمان هو الرابط الأول الذي يربط بين الناس، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجرات).

- أما تسمية الحديث ذلك كذبًا فهو بالنظر لما فهمه الغير منه لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم، وربما لأنه استخدم التعريض في أول كلامه، ولكن العبرة بالخواتيم إذ إنه يعقب بالصدق في كلامه وإنما يستخدم ذلك تمهيدًا للاستدراك عليهم وإلزامهم الحجة.

- أما اعتذاره عن الشفاعة بقوله: "لست هناكم" ويذكر ثلاث كذبات، فمعناه أنه ارتكب قولًا خلاف الأولى لضرورة الاستدلال بحسب اجتهاده، فخشي أن لا يصادف اجتهاده مراد الله تعالى فيعاقب؛ لذلك اعتذر.

الشبهة الثامنة عشرة

إنكار لقاء إبراهيم عليه السلام بالنمروذ(*) ®

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهمين لقاء إبراهيم عليه السلام مع النمروذ ـ الذى قيل: إنه كان مَلِكًا وقت نبوة إبراهيم عليه السلام ـ ويدّعون أن عهد النمروذ سابق على زمن إبراهيم عليه السلام بثلاثمائة سنة، فكيف يلتقي به إبراهيم عليه السلام؟! وعلى هذا فهم ينكرون قصة محاجَّة إبراهيم عليه السلام مع النمروذ، وقصة إلقاء النمروذ إبراهيم عليه السلام في النار، ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك فيما أورده القرآن بشأن إبراهيم عليه السلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم ذكر المُناظَرة[1] التي دارت بين إبراهيم عليه السلام وأحد ملوك عصره، ولم يذكر اسم هذا الملك.

٢) القول أن إبراهيم عليه السلام لم يقابل النمروذ ولم يكن معاصرًا له، قول يفتقر إلى التوثيق، فهو خالٍ من الأدلة التي تُثبت صحته، ومن ثم فلا يصح أن تُبنى عليه أيّة أحكام.

٣) لم يخبر القرآن الكريم بأن النمروذ هو الذي ألقى بإبراهيم عليه السلام في النار بل أخبر أن الذي فعل ذلك قومه.

(*) عصمة الأنبياء، د. أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

® في "إبطال إبراهيم دعوى النمروذ" طالع أيضًا: الشبهة العاشرة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولي القرآن الرد عليها).

١. المُناظَرة: المناقشة والمباراة في المحاجَّة.

www.kalemasawaa.com

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم ذكر المناظرة التي دارت بين إبراهيم عليه السلام وملك عصره، ولم يذكر اسم هذا الملك:

إن القرآن الكريم في معرض حديثه عن الخليل إبراهيم عليه السلام أورد نص مناظرة دارت بين إبراهيم عليه السلام وأحد الملوك، ولم يحدد اسم الملك الذي حاجَّ إبراهيم في ربه؛ لأن قصد القرآن من القصص هو مضمون المحاجة والعبرة، ومعرفة اسم الملك لا تقدم ولا تؤخر في المضمون.

وكما أن القرآن لم يذكر اسمه، فكذلك سكتت السنة عنه، وما ورد عن اسمه بأنه النمروذ، وبأن الزمن الذي حدثت فيه هذه المناظرة هو زمن وجوده لم يقل به إلا بعض المفسرين في تفسير بعض آيات وقصص القرآن الكريم، وما أورده بعض المفسرين غير مُلزِم للقرآن الكريم، ومن ثم فهو لا يصح أن يكون مأخذًا على القرآن الكريم.

وقد ذكر المؤرخون أن لقب ملوك تلك البلاد التي وُجد فيها الخليل إبراهيم عليه السلام هو "النمروذ" على اختلاف أسمائهم، كما هو الحال بالنسبة للفراعنة والقياصرة والأكاسرة... إلخ، ومن ثم ربما كان كل ملك يحكم العراق في ذلك الزمان يسمى نمروذًا، وهو أمر مقبول عقلًا.

ثانيًا. إن القول بأن إبراهيم عليه السلام لم يقابل النمروذ خالٍ من الأدلة التي تثبت صحته:

إن المنكرين لم يذكروا مصادرهم في توثيق تلك المعلومة التاريخية القديمة، مما يشكك في صحتها.

والقرآن الكريم أورد محاجة إبراهيم عليه السلام للملك عصره، باعتبارها حلقة من حلقات جهاد الخليل إبراهيم عليه السلام في الوقوف أمام قوى الشرك كلها، ومقاومة الشرك بكل صوره، وليقرر أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يتهيب في ذلك أحدًا، ولم تكن تأخذه في الله لومة لائم.

والمحاجَّة ثابتة بالتاريخ والقرآن الكريم، وأكبر دليل على ذلك سكوت اليهود، والنصارى ـ خاصة الأحبار والرهبان منهم ـ زمن رسول الله ﷺ عن الطعن في الآيات التي وردت بشأن الملك الكافر الذي حاجّه إبراهيم عليه السلام، ولو كان فيها شيء من الغلط لما سكتوا عنه، ولاتخذوه ذريعة للطعن في القرآن الكريم، ونبوة محمد ﷺ، وتلك كانت غاية ما يَصْبُون إليه[1].

ثالثًا. القرآن الكريم لم يخبر أن النمروذ هو الذي ألقى بإبراهيم عليه السلام في النار، بل أخبر أن الذي فعل ذلك قومه:

لم يرد في القرآن الكريم أن النمروذ هو الذي أحرق إبراهيم عليه السلام ولم تذكر الآيات التي تناولت هذا الموضوع شخصًا محددًا، وإنما نسب الإحراق إلى قومه عبدة الأصنام، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنبياء)، وقال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ (الصافات).

وسواء أكان الملك الذي ناظره إبراهيم عليه السلام هو النمروذ أو غيره فإن القصة ثابتة بخبر القرآن، وخبر القرآن أصدق من خبرهم؛ لأنه خبر من المولى تبارك

١. يَصْبُون إليه: يهدفون إليه.

www.kalemasawaa.com

وتعالى والقصص فيه حق وصدق تشهد بذلك التوراة والإنجيل، على ما فيهما من تحريف، قال ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (يوسف).

وكلام بعض المفسرين الذين يستعينون بالإسرائيليات في التفسير ليس بحجة على القرآن الكريم؛ فالمفسر قد يخطئ وقد يصيب، ولكن كتاب الله لا يقربه الخطأ؛ قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت)، وليس لأحد من المسلمين قداسة أو عصمة، كما هو الشأن عند غير المسلمين، ولا عصمة إلا للأنبياء، عليهم السلام.

ومن ثم فقول بعض المفسرين المتشبعين بالإسرائيليات ليس حجة على القرآن؛ لأنهم يعتمدون على القصص التاريخي غير الموثق وغير المحقق.

ويحكي القرآن محاجة إبراهيم عليه السلام للملك في سورة البقرة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (البقرة).

والقرآن الكريم لم يُسَمِّ الملك الذي حاجَّ الخليل إبراهيم عليه السلام في ربه؛ لأن قصد القرآن من القصص هو مضمون المحاجَّة، والعبرة منها.. واسم الملك لا يقدم ولا يؤخر في المضمون واستخلاص العبرة، أما تسمية هذا الملك ـ الذي حاجَّه إبراهيم عليه السلام ـ بـ "النمروذ"، والاختلاف في نطق اسمه ومدة ملكه فغير ملزم للقرآن الكريم.

وليس لدينا في التاريخ الموثَّق والمحقق ما يثبت أو ينفي أن اسم الملك الذي حاج إبراهيم الخليل عليه السلام في ربه هو النمروذ، وإنما هو قصص تاريخي يحتاج إلى تحقيق.

وإن كانت "دائرة المعارف الإسلامية" التي كتبها المُسْتَشْرِقون [1] ـ والتي قد حَرَّر مادة إبراهيم فيها إيزبرغ ـ قد ذكرت الملك نمروذ في قصة إبراهيم؛ فإنها ذكرته وأشارت إليه دون اعتراض.. وإن كانت تلك الموسوعة المعرفية أيضًا قد عَزَت تلك الإشارة إلى بعض المصادر العبرية التي جاء فيها اسم النمروذ؛ فليس هناك ما يمنع تكرار اسم "نمروذ" لأكثر من ملك في أكثر من عصر وتاريخ، وإذا كانت هناك شبهة فهي خاصة بالتاريخ، ولا علاقة لها بالقرآن الكريم [2].

الخلاصة:

- القرآن الكريم لم يصرح بأن النمروذ هو الذي أحرق إبراهيم عليه السلام، ولم تذكر آية واحدة منه ذلك، بل نسب الإحراق إلى قومه عبدة الأصنام، فقال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنبياء)، وقال تعالى: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ (الصافات). والذي يفهم اللغة العربية يعرف أن واو الجماعة تأتي للمجموع وليس للفرد.

---

١. المُسْتَشْرِقون: جمع مُسْتَشْرِق، وهو مَنْ له اهتمام من الأوربيين بدراسة شئون الشرق وثقافاته ولغاته.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٢٩٢، ٢٩٣ بتصرف يسير.

www.kalemasawaa.com

• لم يذكر القرآن الكريم أن النمروذ هو الذي حاجَّ إبراهيم عليه السلام في ربه، بل ذكر المحاجة فقط للعبرة والعظة.

• كلام بعض المفسرين الذين يستعينون بالإسرائيليات في التفسير ليس بحجة على القرآن الكريم؛ لأن معظم قصص التاريخ يحتاج إلى توثيق وتحقيق.

الشبهة التاسعة عشرة

ادِّعاء أن إبراهيم عليه السلام تزوَّج من سارة، وهي أخته(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن سيدنا إبراهيم عليه السلام تزوج سارة وهي أخته، حيث يذكر الكتاب المقدس أنها كانت أختًا غير شقيقة لإبراهيم عليه السلام، ويتساءلون: ألا يعد ذلك ارتكابًا لمُحَرَّم شرعًا؟ هادفين من ذلك إلى الطعن في عصمة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) الكتاب المقدس ثبت أنه محرَّف؛ فما ورد فيه ليس بحجة.

٢) الثابت في الأحاديث النبوية الصحيحة أن سارة لم تكن أخت إبراهيم عليه السلام من النسب، وإنما المراد الأخوة الإيمانية، وهذا هو مقصود إبراهيم عليه السلام من التعريض بأنها أخته، حين دخوله مصر حفاظًا عليها من الملك المتجبر.

التفصيل:

أولا. الكتاب المقدس ثبت أنه محرف؛ فما ورد فيه ليس بحجة:

يقول جراهام سكروغي من معهد مودي في مدينة شيكاغو، وهو عالم مسيحي مشهور في كتابه "الكتاب المقدس كلام الله": إنه من وضع البشر إلا أنه سماوي. ويقول أيضا: نعم إن الكتاب المقدس من وضع البشر، ولو أن الكثيرين ينكرون ذلك لشدة تعصبهم، لقد مرت هذه الأسفار في عقول البشر وكتبت بلغة البشر ودبجت بأقلامهم وبأساليبهم[1].

ويقول عالم مسيحي آخر مشهور وهو كنث كراغمطران القدس الإنجليكاني في كتابه "نداء المِئذنة"، يقول عن الكتاب المقدس: "إنه نتاج ملخّص مكثّف مختار منسوخ، وكما جاء في أسفار العهد الجديد: إن هذه الأسفار خلاصة تجربة وتاريخ".

وفي مقال بمجلة "استيقظوا" وهي مجلة طائفة مسيحية تُدْعى "شهود يَهُوه" تصدر في بروكلين، نيويورك، في عددها الصادر في ٨ أيلول ١٩٥٧م، تحت عنوان "٥٠ ألف خطأ في الكتاب المقدس" يقول المقال: استيقظوا... حانت الآن الساعة، لنستيقظ من النوم، ٥٠ ألف خطأ في الكتاب المقدس[2]؟

فكيف تكون المعلومات الواردة بهذا الكتاب حجة،

(*) قناة الحياة، زكريا بطرس، الحلقة ١٧.

١. أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٨٦.

٢. المرجع السابق، ص٩٨.

www.kalemasawaa.com

وهذه هي شهادات أهل الكتاب أنفسهم؟ وهناك كثير غيرها في كتبهم لكن المجال لا يتسع، والمشكلة الأعظم التي تظهر للعيان ناصعة لا تحتاج إلى برهان هي: أننا إذا تصفحنا الكتاب المقدس تبين لنا من نصوصه ما يؤكد على تحريفه وتغييره، فإن اليهود قد اختلقوا كثيرًا من الأكاذيب التي لا تليق بالأشخاص العاديين ولصقوها ـ زورًا وبهتانًا ـ بالأنبياء؛ حيث يصورون الأنبياء بأقبح الأوصاف، فهم لصوص وزناة وقَتَلَة وسفّاكون للدماء، يرتكبون الجرائم البشعة التي يترفع عنها البشر العاديون، فضلا عن الأنبياء خير خلق الله تعالى، فكيف يحتجون بالمعلومات التي جاءت في هذا الكتاب بشأن إبراهيم عليه السلام ®؟

إن الأعظم جُرمًا من ذلك، هو وصفهم القبيح لله تعالى؛ فقد صوروه ﷻ وكأنه إنسان يغفل، ويسهو، وينام، ويُجهَد، فيستريح، ويعقوب عليه السلام يصارعه، ويغلبه، ولا يفكّه حتى يباركه: "لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت". (التكوين ٣٢: ٢٨)، ومن ذلك أن الله تعالى ندم على خلق الإنسان: "فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه". (التكوين ٦: ٦)، والله ﷻ استراح بعد أن خلق السماوات والأرض: "في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح وتنفس". (الخروج ٣١: ١٧)[1] ®.

وبهذا يتبين لنا حقيقة كتابهم المقدس، وأنه من صنع البشر الذين حرّفوه حسب أهوائهم الفاسدة فلا يصح أن تؤخذ منه أخبار أو معلومات لعدم الوثوق به؛ وعليه يبطل زعمهم واستدلالهم ®.

ثانيًا. الثابت في الأحاديث الصحيحة والتاريخ أن سارة لم تكن أخت إبراهيم عليه السلام من النسب، وإنما المراد الأخوة الإيمانية:

إننا لو وقفنا على نسب إبراهيم عليه السلام لعلمنا أنه إبراهيم بن تارح ابن ناصور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالخ بن ارفكشاد بن سام بن نوح، أما السيدة سارة فقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تاريخه عن نسبها أنها ابنة ملك حران، والمشهور أنها ابنة عمه هاران.

فهذا النسب يغاير نسب السيدة سارة؛ فبطل قولهم بأنها أخته من النسب، وإلا فما الدليل على قولهم؟

ولقد رُوي في الصحيح أنه قد عمَّ القحط وشمل الجدب بلاد الشام وفلسطين كلها، فرحل إبراهيم عليه السلام إلى مصر، تصحبه زوجته سارة وكانت ذات جمال باهر، فوشى بها أحد بطانة السوء إلى الملك وكان رجلًا جبارًا، وهو أحد ملوك العرب العماليق، واسمه

® في "**مقام الأنبياء في الكتاب المقدس**" طالع أيضًا: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان). والوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والستين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢). وفي "**مقام الأنبياء بين القرآن والتوراة**" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

١. أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص٢٠، ٢١.

® في "**مقام الألوهية في التوراة**" طالع أيضًا: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

® في "**تحريف التوراة والإنجيل**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

www.kalemasawaa.com

سنان بن علوان، وكان من عادة هذا الطاغية أنه لا يسمع برجل عنده امرأة جميلة إلا وأخذها منه اغتصابًا، فلما نزل إبراهيم عليه السلام أرض مصر أراد هذا الفاجر أن يعتدي على سارة زوج إبراهيم ويستأثر بها لنفسه؛ فدعاه وسأله عما يربطها به من قرابة، فقال له إبراهيم: هي أختي وقصد بذلك أخوة الدين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، فأمر به فأُخرِج.

فأتى سارة فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي؛ فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل إليها الملك الجبار فأتى بها، فلما دخلت عليه فُتِنَ بجمالها، فسألها عن إبراهيم عليه السلام، فأخبرته أنها أخته، ولكن الفاجر أراد بها السوء، فمد يده إليها يريد أن يجذبها نحوه، فيَبِسَت يده[1] فلم يعد يستطيع حراكها، واضطربت حتى كاد يُصعق من شدة الهول والفزع، فقال لها: ادعي لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلقه، فلما عاد إلى حالته الأولى حدثته نفسه بالغدر بها مرة ثانية، فأخذ مثل الأولى أو أشد، فطلب منها أن تدعو الله له على أن يطلق سراحها ولا يمسها بسوء، فدعت الله فعاد كما كان، فدعا بعض حَجَبَته فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان، فأمر بها أن تُطلق، وأخدمها جارية من جواريه تُسمَّى هاجر، وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهابها إلى الملك قام يصلي لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله السوء، فلما أقبلت أومأ إليها إبراهيم عليه السلام بيده يسألها، فقالت: ردّ الله كيد الكافر في نحره وأخدمني هاجر، قال أبو هريرة رضي الله عنه: "فتلك أمكم يابني ماء السماء"[2]، فعصمها الله وصانها إكرامًا لإبراهيم عليه السلام[3].

فالمراد كما في هذا الحديث الصحيح: أنها أخته في الإسلام والدين الحق الذي كان عليه، لا أخوة النسب؛ لأن الأخوة تطلق أصلًا على المشاركة في النسب، وتطلق على المشاركة في الصفات مجازًا أو استعارة، وهي هنا من هذا القبيل، فقد أطلقت على المشاركة في الدين الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجرات). وفي الحديث: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه"[4].

ويدل أيضًا على أنها أخوة الدين ما ورد في القرآن من أن زوجات النبي ﷺ هن أمهات المؤمنين رغم أنهن لسن أمهات المؤمنين حقيقة قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۖ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ (الأحزاب).

---

١. يَبِسَت يده: شُلَّت.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣١٧٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل (٦٢٩٤).

٣. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٥٨، ١٥٩.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٢٣١٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأداب، باب تحريم الظلم (٦٧٤٣).

www.kalemasawaa.com

ويدل على ذلك أيضًا قول إبراهيم عليه السلام لسارة: كما في الحديث الصحيح: "ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك"[١]. فثبت أنها أخته في الإسلام وأنها ليست أخته من النسب[٢].

مما سبق ينتفى أن تكون السيدة سارة أخت سيدنا إبراهيم عليه السلام، والصحيح أن إبراهيم عليه السلام لم يتزوج أخته من النسب بل إن كلمة الأخوة هنا تعني أخوة الدين لا النسب[٣].

الخلاصة:

- لا يصح أن نجعل من الكتاب المقدس حجة ومرجعية؛ لأن الثابت ـ حتى في الدراسات التي قام بها كثير من علماء اليهود والنصارى ـ أن هذا الكتاب المقدس قد أعيدت كتابته، وأصابه التحريف حذفًا أو زيادة.. كما أن ترجماته قد أدخلت عليه كثيرًا من التغييرات؛ فلا يمكن الوثوق بما ورد فيه.
- من خلال نسب إبراهيم عليه السلام والسيدة سارة يتضح أنها ليست أخته، إنما المراد بقوله: أنها أخته التعريض حفاظا عليها من الملك الجبار، أي أنها أخته في الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجرات).

ولقول إبراهيم عليه السلام للسيدة سارة: "ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك".

الشبهة العشرون

إنكار ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الجزيرة العربية، وبنائه الكعبة(*) ®

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين ذهاب إبراهيم إلى الجزيرة العربية، وبناءه الكعبة، قائلين إن البيت الحرام كان لعبادة الأوثان. مستدلين على ذلك بعدم ذكر الذهاب إلى الجزيرة العربية في الكتاب المقدس. ويتساءلون: لماذا يقرر الإسلام ذهابه إلى الجزيرة العربية وبناءه الكعبة وهذا مخالف لحقائق الكتاب المقدس؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الحق ما ورد في القرآن الكريم؛ لأنه الكتاب السماوي الوحيد المعصوم من التحريف.

٢) ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى بطن الجزيرة العربية ثابت تاريخيًا، وما ثبت بالتاريخ ثبتت صحته كالمتواتر، هذا فضلًا عن ذكر التوراة هذا الذهاب.

٣) بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة من أجل عبادة الله

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه (٢١٠٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٦٢٩٤).

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١١١.

٣. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٥٨.

(*) قناة الحياة، زكريا بطرس، الحلقة ١٧.

® في "ثبوت ذهاب إبراهيم إلى مكة" طالع أيضًا: الشبهة الثلاثين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم). وفي "ثبوت قصة بناء إبراهيم للكعبة في القرآن دون التوراة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والعشرين، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

www.kalemasawaa.com

وحده ثابت تاريخيًّا، وإن حدث بعد ذلك ما يخالف هذا الأصل.

التفصيل:

أولا. الحق ما ورد في القرآن الكريم؛ لأنه الكتاب السماوي الوحيد المعصوم من التحريف:

الكتاب المقدس كتاب محرف؛ فلا يدل ورود الخبر فيه على ثبوته، كما لا يدل عدم ذكر الشيء به على نفيه، فإن المُعَوَّل عليه[1] في إثبات أخبار الأنبياء وغيرهم هو القرآن الكريم دون غيره من المصادر الأخرى؛ فهو الذي ثبت بالأدلة القطعية حفظه من التحريف والتبديل.

وأوثق ما عرف عن إبراهيم عليه السلام وأصدقه، هو ما جاء في كتاب الله الحكيم ـ القرآن الكريم ـ ومن أصدق من الله حديثًا؟

وقد ذكر القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام ذهب إلى مكة، ومن الثابت في القرآن أنه التقى بولده إسماعيل، وأخبره أمر الله له ببناء الكعبة؛ فبناها إبراهيم وإسماعيل معًا، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة).

ثانيًا. ذهاب إبراهيم إلى مكة ثابت تاريخيًّا، وقد ذُكِر في التوراة:

قبل نزول القرآن الكريم، كان معلومًا بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة، حتى إن قريشًا ـ التي كانت تعبد الأصنام في الكعبة ـ كانت تقر ببناء إبراهيم عليه السلام لها، وتعلم ذلك علم اليقين، ولو لم تكن تعلم ذلك، أو حتى لو كان لديها أدنى ذرة من الشك، يمكن لها من خلالها تكذيب محمد ﷺ لما تباطأت في إظهار ذلك التشكيك.

وما دام لم يظهر شيء من هذا القبيل؛ فإن ذلك أدل الأدلة على كون إبراهيم عليه السلام ذهب إلى مكة، وبني الكعبة.

ومع ثبوت ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى مكة، بالقرآن والتاريخ، وذلك كافٍ، فإن التوراة قد أشارت إلى أن إبراهيم عليه السلام ذهب إلى مكة؛ فقد جاء في سفر التكوين بعد أن حكت قصة انتقاله من موطنه إلى أرض كنعان: "ثم ارتحل أبرام ارتحالًا متواليًا نحو الجنوب". (التكوين ١٢: ٩).

والجنوب بالنسبة لفلسطين ـ أرض كنعان ـ هو الجزيرة العربية، ويلاحظ أن التوراة تؤكد على ارتحاله، وأن هذا الارتحال تمَّ في أماكن بعيدة إلى الجنوب، وما ذلك إلا دخوله بطن الجزيرة العربية.

وإن كانت هذه العبارة سبقت الحديث عن رحلته إلى مصر، فإن ذلك لا يمنع أن تكون رحلاته إلى الجنوب من أرض كنعان جاءت بعد عودته من الرحلة إلى مصر، واضطراب التوراة أمر معهود لكل من يقرؤها.

ثالثًا. بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة ثابت تاريخيًّا. وكان البناء لعبادة الله وليس لعبادة الأوثان:

إن نفي بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة لا دليل عليه، كما أن ادعاء بنائها لعبادة الأصنام، ما هو إلا هُراء[2] لا

١. المُعَوَّل عليه: المعتمد عليه.

٢. الهُراء: الكلام الفاسد الذي لا نظام له.

www.kalemasawaa.com

دليل عليه.

فنسبتها إلى إبراهيم عليه السلام أمر معلوم بالتواتر بين الأجيال؛ فأصبح بذلك قطعي الثبوت، مثل كل ما ثبت بالتواتر من البلاد، والأحداث. والثابت تاريخيًّا أن الأصنام، وعبادتها أمر دخيل على الكعبة، والبلد الحرام؛ فأول من أدخلها عمرو الخزاعي، ناقلًا لها من بلاد الشام إثر[1] عودته منها.

وقد جاء إبراهيم عليه السلام بالتوحيد الخالص: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ (النحل). وتوارث أبناؤه من بعده ملته ومنهاجه الذي بُعث به من توحيد الله وعبادته، والوقوف عند حدوده، وتقديس حرماته، وفي مقدمة ذلك: تعظيم البيت الحرام وتقديسه واحترام شعائره والذَّوْد عنه[2]، فلما امتدت بهم القرون وطال عليهم الأمد أخذوا يخلطون الحق الذي توارثوه بكثير من الباطل الذي تسلل إليهم شأن سائر الأمم عندما يَغْشاها[3] الجهل ويبعد بها العهد ويَنْدَسُّ[4] بين صفوفها المُشَعْوِذون[5] والمبطلون فدخل فيهم الشرك واعتادوا عبادة الأصنام.

وكان أول من أدخلها فيهم وحَمَلهم عليها[6] هو عمرو بن لحي الخزاعي الذي ذهب إلى الشام فرآهم يعبدون الأصنام فقال: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟، قالوا له: هذه أصنام نعبدها نَسْتَمْطِرها[7] فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني صنمًا فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه، فأعطوه صنمًا يقال له: هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته.

وهكذا انتشرت عبادة الأوثان فيهم، واستبدلوها بدين إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ[8].

فهل يقال بعد هذا: إن الكعبة بُنيت لعبادة الأصنام؟! وإذا كانت بُنيت لعبادة الأصنام فمن الذي بناها لأصل هذا الغرض؟!

لقد كانت قريش تعبد الأصنام في البيت تقربًا إلى الله، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ (الزمر)، فهذا الاعتراف من الكفار أنفسهم، بأن عبادة الأصنام ما هي إلا قربى لله عز وجل.

وجاء الإسلام فطهَّر البيت الحرام من عبادة الأصنام، وكانت نهاية عبادتها بفتح مكة؛ إذ دخل النبي ﷺ البيت الحرام وبيده قَضِيب[9] يشير إلى الإطاحة بها وهو يقول: "جاء الحق وزَهَق[10]

---

١. إثر: عَقِب.
٢. الذَّوْد عنه: الدفاع عنه.
٣. يَغْشاها: ينتشر فيها.
٤. يَنْدَسُّ: يدخل في خفاء.
٥. المُشَعْوِذون: جمع مشعوذ، وهو من يقوم بأعمال احتيالية مُدَّعيًا أنه يمتلك موهبة أو معرفة، ولكنه لا يمتلكها، مأخوذ من قولهم: شعوذ الرجل؛ أي: مهر في الاحتيال؛ بحيث يُرِيك الشيء على غير حقيقته معتمدًا على خداع الحواس.
٦. حَمَلهم عليها: أغراهم بها.
٧. نَسْتَمْطِرها: نطلب منها المطر.
٨. فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٣٩، ٤٠.
٩. القَضِيب: العَصا.
١٠. زَهَق: ذهب وزال.

www.kalemasawaa.com

الباطل"[1].

وقال رسول الله ﷺ في حَجّة الوداع: "إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا..."[2]، ومن ثم فالكعبة بيت الله، بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله لا لعبادة الأصنام كما ادّعى هؤلاء المبطلون.

الخلاصة:

- الكعبة بناء قائم على مر العصور، والأجيال تواترت على نسبة بنائها إلى إبراهيم عليه السلام ولم تختلف الأجيال والأمم المتلاحقة على ذلك ـ على الرغم من اختلافها في أشياء كثيرة ـ وهذا التَّواتُر[3] القطعي يفيد اليقين الذي يفيده وجود الكعبة نفسها على الأرض.
- النص القرآني أثبت أن إبراهيم عليه السلام ذهب إلى الجزيرة العربية، وبنى الكعبة، كما جاء ذلك أيضًا في التوراة (التكوين ١٢ : ١ـ ٩)، كذلك كان بناء الكعبة والبيت الحرام لعبادة الله عز وجل وحده، ولم تُعرف عبادة الأوثان فيهما إلا مؤخّرًا قبل بعثة النبي ﷺ، والذي أدخل عبادتها إلى الجزيرة العربية هو عمرو الخزاعي عند عودته من بلاد الشام.

الشبهة الحادية والعشرون

ادِّعاء تباين القرآن المدني عن المكّي بشأن إبراهيم عليه السلام؛ استمالة لليهود (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن إبراهيم عليه السلام ورد ذكره في القرآن المكي على أنه رسول أنذر قومه، ولم تُذكَر له أي علاقة بإسماعيل، ووضع قواعد البيت الحرام إلا في القرآن المدني، الذي ذكر أنه كان أول المسلمين حنيفًا قانتًا؛ وذلك من أجل استمالة اليهود في المدينة ـ بعدما ناصبوا القرآن ونبيه العداء في مكة ـ عن طريق الاتصال بيهودية إبراهيم عليه السلام واعتباره أبًا للعرب وبانيًا للبيت الحرام. ويستدلون على أنه لا علاقة للعرب بإبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وأنهما لم يرسَلا إلى العرب بقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (السجدة: ٣).

وجوه إبطال الشبهة:

١) آيات القرآن يُكمل بعضها بعضًا حسب المقام ومقتضى الحال والأغراض التي تساق من أجلها، وليس معنى ذلك أن القرآن يتباين أو يختلف في اتخاذ المواقف والإخبار عن الأمور.

٢) القرآن المكي ذكر ـ في سورة إبراهيم ـ صلة إبراهيم بإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وقصة مجيئه إلى مكة وبناء البيت الحرام، فكيف يُفترى كذبًا ويُقال: إن هذه الأحداث لم تُذكر بالقرآن المكي؟! وادعاء قطع صلة

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب هل تكسر الدنان التي فيها الخمر أو تخرق الزقاق (٢٣٤٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة (٤٧٢٥).

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب دماؤكم وأموالكم عليكم حزام (٢١٥٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب الخطبة يوم النحر (٣٠٥٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٤٧٩).

٣. التَّواتُر: النقل المتتابع عن بعضه.

(*) موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق من الباحثين، مرجع سابق. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق. دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٢م.

www.kalemasawaa.com

إبراهيم بإسماعيل ـ عليهما السلام ـ يهدم التوراة قبل أن يُسيء إلى القرآن؛ لأنها ذكرت صلة إبراهيم بإسماعيل ـ عليهما السلام ـ.

٣) لم يكن بمكة تجمعات يهودية حتى يقال: إن النبي ﷺ أراد الاعتماد عليهم ولكنهم عادوه، ثم هل يُعقل أن يلتمس التقرب إليهم في المدينة بعدما اتخذوا حياله خطة عداء بمكة؟! حسب زعمهم!!

٤) إن إبراهيم عليه السلام ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا حتى يتمسَّحوا به، أو يكون الحديث عنه، أو الانتساب إليه تقربًا إليهم، ولكن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا، والنبي محمد ﷺ بعث بالحنيفية السمحاء.

٥) قوله ﷻ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (السجدة: ٣)؛ أي: بعد أن تميزوا وتحققت قوميتهم، وانتهت رسالة إسماعيل عليه السلام الخاصة بأهله وأصهاره من جُرْهُم[1] فلم تكن عامة ولا دائمة.

التفصيل:

أولا. آيات القرآن يكمل بعضها بعضًا حسب المقام ومقتضى الحال وإنما التفاوت والتباين في عقول المشككين:

لقد جاء ذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام في كثير من آيات القرآن الكريم، وكل الآيات التي جاءت في قصته يكمل بعضها بعضًا، حسب سياق الآيات وما يتطلبه الحال؛ ففي سورة العنكبوت مثلًا يخبر عن دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه وأبيه إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده وتَرْك عبادة الأصنام مُبينًا لهم بالدليل العقلي بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام وداعيًا إيَّاهم إلى النظر في الكون وما فيه من أسرار القدرة الإلهية ودلائل الربوبية والألوهية بالبرهان الواضح والمنطق السليم: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۖ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (العنكبوت).

وفي سورة مريم يدعو أباه إلى عبادة الله بكل أدب يتناسب مع مقام الوالد حتى ولو كان كافرًا ـ بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى إنه عندما يقسو عليه ويهدده بالرجم يتركه إبراهيم عليه السلام قائلًا له: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ

١. جُرْهُم: اسم القبيلة التي تزوَّج منها سيدنا إسماعيل عليه السلام.

www.kalemasawaa.com

سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ (مريم)[1].

وفي سورة الأنعام يحاجّ قومه، ويبطل لهم بالدليل والبرهان عبادة غير الله تعالى من الكواكب والنجوم والشمس والقمر، وبالأحرى عبادة الأصنام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنعام).

وفي سورة البقرة وسورة إبراهيم يحكي قصة بناء البيت ودعاءه إلى الله ﷻ هو وإسماعيل ولده عليهما السلام.. وهكذا تتكرر قصة إبراهيم عليه السلام في كثير من سور القرآن وفي كل مرة يحكي القرآن جانبًا من حياته ومواقفه في سبيل الدعوة إلى الله تعالى وطاعته لأمر الله ﷻ.

ومن اللافت للنظر أن السور التي تحدثت عن الخليل إبراهيم عليه السلام في القرآن المكي يغلب عليها جانب التركيز على جهاده في الدعوة إلى الله تعالى وتوحيده، ومقاومة الشرك بكل صوره بالحكمة والموعظة الحسنة والبرهان القوي، من ذلك نقرأ قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ (الأنعام).

ونلاحظ ذلك أيضًا في قوله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ (مريم)، وفي قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (الأنبياء)، وغير ذلك من السور الكريمة التي تحدثت عن ترسيخ[2] جانب التوحيد في نفوس الناس في بداية الدعوة الإسلامية.

أما القرآن في مرحلة ازدهار الدعوة الإسلامية، فنجد فيه التشريعات والقوانين الإلهية التي بلّغها رسول الله للناس لكي يسيروا على هداها، وكان من بين هذه التشريعات فريضة الحج، التي تعود بالمسلمين إلى عمارة المسجد الحرام والتي بدأت في عهد الخليل إبراهيم عليه السلام بعد بناء البيت الحرام على يد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، ومن المناسب في هذا المقام أن يذكر بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة وتكليفه بأن يؤذن في الناس بالحج إلى بيته الحرام، وأن يذكر أمة الإسلام بأنها

١. حَفِيًّا: بليغًا بي في البر واللُّطف.

٢. ترسيخ: تثبيت.

www.kalemasawaa.com

امتدادٌ للحنيفية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام وإن كانت قصة بناء البيت وترك إسماعيل عليه السلام وأمه عنده وحدهما ذُكرت من قبل في القرآن المكي بسورة إبراهيم، ولكن ليس بهذا التفصيل؛ لأنها كانت مسوقة لغرض آخر هناك، وهذا يؤكد ما سبق أن قررناه من أن حديث القرآن عن قصة إبراهيم عليه السلام جاء مناسبًا للمقام الذي نزلت فيه تلك السور، ومن هنا يظهر مدى التوافق الذي بين آيات السور دون أدنى اختلاف أو تباين، كما يدعي هؤلاء المغرضون.

ثانيًا. قصة بناء البيت الحرام، وصلة إبراهيم بإسماعيل ـ عليهما السلام ـ مذكورة في القرآن المكي:

إن الزعم القائل أن القرآن المكي لم يذكر صلة لإسماعيل بإبراهيم ـ عليهما السلام ـ هو محض افتراء على كتاب الله تعالى ويعد كذبًا وزورًا؛ وذلك لأن الذي أصدر مثل هذا الحكم يُفترض فيه أنه استقصى كل المواضع التي تحدثت في القرآن عن علاقة إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام ـ مكية كانت أو مدنية ـ فمثل هذا الحكم لا يكون إلا بعد استقصاء وحصر؛ وإلا عُدّ هذا افتراءً ناتجًا عن خطأ أو عن جهل، وإذا كان الحكم بدون علم وعن جهل جريمة لا تغتفر فإن الافتراء عن عمد وسابق علم هو أشد شناعة وأفظع جرمًا.

والذي افترى تلك الفرية إنما يروّج لفكرةٍ يُراد الوصول إليها ـ وهي أن محمدًا ﷺ ظل بعيدًا عن صلة العرب بإبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ إلى أن هاجر إلى المدينة فبدت له فكرةٌ هي أن يصل حبل العرب الذين هو منهم باليهود عن طريق إسماعيل وإبراهيم، مع أنه لا صلة للعرب بإبراهيم وإسماعيل حسب افترائهم.

وهذه الفكرة تهدم التوراة قبل أن تسيء إلى القرآن؛ لأن التوراة ذكرت صلة إبراهيم بإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وأنه جَدُّ عدّة قبائل في بلاد العرب، وحين عدّ المفترون السور المكية عمدوا إلى التي يذكر فيها إبراهيم مجردًا عن الصلة بإسماعيل والعرب؛ لذلك تخطّوا سورة إبراهيم وهي مكية، وقد شهدت بعكس ما يقولون، وآياتها شاهدة بأن إبراهيم وإسماعيل بنيا البيت، وأنهما كانا يدعوان الله ﷻ بالهداية، وأن إبراهيم عليه السلام كان يدعو الله ﷻ أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام ـ ويذكر أنه أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام، ويدعو الله أن يرزقهم من الثمرات ويحمد الله ﷻ أن وهب له إسماعيل وإسحاق[1].

ولذا يقول القرآن على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٩٨.

www.kalemasawaa.com

ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ (إبراهيم)[1].

أما زعمهم أن إبراهيم عليه السلام لم يُذكر بأنه حنيف إلا في السور المدنية فهذا أيضًا كذب مفترى، فقد ذُكر بأنه كان حنيفًا في سورة الأنعام مرتين، وفي سورة النحل كذلك وهما مكيتان:

أما سورة الأنعام فقد ورد قوله ﷻ: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنعام)، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ (الأنعام)[2].

وأما سورة النحل فقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ (النحل).

وبهذا يتبين فساد تلك الدعوى المضللة لبطلان أدلتها؛ بل يتضح مدى الحقد الذي يُكِنُّه[3] أصحاب تلك الدعوات على الإسلام والمسلمين، فيزيفون الحقائق ويكذبون على القرآن الكريم افتراءً على الحق من أجل تشويهه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (التوبة).

ثالثًا. لم يكن بمكة تجمعات يهودية:

لم يذكر التاريخ أن مكة كان بها يهود، ولقد ذكرت كل مصادر السِّير أحداث الدعوة المحمدية في مكة، وأتت عليها تفصيلًا لكل الجزئيات وتحليلًا لكل المواقف ولم نجد من بين تلك الأحداث شيئًا يتعلق باليهود؛ إذ لم يكن لهم ذكر بمكة يترتب عليه حدث تاريخي أو أثر في الأحكام، بل إن المشركين في مكة لما عجزوا عن تكذيب النبي محمد ﷺ وأرادوا أن يستعينوا في حربهم ضده بأهل الكتاب ربما يجدون عندهم شيئًا يطعنون به في نبوته ورسالته ـ لعلمهم بالكتاب الأول ـ بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ـ يثرب ـ يسألونهم رأيهم في دعوته ﷺ وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه مما يواجهون به تكذيبهم إياه، قالوا: فإن اليهود أهل الكتاب الأُول وعندهم من علم الأنبياء ـ أي صفاتهم وعلاماتهم ـ علم ليس عندنا، فَقَدِم النضر وعقبة ووصفا لليهود دعوة النبي ﷺ وأخبراهم ببعض قوله، فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث؟ فإن أخبركم بهن فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل[4]، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأَوّل ما كان أمرهم، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسلوه عن الروح ما هي، فرجع النضر وعقبة فأخبرا قريشًا بما قاله أحبار اليهود[5].

فأنزل الله سورة الكهف وشطرًا من سورة الإسراء

---

١. اجنُبْني: ابعدني عن، واحفظني من.

٢. قِيَمًا: مستقيمًا.

٣. يُكِنُّ: يُخْفِي.

٤. المُتَقَوِّل: الذي يفتري ويختلق القول كذبًا.

٥. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٥، ص٢٤٢، ٢٤٣ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

على رسوله ﷺ فيهما إجابة على أسئلة المشركين وإثبات نبوته ﷺ.

والشاهد من هذه القصة أنه لو كان بمكة يهود لما احتاج المشركون أن يسافروا إلى المدينة ليسألوهم عما سألوهم عنه، فكيف يفتري هؤلاء المغرضون ويقولون: إن النبي محمدًا ﷺ "أراد أن يعتمد على اليهود في مكة فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء ـ فلم يكن له بدٌّ من أن يلتمس غيرهم ناصرًا ـ هناك هداه ذكاءٌ مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب ـ إبراهيم عليه السلام ـ وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم عليه السلام، تلك اليهودية التي كانت ممهدة للإسلام ـ ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول ﷺ أصبح إبراهيم عليه السلام أيضًا المشيد لبيت هذه المدينة المقدس"[1].

هذه هي عبارة بعض الذين نصّبوا أنفسهم لحرب الإسلام وإلصاق النقص به والعيب على القرآن وستر محاسنه؛ ليظهروه في صورة لا تكاد تختلف عن كتبهم المحرفة فهم كما قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ (النساء: ٨٩)[2].

إن العبارة السابقة تشير إلى ما تُكِنّه نفوسهم من حقد على الإسلام والمسلمين، هذا الحقد الذي جعل صاحبه غير متزن الفكر بعيدًا عن الالتزام بمعطيات المنهج العلمي من النزاهة والدقة والبحث من أجل إبراز الحقائق لا من أجل طَمْسها[3] إشباعًا لأهواء النفس الجامحة؛ فيدعي كذبًا أن القرآن المكي لم يذكر صلة إبراهيم بإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وقصة بناء البيت، وذلك مذكور فيه ولكن تجاوُزه عمدًا كان لغرض التدليل على أحكام مسبقة اعتقدها هؤلاء، وليست ناتجة عن بحث علمي نزيه.

وأكثر من ذلك ـ اضطرابًا في الفكر والفهم ـ أن يَكذب عليه ويَدَّعي أحداثًا لم يسجلها مثل ادعائه أن اليهود كان لهم كِيان بمكة وأراد محمد ﷺ أن يعتمد على هذا الكيان وذلك على عكس حقائق التاريخ التي لم يرد فيها أي أثر للتجمعات اليهودية بمكة.

والأغرب من ذلك أن يُدّعى أن النبي ﷺ لما فشل في أن يجذب اليهود إليه في مكة واتخذوا ضده خطة عداء راح يستميلهم في المدينة عندما ذكر إبراهيم عليه السلام وصلته بالعرب وقصة بناء البيت. هذه أفكار مشوهة ونتائج مضطربة لا يمكن أن ينسجم بعضها مع بعض، ولا يمكن أن يقبلها العقل السليم أو تسير مع قواعد المنطق؛ إذ كيف يعقل أن يلتمس النبي ﷺ التقرب إلى اليهود بالمدينة بعدما ناصبوه العداء بمكة ـ حسب زعمهم ـ بل إن الذي يفهمه العقل الرشيد، والذي تبرزه نتائج المنطق السديد أن من يناصبني العداء فلا بد من أن أعاديه لا أن ألتمس التقرب إليه.

نعم لم يكن بمكة يهود ـ كما أسلفنا ـ ولكن كان بالمدينة طوائف منهم، ولما ذهب النبي ﷺ إلى المدينة وعلموا أنه نبي آخر الزمان الموصوف عندهم في كتبهم وكانوا يستفتحون[4] به من قبل على العرب ويبشرون

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٩٧.
٢. المرجع السابق، ص٩٧.
٣. طَمْسها: إخفائها أو تشويهها.
٤. يستفتحون: يستنصرون على الكفار بقولهم: إن نبيًّا يبعث فيهم.

www.kalemasawaa.com

بقرب بعثته، كان المنتَظَر منهم أن يؤمنوا به ويصدّقوه وخاصة أنهم كانوا أهل توحيد، ويجانبون عبادة الأصنام ويعادون أهلها، فلما جحدوا وكفروا عن علم، استكبارًا أو حسدًا، صاروا كغيرهم لا فضل لهم على بقية الناس ولا ميزة؛ لأن الكفر كله ملة واحدة، لذلك ما أمل النبي ﷺ أن يعتز بهم يومًا، ومع ذلك لم يظلمهم النبي ﷺ بل عقد معهم وثيقة المدينة، وكانت معاهدة عادلة بين المسلمين واليهود فلما خانوا ونكثوا العهد وناصبوه العداء لم يكن بدٌّ من حربهم والقضاء عليهم.

وإننا لنتساءل كيف يلتمس النبي محمد بن عبد الله ﷺ التقرب من اليهود في المدينة والقرآن المدني يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (المائدة: ٨٢)، و أيضًا كيف يكون الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام تقربًا إلى اليهود، و الخليل إبراهيم عليه السلام ما كان يهوديًا ولا نصرانيًّا؟!

رابعًا. إبراهيم عليه السلام ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا، بل كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين:

الخليل نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديًّا كما يدعي أصحاب هذه الشبهة؛ لأن اليهودية ديانة موسى عليه السلام وهو من نسل إسحاق بن إبراهيم، ولم تأت التوراة إلا من بعده، فكيف تُنسب إلى إبراهيم عليه السلام؟! وهل يعقل أن ينسب الأصل إلى الفرع أم العكس؟! قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (آل عمران).

واليهودية، والنصرانية [1] لم تتفقا مع الإسلام في الأصول والعقيدة ـ فضلًا عن الفروع ـ فكيف يذكر أن رسول الله يستميل اليهود، ولو حاول الرسول ﷺ أن يفعل ذلك لكان أولى الناس بذلك أهله وعشيرته وقومه من مشركي مكة، ولكن رسول الله ﷺ رفض كل صور الاستمالة التي عرضت عليه من قبل قومه ومن قبل غيرهم.

وإبراهيم عليه السلام لم يكن أبا العرب بل هو جدهم ويشترك معهم في ذلك بنو إسرائيل، وجاء وصفه في القرآن بأنه أبو المسلمين في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ (الحج)، والأبوة في الآية ليست أبوة نسب فقط بل أبوة أيضًا انتماء كالأخوة في الإسلام، أما إسماعيل عليه السلام فهو أبو العرب العدنانيين.

ولم يلفق النبي ﷺ قصة بناء الكعبة وينسبها إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بل هي حادثة ثابتة تاريخيًّا بالتواتر عن العرب وغيرهم من الأمم.

يقول الشيخ محمد الغزالي عن هؤلاء المشككين من المستشرقين: وقد استبدَّ بهم الحماس [2] في هذا الوهم حتى أفقدهم كل اتزان علمي، فالمستشرق مرجيلوث يري أن الآيات القرآنية التي تحكي مجيء إبراهيم عليه السلام

---

٢. انظر: قصص الأنبياء، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق.

٢. استبدَّ بهم الحماس: غلبهم فلم يقدروا على ضبطه.

www.kalemasawaa.com

إلى مكة واستيطان ذريته بجوار البيت بعدما بناه هو وابنه إسماعيل آيات مفتعلة دعت إلى افتعالها رغبة الرسول ﷺ في تألف اليهود، وإثبات صلة قرابة بينهم وبين العرب؛ لذلك جاء في سورة البقرة وهي مدنية، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (البقرة)، والمستشرق الذي يوجه هذا الاتهام إلى القرآن الكريم ينسى في غمرة حماسه أمرين:

الأول: أن الحديث عن إبراهيم عليه السلام وزيارة مكة واتصاله بالعرب لم يبدأ في المدينة تأليفًا لقلوب اليهود، وإنما بدأ في مكة حيث لا يهود فيها، وفي القرآن الكريم سورة اسمها "إبراهيم" جاء فيها قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (إبراهيم).

الثاني: أن العهد القديم الذي يرى هذا المستشرق أنه مقدس أثبت قدوم إبراهيم عليه السلام وابنه إلى بلاد العرب، فكيف يقول مستشرق متّزن الفكر أن آيات سورة البقرة غير صحيحة، وأنها قيلت استرضاءً لليهود، وأنها تخالف القرآن المكي[1]؟

وعليه؛ فإن ادعاء اليهود أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًّا، أو أنهم على شريعة إبراهيم عليه السلام وملته، ومثله ادعاء النصارى ومشركي مكة أنهم على شريعة نبي الله إبراهيم عليه السلام وملته ادعاء باطل ينقضه التاريخ والواقع والعقل، بل ينقضه جهلهم بالحنيفية السمحاء فإنهم لا قبل لهم بالمعرفة بدين إبراهيم عليه السلام، ومن أين يعلمونه ولا مستند لهم في علمهم بأمور الدين إلا التوراة والإنجيل؟ وقد نزلا من بعد إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (آل عمران).

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (آل عمران) يدل على أن الله أخبر في القرآن بأنه أرسل محمدًا ﷺ بالإسلام دين إبراهيم عليه السلام، وهو أعلم منكم بذلك، ولم يسبق أن امتن عليكم بمثل ذلك في التوراة والإنجيل، فأنتم لا تعلمون ذلك، فلما جاء الإسلام وأنبأ بذلك أردتم أن تنتحلوا هذه المزية، واستيقظتم لذلك حسدًا على هذه النعمة، فنهضت الحجة عليكم[2].

ويذكر الشيخ الطاهر ابن عاشور في قول اللهتبارك وتعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (آل عمران) نتيجة للاستدلال إذ قد تحصحص من الحجة الماضية أن اليهودية والنصرانية غير الحنيفية، إذ لم يؤثر ذلك عن موسى وعيسى - عليهما السلام - لم يخبرا بأنهما على الحنيفية، فأنتج أن إبراهيم عليه السلام لم يكن على حال

١. دفاع عن العقيدة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٣٠.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٣، ص٢٧١ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

اليهودية أو النصرانية، إذ لم يؤثر ذلك عن موسى ولا عيسى ـ عليهما السلام ـ، فهذا سنده خلو كتبهم عن ادعاء ذلك، وكيف تكون اليهودية أو النصرانية من الحنيفية مع خلوها من فريضة الحج، وقد جاء الإسلام بذكر فرضه لمن تكمن منه.

ومما يؤيد هذا ما ذكره الإمام ابن عطية في تفسير قوله تعالى في هذه السورة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة) عن عكرمة قال: لما نزلت الآية قال أهل الملل: قد أسلمنا قبلك، ونحن المسلمون، فقال الله له: فحجهم يا محمد وأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧) فحج المسلمون وقعد الكفار، ثم تمم الله ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران) فأبطلت دعاوى الفرق الثلاث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران) أما الاستدراك بعد نفي الضد حصرًا لحال إبراهيم عليه السلام فيما يوافق أصول الإسلام؛ لذلك بُين "حنيفًا" بقوله: ﴿مُّسْلِمًا﴾؛ لأنهم يعرفون معنى الحنيفية ولا يؤمنون بالإسلام، فأعلمهم أن الإسلام هو الحنيفية، وقال: فنفي عن إبراهيم عليه السلام موافقة اليهودية، وموافقة النصرانية، وموافقة المشركين وأنه كان مسلمًا فثبتت موافقته الإسلام[1].

وبذلك يتبين أن الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام لم يكن تقربًا من اليهود؛ لأن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديًّا كما ادعى هؤلاء المغرضون بقولهم "يهودية إبراهيم"، بل كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين®.

خامسًا. العرب لم يُرسل إليهم رسول منذ أن تحققت قوميتهم:

أما استدلالهم بقوله ﷻ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (السجدة: ٣) وغيرها من الآيات ـ على إنكار صلة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بالعرب؛ فباطل إذ لو كانا رسولين إلى العرب لتناقض ذلك مع هذه الآية التي تخبر بأن العرب لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ، حسب توهمهم.

والحقيقة أن هذه الآية الكريمة ونظائرها مثل قول الله تعالى في سورة يس: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ (يس) واضحة في أن هؤلاء العرب المعاصرين لرسالة النبي محمد ﷺ وآباءهم إلى جدهم الأعلى لم يأتهم نذير، أما رسالة إسماعيل عليه السلام فكانت خاصة في أهله وأصهاره من جرهم، ولم يكن مرسلًا إلى من بعده فتوقفت رسالته بموته، وكذلك أسلاف هؤلاء العرب مثل قوم عاد وثمود الذين أتتهم الرسل، فقد كان ذلك قبل أن تتحقق قومية خاصة بهم، وبذلك يسقط استدلالهم بهذه الآية على نفي رسالة إسماعيل وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ وصلتهما بالعرب، بل الدليل قائم على رسالة إبراهيم وإسماعيل وبنائهما

---

١. المرجع السابق، ص٢٧٤، ٢٧٥ بتصرف.

® في "حقيقة دين إبراهيم عليه السلام وأنه كان حنيفًا مسلمًا" طالع أيضًا: الوجه الرابع، من الشبهة الثلاثين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم). وفي "ردّ القرآن الكريم على ادعاء أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًّا أو نصرانيًّا" طالع: الشبهة الثامنة والخمسين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

www.kalemasawaa.com

البيت في القرآن والتوراة، فمعنى الآية: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ منذ أن تحققت قوميتهم بعد انقضاء رسالتي إسماعيل وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ.

يقول ابن عاشور في تفسير آية سورة يس: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ (يس): والقوم الموصوفون بأنهم لم تنذر آباؤهم: إما العرب العَدْنانيُّون[1] فإنهم مضت قرون لم يأتهم فيها نذير، ومضى آباؤهم لم يسمعوا نذيرًا، وإنما يُبتدأ عد آبائهم من جدهم الأعلى في عمود نسبهم الذي تميزوا به جذمًا وهو عدنان؛ لأنه جدُّ العرب المستعربة، أو أريد أهل مكة، وإنما باشر النبي ﷺ في ابتداء بعثته دعوة أهل مكة وما حولها، فكانوا هم الذين أراد الله أن يتلقوا الدين وأن تتأصل منهم جامعة الإسلام.

ثم كانوا هم حملة الشريعة وأعوان الرسول ﷺ في تبليغ دعوته وتأييده، فانضم إليهم أهل يثرب وهم قحطانيون فكانوا أنصارًا، ثم تتابع إيمان قبائل العرب[2].

ثم يوضح الشيخ ابن عاشور هذه المسألة ويفصلها ويبين المراد منها أو الغرض الذي سيقت له، وذلك عندما يفسر قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ (السجدة) إذ يقول: ووصف القوم بأنهم: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ قبل رسول الله ﷺ، والنبي حينئذ يدعو أهل مكة ومن حولها إلى الإسلام وربما كانت الدعوة شملت أهل يثرب وكلهم من العرب، فظهر أن المراد بالقوم العرب الذين لم يأتهم رسول قبل محمد ﷺ فإما أن يكون المراد قريشًا خاصة، أو عرب الحجاز أهل مكة والمدينة وقبائل الحجاز، وعرب الحجاز جذمان عدنانيون وقحطانيون؛ فأما العدنانيون فهم أبناء عدنان وهم من ذرية إسماعيل عليه السلام، وإنما تقومت قوميتهم في أبناء عدنان: وهم مضر، وربيعة، وأنمار، وأياد، وهؤلاء لم يأتهم رسولٌ منذ تقومت قوميتهم.

وأما جدهم إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ فإنه وإن كان رسولًا نبيًّا كما وصفه الله ﷻ في سورة مريم، فإنما كانت رسالته خاصة بأهله وأصهاره من جرهم ولم يكن مرسلًا إلى الذين وجدوا بعده؛ لأن رسالته لم تكن دائمة ولا منتشرة، قال ﷻ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ (مريم: ٥٥).

وأما القَحْطانيُّون[3] القاطنون[4] بالحجاز مثل الأوس والخزرج وطيء، فإنهم قد تغيرت فرقهم ومواطنهم بعد سيل العرم، وانقسموا أقوامًا جُددًا، ولم يأتهم نذير منذ ذلك الزمن، وإن كان المنذرون قد جاءوا أسلافهم مثل هود وصالح وتُبع، فذلك كان قبل تقوُّم قوميتهم الجديدة.

وإما أن يكون المراد العرب كلهم بما يشمل أهل اليمن واليمامة والبحرين وغيرهم ممن شملتهم جزيرة العرب وكلهم لا يعْدون أن يرجعوا إلى ذَيْنك

١. العَدْنانيُّون: هم العرب المنحدرة من صُلْب إسماعيل عليه السلام، ويُسمَّون بالعرب المستعربة، وهم عرب الشمال.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٢، ص٣٤٨.

٣. القَحْطانيُّون: هم العرب المنحدرة من صُلْب يَعْرُب بن يشحب ابن قحطان، وتسمى "بالعرب العاربة"، وهم عرب الجنوب، مهدها بلاد اليمن.

٤. القاطنون: الساكنون.

www.kalemasawaa.com

الجِذْمَين[1]، وقد كان انقسامهم أقوامًا ومواطن بعد سيل العرم، ولم يأتهم نذير بعد ذلك الانقسام كما تقدم في حال القحطانيين من أهل الحجاز، وأما ما ورد من ذكر حنظلة بن صفوان صاحب أهل الرَّسّ، وخالد بن سنان صاحب بني عَبْس فلم يثبت أنهما رسولان واختلف في نبوتهما، وقد روي أن ابنة خالد بن سنان وفدت إلى النبي ﷺ وهي عجوز، وأنه قال لها: "مرحبًا بابنة نبي ضيّعه قومه"، وليس لذلك سند صحيح، وذكره الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال (٨/ ٢٢١) وقال: لا يصح هذا، ويرد عليه الحديث الصحيح: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ليس بيني وبينه نبي"[2].

وأيًا ما كان فالعرب كلهم أو الذين شملتهم دعوة الإسلام يومئذ يحق عليهم وصف ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ من وقت تحقق قوميتهم.

والمقصود به تذكيرهم بأنهم أحوج الأقوام إلى نذير، إذ لم يكونوا على بقية من هُدى وإثارة هممهم، لاغتباط أهل الكتاب ليتقبلوا الكتاب الذي أنزل إليهم ويسبقوا أهل الكتاب إلى اتباعه فيكون للمؤمنين منه السبق في الشرع الأخير كما كان لمن لم يُسلم من أهل الكتاب السبق ببعض الاهتداء وممارسة الكتاب السابق[3].

وهناك رأي آخر في توجيه هذه المسألة وهو أن قوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي ما أرسلنا نذيرًا أو رسولًا شرع لهم هذه الشرائع الشركية التي يشركون بها مع الله تعالى آلهة أخرى؛ يقول عبد الوهاب النجار: كان دين كثير من العرب عبادة الأوثان، وكان لهم قرابين يقدمونها إليها وقد سَيَّبوا السَّوائب[4] وبحَّروا البحائر[5] ووَصَلوا الوَصِيلة[6] وسنُّوا لهم قواعد ما أنزل الله بها من سلطان؛ فجاء محمد ﷺ لينذر هؤلاء القوم الذين يدعون أنهم على دين، وأن الله قد أمرهم بما هم عليه، مع أن الله ما أرسل إليهم نذيرًا شرع لهم هذه الشرائع الباطلة؛ لأنهم كانوا إذا ظلموا أنفسهم بشرائعهم الباطلة، قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ـ وقد ناقشهم الله في ذلك ورد عليهم في غير موضع من القرآن كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف).

وفي سورة الصافات بعد أن ذكر دعاوى الوَثَنِيِّين[7] بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ

---

١. ذَيْنِك الجِذْمَين: هذين الفرعين لعدنان.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٦٢٨٠).

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٠، ج٢١، ص٢٠٩، ٢١٠ بتصرف.

٤. سيَّبوا السَّوائب: تركوها دون ركون، لا يُحْلَب لبنها إلا لضيف، وتركوها للأصنام، والسوائب: الناقة التي تنتج عشرة أبطن من الإناث.

٥. بحَّروا البحائر: الناقة التي تلد خمسة أبطن آخرها ذَكَر كانوا يبحرون ـ يشقُّون ـ أذنها، ويخلون سبيلها، فلا تُركب ولا تُحلب، ولا يُحمل عليها شيء.

٦. وَصَلوا الوَصِيلة: وهي الشاة التي إن ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذَكَرًا فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكر وأنثى معًا قالوا: وصلت الأنثى أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم.

٧. الوَثَنِيُّون: هم الذين يعبدون الأوثان؛ أي: التماثيل من خشب أو حجر أو نحاس أو فضة أو غير ذلك.

www.kalemasawaa.com

﴿١٥٤﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ (الصافات) ففي هذه الآيات الكريمة من الأنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم، والتضعيف لعقولهم، واتهامهم مع الاستهزاء بهم، وفي قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الصافات)؛ أي الناطق بصحة دعواكم، والأمر فيه للتعجيز وإضافة الكتاب إليهم للتهكم، وفي قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ (الصافات) إضراب انتقالي من توبيخهم بما ذكر بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلًا؛ أي: بل ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة، فإن الحكم بذلك لا بد له من سند حسي أو عقلي وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلي وهو لا يوجد عندهم.

فالمعنى في هذه الآيات مثله في قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ (الأحقاف: ٤) تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نَقْلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلي، فهو من جملة القول؛ أي: ائتوني بكتاب إلهي كان من قبل هذا الكتاب ـ أي القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك ـ دال على صحة دينكم، أو أثارة من علم ـ أي: بقية علم بقيت عندكم من علوم الأولين ـ شاهدة باستحقاقهم العبادة؟! وهكذا كل آية وردت في هذا المعنى[1].

وبهذا يتبين بطلان الاستدلال بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ على قطع الصلة بين العرب وأبيهم إسماعيل وجدهم إبراهيم ـ عليهما السلام ـ؛ لأنه لا ينفي رسالتهما بل معناه: ما أتاهم من نذير من قبلك بعد أن تحققت قوميتهم من بعد انقضاء رسالة إسماعيل عليه السلام الخاصة بأهله وأصهاره، أو ما أتاهم من نذير؛ أي رسول شرع لهم تلك الشرائع الباطلة قبلك يا محمد بل اخترعوها من أنفسهم وبوحي من شياطينهم.

الخلاصة:

- الادعاء أن قصة الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل وصلتهما بالعرب وبناء البيت لم تذكر إلا في القرآن المدني تَقربًا لليهود واستمالة لهم بعد فشل الاعتماد عليهم في مكة والاستناد إلى قوله ﷻ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (السجدة: ٣) في قطع صلة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بالعرب وأنهما لم يرسلا إليهم... هذا الادعاء باطل ومردود من وجوه:
  - أن هذه القصة واردة في القرآن المكي بسورة إبراهيم المكية في الآيات من (٣٥ إلى ٤١) فكيف يُفْترى كذبًا خلوّ القرآن المكي من ذلك؟!
  - قطع صلة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بالعرب يكذبه التاريخ وسلسلة نسب العرب المحفوظة في التاريخ أيضًا، وهذا القطع فكرة شيطانية تهدم التوراة قبل أن تُسيء إلى القرآن؛ لأن التوراة ذكرت صلة إبراهيم بإسماعيل ـ عليهما السلام ـ، وأن إبراهيم هو جد قبائل عربية عدّة.
  - لم يكن بمكة يهود حتى يحاول النبي ﷺ أن يعتمد

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٩٩، ١٠٠.

www.kalemasawaa.com

عليهم، وهل يعقل أن يحاول النبي ﷺ أن يتقرب إلى اليهود في المدينة بعدما خذلوه واتخذوا حياله خطة عداء بمكة حسبما يزعمون.

○ كيف يحاول النبي ﷺ أن يتقرب إلى اليهود بالمدينة والقرآن المدني يحذره خطرهم وغدرهم وخيانتهم؟ بل جاء في سورة المائدة المدنية: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (المائدة: ٨٢).

○ ما كان إبراهيم عليه السلام يهوديًا ولا نصرانيًا حتى يتمسحوا به، أو يكون الحديث عنه والانتساب إليه تقربًا إليهم، بل كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين والأدلة على ذلك كثيرة منها:

○ أن كتبهم لم تذكر أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًا أو نصرانيًا ولم تأمرهم باتباع ملته.

○ أنهم لا يمارسون كثيرًا من شعائره كالحج، ولا توجد في كتبهم مثل هذه الشعائر فكيف يدعون موافقته؟!

○ أن اليهودية والنصرانية كانتا بعد إبراهيم عليه السلام فالتوارة أنزلت على موسى عليه السلام وهو من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ فكيف ينسب إبراهيم عليه السلام إليها وهل يعقل أن ينسب الأصل إلى الفرع؟!

○ أن القرآن الكريم ذكر أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا بل هو أول المسلمين وأمر المسلمين باتباع ملته وقرر عليهم معظم شرائعه، ومنها الحج.

● قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لا ينفي رسالة الخليل إبراهيم و ابنه إسماعيل عليهما السلام ـ وبالتالي نفى علاقتهما بالعرب كما يدَّعي هؤلاء، وإنما معناه: لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك بعد أن تحققت قوميتهم وذلك بعد انقضاء رسالة إسماعيل الخاصة بأهله وأصهاره.

أو معناه لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير أي رسول قبلك شرَّع لهم تلك الشرائع الشركية وإنما اخترعوها من تلقاء أنفسهم وبوحي من شياطينهم.

الشبهة الثانية والعشرون

الزعم أن إبراهيم عليه السلام شكَّ في قدرة الله على إحياء الموتى(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين وقوع الشك في قلب سيدنا إبراهيم عليه السلام حين سأل ربه عن كيفية إحياء الموتى؛ ليطمئن قلبه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠). ويتساءلون: كيف يصدر ذلك عن نبي من أنبياء الله؟ قاصدين بذلك النيل من عصمة إبراهيم عليه السلام.

وجه إبطال الشبهة:

نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يشك في قدرة الله تبارك وتعالى على إحياء الموتى، ولكن سأل عن الكيفية فقط؛ ليصل بها من علم اليقين إلى عين اليقين.

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

التفصيل:

إبراهيم عليه السلام لم يشك في قدرة الله على إحياء الموتى، ولكن سأل عن الكيفية فقط؛ ليصل بها من علم اليقين إلى عين اليقين:

لقد عصم الله تبارك وتعالى أنبياءه ورسله من كيد الشيطان ووساوسه التي قد تنال من عمق إيمانهم ودرجة قربهم من الله تبارك وتعالى ومن أشهرهم سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام كما أخبر القرآن الكريم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ (النحل).

وقوله "أمة "أي قدوة إمامًا مهتديًا داعيًا إلى الخير، يُقتدى به: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي خاشعًا له في جميع حالاته وسكناته ﴿حَنِيفًا﴾ أي مخلصًا على بصيرة ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾(النحل: ١٢١) أي قائمًا بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله؛ فكيف بمن هذا حاله، أيشك في قدرة المولى ﷻ على إحياء الموتى؟!!

وكيف يشك في هذا الأمر، وقد حاجّ طاغية عصره في هذه القضية، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة)، ومن ثم فكيف يسوغ لمن حاج خصمه بقضية الإحياء والموت، أن يشك فيها بعد ذلك؟! ألا يدل ذلك على جهل هؤلاء المدعين وكذبهم على أنبياء الله تعالى؟! إن الخليل إبراهيم عليه السلام لا يتكلم في الإحياء، وإنما كان شكه في أن الله سبحانه قد لا يستجيب لطلبه في أن يريه ويطلعه على كيفية إحياء الموتى، ولنضرب مثالا على ذلك، ولله المثل الأعلى. إن الواحد منا يقول للمهندس: كيف بنيت هذا البيت؟ إن صاحب السؤال يشير إلى حدث وإلى مُحْدث وهو البيت الذي تم بناؤه. فهل معرفة الكيفية تدخل في عقيدة الإيمان؟ لا. إذن فالاطمئنان جاء لمراد في كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كيفيات مقصورة ومتخيلة[١].

واستنادًا إلى ما سبق فقد كان سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى، وكيفية جمع الأجزاء لا عن الإحياء نفسه، فإنه ثابت ومقرر، ويدل على ذلك وقوع السؤال بكيف التي تسأل عن الهيئة والكيفية، والإنسان يؤمن بما لا يعرف كيفيته، وفي فطرته الرغبة في استكناه أشياء هو مؤمن بها، ولكنه يود لو يقف على أسرارها وخفاياها، وطلب الخليل عليه السلام رؤية كيفية إحياء الموتى من هذا القبيل، فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه من معرفة خفايا أسرار الربوبية، لا طلب للطمأنينة في أصل الإيمان بالبعث، الذي عرفه بالوحي والبرهان، دون المشاهدة والعِيان[٢].

فالمعرفة التفصيلية أقوى وأرسخ من المعرفة الإيمانية المُفْضِية إلى[٣] التردد بين الكيفيات المتعددة مع الطمأنينة إلى القدرة على الإحياء.

يقول الشيخ محمد عبده في قوله تعالى لخليل

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٢، ص١١٣٩، ١١٤٠ بتصرف.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٨٢.

٣. المُفْضِية إلى: المُؤدِّية إلى.

www.kalemasawaa.com

إبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ - وهو أعلم بإيمانه ويقينه - إرشاد إلى ما ينبغي للإنسان أن يقف عنده، ويكتفي به في هذا المقام، فلا يتعداه إلى ما ليس من شأنه، كأنه يقول: إن الإيمان بهذا السر الإلهي، والتسليم فيه لخبر الوحي، ودلالته، وامتثاله هو منتهى ما يطلب من البشر، فلو كان وراء الإيمان والتسليم مطلع لناظر لبيَّنه الله تعالى لك، وفي هذا الإرشاد لخليل الرحمن عليه السلام تأديب للمؤمنين كافة، ومنع لهم عن التفكر في كيفية التكوين وإشغال العقول بما استأثر الله تعالى به، فيما لا يليق بهم البحث عنه[1].

إذن، فالسؤال ليكف الفكر عن تخيل كيفيات الإحياء؛ إذ تتعين عنده كيفية إحياء الموتى[2].

ذلك، وقد وردت في الآية أقوال عديدة، تنفي الشك عن إبراهيم عليه السلام، وأول هذه الأقوال قول النبي ﷺ: "نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى..."[3].

والحديث ينفي الشك عن إبراهيم عليه السلام؛ حيث إن النبي ﷺ لما سمع من يقول: إن إبراهيم عليه السلام شك، ومحمد ﷺ لم يشك؛ فرد عليهم بهذا الحديث، أي: إذا لم نشك نحن، فإبراهيم أولى ألا يشك.

فالسؤال كان لزيادة الإيمان واليقين؛ لأن درجاته تتفاوت بالمعاينة،[4] ينتقل الإنسان فيه من علم اليقين إلى عين اليقين، والعلم ينقسم إلى ضروري - وهو الحاصل من غير استدلال لظهوره - ونظري - يتوقف على نظر واستدلال لكونه غير بَدَهِي[5]، والشك ممتنع في الضروري، ومحتمل في النظري، وقد أراد الخليل أن ينتقل من النظري إلى الأعلى منه وهو الضروري. وليس معنى هذا أن إبراهيم عليه السلام وقع منه شك في علمه النظري، بل إن النظري من حيث هو يجوز جريان الشك عليه، وفرق بين الشك وجوازه[6].

وبهذا يتبين لنا أن سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى كان من أجل أن ينتقل من علم اليقين، الذي يؤمن به إيمانًا لا شك فيه ولا تردد إلى عين اليقين الذي يزيد القلب اطمئنانًا بما يراه ويشاهده.

الخلاصة:

لم يشك سيدنا إبراهيم عليه السلام في قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، ولكنه أراد أن يتحوَّل من علم اليقين الذي أوحاه الله عز وجل إليه إلى عين اليقين وهو ما تراه العين وتشاهده، حتى يزداد القلب اطمئنانًا على ما به من إيمان، وكيف يشك إبراهيم عليه السلام في إحياء الله الموتى، وقد حاج الملك

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت، ج٣، ص٥٣، ٥٤.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٨٣.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله عز وجل: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾ (الحجر) (٣١٩٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٦٢٩١).

٤. المعاينة: رؤية بالعين لا شك فيها.

٥. البَدَهِي: الطبيعي.

٦. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٨١، ٢٨٢.

www.kalemasawaa.com

وبرهن له على قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ على كل شيء ومنها إحياء الموتى، فكيف يحاجج الملك بما يشك فيه؟! إن هذا إن دل فإنما يدل على كذبهم في دعواهم وافترائهم على أنبياء الله تبارك وتعالى ورسله الكرام، الذين عصمهم الله ﷻ في عقولهم وقلوبهم وأجسامهم.

الشبهة الثالثة والعشرون

إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهمين وجود إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ ويزعمون أن ورود قصتهما واسميهما في التوراة والإنجيل والقرآن، لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي.

وجها إبطال الشبهة:

١) إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لا دليل عليه، وهو مناقض للعقل، وللمنهج العلمي.

٢) اتفاق الكتب السابقة والقرآن على ذكر قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، يُعَدُّ دليلًا قاطعًا على وجودهما؛ لأن ذلك من قبيل المتواتر الذي لا يقبل التَّواطُؤ[1] على الكذب، ولأن هناك أحداثًا لا يعرفها الإنسان إلا عن طريق الوحي الإلهي.

التفصيل:

أولا. إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لا دليل عليه، ومُناقض للعقل، وللمنهج العلمي:

إن إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ هو إنكار لجزء من الدين، وهو بِدْعَة[2] كانت شائعة في القرن التاسع عشر، فقد كان الغالب في ذلك القرن أن التواريخ الدينية لا تصلح أن تكون أساسًا للتواريخ العلمية.

وهذا الانطباع السَّائد[3] آنذاك قد تغير في معيار البحث الحديث؛ لأنه مناقض للعلم نفسه، عدا ما هو ظاهر من مناقضة للدين، فقد ثبت اليوم أن الأخبار الدينية سبقت المباحث الحفرية والمقارنات العلمية إلى تقرير أحكام التاريخ، التي صحت في رأي المتأخرين بالبراهين الحديثة.

وعلى أننا إذا سلّمنا ـ جدلًا ـ بأن إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ ليسا هما اللذين رفعا قواعد البيت الحرام وأن قصة مجيئهما إلى أرض العرب ليست حقيقة فمن الذي رفع قواعد البيت؟! وإلى من تنسب قبائل العرب؟! إن الذي ينكر أمرًا لا بد أن يعلل الأسباب التي من أجلها أنكر ذلك الشيء، والذي ينفي عن زيد القيام بعمل ما وآثاره موجودة في الواقع لا بد أن يثبته لعمرو وإلا كان كلامًا وادعاءً بلا حق... ثم إننا نسأل أيضًا إلى من تنسب العرب العدنانيون والقحطانيون إذا لم يكونوا أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؟!

(*) موقع الكلمة. www.alkalema.net.

١. التَّواطُؤ: الاتفاق.

٢. البِدْعَة: كلّ حادث لم يوجد في الكتاب والسُّنَّة، سواء أكان في العادات أم في العبادات، وسواء أكان مذمومًا أم غير مذموم.

٣. السائد: المنتشر.

www.kalemasawaa.com

إن هذا الادعاء مجرد زعم لا دليل عليه، وليس كل من ينكر شيئًا، أو يشكك فيه، يُقبل منه إنكاره وتشكيكه.

ثانيًا. اتفاق الكتب السابقة مع القرآن على ذكر قصة إبراهيم وإسماعيل يُعَدُّ دليلا قاطعًا على وجودهما، وأن هناك أحداثًا لا يستطيع الإنسان معرفتها إلا عن طريق الدين:

لو سلمنا بهذا الزعم، وهو عدم وجود سيدنا إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ والقول بأسطورية قصتهما؛ لأنكرنا ـ قياسًا على ذلك ـ كثيرًا من الحقائق التي لا مصدر لها إلا الدين، مثل خلق آدم عليه السلام، وحياته، وخلق الكون، وتفاصيل الأمم التي لا يعرف التاريخ عنها شيئًا إلا عن طريق الدين.

واتفاق الكتب الدينية، التي بأيدي أتباع الملل اليوم على ذكر إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ، مهما اختلفت في بعض التفاصيل، وتناقُل الأتباع والأمم قصتهما عبر الأجيال ـ ينهض دليلًا قاطعًا على وجودهما؛ لأن ذلك من قبيل المتواتر الذي لا يقبل التواطُؤ على الكذب فيه عادة، فهو أشبه بثبوت البلدان النَّائية[1] عند من لم يرها.

من اليقين لدى المؤمن أن الرسول ﷺ لم يتقوّل القرآن الكريم، وأن القرآن لم يَختلق قصص السابقين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (يوسف).

بل ذكرها آية على صدق النبي ﷺ قال تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (هود)، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (يوسف) فالقول بأن قصة أي نبي ـ بما في ذلك زعمهم أن قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ـ أسطورة ينطوي على اتهام صريح للقرآن بأنه يتضمن ما لا حقيقة له، ويُعدُّ هذا من قبيل مشاركة الكفار في كفرهم؛ إذ قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنعام)[2].

وحاشا لكتاب الله أن يكون كذلك، بل هو تنزيل من رب العالمين.

يقول الشيخ الغزالي عمّن ادعى أن حادثة وجود إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ أسطورة: وعنده أن اليهود الذين استوطنوا بلاد العرب اخترعوها قبيل الإسلام أو بعده، وهو يرى في اختراعهم لها نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب، وبين الإسلام واليهودية، وبين القرآن والتوراة... وعنده أن هذه الأسطورة غير مأذون لها أن تدخل دائرة التاريخ وإن شفع لها التوراة والزبور والإنجيل والقرآن الكريم!! إذ نحن إذ رجعنا إلى التوراة نجدها تتحدث عن إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وبني إسماعيل في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين، وفي الإصحاح الأول من أخبار اليوم الأول، وهذان الموضعان من التوارة لا سيما

١. النَّائية: البعيدة.

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١٤٢.

www.kalemasawaa.com

الأول منهما من أقدم أسفار التوراة لأنهما معاصران لموسى عليه السلام.

فهل يتفضل علينا صاحب هذا الافتراء على العلم فيخبرنا كيف تَسَنَّى [1] لهؤلاء الدساسين من اليهود الذين استوطنوا بلاد العرب أن يدسوا هذه الأسطورة قُبيل الإسلام أو بُعيد الإسلام في أسفار منسوبة إلى عصر أقدم من الإسلام بأزمان كثيرة جدًّا؟! وكيف دسوا هذه الدسيسة في التوراة وهم في يثرب أو في خيبر أو في غيرهما من بلاد العرب، ولم يشعر بهم سائر يهود العالم[2]؟!

الخلاصة:

من المعلوم أن عدم وجود مؤرخ يكتب قصة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ، لا ينفي أنها موجودة في سجل الحياة؛ فإنَّ الجد الذي يكمل العشرة من أجدادي، لم أعلم اسمه ولم يسجله تاريخ، فهل معنى ذلك أنه ليس لي جد عاشر؟ وعلى النافي أن يثبت أن حوادث عصرهما مسجلة، كبيرها وصغيرها بيد مؤرخين كانوا في تلك الأمكنة، تسجيلًا يخالف ما ورد في القرآن الكريم. ومن ناحية أخرى فإن الأخبار الواردة عن إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ أخبار متواترة والتواتر حجة قطعية، وبالتالي فلا يجوز الشك فيها أو الطعن عليها.

١. تَسَنَّى: جاز.

٢. دفاع عن العقيدة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٣١.

الشبهة الرابعة والعشرون

ادعاء أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام وليس إسماعيل عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين اليهود أن الذبيح هو إسحاق، وليس إسماعيل ـ عليهما السلام ـ كما جاء في القرآن الكريم، ويهدفون من وراء ذلك إلى نسبة الشرف والتضحية والفداء لأنفسهم وأجدادهم، مجردين العرب من كل فضل.

وجوه إبطال الشبهة:

١) سياق الآيات في القرآن يدل على أن الذبيح هو إسماعيل، وليس إسحاق عليه السلام، وكذلك السنة المطهرة.

٢) النصوص الواردة في التوراة بشأن الذبيح تدل على أنه إسماعيل عليه السلام، وقد أصابها التحريف بحذف اسم إسماعيل عليه السلام، ووضع إسحاق عليه السلام مكانه؛ ليرفعوا من شأن من انتُسبوا إليه.

٣) اقتداء المسلمين بأبيهم إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ في مناسك الحج يدل على أن الذبيح إسماعيل، وإلا فلماذا اختص المسلمون دون غيرهم من اليهود بأداء هذه المناسك؟!!

التفصيل:

أولا. السياق القرآني الكريم يدل على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وليس إسحاق عليه السلام، وكذلك السنة:

جاءت آيات سورة الصافات ناطقة بأن الذبيح هو

(*) دراسات لغوية مقارنة، د. محمد صالح توفيق، مطبعة الزهراء، القاهرة، د. ت. موقع صيد الفوائد.

www.kalemasawaa.com

إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ ؛ قال الله تبارك وتعالى على لسان نبيه الخليل إبراهيم: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ (الصافات).

ولا شك أن الضمير في "عليه" راجع إلى الذبيح وهو إسماعيل عليه السلام، فالآيتان صريحتان بالبشرى بإسحاق عليه السلام بعد ذكر القصة، في أن إسحاق عليه السلام غير الغلام الذي ابتلى الله إبراهيم عليه السلام بذبحه، وعود الضمير إلى الغلام الذبيح، وذكر اسم إسحاق عليه السلام معه صريحًا يقتضي التغاير بين الذبيح وإسحاق عليه السلام.

وأما القصة في التوراة فبطلها إسحاق عليه السلام، حشر اليهود اسمه في هذه القصة؛ حرصًا منهم على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه صغيرًا في طاعة الله، وذلك لينالوا التشريف والتكريم الإلهي.

والآيات ذكرت سؤال إبراهيم عليه السلام ربه أن يهبه من الصالحين، وهو سؤال يُشعر بأنه صدر منه قبل إنجابه فتكون إجابة الله بأن رزقه ابنه الأول وهو إسماعيل عليه السلام.

والله تعالى وصف الغلام الموهوب بأنه حليم فقال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (الصافات)، بينما وصف إسحاق بأنه عليم فقال: ﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الحجر)، حيث كانت أمه ـ سارة ـ حاضرة هذه البشرى العظيمة وتوضحها آية هود: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ (هود).

إن الآيات في سورة الصافات بعد أن فرغت من قصة الذبيح أخبرت أن الله كافأ الوالد على صبره على البلاء بأمرين، أولهما: فداء ابنه بذبح عظيم، ثانيهما: بشارته بإسحاق نبيًّا من الصالحين.

وعطف الحديث عن إسحاق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (الصافات) على قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (الصافات)، يدل على أن الذبيح غير إسحاق؛ لأن العطف يقتضي المغايرة وما ذاك إلا إسماعيل عليه السلام.

ويؤكد ذلك أن الضمير في كلمة "عليه" في قوله تعالى: ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾ (الصافات: ١١٣) يعود على الغلام الحليم ولا يعود على إبراهيم عليه السلام؛ لأنه لو عاد عليه ـ أي إبراهيم ـ لكان في ذكر إسحاق عليه السلام عبث يتنزه الكلام عنه؛ لأن إسحاق عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام، فكأنه ذكر مرتين.

إن الله عز وجل قد بشر سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ـ عليهما السلام ـ، فكيف يأمر الله إبراهيم بذبح إسحاق عليه السلام، وقد أخبره أنه سيكبر ويتزوج ويولد له ولد اسمه يعقوب[1]؟

١. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٨١.

www.kalemasawaa.com

"وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فزوة الأسلمي، عن محمد بن كعب: أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز ﷺ وهو خليفة إذ كان معه بالشام يعني استدلاله بقوله بعد العصمة: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ (هود)، فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهوديًّا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، قال: فسأله عمر بن عبد العزيز: أيُّ ابن إبراهيم عليه السلام أُمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل عليه السلام والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أُمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق عليه السلام؛ لأن إسحاق عليه السلام أبوهم"[1].

ثانيًا. دلت التوراة على أن الذبيح هو إسماعيل، وليس إسحاق عليه السلام:

إن المتصفح لما ورد في التوارة بشأن الذبيح، يجد أن الأوصاف التي ذكروها عن الذبيح تنطبق تمامًا على إسماعيل دون إسحاق ـ عليهما السلام ـ وهذا يدل صراحة على تحريف اليهود قصة الذبيح حيث جعلوا إسحاق مكان إسماعيل ـ عليهما السلام ـ، والدليل على ذلك من التوراة نفسها؛ حيث وصفت الذبيح بأنه ولد إبراهيم عليه السلام الوحيد، أي: الذي ليس له سواه، وهو ما يدل على سخاوة نفس إبراهيم عليه السلام بولده الوحيد بذبحه امتثالًا لأمر ربه له في المنام، أما إسحاق فلم يكن وحيدًا لإبراهيم في يوم من الأيام؛ لأن إسحاق عليه السلام وُلد وإسماعيل عنده أربع عشرة سنة، كما صرّحت التوراة بذلك، وبقي إسماعيل عليه السلام إلى أن مات أبوه إبراهيم عليه السلام، وحضر إسماعيل عليه السلام وفاته ودفنه، وكذلك فإن قضية ذبح إسحاق عليه السلام تناقض الوعد الذي وُعد به إبراهيم عليه السلام؛ من أن إسحاق عليه السلام سيكون له نسل[2].

فهذه مصارحة بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، ولكن الحقد والحسد والكراهية اليهودية للعرب تدفعهم إلى نكران كل حقيقة، وتبديل كل نص صحيح.

وثمة دليل آخر من التوراة يثبت أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام؛ لأن إسماعيل عليه السلام هو الذي أقام بمكة وليس إسحاق.

جاء في سفر التكوين: "فبكّر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقِرْبة ماء وأعطاهما لهاجر واضعًا إياهما على كتفها والولد وصرفها. فمضت وتاهت في برية بئر سبع". (التكوين٢١: ١٤)، "وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر". (التكوين٢١: ٢١).

والذي يلاحظ من العددين السابقين من سفر التكوين أن البلاد التي سكنها إسماعيل عليه السلام وأمه إنما هي برية بئر سبع، ثم ذهب إلى فاران. ولم يذكر الوادي الذي هو مكة اليوم، وفاران تطلق على مواضع منها جبال مكة.

ويدل على أن إسماعيل عليه السلام سكن مكة ما جاء في

١. قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق: محمد عبد الملك الزغبي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص١٢٧.

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١٣٥، ١٣٦.

www.kalemasawaa.com

سفر التكوين: "وسكنوا من حَوِيلة إلى شُور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أَشُّور. أمام جميع إخوته نزل". (التكوين ٢٥: ١٨)[١].

فهل ذهب إسحاق عليه السلام إلى مكة؟! والأدلة الثابتة تاريخيًّا تؤكد وتثبت أن قصة الذبح تمت في مكة.

وبهذا يتضح جليًّا بطلان زعم اليهود بأن الذبيح هو إسحاق عليه السلام. كما يتضح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام بنص التوراة والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ثالثًا. إسماعيل عليه السلام هو الذي أقام بمكة وليس إسحاق عليه السلام:

لقد أقام سيدنا إسماعيل عليه السلام بمكة منذ أن جاء مع أمه طفلًا رضيعًا في القصة المشهورة، ثم أتم بناء البيت مع أبيه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة)، ثم دُفن نبي الله إسماعيل بالحِجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم أن مات مائة وسبعًا وثلاثين سنة[٢].

وبناء على هذا فلو كان الذبيح إسحاق عليه السلام لكانت مسألة الذبح والفداء وما يتعلق بهما من مناسك قد وقعت بأرض الشام، حيث عاش هناك سيدنا إسحاق، أما وهي تُفعل في أرض الحجاز حيث وُلد وعاش إسماعيل عليه السلام، فهذا دليل من الواقع على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام[٣].

ومما يؤكد هذا: أن إبراهيم بنى بيتًا لله بمكة قبل أن يبني بيتًا آخر بنحو أربعين سنة، كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، ومن شأن بيوت العبادة في ذلك الزمان أن تُقَرَّب فيها القرابين، فقربان أعز شيء على إبراهيم عليه السلام هو المناسب لكونه قربانًا لأشرف هيكل، وقد بقيت في العرب سنة الهدايا في الحج كل عام، وما تلك إلا تذكرة لأول عام أُمر فيه إبراهيم عليه السلام بذبح ولده وأنه الولد الذي بمكة... ولقد وردت روايات في حكمة تشريع الرمي في الجمرات من عهد الحنيفية، أن الشيطان تعرض لإبراهيم عليه السلام ليصده عن المعنى من ذبح ولده، وذلك من مناسك الحج لأهل مكة، ولم تكن لليهود سنة "ذبح معين"[٤].

وقال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا. وكذا رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رأس الكبش لم يزل معلقًا عند ميزاب الكعبة حتى يبس[٥].

مما سبق يتضح لنا أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، لأنه هو المقيم بمكة، ولا نعلم هل قدمها إسحاق عليه السلام في حال صغره أم لا، والله أعلم.

الخلاصة:

- تشير الآيات الواردة في القرآن الكريم إلى أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام؛ وذلك لأن الله تعالى بعد ما وضّح صبر إبراهيم عليه السلام وامتثاله لأمر الله عز وجل بشره بمولود له جديد اسمه إسحاق، ومن ذريته

١. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص١٥٢.
٢. المرجع السابق، ص١٦٩.
٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٢٠، ص١٢٨٠٥.
٤. التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٥٨.
٥. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص١٢٥.

www.kalemasawaa.com

يعقوب ـ عليهما السلام ـ وإلا فكيف يبشره بإسحاق ومن ورائه يعقوب عليه السلام، ثم يأمر إبراهيم عليه السلام أن يذبحه؟! والقرآن أقوى في حجته من التوراة؛ لأنه لم يصبه التحريف كالتوراة التي أخبرنا الله تعالى بتحريفها، ومن أصدق من الله قيلًا.

• تدل النصوص الواردة في التوراة على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وليس إسحاق، وذلك لأن الابن الوحيد والبكر لسيدنا إبراهيم هو سيدنا إسماعيل وليس إسحاق ـ عليهم السلام جميعًا ـ حيث تعترف التوراة بأن إسحاق عليه السلام وُلد وعمر إسماعيل عليه السلام أربع عشرة سنة، فكيف يكون البكر؟! وكيف يكون الوحيد؟! وهذا يدل على تحريف اليهود للتوراة بذكرهم إسحاق عليه السلام بدلًا من إسماعيل عليه السلام، ليكون لهم الفضل والرفعة والشرف دون أمة العرب أبناء إسماعيل عليه السلام.

• اختصاص الله عز وجل أمة النبي محمد ﷺ بأداء مناسك الحج، اقتداء بسنة أبيهم إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ فلماذا لم يؤمر اليهود بأداء هذه المناسك إن كان الذبيح هو إسحاق عليه السلام الذي ينتسبون إليه؟! ولماذا كانت هذه المناسك في مكة موطن إسماعيل، ولم تكن في الشام موطن إسحاق عليه السلام؟! ألا تعد كل هذه الدلائل كافية على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام لا إسحاق عليه السلام!

الشبهة الخامسة والعشرون

ادِّعاء أن إسماعيل عليه السلام ليس نبيًّا من الأنبياء(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن إسماعيل عليه السلام ليس نبيًّا من الأنبياء كما جاء في القرآن، مستدلين على ذلك بما جاء في التوراة؛ من أن النبوة تكون في إسحاق وبنيه. ويتساءلون: كيف يكون إسماعيل عليه السلام نبيًّا والتوراة تصفه بأنه إنسان وحشي، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه؛ أي: إنه سيكون سفَّاحًا وضيعًا؟

وجها إبطال الشبهة:

١) إسماعيل عليه السلام نبي من الأنبياء ورسول من الرسل بأدلة القرآن، ونَفْي بعضهم لنبوته عليه السلام جحد للحقائق.

٢) على الرغم من تحريف التوراة فقد صرحت بنبوة إسماعيل عليه السلام، لكنه الحقد اليهودي الذي يريد أن يسلب العرب كل فضل.

التفصيل:

أولا. إسماعيل عليه السلام نبي من الأنبياء، بأدلة القرآن والتوراة، ونفي بعض المشككين لنبوته جحد للحقائق:

• **النبوة ثابتة لإسماعيل عليه السلام بما جاء في القرآن الكريم:**

القرآن الكريم هو الحجة القاطعة؛ لأنه كلام رب العالمين، الذي لم تمتد إليه يد البشر بأي تحريف، مهما حاول المغرضون إخفاء هذه الحقيقة، فلا تزداد بمرور

(*) موقع إسلاميات. www.Islameyat.com .

www.kalemasawaa.com

الزمن إلا وضوحًا، فكل يوم يثبت للعلماء أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون كلام بشر، ولم يستطع أحد أن يأخذ عليه مأخذًا منذ نزوله حتى الآن، وكذلك لن يستطيع أحد أن يجد فيه ما يمكن أن يؤخذ عليه، فالقرآن هو الحَكَمُ فيما يثبت وفيما ينفي.

وقد أثبت القرآن الكريم نبوة إسماعيل عليه السلام في غير موضع، فقال: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ (مريم)، وقال: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة)، وقال: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (آل عمران). فهذه كلها آيات بينات تثبت نبوة سيدنا إسماعيل عليه السلام.

- **العهد القديم ليس حجةبما ناله من تحريف على أيدي البشر:**

العهد القديم ليس حجة فيما يذكره، وما لا يذكره؛ لما ناله من تحريف وتبديل على أيدي البشر، فهو ليس كتابًا من عند الله تعالى، بل كتبه البشر بأيديهم؛ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (البقرة). ووجود الأخطاء والتناقضات في الكتاب المقدس أمر شائع.

وقد ثبت التحريف من وجوه كثيرة سطرتها أيدي العلماء، في بحوثهم المجردة عن كل ميل[1].

وهب أن العهد القديم لم يذكر نبوة نبي من الأنبياء، فهل يعني ذلك نفيها؟ فكما أن الذكر فيه لا يثبت شيئًا، فكذلك لا يعني عدم ذكره لشيء أو حقيقة ما أن ذلك الشيء غير حقيقي، وعليه فلا مانع عقلًا من أن تثبت نبوة إسماعيل عليه السلام من طريق آخر، حيث أثبتها القرآن الكريم.

ثانيًا. على الرغم من تحريف التوراة فإنها صرحت بنبوة إسماعيل عليه السلام، ولكنه الحقد اليهودي الذي يريد أن يسلب العرب كل فضل:

ومع ذلك فإن التوراة صرَّحت بأن العهد ـ وهو تعبير توراتي عن النبوة ـ في نسل إبراهيم عليه السلام جميعًا إلى الابن، ونسل إبراهيم يشمل ابنيه إسماعيل وإسحاق ـ عليهم السلام جميعًا ـ وذريتهما، وجاء في سفر التكوين بعد ولادة إسماعيل وقبل ولادة إسحاق: "ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة، ظهر الرب لأبرام، وقال له: أنا الله القدير، سِرْ أمامي وكن كاملًا؛ فأجعل عهدي بيني وبينك... وأقيم عهدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك، في أجيالهم عهدًا أبديًّا، لأكون إلهًا لك، ولنسلك من بعدك". (التكوين ١٧: ١ـ ٨).

إن هذا النص صريح في أن عهد النبوة الذي وعد

---

١. خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس، هذه المقالة بالنص عن مجلة "Awoke" عدد ٨ سبتمبر ١٩٥٧م، وذلك في الصفحة الأخيرة تحت عنوان "الحقيقة عن الكتاب"، والذي قدر هذا العدد من الأخطاء هي هيئة من الخبراء الإنجليز عام ١٧٢٠م وليسوا عربًا أو مسلمين، وتفاصيل هذا الموضوع موجودة عند الداعية الإسلامي أحمد ديدات، المجموعة الثالثة، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، مكتبة كتاب المختار، مصر.

www.kalemasawaa.com

الله به إبراهيم عليه السلام لجميع نسله، بلا تفرقة بين نسله من إسماعيل عليه السلام أو نسله من إسحاق عليه السلام، بل إن هذا النص جاء تحديدًا قبل بشارته بإسحاق عليه السلام.

ونسل إبراهيم عليه السلام يشمل إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، ومن جاء من نسلهما، ولكن اليهود أرادوا إخفاء هذه الحقيقة، فعادوا يقصرون العهد الإلهي على عهد إسحاق عليه السلام وبنيه، وراحوا ينفونها عن إسماعيل عليه السلام وبنيه؛ عداءً لإسماعيل عليه السلام وحقدًا وحسدًا للعرب الذين هم من نسل إسماعيل عليه السلام أن ينالهم شرف النبوة، ولو كان اليهود من نسل إسماعيل عليه السلام، والعرب من نسل إسحاق عليه السلام؛ لادعوا أن النبوة في إسماعيل دون إسحاق.

وبناء على ذلك راح كاتب سفر التكوين يزعم أن إبراهيم عليه السلام قال لله: "ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا، وتدعو اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه عهدًا أبديًّا لنسله من بعده، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًّا". (التكوين١٧: ١٨ ـ ٢٠).

ففي هذا السفر تجريد لإسماعيل عليه السلام من النبوة، بعد إثباتها له، وذلك التناقض في التوراة مألوف، وليس غريبًا عليها، فقد أنكرت ـ بعد تحريفها ـ كل نبوةٍ من غير نسل إسحاق عليه السلام، ثم راحوا يثبتونها لخمسة من الرسل ليسوا من نسل يعقوب بن إسحاق عليه السلام، وهم: ملكي صادق، ويثرون، وبلعان، وأيوب، ويونس.

فالهدف من نفي النبوة عن إسماعيل ونسله هو تجريد العرب عليه السلام من كل فضل ومنقبة، ومن ذلك نفي نبوة جدهم إسماعيل، ونسبة كل فضل لليهود وحدهم.

وأما عن وصف التوراة لإسماعيل عليه السلام بأنه "يكون إنسانًا وحشيًّا يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه"، والتي يستدل بها الزاعمون على نفي نبوته، فالعبارة مُحَرَّفة، والعبارة كما كانت في التوراة حتى القرن السابع الهجري، حيث نقلها العلماء: "يده فوق كل واحد ويد الكل به".

ومعنى "إنسانًا وحشيًّا" أي: إنسانًا قويًّا.

وهذا يعني ريادة إسماعيل عليه السلام وذريته لكل الناس، وقوة الناس لا تحصل إلا باتباع إسماعيل وذريته. والريادة والقوة إذا جاءت في الوحي الإلهي فإنها بالدرجة الأولى تعني الريادة الدينية، التي تكفل سعادة الدنيا والآخرة، ولا يتحقق ذلك إلا بالنبوة.

الخلاصة:

- القرآن الكريم هو الحجة القاطعة في إثبات نبوة إسماعيل عليه السلام؛ لأنه لم تمتد إليه يد التحريف، وقد أُثبتت نبوة إسماعيل عليه السلام في آيات عديدة منها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ (مريم).
- العهد القديم الذي ينفي نبوة إسماعيل عليه السلام ليس حجة؛ لما فيه من تحريف شهد به علماء اليهود والنصارى أنفسهم.
- إن التوراة ـ على الرغم من تحريفها ـ قد صرحت بأن العهد "النبوة" يكون في نسل إبراهيم عليه السلام ولم تستثن من ذلك إسماعيل عليه السلام، ولكنه الحسد والحقد اليهودي الذي يريد أن يحرم العرب من كل فضل ومنقبة.

www.kalemasawaa.com

الشبهة السادسة والعشرون

ادِّعاء وجود صراع بين إسماعيل وإسحاق عليهما السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ كانا في صراع دائم، وكان يحسد كل منهما الآخر على ما آتاه الله ﷻ من فضله، ويتمنى أن يعلو المنازل على حساب أخيه، وهذا حسبما ورد في الكتاب المقدس، هادفين من وراء ذلك إلى تكريس حالة الصراع بين العرب واليهود بتأصيلها تاريخيًا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الكتاب المقدس ـ بعد ثبوت تحريفه ـ ليس مصدرًا موثَّقًا ولا يعتمد عليه في نقل الأخبار ولا تُؤخذ منه الأحكام.

٢) ليس غريبًا على الكتاب المقدس أن يصف إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ على هذا النحو الشائن، فقد فعلوا أكثر من هذا في حق الله ﷻ، وفي حق أنبيائه ـ عليهم السلام ـ.

٣) أخبار الأنبياء وأخلاقهم لا تؤخذ إلا من الكتاب المعصوم، وهو القرآن الذي يصفهم بما يليق بعصمتهم.

التفصيل:

أولا. الكتاب المقدس المحرَّف ليس مصدر ثقة ولا يعتمد عليه في نقل الأخبار ولا تؤخذ منه الأحكام:

لقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز عن تحريف أهل الكتاب لكتابهم فقال رب العزة: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (النساء: ٤٦)، وقال أيضًا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٩). والآيات القرآنية على ذلك كثيرة، هذا وقد أثبتت الدراسات العلمية المحايدة أن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد كتاب محرف، وليس هو المنزّل من عند الله تبارك وتعالى، بعدما لعبت به أيدي البشر وعبثت به أقلامهم؛ فانتقصوا منه وزادوا عليه ما ليس منه، وغيروا وبدلوا حسبما أملته عليهم أهواؤهم.

فلقد تعرضت التوراة إلى عمليات سَطْو[1] من قراصنة اليهود، وإلى عوامل بَتْر[2] بشرية وعوامل تغيير جَسِيمة[3] وخطيرة للغاية، كما تعرضت في إعادة التدوين إلى اللامبالاة، وإضافات توحي بمذاهب وعقائد المحررين والنساخ... ، وأخيرًا شهدت المجامع المسكونية موجة رهيبة لتدوين المخطوطات المقدسة، والأدلة كثيرة على ما أصابها من تحوير وتنقيح، وزيادة ونقص، وحذف وإقحام، فكانت هذه البصمات البشرية في تدوين الكتاب المقدس غشاوة سميكة تخفي الحقيقة.

يقول ***cutkuhl*** في كتابه "***The old testament: its original composition, London,*** ١٠٦١ ***pp*** ٤٧, ٥١ ٥٢": إن الكتاب المقدس المتداول حاليًا لا يحتوي على التوراة والإنجيل المنزلين من الله، ولقد اعترف علماء وباحثون باللمسات البشرية في إعداد هذا

(*) موجز دائرة المعارف الإسلامية: فريق من المستشرقين، مرجع سابق.

١. السَّطْو: الاستيلاء والسرقة.

٢. البَتْر: النقص والتغيير.

٣. الجسيمة: الكبيرة بشكل مَهُول.

www.kalemasawaa.com

الكتاب...[١]، ونشرت مجلة "لوك" مقالة بعنوان "الحقيقة عن الكتاب المقدس" وكُتب على الغلاف "خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس"، وهذه المقالة بالنص عن مجلة Awake عدد ٨ سبتمبر ١٩٥٧م، وقد جاء فيها أنه في عام ١٩٢٠م قامت هيئة من الخبراء الإنجليز بتقدير عدد الأخطاء في الكتاب المقدس، وأثبتت أنها تصل إلى خمسين ألف خطأ، وذلك بعد عكوف الدارسين على الدراسة الجادة للمخطوطات القديمة[٢].

وبناء عليه فليس الكتاب المقدس مصدر ثقة، ولا يُعتمد عليه في نقل أي أخبار، خاصة إذا تعارضت مع القرآن الكريم.

ثانيًا. ليس غريبًا على الكتاب المقدس أن يصف إسماعيل وإسحاق على هذا النحو الشائن، فقد فعلوا مثل هذا في حق الله ﷻ، وأنبيائه:

لقد حوى الكتاب المقدس بعض الصفات التي لا تليق بالله ولا برسله ولا بملائكته، فلقد وصفوا الرب بأنه يغفل وينام وينسى ويندم على خلق الإنسان، بل يصارعه يعقوب ويغلبه ولا يفكه إلا بعد أن يباركه... وأوصاف عديدة لا تليق بالله تعالى يصفون بها إلههم - سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا - ولكن المجال لا يتسع لذكر ذلك، غير أننا نود الإشارة السريعة إلى أخلاق الأنبياء وصفاتهم - حسب زعمهم - الباطل - في كتابهم المحرف، حيث نجد أنبياء الكتاب المقدس عبارة عن مجرمين وسفّاحين وقتلة وزناة وخونة ولصوص!!

وإن تعجب من أمر، فما أعجب من قصص وقُصَّاص التوراة، الذين أطلقوا العنان لخيالهم المريض، وأفكارهم الخبيثة، التي تَبثُّ[٣] سمومها وأمراضها على صفحات كتاب يُفْترض أن يكون مقدسًا، ولا ندري مصدر القداسة في هذه القصص القبيحة، أو الحكايات الأسطورية الفاضحة، أو الخيالات الماجنة[٤] عن أشخاص أكمل الله لهم الخُلق والخَلق، وجعلهم للناس قادة وللبشر سادة، فما بال هؤلاء القوم يجعلون منهم أضحوكة الأجيال إلى الحد الذي دعا مؤلفو قاموس الكتاب المقدس إلى أن يقولوا: وقد ارتكب داود خطيئته الشنيعة ضد أوريا الحثي - حيث قتله غدرًا لتحل له امرأته - أثناء حربه مع العمونيين، وقد وبَّخه النبي ناثان على هذه الخطيئة، بل أعلن لهم العقاب السماوي الذي يحل به، وحتى بعد أن أعلن داود توبته فلم تكن توبته كاملة، وإنما خفضت ذنبه إلى حد ما.

يقول المؤرخ ليوتاكسل في كتابه "التوراة": "وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحمُّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: "أليست هذه بَثْشَبَع بنت أَلِيعام امرأة أُورِيَّا الحِثِّي؟" فأرسل داود رسلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طَمثها.

---

١. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مطابع الوليد، مصر، ٢٠٠٣م، ص١٣، ١٤ بتصرف يسير.

٢. مؤلفات أحمد ديدات، المجموعة الثالثة، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، مرجع سابق، ص٥ بتصرف.

٣. تَبثُّ: تنشر.

٤. الماجِنة: المازحة التي تخلط الجِدَّ بالهَزْل.

www.kalemasawaa.com

ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: "إني حُبْلَى". فأرسل داود إلى يوآب يقول: "أرسل إليَّ أوريَّا الحثِّي". فأرسل يوآب أوريا إلى داود". (صموائيل ١١: ٢ ـ ٦).

وتذكر التوراة كذلك أن لوطًا زنا بابنتيه، فحملتا منه سفاحًا، وذلك بعد أن لعب الخمر برأسه، وسلبه عقله ورشده.

ويكمل ليوتاكسل شرح النص فيقول: أما تقديم لوط ابنتيه البريئتين بدلًا من الملاكين أو الإلهين، فهو أمر أكثر خِسَّة[1] وإثارة للاشمئزاز[2]، فكل ما في هذه الرواية يدل على دناءة هذا القديس.

فهل زنا داود بزوجة القائد أوريا، وجرَّه عشقه لها وهيامه بها أن دفع زوجها إلى الجيش حتى قُتِل غدرًا بوشية من داود إلى أحد قادته في جيش أُورِيَّا[3]؟!

إلى غير هذا من الافتراءات التي افتراها هؤلاء على أنبياء الله تعالى. هل يقبل هذا عقل سليم؟ ألا ينكر هذا على غير الأنبياء؟ فما بالنا بصفوة الخلق؟!

أما وصف الكتاب المقدس لإسماعيل عليه السلام فيقول: "إنه يكون إنسانًا وحشيًّا. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه". (التكوين: ١٦: ١٢).

فهكذا تصف التوراة إسماعيل عليه السلام بالوحشية والغلظة التي لا تليق به كنبي كما أخبر القرآن الكريم عنه.

وبمثل ما وصف الكتاب المقدس إسماعيل فقد وصف إسحاق عليهما السلام يقول: "فَقَدَّم له فأكل. وأَحْضر له خمرًا فشرب". (التكوين ٢٧: ٢٥).

فهي تصف إسحاق عليه السلام بأنه بعدما قَدم له ابنه الطعام شرب الخمر، وهذا يخالف ـ أيضًا ـ ما جاء في القرآن من صفات إسحاق عليه السلام فما كان ليشرب شيئًا حرّمه الله عليه.

إن وصف الكتب المقدسة للأنبياء وصفًا تنكره الفطرة السليمة، إذ راح هؤلاء الفاسقون يصفون الأنبياء بأوصاف قبيحة، ويتجرءون عليهم بما لا يليق بالبشر العاديين، فضلًا عن أنبياء الله تعالى، وما كان عليه إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ من الصدق، والإخلاص، والصلاح والتقى وحب الآخرين وحسن الخلق، والعشرة، والحلم، والعلم، يتنافى مع كونهما يتصارعان غَيْرةً من بعضهما البعض، فالمؤمنون ـ لا سيما الأنبياء منهم ـ يمتازون بصفاء القلب، وسلامة الضمير، ونقاء الفكر، ويتصفون بكل الصفات الحميدة التي تؤهلهم ليكونوا دعاة إلى الله يجمعون شمل الناس حولهم، ويوحدون صفهم؛ وذلك ليكونوا يدًا واحدة.

وصدق ربنا العظيم لما قال في صفات أحبائه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ (الصف)، وقال الله تعالى عن إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ (الصافات).

وليس من العدل ولا من الإنصاف أن يأتي هؤلاء المدَّعون، وينسبون إلى هذين النبيين الكريمين التَّشاجر

١. الخِسَّة: الحقارة والدَّناءة.

٢. الاشمئزاز: الضيق بالأمر والنفور منه.

٣. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة، مرجع سابق، ص٣٠: ٣٣ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

والضَّغِينة[١]؛ ليثبتوا أن العداوة بين العرب واليهود قديمة متأصلة. وإنما نبع هذا الاتهام من فهم المدَّعين للنبوة وبنظرتهم إلى الأنبياء فالنبوة في التوراة ـ وكذا في الإنجيل ـ نبوة كهانة، وعرافة، ورؤى، وأحلام، وتنجيم، ونبوة شعر، وخطابة، ونبوة تهويمات، وتَمْويه[٢]؛ بل نبوة شعوذة ودجل، وكذب، ونبوة افتراء، وتَقوُّل على الله[٣].

فإن كان هذا تصورهم للنبوة والأنبياء، فلا غرابة أن يصفوا إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ بالصراع الدائم، وإن لم يفصحوا لنا عن أسباب هذا الصراع، وعلى أي شيء كان.

ولو أن هؤلاء الزاعمين احتكموا إلى تصور الإسلام للنبوة والأنبياء لما اجترءوا على هذين النبيين الكريمين بهذا الوصف.

فالأنبياء في الإسلام أصحاب رسالة واحدة، هي البلاغ لكل ما جاء من عند الله، والدعوة إلى الحق والخير، وأهل الحق لا يتصارعون، ولا يتنازعون، بل يتعاونون ويتكاملون، ويعضد بعضهم بعضًا.

ولم يقدم لنا القرآن الكريم صورة واحدة لنبيين متعاصرين يتصارعان، بل قدم لنا صورًا لأنبياء عاشوا في عصر واحد فتعاونوا على أداء رسالة الله، التي كلفوا ببلاغها والجهاد في سبيل إعلائها، مثل هارون وموسى، ولوط مع إبراهيم، ومثل ما جاء في السنة عن يحيى وعيسى ـ عليهم السلام جميعًا ـ، ولم يكن للأنبياء طموحات دنيوية كما تصور التوراة الأنبياء، حتى ينشب بينهم صراع حولها، بل أخلصوا للحق دعوة واتّباعًا، فهم عباد الله المخلصون، وقد وصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ (الصافات)، ووصف إسحاق عليه السلام بالعلم: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ (الذاريات).

ثالثًا. أخبار الأنبياء وأخلاقهم لا تؤخذ إلا من الكتاب المعصوم وهو القرآن الكريم الذي يصفهم بما يليق بعصمتهم:

لقد وصف القرآن الكريم الأنبياء الأبرار الأطهار بالصفات التي تليق بهم، وجعل الإيمان بهم وبرسالتهم من شُعب الإيمان الأصيلة، فمن الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، والتي يكفر منكرُها، أن صفات جميع الأنبياء والرسل من: كمال الخلق، وحسن الخلق، وجمال الصورة، وشرف النسب، وقوة العقل، وصحة الفهم، وفصاحة اللسان، وقوة الحواس، وعزة القوم، وكَرَم المَنْبَت[٤]... إلخ ـ من المعلوم أن مثل هذه الأوصاف مما أفاء الله ﷻ عليهم به معونة لهم على مهمتهم وتعريفًا بمكانتهم؛ إذ إن رتبتهم أشرف الرتب ودرجاتهم أرفع الدرجات، ويستحيل أن يتصفوا بضد هذه الصفات، أو ببعضها مما يتنافى مع الاصطفاء والاجتباء والاختيار.

يقول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ (الحج)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

١. الضَّغينة: الحقد الشديد.
٢. التَّمويه: الزخرفة وخلط الحق بالباطل.
٣. الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، د. ت، ص١٩٨.
٤. كَرَم المَنْبَت: أصالة النَّبْت وشرفه.

www.kalemasawaa.com

﴿ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (آل عمران)، وعرَّفنا بمقامهم الكريم عنده فقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ (ص)، ويكفيهم شرفًا ويزيدهم كرمًا قول الله تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (الدخان)، وقال ﷺ: "ما بعث الله تعالى من بعده ـ أي لوط عليه السلام ـ نبيًّا إلا في ذِرْوة من قومه"(١) (٢). وقال ﷺ: "ما بعث الله تعالى نبيًّا إلا حسن الوجه وحسن الصوت، وكان نبيكم حسن الصوت وكان لا يرجع"(٣) (٤).

كل هذه الصفات وغيرها من صفات أنبياء الله تعالى، وردت في القرآن والسنة الصحيحة، وهي صفات إجلال وإكرام، وفيما يلي بعض صفات نبي الله إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ التي جاءت في القرآن الكريم:

١. أخلاق إسماعيل عليه السلام تنفي ما يدّعون:

دعا الله تعالى إسماعيل عليه السلام بعشرين صفة في القرآن الكريم فهو: الغلام، والعليم، والحليم، والمسلم، والمستسلم، والآمر، والصابر، والمرضي، وصادق الوعد، والرسول، والنبي، والمذكور، والذبيح، والمطهر، والرافع، والمفضل على العالمين، والموهوب، والبار، والمصطفى من ولد إبراهيم عليه السلام، قال ﷻ: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (الأنعام)، وقد ذُكر في القرآن في اثني عشر موضعًا(٥).

وكان إسماعيل عليه السلام مطيعًا لأبيه، منفذًا لوصاياه، صابرًا محتسبًا راضيًا بقضاء الله مسلمًا بقدره، فعندما أخبره أبوه أنه رأى في المنام أنه يذبحه فأجابه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ (الصافات)، وكان إسماعيل عليه السلام رجلًا صالحًا تقيًّا ورعًا، يأمر أهله بعبادة الله من صلاة وزكاة وصوم وحج إلى شكر نعم الله، وإلى الصبر على الشدائد، وتحمل المكاره؛ فكان عند ربه مرضيًا، وعند الناس مُطاعًا(٦). وكان سيدنا إسماعيل عليه السلام فصيحًا حتى في أسلوبه ولغته. فكانت اللغة العربية من قبله يتحدث بها كلغة تفاهم، فطوعها سيدنا إسماعيل عليه السلام للشاعرية والخيال، وللكناية والمجاز، ولذلك يقولون: إنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، ويقولون: إنه أول من تكلم العربية البينة.

ولعل مما يرجع إلى شهامته، ونبل أخلاقه، هذه الصفة الكريمة التي تحلى بها طيلة حياته، والتي هي من أخص خصائص الرجولة الحقة، ألا وهي صدق الوعد؛ يقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ

---

١. الذِّرْوَة من قومه: من أعلاهم وأحسنهم نسبًا.

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة يوسف (٣١١٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٨٦).

٣. صحيح: أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية، باب ما جاء في قراءة رسول الله ﷺ (٣٢١)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٧٤).

٤. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مرجع سابق، ص٣٦، ٣٧ بتصرف.

٥. المرجع السابق، ص٤٠، ٤١ بتصرف يسير.

٦. حياة وأخلاق الأنبياء، د. أحمد الصباحي عوض الله، مكتبة مدبولي، القاهرة، دار اقرأ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١١١ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ (مريم)، ثم يذكر الله تبارك وتعالى عملين لهما مغزاهما العميق، فيقول: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ (مريم) لقد كان يتحلى بالصلاة ويأمر بها أهله، ويتحلى بالزكاة ويأمر بها أهله، أي أنه كان حريصًا على حسن صلته بالمجتمع ومظهر ذلك الزكاة، والزكاة هنا معناها: البذل والتضحية في سبيل الله في أعم صورة وأوسع نطاق[١].

لقد كان حسن الصلة بالله، حسن الصلة بالمجتمع، ومن أجل ذلك عقَّب الله تعالى على صفاته وأعماله بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ (مريم).

٢. إسحاق عليه السلام في القرآن الكريم:

من يقرأ الآيات التي تحدثت عن إسحاق عليه السلام، يجد أن الله تعالى وصفه بالعديد من الصفات الحميدة، منها: الموهوب، والمبارك، والمبشر به، والنافلة، والمهدي، والموحى إليه، والبشرى، قال ﷻ: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ (الصافات)[٢].

ويبين القرآن أخلاق سيدنا إسحاق عليه السلام من خلال قصته في القرآن الكريم:

فقد كان رجلًا صالحًا صادقًا مباركًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ (الصافات)، وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ (مريم).

وكان حليمًا عليمًا فقال لابنه العيص حينما غضب على أخيه يعقوب لفوزه بدعوة أبيه إسحاق وتهديده له بالقتل: "يا بني لا تغضب، فقد بقيت لك عندي دعوة فَهَلُمَّ[٣] أدع لك بها، فتقدم إليه ودعا له بها"[٤].

هل بعد ذلك العرض لأخلاق وصفات هذين النبيين يأتي متوهم ويقول بأنهما كانا يتصارعان ويتناضلان.

وبناء عليه فإن أنبياء الله أبعد ما يكونون عن هذه الأخلاق الذميمة أو ذلك الصراع البغيض، فهم أناس أصحاب رسالة سامية راقية، وقد عصمهم الله ﷻ من كيد إبليس ووساوسه في قلوبهم وعقولهم، ولكن هذه الأفكار القبيحة من اختراع اليهود، يريدون من ورائها تأصيل العداوة بينهم وبين المسلمين؛ ليصلوا إلى أهدافهم الخبيثة ومراميهم البغيضة التي وجدوها في كتبهم المحرفة.

الخلاصة:

- أخبرنا الله ﷻ في القرآن الكريم عن تحريف أهل الكتاب لكتبهم في غير ما آية من كتاب الله ﷻ، وقد أكد ذلك ما توصل إليه بعض علماء الغرب في العصر الحديث، حيث وجدوا أن الكتاب المقدس يحتوي على أكثر من خمسين ألف خطأ؛ ومن ثم فلا يصح أن نثق في أخبار الكتاب المقدس ولا في أحكامه.

---

١. مع الأنبياء والرسل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م، ص١٩٧، ١٩٨.

٢. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مرجع سابق، ص٤١ بتصرف يسير.

٣. هلُمَّ: تعال.

٤. حياة وأخلاق الأنبياء، د. أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٥ بتصرف يسير.

www.kalemasawaa.com

• فإذا ثبت تحريف الكتاب المقدس باعتراف من يدينون به، فلا غرابة أن نجد مثل هذه الأوصاف التي لا تليق بهذين النبيين العظيمين، فقد تعدوا ذلك بمراحل فوصفوا الله ﷻ بصفات لا تليق ببشر عادي، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، ووصفوا أيضًا ملائكته الأبرار الأطهار بصفات لا تليق بهم، وهاهم يصفون أنبياء الله ورسله بصفات قبيحة من غل وحقد، وزنا وعشق، وشدة ووحشية لا تليق بهم كأصحاب رسالات ودعوات.

• ولذلك فإن أخلاق الأنبياء وصفاتهم ومكانتهم ومنزلتهم عند الله ﷻ لا تؤخذ إلا من القرآن الكريم الذي تعهد الله بحفظه، وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا أنه يصف جميع الأنبياء بصفات الجلال والعظمة والتواضع، وحسن الخلق وكماله، ومن هؤلاء الأنبياء الذين وصفهم بهذه الصفات إسماعيل وإسحاق عليهما السلام. فإسماعيل عليه السلام وصفه الله بأنه كان صادق الوعد، وبأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند الله تعالى مرضيًّا، وإسحاق عليه السلام وصفه الله بأنه كان رجلًا صالحًا حليمًا عليمًا رحيمًا كما أخبر عنه القرآن الكريم.

• إن فكرة الصراع التي اخترعها اليهود لتأصيل العداوة بينهم وبين المسلمين، والتي أخذوها من كتبهم المحرفة ليس لها وجود أصلًا، ولا تليق أن تكون بين نبيين عظيمين من أمثال إسماعيل وإسحاق عليهما السلام.

الشبهة السابعة والعشرون

ادِّعاء أن النبوة مقصورة على إسحاق عليه السلام وولده دون إسماعيل عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن النبوة التي في ولد إبراهيم عليه السلام مقصورة على إسحاق عليه السلام وذريته دون إسماعيل عليه السلام وذريته، ويزعمون أن النبي ﷺ لم يستطع أن يحدد من الذبيح، إسماعيل أم إسحاق ـ عليهما السلام ـ، ويهدفون من ذلك إلى تجريد العرب من كل فضل وشرف، وقصر النبوة على بني إسرائيل.

وجوه إبطال الشبهة:

١) النبوة في إسماعيل عليه السلام وولده ثابتة في القرآن الكريم والتوراة، رغم محاولة البعض طمس الحقائق أوتزييفها.

٢) التوراة تنفي اختصاص بني إسرائيل بالنبوة، إذ إنهم يؤمنون بخمسة رسل من غير بني إسرائيل مثل: أيوب، ويونس ـ عليهما السلام ـ وهذا يناقض زعمهم ويسقط حجتهم في أنها مختصة في إسحاق وبنيه فقط.

٣) الوحي القرآني وَضَّح قصة الذبيح ـ وليس النبي ﷺ ـ توضيحًا لإخفاء ولا لبس فيه.

التفصيل:

أولا. نبوة إسماعيل عليه السلام ثابتة في القرآن الكريم والتوراة رغم محاولة طمس هذه الحقيقة:

إن نبوة إسماعيل عليه السلام وامتدادها في ولده وذريته

(*) هذا هو الحق، رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٧م.

www.kalemasawaa.com

ثابتة بالقرآن الكريم، فالآيات الكريمة التي تثبت نبوة إسماعيل عليه السلام كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ (مريم)، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ (النساء: ١٦٣)، وقوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (آل عمران).

وكذلك فإن نبوة إسماعيل عليه السلام ثابتة في نصوص التوراة، فمن ذلك: ما جاء في معرض الكلام عن إبراهيم عليه السلام: "وأُثْمِرُك كثيرًا جدًّا، وأجعلك أممًا، وملوكٌ منك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدًا أبديًّا، لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك". (التكوين ١٧: ٦، ٧).

ومعلوم أن نسل إبراهيم عليه السلام كل من جاء عن طريق أبنائه جميعًا وذرياتهم وفي مقدمتهم ابنه الأكبر إسماعيل عليه السلام، كما جاء في التوراة ـ العهد الأول ـ ما ينصرف إلى النبوة، فالنبوة ثابتة في إسماعيل عليه السلام وبنيه كما هي ثابتة في إسحاق عليه السلام وبنيه، لكن اليهود أرادوا إطفاء هذه الحقيقة، فقصروا العهد الإلهي على إسحاق عليه السلام وبنيه، وحرموا منه إسماعيل عليه السلام وبنيه عداءً لهم، بعد أن جمعهم الله مع إسحاق عليه السلام وبنيه؛ فكلهم ذريته ونسله: "وقال إبراهيم لله: "ليت إسماعيل يعيش أمامك!" فقال الله: "بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهدًا أبديًّا لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأُثْمِره وأُكَثِّره كثيرًا جدًّا". (التكوين ١٧: ١٨ ـ ٢٠)®.

ثانيًا. التوراة تنفي اختصاص النبوة في بني إسرائيل:

على أننا إذا رجعنا إلى التوراة نجد أن التوراة نفسها ـ على علّاتها ـ تنفي دعوى اختصاص النبوة ببني إسرائيل، فقد ذكرت خمسة رسل من غير بني إسرائيل، وهم: ملكي صادق، ويثرون، وبلعان، وأيوب، ويونس[1].

إن الهدف من ذلك الادعاء هو تجريد العرب من كل فضل ومنقبة تنسب إليهم وليس في المناقب أعظم من وجود النبوة فيهم، وفي جدهم إسماعيل عليه السلام ونسبة كل فضل إلى اليهود وحدهم واستئثارهم بذلك الفضل، والتوراة التي حرفوها تدور في هذا الفلك، وهو بناء أمجاد بني إسرائيل، واستعبادهم العالم وتسلطهم عليه، لذا فهم عندما يسودونه تتحقق وعود الله المزعومة لشعبه المختار.

® في "ثبوت نبوة إسماعيل" طالع أيضًا: الشبهة الخامسة والعشرين، من هذا الجزء.

١. الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص ٤٥٠.

www.kalemasawaa.com

ثالثًا. قصة الذبيح وضَّحها الوحي القرآني توضيحًا شافيًا، وليس النبي ﷺ:

أما افتراء أن النبي ﷺ لم يستطع أن يحدد من الذبيح أهو إسماعيل أم إسحاق عليهما السلام، فما كان النبي ﷺ ليحدد هذا الأمر أو غيره من تِلْقاء نفسه[1]، ولكنه وحي يوحى إليه، وقد امتحنه اليهود المعاصرون له في شأن أصحاب الكهف، وذي القرنين، والروح، وموسى عليه السلام، والعبد الصالح، ولم يستطيعوا تكذيبه فيما أُوحِي إليه، والله تعالى أخبر عن الذبيح بما يفيد أنه غير إسحاق عليه السلام.

فجاء الحديث عن إسحاق عليه السلام بعد الحديث عن الذبيح، ما يفيد أنه ليس بإسحاق عليه السلام، بل كانت البشرى نتيجة صبر إبراهيم عليه السلام على البلاء في تنفيذ أمر الله، وأخبرت التوراة أن الذبيح ابن إبراهيم عليه السلام الوحيد، ولم يكن إسحاق عليه السلام ابنه الوحيد، ولكنهم حشروا اسمه حشرًا، فظهر ضلالهم ®.

الخلاصة:

- النبوة في إسماعيل عليه السلام وولده ثابتة في القرآن الكريم والتوراة، رغم محاولة طمس الحقائق وتزييفها، لبناء أمجاد لبني إسرائيل، وتجريد العرب من كل فضل ومنقبة.
- القرآن الكريم هو القول الحق في إثبات نبوة إسماعيل عليه السلام؛ لأنه حجة ثابتة وقطعية الثبوت بالتواتر.
- التوراة تنفي اختصاص النبوة في بني إسرائيل، فقد ذكرت خمسة رسل من غير بني إسرائيل، وهم: ملكي صادق، ويثرون، وبلعان، وأيوب، ويونس، وهذا يناقض زعمهم بأن النبوة مقصورة على بني إسرائيل، وبهذا التناقض يسقط زعمهم وتبطل حجتهم.

الشبهة الثامنة والعشرون

الزعم أن لوطا عليه السلام عرض على قومه إتيان الفاحشة مع بناته(*)

مضمون الشبهة:

يزعم المتوهمون أن نبي الله لوطًا عليه السلام قد عرض على قومه إتيان الفاحشة مع بناته فداءً لأضيافه، ويستدلون على ذلك بقول الله تبارك وتعالى ـ على لسان لوط عليه السلام: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ[2] إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ (هود)[2]. ويتساءلون: كيف يصح هذا من نبي يُوصف بالعصمة؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) الغرض من حقيقة عرض لوط عليه السلام كما وضحه القرآن الكريم، هو إرشادهم إلى الطهارة والزواج من النساء.

---

١. تِلْقاء نفسه: من عند نفسه.

® في "من الذبيح: إسماعيل أم إسحاق؟" طالع أيضًا: الشبهة الرابعة والعشرين، من هذا الجزء.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

٢. يُهْرَعون: يمشي مشيًا فيه اضطراب وسرعة.

www.kalemasawaa.com

٢) الأدلة العقلية والنقلية تثبت أن عرض لوط عليه السلام لا يخرج عن احتمالين: الأول: عرض بناته للزواج الشرعي، وليس بالزنا، والثاني: أن بناته هم نساء الأمة وبنات قريته، وعرضه للزواج الشرعي منهن أيضًا.

التفصيل:

أولا. الغرض من حقيقة عرض لوط عليه السلام كما وضحها القرآن الكريم:

لما أتت رسل الله ـ ملائكته ـ لوطًا عليه السلام، ورأى هيئاتهم وجمالهم حزن؛ لأنه حسبهم إنسًا؛ فخاف عليهم خُبْثَ قومه، وأن يعجز عن مقاومتهم ودفعهم وضاق من هذا صدره، وقال: هذا يوم شديد شره عظيم بلاؤه.

وجاءه قومه بعد أن علموا أن عند لوط عليه السلام أضيافًا حسان الوجوه، يسرعون كأنما يُدْفَعُون دفعًا، ومن قبل مجيئهم إلى لوط عليه السلام كانوا يأتون الرجال في أدبارهم.

فقال لهم لوط عليه السلام ـ لما جاءوا يراودونه عن ضيفه: هؤلاء بناتي فتزوجوهن فهن أطهر لكم، وأطهر إما بمعنى: أنظف، أو أحلّ، فعلى معنى أنظف يراد بالطهارة الطهارة الحسّية، وهي الطهارة عما في اللواط من الخبث والأذى، وعلى معنى أحلّ: يراد الطهارة المعنوية، وهي التَّنزُّه عن الفحش والإثم، فاتقوا الله تعالى، ولا تخزون في ضيفي، أي: ولا تهينوني ولا تفضحوني ـ من الخزي؛ أي: ولا تُخجلوني من الخزاية، وهي الحياء ـ في حق ضيوفي، فإنه إذا خزي ضيف الرجل، أو جاره فقد خزى الرجل. ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ يهتدي إلى طريق الحق، وفعل الجميل، وترك السوء؛ فيأمر بقية القوم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر.

فأجابوه: لقد علمت ما لنا في بناتك من حاجة؛ لأن إتيان الإناث غير محبب إلينا، وإنما نحب ونبغي إتيان الذُّكران، وإنك لتعلم هذا.

والمعنى: ليس لنا في بناتك حق؛ لأنك دعوتنا إلى نكاحهن بشرط الإيمان؛ ونحن لا نجيبك إلى ذلك، فلا يكون لنا فيهن حق[1].

ثانيًا. الأدلة العقلية والنقلية تثبت أن عرض لوط عليه السلام لبناته لا يخرج عن احتمالين: إما أنه يعرض بناته بالتزويج، أو أنه يقصد ببناته نساء الأُمة بالتزويج أيضًا:

الاحتمال الأول: أن لوطًا عليه السلام لم يعرض بناته على قومه بالزنا، وإنما بالتزويج وإتيانهن من حيث أمر الله تعالى، وإنما لم تصرح الآية بهذا؛ لأنه واضح، لا يحتاج إلى التنصيص عليه، حيث لا يعقل أن ينهى نبي عن منكر ويدعو في نفس الوقت إلى منكر آخر، ومع بناته، والمقام مقام ترجيح النساء على الرجال، لا كما يفعل قومه من ترجيح إتيان الذكران على ما خلق لهم ربهم تعالى من أزواجهم، قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ (الشعراء).

ففي هذا المقام أمر النكاح معلوم، والطهر ليس إلا فيه: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ لا في الزنا، ولا في إتيان الذكران؛ لذا استغنى عن ذكره. ويدل على أن

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٩٥، ٢٩٦.

www.kalemasawaa.com

لوطًا عليه السلام إنما عرض بناته بالتزويج أمور:

١. تعليله عرض بناته بقوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ولا طهارة في الزنا، ولا يفهم من أفعل التفضيل أن عمل قوم لوط عليه السلام طاهر، وأن إتيان النساء بالتزويج أكثر طهرًا منه، لأن أفعل التفضيل ليس على بابه، وإنما هو بمعنى أصل الفعل، فلا يدل على أن إتيان الذكور كان طاهرًا.

٢. أنه لا يجمل بمن ينهى عن منكر أن يدعو في نفس الوقت إلى منكر مثله أو أشد، وهنا كيف ينهى لوط عليه السلام عن اللواط ويدعو إلى الزنا؟ كل منهما منكر قبيح يجب تركه.

٣. أنه لو كان يدعو قومه إلى الزنا لاحتجوا عليه بقولهم: الزنا واللواط محرمان في شريعتك فكيف تدعونا إلى ترك أحدهما دون الآخر؟! ولكان لهم أن يقولوا له: أنت تدعونا إلى محرم هو الزنا، ونحن ندعو إلى محرم هو اللواط، فقد تساوينا نحن وأنت في هذا الأمر، فليست استجابتنا لك بأولى من استجابتك لنا، ولكن لم يقولوا شيئًا من ذلك.

ثم هو عليه السلام قال لهم عُقيب عرض بناته عليهم: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾، أي: رجل يهتدي إلى طريق الحق، وفعل الجميل، والكفّ عن السوء، فلو كان لوط عليه السلام يدعو قومه إلى الزنا لقالوا له: وأنت الآخر لست رشيدًا، حيث تدعونا إلى الفسق، لكنهم لم يقولوا ذلك.

٤. أن لوطًا عليه السلام أنكر على قومه إتيان الذكران، وترك الزوجات في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ (الشعراء)، فهذا صريح في أنه يعيب على قومه أمرين: إتيان الذكران وترك الزوجات، فهو إذن يدعوهم إلى إتيان ما خلق الله لهم من أزواجهم، أي: إتيان نسائهم الحلال وذلك نقيض الإتيان الحرام وهو الزنا[1].

وذكر السيوطي أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما سمعت الفسقة بأضياف لوط عليه السلام جاءت إلى باب لوط، فأغلق لوط عليه السلام عليهم الباب دونهم، ثم اطّلع عليهم فقال: هؤلاء بناتي، فعرض عليهم بناته بالنكاح والتزويج، ولم يعرضهن عليهم بالفاحشة، وكانوا كفارًا وبناته مسلمات، فلما رأى البلاء، وخاف الفضيحة عرض عليهم التزويج[2].

وهنا يرد سؤال هو: كيف يعرض لوط عليه السلام على قومه الكفار التزوج ببناته المسلمات، وهل يصح تزوج الكافر بمسلمة؟ والجواب واحد من اثنين:

- أنه دعاهم إلى التزوج بهن شريطة أن يؤمنوا، وإليه ذهب الزجاج، وهو مبني على أن تزويج المسلمات من الكفار لم يكن جائزًا إذ ذاك.
- أن تزويج المؤمنات من الكفار كان جائزًا في شريعته، وهكذا كان في أول الإسلام؛ فقد زوَّج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته زينب لأبي العاص بن الربيع، وابنته رقية لعتبة بن أبي لهب قبل الوحي، وكانا كافرين، إلا أن عتبة لم يدخل برقية، وفارقها بطلب أبيه حين نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ (المسد)؛ فتزوجها

١. المرجع السابق، ص٢٩٧: ٢٩٩.

٢. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ج٣، ص٣٤٣.

www.kalemasawaa.com

عثمان ﷺ، وأما أبو العاص فكان قد دخل بزينب، فلما أُسِرَ يوم بدر، وفدى نفسه أخذ النبي ﷺ العهد عليه أن يردها إذا عاد، وأرسل ﷺ زيد بن حارثة ﷺ ورجلًا من الأنصار في طلبها فجاءا بها، ثم إن أبا العاص أسلم، وأتى المدينة فردها ﷺ إليه.

ولوط عليه السلام وهو يعرض بنتيه أو بناته الثلاث بالنكاح فإنما يعرضهن على زعيمين أو ثلاثة مُطَاعِين في قومهم[1].

الاحتمال الثاني من قول لوط عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾(هود: ٧٨): أن لوطًا عليه السلام إنما يقصد ببناته نساء الأمة، فهو يعرض على الرجال أن يأتوا أزواجهم، وكأنه يقول لهم: هؤلاء أزواجكم فأتوهن، فهن أطهر لكم من إتيان الذكران. قال الزمخشري: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ إشارة إلى النساء؛ لأن كل أمة أولاد نبيها: رجالهم بنوه، ونساؤهم بناته، فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتي فانكحوهن، وخلوا بَنِي فلا تتعرضوا لهم.

والجواب الأول أقوى ـ عرض الزواج من بناته ـ؛ إذ الإشارة بـ "هؤلاء" تكون للحاضر، ونساء الأمة غير حاضرات؛ ولأنه لو كان المقصود نساء الأمة لقال في هذا الوقت: أزواجكم اللائي خلق لكم ربكم أطهر لكم، كما قال في موضع آخر: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ (الشعراء)؛ ولأنهم ردوا عليه بقولهم: ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ (هود) ولو كان المراد نساء الأمة لما قالوا هذا؛ إذ لهم الحق في أزواجهم، ولما لم يستجيبوا له، ولم يقبلوا ما عرض عليهم من أمر بناته قال تعالى: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ (هود)[2]، والمعنى: لو أن لي بدفعكم قوة بالبدن، أو الولد، أو آوي إلى عشيرة كثيرة؛ لأنه كان غريبًا عن قومه، شبَّه العشيرة بركن الجبل في الشدة والمنعة، وجواب "أو" محذوف لدلالة الكلام عليه، أي: لحلت بينكم وبين ما تريدونه من أضيافي[3].

الخلاصة:

- عرض لوط عليه السلام بناته على قومه كما وضحه القرآن الكريم، هو إرشادهم إلى طريق الطهر والعفاف، وهو الزواج من بناته أو نساء بلدته أو أمته، بدلًا من هذه العادات السيئة التي وقعوا فيها، وهي "اللواط"، فهو لم يعرض عليهم الزنا ـ كما يزعم الزاعمون ـ بل عرض عليهم الزواج، إذ كيف ينهاهم عن المنكر ويدعوهم إلى منكر آخر هو الزنا؟!
- الأدلة العقلية والنقلية تثبت أن عرض سيدنا لوط عليه السلام لا يخرج عن احتمالين:

أولهما: هو عرض بناته بالزواج وهذا ينافي الزنا.

ثانيهما: أن المقصود ببناته: نساء الأمة، وأهل بلدته، وهذا زواج شرعي بعيد عن الزنا واللواط، ولكن الأقوى والأقرب إلى الصواب، هو أنهن بنات لوط عليه السلام.

١. روح المعاني، الآلوسي البغدادي، مرجع سابق، ج٣، ص٥٨٩.

٢. آوِي إلى رُكْنٍ شديد: ألجأ إلى حماة أشداء أقوياء يحمونني.

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٩٩، ٣٠٠.

www.kalemasawaa.com

الشبهة التاسعة والعشرون

التشكيك في توكُّل لوط عليه السلام حق التوكُّل على الله (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهّمين أن لوطًا عليه السلام لم يكن متوكّلا على الله حق التوكل، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ (هود). ويتساءلون: هل يصح ذلك عن نبي من أنبياء الله تعالى؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) التوكل على الله تعالى لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب المشروعة التي خلقها الله وأودعها في الكون.

٢) لا يقدح في عصمة نبي مثل لوط عليه السلام طلب النصرة، ما دامت في الحق، بل إن الاجتماع والتناصر من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعي.

التفصيل:

أولا. التوكُّل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب المشروعة:

لو لم يكن لوط عليه السلام متوكلًا على الله حق التوكل لما قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ (هود)، لما جاءه قومه يراودونه عن ضيفه، والذين هم في الحقيقة ملائكة أرسلهم الله تعالى لإهلاك قوم لوط عليه السلام، ولوط عليه السلام لا يعلم ذلك.

والذي يتأمل مقولة لوط عليه السلام يجد توكلًا على الله تعالى ما أكمله وما أعظمه؛ وذلك لأن التوكل له معنى قد جهله هؤلاء الذين يتجرءون على أنبياء الله تعالى ورسله، ونوضح هذا المعنى لهؤلاء الغافلين في النقطة التالية:

معنى التوكل ومفهومه في الإسلام:

التوكل لغة: وَكَل بالله يَكِل وكلًا: استسلم إليه، ووكل إليه الأمر: سلَّمه إليه، وفوَّضه إليه. أوكل على الله وكل به، ووكل على فلان العمل: خلاه كله عليه. وكله: استكفاه أمره ثقة به، ووكله في الأمر فوضه إليه. اتكل على الله: استسلم إليه، واتكل على فلان في أمر: اعتمد ووثق به. تواكل: اتكل بعضهم على بعض، وتواكل القوم فلانًا: تركوه ولم يعينوه فيما نزل به.

وبعقد مقارنة سريعة بين التوكل والتواكل من خلال المعنيين السابقين يتضح أن التوكل أخذ بالأسباب واستنفاد للجهد والطاقة، والتواكل عكس ذلك أي أن يكون الإنسان بمقدوره أن يبذل جهدًا، وطاقة ثم نجده لا يفعل، وعليه فهو متواكل لا متوكل على الله.

أما التوكل اصطلاحًا: فهو الاعتماد على الله والرضا بقضائه وقدره، والرجوع إليه في كل شيء مع الأخذ بالأسباب؛ فالتوكل هو الأخذ بالأسباب، ثم الاعتماد على الله في تحصيل النتائج، وحث الله على ذلك حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ (الأعراف)[1].

يقول الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ومعنى ذلك أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان، ولا عمل

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، د. محمد الهزايمة، دار عمار، الأردن، ط٥، ١٩٩٧م، ص٢١.

www.kalemasawaa.com

الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات[١].

وقال أبو سعيد الخرَّاز: التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب.

ويريد بذلك أن يتحرك العبد في الأسباب بالظاهر والباطن، وأن يسكن إلى المسبب ويركن إليه، وقد أجمع علماء الأمة على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب[٢].

والتوكل هو صفة الأنبياء والمرسلين وجميع الصالحين، والتواكل هو صفة الكسالى منهم والعجزة؛ ومثال ذلك الرجل الذي دخل عليه الفاروق في المسجد فوجده يتعبد دون أن يغادر المسجد، فسأله عمن يطعمه، فقال: أخي يطعمني، فحكم الفاروق حكمًا حاسمًا بيِّنًا لا لبس فيه ولا غموض؛ حيث قال: "أخوك أعبد لله منك".وإذا أسقطنا هذا الكلام على موقف نبي الله لوط عليه السلام، لاتضح لنا كيف كان هذا النبي متوكلًا على الله حق التوكل.

إن المتأمل في موقف نبي الله لوط عليه السلام مع قومه لما راودوه عن ضيفه، يتبين له رجولة هذا النبي واستماتته في الدفاع عن أضيافة أمام هؤلاء الفسقة، على الرغم من أنه كان يقف وحده أمام هذه الجموع، إلا أنه دافعهم وحده؛ لأنه يعلم حقيقة التوكل على الله، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ (هود).

فسيدنا لوط عليه السلام يعلم مدى فسق قومه ومدى دنسهم، ومع ذلك يعرض عليهم بناته ليتزوجوا بهن، إنها قمة التوكل أن يستنفد الإنسان طاقته مع ركون قلبه وثقته في الله تعالى، وهل يُعْقَل أن يكون قلب نبي من أنبياء الله عز وجل غير ذلك؟!

ويتساءل العقلاء: كيف يكون لوط عليه السلام غير متوكل على الله، وجميع أنبياء الله عز وجل معصومون من الزَّلَل[٣] والخطأ؟! كيف يكون غير متوكِّل على الله والأنبياء هم الأسوة الحسنة للناس وبهداهم يقتدي الناس؟ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ (الممتحنة)، وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (الأنعام).

والراجح أن الخطاب في قوله: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ (هود) موجه إلى أضيافه؛ كأنه تمنى لو كان عدد ضيفه كثيرًا ليجد بهم قوة على مجاهدة قومه، وكفهم والإيقاع بهم، ولذلك ردوا عليه بقولهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴾ (هود:٨١)[٤].

أما عن مفهوم قوله عز وجل: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ (هود) في ظل الحديث الصحيح: "ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن

١. في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص١٧.
٢. المرجع السابق، ص١٨.
٣. الزَّلَل: الخطأ.
٤. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١٥٠.

www.kalemasawaa.com

شديد"[1]. فيمكن توجيه وتفسير الآية مع الحديث والربط بينهما على النحو الآتي:

١. أنه لا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس تدفع عن أضيافه؛ إذ لا حرج على إنسان يرى الحق مضيَّعًا، والباطل سائدًا في أن يستعين بأناس يُحق بهم الحق، ويُبطل الباطل؛ فقوة جند الحق من قوة الله.

قال ابن حزم: لا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلغ كلام ربه... وإنما أخبر ﷺ أن لوطًا عليه السلام كان يأوي إلى ركن شديد يعني من نصر الله له بالملائكة، ولم يكن لوط عَلِمَ بذلك، ومن اعتقد أن لوطا كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد فقد كفر؛ إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر، وهذا أيضًا ظن سخيف؛ إذ من الممتنع أن يَظن نبي برب أراه المعجزات، هذا الظن[2].

٢. إن لوطًا عليه السلام التجأ إلى الله في باطنه، وهو ما يخبر عنه الحديث، وإنما قال: ﴿ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ (هود) أمام الأضياف اعتذارًا.

وقد نقل ابن حجر عن النووي قوله: إنه التجأ إلى الله في باطنه، وأظهر هذا القول للأضياف اعتذارًا!

ويُرجِّح د. الحديدي، الجواب الثاني لأمرين:

الأول: أن اللائق برسول الله أن يركن إلى الله لا إلى الناس، وكُلُّ رسولٍ كان يقف وحده في مواجهة الكثرة الكثيرة من خصومه ومُناوئيه[3]، فعلى من كان يعتمد؟

والرسل عليهم الصلاة والسلام حين كلَّفهم ربهم بالدعوة إلى سبيله، أعلمهم أنه معهم بتأييده وعنايته حتى لا يخافوا سطوة أقوامهم عليهم، وهل كان مثل فرعون في الناس تجبرًا وطغيانًا، لقد طمأن الله موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ عندما وجههما إليه أنه معهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ (طه).

والرسل عليهم الصلاة والسلام ما كانوا يلتجئون إلا إلى الله، قال الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ (يوسف).

الثاني: أن لوطًا عليه السلام قدَّر في نفسه في هذه اللحظة أن أضيافه ـ وهو لا يعلم أنهم ملائكة ـ سيتساءلون ولو في أنفسهم: أما لهذا الرجل ولد وعشيرة تدفع عنه؟!، فقال هذا القول اعتذارًا لهم بأن لا ولد له ولا عشيرة تحميه، أما في الباطن فكان ملتجئًا إلى الله تعالى متوكلًا عليه[4] ®.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ (الحجر) (٣١٩٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٦٢٩١).

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٠١.

٣. مُناوئيه: أعداؤه.

٤. عصمة الأنبياء، د. محمد الحديدي، مرجع سابق، ص٣٠٢.

® في "**عدم منافاة التوكل للأخذ بالأسباب**" طالع أيضًا: الوجه الرابع، من الشبهة الثانية، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي "**دعوة السلف الصالح إلى الأخذ بالأسباب**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والأربعين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢).

www.kalemasawaa.com

ثانيًا. لا يقدح في عصمة النبي طلب النصرة للحق، بل هو واجب شرعي:

أنبياء الله تبارك وتعالى مصطفون منه ﷻ، وهذا الاصطفاء جاء لأشياء أودعها الله فيهم يتميزون بها عن غيرهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (آل عمران). فالآية تخبرنا أن الله اختار آدم ونوحًا، وآل إبراهيم، وهم إسماعيل وإسحاق، والرسل من ذريتهما، وآل عمران ـ وهم موسى وهارون ابنا عمران ـ عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ـ على العالمين ـ بالرسالة[١].

وينقل أبو السعود قولًا في توضيح اصطفاء آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ هو: اصطفى الله آدم عليه السلام بأن خلقه بيده في أحسن تقويم وبتعليمه الأسماء، وإسجاد الملائكة له، وإسكانه الجنة، واصطفى نوحًا عليه السلام بكونه أول من نسخ الشرائع، إذ لم يكن قبله تزويج المحارم حرامًا، وبإطالة عمره، وجعل ذريته هم الباقين، واستجابة دعوته في حق الكفرة والمؤمنين، وحمله على مَتْن الماء[٢][٣].

ومن اصطفاه الله جعله على هدى وصلاح، وجعله عبدًا شكورًا لا تصدر عنه المعصية؛ لأن الله ﷻ لا يختار العصاة ليهدي بهم عباده، فإنهم يصيرون قدوة في الضلال والإضلال، فكيف يختارهم لهداية الناس[٤]؟

وأما عن آل إبراهيم عليه السلام وآل عمران، فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: "وآل إبراهيم وآل عمران" قال: هم المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد ﷺ"[٥].

والذي ينظر فيما تقدم يوقن أن أنبياء الله تعالى ـ ومنهم لوط عليه السلام ـ قد اصطفاهم الله على البشر لأداء مهمة محددة ألا وهي مهمة هداية البشر إلى الله تعالى وهذا يستوجب أن يكونوا معصومين من كل زلل وخطأ، وإلا لما تحققت الغاية من مبعثهم وتلك نعمة أنعم الله تعالى بها على البشرية جمعاء، فكَوْن الأنبياء والمرسلين نموذجًا بشريًّا يحتذى به ويَقْتَفِي أَثَره[٦] ـ لأنهم المعصومون ـ يضيء الطريق للمهتدين، ويقيم الحجة على الضالين.

فكم من أناس في هذه الحياة يبحثون عن نموذج يُقْتَفَى أثره وتُتَلَمَّس خطواته فلا يجدون إلا أُناسًا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكونوا أسوة في الخير، أو قدوة في الصلاح، فيصيبهم من الهم والكرب نصيب عظيم، وتلك نفوس الأسوياء، ونحسب أن الله ﷻ رَأْفَة بهؤلاء ـ جعل هناك أنبياء ومرسلين ودعاة إلى الخير من أجل الاقتداء بهم والتأسي بأخلاقهم.

---

١. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٤٧.

٢. مَتْن الماء: ظهره.

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمود العمادي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت، ج١، ص٢٢٩.

٤. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٤٨.

٥. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٠.

٦. يَقْتَفِي أَثَره: يتَّبعه ويقتدي به.

www.kalemasawaa.com

الخلاصة:

- إن الأنبياء هم أعظم الناس إيمانًا بالله، وأقواهم يقينًا على الله، وأشدُّهم توكلًا عليه، ولا يقدح في عصمة نبي منهم أن يطلب النصرة على الحق، أو دفع المنكر بل إن ذلك واجب شرعي.
- لا حرج ولا جناح على نبي الله لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس لدفع الباطل وإحقاق الحق فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١) فهذا ما فعله لوط عليه السلام ولم يزد عليه.
- أما قوله تعالى حكاية عن لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ (هود) فكان اعتذارًا من لوط عليه السلام أمام أضيافه، أما باطنه فهو مع الله دائم الالتجاء إليه وهذا ما يوضحه قول رسولنا ﷺ في الحديث المتقدم: "يرحم الله لوطًا، لقد كان يَأْوِي إلى ركن رشيد".

الشبهة الثلاثون

ادعاء وقوع الفحشاء في بيت لوط عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يلصق الجاهلون التُّهم الشنيعة بأنبياء الله عز وجل، وهم المعصومون من الخطأ والزلل، ومن الأنبياء الذين أصابهم أذى هؤلاء الفسقة، سيدنا لوط عليه السلام، فقد اتهمه الجاهلون زورًا وافتراءً، بأنه زنى بابنتيه كما جاء في كتابهم المحرف، ويدعون كذلك أن زوجته خانته بارتكاب الفحشاء، ويستدلون على ذلك بقول الله عز وجل حكاية عن امرأة نوح ولوط: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحريم).

وجوه إبطال الشبهة:

١) أنبياء الله عز وجل جميعًا هم خير البرية، ولوط عليه السلام من الأنبياء، ومن ثم فلا يجوز في حقه ما يخدش هذه الخيرية.

٢) تناقض نصوص الكتاب المقدس حول نبي الله لوط عليه السلام يدحض تلك الافتراءات، وينفي هذا الزعم الباطل، ويثبت صدق القرآن الكريم.

٣) خيانة زوجته له لا تعني أنها زنت ـ كما يدَّعون ـ بل تعني أنها أبت اتباعه وخالفته في العقيدة.

التفصيل:

أولا. أنبياء الله تعالى جميعًا هم خير البرية:

اختار الله تبارك وتعالى أنبياءه؛ لأنهم أفضل البشر وأخيرهم، فهذا أبوهم آدم عليه السلام أول البشر، كم تحمّل من عناء وتعب لراحة أبنائه في الدين والدنيا. وهذا نبي الله نوح عليه السلام يلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، كما ذكر القرآن الكريم، فما كانت حصيلة تلك السنين الطوال إلا كما وصف القرآن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ (هود). وهذا القليل لا يتجاوز ثمانين رجلًا

(*) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

على أكثر تقدير.

وهذا إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام يأبى السجود لصنم طيلة حياته، ويبدأ رحلة الإيمان من بدايتها يتفكر في خلق الكون باحثًا عن ربه حتى هداه الله تعالى إليه، ثم يبدأ رحلة جهاده في تبليغ دين الله إلى الناس.

وهذا نبي الله لوط عليه السلام أرسله الله تعالى إلى أقبح قوم على ظهر الأرض وقتها، وهم أهل سدوم، قوم ما أشد بغيهم، وما أعظم تبجحهم، يجهرون بالفحشاء والمنكر، هكذا دون أدنى خجل أو حياء؛ لذلك استحقوا وصف الله لهم بالإجرام: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأعراف)، وبالفسق: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (الأنبياء)، وبالإسراف: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الذاريات)، وبالظلم: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (العنكبوت).

وكان قوم لوط عليه السلام يعملون الخبائث حتى فشت الرذيلة في القرية بأسرها عدا بيت واحد هو بيت النبي لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (الأنبياء).

فقد كانوا يأتون الرجال، ويقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكرات والفواحش جهارًا نهارًا: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (العنكبوت).

ويبدأ نبي الله لوط عليه السلام دعوته لقومه من منطلق الأخوة الإنسانية: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ (الشعراء)، فإنه عليه السلام لم يكن عدوًّا لأشخاصهم، بل كان مُصْلحًا لعقيدتهم، مُصْلحًا لأخطائهم، مصوِّبًا لسلوكهم[1].

فكان شأنه عليه السلام شأن الطبيب الرحيم بمرضاه، الصبور على امتناعهم عن تناول الدواء، دواء رباني وصفه له ربه عز وجل فحمله بأمانة إلى قومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ (الشعراء).

وكان من دواعي خيريته وأمانته أنه ابتدأ العلاج معهم بداية صحيحة؛ حيث قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾﴾ (الشعراء). بدأ بتقوى الله والتي هي رأس كل طاعة، فما من طاعة تصدر عن البشر إلا وانبعاثها عن تقوى الله، فحسن الأخلاق مصدره تقوى الله، والتعبد اللذيذ مصدره تقوى الله، والصبر الجميل مصدره تقوى الله، والبعد عن الفحش والبذاءة والدناءة مصدره تقوى الله.

لقد وُفِّق نبي الله لوط عليه السلام، أعظم التوفيق لما ابتدأ بتقوى الله، ثم وُفِّق أيضا لما ثَنَّى بدعوة قومه إلى طاعته، فحقٌّ على المريض أن يطيع طبيبه، وحق على الطالب أن يطيع أستاذه.

ثم إنه بتقديمه تقوى الله تعالى على طاعته، قد جعل طاعته مشروطة بموافقة تقوى الله عز وجل. وكيف لا يكون

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام الزين، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص١١١.

www.kalemasawaa.com

كذلك، وقد آتاه الله العلم والحكمة؟! ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (الأنبياء).

لقد أجهد نبي الله لوط عليه السلام نفسه في دعوة قومه إلى الله تعالى، ولم يكن ينتظر من وراء ذلك أجرًا أو مثوبة من أحد، بل ذاك مردود من الله له: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ (الشعراء).

ولعله من نافلة القول أن نذكر أن كلمة بني أو رسول تعني أنه رجل كلفه ربه بدعوة الناس إليه، والعقل يقول: إن من ضرورة ذلك أن يكون قدوة لهم، وإلا فكيف يدعوهم إلى خير الخصال وهو يأتي أقبحها؟! وكيف يدعوهم إلى حسن الخلق وليس عنده هذا الخلق؟! تخيلوا أن رجلًا يفعل ذلك، فهل تعتقدون أن يتبعه أحد؟!

بالطبع لا. إذن غاية تكليفه لم تتحقق، وهنا نجد أنفسنا أمام أحد احتمالين لا ثالث لهما:

الأول: أن لوطًا عليه السلام ليس نبيًّا فكونه يزني بابنتيه ويشرب الخمر ينفي عنه صفة النبوة.

الثاني: أن لوطًا عليه السلام نبي من أنبياء الله تعالى وما أثير عنه من افتراءات وأباطيل لا سند لها من عقل أو نص صحيح لم يُحرَّف، فكتابكم المقدس يقول إنه نبي والقرآن الكريم ـ كتاب الله المحفوظ ـ يقول إنه نبي ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ (الصافات). وطهارة سيدنا لوط عليه السلام شهد له بها قومه قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (النمل).

ثم إن طهارت لوط عليه السلام قد تمثلت كذلك في إنكار الفواحش التي كان القوم يقترفونها والتي تمثلت فيما يلي[1]:

- إتيان الذكران دون الإناث، فأنكر عليهم قائلًا كما حكى القرآن: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ (الشعراء)، وبين لهم أن هذه الفعلة فاحشة لا تَنْسَجِم[2] مع الفطرة الإنسانية، إذ إنها تشكل سابقة خطيرة تهدد المجتمع بالانهيار، وتنذر النسل بالفناء فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأعراف)، وأوضح لهم أن الإنسان يميل بفطرته نحو الزواج المنظم المقنن للحفاظ على النسل، واستمرار الحياة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم)، وأن الخروج على هذه الفطرة شذوذ واعتداء، ولهذا جاء على لسان نبي الله تعالى لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾.

وقد أرجع نبي الله لوط عليه السلام هذا الشذوذ عن الفطرة إلى أمرين:

الأول: الإسراف في الملذات فقال لقومه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ (الأعراف).

الثاني: الجهل بإحدى وظائف الشهوة لدى الإنسان، وهي الحفاظ على التناسل في الجنس البشري، وقد جاء على لسان لوط: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن

---

١. المرجع السابق، ص١١٢.

٢. لا تَنْسَجِم: لا تتوافق.

www.kalemasawaa.com

دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النمل).

• كان قوم نبي الله لوط عليه السلام يقترفون منكرات أخرى، إذ كانوا يقطعون الطريق على المارّة ويستلبون أموالهم، ويغتصبون أولادهم، كما كانوا يجتمعون في النوادي العامة ويفعلون المعاصي بشكل جماعي، فتوجه لوط إليهم منكرًا أفعالهم كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (العنكبوت)[1].

وحيث إننا احتكمنا إلى العقل، فالعقل يشهد عند الأسوياء بأن رجلًا مثل هذا، يقف في وجه الرذيلة ويقاومها، ويقف في وجه المنكرات السائدة في قومه، رجلٌ يصح فيه القول: إنه موصول بالسماء، هذا فضلًا عن أن كتابكم المحرف يشهد بأنه نبي من أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ، ويؤكد هذه الحقيقة كتاب ربنا ـ القرآن الكريم ـ ومن ثم فلا صحة لما يدّعيه هؤلاء الجاهلون.

ثانيًا. تناقض نصوص الكتاب المقدس حول نبي الله لوط عليه السلام يدحض تلك الافتراءات ويثبت صدق القرآن:

تحكي التوراة عن لوط عليه السلام قائلة: "وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة. وكان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال: "اهرب لحياتك لا تنظر إلى ورائك، ولا تقف في كل الدائرة. اهرب إلى الجبل، لئلا تهلك". فقال لهما لوط: "لا يا سيّد. هُو ذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك، وعظَّمت لطفك الذي صنعت إلي باستبقاء نفسي، وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل لعل الشر يدركني فأموت. هُو ذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها وهي صغيرة، أهرب إلى هناك أليست هي صغيرة؟ فتحيا نفسي". فقال له: "إني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضًا أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها. أسرع أهرب إلى هناك لأني لا أستطيع أن أفعل شيئًا حتى تجيء إلى هناك". لذلك دُعي اسم المدينة صُوغر. وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر، فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب من السماء. وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض... حين قلب المدن التي سكن فيها لوط. وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البِكْر للصغيرة: "أبونا قد شاخ ليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلمَّ نسقي آبانا خمرًا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلًا". فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: "إني قد اضطجعت البارحة مع أبي نسقيه خمرًا الليلة أيضًا، فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلًا". فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها؛ فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضًا ولدت ابنًا ودعت اسمه بن عَمّي، وهو أبو بني

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام الزين، مرجع سابق، ص١١٢، ١١٣.

www.kalemasawaa.com

عَمُّون إلى اليوم". (تكوين ١٩: ١٦ ـ ٣٨).

لاحظ الاضطراب في تدوين القصة؛ ففي البداية خاف أن يسكن الجبل وسكن في صوغر؛ لأنها مدينة صغيرة، ثم جعله كاتب هذه الأسطورة يهرب من المدينة المأهولة إلى الجبل لتهيئة المسرح لجريمة الزنا بابنتيه.

والغرض من ذلك هو السياسة الصهيونية التي تهدف إلى استبعاد أي نسل آخر خلاف نسل يعقوب عليه السلام من مشاركتهم في عهد الله مع الخليل إبراهيم عليه السلام والمؤمنين به ومنعهم من الحصول على أية ميزة، واعتبار أن الله قد خلق العالم من أجل أن يرث ـ فقط ـ بنو إسرائيل أرض الميعاد.

والدليل على كذب هذه الرواية يأتي من عدة وجوه، هي:

١. خوف لوط أن يسكن في الجبل لعل الشر يدركه فيموت، وفضَّل السكن في مدينة صوغر. (تكوين ١٩: ١٩ ـ ٢٠)، ثم تضارب الكاتب مع نفسه فقال: "وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه". (تكوين ١٩: ٣٠).

٢. وقد عاش لوط في صوغر ١٤ سنة ـ قبل مولد إسماعيل إلى أن بلغ إبراهيم من العمر ١٠٠ سنة ـ وهو يعرف هذه المنطقة وسكانها جيدًا، ولو كان أهلها من الأشرار لأهلكهم الله، كما أهلك سدوم وعمورة، ولما عاش معهم ١٤ سنة! فكيف يخاف الجبل، ثم يسكن فيه، ويترك القرية وأهلها الذين نعم بالعيش معهم ١٤ سنة؟ فقد سكن الجبل الذي يخاف منه لا لشيء إلا لرغبة كتبة التوراة في ذلك لاستكمال هذه القصة المختلقة.

٣. كان لسيدنا لوط عليه السلام أبناء ذكور قبل تدمير سدوم وعمورة. وهم يعيشون في نفس المكان، وقد أبلغهم لوط بما سيحدث للقرية قبل تدميرها، كما أبلغ بناته وأصهاره، ولا شك أن الكل صدَّقه وهرب معه، وإخفاء هذا الخبر في التوراة كان متعمَّدا؛ لقطع نسب لوط من أبنائه ولاستكمال القصة، وقال الرجلان للوط: "من لك أيضا ههنا؟ أصهارك وبنيك وبناتك، وكل من لك في المدينة أخرج من المكان؛ لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكه". فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بناته وقال: "قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة". فكان كمازح في أعين أصهاره. ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطًا قائلين: "قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة". (تكوين١٩: ١٢ ـ ١٥).

٤. ولو صدقنا خبر تكذيب أصهاره فهل لم تصدقه إحدى بناته المؤمنات اللواتي تربين في بيت النبوة؟ بالطبع حَبَكَ الكاتب هذا السيناريو؛ لتنفرد الابنتان بأبيهما.

٥. كذب القول المنسوب لابنتي لوط عليه السلام بأنه ليس من الأرض رجل ليدخل عليهما كعادة كل الأرض، فهل كانت القرية القريبة من الجبل صوغر ليس بها رجال؟ وهل لم تتزوج ابنتاه العذراوتان لمدة ١٤ سنة بعد هروبهم من سدوم وعمورة؟

مع العلم أنهم كانوا يسكنون في منطقة قريبة، لا

www.kalemasawaa.com

تبعد عن المنطقة التي هربوا إليها إلا ساعتين سيرًا على الأقدام، فقد خرجوا في الفجر ووصلوا إلى صوغر عند شروق الشمس، والجبل وصوغر كلاهما كانا قريبين من سدوم، وكانت هناك مدن أخرى قريبة من صوغر كالتي وردت عندما أنقذ إبراهيم لوطًا ـ عليهما السلام ـ من الأسر، ولم يذكر أن الرب قد دمرها.

ومما يثبت وجود شعوب أخرى في المنطقة التي عاش فيها لوط ما ورد بعد ذلك في (التثنية ٢: ٩ ـ ١٢) من أن الله قد أورث بني لوط عليه السلام أرض الإيميين والرفائيين الذين يسكنون المكان الذي أقام فيه لوط، وعلاوة على ذلك فالمسافة بين صوغر وحيرون التي يقيم فيها إبراهيم عليه السلام لا تتعدى ٧٠ كيلومتر، وقد رأى إبراهيم عليه السلام بعينيه النار المشتعلة في سدوم القريبة من صوغر وهو في مكانه.

ولا يمكن أن يقال بأي حال من الأحوال إن لوطًا عليه السلام قد عاش منفردًا هو وابنتاه بدون مخالطة شعب آخر، فهذا ما لا يطيقه الشباب فضلًا عن شيخ عجوز.

٦. أما فيما يختص بحادثة الزنا؛ فالتلفيق واضح فيها وبيان ذلك بالآتي:

- أن المخمور الذي لا يستطيع أن يفرق بين بناته والأجنبيات لشدة سكره، لا يكون في هذا الوقت قابلًا للجماع، والغريب في باقي القصة أن الأب لم يسأل ابنتيه العذراوين عن سبب الحمل؟ ومثل هذا الوضع لو وقع لبعض آحاد الناس لضاقت عليه الأرض بما رحبت حزنًا وغمًّا، فهل لم يهتم نبي الله بابنتيه وشرفه؟

- فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه "موآب"، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم، والصغيرة أيضًا ولدت ابنًا ودعت اسمه "بن عمي"، وهو أبو بني عمون". (تكوين ١٩: ٣٦ ـ ٣٨).

لو كان الموآبيون والعمونيون من الزنا لغضب الله عليهم أو حتى أهمل شأنهم، ولكننا نرى في سفر التثنية أن الله قد أعطى أرض الإيميين للموآبيين ميراثًا: "فقال لي الرب: لا تعاد موآب ولا تثر عليهم حربًا؛ لأني لا أعطيك من أرضهم ميراثًا، لأني لبني لوط قد أعطيت عار ميراثًا. الإيميون سكنوا فيها قبلا شعب كبير وكثير وطويل كالعناقيين". (التثنية ٢: ٩، ١٠)، كما أعطى أرض الرفائيين لبني عمون ميراثًا: "فمتى قريب إلى تجاه بني عمون لا تعادهم ولا تهجموا عليهم؛ لأني لا أعطيك من أرض بني عمون ميراثًا؛ لأني لبني لوط قد أعطيتها ميراثًا، هي أيضا تحسب أرض رفائيين. سكن الرفائيون فيها قبلا لكن العمونيين يدعونهم زمزميين". (تثنية ٢، ١٩، ٢٠).

وقد أعطى الله الموآبيين والعمونين ميراث الأرض قبل أن يورث بني إسرائيل وقبل أن يدخلوا أرض الميعاد، بل وحرم أرض الموآبيين والعمونيين على بني إسرائيل كما ورد في (التثنية ٢: ١٩) ولو كان الإرث يستلزم عهدًا من الرب فقد حصل عليه العمونيون والموآبيون، وبذلك يكونون قد دخلوا في جماعة الرب؛ لأن الرب لا يعطي عهدًا لأبناء الزنا "لا يدخل ابن زنا في جماعة الرب، حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب". (تثنية ٢٣: ٢)، وبذلك يكون الموآبيون والعمونيون ليسوا من أبناء زنى ويكون كتبة هذه القصة من الكاذبين، ويكون بني إسرائيل

www.kalemasawaa.com

قد ادعوا وجوب هذا العهد من الله، ويكونون أيضًا من الكاذبين.

ولو صدقنا قول التوراة أن العمونيين والموآبيين من نسل الزنا، وقد حصلوا على عهد من الله وعلى إرث، يكون قد نال عهد الله أبناء الزنا والأطهار (بني إسرائيل)، فلا ميزة إذن للأطهار عن أبناء الزنا، ويصبح قول التوراة بأن بني إسرائيل شعب الله المختار؛ لأنهم أخذوا عهدًا من الله بتملك الأرض، قولًا كاذبًا.

وإذا كان هذا شأن الله مع أبناء الزنا وهم أبرياء مما اقترفه آباؤهم، فكيف يكون شأنه مع المحتالين واللصوص؟ فجاء في سفر التكوين: "وحدث لما شاخ إسحاق وكلَّت عيناه عن النظر، أنه دعا عِيسُو ابنه الأكبر وقال له: "يا ابني". فقال له: "هأنذا". فقال: "إنني قد شِخْتُ ولستُ أعرف يوم وفاتي. فالآن خُذْ عُدَّتك: جُعْبَتك وقوسك، واخرج إلى البَرِّيَّة وتصيد لي صيدًا، واصنع لي أطعمة كما أحب، وأتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت". وكانت رِفْقة سامعة إذ تكلَّم إسحاق مع عيسو ابنه. فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيدًا ليأتي به. وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة: "إني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلًا: ائتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي. فالآن يا ابني اسمع لقولي في ما أنا آمرك به: اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جَدْيَيْنِ جيِّدين من المِعْزَى، فأصنعها أطعمة لأبيك كما يحب، فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته". فقال يعقوب لرفقة أمه: "هو ذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس. ربما يَجُسُّني أبي فأكون في عينيه كمتهاون، وأجلب على نفسي لعنة لا بركة". فقالت له أمه: "لعنتك عليَّ يا ابني. اسمع لقولي فقط واذهب خُذْ لي". فذهب وأخذ وأحضر لأمه، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب. وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر، وألبست يديه ومَلاسَة عُنُقه جلود جَدْيِي المعزى. وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها. فدخل إلى أبيه وقال: "يا أبي". فقال: "هأنذا. من أنت يا ابني؟" فقال يعقوب لأبيه: "أنا عيسو بِكْرك. قد فعلت كما كلمتني. قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك". فقال إسحاق لابنه: "ما هذا الذي أسرعت لتجد يا ابني"؟ فقال: "إن الرب إلهك قد يسر لي". فقال إسحاق ليعقوب: "تقدم لأجسك يا ابني. أأنت هو ابني عيسو أم لا"؟ فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه، فجسَّه وقال: "الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو". ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه. وقال: "هل أنت هو ابني عيسو"؟ فقال: "أنا هو". فقال: "قدِّم لي لآكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي". فقدم له فأكل، وأحضر له خمرًا فشرب. فقال له إسحاق أبوه: "تقدَّم وقبلني يا ابني". فتقدم وقبله، فشم رائحة ثيابه وباركه، وقال: "انظر! رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب. فليعطك الله من نَدَى السماء ومن دَسَم الأرض. وكثرة حنطة وخمر. ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل. كن سيِّدًا لإخوتك، وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك

www.kalemasawaa.com

ملعونين، ومباركوك مباركين". وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب، ويعقوب قد خرج من لدن إسحاق أبيه، أن عيسو أخاه أتى من صيده، فصنع هو أيضًا أطعمة ودخل بها إلى أبيه، وقال لأبيه: "ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك". فقال له إسحاق أبوه: "من أنت"؟ فقال: "أنا ابنك بِكْرك عيسو".

فارتعد إسحاق ارتعادًا عظيمًا جدًّا وقال: "فمن هو الذي اصطاد صيدًا وأتى به إليَّ فأكلت من الكل قبل أن تجيء، وباركته؟ نعم، ويكون مباركًا". فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جدًّا، وقال لأبيه: "باركني أنا أيضًا يا أبي". فقال: "قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك". فقال: "أَلَا إن اسمه دُعِي يعقوب، فقد تعقَّبني الآن مرتين! أخذ بَكُوريَّتي، وهو ذا الآن قد أخذ بَرَكَتي". ثم قال: "أما أبقيت لي بركة؟" فأجاب إسحاق وقال لعيسو: "إني قد جعلته سيدًا لك، ودفعت إليه جميع إخوته عبيدًا، وعضدته بحنطة وخمر. فماذا أصنع إليك يا ابني"؟ فقال عيسو لأبيه: "ألك بركة واحدة فقط يا أبي؟ باركني أنا أيضًا يا أبي". ورفع عيسو صوته وبكى. فأجاب إسحاق أبوه: "هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك، وبلا ندى السماء من فوق. وبسيفك تعيش، ولأخيك تُسْتَعْبَد، ولكن يكون حينما تجمح أنك تُكَسِّر نِيْرَه عن عُنُقك". فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التي باركه بها أبوه. وقال عيسو في قلبه: "قَرُبَت أيام مَنَاحة أبي، فأقتلُ يعقوب أخي". فأُخْبِرت رِفْقة بكلام عيسو ابنها الأكبر، فأرسلت ودعت يعقوب ابنها الأصغر وقالت له: "هو ذا عيسو أخوك مُتَسَلٍّ من جهتك بأنه يقتلك. فالآن يا ابني اسمع لقولي، وقم اهرب إلى أخي لابان إلى حاران، وأقم عنده أيامًا قليلة حتى يرتد سخط أخيك. حتى يرتد غضب أخيك عنك، وينسى ما صنعت به. ثم أرسل فآخذك من هناك. لماذا أعدم اثنيكما في يوم واحد"؟ (التكوين ٢٧: ١ ـ ٤٥).

فكيف يكون شأنه مع من صارعوه وقهروه؟ فهل هؤلاء أيضًا لهم عهد من الرب وميراث؟ أم أن هذه القصة من وحي خيال كاتب مخمور؟ فقد جاء في سفر التكوين أن يعقوب عليه السلام صارع الرب: "فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال: "أطلقني، لأنه قد طلع الفجر". فقال: "لا أطلقك إن لم تباركني". فقال له: "ما اسمك؟" فقال: "يعقوب". فقال: "لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت". وسأل يعقوب وقال: "أخبرني باسمك". فقال: "لماذا تسأل عن اسمي"؟ وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان "فنيئيل" قائلًا: "لأني نظرت الله وجهًا لوجه، ونجيت نفسي". (التكوين ٣٢: ٢٤ ـ ٣٠).

- "لا يدخل ابن زنا في جماعة الرب حتى الجيل العاشر، لا يدخل منه أحد في جماعة الرب". (التثنية ٢٣: ٢)، ومعنى "حتى الجيل العاشر" أي: للأبد. ومع ذلك فإننا نجد أن راعوث كانت مؤابية وهي أم نبي الله داود الذي كان من ذريته كل ملوك يهود حتى السبي، والذي قال عنه الرب: "أنا أكون له

www.kalemasawaa.com

أبًا وهو يكون لي ابنًا إن يَعْوَجّ أُؤَدبهُ بقضيب الناس وبضربات بني آدم. ولكن رحمتي لا تنزع منه كما نزعتها من شاول الذي أزلته من أمامك. ويأمن بينك ومملكتك إلى الأبد أمامك. كرسيك يكون ثابتًا إلى الأبد". (صموئيل الثاني ٧: ١٤ـ ١٦).

فلا يمكن لمن شرفه الله بهذا الشرف أن يكون من سلالة زنا، كما أن سليمان قد تزوج من نعمة العمونية وأنجب منها رحبعام (ملوك الأول ١٤: ٢١)، ولا يمكن أن يكون رءوس جماعة الرب من أمهات زنا، فضلًا عن أنهم من نسل الرب تبعًا للتشريع النصراني. فلا بد أن يكون هذا التشريع مدسوسًا على التوراة. لكن ما أسباب ذلك؟

يقول السموأل بن يحيى المغربي صاحب كتاب "إفحام اليهود" وأحد أحبار اليهود الذين هداهم الله للإسلام، وقد كان أبوه حَبْرًا يهوديًّا كبيرًا وإمامًا ضليعًا في اليهودية، وكذلك كانت أمه، مما جعله قادرًا على الحكم على التوراة: "وأيضًا فإن عندهم أن موسى جعل الإمامة في الهارونيين، فلما ولي طالوت ـ شاول ـ وثقلت وَطْأَته على الهارونيين وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم انتقل الأمر إلى داود، بقي في نفوس الهارونيين التشوُّق إلى الأمر الذي زال عنهم، وكان عَزْرَا هذا خادمًا لملك الفرس، حظيًّا لديه، فتوصل إلى بناء بيت المقدس، وعلّم لهم هذه التوراة التي بأيديهم، فلما كان هارونيًّا، كره أن يتولى عليهم في الدولة الثانية داودي. فأضاف في التوراة فصلين للطعن في نَسَب داود، أحدهما قصة بنات لوط، والآخر قصة ثامار مع يهوذا، ولقد بلغ ـ لَعَمْرِي ـ غرضه، فإن الدولة الثانية كانت لهم في بيت المقدس، لم يُملَّك عليها داوديون، بل كان ملوكهم هارونيين"[1].

ومن ثم فهل يصدق عاقل ما قاله الكتاب المحرف عن سيدنا لوط عليه السلام، وهو كما سبق أن علمنا مملوءٌ بالمغالطات والتناقضات فضلًا عن شهادة المتخصصين في اليهودية بالتحريف المُتعمد من قبل من سطروا هذه التوراة لأغراض سياسية وسعيًا منهم للملك والسيادة.

ثالثًا. خيانة زوجة لوط عليه السلام لم تكن في أمر البغاء والفحشاء، بل مخالفة في العقيدة:

وأما عن خيانة زوجة نبي الله لوط عليه السلام فإننا نقول لمن يدعي أن خيانتها كانت بغاءً وارتكابًا للفاحشة: لا بد لكم بدايةً أن تسألوا أهل الذكر والعلم إن كنتم تبغون الحق وما هي أقوال أهل العلم في قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحريم).

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: "فخانتاهما" قال: ما زَنَتَا، أما خيانة امرأة نوح فكانت قولها للناس عن زوجها: إنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل على الضيف فتلك خِيانتها[2].

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: "ما بغت امرأة نبي

---

١. إفحام اليهود، السموأل بن يحيى المغربي، د. م، د. ت، ص١٥١، ١٥٢.

٢. إسناده صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب سورة التحريم (٣٨٣٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

www.kalemasawaa.com

قط"[١]. وجاء عن الضحاك ﷺ في قوله: "فخانتاهما" أنه قال: "كانتا كافرتين مخالفتين ولا ينبغي لامرأة تحت نبي أن تَفْجُر".

وجاء عن قتادة ﷺ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ (التحريم: ١٠) أنه قال: لن يُغني صلاح هذين عن هاتين ـ المرأتين ـ شيئًا، وامرأة فرعون لم يضرها كفر فرعون، والله أعلم[٢].

أضف إلى ذلك أن أنبياء الله ﷻ جميعًا معصومون، وزنا زوجاتهم يقدح في هذه العصمة؛ لأن عصمتهم منع وحفظ من الوقوع في الخطأ والمعاصي وخاصة الكبائر، ومن ثم فاختيارهم لزوجاتهم يندرج تحت هذا الحكم، ومن هنا نتساءل: كيف اختار نبي الله لوط عليه السلام زوجة بَغِيًّا[٣] زانية، أما كانت في النساء صالحة فيتزوجها؟! والجواب لم تكن كذلك، بل خيانتها له كفرها به. ثم إن بيوت الأنبياء هي مَلَاذ[٤] المؤمنين به، ودار أمنهم وراحتهم، فكيف تكون كذلك، وفيها زوجة باغية، فالعقل لا يقبل ذلك؛ حيث إن من أشد الأمور وَطْأَة[٥] وتأثيرًا بالسلب في نفس الرجل خيانة زوجته له بالمعنى الذي يتوهمون®.

وختامًا نقول: لولا القرآن لهلك الناس؛ لأن منهم من يريد أن يهدم كل فضيلة، ويقيم كل رذيلة ونقيصة، من المؤسف أن هؤلاء خاضوا في أطهر الخلق وخير البرية (الأنبياء) لذلك جاء هذا القرآن ليقوّم المعوجّ، ويصحح المسار ويُرِي الناس حقيقة الأنبياء دحضًا لشبهات أصحاب الأهواء ومن لا يتّبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

الخلاصة:

- أنبياء الله ﷻ هم خير البرية؛ فهم المكلفون بتوصيل رسالات الله إلى خلقه فكان حقًّا لهم أن يكونوا كذلك لإتمام المهمة التي خلقهم الله من أجلها، ومن ثم فليس لهم أن يكونوا كما يصفهم المدعون بأوصاف لا يوصف بها إنسان عادي، فضلًا عن أن يوصف بها نبي.
- إن الكتاب المقدس كتاب مزيف لتناقض نصوصه؛ لأنه إذا سلمنا بصحة زعمهم من أن لوطًا عليه السلام زنا بابنتيه؛ لاستوجب ذلك أن من أنبياء الله تعالى مَنْ جاء مِنْ نسل زنا وبغاء، والفطرة والعقل والشرع يأبون ذلك كل الإباء، وهنا يأتي دور القرآن العظيم كتاب الله المحفوظ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يدافع عن أنبياء الله ﷻ، ويضع الحقيقة التي زُيِّفَت، ويبرز الصدق الذي كُذِّب وحُرِّفَ. ومن ثم نقول: لولا القرآن لهلك الناس؛ لأنه لن تكون القدوة الصالحة قائمة بين البشر إذا سقط الأنبياء من عيون الناس.

---

١. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/ ٣٤٣)، تفسير سورة هود، الآية ٤٦ (١٨٢٢٤).

٢. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ٢٣٨)، تفسير سورة التحريم، آية ١٠.

٣. البَغِي: الفاجرة التي تتاجر بعِرْضها.

٤. الملاذ: الملجأ والمقر.

٥. وَطْأَة: حِمْلا.

® في "المقصود بخيانة امرأة نوح وامرأة لوط" طالع أيضًا: الوجه الثاني، من الشبهة العاشرة، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

الشبهة الحادية والثلاثون

دعوى خطأ القرآن في قصة تآمر إخوة يوسف عليه السلام عليه والمكر به(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين خطأ القرآن الكريم في ذكره معلومات غير صحيحة فيما يتعلق بقصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ (يوسف)[1] ويتساءلون: من أين جاء القرآن بهذه المعلومات، مع أن التوراة لا تذكرها؟

وجها إبطال الشبهة:

١) تآمر إخوة يوسف عليه السلام عليه نيَّة مسبقة، تتفق مع الطبائع البشرية، وسياق الأحداث يثبت هذا التآمر، وأنه ليس وليد اللحظة كما ذكرت التوراة.

٢) نُسخ التوراة الثلاثة (العبرانية، واليونانية، والسامرية) لا تتفق في القصة اتفاقًا تامًّا، فأيها نصدق القرآن الكريم، أم التوراة المحرفة؟!

التفصيل:

أولا. مكر إخوة يوسف به والتآمر عليه نية مسبقة، تتفق مع الطبائع البشرية، وسياق الأحداث يثبت هذا التآمر وأنه ليس وليد اللحظة كما ذكرت التوراة:

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم التي ذكرت قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وما ورد فيها من طلب إخوة يوسف عليه السلام من أبيهم أن يسمح بخروج يوسف عليه السلام معهم للعب، وما ورد في التوراة من قصة يوسف عليه السلام، من أن يعقوب عليه السلام هو الذي أرسل يوسف عليه السلام إلى إخوته في البرية ـ يجد أن الذي يتفق مع الواقع هو ما ذكره القرآن الكريم، أما التوراة فهي التي تتضمن المعلومات المغلوطة. فالذي يتفق مع الواقع أن إخوة يوسف عليه السلام بيتوا النية مسبقًا للتخلص من يوسف فقالوا متآمرين: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ (يوسف). وهذا يتفق مع إحساسهم بأن يوسف عليه السلام أثير لدى أبيهم، فقد حسدوه على حب أبيه إياه، وعلى ما أتاه الله من علم وجمال وجلال، فتآمروا على قتله وإبعاده عن أبيه بطرحه في أرض بعيدة لا يمكنه الرجوع منها إليه، ولا يعرف أحد من أهله مكانه فيأتي به إلى أبيه.

وقد بنوا على ذلك آمالًا وأحلامًا تدل على سفه عقولهم، وفساد رأيهم وقسوة قلوبهم، فقد تصوروا أنهم بتخلصهم من يوسف عليه السلام سوف يحوزون حُبّ أبيهم، واعتماده عليهم في كثير من شئون الحياة، وهم عصبة؛ ولذلك رأوا أنهم أحق بحب أبيهم، ولم يعلموا أن عاطفة الحب لا يمكن أن تتحول بمجرد إرادة الإنسان لها، فحب يعقوب عليه السلام لولديه يوسف عليه السلام، وبنيامين، نابع من كونهما صغيرين ضعيفين، والآخرون عصبة، ولكن خاب ظنهم، فأي صلاح يكون لإخوة يوسف عليه السلام بعد أن يبعدوه عن أبيه، وهو قُرَّة عينه[2]؟ وهل مثل هذه الجريمة مما يطويه النسيان، أو يقلل من

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات. Islamyet.com

١. يَرْتَع: يلهو.

٢. قُرَّة عين: سببًا للسرور والسعادة.

www.kalemasawaa.com

حدَّة وقعها مرُّ الزمان؟!

أما كيدهم ليوسف عليه السلام دون أخيه فربما يرجع إلى أن أخاه كان صغيرًا جدًّا ليس له عند أبيه من المكانة ما ليوسف عليه السلام، ولعلهم أحاطوا علمًا بالرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام، وعلموا تأويلها، وأدركوا أنه سيعلوهم ويسودهم، ويضطرون إلى استجدائه والسجود له؛ فمكروا به، ودبروا له دون أخيه.

وهذا يتفق مع الواقع وسياق الأحداث، وطبائع النفوس المريضة التي إذا تحكّم فيها الهوى فكّرت ودبّرت للكيد والانتقام.

أما تصوير التوراة للموقف فإنه يختلف تمامًا، فالذي جاء فيها أنهم انتظروا إلى حين إرسال يعقوب ابنه يوسف ـ عليهما السلام ـ إليهم، وبناءً على هذا لو لم يرسله أبوه لما حدث ما حدث، وهذا لا يتفق مع نيتهم المبيَّتة، وتآمرهم السابق، فيوسف عليه السلام يذهب إلى إخوته، وهم يرعون مواشيهم ليطمئن عليهم وعلى سلامة الغنم، والإخوة يفكرون في التخلص منه حين يرونه (وهذا وفق ما جاء في سفر التكوين في الإصحاح السابع والثلاثين) وهذا غير مستقيم لدينا؛ لأن يعقوب عليه السلام نهى يوسف عليه السلام عن قص رؤياه على إخوته، حين سمعها منه، فهو يخاف على ابنه من بُغضهم وكراهيتهم له، فكيف يرسله إليهم في البرية؟

ولذلك تحكي الآيات القرآنية الدافع وراء التآمر على حياة يوسف عليه السلام وهي: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾(يوسف). فهناك السبب العاطفي وهو إيثار أبيه له ولأخيه بالحب كما فصلناه. والسبب الثاني: أنهم رأوا قوتهم في عصبتهم، ومدى نفعهم لأبيهم أكثر من صغيرين نالا محبة أبيهم، ويبدو أن الشيطان دخل إليهم من خلال اختلاف الأمهات.

وقد جعل كاتب التوراة فكرة القتل لدى إخوة يوسف وليدة اللحظة التي رأوا فيها يوسف قادمًا عليهم من بعيد، ولكن بالتأمل في سرد التوراة فيما بعد يتضح أن هناك تآمرًا، فإنهم على دراية بالمنطقة الصحراوية، والبئر كانت محددة في أذهانهم من قبل، بدليل قولهم: "اطرحوه في هذه البئر". (التكوين ٣٧: ٢٢). فاستخدام اسم الإشارة "هذه" يدل على اتفاق سابق على نوع البئر المطلوبة.

كما أن التوراة تقول على ألسنتهم: هل نقتله ونطرحه في إحدى الآبار، أي أنهم سيجمعون بين القتل والطرح في البئر، وكلاهما وسيلتا قتل، ولكن القرآن ذكر أنه أُلقي حيًّا، كما نصَّ على أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا قتلة محترفين، يقتلون لمجرد القتل، وإنما القتل إحدى وسائل التخلص من يوسف عليه السلام، ومن هنا كان الخيار الثاني "اطرحوه أرضًا"، وجاءت كلمة "أرضًا" نكرة كدليل على أن هؤلاء الإخوة سيتجهون في كل ناحية؛ حتى يجدوا منطقة مليئة بالذئاب، أو تكثر فيها الآبار.

ومن هنا بدأ الاحتيال؛ لذا قالوا لأبيهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (يوسف)، فقد كانوا يعرفون خشية أبيهم عليه منهم لسوء صنيعهم وإهمالهم له، وهم تحت عينيه فكيف بهم إذا كانوا خارج البيت في أرض قفر؟! وقد حاولوا إقناعه ليثق بهم، ويصدق قولهم، باعتبارهم سيقومون على

www.kalemasawaa.com

حراسة يوسف، وحفظه من العوادي، والمؤذيات، ولكن أباهم لم يكن غافلًا عنهم، ولا خافيًا عليه أمرهم فهو نبي مرسل، له من النور ما يميز به الصدق من الكذب، لقد تفرَّس الكذب في وجوههم، وعرف ما انطوت عليه سرائرهم، فأفصح عما يكنُّه قلبه، وما يعتمل في نفسه، وصارحهم بالحقيقة التي ما غابت عنه لحظة؛ لذا قال لهم: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (يوسف)، وهذا ما لم تذكره التوراة، فهذه مزية في القرآن الكريم، وليس عيبًا فيه، وصدق الله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ (النمل)، ولم يذكر القرآن أن يعقوب اتَّهم بنيه بالغفلة، وإنما قال لهم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (يوسف) فهو يخشى أن يحدث ذلك.

ثانيًا. نسخ التوراة الثلاثة لا تتفق على القصة اتفاقًا تامًّا فأيهما نصدق: القرآن الكريم الصادق أم التوراة المحرفة؟!

مما يؤكد ما جاء في القرآن الكريم من قصة يوسف عليه السلام، أنه هو الحق الذي لا مراء فيه أن نسخ التوراة تتناقض فيما بينها؛ فما نجده في نسخة منها قد لا نجده في الأخرى، وهذا دليل على بشريّتها وأنها من تأليف النساخ والكُتَّاب، فما جاء في القرآن، ولم يجئ في التوراة، لا يدل على إيراد شبهة على القرآن؛ ذلك لأن نسخ التوراة الثلاثة: العبرانية، واليونانية، والسامرية ـ لا تتفق مع القصة اتفاقًا تامًّا.

ففي اليونانية نجد قصة "صواع الملك" وليست في العبرانية، وفي التوراة العبرانية ترجمة البروتستانت: "ولما كانوا قد خرجوا من المدينة، ولم يبتعدوا؛ قال يوسف للذي على بيته: قم اسعَ وراء الرجال، ومتى أدركتهم فقل لهم: لماذا جازيتم شرًّا عوضًا عن خير؟ أليس هذا هو الذي يشرب سيدي فيه، وهو يتفاءل به؟ أسأتم فيما صنعتم". (التكوين ٤٤: ٤، ٥)، وفي الكتاب المقدس في الشرق الأوسط: "فما أن خرجوا من المدينة، وابتعدوا قليلًا حتى قال يوسف لوكيل بيته: قم اتبع هؤلاء الرجال، فإذا لحقت بهم فقل لهم: لماذا كافأتم الخير بالشر؟ لماذا سرقتم كأس الفضة التي يشرب بها سيدي، وبها يرى أحوال الغيب؟ أسأتم فيما فعلتم".

وهنا نلاحظ تناقض التوراة بشأن الشيء المسروق، فتارة يكون "صواع الملك" وفي نُسَخٍ أخرى يكون "كأس الفضة"، ولا توجد إشارة إليه في بعض النسخ[1]، فما جاء في القرآن الكريم ـ إذن ـ هو الصواب، فهو المصوِّب لأخطاء السابقين بل إن القرآن يضيف حقائق لم تذكر عندهم، وهو الكتاب الخاتم الذي حفظه الله تعالى من التحريف، والتبديل، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر)[2].

الخلاصة:

- مكر إخوة يوسف عليه السلام به والتآمر عليه نية مسبقة تتفق مع الطبائع الإنسانية، وسياق الأحداث، وليس وليد اللحظة كما ذكرت التوراة، فالتآمر على قتله

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٩٠.

٢. للمزيد انظر: جولة نقدية في نصوص الرواية التوراتية، محمد صالح توفيق، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

www.kalemasawaa.com

والتخلص منه يتفق مع إحساسهم بأن يوسف عليه السلام يستأثر بحب أبيه، كما ينبع من حقدهم عليه وحسدهم له لجماله، وعلمه، وجلاله، فقد أراد كاتب التوراة أن يخفف من حدة فكرة القتل لدى إخوة يوسف عليه السلام، ولكن المعلومات التي تسردها التوراة فيما بعد تبين أن هناك اتفاقًا مسبقًا على طريقة القتل ونوع البئر المطلوبة، وليس وليد اللحظة التي رأوا فيها أخاهم مقبلًا عليهم فراودتهم فكرة التخلص منه، فهل يعقل أن يرسل لهم يعقوب عليه السلام ابنه مع علمه أنهم يحقدون عليه ويحسدونه لمكانته لدى أبيهم!

- التوراة المحرَّفة تتناقض فيما بينها في هذا الشأن، فنسخ التوراة الثلاث لا تتفق على القصة إطلاقًا، فأيهما نصدق: القرآن الكريم المحكم أم التوراة التي حُرِّفت؟!

الشبهة الثانية والثلاثون

ادِّعاء كتمان يوسف عليه السلام للحق بعدم إظهار حريته عند بيعه(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن يوسف عليه السلام لم يُظهر حريته عند بيعه، ويرون أن هذا كتمان للحق، وكتمان الحق معصية. ويتساءلون: كيف يصدر هذا من أحد الأنبياء مع ما قيل عن عصمتهم؟

وجه إبطال الشبهة:

يوسف عليه السلام لم يكن نبيًّا في ذلك الوقت، وسكوته عن إظهار حريته عندما بِيع كان خوفًا من أن يقتله إخوته، أو خوفًا من أن يتركه الواردون فيهلك في الصحراء، وربما يكون قد أخبرهم بحريته، ولكنهم لم يعيروه اهتمامًا طمعًا في ثمنه.

التفصيل:

لقد كان يوسف عليه السلام صبيًّا صغيرًا عندما بِيع، وهذا يعني أنه لم يكن نبيًّا في ذلك الوقت، وإنما نُبِّئَ بعد ذلك:

وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ (يوسف: ١٥)، أي على وقت آخر، أو على احتمال عود ضمير "إليه" على يعقوب عليه السلام.

وأما سكوت يوسف عليه السلام عن إظهار حريته فلعله خاف أن يقتله إخوته، وهذا إذا اعتبرنا أن إخوته هم الذين قاموا ببيعه بعد أن ألقوه في الجب واستخرجته السيارة ـ أي القافلة ـ وعلى هذا يكون الضمير "الواو" في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ (يوسف: ١٩) عائدًا على إخوته.

وقد نقل ابن كثير عن العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قول الله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ يعني إخوة يوسف عليه السلام أسرُّوا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف عليه السلام شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ أي يُباع، فباعه إخوته.

وقال النسفي: إن إخوة يوسف عليه السلام قالوا للرفقة:

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

www.kalemasawaa.com

هذا غلام لنا أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف عليه السلام مخافة أن يقتلوه[1].

وإذا اعتبرنا أن الضمير للواردين يكون المعنى: وأسرَّه الواردون من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه من أصحاب الماء حتى لا يشاركوهم فيه إذا علموا شأنه، أو لعلهم أسرّوا أمره ـ أي خبر التقاطه ـ خشية أن يكون من أولاد بعض الأحياء القريبة من الماء قد تردّى في الجب، فإذا علم أهله بخبره طلبوه وانتزعوه منهم؛ لأنهم توسَّموا[2] فيه مخائل[3] أبناء البيوت، وكان الشأن أن يعرِّفوا من كان قريبًا من ذلك الجب، ويعلنوا كما هو الشأن في التعريف باللُّقَطَة[4]. وعلى هذا لا يخلو أمر يوسف عليه السلام من إحدى اثنتين:

الأولى: أنه سكت عن إظهار حريته طمعًا في النجاة: إذ كان يوسف عليه السلام في صحراء مقفرة، فلو أخبرهم بحريته لتركوه في الصحراء، حيث لا يكون لأخذه فائدة، وربما عرضه ذلك للهلاك، أما الذهاب معهم ولو عبدًا يباع ويشتري ففيه نجاة له من أخطار الصحراء، ولذا آثر يوسف عليه السلام ألا يخبرهم بحريته.

الثانية: أنه ربما يكون قد أخبرهم بحريته، ولكنهم لم يعيروه اهتمامًا طمعًا في ثمنه، وهذا هو الذي حملهم على أن يبيعوه بثمن قليل، وأن يرغبوا عنه، قال ﷻ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (يوسف)[5]، ويؤكد هذا قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾، إذ يُشعر أن يوسف عليه السلام أخبرهم بقصته، فأعرضوا عن ذلك طمعًا في أن يبيعوه، وذلك من فقدان الدين بينهم أو لعدم العمل بالدين[6].

وربما يكون إظهار الحرية أمرًا مختلفًا باختلاف الشرائع، فلعله أُمر بالسكوت عنه، وعدم إظهاره امتحانًا له عليه السلام، وتحقيقًا لرؤياه التي بشرت بما سيكون له من شأن عظيم، وسيادة على قومه بما فيهم أهله. وعليه فلا ذنب ولا معصية على يوسف عليه السلام[7].

الخلاصة:

- كان يوسف عليه السلام وقت أن بيع صبيًّا صغيرًا، وعلى هذا فلا تكليف عليه، بالإضافة إلى أنه لم يكن قد نُبِّئ بعد.
- لم يُظهر يوسف عليه السلام حريته عند بيعه؛ لخوفه من أن يقتله إخوته ـ إذا كانوا هم من باعه ـ كما أنه كان في صحراء مقفرة وربما لو اعترف بحريته لتركه الواردون فيها فيتعرض للهلاك.
- من المحتمل أن يوسف عليه السلام قد أخبرهم بحريته، ولكنهم لم يَأْبَهوا[8] لكلامه، ولم يعيروه اهتمامًا طمعًا في ثمنه، ولهذا أسرُّوا خبر التقاطه؛ ومن ثم فلا يُعدّ يوسف عليه السلام كاتمًا للحق كما يدعي المتوهمون، لأنه

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٠٤، ٣٠٥ بتصرف يسير.
٢. توسَّموا: ظنوا.
٣. مَخائل: جمع مَخِيلة، وهي مظهر النعمة.
٤. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ٦، ج١٢، ص٢٤٢، ٢٤٣.
٥. عصمة الأنبياء والرد على الشبهات الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٧٤.
٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص٢٤٣.
٧. عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مرجع سابق، ص٧٤.
٨. يَأْبَهوا: يهتموا.

www.kalemasawaa.com

إن كان قد سكت فَلِعِلَّة، وإن كان قد تحدث بحقيقة أمره فقد تجاهله القوم.

الشبهة الثالثة والثلاثون

ادعاء وقوع السرقة من يوسف عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن يوسف عليه السلام قد سرق، ويستدلون على ذلك بقول إخوته: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾(يوسف: ٧٧) إذ أطلقوا لسانهم بهذا حينما دبر يوسف عليه السلام مع أخيه حيلة استبقائه بادعاء أنه سرق، فقالوا: إن كان سرق بنيامين فقد سرق أخوه يوسف عليه السلام من قبل، ويتساءلون: إذا كان يوسف لم يسرق فلماذا لم يكذِّب إخوته فيما ادَّعوه ويدفع عن نفسه هذه التهمة؟ وهم بذلك يشككون في عصمة يوسف عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) اتهام إخوة يوسف عليه السلام له بالسرقة لا أساس له من الصحة، وإنما كان بدافع الحسد والرغبة في الانتقاص من شأنه، وما رواه بعض المفسرين من سرقته صنم جده ـ أبي أمه ـ وكسره، إسرائيليات، وحتى لو افترضنا صحة هذه الأخبار فليس ذلك سرقة يمكن أن تَصِمَ[1] يوسف وتحط من شأنه.

٢) اتصف يوسف عليه السلام بالحلم والعفو؛ لهذا كتم غيظه واكتفى بتكذيب إخوته على سبيل التلميح لا التصريح؛ وقد كانت الحكمة تتطلب ألا يكاشفهم بحاله في هذا الوقت.

التفصيل:

أولا. ما وقع من يوسف الصديق عليه السلام لم يكن سرقة، ولكن إخوته عَدُّوها سرقة للانتقاص من شأنه كيدًا وحسدًا:

بداية نشير إلى أن بعض المفسرين قد تناقلوا روايات عدة عن أهل الكتاب في سرقة يوسف عليه السلام، وهي روايات لا سند لها، وعلى فرض صحتها فهي لا تحمل معنى السرقة الحقيقي، ومن هذه الروايات التي فندها د. محمد أبو النور الحديدي:

- رُوي عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أن عمته بنت إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام، وكانت إليها مِنْطَقة إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من أختانها من وَلِيها، كان له سَلَمًا لا ينازع فيه يصنع فيه ما شاء، وكان يعقوب عليه السلام حين وُلد له يوسف عليه السلام قد كان حضنته عمته، فكان معها واليُهَا، فلم يحب أحد شيئًا من الأشياء حبها إياه. حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات ووقعت نفس يعقوب عليه، أتاها، فقال: "يا أخية أسلمي إلى يوسف عليه السلام، فوالله ما أقدر أن يغيب عني ساعة" فقالت: فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندي أيامًا أنظر إليه، وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه أو كما قالت، فلما خرج عليه السلام من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه، ثم

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. تَصِمُ: تعيب.

www.kalemasawaa.com

قالت: فُقِدَت مِنْطَقة أبي ـ إسحاق ـ فانظروا من أخذها، ومن أصابها فالتمست، ثم قالت: اكشفوا أهل البيت، فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف عليه السلام، فقالت: والله إنه لَسَلَمٌ لي أصنع فيه ما شئت، وأتاها يعقوب عليه السلام فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ما أستطيع عند ذلك، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب عليه السلام حتى ماتت[1].

- وقال سعيد بن جبير عن قتادة رضي الله عنه: سرق يوسف عليه السلام صنمًا لجده ـ أبي أمه ـ من ذهب وفضة ـ كسره، ثم ألقاه في الطريق، فعيَّره بذلك إخوته[2].
- وقال مجاهد: إن سائلًا جاءه يومًا، فأخذ بيضة فناولها إياه.
- وقال سفيان بن عيينة: أخذ دجاجة وأعطاها السائل.
- وقال وهب: كان عليه السلام يخبئ الطعام من المائدة للفقراء، وقيل غير ذلك.

وعلي أي من هذه الأقوال فيوسف عليه السلام لم يسرق في الحقيقة، ولا شيء مما ذُكر يعود عليه بالذم والانتقاص[3]، هذا إذا افترضنا صحة هذه الأقوال التي نقلها المفسرون عن أهل الكتاب، أمَّا إذا افترضنا عدم صحتها فإن المتفق عليه أن يوسف عليه السلام ليس له سرقة من قبل، وإنما قال إخوته: "قد سرق أخ له من قبل" بهتانًا ونفيًا للمعرة عن أنفسهم، فإنهم لما بُهتوا[4] بوجود الصواع في رحْلِ أخيهم اعتَراهم[5] ما يعتري المبهوت، فاعتذروا بدعوى تنزههم عن السرقة، إذ قالوا ـ قبل ذلك: "وما كنا سارقين" عذرًا بأن أخاهم قد تسربت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم، فزعموا أن أخاه الذي أُشيع فقده كان سرق من قبل، وقد علم فتيان يوسف عليه السلام أن المتهم أخ من أم أخرى، فهذا اعتذار بتعريض بجانب أم أخويهم وهي زوجة أبيهم وهي راحيل ابنة لابان خال يعقوب عليه السلام[6].

وكأنهم بهذا أرادوا أن يقولوا: إنا لسنا على طريقة بنيامين هذا في السرقة، وإنما هو وأخوه يوسف المختصان بها؛ لأنهما من أم أخرى، وهذا الدافع لإخوة يوسف أن يقولوا ما قالوا لا يعفيهم من مسئولية التجنّي على يوسف ـ البريء ـ والافتراء عليه أخيرًا بعد أن كذَبوا أولا في قولهم لأبيهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ (يوسف)، وكذَبوا ثانيًا في أمر الدم الذي وضعوه على القميص: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (يوسف: ١٨)[7].

وعليه فما يدرينا أنهم كانوا صادقين في قولهم هذا، فربما يكونون قد كذَبوا في هذه المقالة أيضًا،

---

١. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٦/ ١٩٦،١٩٧) تفسير سورة يوسف، آية (٧٧)، برقم (١٩٦٠٥).

٢. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، تفسير سورة يوسف (١٢٦٦٦).

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢٩، ٣٣٠.

٤. بُهتُوا: دُهِشُوا وأُخِذُوا بالحُجَّة فتغيَّر لونهم.

٥. اعتَراهم: أصابهم.

٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٣، ص٣٤.

٧. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٣٠.

www.kalemasawaa.com

كما كذَبوا على أبيهم من قبل.

ثانيًا. الحكمة تقتضي عدم تصريح يوسف الصديق بتكذيب إخوته فيما نسبوه إليه من السرقة:

سبق أن بيَّنا أن يوسف عليه السلام لم يكن له سرقة من قبل كما زعم إخوته، وهنا يثار سؤال: إذا كان إخوة يوسف عليه السلام قد كذبوا في قولهم: "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" فلماذا لم يدافع يوسف عن نفسه وينفي هذه التهمة التي رماه بها إخوته؟ ولماذا لم يكاشفهم بحاله ويبين لهم زيف دعواهم؟

ونحن نجيب على هذا السؤال قائلين: ليس صحيحًا أن يوسف عليه السلام قد أقرَّ إخوته على اتهامهم له بالسرقة، بل إنه عليه السلام قد كذَّبهم في ادعائهم هذا، وقد جاء هذا التكذيب على سبيل التلميح والتعريض لا التصريح في قوله ﷻ: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾(يوسف). فهذا الكلام قابل للحمل على معنى: أنكم شر حالة من أخيكم هذا والذي قبله؛ لأنهما بريئان مما رميتموهما به، وأنتم جائرون عليهما إذ قذفتم أولهما في الجب، وأيدتم تهمة ثانيهما بالسرقة وهو بريء منها، ثم ذيّل كلامه بجملة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾وهو كلام جامع، أي: الله أعلم بصدقكم فيما وصفتم أو بكذبكم، والمراد: أنه يعلم كذبهم فيما ادّعوه.

أمَّا لماذا لَمَّح عليه السلام لإخوته بكذبهم ولم يصرِّح لهم، فذلك لحلمه عليه السلام وعظيم عفوه، وكظمه للغيظ، فلم يُظهر لإخوته غضبًا أو انتقامًا، أو حتى مجرد زجر عن قولهم، بل بالغ في كتم غيظه ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ (يوسف: ٧٧) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلم يشأ يوسف عليه السلام أن يكاشف إخوته بحاله، ويأمرهم بجلب أبيهم في ذلك الوقت: إما لأنه خشي إن هو تركهم إلى اختيارهم أن يكيدوا لبنيامين فيزعموا أنهم يرجعون جميعًا إلى أبيهم، فإذا انفردوا ببنيامين أهلكوه في الطريق، وإما لأنه قد كان بين القِبْط[1] وبين الكنعانيين في تلك المدة عداوة فخاف إن هو جلب عشيرته إلى مصر أن تتطرق إليه وإليهم ظنون السوء من ملك مصر، فتريث إلى أن يجد فرصة لذلك، وكان الملك قد أحسن إليه فلم يكن من الوفاء له أن يفعل ما يكرهه أو يسيء ظنه، فترقب وفاة الملك أو السعي في إرضائه بذلك، أو أراد أن يستعلم من أخيه في مدة الانفراد به أحوال أبيه وأهله لينظر كيف يأتي بهم أو ببعضهم في الوقت المناسب[2].

الخلاصة:

- ليس صحيحًا أن الصِّديق يوسف عليه السلام قد سرق من قبل كما زعم إخوته، بل كان قولهم هذا كذبًا وافتراءً عليه، دفعهم إليه الحسد ومحاولة الانتقاص من شأنه، أما ما نقله بعض المفسرين من أقوال عن بعض الإسرائيليات سواء كانت هذه الأقوال صحيحة أم ضعيفة ـ فهي لا تصح أن تكون دليلًا على سرقة يوسف عليه السلام.

---

١. القِبْط: كلمة يونانية الأصل؛ بمعنى: سكان مصر، ويقصد بها اليوم: المسيحيُّون من المصريين.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٣، ص٣٤: ٣٨ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

• اتصف يوسف عليه السلام بالحلم والأَناة[1] والحكمة، فلم يصرِّح بتكذيب إخوته، بل اكتفى بالتعريض بهم، وأسرَّ قولهم في نفسه، إذ رأى أن الحكمة في تأخير إخبارهم بكونه أخاهم ـ يوسف ـ الذي ألقوه في الجب قبل ذلك.

الشبهة الرابعة والثلاثون

ادِّعاء خطأ القرآن في اتهام يوسف عليه السلام بالهمِّ بالفاحشة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين اضطراب القرآن في ذكر قصة يوسف عليه السلام فتارة يثبت الهمَّ[2] بالفاحشة ليوسف عليه السلام كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ (يوسف: ٢٤)، وتارة يُقرُّ بعصمته وخوفه من الله باعتراف امرأة العزيز وصويحباتها كما في قوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ (يوسف)[3]. ويعتبرون أن إثبات القرآن الكريم الهمَّ بالفاحشة ليوسف عليه السلام متناقض مع ما جاء في الكتاب المقدس من تبرئته ليوسف عليه السلام، إذ إن امرأة العزيز لما طلبت إليه الشر استنكر طلبها، وقال: "كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟ وكان إذ كلَّمت يوسف يومًا فيومًا أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها. ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة: "اضطجع معي!". فترك ثوبه في يدها، وهرب وخرج إلى خارج". (التكوين ٣٩: ٩ ـ ١٢).

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن أخلاق يوسف عليه السلام وعصمته باعتباره نبيًّا، تتنافى مع الهمِّ بالخيانة، أو التفكير فيها، كما أن سياق الآيات التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ يؤكد استحالة وقوع نبي الله يوسف عليه السلام في هذه المعصية.

٢) للهم معانٍ عديدة في اللغة منها: خطور الشيء بالبال، وميل الطبع، والعزم على الفعل، وهذه المعاني العديدة للهم هي التي أدت إلى الفهم الخاطيء لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ في منظور هؤلاء المدعين.

٣) لقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام كل من له صلة بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز من: زوج وشاهد ونسوة المدينة؛ حتى امرأة العزيز نفسها، ومن قبل هؤلاء جميعًا المولى وكفى بالله شهيدًا.

٤) لا اضطراب في آيات القرآن الكريم، فلقد استعصم يوسف عليه السلام بالله من البداية إلى النهاية، وقد أنجاه الله من المعصية، أما ما جاء في الكتاب المقدس فهو يدين يوسف عليه السلام ولا يبرئُه.

---

١. الأناة: الحِلْم والوَقار.

(*) الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجموعة علماء، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣م. هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات. islameyat.com

٢. الهمُّ: قَصْد الجماع.

٣. حَصْحَص الحقُّ: ظهر.

www.kalemasawaa.com

التفصيل:

أولا. سياق الآيات التي جاء فيها قوله ﷻ: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يؤكد استحالة وقوع يوسف عليه السلام في المعصية:

في البداية نود أن نشير إلى أن أخلاق يوسف عليه السلام وعصمته باعتباره نبيًّا تتنافى تمامًا مع الهمِّ بالخيانة، أو مجرد التفكير فيها، ويؤكد هذا ثناء الله تبارك وتعالى على يوسف عليه السلام في كثير من آيات القرآن الكريم، وكذلك ثناء نبيه محمد ﷺ، فمن ثناء الله ﷻ على يوسف عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ (يوسف: ٦)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (يوسف)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف)، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تحدثت عن يوسف وعن كريم خلقه وحميد خصاله، هذا المدح من الله تعالى لنبيه لا يكون إلا عن استحقاق له، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يمدح إنسانًا عاصيًا بأعظم المدائح[1].

وكذلك أثنى رسول الله ﷺ على أخلاق يوسف وذلك في قوله: "عجبتُ لصبر أخي يوسف وكرمه، والله يغفر له، حيث أرسل ليستفتي في الرؤيا، ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج، وعجبتُ لصبره وكرمه والله يغفر له، أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعُذْره، ولو كنتُ أنا لبادرتُ الباب، ولولا الكلمة لما لبث في السجن"[2]. وسُئِل النبي ﷺ عن أكرم الناس، فقال في إحدى إجاباته: "يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله"[3].

كما أن التهمة التي وُجِّهت إلى يوسف عليه السلام وهي اتهامه بالتحرّش والهمّ بالوقوع بامرأة العزيز، كبيرة من أكبر الكبائر، والخيانة من أقبح الذنوب، ومقابلة الإحسان بالإساءة من المنكرات، فكيف يخون يوسف عليه السلام عزيز مصر الذي آواه في بيته، وشمله وأحاطه برعايته، منذ أن كان صغيرًا إلى أن شبَّ وكبر في بيته، وأكرمه أيما إكرام؟ وكيف يقابل إحسانه إليه بمثل هذه الفعلة التي يترَّفع[4] عنها غير الأنبياء؟ فكيف ـ في حكم العقلاء من البشر ـ يقع فيها أحد المصطفين الأخيار[5]؟!

أمَّا ما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ من الإشارة إلى همِّ يوسف عليه السلام فإنه لا يفيد أنه عزم على ارتكاب الفاحشة، وحتى نفهم عبارة "وهمَّ بها" على الوجه اللائق بما ذكره الله تعالى عن يوسف عليه السلام ينبغي أن نستعرض سياق الآيات السابقة لها حتى نتبين الخطوات التي دبرتها امرأة العزيز للإيقاع بيوسف عليه السلام

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبهات الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٣.

٢. صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٤٩)، باب العين: أحاديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١١٤٧٥).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ (البقرة:١٣٣) (٣١٩٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل يوسف عليه السلام (٦٣١١).

٤. يترفَّع: يتنزَّه.

٥. عصمة الأنبياء والرد على الشبهات الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٣ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

في الفحشاء، قال ﷻ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ (يوسف: ٢٣)، فهي إذن ثلاث خطوات:

الأولى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾. قال القرطبي: وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين، ويقول الطبري في تفسيره: وراودته امرأة العزيز ـ وهي التي كان يوسف في بيتها ـ عن نفسه أن يُواقعها[1].

الثانية: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾. يقول الطبري: وغلَّقت المرأة أبواب البيوت عليها، وعلى يوسف عليه السلام لما أرادت منه وراودته، بابًا بعد باب، وهذا يدل على إدراكها تمام الإدراك أنها مقبلة على فعل قبيح؛ ولذلك فهي حريصة على أن تخفي ما ستفعل.

الثالثة: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾. قال القرطبي: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾؛ أي: هَلُمَّ وأقبل وتعال، أي انتقلت من الاحتيال والمراوغة إلى الوضوح في الطلب. وفي مقابل خطوات امرأة العزيز هذه، ورغم تمكنها حينئذ إذ هي سيدته وهو في بيتها، وذكائها فيما فعلت، فإن يوسف عليه السلام قد قابلها برفضه التام لما تريده منه، وكان من وراء رفضه اعتبارات ثلاثة، كل واحد منها كفيل بأن يجعله لا يفكر مجرد تفكير في الاستجابة لها، فضلًا عن الهم بالفاحشة، فكيف بها مجتمعة؟! قال تعالى في رفض يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف).

فأول هذه الاعتبارات قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾. يقول الطبري في تفسيره: وقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ يقول جل ثناؤه: قال يوسف إذ دعته المرأة إلى نفسها وقالت له هلم إلي: أعتصم بالله من الذي تدعوني إليه وأستجير به منه.

وهو إلى جانب استجارته واستغاثته بالله تعالى يُذكِّر امرأة العزيز بالله تعالى، وأنه تعالى لم يأمر بهذا الفعل الفاحش، وهنا نذكر حديث رسول الله ﷺ في "السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله": "الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه"[2].

وثاني هذه الاعتبارات يتجلَّى في قوله عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾. قال الطبري: يقول: إن صاحبك وزوجك سيدي، أحسن منزلتي، أكرمني، وائتمنني، فلا أخونه.

وعن ابن إسحاق: قال: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أمنني على بيته وأهله، وقال ابن كثير: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير، أي أن بعلك أحسن مثواي، أي منزلي، وأحسن إلى فلا أقابله بالفاحشة في أهله.

---

١. يُواقعها: يجامعها.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٢٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (٢٤٢٧).

www.kalemasawaa.com

والاعتبار الثالث: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾، فقد تنبه يوسف عليه السلام لعواقب الخطيئة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قال الطبري: إنه لا يدرك البقاء، ولا ينجح من ظلم، ففعل ما ليس له فعله، وهذا الذي تدعوني إليه من الفجور ظلم وخيانة لسيدي الذي ائتمنني على منزله.

وكل هذه الاعتبارات تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك على عفة يوسف عليه السلام وعصمته من أن يهمَّ بالفاحشة، وهذا ما أكده القرآن الكريم في أكثر من موضع كما ذكرنا.

ثانيًا. تعدد تأويلات معنى "الهمّ" لدى المفسرين هو الذي أدى لهذا الفهم الخاطئ:

لتوضيح معنى الهم الذي نسبه القرآن الكريم لنبي الله يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ لا بد أن نوضح معنى الهم في اللغة، ثم بعد ذلك نحكم هل أثبت القرآن الهم بالفاحشة ليوسف عليه السلام أم لا؟

الهم في اللغة له معانٍ متعددة:

الأول: خطور الشيء بالبال قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ (آل عمران: ١٢٢)، فهاتان الطائفتان قد خطر الفشل ببالهما، ولو كان المراد هنا العزم لما كان اللهَّ وليًّا لهما؛ لأن العزم على المعصية معصية.

الثاني: ميل الطباع، قال الزمخشري، في معنى "وهم بها": مالت نفسه إلى المخالطة، ونازعت إليها.

الثالث: العزم على الفعل، يقال: همَّ بالشيء: إذا نواه وأراده وعزم عليه، قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ (المائدة: ١١) أي: أرادوا ذلك وعزموا عليه[1].

وقبل الحديث عن نوع الهمِّ الذي نُسب لنبي الله يوسف عليه السلام في القرآن الكريم نؤكد أن كثيرًا من العلماء قد اتفقوا على أن همَّ امرأة العزيز كان لفعل الفاحشة، وقد استعمل القرآن الكريم لامرأة العزيز وليوسف عليه السلام نفس الكلمة "همت به" و "همَّ بها"، ولكن يجدر بنا أن نشير إلى ضرورة اختلاف معنى الهم باختلاف من قيلت في حقه؛ وذلك لاختلاف هدف كل منهما وغايته، فيوسف عليه السلام يسرع نحو العفة والطهارة، وامرأة العزيز نحو الشهوة والإثم، وهو يهرب في حين أنها تلاحقه، ولو كان لدى يوسف عليه السلام أي ميل للإثم لما كانت هذه المطاردة؛ إذن كان هدف يوسف عليه السلام وغايته شيئًا آخر[2].

والسؤال الذي يفرض الآن نفسه: أي نوع من الهمِّ هَمَّ به يوسف عليه السلام؟

ونجيب على ذلك قائلين:

إذا كان معنى "الهم" الواقع من يوسف، هو الخاطر بالبال وحديث النفس: فلا يُعاب عليه يوسف عليه السلام ولا يُطعن به في حقه؛ لأنه لا صنع للعبد فيه، ولا يدخل تحت اختياره، ونقل النسفي في تفسيره عن أبي منصور قوله: وهمَّ بها همَّ خاطره، ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب، ولا مؤاخذة عليه.

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبهات الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٠٩.

٢. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص٦٨.

www.kalemasawaa.com

ويرى بعض العلماء أن الخاطر المعفو عنه هو الذي لم يستقر في النفس، وهم يوسف منه، ويدل على عدم المؤاخذة بالعقاب على حديث النفس ما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: "فمَن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة"[1]. فاتضح أن لا شبهة على عصمة يوسف عليه السلام في ذلك؛ لأن الأنبياء غير معصومين من حديث النفس، ولكنهم معصومون من طاعة النفس والانقياد لها.

أمَّا إذا كان الهمُّ بالمعنى الثاني وهو ميل الطبع: فلا يطعن به أيضًا في حق يوسف عليه السلام؛ لأنه غير اختياري، ثم هو قاوم اتباعه، وكف عن رغبته، ومن يكن بهذه المثابة لم يتوجه إليه ذم، بل يؤجر ويمدح عليه.

ومعنى "الهم" هذا هو ما قاله الإمام الرازي: من أنه "ميل الطبع، كالصائم في الصيف، يرى الماء البارد، فتحمله نفسه على الميل إليه، وطلب شربه، ولكن يمنعه دينه عنه، وكالمرأة الفائقة حسنًا وجمالًا، تتهيأ للشاب النامي القوي، فتقع بين الشهوة والعفة، وبين النفس والعقل، مجاذبة ومنازعة، فـ "الهم" هنا عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان جواذب الحكمة، وهذا لا يدل على حصول الذنب، بل كلما كانت هذه الحال أشد، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل"[2].

بيد أننا نتساءل: إذا كان همُّ يوسف عليه السلام من هذا النوع وهو الميل الطبعي، فهل وقع هذا الهم له أم لا؟

الثابت أنه لم يقع، ودليل ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ وتمَّ الكلام به: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ (يوسف: ٢٤) وجواب "لولا" ههنا مقدم، والتقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها.

كأنهم وجهوا معنى الكلام إلى أن يوسف عليه السلام لم يهم بها، وأن الله إنما أخبر أن يوسف عليه السلام لولا رؤيته برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهمَّ بها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ (النساء).

وقال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير، أي تقديم الجواب وتأخير الشرط، كأنه قال: ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها[3].

وقال القرطبي: والاختلاف أن همَّها كان لمعصية، وأما يوسف فهمَّ بها: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما همَّ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء، قال الله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦١٢٦)، وفي موضع أخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة (٣٥٥).

٢. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، ج٦، ص١٧٢.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ٦، ج١٢، ص٢٥٣.

www.kalemasawaa.com

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف)، ففي الكلام تقديم وتأخير، أي لولا أن رأى برهان ربه لهَمَّ بها.

والناظر لهذه الآيات الكريمات بما فيها من أحداث نظرة سطحية يقول: إن هناك مساواة في همٍّ كل من يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، فهي حدثتها نفسها بفعل الفحشاء، وهو حدثته نفسه كذلك، ولكن النص لم يقف عند هذه العبارة، فقد قال بالنسبة لامرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أي: حدثتها نفسها أنها تريده، وعندما تكلم القرآن عن يوسف قال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

أي أن المعنى: ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، "ولولا" حرف امتناع لوجود، وهذا هو الصحيح الذي نرجحه ونقول به؛ لاتفاقه مع عصمة الأنبياء.

وهنا يتساءل بعض المغرضين: إذا كان يوسف عليه السلام لم يهم بالفحشاء، فلماذا قال الله: إنه "همَّ بها"، ولم يقل: لقد همَّت به ولم يهم بها؟

والجواب عن ذلك أن الله تعالى لو قال: لقد همَّت به، ولم يهمَّ بها؛ لأوهم ذلك أن عدم استجابته نقص في رجولته أو لعدم رغبته في النساء، ولكن الله تعالى أراد أن يبين أنه لولا إيمان يوسف ورعاية ربه له لهمَّ بها، فعدم الهمِّ ليس راجعًا إلى عيب في يوسف عليه السلام، وإنما هو برهان ربه الذي أراه له.

فالله ﷻ يريد أن يثبت رجولة يوسف، وأنه لم يمتنع عنها؛ لأنه لا يقدر أو لأنه ضعيف، ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي أن الذي جعله لا يهم بها أن برهان ربه في داخله، أظهره الله له، ولذا لم يهمِّ بها[1].

ثم قال ﷻ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فما البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام فصرف عنه همه؟

إن البرهان الذي أراه الله ليوسف عليه السلام فصرف عنه همه، هو حجة الله الباهرة، الدالة على قبح الزنا، وسوء سبيله، والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين، وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنا بموجب ذلك البرهان النيِّر، على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون، وأوجب ما يجب أن يحذر منه، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه[2]. وعليه فلا ذنب ولا معصية من يوسف عليه السلام تتنافى مع عصمته.

وإذا كان الهم بالمعنى الثالث وهو العزم على الفعل: فهو كذلك لا يطعن في يوسف عليه السلام؛ لأن الفعل الذي عزم عليه هو: زجر امرأة العزيز عن الفاحشة، وقصده دفعها عن نفسه، وضربها إن لم تندفع؛ لأن الهم بهذا المعنى هو اللائق بالرسول المبعوث إلى قومه لهدايتهم إلى الخير، وكفهم عن الشر[3].

ومعنى الهم على هذا القول في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: وتاللهِ لقد همت المرأة بالبطش به

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص١٨٣.

٢. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص١٧٢، ١٧٣.

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبهة الموجهة، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٠، ٣١١.

www.kalemasawaa.com

لعصيانه أمرها، فهو في نظرها عبدها وهي سيدته، وقد أذلّت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه، فرأت أن هذا الاحتقار لا يطاق، ولا علاج لهذا الفاتن المتمرد إلا إذلاله بالانتقام، هذا ما ثار في نفس هذه المرأة المفتونه بطبيعة الحال، وشرعت في تنفيذه أو كادت، بأن همت بالبطش به في ثورة غضبها، وهو انتقام معهود من مثلها، وممن دونها في كل زمان ومكان، وقد كاد عليه السلام أن يرد حيالها ويدفعه بمثله، وهمه عليه السلام لدفع حيالها أمر مشروع لكن وُجِد مقتضاه مقترنًا بالمانع منه وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه، فكان الفرق بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاءً لغيظها من خيبتها وإهانته لها، فلما رأى أمارة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهم به، فكان موقفها موقف المُوائبة[1]، والاستعداد للمُضارَبة[2]، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم تر هي مثله، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذي تتم به حكمته تعالى فيما أعدّه له، فامتناعها عن تنفيذ ما همت به كان بسبب هروب يوسف عليه السلام واستباقه إلى الباب، وكان سبب امتناعه هو إرادته عليه السلام وما رآه من برهان ربه[3].

ويعلق د. الحديدي بقوله: الهمُّ بهذا المعنى هو الذي نميل إليه لأمرين:

الأول: أن اللين يُقدَّم عادة على العنف، وقد تقدم اللين في نصحها وتذكيرها بحق صاحب الفضل عليها، وسوء عاقبة هذا المُنكَر قائلًا: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف) فلما لم يُجْدِ معها كل هذا، وقصدت إليه تجذبه لنفسها، أو تلقي بنفسها عليه، لم يكن بد من دفعها بالعنف، وضربها إن لم تندفع.

الآخر: أنه قد جرت عادة الإنسان أيضًا أن يلجأ إلى الهرب إن وجد العنف لا يجدي، ويوسف عليه السلام لما رأى برهان ربه، تحقق أن استخدام العنف ليس في صالحه ـ كما سبق أن قلنا ـ وأنه سيجعله مدينًا، فلجأ إلى الهرب: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ (يوسف: ٢٥). **وهذا أرجح الأقوال وأصحها في "همَّ" يوسف عليه السلام**[4].

وخلاصة هذه الحقائق التي ذكرناها أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ لا يقدح في عصمة يوسف عليه السلام كما يدعي هؤلاء المتوهمون.

ثالثًا. شهادة كل من له تعلق بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز تنفي عنه خطأه وتثبت له البراءة:

لقد شهد ببراءة الصديق يوسف عليه السلام كل من له علاقة بقصته مع امرأة العزيز؛ فقد نقل الفخر الرازي عن القاضي أبي طاهر الطوسي قوله: شهد ببراءة يوسف عليه السلام براءة الذئب من دمه كل من له تعلق بتلك الواقعة من: زوج وحاكم ونسوة وملك، وقد أعلن يوسف ذلك، واعترف له خصمه بصدق ما قاله مرتين، وشهد بذلك رب العالمين الذي هو أصدق

---

١. المُوائبَة: أن يَثِب أحدهما على الآخر.

٢. المُضارَبَة: أن يضرب أحدهما الآخر.

٣. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١٢، ص٢٧٧: ٢٨٠ بتصرف.

٤. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٣.

www.kalemasawaa.com

القائلين[1] وتفصيل ذلك:

١. إعلان يوسف عليه السلام لبراءته في تحدٍّ وصمود:

وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ (يوسف: ٢٦)، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣)، فقد أعلن يوسف عليه السلام براءته مما نسب إليه، مرة عندما وجد العزيز أمام الباب، وأخرى عندما استعان بربه بعدما رأته النسوة وتوعدت له امرأة العزيز، وصِدْقه في هذين الادعاءين يؤكده كل من حوله.

٢. شهادة الحاكم:

فبعد ادعاء يوسف: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ شهد شاهد من أهل امرأة العزيز، بما يؤيد كلام يوسف قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (يوسف).

ومن حكمة الله تعالى أنه جعل ذلك الشاهد من أهل امرأة العزيز حتى لا يُقال: إنه منحاز له؛ ولأن هذا الشاهد من أهلها فقد بدأ أولًا بما في صالحها، وهو حالة أن يكون قميصه قد تمزق من الأمام، هذا التمزق الذي يكون نتيجة دفاعها عن نفسها وإقباله عليها، ثم ذكر الاحتمال الثاني، وهو أن يكون قميصه قد تمزق من الخلف، هذا التمزق يعني أنها هي التي راودته عن نفسه وجذبته إليها عندما حاول الهروب منها.

وعلى هذين الاحتمالين اللذين ساقهما الشاهد ثبتت براءة يوسف عليه السلام، وأدينت امرأة العزيز.

٣. شهادة الزوج:

بعد الاحتمالين اللذين أوردهما الشاهد، وبعد معاينة الحال الذي أمامهم، ثبتت براءة يوسف وإدانة امرأة العزيز من العزيز نفسه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (يوسف). وبعد أن تيقن العزيز من براءة يوسف عليه السلام، طلب منه أن يُعرض عن الحديث في هذا الأمر وذلك حفاظًا على سمعته، قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (يوسف).

٤. شهادة النسوة:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ (يوسف: ٥١) فعندما طلب الملك لقاء يوسف عليه السلام رفض أن يخرج من السجن إلا إذا برئت ساحته، براءة يعرفها كل أهل المدينة، وذلك بسؤال النسوة عن مراودتهن له عليه السلام، وعندما سأل الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن عن مراودتهن له، شهدوا له بالبراءة والعفة، بل شهدوا بتنزيهه عن أن يفعل ذلك: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾.

٥. اعتراف الخصم:

وقد أقرت امرأة العزيز ببراءة يوسف عليه السلام في موقفين: الأول: عندما هيأت لبعض نساء المدينة مجلسًا وآتت كلا واحدةٍ منهن سكينًا، وأدخلت عليهن يوسف عليه السلام، ولما دُهش النسوة لجمال يوسف، وشهدن بذلك اعترفت امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه، وأنه كان مستعصمًا متمنعًا عنها، قال تعالى:

١. المرجع السابق، ص٣١٤.

www.kalemasawaa.com

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢).

والموقف الثاني عندما سأل الملك النسوة عن مراودتهن ليوسف عليه السلام شهد النسوة ببراءته، واعترفت امرأة العزيز بحقيقة الأمر، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ (يوسف)، فشهد الملك بأمانته وجعله في منزلة عالية.

٦. شهادة رب العالمين وكفى بالله شهيدًا:

والله عز وجل أعظم وأصدق من شهد ليوسف عليه السلام بالعفة والبراءة مما نسب إليه، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف)، فشهد الله تعالى بأنه صرف عنه السوء والفحشاء، وأنه من عباده الذين أخلصهم - أي الله - لعبادته وطاعته، فلا يقع منهم مكروه ولا يميلون إلى سوء.

فأية شبهة تبقى مع هذه الشهادات في براءة الصديق يوسف عن الذنوب؟! قال القاضي: وهؤلاء الطاعنون في يوسف إن كانوا من حزب الله فليقبلوا قوله، وإن كانوا من حزب الشيطان فيجب ألَّا يتركوا قوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص)[1].

وبناءً على هذه الأدلة تَثْبُت براءة يوسف عليه السلام من كل ما رُمي به من الهم بالفاحشة، وقد ذكر القرآن كل هذه الشهادات، مما ينفي تمامًا أن يكون القرآن قد طعن في عصمة يوسف عليه السلام ®.

رابعًا. القرآن يثبت الهَمَّ ليوسف، ويثبت براءته ولا اضطراب في ذلك:

وأما ما ادعاه بعضهم من وجود تعارض بين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾، وقوله تعالى، على لسان امرأة العزيز وصويحباتها: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ (يوسف) فلا أساس لهذا التعارض من الصحة؛ وذلك بناء على ما سبق بيانه من معنى الهمِّ، واختلافه لدى كل من يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، وبيان موقف كل منهما من الآخر، يثبت عدم تعارض القرآن الكريم، بين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ وقوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ (يوسف)؛ بل إن الآيتان الكريمتان تؤيد كل منهما الأخرى، وتثبت عصمة نبي الله يوسف عليه السلام وبراءته مما نسب إليه.

هل صحيح أن الكتاب المقدس لا يدين يوسف ويبرئه؟

جاء في الكتاب المقدس: "إنها لما طلبت إليه الشر استنكر طلبها، وقال: كيف أصنع هذا الشر العظيم، وأخطئ إلى الله؟وكان إذ كلمت يوسف يومًا فيومًا أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها. ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن

---

١. المرجع السابق، ص٨٥، ٨٦ بتصرف.

® في "براءة يوسف من الفحشاء" طالع أيضًا: الشبهة السادسة والثلاثين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة: "اضطجع معي!". فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج". (التكوين٣٩: ٩ ـ ١٢).

وقد استدل بعض المدَّعين بهذا الجزء من الكتاب المقدس على خطأ القرآن فيما أورده بشأن يوسف عليه السلام إذ يقولون: إن القرآن أثبت الهم ليوسف عليه السلام في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بينما نفى ذلك الكتاب المقدس.

وقد بينا معنى الهم المراد في الآية، وأما حديث الكتاب المقدس عن تبرئة يوسف عليه السلام فما هو إلا إدانة له، حيث يذكرون أنه ترك ثوبه مع امرأة العزيز وخرج، وهذا ـ منطقيًّا ـ أمر ينال من قدرات يوسف العقلية.

فكيف يخرج عاريًا ويترك ثوبه في يدها ليثبت الجريمة على نفسه، وهو الذي حاول التخلص منها بكل وسيلة؟! وعليه فلا تناقض في القرآن، وهو أكبر شاهد على براءة يوسف وعفته وطهارته عليه السلام، ولا عبرة لشطحات الكتاب المقدس.

الخلاصة:

- أخلاق يوسف عليه السلام وعصمته باعتباره نبيًّا تتنافى مع ما نسب إليه من اتهامه بالهم بالفحشاء، ويشهد لهذا القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، كما أن ما وجه إليه من اتهام بالفحشاء يَنْأَى عنه[1] كل عاقل من غير الأنبياء، فكيف به في حق الأنبياء؟!
- لما وقعت من امرأة العزيز المراودة، ودعته إلى نفسها؛ أجابها بقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ (يوسف: ٢٣) فكيف يهمُّ بموافقتها مع قوله هذا؟!
- إن الله عز وجل شهد ليوسف عليه السلام بمقام المخلصين، فقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾، وهذا المقام عصم الله أصحابه من سيطرة الهوى واتباع الشيطان، فقد قال الله لإبليس اللعين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: ٤٢)، وجاء على لسان إبليس اعترافه بعجزه عن إغوائهم قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص) فهل ينسجم هذا المقام مع الهمِّ بفعل الحرام؟
- لقد قال الله عن يوسف عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ وهذا يعني أن الهمَّ بالمعصية لم يقع منه، فلو وقع منه ذلك لما قال الله: كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء.
- أعلنت امرأة العزيز براءة يوسف عليه السلام من الهمِّ والمعصية، وأنه لم يجبها إلى طلبها إذ قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢) وشهدت بعفته وصدقه عليه السلام إذ قالت: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾، وكذلك فإن النسوة قد شهدن بعفته وطهارته إذ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.
- أظهرت نتائج التحقيق براءته من الهمِّ بالسوء، إذ إن امرأة العزيز لما وجهت له اتهامها بإرادة السوء، طلب العزيز فتح محضر للتحقيق، وعين العزيز شاهدًا من أهلها ليحقق في الادعاء.

المدعي: امرأة العزيز، تدعي أن يوسف عليه السلام أراد بها سوءًا!

المدعي عليه: يوسف عليه السلام، ينفي التهمة عن نفسه

١. يَنْأَى عنه: يبعد عنه.

www.kalemasawaa.com

ويقول: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ (يوسف: ٢٦)، المحقق: كشف ملابسات القضية بقوله كما جاء القرآن: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (يوسف).

وقد تبين بعد فحص القميص أن المذنبة المدانة هي امرأة العزيز، وبالتالي ظهرت براءة نبي الله يوسف عليه السلام من الهم بالسوء والفحشاء: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (يوسف) وطلب العزيز من يوسف عليه السلام أن يكتم الحدث احترامًا لهيبة القصر: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ (يوسف: ٢٩)، وطلب من امرأة العزيز أن تتبرأ من خطيئتها، وتستغفر لذنبها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ (يوسف).

الشبهة الخامسة والثلاثون

إنكار وليمة امرأة العزيز الواردة في قصة يوسف عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن قصة الوليمة التي أعدتها امرأة العزيز لسيدات المدينة الواردة في قصة نبي الله يوسف عليه السلام غير معقولة، ويعلِّقون على قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (يوسف) قائلين: إن هذا نسج من الخيال. ويتساءلون مستنكرين: هل من المعقول أن تعد امرأة العزيز وليمة لتفضح نفسها أمام سيدات المدينة؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) وليمة امرأة العزيز للنسوة تمثل حلقة في تسلسل منطقي لسياق الأحداث في قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز؛ إذ إنها مكرت بهن لما أنكرن عليها فتنتها وشغفها بيوسف عليه السلام، كما أن الخبر قد شاع في المدينة، فلم يعد هناك ما تخشاه بعد شيوعه، فاستدعى ذلك أن توقعهم في نفس الفتنة بجمال يوسف عليه السلام.

٢) عدم ذكر التوراة لهذا المشهد من القصة وغيره ليس دليلًا على إنكاره؛ بل دليل على أن القرآن وحي من الله إلى رسوله ﷺ، وأنه لم يؤخذ من مصادر بشرية، وهو الكتاب الخاتم المعصوم الذي ذكر الحقائق؛ ولم يترك شيئًا ذا بال تؤخذ منه الحكمة إلا ذكره.

٣) تزييف الحقائق شأن كُتَّاب التوراة دائمًا، فقد كتبوا ما يتفق مع أهوائهم وميولهم، فلا يذكرون أية فضيلة لأنبياء الله ـ عليهم السلام ـ، ولا لغيرهم؛ حتى يجدوا مسوغًا لفسادهم في الأرض، وطغيانهم على العالمين.

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.

www.islameyat.com

www.kalemasawaa.com

التفصيل:

أولا. مكر النسوة بامرأة العزيز ومكرها بهن يتسق منطقيًا مع بقية الأحداث في قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز:

أما الزعم أن امرأة العزيز تفضح نفسها بهذا التصرف فمردود بأنها فعلت هذا بعد أن شاع الأمر في المدينة، وجرى على ألسنة النسوة؛ فهي تريد أن تثبت لهنَّ ـ وهنَّ من بنات جنسها ـ أن جماله لا يقاوم؛ فيعذرنها في هواها ويكففن عن لومها والتشهير بها.

إذن فأحداث هذا المشهد وقعت في إطار من التسلسل المنطقي لسياق الموقف، وهو ما أخفاه كاتب التوراة؛ لأسباب سنذكرها فيما بعد.

عرض أحداث المشهد:

إذا كان يوسف عليه السلام يستطيع أن يكتم هذا الأمر عن الناس جميعًا، ويسره في نفسه ـ على مَضَض ـ[1] فهل تستطيع تلك المفتونة بحبه أن تكتم ذلك فلا تحدث به المقرّبات إليها من بنات جنسها على ما عرف من النساء من الثرثرة، وكثرة التناجي فيما بينهن؟! كما لا ننسى أن واقعة مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام شاعت بين ساكني القصر من خدم وحرّاس، ومعلوم أن الخدم والحراس يعلمون أسرار البيوت وينشرونها في الناس.

وبذلك شاع الخبر في المدينة، وتناقلته النسوة فيما بينهن حتى وصل حديثهن إلى صاحبة الشأن؛ فأرسلت إليهن ومكرت بهنَّ كما أردن المكر بها، فكان من أمرها وأمرهن ما حكاه القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (يوسف).

فالنسوة حين سمعن الخبر لم يطقن صبرًا على عدم رؤية هذا الغلام الذي جمع أروع آيات الجمال، فوصفن امرأة العزيز، بما كان ينبغي أن يصفن به أنفسهن، فهن اللاتي قد شغفن به حبًّا، دون أن يَرَيْنَه ـ والأذن تعشق قبل العين أحيانًا ـ فأردن أن ينلن منه ما يطمع النساء فيه من الرجال، فَسَخَّرنَ من ينقل إلى امرأة العزيز هذه المقولة؛ لعلها تسمح لهن برؤيته ليعذرنها فيه وهذا من مكرهن، فبادلتهن امرأة العزيز مكرًا بمكر، فكانت أعظم كيدًا، فأعتدت لهن متكأً[2] حافلًا بالفواكه والأطعمة الشهية، وآتت كل واحدة منهن سكينًا حادة، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن فلما رأينه أعظمنه، وهممن بالوقوف له، وجرحن أيديهن جروحًا بالغة عبَّر عنها القرآن بالتقطيع، وذلك حين أصابهن الذهول، وملأت شِغَاف قلوبهن مهابته، وروعته، وجماله، فأيقنَّ أنهنَّ أمام ملك كريم، وليس أمام واحد من البشر.

ونجحت امرأة العزيز في خطتها، وشفت منهن غيظ قلبها، فقالت لهن ـ والدماء تنزف من أيديهن ـ: فذلكن الذي لمتنني فيه، فأنتن من أول نظرة قد وقع

١. المَضَض: الكَراهة والتألُّم.

٢. أَعْتَدَت لهنَّ مُتَّكَئًا: أعدت مجلسًا مريحًا فيه كراسي للاتكاء.

www.kalemasawaa.com

لكنَّ من أمره ما وقع، فكيف بي وهو يلازمني في بيتي، ويدنو مني وأدنو منه، وأدعوه إلى فيأبى عليَّ، ولكني سوف أنال منه ما أريد، أو يكون مصيره السجن في ذلة، وصَغار.

لقد اعترفت لهن بإدانتها، واعترفت ببراءته من السوء والفحشاء، واستعصامه بربه منها ومن شرها، لكنه اعتراف لا يدينها، إذ إنهن لا يملكن من الأمر شيئًا، وليس لهنَّ سلطان عليها، ومن الهيِّن اليسير أن تعترف المرأة للمرأة بما تخفيه عن الرجل، ولو كان من المقربين إليها.

ولعلها أرادت أن تغيظهن، وتظهر لهن عدم الاكتراث بمكرهن وتشنيعهن عليها هنا وهناك، وأنها السيدة المطاعة التي إذا قالت فعلت، وإذا أرادت شيئًا فلا مرد له.

وهكذا تستبد المرأة بالأمر الذي تظن أنها قادرة عليه تبعًا لشهواتها الجامحة وأهوائها المنحرفة، ولا سيما إذا كانت تحت رجل يعد من عظماء القوم وسادتهم.

ونلاحظ أن هذه المرأة لم يؤتها الله شيئًا من الحكمة، ولم يكن لها من العقل ما تعرف به أقدار الرجال، وما تدرك به عواقب الأمور، ولو كان لديها شيء من الفهم لعرفت من أول نظرة من هو يوسف عليه السلام، ولعرفت أنه الرجل الذي اجتمعت فيه كل خصال الخير، وكل أوصاف الكمال البشري، وأنه بطبعه مصون من كل رذيلة، معصوم بفطرته من كل شر.

إن النسوة اللاتي مَكَرَتْ بهن كنّ أعقل وأقدر على فهم طبائع الرجال منها، فقد أصدرن حكمهن عليه من أول نظرة، فقلن ما قد حكى القرآن عنهن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (يوسف)[1].

ثانيًا. عدم ذكر التوراة لهذا المشهد من القصة وغيره ليس دليلا على إنكاره:

إن ذكر القرآن بعض التفاصيل التي لم ترد في الكتاب المقدس يُعدُّ أكبر دليلٍ على أن القرآن وحي من الله إلى رسوله، وأنه لم يؤخذ عن مصادر بشرية، بل هو الكتاب الخاتم الذي صَوَّب، وأضاف، فالتوراة لم تغفل فقط قصة وليمة امرأة العزيز للنسوة، بل أغفلت أيضًا مسألة استباقهما[2] إلى الباب أثناء مراودتها له ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴿٢٥﴾﴾ (يوسف)، كما أغفلت مسألة الشاهد من أهل المرأة الذي فصل في القضية، وحكم ليوسف عليه السلام بالبراءة. وأغفلت أيضًا البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام من ربه؛ وبذلك ينفون عصمته عن الزلل، وامتناعه عن الرذيلة، وتمسكه بالفضيلة، والأمانة، وحفظ أعراض الغير.

أما ما ذكرته التوراة في هذا الشأن فهو ـ فقط ـ غواية المرأة ليوسف عليه السلام: "ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة: "اضطجع معي!". فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج". (التكوين: ٣٩: ١١، ١٢).

وهذا كلام يفتقد لعددٍ من التفاصيل الدقيقة التي وردت في القرآن الكريم، والتي تعد عناصر رئيسة في صلب القصة كغلقها للأبواب، التي تعبر عن

---

١. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص١١٢، ١١٣.

٢. استباقهما: كل منهما سابق الآخر.

www.kalemasawaa.com

استعدادها النفسي، واتخاذ الخطوات التي تؤدي إلى إنجاح وتحقيق هدفها، وبالتالي تضييق دائرة الصراع على يوسف، ولن تجد أيضًا ذكرًا للبرهان الذي أتى إلى يوسف عليه السلام من ربه؛ ليخلِّصه من هذا الكيد بعد أن اكتَنَفَه[1] ظلام الفتنة؛ ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف).

إن كل ما تحكيه التوراة قصة مراودة فقط، بل الأعجب من ذلك ما تحكيه التوراة أن يوسف عليه السلام ترك قميصه معها وهرب عاريًا! ألا يعد ذلك انتقاصًا لقدراته العقلية؟! إذ كيف يخرج عاريًا ويثبت الجريمة على نفسه، وكأنه المهاجِم، والمرأة هي المدافعة، إن القرآن الكريم يصف هذا المشهد من القصة وصفًا دقيقًا محكمًا حين يقرر أن يوسف عليه السلام امتنع عنها لما رأى برهان ربه، وقام مبادرًا إلى باب البيت هاربًا مما أرادته، فاتبعته المرأة فتعلقت بقميصه، وذلك هو قول الله تعالى في كتابه: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴿٢٥﴾﴾ (يوسف)، أدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه فجذبته إليها لتمنعه من الخروج، فهو يريد فتح مَغْلَق الباب، وهي تريد أن تحول بينه وبين ما يريده؛ وهو الإفلات من يدها دون قضاء حاجتها، وهنا شقت قميصه من الخلف؛ لأن يوسف عليه السلام كان الهارب والمرأة الطالبة[2].

كما حكى القرآن تتمة المشهد قائلًا: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ ﴿٢٥﴾﴾ (يوسف)[3].

يمكنك الآن رؤية المشهد كاملًا بكل تفاصيله وأبعاده بعد أن نقله القرآن الكريم بكل دقة فتجده كالآتي:

- امرأة العزيز تراود يوسف عليه السلام بعد أن غلقت الأبواب وتأكدت من عدم وجود أحد بالمكان.
- يوسف عليه السلام يرى برهان ربه، فيأبى ويمتنع، ويعظها ويذكرها بالله.
- امرأة العزيز لا تتعظ وتصرُّ على مراودته، فيهرب يوسف عليه السلام متجهًا إلى الباب.
- تتبعه امرأة العزيز وتجذبه من قميصه؛ لتمنعه من الفرار؛ فيتمزق قميصه من الخلف.
- يتابع يوسف عليه السلام فراره منها، وهي في أثره فينفتح الباب؛ ليجدا العزيز أمامها.

ومن ثم يأتي السرد القرآني المحكم؛ الذي يُسلِّم أي مبدعٍ وقاصّ وناقدٍ ببراعته، وقوة حَبكته ودقة تفاصيله، كما أن كل شيء أتى به القرآن في القصة لم يأت به عبثًا؛ بل أتى به لحكمة تستطيع أن تستخرجها بوضوح بعد إتمامك للسرد القرآني للقصة الكاملة؛ التي كانت ترجمة لحدث حقيقي حدث على أرض الواقع، تشهد بذلك التوراة، التي لم تذكر أحداث القصة بهذه الدقة، كما افتقرت إلى كثير من الأحداث والتفاصيل الدقيقة التي نص عليها القرآن، وكأن الله يريد أن يقول لليهود الذين يدّعون المعرفة الشاملة والدقيقة بتفاصيل حياة الأنبياء: آن لكم أن تتعلموا، وأن تعلموا أن ما تعلمونه قليل، وأن التوراة قليل في علم الله، بل كنقطة من بحر لا ساحل له؛ لذا كان القرآن الكريم مهيمنًا على ما سبقه من كتب بحول الله وقوته وعلمه وإرادته.

---

١. اكتَنَفَه: أحاط به.

٢. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٣٥ بتصرف.

٣. أَلْفَيَا: وَجَدَا.

www.kalemasawaa.com

ولا يفوتنا أن نذكر أن التوراة ـ كما أهملت ذكر تغليق الأبواب، ووعظ يوسف عليه السلام لامرأة العزيز وتذكيرها بالله، وإصرارها على مراودته بعد ذلك، وهروبه من أمامها، واستبقاهما للباب، وقدها قميصه من الخلف، ودخول العزيز ـ قد أهملت قصة الشاهد الذي حكم ببراءة يوسف، وهو من أهلها امرأة العزيز.

إذن فهي الطالبة، وهو المدافع، وهذا هو مبلغ الحكمة في الأسلوب القرآني.

إن مسألة البرهان: أي عصمة سيدنا يوسف عليه السلام، وصرف السوء والفحشاء عنه ـ على أصح الأقوال ـ لم تذكرها التوراة، بل ركزت على ضغط المرأة اللَّعوب[1] على يوسف عليه السلام، ولم توضح موقف يوسف عليه السلام من تهمة زوجة العزيز له، في حين ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى قد عصم نبيَّه يوسف عليه السلام، فصرف عنه السوء والفحشاء، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف).

ويفهم من سياق الآية الكريمة أن السوء والفحشاء عدوَّان يهاجمان يوسف عليه السلام فصرفهما الله عنه، ولو مال يوسف عليه السلام للمرأة ـ كما توهم البعض ـ لما قال الله علا وجل شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ (يوسف)، وكانت المكافأة من الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف)، أي المجتبين المطهرين الأخيار، ودلائل براءة يوسف قد شهد الله له بها ـ وهي كثيرة ـ وفصل فيها القول.

أيضًا أغفلت التوراة المحرفة دعوة يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن إلى التوحيد الخالص، وترك الشرك والوثنية، فلم يعرف اليهود يومًا إلهًا واحدًا معبودًا بحق، بل تجدهم على مرِّ العصور يحاربون الله ورسله، ويقتلون الأنبياء، ويصادرون أمن الآمنين.

إذن فهدفهم من ذلك إبعاد مسألة الدعوة عن عقيدتهم، إذ لو دعا بها نبي من أنبياء بني إسرائيل "كسيدنا يوسف عليه السلام" لوجب اتباعها، ولكانت شاهدًا على كفرهم وفسادهم في الأرض، وهذا ما لا يريدونه.

إضافة إلى إغفالهم أن يوسف عليه السلام فسر رؤيا الملك قبل خروجه من السجن، لينفوا بذلك فضيلة الإحسان إلى من أساء، فقد سُجن ظلمًا، ورغم ذلك لم يُساومهم[2] على تفسير الرؤية بخروجه من السجن، فليس هذا من أخلاق الأنبياء الذين أدبهم ربهم فأحسن تأديبهم، فما يريده اليهود هو: الإساءة لمن أساء ولمن أحسن أيضًا، هذا هو دينهم وديدنهم في كل العصور: العبث، والفساد في الأرض.

نعود إلى حديث القرآن عن قصة النسوة مع امرأة العزيز، والسؤال الآن هو: لماذا أغفلت التوراة قصة الوليمة؟! والإجابة عن هذا السؤال من وجهين:

١. لقد تفرد القرآن الكريم بالحديث عن شيوع خبر المرأة مع يوسف عليه السلام في المدينة وتحدث النسوة به، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴿٣٠﴾﴾ (يوسف) فكما تحكي الآيات أن امرأة العزيز دعت النسوة اللاتي تهكّمن عليها، واستنكرن فعلها؛ لأنها عشقت فتاها،

١. المرأة اللَّعوب: الرشيقة الحركات الحسنة الدلال.

٢. يساومهم: يطلب ثمنًا منهم.

www.kalemasawaa.com

فأعدت لهن مائدة، وحرصت على أن يكون السكين في أيديهن، وهي تدرك مدى تأثير يوسف عليه السلام عليهن، وحدث ما توقعت فقد ركَّزن الأبصار والعقول على جمال يوسف عليه السلام، وفي ذهول قطَّعت السكاكين أيديهن دون أن يشعرن بألم نتيجة انشغالهن بتأمل محاسنه، وجماله المشهود له ـ فقد أوتي نصف الحسن ـ إلى درجة أن فقدن صوابهن؛ فقطعن أيديهنَّ دون شعورهن بآلام القطع في أيديهن. فهذا أمر معتاد وأصبح الآن تحت الدراسة، ولا يوجد من لا يعرف تأثير المنوِّم المغناطيسي على المنوم، وفي معارفنا أن هناك من يغيب عن إحساسه بمن حوله لمجرد التركيز في مسألة أو موضوع ما. فماذا لو كان وجهًا وضيئًا أخَّاذًا كوجه يوسف عليه السلام الذي أعطاه الله نصف الحسن، لقد عقَّب النسوة في ذهول على أثر رؤيتهن له قائلاتٍ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (يوسف).

نقول: إن هذه القصة التي أثبتها القرآن أغفلتها التوراة، مع أن تسلسل الأحداث لا يتم إلا بها، ولكن كُتَّاب التوراة ابتعدوا عن قصة هؤلاء النسوة؛ لأنها تثبت للمؤرخين حضارة مصر العظيمة، وتوضح أن أهلها عرفوا وسائل المدنية من قديم الزمان، ومنها آداب المائدة، وأدوات الطعام، ومنها السكين، والأثاث المريح، وهذا ما أثبته المستشرق هنري برستد حين قال: "إن التقدم السياسي والاجتماعي وتطور الحضارة البشرية على وجه عام كان ظهورها كلها في وادي النيل متقدمًا بعدة قرون على أمثاله في غربي آسيا، الحقيقة أن الحضارة في بابل أتت متأخرة في تطورها الديني، والاجتماعي، والسياسي عن حضارة مصر، بما لا يقل عن ألف سنة "[1].

٢. أغفلت التوراة ـ عمدًا ـ هذه القصة؛ لأنهم بإثبات العصمة والفضيلة ليوسف عليه السلام يُحرِّمون نساء الغير عليهم، وهم يريدون أن يعثوا في الأرض فسادًا، فالمعروف أن دعوة موسى عليه السلام كان فيها الدعوة إلى الصفات الحميدة والأخلاق النبيلة من: عدم احتقار الغير، وعدم التعدي على أمواله وحرماته، وفي زمان سبي بابل حرّف اليهود التوراة، وامتنعوا عن دعوة الأمم إلى معرفة الله، وأباحوا لأنفسهم أخذ الربا من الأمميين، والزنا بنسائهم، وسفك دمائهم، وغيرها من ذميم الصفات، وكتبوا ما يدل على ذلك في التوراة، وحذفوا من التوراة ـ حال تحريفهم لها ـ ما يمنعهم عن ظلم الأمميين. ومما حذفوه قول النسوة ليوسف عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (يوسف)، فشهادة النسوة ليوسف عليه السلام بهذا الخلق الحميد يتعارض مع أهوائهم، وما اتفقوا عليه من العبث بنسائهم ونساء غيرهم.

ثالثًا. تزييف الحقائق شأن كُتَّاب التوراة دائمًا، فلا يذكرون أية فضيلة لأنبياء الله ولا لغيرهم؛ حتى يجدوا مبررًا لفسادهم وطغيانهم في الأرض:

درج اليهود على تزييف الحقائق بما يتفق مع ميلهم للفساد كما يثبت التاريخ، وحذف ما ينسب الفضلَ لغيرهم، لذا فالتوراة عبثت بها أيدي البشر وحرفت الكثير من نصوصها، إن لم نقل معظمها؛ وبالتالي فنحن لا نصدق كل ما جاء بها، فما عرضناه منها على القرآن

١. فجر الضمير، جيمس برستيد، ترجمة: سليم حسن، د. م، د. ن، د. ت، ص١٣٨.

www.kalemasawaa.com

واتفق معه فهو صحيح، وإن تعارض، فالقرآن هو الكتاب الخاتم الشامل الكامل الذي جاء مصوِّبًا لأخطاء السابقين ومضيفًا للكتب السابقة ما لم يرد منها، ومستدركًا عليها ما وقع فيها من تحريف على أيدي البشر.

وقد رد القرآن الكريم على افتراءاتهم المتتالية على أنبياء الله، ومن ذلك قولهم: إن لوطًا عليه السلام زنا بابنتيه. (التكوين ١٩: ٣١ ـ ٣٨)، وإن سليمان الملك عليه السلام ابن زنا، وقد أحب نساء غريبات. (الملوك الأول ١١: ١)، وأن داود عليه السلام ينظر إلى نساء غيره، وأنجب سليمان نتيجة علاقته المحرمة مع زوجة قائده أُورِيَّا الحِثِّي. (صموئيل الثاني ١١: ٢ ـ ٢٧)، كما أن نوحًا عليه السلام ـ وهو من أولي العزم من الرسل ـ نجده ـ على حدِّ تعبير تَوْراتهم المُحرَّفة ـ يشرب الخمر حتى يترنَّح[1] سَكَرًا. (التكوين ٩: ٢١)، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام دَيُّوث[2] لا يَغار على عِرْضه. (التكوين ١٢: ١٢ ـ ١٥)... إلخ، أليس هذا ظلمًا وعدوانًا على أفضل الخلق قاطبة؟!

كما لم يُعصَم نبيهم المفضل ـ صاحب التوراة وحامل ألواحها ـ موسى عليه السلام من كذبهم وافترائهم، فهو قاتل لأخيه هارون عليه السلام الذي عَبَد العجل مع قومه حسب زعمهم، ألا قاتلهم الله أنى يؤفكون. فهل يتصور ممن كان هذا ديدنهم أن يكتبوا حقًّا أو يقولوا صدقًا؟ وإذا كان ما كُتب في توراتهم بغية التعدي على نساء الأمم، فإن عقل أي عاقل لا يتصور أن يثبتوا عفة يوسف عليه السلام عن نساء الأمم.

الخلاصة:

- تعد قصة وليمة امرأة العزيز للنسوة تسلسلًا منطقيًّا لسياق الأحداث إذ إنها مكرت بهن كما أردن المكر بها، حين قاموا بلومها على شغفها بيوسف عليه السلام؛ فأرادت أن يَرَيْنَ جماله؛ حتى يعذرنها على حبها ولا يلمنها، فلما فعلت، ما كان منهن إلا أن انبهرن بجمال يوسف، فقطَّعن أيديهن دون أن يشعرن، وهذا أمر معروف في علم التنويم المغناطيسي، كما أرادت غيظهن بأنها بيدها أمره وسجنه إن لم يفعل ما تأمره به، فلا تبيعه مثلًا حتى لا يسارعن بشرائه، وكأنها المالك الوحيد له، وقد شاع الخبر في المدينة حتى بلغها خوض النساء فيها، وكلامهم عنها، وذمهم لها؛ فلا ضير من إثبات فتنتها بسحره لهؤلاء النسوة.
- عدم ذكر التوراة المحرفة لهذا المشهد من القصة وغيره ليس دليلًا على إنكاره، بل دليل على أن القرآن وحي من الله إلى رسوله، وأنه لم يؤخذ من مصادر بشرية، بل هو الكتاب الخاتم الذي صوَّبَ وأضاف، فقد تفرد القرآن بذكر مشهد استباق الباب، ومسألة الشاهد من أهلها الذي برَّأ يوسف عليه السلام، ومسألة البرهان وكونه عصمة من الله لرسوله، ودعوة يوسف لصاحبي السجن إلى التوحيد الخالص وترك الشرك والوثنية، وتفسير سيدنا يوسف عليه السلام رؤيا الملك قبل خروجه من السجن، أي أنه لم يساوم ولم يسيء إلى من أساء إليه، حين سجنه ظلمًا.
- كما أغفلت التوراة المحرفة قصة النسوة مع امرأة العزيز وهي مناط الشاهد؛ وذلك لنفي معرفة مصر بطائفة من وسائل التمدن الحضاري آنذاك من مقاعد

١. يترنَّح: يتمايل من السُّكْر.
٢. الدَّيُّوث: الذي لا يغار على أهله.

www.kalemasawaa.com

مريحة، وأدوات طعام وآداب مائدة، ودرءًا للفضيلة؛ إذ لو شهد النسوة ببراءة يوسف وعفته لما أحلُّوا لأنفسهم العبث بنساء الغير، والفساد في الأرض.

• إن تصويبات القرآن الكريم لأخطاء التوراة كثيرة منها: أن القرآن ذكر أن يوسف عليه السلام قُدَّ قميصه من دبر فهو المدافع والمرأة المهاجمة، أما التوراة فقد ذكرت أن يوسف عليه السلام ترك قميصه مع المرأة وفرَّ هاربًا، فهل يُعقل من نبي من أنبياء الله آتاه الله العقل والحكمة أن يخرج هكذا أمام العزيز ـ زوج المرأة ـ ويثبت على نفسه الجريمة؟! ألا يعد هذا انتقاصًا لقدراته العقلية؟!

• تزييف التوراة للحقائق أمر معهود، فقد كتبوا ما يتفق مع أهوائهم وميولهم، فلا يذكرون أية فضيلة لأنبياء الله ولا لغيرهم؛ حتى يجدوا مبررًا لفسادهم في الأرض، وطغيانهم على العالمين. فالتوراة التي أغفلت المشاهد السابقة في قصة يوسف عليه السلام، والتي تفيض عبرًا وعظات، هي التي أثبتت السفه وفعل الفواحش لأنبياء الله عليهم السلام.

• أليست التوراة المحرفة هي التي قالت: إن لوطًا عليه السلام زنا بابنتيه، وإن نوحًا عليه السلام شرب الخمر حتى ترنح سكرًا، وإن إبراهيم ديوث لا يغار على عرضه، وإن سليمان عليه السلام ثمرة زنا أبيه داود عليه السلام مع زوجة قائده أوريا الحثي، وإن سليمان عليه السلام يستبيح نساء الغير؟ كما ادّعوا ـ قاتلهم الله ـ أن موسى عليه السلام قاتلٌ قتل أخاه هارون عليه السلام، الذي عبد بدوره العجل فهو كافر في نظرهم... إلى آخر هذه الترهات اليهودية.

الشبهة السادسة والثلاثون

ادِّعاء أن يوسف عليه السلام أدان نفسه واتهمها بارتكاب الذنب (*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن يوسف عليه السلام غير بريء مما نسب إليه، وأنه اعترف على نفسه بذلك؛ وأنه مُدان بارتكاب ذنب يحتاج إلى طلب مغفرته من الله تعالى، ويستدلون على ادعائهم هذا بقول الله تبارك وتعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ (يوسف). ويتساءلون قائلين: ألا يتعارض اعتراف يوسف عليه السلام على نفسه بارتكاب الذنب مع قول القرآن ببراءته؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) براءة يوسف عليه السلام ثابتة عقلًا، ونقلًا، وإجماعًا؛ وعليه فلا يعقل أن يعترف على نفسه بالإدانة.

٢) اختلف المفسرون في هذه الآية المستشهد بها، فمنهم من ذهب إلى أن الكلام في الآية يُنسب إلى يوسف عليه السلام، ومنهم من يرى نسبة الكلام إلى امرأة العزيز وهو الراجح، وفي كلا الحالتين فهي إثبات لبراءة يوسف عليه السلام لا إدانته.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مرجع سابق.

® في "براءة يوسف من الفحشاء" طالع أيضًا: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والثلاثين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

التفصيل:

أولا. براءة يوسف الصديق عليه السلام ثابتة بالنقل والعقل والإجماع:

لقد ثبتت براءة نبي الله سيدنا يوسف عليه السلام من الوقوع في الفحشاء بشهادة كل من علم بحاله، وهذا ما قرره القرآن، فقد أعلنت امرأة العزيز براءة يوسف عليه السلام من الهمّ بالمعصية، وأنه لم يجبها إلى طلبها إذ قالت كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾(يوسف: ٣٢)، وشهدت بعفته وصدقه إذ قالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾(يوسف)، وقد شهدت النسوة بعفته وطهارته إذ قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾(يوسف: ٥١). وشهد أيضًا ببراءته الشاهد الذي رأى القصة، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾(يوسف: ٢٥)، حيث شهد بإدانتها، وشهد ببراءته أيضًا العزيز يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾(يوسف)، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾(يوسف). وشهد يوسف عليه السلام نفسه ببراءته فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾(يوسف: ٢٦)[1].

وفي التوراة نفسها ما يؤكد براءة يوسف عليه السلام من الوقوع في الفحشاء: "فأمسكته بثوبه قائلة: "اضطجع معي!". فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج". (التكوين ٣٩: ١٢).

كذلك ورد في الكتاب المقدس قوله: "وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: "اضطجع معي". فأبى وقال لامرأة سيده: "هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت، وكل ما له قد دفعه إلى يدي". (التكوين ٣٩: ٧، ٨).

كيف بهم يدَّعون ظلمًا وزورًا إدانة يوسف عليه السلام لنفسه؟! وكيف يتفق هذا مع العقل في أن يثبت براءته كل من حوله ومن شهد الواقعة، ثم يدين هو نفسه؟! وكيف يشهد لنفسه بالبراءة ثم يعود فيدين نفسه مرة أخرى؟!!

ولذا رفض أن يخرج يوسف عليه السلام من السجن؛ حتى تثبت براءته أمام الناس جميعًا ويعلم الناس ذلك.

ثانيًا. ثبوت براءة يوسف عليه السلام وعدم إدانته، سواء نُسب الكلام في الآية إليه أو إلى امرأة العزيز:

فعلى اعتبار أن الكلام في الآيةالكريمة: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾(يوسف).

فإن معنى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾(يوسف: ٥٣) أي من الميل الطبيعي مع الامتناع، أو من حديث النفس، فأشار يوسف عليه السلام بذلك إلى أن عدم التعرض لامرأة العزيز لم يكن لعدم الميل الطبيعي؛ بل لخوف الله تعالى.

وقد يكون المعنى: لا أبرئ نفسي من العزم على دفعها، أي إيذائها، أو ما عبر عنه بـ "السوء" في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾(يوسف: ٢٤) لا من القصد إلى المعصية.

ويحتمل أن يوسف عليه السلام قال ذلك هضمًا لنفسه

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص١٣١، ١٣٢ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

البريئة عن السوء، وتواضعًا لله تعالى: أي لا أنزّه نفسي من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله سبحانه، بل إنما ذلك بتوفيقه ورحمته[١].

فيوسف عليه السلام بقوله هذا أراد ألا يزكّي نفسه، مع أنه على يقين من نفسه، وكذلك يُعلِم غيره من الناس أنه بريء، وظهر ذلك ظهور الشمس وأقرت به المرأة التي ادَّعت عليه الباطل، ونزهته النسوه اللاتي قطعن أيديهن.

قال الحسن: لما قال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ (يوسف: ٥٢) كره نبي الله أن يكون زكى نفسه فقال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؛ لأن تزكية النفس مذمومة، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ (النجم: ٣٢)[٢].

- وعلى اعتبار أن هذا القول من كلام امرأة العزيز فلا مجال لاتهام يوسف عليه السلام لنفسه؛ لأن كلامها حينئذٍ يعد اعتذارًا عما وقع منها في حق يوسف عليه السلام، واعترافًا بعدم براءتها، ويكون يوسف عليه السلام بريئًا ـ كل البراءة ـ مما نسب إليه.

ومعنى الآيتين: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف عليه السلام أني الآن لا أكذب عليه في غيبته، وما أبرئ نفسي من الخيانة، فإني قد خنته حين ادّعيت عليه زورًا أنه هو الذي أراد بي سوءًا، وقلت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ (يوسف) وأودعته السجن، وإن كل نفس لأمارة بالسوء إلا نفسًا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف، ثم استغفرتْ ربها مما ارتكبت: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ (يوسف)[٣].

والراجح أن هذا من كلام امرأة العزيز، وعود الضميرين على يوسف عليه السلام استنادًا إلى ما يلي:

١. أن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام حاضرًا في المجلس وقت هذا الكلام، وإنما استدعاه الملك بعد ذلك بدليل قوله بعد هذا الكلام: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ (يوسف: ٥٤).

٢. إذا اعتبرنا أنه من كلام يوسف عليه السلام فيحتاج الكلام إلى حذف كثير وتقديرات كثيرة من رجوع الرسول إلى يوسف عليه السلام، وإخباره بما قاله النسوة، ثم إجابة يوسف عليه السلام ورجوع الرسول إلى الملك ثانيًا وإخباره إياه بمقالة يوسف عليه السلام، ثم يقول الملك: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ والحذف الكثير غير لائق في الكلام.

٣. أن هذا مقام الاعتذار من امرأة العزيز، فإنها بعد أن اعترفت بمراودتها يوسف عليه السلام عن نفسه، وتجنيها عليه، يصبح من المناسب أن تعتذر عن هذا بأن ضميرها قد استيقظ، ونفسها قد صلحت بعد أن كانت أمّارة بالسوء، وفي هذا ما يشفع لها عند الناس، وعند الله بمغفرة ذنبها: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ والمغفرة تكون لمن أذنب واعتدى وثبتت إدانته، لا لمن كان بريئًا مُعْتَدًى عليه وثبتت عفته وطهارته.

---

١. عصمة الأنبياء، د. أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢١، ٣٢٢ بتصرف يسير.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٢١٠.

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢١.

www.kalemasawaa.com

٤. جعل هذا الكلام من قول امرأة العزيز يتفق مع ما هو مقرر من عصمة الأنبياء من غير حاجة إلى تأويل، أو محاولة توفيق، أما جعله من كلام يوسف عليه السلام فيحتاج إلى تأويله بما يتفق وعصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج.

وعود الضميرين على يوسف عليه السلام أقوى؛ لأن السياق يعضده، حيث إن الضمائر قبل ذلك راجعة إلى يوسف عليه السلام في مثل قول الله تعالى: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ (يوسف)[1]؛ فبالأَوْلَى أن يعود عليه الضميران أيضًا في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾.

الخلاصة:

- براءة يوسف عليه السلام ثابتة لامراء فيها، حيث شهد ببراءته كل من شهد الواقعة من النسوة، وابن عمها الذي شهد ببراءته، وزوجها الذي طلب من يوسف عليه السلام أن يكتم هذا الحديث، وامرأة العزيز نفسها التي صرّحت ببراءته، وأعلنت أمام الناس جميعًا مراودتها له، وقد أكد هذا ما ورد في التوراة من نصوص تدل على براءة يوسف كما جاء في القرآن الكريم.
- تفيد الآية التي استشهد بها المدعون براءة يوسف عليه السلام من الوقوع في الفاحشة، سواء نُسب الكلام فيها ليوسف عليه السلام الذي أراد بذلك هضم نفسه البريئة، وإظهار تواضعه لله الذي نجاه من هذه الواقعة، فهو يشير إلى فضل الله عليه، ولا ينسب الفضل لنفسه، أو نُسب إلى العزيز وهو الراجح؛ لأن سياق الكلام يوحي بذلك كما أن المقام مقام اعتذار واعتراف منها بالذنب، حيث طلبت من الله تعالى أن يغفر لها ذنبها. وهذا لا يحتاج إلى تأويل ويؤكد عصمة الله تعالى لسيدنا يوسف عليه السلام وللأنبياء جميعًا.

١. المرجع السابق، ص٢٢٢، ٢٢٣.

الشبهة السابعة والثلاثون

دعوى اضطراب القرآن الكريم في حديثه عن يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين اضطراب القرآن في حديثه عن قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز؛ حيث ذكر بعض المفسرين عند تفسير آيات سورة يوسف من (٢٥: ٢٩)، أن الشاهد على براءة يوسف عليه السلام كان ابن عم لها وكان صبيًّا في المهد. ويتساءلون: من أين جاء هذا الصبي ولم يكن في البيت أحد؟! كما يتساءلون: كيف يسجن عزيز مصر يوسف مع علمه ببراءته؟ وكيف يرضى بهذا العار؟ وكيف تهدد الزوجة يوسف بالسجن إن لم يفعل ما أمرته به من الفحشاء فيقبل أن يسجن لا لفحشه، بل لعفته؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم يتناقض القرآن بشأن قصة سيدنا يوسف عليه السلام

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.

www.islameyat.com
www.kalemasawaa.com

ولا في غيرها؛ فقد جاء مصوِّبًا لأخطاء السابقين، ومن ذلك ما في الكتاب المقدس من ترهات في هذا الشأن.

٢) حديث القرآن الكريم عن سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز في غاية السلاسة والإحكام، مما يدل على أنه الكتاب الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٣) قول بعض المفسرين: إن الشاهد على براءة سيدنا يوسف عليه السلام كان طفلًا في المهد أنطقه الله تجاوز وإسراف لا يحتمله السياق، بل الأصوب أنه كان ابن عمٍّ لها وكان يجلس مع زوجها ساعة الحدث.

٤) براءة يوسف عليه السلام لا تقتضي أن يسجنه عزيز مصر، كما شهد له الجميع: عزيز مصر، الزوجة، والنسوة، كما شهد له رب العزة وكفى بها شهادة. لكنه سجنه درءًا لفضيحة زوجته، وسترًا لعرضه؛ حتى ينسى الناس هذه الحادثة.

التفصيل:

أولا. لم يتناقض القرآن في هذا الشأن؛ فقد جاء مصوِّبًا لأخطاء السابقين، ومن ذلك ما في الكتاب المقدس من تُرّهات وتناقضات:

إن القرآن الكريم الذي تكفل الله تعالى بحفظه من التحريف والتغيير: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر). يردُّ على ما جاء في الكتاب المقدس من تحريفات عظيمة في حق أنبياء الله ورسله، وفي غيرها من الأمور الأخرى، وقد فضح الله أمرهم وأخبر بتحريفهم للتوراة والإنجيل؛ يقول الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ (النساء: ٤٦)، ويقول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة).

ثم إنك لتعجب أشد العجب من قصص وقصّاص التوراة الذين أطلقوا العنان لخيالهم المريض وأفكارهم الخبيثة التي تبثُّ سمومها وأمراضها على صفحات كتاب يفترض أن يكون مقدسًا ـ كما يزعمون ـ ولا ندري مصدر القداسة في هذه القصص القبيحة، أو الحكايات الأسطورية الفاضحة، أو الخيالات الماجنة عن أشخاص أكمل الله لهم الخُلق والخَلْق، وجعلهم للناس قادة وللبشر سادة[1]، والأمثلة على ذلك كثيرة منها: أن داود عليه السلام وقع على بتشبع زوجة القائد أوريا، وزنا بها، وجره عشقه لها وهيامه بها أن دفع زوجها إلى مقدمة الجيش حتى قُتل غدرًا بوشية من داود إلى أحد قادته في جيش أوريا، ومنها أن هارون عليه السلام صنع عجلًا وبنى له مذبحًا وعبده مع بني إسرائيل وسجدوا له، وذَبَحَ الذبائح وقَدَّمَ القرابين بين يديه، وتحدى تعاليم الله تعالى وخالف أوامره !! ومنها أن إبراهيم عليه السلام تاجَرَ بامرأته لكل ملك نزل بأرضه وجعلها عرضًا مباحًا، لا يرد عنها يد لامس، ولا يَكْبَح عنها[2] شهوة راغب[3].

وقد برأ الله في القرآن أنبياءه مما لحق بهم يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ (ص)، ويقول

---

١. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مرجع سابق، ص٣٠ بتصرف يسير.

٢. يَكْبَح عنها: يرد عنها.

٣. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مرجع سابق، ص٣٣ بتصرف يسير..

www.kalemasawaa.com

تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (الدخان)، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (آل عمران).

وبناء على ذلك فإن عدم ذكر التوراة لقصة الشاهد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ـ في قصة امرأة العزيز مع سيدنا يوسف عليه السلام ـ لا يعني اضطراب القرآن أو تناقضه؛ فقد جاء مصوِّبًا لأخطاء السابقين، ومضيفًا لما ورد في كتبهم من قصص، وإنما يدل هذا على إحكامه، وعلى أنه الكتاب الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولم تذكر التوراة أيضًا قصة استباق الباب من يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، مما تَفَرَّد به القرآن، وإنما ساقت التوراة أنها لما أمسكت بثبوت يوسف خلعه لها، فنادت الخدم وأخبرتهم، بأن بعلها جاء برجل عبراني يداعبها، وأن يوسف لما رأى المكان خاليًا طلب منها أن يضاجعها، فأبت وصرخت بصوت عظيم، وكان استعد للأمر، فخاف حين استغاثت وهرب وترك عندها قميصه. وهذا يدلُّ على التشويه الذي أصاب قصة يوسف عليه السلام، وغيرها في نصوص التوراة المحرَّفة[1].

ثانيًا. حديث القرآن عن سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، في غاية السلاسة والإحكام:

فالتصوير الحقيقي للقصة في القرآن الكريم هو التصاعد الصادق لأحداث الموقف بين الطرفين، فسيدنا يوسف عليه السلام يمتنع عنها، ويقوم مبادرًا إلى الباب للهرب منها، فتتعلق بقميصه من الخلف، فتجذبه لمنعه من الهرب دون الوصول إلى مأربها، وبذلك شُقَّ القميص، ووجدا زوجها عند الباب جالسًا مع ابن عمها؛ فهابته، وألصقت التهمة به؛ لتتحول من جانية إلى مجني عليها بكل مكرٍ ودهاء، وقالت: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ (يوسف)، ونلاحظ هنا أن خلق يوسف عليه السلام ما كان ليجعله يُفشي هذا السر ويفضح المرأة لكنها قَلَبت الحقائق؛ ليتحول الجاني إلى مجني عليه، فكان عليه أن يُبرئ نفسه؛ لأن هذا طعنًا في أمانته مع من أحسن إليه، وإذا نظرنا إلى الموقف نظرة فاحصة لوجدنا أن امرأة العزيز تُصعِّد رغبتها من مراودة إلى تغليق الأبواب إلى تهيؤ وطلب صريح، إلى محاولة الاقتراب منه بالقوة، وهو يقابلها بتصعيد الرفض والإباء: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف)[2].

فيوسف عليه السلام لم يجد معاذًا إلا الله؛ لأنه سبحانه الذي أعطاه الحكم والعلم، وقال له: هذا حلال وهذا حرام، والله تعالى قادر دائمًا أن يعيذ عباده، ويمنع عنهم ما يكرهون، وكلمة "معاذ الله" عند المؤمن إذا قالها فلا بد أن الأمر عصيب.

ولم يوافق يوسف عليه السلام على ما تريده، وطلب العون من الله، وقوله ﷻ: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أي نجّاني من الجبّ ومن شرّ إخوتي، وهيّأ لي مكانًا رغدًا؛ لأعيش فيه فلا أكافئه بأن أعصيه، وأن أجعل نعمه عليَّ وسيلة لمعصيته خاصة أن زوجها ـ عزيز مصر ـ قد أكرم يوسف الصديق عليه السلام فهو القائل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١٥٨: ١٦١ بتصرف.

٢. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٣٥ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ (يوسف: ٢١)[١].

وبذلك يتضح لنا أدب اللجوء إلى الله في القرآن الكريم، وهو ما أدَّب الله ﷻ به أنبياءه وعباده الصالحين.

ثالثًا. تحديد الشاهد:

لا بد أن زوج المرأة بطبيعة الحال لجأ للتحقيق في القضية، والتحقق من الأمر، فوجد خيطًا يدله على التعرف على تحديد الجاني، والمجني عليه، ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (يوسف) ويكفي أنه من أهلها حتى يكون ألزم وأقوى في الحجّة، وأظهر في براءة يوسف عليه السلام، وأنفى للتهمة.

واختلف العلماء في شاهد يوسف عليه السلام؛ فقال السدي: إنه ابن عمها، الذي كان جالسًا أمام الباب مع زوجها بدليل قوله ﷻ: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ (يوسف: ٢٦) وقال سعيد بن جبير والضحاك: كان الشاهد صبيًّا في المهد أنطقه الله.

أما عن الحُكْم فقد لخصته الآية الكريمة فيما يلي: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (يوسف).

وهنا تظهر فراسة الشاهد في إحقاق الحقّ، فقد حكم بما قرأناه في الآية الكريمة قبل أن يرى ثوب يوسف؛ لذا نجد نوعًا من العدالة، ثم رتب على رؤيته للقميص ترجيح حكم على آخر، ثم كان الحكم، والكيد هو الاحتيال على إيقاع السوء بشخص ما على أن يتم ذلك في الخفاء؛ لأن المحتال ليس له القدرة على أن يواجه عدوَّه؛ لذلك يدبّر له في الخفاء، وقوله ﷻ على لسان الزوج: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (يوسف) دليل على أن المرأة كيدها عظيم وضعفها أعظم.

وحينما عرف العزيز أن المرأة هي المذنبة، طلب من يوسف عليه السلام ألا يتحدث في هذا الأمر حتى لا تسوء سمعة العزيز وزوجته بين الناس ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (يوسف)[٢].

رابعًا. براءة يوسف عليه السلام:

وهنا نجد أن براءة سيدنا يوسف عليه السلام شهد بها الكثيرون، كما قال الإمام الفخر الرازي: إن يوسف قد شهد الله تعالى ببراءته بقوله ﷻ: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف).

وشهد الشيطان ببراءته بقوله ﷻ: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (ص)، وشهد ببراءته الشاهد من أهل امرأة العزيز، إذ قال: ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص١٨١ بتصرف يسير.

٢. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٣٦ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (يوسف).

وشهد ببراءته النسوة اللائي قطعن أيديهن بقولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ (يوسف:٥١)، وشهدت ببراءته امرأة العزيز بقولها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ (يوسف). فالذي يريد أن يتهم يوسف عليه السلام بالهمّ عليه أن يختار أن يكون من حزب الله، أو من حزب الشيطان، وكلاهما شهد ببراءة نبي الله يوسف عليه السلام، فلا مفرّ من الإقرار بالحق على أية حال[1].

شيوع الخبر في المدينة، وتحدث النساء به:

رغم هذا التحفظ والتستر شاع الخبر في المدينة، وانتشر بين النساء، فربما يكون أحد العاملين بالقصر هو الذي أشاع الخبر أو ربما أشاعه امرأة من النسوة اللاتي يعملن في خدمة امرأة العزيز، فالمنطقي أن الخدم سمعوا الضوضاء وأمر كهذا لا يخفى على هؤلاء على كثرتهم في القصر.

المهم أن الخبر شاع ولَاكَتْه[2] أفواه النساء، لائمين امرأة العزيز على غرامها بغلام مملوك اشتروه بدراهم، وهي امرأة العزيز[3]، ولما عرفت امرأة العزيز ما سمعته من أخبار، وعرفت أنهن يردن إهانتها والتشهير بها مكرت بهن حتى يدخلن في تجربة عملية، ويراودن يوسف عليه السلام عن نفسه فلا يكون هناك لوم ولا عذل.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ (يوسف: ٣١)، ثم قالت ليوسف عليه السلام: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ حتى لا ينتبهن من شدة جمال يوسف عليه السلام وحُسْنِه فيُقَطِّعْنَ أيديهن: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (يوسف)، حيث وجدنه أكبر مما تخيلنه، وهنا يظهر عناد المرأة وكبرياؤها مرة أخرى؛ حيث أعلنت أمام النسوة بعد أن فقدت حياءها وتحفظها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (يوسف)، ولم تقل سأبيعه أو أطرده؛ لأنهن قد يسارعن بشرائه فقطعت بذلك هذا الأمل الذي ربما يساورهن، معلنة أنه لن يخرج من القصر، فهن أكبرنه، وهي ستذله وتهينه إذا لم يستجب لها.

ولم يجد يوسف إزاء هذا الموقف إلا اللجوء لربه سبحانه ليعصمه من كيدهن: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣). فاستجاب له ربه تعالى ونجاه من هذا الوسط الحافل بالفتن، فالله عز وجل يريد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (يوسف)[4] أن يثبت ليوسف عليه السلام بشريته وفحولته، فكان قوله هكذا: إما أن يصرف الله عز وجل عنه كيدهن، وإما أن يقع فيما لا رغبة له فيه، فدعا الله مخلصًا في ساعة اضطرار، فهو في سن خطيرة سن البلوغ والرجولة، فقد يميل إليهن ويكون من الجاهلين إن لم يعصمه الله تعالى، وهو سميع لما يقول عليم بحاله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ

---

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١٦٠، ١٦١.

٢. لاكته: تحدثت به.

٣. قيل: إن لفظ العزيز كان يطلق في هذا الزمان على رئيس الشرطة.

٤. أَصْبُ: أحنُّ وأميل إليهنَّ.

www.kalemasawaa.com

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ (يوسف)[١].

إذن فقد يتساءل بعضهم: لماذا لم يُنجه ربه من محنة السجن؟ لقد كان أمام يوسف عليه السلام محنتان: محنة السجن ومحنة فتنة النساء وكيدهن، والله تعالى قادر على أن ينجيه من كل المحن والفتن، ولكنه البلاء والابتلاء الذي هو سنة في حياة الأنبياء والمرسلين، فهم أشد الناس بلاء، والبلاء تمحيص واختبار ورفعة في المنازل والدرجات، ولا يصح أن يبتلى نبي من أنبياء الله تعالى بالوقوع في المعصية، إنما يصح أن يبتلى بأي بلاء آخر: كالسجن أو الإيذاء والتعذيب؛ لأن ذلك ـ مما لا شك فيه ـ يصقل مواهبه ويرفعه الدرجات العلى، كما أن الابتلاء بالسجن كان له من الحكمة وجوه منها ما تدركه عقول البشر، ومنها ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، وربما يكون من الحكم صرف فتنة النساء عن يوسف عليه السلام؛ فإنه لشدة جماله تعرض للفتنة من جميع من رأينه ـ كما ذكر القرآن ـ فقد يخرج من بيت العزيز، ثم يتعرض إلى نفس الفتنة في أماكن أخرى؛ فكان السجن صرفًا له وإبعادًا عن أعين النساء، كما كان السجن مجالًا خصبًا لدعوة يوسف عليه السلام، وهو المنطلق الذي وصل منه ـ بإرادة الله ﷻ ـ إلى التمكين في الأرض وتحقيق رؤياه.

ولماذا سجنه العزيز، وقد تأكد من براءته؟ الراجح أنه أراد أن يستر خطأ امرأته، ويدرأ عن بيته الفضيحة حتى يعلم الناس أن يوسف هو الجاني، ولكن يبقى مع هذا موقف العزيز دالًّا على أنه كان ضعيف الغيرة على عرضه؛ لأنه عبر عنه بمجرد لوم زوجته، وطلب الاستغفار: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ (يوسف). يقول سيد قطب: "وهنا تبدو صورة من الطبقة الراقية في المجتمع الجاهلي، رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية، وميل إلى كتمانها عن المجتمع، فيلتفت العزيز إلى يوسف عليه السلام البريء، فيأمره بكتم الأمر، وعدم إظهاره لأحد، ثم يخاطب زوجه الخائن بأسلوب لَبِقٍ[٢] يواجه به الحادث الذي يثير الدم في العروق"[٣].

ولعل مكوث يوسف فترة من الزمن في السجن كان خيرًا له: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦)، وكما أخبر المعصوم ﷺ: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا المؤمن، إن أصابته سرَّاء[٤] شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء[٥] صبر فكان خيرًا له... "[٦].

وهكذا نجد سيدنا يوسف ﷺ لا يَفْترُ عن الدعوة في سجنه، وشهد له رفاق السجن بذلك: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (يوسف) أي: ليس من المنحرفين الذين يستحقون الإهانة بسجنهم وتعذيبهم.

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص١٨٧: ١٩٣ بتصرف.

٢. لَبِق: ظريف.

٣. في ظلال القرآن، سيد قط، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٨٣ بتصرف.

٤. السرَّاء: الشيء السار.

٥. الضرَّاء: الشيء الضار.

٦. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره لله خير (٧٦٩٢).

www.kalemasawaa.com

كما خرج من سجنه كأكرم ما يكون الرجل، وهيئ له ملك مصر، والخير كله كان في يده آنذاك.

وبهذا يتبين لنا أن براءة سيدنا يوسف عليه السلام قد أثبتها القرآن الكريم، دون تناقض أو اضطراب، كما يدعون، فقد عرض القضية عرضًا سلسًا جميلًا، حيث أقرَّ الجميع ببراءة سيدنا يوسف عليه السلام، وكان من نتيجة ذلك ليس خروجه من السجن فحسب، لكن ملك خزائن مصر وصارت الأمور بيده. فأين التناقض أو الاضطراب إذًا في عرض القصة®؟!

الخلاصة:

- لم يتناقض القرآن الكريم بشأن قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، ولا في غيرها؛ فقد جاء مصوِّبًا لأخطاء السابقين، ومضيفًا إليها مثل: قصّة الشاهد، وحادثة استباق الباب وغيرها، ومصوّبًا ما جاء في الكتاب المقدس من ترّهات، وتناقضات في هذا الشأن؛ فمثلا نجد الكتاب المقدس، يذكر أن يوسف عليه السلام فرّ من امرأة العزيز تاركًا ثوبه، فهل من المعقول أن يخرج عاريًا أمام الزوج؟ فَيُثْبِتُ على نفسه الجريمة، أفلا يتناقض هذا مع المنطق والعقل السليم؟!
- إن القرآن مُحكَم تمام الإحكام إضافة إلى ما نلمحه من أدب التناول بألفاظ خفيفة، لا تخدش الحياء، على عكس التوراة التي تتسم بالسفور الصارخ، ولا عجب في ذلك فهي محرّفة، من وضع البشر.
- حديث القرآن الكريم عن سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز غاية في السلاسة والإحكام؛ فالأحداث مرتبة لا تناقض فيها يسلم بعضها إلى الآخر، مما يدل على أنه الكتاب الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فمثلًا: مسألة الشاهد التي يزعمون أن القرآن تناقض بشأنها جاءت واضحة رَقْراقة[1] في القرآن الكريم، فقد ذكر أنه كان من أهلها، ورغم ذلك فقد حكم ببراءة يوسف عليه السلام على أساس من المنطق السليم.
- أن قول بعض المفسرين إنه كان طفلًا في المهد أنطقه الله من قبيل المغالاة، ولا يستدعيه سياق الموقف، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم ﷺ.
- أما مسألة تبرئة سيدنا يوسف عليه السلام فقد برأه رب العزة فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف)، فضلًا عن الآخرين: العزيز، والزوجة، والنسوة، الشاهد، بل الشيطان نفسه، ورغم تأكد الزوج من براءة يوسف كان لا بد من سجنه درءًا للشبهات وسترًا لعرضه الذي لاكته الألسنة، أما تهديد الزوجة يوسف عليه السلام بالسجن أمام النسوة فكان من قبيل الضغط عليه حتى يقبل ما تريده منه، ثم من قبيل امتهانه وإذلاله بعد أن أحست بالطعن في كبريائها وضياع كرامتها كأنثي، فقد أبي يوسف عليه السلام أن يفعل بها الفاحشة ـ وإن شئت فقل عصمه ربه ـ وهي لا تزال تريده وقد شغفها حبًّا، كما حكى القرآن الكريم، وقد أرادت إذلاله أمام النسوة إن ظل على عناده واعتصامه.

® في "براءة يوسف من الفحشاء" طالع أيضًا: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والثلاثين. والشبهة السادسة والثلاثين؛ من هذا الجزء.

١. الرَّقراقة: الواضحة المتلألأة.

www.kalemasawaa.com

الشبهة الثامنة والثلاثون

ادِّعاء أنَّ استعانة يوسف عليه السلام بالساقي تخالف توكله على الله(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن استعانة يوسف عليه السلام بالساقي، تخالف توكّله على الله، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٤٢)[١]. ولذلك عاقبه الله عز وجل بأن لبث في السجن بضع سنين، وهم يرون لجوء يوسف عليه السلام في كشف الضر عنه إلى مخلوق - مجالًا للطعن في عصمته عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) طلب يوسف عليه السلام من الساقي أن يقصَّ خبره على الملك لا يقدح في عصمته عليه السلام؛ لأن الدنيا دار الأسباب، والأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله عز وجل.

٢) مُكْث سيدنا يوسف عليه السلام في السجن لم يكن عقابًا من الله على ذنب قد ارتكبه، بل كان رحمة به، وإعزازًا لشأنه، ولأمور أخرى اقتضتها حكمة الله عز وجل.

التفصيل:

أولا. الدنيا دار الأسباب، والأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله:

قبل الحديث عن الأسباب التي دعت يوسف عليه السلام للاستعانة بالساقي في تبليغ خبره إلى الملك رجاء الخلاص من السجن، لا بد أن نوضح أن معنى قول نبي الله يوسف عليه السلام للساقي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾: أن يقصَّ على سيده قصته، ويذكر عنده أن يوسف عليه السلام مظلوم في الواقعة التي أودع لأجلها السجن، فأنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف عليه السلام عند الملك، فطالت أيام السجن على يوسف عليه السلام حتى لبث فيه بضع سنين.

ويرى بعض العلماء أن استعانة سيدنا يوسف عليه السلام بالساقي هي مخالفة للأَوْلَى، ولا طعن فيها على يوسف عليه السلام؛ لأن مخالفة الأَوْلَى لا تقدح في عصمة الأنبياء، والاستعانة بالناس جائزة في دفع الظلم، فالدنيا دار الأسباب، لكن ذلك إنما هو لعامة البشر، أما الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فلا يصح أن يعرضوا حاجاتهم، ويلجئوا في كشف الضر عنهم إلا إلى الله عز وجل وحده مسبب الأسباب.

يقول الزمخشري: "كما اصطفى الله عز وجل الأنبياء على خليقته، فقد اصطفى لهم أحسن الأمور، وأفضلها وأَولَاها، والأحسن والأَوْلَى للنبي ألا يكل أمره إذا ابتلي ببلاءٍ إلا إلى ربه، ولا يعتضد بأحد من البشر، وخصوصًا إذا كان المعتضد به كافرًا، لئلا يشمت به الكفار ويقولوا: لو كان هذا على الحق، وكان له ربٌّ يعينه لما استغاث بنا"[٢].

وقيل: إن مخالفة يوسف عليه السلام للأولى هي أنه أخلى كلامه - وهو يطلب من الساقي أن يشرح حاله عند الملك - من ذكر الله عز وجل مثل: إن شاء الله، وكان عليه ألَّا

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات. islameyat.com

١. ربُّك: سيِّدك.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبهة الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٧.

www.kalemasawaa.com

يخلي كلامه منه.

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أنه لم يقع منه عليه السلام مخالفة للأولى، ويُحمل قوله للساقي على أحد أمرين:

الأول: أنه عليه السلام قال ذلك؛ ليتوصل به إلى هداية الملك، وعرض دعوته عليه، كما توصل إلى إيضاح الحق لصاحبيه.

الثاني: أنه عليه السلام إنما باشر الأسباب، والدنيا دار الأسباب، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، وهذا كما يكون في حق عامة البشر يكون كذلك في حق الأنبياء، ويفهم من معنى الآية أن يوسف عليه السلام إنما قال للساقي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ليتوصل بذلك إلى إظهار براءته أمام الملك والناس، فإن من أودعوه السجن قد قصدوا الإيهام بأنه المعتدي في واقعة مراودة امرأة العزيز، حتى حسبه الكثير من الناس معتديًا، فأراد يوسف عليه السلام أن يعرف الملك ورعيته الحقيقة؛ وذلك بأن تذكر قصته عند الملك، فيستدعيه من السجن، ويسأله، فيقرر الأمر على حقيقته، فإن تألُّم يوسف عليه السلام من إظهاره بمظهر المعتدي كان أكثر من تألُّمه من السجن في حد ذاته، فهو الذي قال: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف:٣٣).

وإظهار براءة المتهمين واجب على كل إنسان، وخاصة إذا كانوا من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ثم إن يوسف عليه السلام مُكلَّف ـ في السجن، وبعد الخروج منه ـ بدعوة الناس إلى الله، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وحتى تقبل دعوته، وينقاد الناس لنصحه لا بد أن يكون بريء الساحة، نقي العرض، طاهر العفة عندهم.

فهذا هو الذي دعاه أن يطلب من الساقي أن يذكر قصته عند الملك، وليس من أجل الخروج من السجن فقط، واستناد القائلين بأن يوسف عليه السلام خالف الأولى بابتغائه الفرج من عند غير الله عز وجل إلى ما أسنده ابن جرير إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: أن النبي ﷺ قال: "لو لم يقل ـ يعني يوسف ـ الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث؛ حيث يبتغي الفرج من عند غير الله" ـ استنادٌ إلى غير مستند لضعفه الشديد، فقد ضعفه ابن كثير قائلًا: هذا الحديث ضعيف جدًّا؛ لأن يوسف ابن وكيع ـ أحد رواته ـ ضعيف، وإبراهيم بن يزيد أضعف منه أيضًا[1].

ثم إن الأصح أن الضمير في "فأنساه" عائد إلى الناجي لا إلى يوسف عليه السلام، والمعنى: فأنسى الشيطان الناجي ذكر يوسف عليه السلام عند الملك، فكانت العاقبة المترتبة على نسيان الساقي أن يوسف عليه السلام لبث في السجن بضع سنين، فالفاء للعاقبة وليست للجزاء[2].

ويؤكد على أن النسيان كان من الساقي لا من يوسف عليه السلام قوله تعالى بعد ذلك عن الساقي: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف: ٤٥).

ومعلوم أن النسيان من الله، وأما الشيطان فسبب من أسبابه، إذ يوسوس إلى الإنسان بما يشغله عن الشيء حتى يزول عن قلبه ذكره عليه السلام. وعلى فرض تسليمنا بما زعمه هؤلاء في قولهم: إن يوسف عليه السلام هو الناسي وأن

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج٤، ص٢٧٢.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبهات الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٨، ٣١٩ بتصرف يسير.

www.kalemasawaa.com

الشيطان قد أنساه ذكر ربه، فإن ذلك أيضًا لا يجعله عليه السلام يستحق العقاب باللبث في السجن، إذ الناسي غير مؤاخذ[١]، وعلى كلٍّ فلم يصدر من يوسف عليه السلام ما يتنافى مع عصمة الله له.

ثانيًا. مكث سيدنا يوسف في السجن لم يكن عقابًا ولا تأديبًا من الله له، بل كان رحمة به، وإعزازًا لشأنه، ولأمور أخرى اقتضتها حكمة الله عز وجل:

لم يختر يوسف عليه السلام السجن كما يتوهم بعض الناس، ولكنه فضله على ما تدعوه إليه النسوة، وكأنه قال: السجن بكل ما فيه من لوعة، وقسوة، وذلة، وصغار، وكرب، وغربة، أحب إلى من قصر منيف أتعرض فيه لهذا النوع من المراودة؛ فإن الصبر على السجن أحب إلي من الصبر على هؤلاء النسوة، ورؤية هذه الوجوه الشعثة في تلك القصور المقفرة الخالية من الأخلاق السامية، والمثل العليا، فالسجن أحب إلي؛ لأنه مكان لا يعوقني فيه عائق عن طاعتك يا رب، ولا يحول بين التفكر في بديع مخلوقاتك وجلائل نعمك عائق بخلاف تلك القصور التي ينسى الإنسان فيها نفسه، ويفقد فيها حسه، ولا يجد فيها ما يعينه على طاعة مولاه[٢]، وهذا كان مراد يوسف عليه السلام من قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣).

وعلى هذا فإن مكوث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين لم يكن عقابًا له على خطأ، أو تقصير؛ لأن وقوع الخطأ أو التقصير يتنافى مع وَصْفِ الله له، بأنه من عباد الله المخلصين، بل كان لبثه في السجن رحمةً به، وإعزازًا لشأنه، فقد أصقل الله مواهبه في السجن، وأطلعه على كثير من الأمور التي ما كان ليطلع عليها، وهو في قصر العزيز، أو خارج أسوار السجن.

الخلاصة:

- يرى بعض العلماء أن طلب يوسف عليه السلام من الساقي أن يذكره عند ربه فيه مخالفة للأولى؛ لأنه استعان بالبشر، ولم يستعن بالله تعالى مباشرة؛ لأن الأنبياء علاقتهم مباشرة مع الله عز وجل خالق الأسباب، أما التعويل على الأسباب فلعامة البشر، بيد أن مخالفة الأولى لا تعد ذنبًا ولا يُطْعن بها في عصمة الأنبياء - عليهم السلام.
- بينما يرى بعضهم أن يوسف عليه السلام لم تقع منه مخالفة للأولى؛ لأنه أراد من قوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ التوصل به إلى هداية الملك، أو أن قوله جاء مباشرة طاعة لله عز وجل في الأخذ بالأسباب، مما لا يتنافى مع توكله على الله عز وجل، فالأخذ بالأسباب جائز في حق الأنبياء.
- لم يكن لبث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين عقابًا له من الله على ذنب ارتكبه، بل لقد اختار يوسف عليه السلام السجن، وفضّله على الحياة في القصر وما تدعوه إليه النسوة، وقد كان لهذا فوائد عديدة، منها إعزاز شأنه واطلاعه على كثير من الأمور التي ما كان ليطلع عليها خارج السجن.

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص١٩٩ بتصرف يسير.

٢. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص١١٨.

www.kalemasawaa.com

الشبهة التاسعة والثلاثون

ادِّعاء خطأ يوسف عليه السلام بطلبه الإمارة(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أنَّ يوسف عليه السلام طَلَبَ الإمارة إذ قال: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف)، وطَلَبُ الإمارة مذموم ومنهي عنه، ولا سيما أنه طلبها من كافر، كما أنه زكَّى نفسه فقال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف)، ولم يستأنس بالمشيئة، ويُتْبع مقولته بالعبارة المأثورة: إن شاء الله. وذلك يعد خطأ يتنافى مع عصمته بزعمهم.

وجها إبطال الشبهة:

١) يجوز طلب الإمارة للمصلحة لمن كان أهلًا لها، بل إن المصلحة إذا اقتضت ولاية إنسان بعينه صارت واجبة في حقه، كما أنه لا إثمَ في تولية العمل من يد كافر، ما لم يأت الإنسان المولَّى بمحذور شرعي.

٢) إن مدح يوسف عليه السلام لنفسه ليس مذمومًا؛ لأنه لم يقصد منه التطاول والتفاخر، وإنما قصد إلى بيان اتصافه بالصفتين اللازمتين لمن ينوء بعبء الإمارة.

التفصيل:

أولا. يجوز طلب الإمارة للمصلحة لمن كان أهلا لها، بل تجب في حقه إذا لم يوجد غيره:

لقد ظهرت على يوسف عليه السلام الخصال التي تؤهله للقيام بهذه المهمة ـ القيام على خزائن الأرض ـ قبل أن يطلبها، وهذه الخصال رآها الملك عليه؛ ولذا وثق فيه فقال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ (يوسف)[1].

ومن هذه الصفات:

- **العلم**: حيث فسَّر الرؤيا تفسيرًا عجز عنه القوم ويشهد بصحته العقل.
- **الصبر والثبات**: حيث كان في السجن، وطلب الملك خروجه منه، فلم يسرع إلى الخروج، وإنما توقف حتى تظهر براءته مما نسب إليه.
- **حسن الأدب**: حيث ستر ذكر امرأة العزيز، وعرض أمر النسوة: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ (يوسف) مع أن البلاء وصل إليه من جهتها بالذات.

فلما ظهرت للملك هذه الفضائل من يوسف عليه السلام رغب في أن يجعله خالصًا لنفسه، فطلب إحضاره إليه ليكون من خاصته، وأهل مشورته، كما هو واضح من قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴿٥٤﴾﴾ (يوسف) أي: خاطبه، وتحقق من فضله وعلمه، وما هو عليه من كمال خلق قال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ (يوسف)، ذو مكانة ومنزلة، ومؤتمن على كل شيء، فعندئذ طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يوليه خزائن مصر: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف)؛ لأن تولي الخزائن بالذات يُمكِّن يوسف من أن يجتاز بالبلاد المحنة الخانقة، والمجاعة المهلكة.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. مَكِين: ذو مكانة عند الناس ومُعظَّم لديهم.

www.kalemasawaa.com

فهو عليه السلام لم يرغب في الإمارة ويطلبها لذاتها، وإنما ليتوصل من خلالها إلى رعاية مصلحة الأمة، ودفع غائلة[١] القحط والجوع عنها، حتى يمكن القول إن هذا التصرف أصبح واجبًا على يوسف؛ لأنه ـ وهو ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف) ـ القادر على تجنيب البلاد خطر القحط، والضيق الشديد، وغيره ممن ليس على مثل صفاته هذه لا يستطيع ما يستطيعه يوسف، مما يجعل هذا التصرف واجبًا عليه، ومن ثم يزول الاعتراض عليه في طلبه الإمارة[٢].

قال الزمخشري: "إنما قال ـ يوسف ـ ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق، وبسط العدل، والتمكين مما لأجله بعثت الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله، لا لحب الملك والدنيا".

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف): والآية تدل على جواز أن يطلب الإنسان عملًا يكون له أهلًا، فإن قيل: جاء عن عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلتَ إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها"[٣].

وحديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "لا نستعمل على عملنا من أراده"[٤]. وذكر الحديث وغيره.

فالجواب:

١. أن يوسف عليه السلام إنما طلب الإمارة؛ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه، فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعيَّن ذلك عليه، ووجب أن يتولاّها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك كما قال يوسف عليه السلام.

أما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك، فالأولى ألّا يطلبها لقوله ﷺ لعبد الرحمن: "لا تسأل الأمارة"، وأيضًا فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك، وهذا معنى قوله ﷺ: "وُكِل إليها" ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فَرَّ منها، ثم إن أُبتلي بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله ﷺ: "أُعِنْتَ عليها".

٢. أنه لم يقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي ﷺ "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم

---

١. الغائلة: الداهية.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢٤ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب كفارات الأيمان، باب الكفارة قبل الحنث وبعده (٦٣٤٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها (٤٣٧٠).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، باب حكم المرتد والمرتدة (٦٥٢٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها (٤٨٢٢).

www.kalemasawaa.com

يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم"[1]. ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال.

٣. إنما قال ذلك عند من لا يعرفه، فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ (النجم).

٤. أنه رأى ذلك فرضًا متعَيِّنًا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره[2].

إن الظروف قد تأتي بما لا يُحتمل التجربة مع الناس "فمن يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه، ولنفترض أن قومًا ركبوا سفينة، ثم هاجت الرياح وهبَّت العاصفة، وتعقدت الأمور، وارتبك القبطان، وجاءه من يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر، ويُحسن إدارة قيادة المركب، وسبق القبطان أن علم منه ذلك، هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة "[3].

"وأما تولية العمل من يد كافر ويكون تبعًا له، وتحت أمره وطاعته، فإنه يجوز أن يتولى الإنسان المصلح عملًا من قبل سلطان كافر أو جائر، إذا تعين ذلك سبيلًا إلى الحكم بأمر الله، ودفع الظلم، وإذا لم يتم ذلك إلا بتمكين الملك الكافر، وأما الفاسق فلا مانع شرعًا أن يستظهر النبي أو العالم به، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة والظلمة لهذا "[4].

وقد قيل: "كان الملك يصدر عن رأيه، ولا يعترض فيما يراه، فكان الملك في حكم التابع ليوسف عليه السلام، والمطيع له"[5].

ثانيًا. لقد مدح يوسف عليه السلام نفسه ليعلم الملك قدرته على هذا الأمر:

إن قول يوسف عليه السلام عن نفسه ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ ليس مدحًا لنفسه بمقدار ما هو بيان لاتصافه بالصفتين اللازمتين لمن يقوم بهذا الأمر، إذ إن معنى "حفيظ": أمين أحفظ ما تستحفظنيه، ومعنى "عليم": عالم بوجود التصرف، وكأنه غلب على ظنه ضرورة ذكر اتصافه بهاتين الصفتين؛ ليعلم الملك قدرته على هذا الأمر، وأهليَّته له.

على أن مدح الإنسان نفسه ليس مذمومًا إلا إذا قصد منه التطاول والتفاخر والتوصل إلى ما لا يستحق، ويوسف عليه السلام نبي الله لا يقصد هذا قطعًا، فَمَدْحُهُ نفسه إذن ليس محرمًا، وإنما المحرم والمنهي عنه هو مدح النفس وتزكيتها وهي لا تستحق ذلك، أو ما كان على سبيل التطاول والتفاخر.

قال النسفي في معنى قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز؛ لأن المسرَّة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر. وقال ابن كثير في تفسير قوله:

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ (يوسف) (٣٢١٠)، وفي مواضع أخرى.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٢١٥: ٢١٧.

٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١١، ص٦٩٩٨.

٤. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢٥.

٥. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٩.

www.kalemasawaa.com

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ مدح نفسه، ويجوز للإنسان ذلك إذا جُهِل أمره للحاجة[١].

وأما ترك الاستثناء ـ أي عدم إتباع مقولته بقول: إن شاء الله ـ فقد علله الفخر الرازي بأنه لو ذكره لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي. ويصح أن السبب في ترك الاستثناء هو: علمه بأن الملك لكفره لا يستسيغ التعليق على مشيئة الله الواحد الأحد، ويوسف عليه السلام يحاول استمالة الملك بكل رفق ولين ليسند إليه هذا الأمر الذي في قيام يوسف به مصلحة الخلق[٢].

الخلاصة:

- إن للإمارة شروطًا، وضوابط إن توافرت في شخص ما وجب إعطاؤها إياه، وجاز له أن يطلبها إن وجد في نفسه قدرة عليها ومصلحة للناس، وتلك الشروط والضوابط والخصال، قد توافرت في يوسف عليه السلام قبل أن يطلبها، ولا بأس في ذلك.
- لا حرج في تولية الإمارة أو العمل من يد كافر مادام ذلك لا يؤدي إلى محذور شرعي، وثقة العزيز بيوسف عليه السلام جعلته يَكِلُهُ إلى تصرفه الشخصي؛ فامتنع إتيان المحذور من يوسف.
- يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم ومن فضل، ويوسف عليه السلام إنما أراد أن يُعرِّف نفسه للملك؛ ليعلم الملك قدرته على هذا الأمر.

١. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢٦.
٢. المرجع السابق، ٣٢٧ بتصرف يسير.

الشبهة الأربعون

ادِّعاء أن يوسف عليه السلام خان إخوته وأساء إلى أبيه بحبسه أخاه بنيامين(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن يوسف عليه السلام خان إخوته، وأساء إلى أبيه. ويستدلون على ذلك بما فعله من جعل السِّقاية[٣] في رَحْل[٤] أخيه، ومن ثم اتهامه بالسرقة، ثم حبسه بهذه التهمة رغم علمه بتعلق أبيه به قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾(يوسف)[٥]، ويتساءلون: كيف لنبي أن يفعل ما فعل يوسف عليه السلام؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) طلب يوسف عليه السلام أخاه من إخوته، ثم حبسه عن الرجوع إلى أبيه مع علمه بما يلحق أباه من الحزن إنما هو وحي من الله تعالى، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾(يوسف: ٧٦)[٦] فالأمر أمر الله والصنع صنع يوسف عليه السلام.

٢) أحداث الموقف عظات وعبر لأصحاب العقول، وقد بان هذا في فعل يوسف عليه السلام ورد أبيه، إذ كان رده ـ على بنيه ـ رد المؤمن الواثق بالله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴿٨٣﴾﴾(يوسف).

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.
٣. السِّقاية: وعاء من الذهب مُرصَّع بالجواهر.
٤. الرَّحْل: المتاع.
٥. العِيْر: الدَّوابُّ التي تحمل المتاع.
٦. كِدنَا: دبَّرنا.

www.kalemasawaa.com

التفصيل:

أولا. يوسف عليه السلام نبي من أنبياء الله عز وجل، وتصرف الأنبياء لا يكون إلا بوحي، أو لحكمة قدرها الله:

يوسف عليه السلام فعل ما فعل، من طلب أخيه من إخوته، وحبسه عن الرجوع إلى أبيه مع علمه بما يلحق أباه من الحزن، كان بوحي من الله عز وجل إليه زيادة في امتحان أبيه، ولم يُعْلِم أباه خبره - لتسكن نفسه ويزول حزنه - بأمر من الله إمعانًا في الابتلاء لسيدنا يعقوب عليه السلام.

وأما جعل السقاية في رحل أخيه، فالغرض منه التسبب في احتباس أخيه عنده، ويجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى.

ويذهب ابن حزم الظاهري إلى أن يوسف عليه السلام فعل ما فعل ليعود إليه إخوته، ويكون ذلك سببًا لاجتماعه بهم وجمع شملهم جميعًا، وما قصد أن يُحْزن بهذا أباه عليهما الصلاة والسلام.

ولا يستبعد أن يكون يوسف عليه السلام قصد بهذا أمرين:

الأول: الرفق بأخيه الشقيق والحفاظ عليه، فهو يعلم أنه أَثِير[1] عند والده قريب إلى قلبه، وربما حمل هذا بقية الإخوة على الكيد له كما كادوا ليوسف، فأراد عليه السلام أن يضم إليه أخاه رفقًا به، وحفاظًا عليه.

الثاني: أن يجمع شمل الأسرة عنده باحتجاز أخيه الشقيق عنده، ثم مجيء الإخوة الباقين إليه راجين إطلاقه معهم فيعلمهم بنفسه، ويطلب إليهم إحضار أهلهم أجمعين، فتجتمع الأسرة بعد الفرقة.

وأما نداء المنادي بأنهم سارقون، فإما أن يكون من قِبَل المؤذِّن بناءً على ظَنِّه عندما فقد الصواع؛ وعليه فلا إشكال.

وإما أن يكون بأمر يوسف عليه السلام وهو الأرجح، ويراد بالسرقة أخذهم يوسف عليه السلام من أبيه على وجه الخيانة كالسرقة[2]، قال الزمخشري: "وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى المصالح، ومنافع دينية كقوله لأيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ (ص)؛ ليتخلص من جلدها ولا يَحْنَث[3]، وكقول إبراهيم عليه السلام عن زوجته: هي أختي لتسلم من يد الكافر، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد أعلم الله عز وجل في هذه الحيلة التي لقنها يوسف عليه السلام مصالح عظيمة فجعلها سلمًا وذريعة إليها فكانت حسنة جميلة، وانزاحت عنها وجوه القبح"[4].

ثانيًا. أحداث الموقف عظات وعبر لأصحاب العقول:

لما دخل إخوة يوسف عليه السلام عليه بعد أن أحضروا أخًا لهم من أبيهم كما طلب منهم، رأى يوسف عليه السلام أمارات الحزن والأسى بادية على شقيقه، فشاركه بنفسه طعامه وشرابه، وأجلسه معه على فراشه، وجاذبه أطراف الحديث، فلما رأى أنه لا زال يعاني من الكرب والغربة، ولا يزال يأسف على فراق شقيقه يوسف عليه السلام أفصح له عن نفسه وأخبره بحقيقة أمره، وحدَّثه عما وقع منذ خروجه من بيت أبيه مع إخوته، حتى الساعة

---

١. أَثِير: مفضَّل.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢٧، ٣٢٨.

٣. حَنَث في يمينه: لم يُوَفِّها.

٤. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨٣.

www.kalemasawaa.com

التي هو فيها الآن، ففرح بنيامين فرحًا لم يفرح مثله قط، وتبدد حزنه وزال همه وأحس بالأمان. وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (يوسف).

١. احتياله في ضم أخيه إليه:

وقد طمع بنيامين في البقاء مع أخيه، وطمع يوسف عليه السلام فيما طمع فيه أخوه، فعلَّمه الله حيلة يحتال بها على تحقيق هذه الرغبة، تتمثل في وضع السقاية في رحل أخيه قبل انصراف إخوته من مصر، ثم يبعث مؤذنًا ينادي في العير: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (يوسف)، فإذا ما سمعوا هذه المقولة فسيعودون حتمًا إلى ساحة يوسف عليه السلام لإثبات براءتهم، فيبدأ يوسف في التفتيش عن السقاية ـ كما يسميها الخاصة ـ أو الصواع ـ كما يسميها العامة ـ بأوعيتهم، ثم يفتش وعاء أخيه بنيامين فيستخرج منه السقاية، فيكون بذلك قد جاز له أن يبقيه عنده على حسب ما تقضي به شريعة يعقوب عليه السلام فإن السارق يُسْتَرَقُّ[1]، فيكون جزاؤه عند المسروق منه عبدًا رقيقًا يتصرف فيه كيف شاء.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ (يوسف)[2].

والجواب قد سجله الله في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾، فالأمر أمر الله والصنع صنعه، فهو الذي دبَّر هذا الكيد، وقام يوسف عليه السلام بتنفيذه لحكمة يعلمها الله ﷻ، ولعل الله أراد ذلك ليشفي صدر يوسف عليه السلام من هؤلاء الذين كادوا له كيدًا تأباه الفطر السليمة، وتنفر منه الطباع المستقيمة.

ولِيعلم يعقوب عليه السلام ببصيرته وثاقب فِكْره[3] وحسن تقديره للأمور، وجودة فهمه لقرائن الأحوال أن يوسف عليه السلام حي، ويتوقع أنه هو الذي يحكم مصر، ولو على سبيل الظن والتخمين، كما يدل عليه قوله ﷻ: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (يوسف).

ولا يقال: إن يوسف عليه السلام قد اتهم أخاه بالسرقة، وإنما جرت هذه التهمة على لسان المنادي، ولذلك أقبلوا عليه وعلى من معه فقالوا: ماذا تفقدون؟ ولم يقولوا: ماذا سرق منكم، وكأنهم بالعدول عن لفظ السرقة يريدون أن يعلموا هذا المنادي ما ينبغي أن

---

١. يُسْتَرَقُّ: يصير من العبيد.

٢. دين المَلِك: سُلْطَته.

٣. ثاقب فِكْره: فكره البعيد الراشد الصائب.

www.kalemasawaa.com

يقال، إذ كان ينبغي عليه أن يقول: فقدنا صواع الملك، ولعله دخل في رحل واحد منكم سهوًا أو نسيانًا، وما أشبه ذلك من الكلام المقبول، ولقد تعلموا فعلًا منهم ما ينبغي أن يقال، فقالوا: نفقد صواع الملك، ووعدوا من جاء به أن يُعطى حمل بعير من الحبوب، وقال المنادي: أنا بهذا الحمل كفيل.

وقد يقال: إن يوسف عليه السلام هو الذي أمر المنادي أن يقول: إنكم لسارقون على سبيل التعريض، فقد كانوا سارقين فعلًا عندما أخذوه من أبيه وألقوه في الجب، والله أعلم بما كان.

وقد رفع الله مكانة يوسف عليه السلام في العالمين بالحلم والتعفف والعلم والحكمة والنبوة والملك، ورد إليه أخاه تمهيدًا لجمعه بأبويه وسائر أهله وذويه.

٢. موقفه وموقف إخوته بعد استخراج السقاية:

ولما رأى الإخوة السقاية قد استُخرِجت من رحل بنيامين سُقِط في أيديهم، وتحرّكت الأحقاد القديمة في قلوبهم؛ فتفوَّهوا[١] بمقالة سوء ينفون بها عن أنفسهم العار الذي ظنوا أنه لاحقٌ بهم، فاحتملها يوسف عليه السلام منهم، وأخفى وقعها من نفسه عنهم، وأنبأهم بما هم عليه من مكان لا يُحمدون فيه، ومن شرٍ هُمْ مُواقعوه، قال عز وجل: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ (يوسف).

قالوا ذلك سُبّة لأمهما "راحيل" إذ أنجبت ولدين كلاهما سارق، يريدون أن يتنصَّلوا[٢] بذلك من هذا العار الذي ظنوا أنه لاحق بهم جميعًا، وهم على قمة الشرف والطهر.

وقعت هذه المقالة من نفس يوسف عليه السلام موقعًا آلمه وأحزنه، لكنه تحلَّم وصبر واحتسب، واحتفظ بالرد المناسب في الوقت المناسب، وقال في نفسه: أنتم شر مكانًا حيث سرقتم أخاكم من أبيكم، وفعلتم به ما فعلتم، ثم طَفَقْتم[٣] اليوم تفترون على البريء فتتهمونه بما كان بكم ألصق، والله وحده هو الذي يعلم بما تنسبونه إليه ظلمًا وزورًا.

وهذا الموقف يظهر لنا ما تحلَّى به يوسف عليه السلام من حِلْم ورَباطة جَأْش[٤]، وقدرة فائقة على كَظْم الغيظ[٥]، والعفو عن المسيء وهو قادر على الانتقام؛ إذ أَبَت عليه نفسه الزَّكيَّة أن يواجه إخوته بالحقيقة المُرَّة في غير أوانها، وهم في موقف كَرْب وبلاء ومعاناة نفسية بلغت بهم حدًّا لا يؤاخذون فيه على ما يصدر منهم.

وطمع الإخوة في إحسان يوسف عليه السلام، فطلبوا منه أن يتجاوز إحسانه حدَّ الوفاء في الكيل وإكرام النُّزلاء[٦] إلى شيء أعظم عندهم من ذلك بكثير، وهو أن يرد إليهم أخاهم، ويأخذ منهم من يشاء عوضًا عنه، رحمة بأبيهم الشيخ الكبير. قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ (يوسف)، فهم لا يستشفعون لأخيهم في الحقيقة ـ كما يفهم من الآية ـ

١. تَفَوَّهوا: نطقوا.

٢. يتنصَّلوا: يتبرَّأوا.

٣. طَفَقْتُم: أخذتم.

٤. رباطة الجَأْش: ثبات.

٥. كَظْم الغيظ: عدم إظهار الغضب والتَّحكم فيه.

٦. النُّزلاء: جمع نزيل، وهو الضيف.

www.kalemasawaa.com

وإنما يستشفعون لأبيهم الذي بلغ من الكبر عتيًّا[١]، وهم من وراء ذلك أيضًا يستشفعون لأنفسهم؛ ليكونوا أوفياء بالميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم.

وقد تلطفوا به فاسترحموه بقولهم: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾، واستنزلوه عن حقه في استرقاق أخيه بقوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾، لكن يوسف عليه السلام كان يريد أن يلقنهم درسًا في الأخلاق الفاضلة، فقال كما حكى القرآن عنه: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (يوسف).

أي عياذًا بالله أن نبرئ مذنبًا وندين بريئًا، فنأخذ البريء بذنب المسيء، إن ذلك ظلم لا يلتقي أبدًا مع الإحسان الذي تدعونني باسمه، فلما رأوا أن العزيز متمسك بمن وجد متاعه عنده كفُّوا عن التحدّث معه في شأنه، وعكفوا على تدبير أمرهم، وتشاوروا فيما بينهم على كيفية مواجهة أبيهم بهذا الأمر الجلل الذي لم تكن لهم فيه إرادة ولا عزم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ۖ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ۖ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (يوسف).

وقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ معناه: لما بلغ منهم اليأس مبلغًا، بسبب استعاذته بالله مما طلبوه، وهذا التعوذ يدل على أنه أمر في غاية الكراهة عنده، وإنه ظلم ينبغي التعوذ منه، والاحتراز من فعله، فلما قطعُوا الأمل من أخذ بنيامين، خلصوا نجيًّا[٢]، أي خلص بعضهم إلى بعض، واجتمعوا بعيدًا عن الناس يتناجون في أمرهم هذا.

فقد قال كبيرهم هذا: أنسيتم أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله أن تأتوه بابنه سالمًا: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ﴾؟ أي: هل نسيتم ما فعلتموه بيوسف من قبل؟ فكيف تواجهون أباكم، وبماذا تعتذرون إليه؟ وكيف يكون وقع الخبر عليه؟ إلى آخر ما وقع بينهم من همس ومشافهة، وأخذٍ وردٍّ طواه القرآن لعدم جدواه.

وقول كبيرهم بعد هذا التذكير المفجع والكلام الموجع: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (يوسف)[٣] ـ يُعَدُّ تنصلًا من المسئولية، وخذلانًا عن مواجهة الواقع، تخلّصًا من هذا الموقف العصيب، وإن بدا في كلامه حسن الاستسلام لأمر الله عز وجل، وإظهار الرضا بقضائه وقدره.

إنه يريد أن يبقى مكانه في أرض مصر بعيدًا عن المواجهة القاسية التي سوف يلقاها إخوته، فقال لهم ما حكى القرآن عنه: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ (يوسف: ٨١) إلى آخر هذه المقولة التي أوصاهم بها، وفيها خبر وشهادة، وإقرار واستيثاق.

---

١. عَتَى الرجل: كَبُر سِنُّه.

٢. خَلَصوا نجيًّا: انفردوا يتشاورون سرًّا ومناجاة.

٣. أَبْرَح: أذهب من هذه الأرض.

www.kalemasawaa.com

فقولهم: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ (يوسف:٨١) إقرار بشيء لم يقع، وما كان ينبغي أن يقول لهم: قولوا ذلك؛ لما في هذا القول من جفاف وجفاء، وشدة وقع على نفس يعقوب عليه السلام، إن قولهم: ابنك مات أو قتل أخفُّ عليه من قولهم: إن ابنك سرق، لكنها الغلظة التي عرفت في طباعهم، لن يستطيعوا التخلي عنها أو التخلص منها.

وقال لهم كبيرهم: قولوا له معتذرين بعد أن تخبروه بهذا الخبر: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ (يوسف: ٨١) أي فإن سألكم هل علمتم أنه سرق ببينة لا تقبل الجدل، أو كيف حكمتم بأنه سرق، وعلى أي شيء استندتم، فقولوا: ما أقررنا بذلك إلا حين رأينا العزيز، أو أحد فتيانه قد استخرج صواع الملك من رحله، وقد سئلنا قبل التفتيش عن الصواع عن حكم السرقة عندنا فأجبناهم بما علمنا من شريعتنا، فوقع لأخينا ما وقع بقضاء الله عز وجل، و أمر مغيَّب عنا: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ (يوسف). أي ما كنا ندري عواقب الأمور، ولا بواطن الأحوال، فإن كنت في شك من أمرنا، فاسأل القرية التي كنا فيها، وهي عاصمة مصر، واسأل العير التي أقبلنا فيها لتعلم صدقنا وصحة قولنا.

وانظر إلى ما قالوه هنا، وما قالوه عند اعتذارهم عن فقد يوسف، لقد قالوا هنا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (يوسف)، فأكدوا قولهم بأن واللام والجملة الاسمية. وقالوا هناك بشيء من التمني والتحسّر والشكّ والمدارة: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ (يوسف)[1]. فانظر إلى موقفهم هنا وقد جاءوا إلى أبيهم بالصدق كله، وإلى موقفهم من قبل مع يوسف، وقد جاءوا إلى أبيهم بالكذب كله.

وكان من حقهم في هذه المرة أن يقولوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (يوسف) بصيغة الجزم؛ لأنهم يعلمون أن أباهم لا يصدقهم لما عرف من كذبهم في المرة الأولى، ومن عرف بالكذب لم يصدقه أحد، وكان من حقهم أيضًا أن يقيموا على صدقهم الشواهد والبينات، والحق أَبْلَج[2] كما يقولون.

٣. موقف أبيهم بعد سماع الخبر:

وما كاد يعقوب عليه السلام يسمع من أبنائه هذا الخبر المؤلم حتى واجههم بما واجههم به في المرة الأولى حين جاءوه يلقون إليه بالخبر المُفْجِع في يوسف، إنهم مُتَّهَمون عنده في الحالين؛ لأنه كان يتوقَّع منهم أن يُسِيئوه[3] في يوسف عليه السلام وفي أخيه، ففي يوسف يقول لهم: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (يوسف).

وعن ابنه الآخر يقول لهم: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (يوسف). وهكذا يأخذهم بحَدْسه[4] فيهم وظنه بهم وقد صدقه حدسه في الأولى، وتحقق ظنه في الثانية، فوقع المكروه في الحالين: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ

١. مُؤمِن: مُصَدِّق.
٢. الأَبْلَج: الواضح.
٣. يُسِيء: يُحْزِن.
٤. الحَدْس: الفَراسة.

www.kalemasawaa.com

جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ (يوسف)[1].

هي كلمته ذاتها يوم فقد يوسف عليه السلام، ولكنه في هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل.

ومن ثم تتضح لنا العظة والعبرة من هذه القصة، فسيدنا يوسف عليه السلام لما علم حال بنيامين وحال يعقوب عليهما السلام، وما أصابهما من الحزن والقهر على غياب يوسف عليه السلام قرر أن يخفف عن أخيه الهم والكرب فكشف عن حاله، ثم إنه أراد أن يلقِّن إخوته درسًا ويذكِّرهم بما فعلوه في يوسف عليه السلام وما كان من أمرهم، أضف إلى ذلك أن سيدنا يوسف فعل ذلك بوحي من الله ﷻ، وحتى تكون هذه الأحداث سببًا منطقيًّا في جمع شمل الأسرة مرة ثانية بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته من قبل.

الخلاصة:

- يوسف عليه السلام نبي من أنبياء الله ولا يتصرَّف إلا بوحي أو حكمة يراها، والأنبياء بصيرتهم مشرقة، فهم يرون بنور الله، ومعلوم أن الطاعة سبب في ذلك حتى مع غير الأنبياء، فهذا رسول الله ﷺ يقول عن رب العزة ﷻ: "وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها"[2]، فالراجح أن يوسف عليه السلام فعل ما فعل بوحي من الله ﷻ والدليل قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴿٧٦﴾﴾ (يوسف) فتعبير: ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يوحي بأن الأمر وحي من الله ﷻ له، والله أعلى وأعلم.

- أحداث الموقف عظات وعبر لأصحاب العقول، لا تصيّدًا للأخطاء، وقد بان هذا في: فعل يوسف عليه السلام وفعل أبيه، وردّه - ردّ المؤمن الواثق بالله - على بنيه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ (يوسف)، وموقف أخيهم الأكبر الذي تعلّم الدرس وأبى الرجوع إلى أن يأذن له أبوه أو يحكم الله له، والموقف العصيب الذي وضع فيه إخوة يوسف عليه السلام، وقد تعلموا منه الكثير.

الشبهة الحادية والأربعون

دعوى خطأ القرآن في ذكر عدد مرات مجيء إخوة يوسف عليه السلام لمصر وسجنه أخاه بنيامين (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم أخطأ في عدد مرات مجيء إخوة يوسف لمصر، فالقرآن يذكر أنهم جاءوا أربع مرات، وتزعم التوراة أنهم جاءوا ثلاث مرات، كما يزعمون أن يوسف عليه السلام سجن أخاه بنيامين، وهو ما لم يذكره القرآن، إضافة إلى تعليقهم على قول الله ﷻ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ (يوسف)، بأن

١. سوَّلت: حبَّبت لكم، وأغرتكم، وهوَّنت عليكم هذا الأمر.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦١٣٧).

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.

www.Islameyat.com
www.kalemasawaa.com

يوسف عليه السلام أخذ أخاهم شمعون رَهِينة[1]، وهذا تفسير قول الله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ أي: يوسف عليه السلام، وبنيامين، وشمعون.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم يخطئ القرآن الكريم في سرد الوقائع التاريخية، فقد صوب الخطأ وأضاف الكثير من الحقائق؛ لأنه الكتاب الخاتم، أما التوراة فقد حُرِّفت، فلا يُعتدُّ بما جاء فيها.

٢) أخذ سيدنا يوسف عليه السلام أخاه لحيلة دبَّرها معه ليسعد بمجاورته، ويعيد جمع أسرته بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته.

٣) عدد مرات مجيء إخوة يوسف عليه السلام لمصر أربع مرات، كما يقتضي المنطق، وسياق الأحداث، وليس ثلاثة، كما نصَّت التوراة فقد تناقضت في هذا الشأن كما تناقضت في غيره.

التفصيل:

أولا. لم يخطئ القرآن في سرد الوقائع التاريخية، فقد صوّب وأضاف؛ لأنه الكتاب الخاتم أما التوراة فقد حُرِّفت، فلا يُعْتَد بما جاء فيها:

لم يخطئ القرآن الكريم في سرد الوقائع التاريخية فقد صوَّب وأضاف؛ لأنه الكتاب الخاتم، الذي لم يُحرَّف كما حُرِّف غيره من الكتب السماوية السابقة، أما التوراة المحرفة فلا يُصدق ما جاء بها؛ لأنها قول بشر والأدلة على ذلك كثيرة منها:

- إغفال التوراة لبعض أحداث قصة سيدنا يوسف عليه السلام، مثل قصة وليمة امرأة العزيز للنسوة وقد تحدث عنها القرآن®.

- أطلقت التوراة على حاكم مصر آنذاك ـ فرعون ـ وهو اسم مصري قديم مُكَوَّن من جزئين "بر" أي: بيت، و"عما" أي: عالي، فيكون المعنى للاسم "البيت العالي"، وهو أشبه بلقب "البيت الأبيض" عند الأمريكان في العصر الحاضر.

أما القرآن الكريم فلم يستخدم هذا الاسم للدلالة على حاكم مصر أيام يوسف عليه السلام، وإنما لقّبه بـ "الملك"، وهذا هو الصحيح تاريخيًّا وعلميًّا، فقد ثبت صدق القرآن الكريم في هذه التسمية؛ إذ إن حاكم مصر قبل يوسف عليه السلام وبعده كان يلقب بـ "فرعون"، أما في زمن يوسف فقد حكم الهكسوس بعد أن انتصروا على الفراعنة، حتى تجمع الفراعنة وطردوهم منها.

ومما يؤكد هذا أن القرآن الكريم قد سرد بدقة بالغة قصّة كل حاكم في زمنه ـ وصف حكّام مصر بأنهم الفراعنة، ثم جاء الهكسوس فلم يكن هناك فرعون، ولكن كان هناك ملك، أطلق عليه القرآن الكريم لقب "العزيز"، وعندما جاء موسى عليه السلام، كان الفراعنة قد عادوا لحكم مصر. فإذا كان هذا الأمر لم نعرفه إلا في مطلع القرن الخامس عشر عندما اكتشف الفرنسيون حجر رشيد، ولكن القرآن أرّخ له التأريخ الصحيح منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان ـ وهذه معجزة تُضَم لمعجزات كثيرة في القرآن ـ ووضعه في موضعه

١. الرَّهينة: الضمان.

® في "وليمة امرأة العزيز للنسوة في قصة يوسف" طالع أيضًا: الشبهة الخامسة والثلاثين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

الصحيح والسليم[١].

وبناء عليه، فإن ما جاء به القرآن هو الصواب قطعًا، وما عداه هو الباطل.

ثانيًا. أخذ سيدنا يوسف عليه السلام أخاه لحيلة دبرها معه؛ ليسعد بمجاورته ولعودة التئام شمل الأسرة بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته:

لقد أكرم يوسف عليه السلام إخوته أيّما إكرام وأحسن وِفادَتهم[٢]، وقد ذكر القرآن إكرامه وفادة إخوته على هذا النحو: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (يوسف).

وعلى ذلك فإن يوسف عليه السلام يجبرهم على العودة باحتجاز أخيه الأكبر رهينة كما تصور التوراة خطأً وزورًا، بل أكرم وفادتهم، وهذا يتفق مع خُلُقه الكريم، وقد بالغ في إغرائهم بالرجوع إليه، فأمر فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم التي جاءوا بها في رحالهم، حتى إذا وجدوها همُّوا بردها عليه، لظنهم أنه نسيها في رحالهم، أو الطمع في المزيد من هذا الإكرام الذي فاق تصورهم، وحاز إعجابهم، فقد وجدوا فيه الإحسان ماديًّا ومعنويًّا، فلماذا لا يرجعون إليه ومعهم أخوهم بنيامين، وكانت حجتهم لأبيهم حتى نوسع على أهلنا ونزداد كيل بعير.

إذن فما كان ليوسف أن يتخذ منهم رهائن، فهو يثق في نصر الله وإكرامه إياه بالتئام شمل الأسرة ثانيةً، ورؤية أخيه وأبيه، وللعاقل أن يقارن بين أسلوب القرآن الكريم الذي يذكر إكرامه وفادتهم، وتصوير التوراة المخزي لنبي من أنبياء الله عز وجل فتجعله سجَّانًا لأخيه دون شفقة أو رحمة لصغره، وبراءته من أي ذنب، كما تجعله متَّخذًا للرهائن من أقرب الناس إليه.

والسؤال المطروح الآن: لماذا يسجن يوسف أخاه، وقد أراد أن يسعد بجواره؟ وهل يتفق هذا مع خلق الأنبياء، وعصمتهم وعدلهم؟

لم يتخذ يوسف عليه السلام أخاه - شمعون - رهينة إلى حين مجيء إخوته ومعهم بنيامين، فهذا ينافي الواقع، فأخو يوسف الأكبر هو بنفسه - رفض أن يرجع مع إخوته إلى أبيهم، كما قصَّ القرآن الكريم، تمسكًا بما شاهد، وحفاظًا على عهد أبيه، قال تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِي فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (يوسف).

كما أن التوراة تتناقض فيما بينها في هذا الشأن فتارة تقول شمعون، وتارة تقول رأوبين.

واستنادًا إلى ما سبق فإن الخلاف بين التوراة وبين القرآن في سرد حوادث القصة، لا يدل على عيب في القرآن بل يدل على ما في التوراة من زيادة ونقص في النسخة الواحدة، وفي النسخ الثلاث، ومع هذا ففي

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١، ص٣٢٦، ٣٢٧ بتصرف.

٢. وِفادتهم: قُدُومهم ومَجيئهم.

www.kalemasawaa.com

التوراة ما يدل على ما جاء في القرآن، ومن ذلك[1]:

١. "وولد ليوسف في أرض مصر: منسى وأفرايم، اللذان ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون". (التكوين٤٦: ٢٠)، ويعقوب عليه السلام أبوه من الأنبياء الملهمين ويدل على ذلك قوله كما حكى القرآن: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴿٩٤﴾﴾ (يوسف)، وقوله: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف). إذن فقوله تعالى في الآية التي احتجوا بها: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ (يوسف: ٨٣) هكذا بضمير الجمع "بهم" وقد صرَّح من بعد بفقد اثنين هما: يوسف، وأخيه فقط؛ لا يدل على ولد ثالث محبوس في مصر، وإنما يدل على ولدي يوسف.

٢. أن التوراة ليس فيها ما يدل على سجن بنيامين، وهو أنه لما دبَّر حيلته في استبقائه وتمت الحيلة، طلبوا منه أن يطلقه فردَّ عليهم بقوله: "حاشا لي أن أفعل هذا. الرجل الذي وُجد الطاس في يده هو يكون لي عبدًا وأما أنتم فاصعدوا بسلام إلي أبيكم" . (التكوين ٤٤: ١٧). إذن فقوله: "هو يكون عبدًا لي" معناه: أنه استبقاه في مصر، وليس سجنه فهذا تناقض، وفهم خطأ لتوراتهم المحرفة، فضلًا عن فهمهم الخاطئ للقرآن الكريم، وهذا ديدنهم.

٣. في التوراة ما يدل على بقاء كبيرهم في مصر، مع يوسف وبنيامين، وكبيرهم هو رأوبين وليس شمعون، ولا يهوذا كما قال كاتب التوراة. ومما يدل على بقاء كبيرهم: أنه استعطف يوسف عليه السلام بقوله: "فالآن ليمكث عبدك عوضًا عن الغلام، عبدًا لسيدي، ويصعد الغلام مع إخوته. لأني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي؟ لئلَّا أنظر الشر الذي يصيب أبي". (التكوين ٤٤: ٣٣، ٣٤)[2].

ثالثًا. عدد مرات مجيء إخوة يوسف عليه السلام لمصر أربع مرات كما يقتضي المنطق وسياق الأحداث وليس ثلاثة كما نصّت التوراة:

ذكر القرآن الكريم أن إخوة يوسف عليه السلام جاءوا مصر **للمرة الأولى** طلبًا للميرة والطعام حيث قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يوسف)، وكما تقص الآية الكريمة أن سيدنا يوسف عليه السلام عرف إخوته غير أنهم له منكرون، ولذا أمر فتيانه بوضع بضاعتهم التي جاءوا بها إلى مصر للمقايضة والبيع، حتى يعطيهم الأمل في العودة مرة أخرى وكذلك أعلن لهم صراحة أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم حيث يرون كرمه وفضله، وعندما عادوا إلى بلدهم وجدوا بضاعتهم، لذلك قرروا العودة إما ردًّا للتجارة أو طمعًا في المزيد فجاءوا بأخيهم، وهو دخولهم **المرة الثانية**، فآواه يوسف عليه السلام عن طريق الحيلة المذكورة في التوراة والقرآن، وهي فقدان صواع الملك؛ فرفض العودة معهم أخوهم الأكبر فعادوا إلى أبيهم يخبرونه بما حدث، فأمرهم أبوهم أن يرجعوا، ويتحسسوا من يوسف وأخيه، ولا ييأسوا من روح الله، فاستجابوا لأبيهم، وجاءوا **للمرة الثالثة**، وعندئذ كشف لهم يوسف عليه السلام عن حقيقة الأمر، وأمرهم بأن

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٩٣.

٢. المرجع سابق، ص٤٩٤.

www.kalemasawaa.com

يرحلوا ويأتوا بأهلهم أجمعين، فكان دخولهم جميعًا مع أبويهم، وهذه هي **المرة الرابعة**، وهذا هو الواقع الحقّ.

وبالعرض السابق للحقائق التي ذكرها القرآن، ولم يرد لها ذكر في التوراة، يتبين لنا أن التوراة محرفة استبعد كاتبها ما يريده، وأضاف إليها ما يحلو له، فوقع في العديد من الأخطاء، والتناقضات التي لا تثبت أمام النقد الدقيق[1].

الخلاصة:

- لم يخطئ القرآن الكريم في سرد الوقائع التاريخية، فقد صوب وأضاف؛ لأنه الكتاب الخاتم الذي سلِم من التحريف، أما التوراة المحرفة فلا يُصدَّق ما جاء بها؛ لأنها قول البشر. ويدل على تحريفها تناقضها مع الحقائق التاريخية ومع نفسها.
- ومما يدل على تحريف التوراة أن: التوراة تذكر أن الحاكم زمن سيدنا يوسف عليه السلام كان فرعون، والقرآن يذكر أنه ملك، فاختلاف الألقاب هنا على أساس العصور؛ إذ كان الهكسوس آنذاك هم حكام مصر وليس الفراعنة، حيث طرد الهكسوس الفراعنة من مصر بعد تغلبهم عليهم، والحاكم عند الهكسوس يطلق عليه لفظ "ملك" وليس "فرعون"، ولم يُعرف هذا إلا بعد اكتشاف حجر رشيد، وقد تحدَّث عنه القرآن منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان. وهذا مما يؤكِّد عصمة القرآن وإعجازه العلمي، كما يؤكَّد على تحريف التوراة وعبث البشر بها.
- سجن يوسف لأخيه لا يليق بعصمته عليه السلام، فهو نبي أدَّبه ربُّه فحَسُن خُلُقُه، والقرآن يحكي أنه أكرم وفادة إخوته، وبالغ في إعطائهم، وترك لهم بضاعتهم فلم يأخذها مقابل ما أعطاهم من قمح؛ حتى يُحفِّزهم كرمه على العودة ثانية ومعهم أخوه بنيامين طمعًا في عطاياه، ولم يسجن أخاه بالطبع لبراءته، وكيف يتوقّع ممن أراد أن يسعد بجوار أخيه ويهنأ بالقرب منه بعد غياب وحرمان، كيف يتسنى له أن يسجنه؟! ولم يأخذ رهائن منهم ـ كما زعمت التوراة ـ بل إن كبيرهم كما حكى القرآن فضّل البقاء على رؤية الحزن في عين أبيه، فهي مسألة اختيارية إذن.
- ومن تناقض التوراة في ذكر اسم الرهينة، يتضح لنا عبث الكاتب فهذا خيال البشر، فتارة يذكر أنه شمعون، وأخرى أنه يهوذا، والأخ الأكبر كان رأوبين، ليس هذا ولا ذاك.
- أما عدد مرات مجيء إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر فأربع، وليس ثلاث كما زعمت التوراة، ومن خلال العرض السابق يتضح لنا أن القرآن قال هذا وقوله الحق، أما التوراة فقد تناقضت في هذا الشأن كما تناقضت في غيره.

الشبهة الثانية والأربعون

إنكار حقيقة قميص يوسف عليه السلام، ومعجزة شفاء يعقوب عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

أنكر بعض المغرضين معجزة قميص يوسف التي

١. انظر: قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق..

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.

www.Islameyat.com
www.kalemasawaa.com

أشار إليها القرآن في قوله ﷻ: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾(يوسف). وينتقدون تفسير مجاهد للآية، بأن قميص يوسف عليه السلام هو نفسه قميص إبراهيم عليه السلام الذي جاء به جبريل عليه السلام من حرير الجنة فألبسه إيّاه لمّا أُلقي في النار عُريانًا. ويحتجون في إنكارهم بأن ذلك لم يرد في التوراة. ويتساءل هؤلاء: كيف يلبس أهل الأرض ثياب أهل السَّماء؟ وكيف يصحب القميص عمل المعجزات على أيدي الذين توارثوه أيًّا ما كانوا؟

وجوه إبطال الشبهة:

١) معجزة الشفاء بالقميص تدل على قدرة الله الذي يقول للشيء "كن فيكون"، وتفسير بعض المفسرين لنصوص القرآن ليس حجة على القرآن، إذ المجتهد في الإسلام له أجران إن أصاب، وأجرٌ واحدٌ إن أخطأ.

٢) اختلفت حادثة القميص في التوراة عنها في القرآن؛ لأن التوراة المحرفة تركز على الأشياء المادية المحسوسة، أما القرآن فيذكر أنها معجزةٌ لنبي كسائر معجزات الأنبياء.

٣) تناقض نصوص التوراة مع القرآن ليس حجة على القرآن، بل هو حجة له، فالثابت أن التوراة محرفة؛ فلا يؤخذ منها إلا ما وافق القرآن المعصوم من التحريف.

التفصيل:

أولا. معجزة الشفاء بالقميص تدل على قدرة الله، وتفسير بعض المفسرين لنصوص القرآن ليس حجة عليه:

إن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، حين قصّ إلقاء القميص على وجه يعقوب عليه السلام فارتد بصيرًا، لم يذكر لنا أن هذا القميص كان قميص إبراهيم عليه السلام الذي لبسه في النار فنجاه الله منها، أو غيره، وإنما الذي ذكره أنها معجزة حدثت مع نبي من أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ لتدل على صدق نبوته.

وانطلاقًا من هذا فتفسير مجاهد لقميص يوسف على الوجه المذكور لم ينص عليه القرآن، وبالتالي فليس حجة على القرآن، ولا مُلزمًا له، فقد يكون هذا الخبر صحيحًا، وقد لا يكون صحيحًا، والذي ذكره القرآن الكريم أن يوسف عليه السلام قال لإخوته: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾(يوسف:٩٣)، فكانت هذه معجزة ليوسف عليه السلام، والمعجزة فعل الله ﷻ يظهره على يد نبي من أنبيائه تأييدًا له وتصديقًا لدعواه، وهذا في الغالب وحي إلهام من الله ﷻ إلى نبيه يوسف بهذا الأمر، وإلى أبيه يعقوب قبل أن يصل إخوة يوسف ومعهم قميصه، ليزفوا إليه البشري فعبر عن هذا بقوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾(يوسف).

وتحقق ما أخبر به يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾(يوسف: ٩٦)، فالمعجزة في تحقق خبر يوسف عليه السلام، والقميص ما هو إلا أداة لتحقق المعجزة، وليست المعجزة في القميص ذاته، ولو كان الأمر خاصية في القميص لما كان في ذلك معجزة، ولا تأييد من الله ﷻ وإنما يعود إلى هذه الخاصية، كالحديد الممغنط مثلًا.

www.kalemasawaa.com

وهذا يشبه عصا موسى عليه السلام التي كان يستخدمها موسى عليه السلام قبل نبوَّته في الحاجات المعتادة، فأظهر الله المعجزات عليها.

وشفاء سيدنا يعقوب عليه السلام بوضع القميص على وجهه معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب، ولكن المهم هو طريقة الشفاء، وهي إرادة الله المنحصرة في "كن فيكون"، وهي خارجة عن كل السنن الطبيعية التي أمر الإنسان أن يتعلمها، فعظمة المعجزة ليست في النتيجة فحسب، ولكن في طريقة الشفاء.

وكما أن ردَّ بصر يعقوب عليه السلام بالقميص معجزة، كان شمه لريح يوسف عليه السلام على بُعد أيضًا معجزة يجب التصديق بها من غير بحث عن العلَّة والكيفية.

فلما برئ يعقوب عليه السلام من مرضه، وكشف الله همَّه وحزنه وفك كربه، أجاب مَن لاموه بما كان عليه من علم قطعي من ربه بصدق ما قاله لهم حين فصلت العير، وهذا هو الوقت المناسب للجواب، فقد قال لهم مقررًا صدق قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (يوسف)، أي: ألم أقل لكم يوم أرسلتكم إلى مصر، وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم من اليأس من روح الله، وأقل لمن وراءكم في أثناء غيبتكم: إني لأجد ريح يوسف، وإني أعلم بوحي الله لا من خطرات الأوهام ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام، فكان عليكم جميعًا أن تصدقوني في كل ما قلته؛ لأني نبي يُوحى إلى، وما كان ينبغي أن تشكُّوا في شيء مما ذكرته لكم[1].

ثانيًا. اختلفت حادثة القميص في التوراة عنها في القرآن؛ لأن التوراة المحرفة تركز على الماديات، والأشياء المحسوسة، أما القرآن فيذكر أنها معجزة لنبي كسائر معجزات الأنبياء:

تفرد القرآن بذكر إرسال قميص يوسف عليه السلام إلى أبيه، ولم يرد ذكره في التوراة، فقد جاءه البشير أولًا حاملًا الأخبار السارة بالعثور على يوسف عليه السلام وأخيه أحياء يرزقون، ومكانة يوسف عليه السلام العالية في مصر، ثم أثر يوسف الذي يحمل رائحته الطيبة، وهو قميص الشفاء الذي أُلقي على وجه يعقوب عليه السلام فارتد بصيرًا.

ومما تجدر الإشارة إليه اختلاف وجدان يعقوب عليه السلام في القرآن الكريم عمّا جاء في التوراة، فالقرآن الكريم أكد أن يعقوب عليه السلام شم رائحة يوسف عليه السلام التي لم تغيرها السنون فأحس بقرب وصدق حسه، وطلب منه الأبناء أن يستغفر لهم ربه الغفور الرحيم.

أما التوراة فقد صوَّرت يعقوب عليه السلام بالمغشي عليه حين عرف أمر يوسف عليه السلام كما جاء في سفر التكوين: "فصعدوا من مصر وجاءوا إلى أرض كنعان، إلى يعقوب أبيهم. وأخبروه قائلين: يوسف حي بعد، وهو متسلط على كل أرض مصر. فجمد قلبه لأنه لم يصدقهم. ثم كلموه بكل كلام يوسف الذي كلمهم به، وأبصر العجلات التي أرسلها يوسف لتحمله.

---

١. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص١٤٣، ١٤٤.

www.kalemasawaa.com

فعاشت روح يعقوب أبيهم. فقال إسرائيل: كفى! يوسف ابني حي بعد. أذهب وأراه قبل أن أموت". (التكوين ٤٥: ٢٥ـ ٢٨).

وهذه إشارة واضحة تؤكد أن التوراة من كلام بشر يُركز على المادة، ووسيلة النقل التي تنعش الروح.

فشتان ما بين هذا وأسلوب القرآن الكريم الذي صرح بأن يعقوب عليه السلام صار أقوى من ذي قبل، فلو تأملنا لفظ القرآن "بصيرًا" هكذا بصيغة المبالغة، وليس بصيغة اسم الفاعل، لرأينا أنه قد تبدل الحزن، والوهن، والضعف إلى قوة واستبشار مع هذه المعجزة. ألا يدل هذا على أنها تأييد من الله ونصرة لعبديه الصابرين الكريمين[1]؟!

ثالثًا. تناقض نصوص التوراة ليس حجة على القرآن؛ لأننا لا نأخذ بما جاء فيها إلا إذا اتفقت مع نصوص القرآن الكريم:

إن بعض نُسَخ التوراة تصرِّح بعَمَى يعقوب عليه السلام، وأنه سيبصر إذا وضع يوسف يده على عينيه، ومن ذلك: "أنا أنزل معك إلى مصر، وأنا أصعدك أيضًا، ويضع يوسف يده على عينيك". (التكوين ٤٦: ٤)، وفي نسخة ثانية تنفي التوراة عمى يعقوب عليه السلام، وفي نسخة ثالثة تكتفي بالنص على ضعف بصر يعقوب: "وأما عينا إسرائيل فكانتا قد ثقلتا من الشيخوخة، لا يقدر أن يبصر، فقربهما إليه فقبلهما واحتضنهما". (التكوين ٤٨: ١٠).

واستبعاد شفاء يعقوب برؤية القميص، لا محل له؛ وذلك لأن في التوراة ما يشبه مثل هذه الحادثة. فنبي الله اليسع عليه السلام، لما مات ودفنوه في قبره، دفنوا معه بعد فترة من الزمن ميتًا، فلما مست عظامه عظام اليسع، رُدّت إليه روحه، وهذا أشد إعجازًا من قميص يعقوب عليه السلام، ففي سفر الملوك الثاني: "ومات أليشع فدفنوه. وكان غزاة موآب تدخل على الأرض عند دخول السنة. وفيما كانوا يدفنون رجلًا إذا بهم قد رأوا الغزاة، فطرحوا الرجل في قبر أليشع، فلما نزل الرجل ومس عظام أليشع عاش وقام على رجليه". (الملوك الثاني ١٣: ٢٠، ٢١)[2].

إذن فلماذا العنت عندما تكون المعجزة من خلال القرآن، وهم يؤمنون بوجودها وواردة في كتبهم؟ فَلِمَ ينكرون هذا الحدث مع نبيين من أنبياء الله كريمين ـ يوسف ويعقوب عليهما السلام ـ أليسا من أنبياء الله المؤَيَّدين بالمعجزات؟!

مما سبق يتضح لنا أن قميص يوسف عليه السلام الذي ألقاه إخوته على وجه أبيهم فارتد بصيرًا صحيح كما ورد ذكره في القرآن الكريم، وهذا إنما يدل على قدرة الله سبحانه وتعالى الذي يقول للشيء: "كن فيكون"، وعلى صدق نبوة يوسف وأبيه ـ عليهما السلام ـ حيث أيدهما الله بالمعجزات كغيرهم من الأنبياء والرسل الكرام.

الخلاصة:

- معجزة الشفاء بالقميص التي أنكرها هؤلاء تدل على قدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون، أما تفسير "مجاهد" بأن هذا قميص النبوة المتوارث عن

١. انظر: جولة نقدية في نصوص الرواية التوراتية، محمد صالح توفيق، مرجع سابق.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٩٥، ٤٩٦.

www.kalemasawaa.com

سيدنا إبراهيم عليه السلام، فهو اجتهاد بشر في نص من نصوص القرآن، فليس حجة على القرآن، ولا ملزمًا له، فالمجتهد في الإسلام له أجر واحد إن أخطأ، وأجران إن أصاب.

• شفاء يعقوب عليه السلام بوضع القميص على وجهه معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان، وليس المهم هو القميص، أو وضعه على وجهه، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب، ولكن المهم هو طريقة الشفاء، وهي إرادة الله المنحصرة في "كن فيكون".. فعظمة المعجزة ليست في النتيجة فحسب، ولكن في طريقه الشفاء.

• اختلاف حادثة القميص في التوراة عنها في القرآن؛ لأن التوراة المحرفة تركز على الماديات والأشياء المحسوسة، فتحكي أن يعقوب عليه السلام انتعشت روحه حينما رأى المركبات المحملة بالخيرات.

• فأين هذا من أسلوب القرآن الحكيم الذي وصف يعقوب عليه السلام أنه ابيضت عيناه من الحزن لكثرة الألم، وشدة البكاء؟! وظل آملًا في روح الله ونصرته، وقد صار أقوى من ذي قبل؛ بإلقاء القميص على وجهه، فالعينان الضعيفتان اللتان أنهكهما البكاء والشيخوخة قد صارتا مبصرتين وقويتين، كأنهما لم يصابا بعمى ولا ضعف من قبل، وهذا فضل الله ونعمته على عباده الصابرين.

• على أن ما رأينا من معجزات مع سيدنا يعقوب ويوسف ـ عليهما السلام ـ ليس بغريب، فالله ﷻ يؤيد بنصره من يشاء من عباده، ومعجزات سائر الأنبياء لا تخفى على أحد؛ فلماذا ينكرونها على هذين النبيين الكريمين؟!!

• التوراة تتناقض في هذا الشأن فبعض النسخ تذكر أن يعقوب عليه السلام أصيب بالعمى، والأخرى لا تذكره، ومن أجل هذا التحريف لا نصدق كل ما جاء بها إلا إذا اتفق مع نصوص القرآن الكريم. كما أن التوراة التي تنكر هذه المعجزة لنبي الله يعقوب تشتمل على معجزات مماثلة، كما جاء في سفر الملوك الثاني: "أن اليسع بعد موته وضعوا في قبره ميتًا فردت إليه روحه بملامسته". فأيهما أشد إعجازًا إحياء الموتى، أو رد الإبصار بعد العمى؟!

الشبهة الثالثة والأربعون

الفهم الخاطئ لسجود إخوة يوسف له عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض الجاهلين أن يوسف عليه السلام أسجد أبويه وإخوته له، وكان السجود بوضع الجباه على الأرض، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ (يوسف: ١٠٠) والسجود لا يكون إلا لله، وبذلك يكون يوسف عليه السلام قد أعطى نفسه حقًّا من حقوق الله تعالى. ويتساءلون: كيف يعطي نفسه ـ وهو نبي ـ حقًّا لا يكون إلا لله؟

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

وجه إبطال الشبهة:

سجود إخوة يوسف عليه السلام كان سجود تحية وتكريم له، أو سجود حَمْدٍ وشكر لله على وجوده، وليس سجود عبادة، فذلك لا يكون إلا لله، وكان سجود الملائكة لآدم عليه السلام من هذا القبيل.

التفصيل:

الفهم الصحيح لسجود إخوة يوسف له:

إن الفهم الخاطئ لمعنى السجود في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ (يوسف: ١٠٠) هو الذي دفع هؤلاء إلى توهّم أن يوسف عليه السلام قد أعطى لنفسه حقًّا من حقوق الله وهو السجود له، وقد جهل هؤلاء أن السجود في اللغة له معانٍ عدة غير العبادة، يمكننا أن نعرضها لنوضح لهم المعنى الصحيح لسجود إخوة يوسف عليه السلام وأبويه له، وهي كما ذكر د. محمد أبو النور الحديدي:

١. أن السجود إنما كان لله شكرًا له من أجل لقائهم بيوسف عليه السلام وتكون اللام في قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤﴾ (يوسف) للتعليل. نسبه الفخر الرازي إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، ويستدل على صحته بقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ (يوسف: ١٠٠)؛ فهو مشعر بأنهم صعدوا على ذلك السرير، ثم سجدوا ليوسف عليه السلام، فلو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير؛ لأن ذلك أدخل في التواضع.

ويرى الفخر الرازي: أن هذا القول أولى الأقوال بالقبول، فيقول: وعندي أن هذا التأويل متعين؛ لأنه يُستبعد من عقل يوسف عليه السلام ودينه أن يرضي بأن يسجد له أبوه مع سابقته في حقوق الولادة، والشيخوخة والعلم، والدين، وكمال النبوة[1].

٢. أن السجود لله شكرًا لنعمة وجود يوسف، إلا أنهم جعلوا يوسف عليه السلام كالقبلة، وتكون اللام بمعنى "إلى" واستدل عليه الفخر الرازي بالقرآن وبالشعر؛ أما القرآن فقول الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ (الإسراء: ٧٨)؛ أي عند دلوك الشمس، والصلاة لله لا لدلوك، فإذا جاز ذلك فإنه يجوز أن يقال: صليت للقبلة، مع أن الصلاة تكون لله تعالى لا للقبلة. وأما الشعر فقول حسان:

ما كنت أعرفُ أن الأمرَ منصرفٌ

عن هاشمٍ ثمَّ منها عن أبي حسنِ

أليس أول من صلى لقبلتكم

وأعرف الناسِ بالقرآنِ والسنن

وعلى هذا فمعنى ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ (يوسف: ١٠٠) جعلوه كالقبلة، ثم سجدوا لله شكرًا لنعمه عليهم، واستحسن الفخر الرازي هذا التأويل، وقال: وهذا التأويل حسن.

٣. أن السجود للآدمي كان عندهم جائزًا، وكان تحية الملوك في زمنهم.

قال الزمخشري: إن السجدة كانت عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد، ونحوه مما جرت عليه عادة الناس من أفعال

---

١. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، مرجع سابق، ج٥، ص١٧١.

www.kalemasawaa.com

شُهدت في التعظيم والتوقير[١].

ثم جعل الله تحية هذه الأمة السلام الذي هو تحية أهل الجنة، نقل الآلوسي عن قتادة قوله: كان السجود تحية الملوك عندهم، وأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام، تحية أهل الجنة كرامة منه تعالى عجَّلها لهم. ولم يذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية غير هذا الرأي، وهو يُشعِر باختياره له وترجيحه على ما عداه، ويقول: كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلَّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم عليه السلام إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرُم هذا في هذه الملة ـ أي الإسلام ـ وجُعِل السجود مختصًّا بجانب الرب عز وجل.

ويستدل على هذا بحديثين:

الأول: أن معاذًا رضي الله عنه قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: "ما هذا يا معاذ"؟ فقال: أتيتُ الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال ﷺ: "فلا تفعلوا، فإني لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها"[٢].

الثاني: أن سلمان رضي الله عنه لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ فقال: "لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت"[٣][٤].

وهذا الذي اختاره الإمام ابن كثير هو رأي الأكثر[٥].

هذا وقد سجد الملائكة لآدم عليه السلام سجود تحية وتكريم، ولم يسجدوا له سجود عبادة؛ لأن سجود العبادة لا يكون إلا لله عز وجل، فإخوة يوسف سجدوا له تكريمًا وتحية، على أي معنى من معاني السجود، ومن ثم فلا إشكال، ولا سيما أن ذلك كان جائزًا في الشرائع السابقة، ولم يُحرَّم إلا في شريعة الإسلام؛ تحقيقًا لمعنى مساواة الناس في العبودية®.

الخلاصة:

- إن الفهم الخاطئ لمعنى سجود إخوة يوسف عليه السلام وأبويه له، هو الذي دفع بعضهم إلى أن يتوهم أن يوسف عليه السلام قد أعطى لنفسه حقًّا من حقوق الله، ولو أنعم هؤلاء النظر في معاني السجود في اللغة، لتجلت لهم الحقيقة كاملة.
- الحقيقة أن سجود إخوة يوسف عليه السلام له، لم يكن سجود عبادة، بل سجود شكر لله تبارك وتعالى على جمعهم بيوسف عليه السلام، أو هو سجود تحية وتكريم ليوسف عليه السلام وكان السجود للسادة والملوك جائزًا في الشرائع السابقة وقد حُرِّم في الإسلام.

---

١. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٤.

٢. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننها، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة (١٨٥٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٥٠٣).

٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج٤، ص٢٨٦.

٤. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، سورة الفرقان (١٤٢٤٢).

٥. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٣٤، ٣٣٥.

® في "حقيقة سجود الملائكة لآدم" طالع أيضًا: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء. والوجه الرابع، من الشبهة الخامسة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

www.kalemasawaa.com

الشبهة الرابعة والأربعون

ادِّعاء أن نبي الله أيوب عليه السلام كان غضوبًا(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن أيوب عليه السلام كان غضوبًا، وغضبه أدى به إلى الحلف على زوجته بأن يضربها مائة جلدة، ويستدلون بقوله ﷻ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ (ص). ويتساءلون: كيف يغضب أيوب عليه السلام على زوجته التي رعته وسهرت على تمريضه ومعالجته مدة طويلة، وهو البارُّ الصبور الذي صبر على ضياع أولاده، وعبيده، ومواشيه؟!!

وجها إبطال الشبهة:

١) الآية المذكورة لم تُثبت لأيوب عليه السلام غضبًا شخصيًّا، بقدر ما أثبتت له غضبًا لأجل الدين، فهو لم يُقْسم على ضربها إلا بعد أن علم أن الشيطان خادعها، وساومها على سلامة اعتقادها، وهذا لا يعني أنه لم يحفظ جميل زوجته.

٢) أيوب عليه السلام لم يوصف في القرآن بالغضب، ولكنه وصف بالصبر وأنه أوَّاب؛ فقد كان مؤمنًا بالله عابدًا تقيًّا صابرًا؛ ولذلك خفف الله عليه البِرَّ بقسمه.

التفصيل:

أولا. الآية لم تثبت لأيوب غضبًا شخصيًّا، بقدر ما أثبتت له غضبًا لأجل الدين:

إن القرآن الكريم علَّم أتباعه أن يوقروا المرسلين جميعهم، ونهاهم عن أن يفرقوا بين أحد من رسل الله تعالى الكرام، واعتبر التفريق بينهم كفرًا حقيقيًّا، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ (النساء). وجعل من صفات عباده المؤمنين أنهم يقولون: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ (البقرة)، فالقرآن أدَّب أصحابه على الإيمان بجميع الرسل وعدم التفريق بينهم.

في ضوء ما سبق يجب أن نفهم سياق قوله تعالى في حق سيدنا أيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ (ص: ٤٤). فالآيات لم تثبت لأيوب غضبًا شخصيًّا، بقدر ما أثبتت له غضبًا لأجل الدين، وانتهاك حرمات الله، وقد كانت هذه صفة مدح وصف بها النبي محمد ﷺ، فقد ثبت أنه ما كان يغضب إلَّا إذا انتهكت محارم الله ﷻ.

إن الذي حدث أن أيوب عليه السلام حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائه جلدة؛ وقد قيل في سبب ذلك عدة أقوال، منها:

- ما حكاه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب، فقال أداويه على أنه إذا برئ قال: أنت شفيتني، لا أريد جزاء سواه، قالت: نعم، فحلف ليضربنَّها، وقال: ويْحك ذلك الشيطان.

(*) موقع الكلمة. www.alkalema.net

www.kalemasawaa.com

• ما حكاه سعيد بن المسيِّب ـ رحمه الله ـ أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتها، فحلف ليضربنها.

• ما حكاه يحيى بن سلاّم وغيره أن الشيطان أغواها، أن تحمل أيوب عليه السلام على أن يذبح سَخْلَة[١] تقرّبًا إليه وأنه يبرأ، فذكرت ذلك له فحلف ليضربنَّها ـ إن عُوفي ـ مائة[٢].

"ثم إن أيوب عليه السلام أصبح متحيرًا في يمينه الذي حلفه وتوعد به، فأتاه جبريل عليه السلام، وقال له: يا أيوب، خذ مائة عود من أعواد سنابل القمح، واجمعها حزمة واضرب بها رحمة ضربة واحدة خفيفة لطيفة، فتخلص من اليمين، ففعل ذلك أيوب وخلص من يمينه، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ (ص: ٤٤)، وذلك لأن الله تعالى رحمها بسبب صبرها على بلاء زوجها، فخفَّف عنها؛ لأنها كانت تتكسَّب عليه[٣] وتعمل للناس من أجله"[٤].

فأيوب عليه السلام ـ إذن ـ لم يغضب ويقسم أنه سيضرب زوجته التي صبرت على البلاء معه طويلًا إلَّا بعد أن علم أن الشيطان خادعها، وساومها على سلامة اعتقادها في الله عز وجل حتى جعلها تظن أن شفاء زوجها فيما ينصحها به، مما يؤثر على سلامة اعتقادها، وهذا ما لم يَرضه أيوب عليه السلام منها؛ فحلف أن يضربها لتسلم لها نفسها ويقينها، وتعلم أن الشفاء من ربها، لا دخل لبشر فيه ولا لغير البشر.

إن نبي الله أيوب عليه السلام لم يغضب لنفسه، وإنما غضب لله، والغضب لله ليس عيبًا يُلصق بالغاضب، وليت من يَلْمِز[٥] القرآن بأنه ألصق الغضب بسيدنا أيوب عليه السلام، يعرف كيف يحفظ القرآن أعراض الأنبياء وسيرهم؟ وترانا يقتلنا الحزن ونحن نسمع أنهم يلصقون بأنبيائهم قتل الرجال ليتزوجوا نساءهم، وينسبون إليهم أفحش ما ينسب إلى الناس من زنا المحارم، وغير ذلك من الأوصاف التي لا تليق بآحاد الناس، فما بالنا بأفضل خلق الله!

فهل هذا من الأدب مع المصطفين الأخيار؟ وهل من يقتنع بهذا العار يزعم أنه يحفظ عرض أحد؟ كيف وقد نالوا من الأنبياء؟!

ثانيًا. أيوب عليه السلام لم يوصف في القرآن بالغضب، ولكنه وصف بالصبر:

لم يوصف أيوب عليه السلام في القرآن بالغضب، ولكنه وُصِف بالصبر، وأنه أوَّاب، وأنه نعم العبد، فقد كان: امرأً حَسن الخلق، مؤمنًا بالله عابدًا تقيًّا صابرًا، راضي النفس طيب الفؤاد، عطوفًا على الفقراء، رحيمًا بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، فأثنى الله عليه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ (ص)، وكان دائمًا يسبح لله بقوله: "سبحانك ربي صاحب الملكوت"، فكانت الملائكة تردد تسبيحه في السماء، فحسده إبليس وسُلِّط

١. السَّخْلَة: الذكر والأنثى من ولد الضَّأن والمعز ساعة يُولَد.
٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٥، ص٢١٢ بتصرف يسير.
٣. تتكسَّب عليه: تعمل وتنفق عليه.
٤. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٦٠.
٥. يَلْمِز: يعيب.

www.kalemasawaa.com

عليه في ماله وأولاده وبدنه، فصبر أيوب صبرًا جميلًا، فخسئت الشياطين، وانتصر الصبر مع الإيمان بالله"[1].

وقصة ابتلاء أيوب عليه السلام وصبره ذائعة مشهورة، وهي تُضرَب مثلًا للابتلاء والصبر، ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها، "والحد المأمون في هذه القصة ـ كما أشار صاحب الظلال ـ أن أيوب عليه السلام كان ـ كما جاء في القرآن ـ عبدًا صالحًا أوَّابًا، وقد ابتلاه الله فصبر صبرًا جميلًا".

ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعًا، ولكنه ظل على صلته بربه، وثقته به، ورضاه بما قسم له.

وكان الشيطان يوسوس لخُلصائه[2] القلائل الذين بقوا على وفائهم له ـ ومنهم زوجته ـ بأن الله لو كان يحب أيوب عليه السلام ما ابتلاه، وكانوا يحدثونه بهذا، فيؤذيه في نفسه أشد ما يؤذيه الضرُّ والبلاءُ، فلما حدَّثته امرأته ببعض هذه الوسوسة، حلف لئن شفاه الله ليضربنها عددًا حدده قيل: مائة.

وعندئذ توجَّه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان، ومداخله إلى نفوس خلصائه، ووقع هذا الإيذاء في نفسه، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ (ص)، فلما عرف ربه منه صدقه وصبره، ونفوره من محاولات الشيطان، وتأذِّيه بها، أدركه برحمته، وأنهى ابتلاءه، ورد عليه عافيته، إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه، فتتفجَّر عين باردة يغتسل منها ويشرب، فيشفى ويبرأ، فقال تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾﴾ (ص).

وأما قسمه ليضربنَّ زوجه، فرحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه وبلائها به، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذي حدده، فيضربها به ضربة واحدة، تجزئ عن يمينه، فلا يحنث فيه فقال: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾ (ص)، هذا التيسير وذلك الإنعام كانا جزاءً على ما علمه الله من عبده أيوب عليه السلام من الصبر على البلاء، وحسن الطاعة والالتجاء إليه سبحانه[3]؛ حيث وصفه تعالى فقال: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾ (ص).

فالمولى عز وجل يكافئ عباده المخلصين وما يتناسب مع إخلاصهم وصبرهم؛ لتكون لنا العظة والعبرة، ومن ثم فلا تعلق هنا لصاحب الشبهة بما ذكره في تلك القصة، فليس هناك انتقاص من قدر النبي عليه السلام، وليس هناك غضب، ولا تنفيس لثورته وحدَّته.

الخلاصة:

- الآية تثبت أن غضب أيوب عليه السلام غضب لأجل الدين، وارتكاب المحرَّمات؛ فهو عليه السلام لم يغضب إلَّا بعد أن علم أن الشيطان خادع زوجته، وساومها على سلامة اعتقادها في الله عز وجل.
- وصف القرآن أيوب عليه السلام بالصبر، وبأنه أوَّاب وأنه نعم العبد، ولم يصفه بالغضب كما زعموا.

١. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٤٩.

٢. الخُلَصاء: المخلصين التابعين له.

٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٣٠٢١، ٣٠٢٢.

www.kalemasawaa.com

• أقسم أيوب عليه السلام ليضربنَّ زوجه، ولكن برحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها، خفف الله تعالى عليه البرَّ بقسمه، فالمولى عز وجل يكافئ عباده المخلصين وما يتناسب مع إخلاصهم وصبرهم؛ لتكون لنا العظة والعبرة.

الشبهة الخامسة والأربعون

ادِّعاء أن ذا الكفل عليه السلام ليس نبيًّا (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن أخطأ في النص على نبوة ذي الكفل عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨﴾ (ص)، في حين أنه لم يرد ذكره في كتب التاريخ أو التوراة، وكذلك اختلف العلماء حول نبوته ولقبه، فذكر البيضاوي أنه كفل مائة من الأنبياء فرَّوا من القتل، والصحيح عندهم أن الذي كفل مائة من الأنبياء هو عوبديا وزير الملك "أخاب" وليس ذا الكفل عليه السلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لا يعني عدم ذكر نبي في التوراة أنه لم يُذكر في غيرها من الكتب السماوية الأخرى، فليست التوراة الحالية حجَّة فيما ذكرت، ولا حجَّة فيما لم تذكره، ولم يخبرنا التاريخ بكل الأسماء والأحداث حتى ننفي ما لم يذكره.

٢) الظاهر من ذكر ذي الكفل عليه السلام في القرآن الكريم بالثناء مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي وهو الصحيح، والبيضاوي مفسِّر مجتهد يصيب ويخطئ وليس حجَّة على القرآن.

٣) سُمِّي بذي الكفل؛ لأنه تكفل للنبي اليسع عليه السلام بثلاثة أمور عظام: أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب، فاستخلفه على الناس في حياته، ثم تكفَّل لقومه بتنفيذ أمر الله بإطالة أعمارهم. فمن هنا كان اسمه ذا الكفل.

التفصيل:

أولا. التوراة الحالية ليست حجَّة فيما ذكرته من أسماء الأنبياء وما لم تذكره:

لا يعني عدم ذكر نبي في التوراة الحالية أنه لم يذكر في غيرها من الكتب السماوية، فالتوراة ليست حجَّة فيما ذكرت ولا حجَّة فيما لم تذكر، وقد كُتِبَت التوراة بعد موسى عليه السلام بزمن طويل، وبين أيدينا الأدلة الكثيرة على أن التوراة التي بين أيدي اليهود والنصارى ليست من عند الله، ولكنها من وضع البشر.

وقد ذكر لنا القرآن الكريم بعض الأسماء لأنبياء ولأقوام دون أن يعرض التفاصيل عن حياتهم؛ ذلك لأن القرآن يتناول السابقين على مستويات متفاوتة، فمنهم من يذكره بالتفصيل، ومنهم من يتناوله إجمالا، ومنهم من يذكره باسمه فقط مثل: "ذو الكفل". قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨﴾ (ص)، ومنهم من لم يذكره إطلاقًا.

أما بالنسبة لكتب التاريخ فهل أخبرنا التاريخ بكل الأسماء والأحداث، حتى ننفي ما لم يقدمه؟ وهل

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.

www.islameyat.com

www.kalemasawaa.com

توقفت كلمة التاريخ والبحث فيه عندما عرفنا؟ أم أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، ومع ذلك فإن أهل التاريخ قد ذكروه في بعض كتبهم، وإلا لما عرفنا أن اسمه بِشْر، وأنه ابن أيوب عليه السلام وقد بعثه الله بعد أيوب عليه السلام، وسماه ذا الكفل وكان مقامه في الشام، وأهل دمشق يتناقلون أن له قبرًا في جبل قاسيون، والقرآن الكريم لم يزد على ذكر اسمه في عداد الأنبياء، فثبت من ذلك صدق القرآن الكريم فيما قال وبطلان ادعائهم فيما يقولون[1].

ثانيًا. تفسيرات المفسرين ليست حجة على القرآن:

وأما عن اختلاف العلماء حول نبوَّته ولقبه، وما قيل عن تفسير البيضاوي فقد أشرنا سابقًا إلى أن تفسيرات المفسرين ليست حجة على القرآن، فهي إن أخطأت فمرد ذلك إلى اعتمادها في هذا المجال على الإسرائيليات المليئة بالكذب، ومن ثم فمجال الرد لهذه التفاسير وعدم قبولها يظل قائمًا؛ لأنها من اجتهادات البشر.

ثم إنه يمكن أن يُقال إن استخدام القرآن لهذا التعريف لا يعني بحال أن الرجل اسمه: ذو الكفل، فلربما أراد القرآن أن يخلد ذكر الرجل لما قدمه من عمل صالح في حياته مثل: صيام النهار وقيام الليل، وهذا كما جرت العادة في تسمية بعض الناس بذي المروءة أو أبي الجود أو أبي الفرسان، وكما هو معروف في تاريخ حضارتنا الإسلامية، عندما سمي عثمان بذي النورين، وأبي بكر بالصديق، وعمر بالفاروق، وليست هذه أسماء، بل هي ألقاب لأصحابها، وكذلك فإن هذا ـ ذا الكفل ـ ليس اسمه وإنما هو لقبه.

ثالثًا. سبب تسمية النبي ذي الكفل عليه السلام بهذا الاسم:

وسمي بشْر بذي الكفل؛ لأنه تكفل للنبي اليسع عليه السلام أمام الناس بأمور عظام منها: تنفيذ أمر الله بإطالة أعمارهم، ولذلك فإن قولهم بأن عوبديا وزير الملك "أخاب" هو الذي كفل مائة نبي لا يرفع لقب ذي الكفل عن بشر لعدة أسباب منها:

١. أن كلامهم هذا يحتاج إلى دليل منهم، ولو قالوا: إن هذا ورد في التوراة، فنحن نعلم أن التوراة التي بين أيدي اليهود ليست من عند الله بل من وضع البشر. فما الذي يمنع أن بِشْرًا هو الذي كفل مائةً من الأنبياء؟!

٢. سمي بشر بذي الكفل ليس فقط لأنه كفل مائةً من الأنبياء، ولكن ـ أيضًا ـ لأنه تكفل للنبي اليسع عليه السلام بثلاثة أمور عظام: أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب، فاستخلفه على الناس في حياته، ثم تكفل لقومه بتنفيذ أمر الله بإطالة أعمارهم، فمن هنا كان اسمه ذا الكفل عليه السلام.

فسواء كان عوبديا هو الذي كفل أو كان "بشر" هو الذي كفل، فإن ذا الكفل عليه السلام هو لقب بشر في كلتا الحالتين[2].

الخلاصة:

- لا يعني عدم ذكر نبي في التوراة أنه لم يذكر في

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص٢٦٨، ٢٦٩ بتصرف.

٢. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٦١: ١٦٣ بتصرف. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص٢٦٨، ٢٦٩ بتصرف. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٢٠٨، ٢٠٩ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

غيرها من الكتب السماوية، وما ذكر فيها لا يُعَدُّ حجَّة، فليست التوراة حجَّة فيما ذكرت ولا فيما لم تذكره، فقد ثبت بالأدلة أن التوراة التي بأيدي اليهود والنصارى ليست من عند الله، ولكنها من وضع البشر.

- لم يخبرنا التاريخ بكل الأسماء والأحداث حتى ننفي ما لم يقدمه.
- إن تفسيرات المفسرين ليست حجة على القرآن، فهي معتمدة في هذا المجال على الإسرائيليات المليئة بالكذب.
- إن استخدام القرآن لهذا التعريف، لا يعني أن الرجل اسمه: ذو الكفل، فلربما أراد القرآن أن يخلد ذكره لما قدمه من عمل صالح.

الشبهة السادسة والأربعون

دعوى وقوع سيدنا يونس عليه السلام في المعصية برحيله عن قومه(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن يونس عليه السلام ارتكب معصية حين رحل عن قومه بدون إذن من الله تعالى، ويستدلون على هذا بالآتي:

١. أن يونس عليه السلام قد غاضب[1] ربه كما في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ (الأنبياء: ٨٧)، ومغاضبة الله من أعظم الذنوب.

٢. أن يونس عليه السلام قد شك في قدرة الله عز وجل عليه كما قال: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

٣. أنه اعترف بوقوع الظلم منه، كما حكاه الله تعالى عنه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء)، والظلم ذنب كبير، والظالم ملعون، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ (هود).

٤. أن الله عاقبه بإلقائه في بطن الحوت، والعقوبة إنما تكون على ذنب اقتُرف، وإثم ارتُكب.

٥. أنه أتى ما يُلام عليه بنص قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (الصافات)[2].

٦. أن الله تعالى نهى نبيه محمدًا ﷺ عن التشبه بيونس في قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ (القلم)[3]، ولا معنى للنهي عن التشبه به إلا لأنه ارتكب ذنبًا، منطلقين من هذا كله إلى القول بوقوع يونس عليه السلام في المعصية، ومنه إلى الطعن في عصمته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) المراد بالمغاضبة في الآية مغاضبته لقومه وليست لربه، وهي ليست معصية، وإنما هي من باب مخالفة الأَوْلى؛ إذ الأولى أن يُصابر، وينتظر الإذن من الله عز وجل في المهاجرة عنهم.

٢) قوله عز وجل: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧)

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. غاضب: أغضب.

٢. سَاهَم: ضربوا القُرْعة بينهم.

٣. مَكْظُوم: مملوء غمًّا.

www.kalemasawaa.com

ليس معناه العجز فلا يقدر عليه، وإنما المعنى: فظن أن لن نعاقبه بالتضييق عليه؛ إذ معنى نقدر هنا: نضيِّق وليس المعنى "القدرة".

٣) الظلم في قوله ﷻ على لسان يونس عليه السلام: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء) ليس على ظاهره، وإنما هو بمعناه اللغوي: أي وضع الشيء في غير موضعه، فيونس عليه السلام قد اجتهد فأخطأ في الاجتهاد، ومن اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر.

٤) الملامة كانت بسبب ترك الأَوْلى، أو الخطأ في الاجتهاد، وليست للمعصية كما يزعمون.

٥) نَهْي الله لمحمد ﷺ عن التشبه بيونس عليه السلام في تركه لقومه، إنما هو تذكير وحثٌّ على ملازمة قومه، والصبر عليهم.

التفصيل:

أولا. المغاضبة في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء) كانت لقومه:

المغاضبة في قول الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ (الأنبياء: ٨٧) كانت لقومه، فهم قد أغضبوه بإصرارهم على الكفر، وقد أغضبهم بمفارقته لهم، وهي ليست معصية، لعدة أسباب:

- إما لأن الغضب لم يكن منهيًّا عنه، فظن أنه جائز، حيث لم يكن إلا لله، ومن أجل دينه، قال الزمخشري: إن يونس بَرِمَ[1] بقومه، لطول ما ذكَّرهم، فلم يذكروا، وأقاموا على كفرهم فراغمهم، وظن أن ذلك يسوغ؛ حيث لم يفعله إلا غضبًا لله، وأنفة لدينه وبُغْضًا للكفر وأهله.

- وإما لأن خروجه عليه السلام مغاضبًا لقومه من باب مخالفة الأولى؛ إذ كان الأولى به أن يصبر، وينتظر الإذن من الله ﷻ في المهاجرة عنهم[2].

يقول الإمام ابن حزم في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنِحَل": فأما يونس عليه السلام فلم يغاضب ربه، ولم يقل الله ﷻ: إنه ذهب مغاضبًا ربه، فمن زاد هذه الزيادة كان قائلًا على الله الكذب وزائدًا في القرآن ما ليس منه، وهذا ما لا يجوز، فإنما هو غاضب قومه، وكانت هذه المغاضبة لعلَّةٍ، وهي أن قومه كذبوه، فلذلك كانت مغاضبته لهم واضحة المعنى، أما إذا قلنا بأنه قد غاضب ربه؛ فلا معنى لهذه المغاضبة، كما أن لنا أن نتساءل: لماذا يغاضب ربه؟ فكان الأرجح أن المغاضبة كانت للقوم؛ لأنه لا يليق بمؤمن أن يغاضب ربه، فما بالك بنبي اختاره الله، ورفع درجته!

ومغاضبته هذه لقومه لم تكن معصية؛ لأنه لم يقصد بها إلا مرضاة الله، وإن كان الله ﷻ قد عاتبه عليها بأن جعله في بطن الحوت، فما كان ذلك إلا نظرًا لرفيع مقامه، فكان جزاء الله تعالى لنبيه يونس عليه السلام بموجب التربية الخاصة لتزكية نفسه الطاهرة والسموِّ بها عن كل شائبة[3]، وقد تضرَّع عليه السلام إلى ربه منيبًا معترفًا بخطئه، فقال عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ

---

١. بَرِم: ضَجَر وضاق.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٠٥، ٤٠٦.

٣. الشائبة: الشبهة.

www.kalemasawaa.com

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء)، فاستجاب له ربه تعالى، وجعل دعاءه هذا مأثورًا لرفع الكرب إلى يوم القيامة.

ونقول: كيف يعصي يونس عليه السلام ربه ويغاضبه، ثم يشهد الله عز وجل بأنه اجتباه وجعله من الصالحين؛ تنبيها إلى عدم اتهامه بما يتنافى وهذه الشهادة العظيمة [1]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ (الصافات)، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنبياء)، وشهادة النبي ﷺ له بالخيرية حيث يقول ﷺ: "لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى"[2]. وقال ﷺ: "ما ينبغي لنبي أن يقول: إني خير من يونس بن متى"[3]. وقال ﷺ: "ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب"[4]، وهذا من تعظيم رسول الله لشأن سيدنا يونس عليه السلام، وثنائه عليه، فكيف يقول قائل بعد ذلك: إنه عليه السلام قد غاضب ربه، فلو كان مغاضبًا لله عز وجل كما يقولون، ما وصل لهذه الدرجة الرفيعة بين الأنبياء، وبين البشر جميعًا، وعند ربه عز وجل.

ثانيًا. قوله تعالى حكاية عن يونس عليه السلام: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧) **يعني: أنه ظن أن الله لن يضيّق عليه ويتعبه:**

إن تفسير قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ بأن يونس عليه السلام قد ظن أن الله لن يقدر عليه، جهل باستعمالات اللغة؛ لأنه لا يمكن أن يطرأ على ذهن عاقل أن الله لا يقدر على شيء؛ لأنه سبحانه على كل شيء قدير، إذن معنى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي: ظن أن الله لن يُضَيّق عليه ويتعبه، بل سيبعثه إلى قوم أكثر طاعة واستجابة، فالقرى كثيرة، والأقوام متعددون، ومادام هؤلاء يستعصون على الدعوة، فسيوجهه الله إلى قوم آخرين[5].

ومما يؤكد ذلك أن رجلًا جاء لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وسأله: كيف يظن نبي الله يونس أن الله لن يقدر عليه؟ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس هذا، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ (الفجر).

وقال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قيل: معناه: استزله إبليس ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته، وهذا قول مردود مرغوب عنه؛ لأنه كفر، وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء: معناه: فظن أن لن نضيق عليه، قال الحسن: هو من قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد: ٢٦)، أي: يضيق، وقوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو

---

١. المصطفون الأخيار، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ص١٠٩.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء باب قول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾ (طه) (٣٢١٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام (٦٣١٠).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت، حديث عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (١٧٥٧)، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في التخير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤٦٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٢١).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة النساء (٤٣٢٨)، وفي مواضع أخرى.

٥. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٢٤٧.

www.kalemasawaa.com

سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ (الطلاق).

وقيل: هو من القَدَر الذي هو القضاء والحكم، أي: فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة، قاله قتادة ومجاهد والفراء، وقيل: مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة، والاستطاعة.

وقريب من هذا ما قيل: من أن المعنى: فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة، فتفسر القدرة بالقضاء والتضييق الذي أصاب يونس، والمشقة الشديدة التي قدرها الله عليه هي التقام الحوت له، ولبثه فترة في بطنه.

روي عن ابن عباس: أنه دخل يومًا على معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ فقال معاوية: لقد ضرَبْتني أمواج القرآن البارحة، فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصًا إلا بك، قال: وما هي يا معاوية؟ فقرأ الآية وقال: أو ظنَّ نبي الله ألا يقدر الله عليه؟ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذا من القدر لا من القُدرة[1].

ثالثًا. الظلم الذي نسبه يونس عليه السلام إلى نفسه لا يصحّ أخذه على ظاهره، وإنما هو بمعناه اللغوي، وهو وضع الشيء في غير موضعه مطلقا، فيشمل الذنب وغيره:

ويونس عليه السلام فعل الخروج عن قومه بَدَل الصبر عليهم وتحمُّل أذاهم، وكان المناسب منه البقاء بين ظَهْرانَيْهم متحمِّلًا عَنَتَهم[2] وأذاهم؛ حتى يأذن الله له في المهاجرة عنهم، إلا أنه تعجل الخروج، والذهاب عنهم ضيقًا وتبرمًا بعنتهم، وإصرارهم على الكفر، فهو إذن قد وضع الخروج عن قومه موضع البقاء بينهم. فكان ذلك وضع الشيء في غير موضعه، وهذا يحمل معنًى من معاني الظلم، ولذا أطلق عليه الظلم[3].

رابعًا. العقوبة والملامة كانت بسبب ترك الأَوْلى:

على التسليم بأن إلقاءه في البحر والتقام الحوت له كان عقوبة على خروجه عن قومه بغير إذن من الله، لقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ (الصافات) فإن هذه العقوبة، لم تكن على معصية كبيرة، أو صغيرة، وإنما كانت على ترك الأفضل، وهو البقاء مع قومه، فقد ظن يونس عليه السلام أنه يجوز له أن يخرج عن قومه غضبا لله، وأنفةً لدينه، ولكن لم يكن ظنه هذا صحيحًا، ولم يكن خروجه مناسبًا، وإنما كان البقاء معهم هو الأولى والأنسب، والله عز وجل يؤاخذ أنبياءه ورسله بما لا يؤاخذ به غيرهم؛ وذلك لعظم منزلتهم عنده، ولاصطفائه لهم ليكونوا قدوة لغيرهم.

كما أن الملامة في قول الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (الصافات)[4]، كانت بسبب ترك الأَوْلَى، أو الخطأ في الاجتهاد، فليس بالضروري أن تكون الملامة على ذنب أو معصية، فالوالد ـ مثلًا ـ يلوم أحد أبنائه على عدم حصوله على المركز الأول أو الدرجة العظمى، وملامة الأب لابنه ليست على ارتكابه جُرمًا أو ذنبًا أو معصية، وإنما هي لترك

١. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٠٧، ٤٠٨.
٢. العَنَت: المشقَّة.
٣. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٠٨.
٤. المُدْحَضِين: المغلوبين في القُرْعَة.

www.kalemasawaa.com

الأَوْلى والأفضل، وهذا لحب الأب لابنه وحرصه على ظهوره في أكمل صورة، وأحسن حال، ولله المثل الأعلى[١].

خامسًا. نَهْي الله لنبيه ﷺ عن التشبه بيونس عليه السلام في ترك ملازمة قومه وعدم الصبر عليهم:

وجّه المولى ﷻ نبيه ورسوله ﷺ ألاّ يتشبه بسيدنا يونس عليه السلام في تركه لقومه، بل عليه أن يصبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ (القلم)، وليس بالضروري أن يكون هذا النهي بسبب معصية صدرت من يونس عليه السلام؛ إذ لا شيء في أن ينبّه ويوجّه الله تعالى أحد رسله لسلوك معين قد فات أحد الرسل من قبله.

إن الله يذكّر نبيه ﷺ تجربة يونس عليه السلام، لتكون له زادًا ورصيدًا، وهو خاتم النبيين، الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير، وصاحب الزاد الأخير، فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير، عبء هداية البشرية جميعها.

فالله يذكّر نبيه بتجربة صاحب الحوت في موقف العنت والتكذيب، ويوجهه إلى الصبر على تكاليف الرسالة، والصبر على التواءات[٢] النفوس، والصبر على الأذى والتكذيب، والصبر حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد[٣].

الخلاصة:

أنبياء الله ورسله كلهم معصومون بما فيهم نبي الله يونس عليه السلام؛ إذ لم يصدر عنه ذنب أو معصية للآتي:

- المغاضبة المذكورة في الآية مغاضبة لقومه وليست لربه؛ لأنهم قد أغضبوا يونس عليه السلام بإصرارهم على الكفر، وقد أغضبهم بمفارقته لهم؛ لخوفه حلول العذاب بهم، وهي ليست معصية، وإنما هي من باب مخالفة الأولى.
- قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء) ليس فيه نسبة العجز إلى الله ـ حاشا لله ـ ولكن القدر هنا يعني التضييق، كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ (الطلاق)، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ (الرعد:٢٦)؛ فيونس عليه السلام ظن أن الله لن يُضيّق عليه واسعًا، وسيبدله قومًا غير قومه، وليس في هذا ما يعاب عليه.
- الظلم في الآية: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء) ليس على ظاهره، وإنما هو بمعناه اللغوي: أي وضع الشيء في غير موضعه؛ إذ كان المناسب منه عليه السلام ألا يترك قومه، وأن يصبر على أذاهم؛ حتى يأذن الله له بالخروج.
- إلقاؤه في البحر والتقام الحوت له لم يكن بسبب معصية، وإنما بسبب ترك الأولى، فالله ﷻ يؤاخذ أنبياءه ورسله بما لا يؤاخذ به غيرهم.
- الملامة كانت بسبب ترك الأَوْلَى، أو الخطأ في الاجتهاد، والخطأ في الاجتهاد ليس بذنب أو

---

١. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٠٩.

٢. التواء: اعوجاج.

٣. في ظلال القرآن، سيّد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٣٦٧٠ بتصرف يسير.

www.kalemasawaa.com

معصية، فللمجتهد المصيب أجران، وللمجتهد المخطئ أجر.

- نهي الله تعالى لنبيه محمد ﷺ عن التشبه بنبيه يونس عليه السلام كان في ترك ملازمة قومه، وعدم الصبر عليهم، ولا شيء في أن ينبه الله ﷻ أحد أنبيائه إلى سلوك معين قد فات أحد أنبيائه من قبل.

الشبهة السابعة والأربعون

دعوى اضطراب القرآن في مسألة نبذ يونس عليه السلام بالعراء(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين وجود خلل واضطرابٍ في حديث القرآن عن نَبْذ[1] يونس عليه السلام بالعراء[2]، وعدم وجود هذا الاضطراب في نصوص التوراة، مستدلين على ذلك بإقرار القرآن نبذه في قوله ﷻ: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ (الصافات)[3]، وعدم نبذه في قوله ﷻ: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ (القلم). وهم بهذا الادعاء يشككون في صدق القرآن الكريم في إخباره عن يونس عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) لم ينكر القرآن الكريم نبذ يونس عليه السلام بالعراء سقيمًا، إنما أنكر نبذه بالعراء مذمومًا؛ وعليه فلا تعارض بين ما أثبته القرآن وما نفاه.

٢) ذكر القرآن هذه القضية في إيجاز محكم، بعكس ما ورد في التوراة من اضطراب في سرد تفاصيل القصة؛ مما يجعلها أقرب ما تكون إلى كتب التاريخ والقصص.

التفصيل:

أولا. ليس في القرآن الكريم اضطراب لا في قصة ذي النون عليه السلام ولا في غيرها:

الذي أثبتته آية الصافات أن يونس عليه السلام نُبذ بالعراء وهو في حالة من السقم والإعياء، بسبب مكثه في بطن الحوت فترة من الزمن. والذي تذكره سورة القلم: أن الله تداركه بنعمة من عنده، ولولا ذلك لنبذ مذمومًا؛ فالحكم ليس واقعًا على النبذ، ولكنه يقع على نبذه مذمومًا. إن الله ﷻ لم يذمه؛ فينبذه مذمومًا، بل نبذه معافى كريمًا، وتلقته عناية الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ (الصافات)[4]. والحكم المنطقي يقع على الجملة بكامل توابعها كما لو تمَّ تضمين صفة مع موصوفها، أو معطوفٍ مع معطوف عليه، وهنا لحق بجملة نبذناه الأولى، ونبذ الثانية جملة حالية، فتدخل كل منهما في الحكم.

يقول الزمخشري في تفسير آية القلم: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ (القلم): وقد اعتُمِد في جواب لولا على الحال؛ أعني قوله: "وهو مذموم" يعني أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء، ولولا توبته لكان حاله على الذم، ولذا قال تعالى

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. النَّبْذ: الإلقاء.

٢. العَراء: المكان الخالي.

٣. سقيم: ضعيف.

٤. اليَقْطِين: شجرة القَرْع.

www.kalemasawaa.com

بعدهما: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (القلم)[١].

وإذا عرضنا تفسير الآيتين نعرف أنه لا تعارض، ففي الآية الأولى يقول الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ (الصافات)، روي أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل. وقال ابن قسيط عن أبي هريرة ﷺ: طرح يونس بالعراء، وأنبت الله عليه يقطين، وفي الآية من سورة القلم يقول الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ (القلم)، ولولا رحمة الله ﷻ لنبذ بالعراء وهو مذموم.

وورد في تفسير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ (القلم) في موضع الحال من مرفوع نبذ، وعليها يعتمد جواب لولا؛ لأن المقصود امتناع نبذه مذمومًا، وإلا فقد وقع النبذ عليه سقيمًا؛ فدل على أن حاله كانت على خلاف الذم.

ثانيًا. ذكر القرآن هذه القضية في إيجاز محكم بعكس ما ورد في التوراة من اضطراب في سرد تفاصيل القصة؛ مما يجعلها أقرب ما تكون إلى كتب التاريخ والقصص:

إن القصة القرآنية إعجاز رائع من ناحية الجودة والأهمية، وهي وسيلة هامة ومؤثرة من الوسائل القرآنية الكثيرة التي تحقق الأغراض الدينية، وتبرز الأصول والرواسخ في العقيدة الإسلامية والتي احتواها القرآن الكريم؛ بحكم كونه الدستور الخالد الذي ينظم حركة الحياة للإنسان في الدنيا والآخرة.

والقرآن الكريم كتاب دعوة إلى الله، وإلى الوحدانية، وإلى الحق.. في المقام الأول، ولما كان هزُّ الوجدان وإثارة العاطفة وربطها بالشعور الديني الفياض الذي هو فطرة عميقة في النفس البشرية أمرًا مطلوبًا... فإن القصة تصبح في هذا المجال عاملًا مثيرًا ومؤثرًا في نفس الوقت، وتصبح وسيطًا تربويًّا رائعًا للتأثير في الذات، وفي تطهير النفس من المشاعر الدخيلة على الفطرة البشرية، ولقد اهتمت القصة القرآنية بإبراز عنصر الأحداث في مجال الدعوة بطريقة لا تستطيع أن تجدها في الكتب السماوية السابقة قبل التحريف، كالتوراة مثلًا[٢].

إن القصة القرآنية لها طبيعتها الخاصة وبناؤها المتميز، وما وصلت القصة القرآنية لما وصلت إليه من رقي وبلاغةٍ، وتميز وبراعة في التأثير الوجداني الفعَّال إلا بطرائق فنية وجمالية خاصة بها.. وذلك عبر طريقةٍ فذَّة في العرض والسرد، ذلك العرض القصصي القائم على قانون الانتخاب في اختيار الجزء من القصة الذي يتلاءم والسياق القرآني في الموضع الذي وردت فيه، والغرض الديني العام، ومن ثمَّ يتلاءم أسلوب العرض القرآني مع انتقاء الحدث المسرود، فينحَّى تمامًا كل ما لا يمت للحدث بصلة، وما لا يتلاءم مع الهدف الديني، ويخلص إلى التركيز على محور الشخصية، وجوهر الدعوة، وردود الأفعال[٣].

وللقرآن أسلوب في طريقة عرض القصة كما قررنا، لكنَّا إذا توجهنا إلى نصوص التوراة فسنجد أنها تشبه إلى حدٍّ بعيد كتب التاريخ والقصص التي كانت تؤلف

١. تفسير الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٤، ص١٤٨.

٢. القصة في القرآن، محمد قطب، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٧٩: ٨٣ بتصرف يسير.

٣. المرجع السابق، ص١٠٩: ١١١ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

قديمًا للتسلية؛ وذلك بعد أن عبثت بها أيدي البشر، وغيروا فيها وحرفوا الكلام عن مواضعه؛ كما ذكر القرآن الكريم؛ لذا أنزل الله كتابًا خاتمًا مهيمنًا على ما سبق من كتب ومصدّقًا لما في التوارة والإنجيل في العديد من الأمور، وتولى الله ﷻ حفظه من أي عبثٍ وأي يدٍ تمتد إليه بسوءٍ، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر).

وعلى الرغم من تحريف التوراة؛ الذي نتج عنه اضطراب الكتاب المقدس، فإننا سنقف على بعض ما ورد في التوراة ونقارن ذلك بما ورد في القرآن، ولك أنت أن تحكم أي الكتابين أحكم وأيهما فيه اضطراب، وأيهما خالٍ منه.

تجد في التوراة أن يونس عليه السلام يسمى "يونان بن أمتاي"، على حين يقرر القرآن أن اسمه "يونس" ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾ (الصافات)، وأن "ذا النون" لقب له وليس اسمًا، وأنا أسألك أيهما أدق وأحكم القرآن أم التوراة؟

تقرر التوراة أن الله كلَّف يونس عليه السلام بالرسالة وأمره بالذهاب إلى أهل نينوي؛ فهرب إلى يافا وركب سفينة تتجه إلى ترشيش يونان: "قم اذهب إلى نينوي المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صعد شرهم أمامي. فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب، فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب". (يونان١: ٢، ٣)، وربما يسأل سائل ـ وهذا من حقه ـ لماذا هرب يونس عليه السلام إلى ترشيش؟ وهل يصح منه ـ وهو نبي ـ أن يكلفه الله ويشرفه بالرسالة ويفر؟! وإن كان الأمر كذلك فبما فضله على العديد من البشر ولم اصفاه الله؟ وهل اصطفاه على علم؟

كن واثقًا من أنك لن تجد لأسئلتك أي إجابة، وفي ذلك يقول العلامة الألوسي: "زعم اليهود أن الله أمر يونس عليه السلام أن يذهب إلى أهل نينوي وينذر أهلها، فهرب إلى ترشيش من ذلك، وانحدر إلى يافا، ونزل في السفينة فعظمت الأمواج، وأشرفت السفينة على الغرق... ولا يخفى أن مثل هذا الهرب مما يجل عنه الأنبياء عليهم السلام واليهود قوم بُهت"[1].

إن جماهير علماء التفسير عند المسلمين يقررون أن يونس عليه السلام كُلِّف، وذهب فبلغ ما أمر به، إلا أن قومه لم يستجيبوا له وأمعنوا في العناد ففارقهم، لذا فإن معاقبته إنما كانت لأنه لم ينتظر أمر الله بمفارقتهم.

تقرر التوراة أن يونس عليه السلام قد هرب مرتين "يونان"، مرة حين هرب إلى ترشيش، والأخرى حين هرب من المدينة بعد مواعدته لقومه بنزول العذاب، حيث اتخذ لنفسه كَنًّا[2] يكون فيه.

ونحن نسألهم إذا كان الله قد عاقب يونس عليه السلام عندما فرَّ في المرة الأولى فلمَ لم يعاقبه حين فرَّ مرة أخرى؟ أيعاقبه إذا أخطأ ولا يعاقبه على تكرار الخطأ؟! ولماذا فرَّ يونس عليه السلام دون أن يأذن الله له؟ وهل يجوز أن يتصرف نبي في أمر كهذا من تلقاء نفسه دون انتظار لأمر الله؟ وهل يقع يونس عليه السلام في الخطأ مرتين؟!

إن القرآن لم يذكر أنه هرب إلا مرةً واحدة، فأيهما

---

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٢١، ٤٢٢.

٢. الكَنُّ: المكان الذي يُستَتر فيه.

www.kalemasawaa.com

أصدق وأيهما أعقل وأحكم؟

تذكر التوراة أن إنبات الله شجرة من يقطين على يونس عليه السلام، كان بعد خروجه من المدينة في المرة الأخيرة: "وخرج يونان من المدينة وجلس شرقي المدينة، وصنع لنفسه هناك مظلَّة، وجلس تحتها في الظل، حتى يرى ماذا يحدث في المدينة. فأعد الرب الإله يقطينة فارتفعت فوق يونان لتكون ظلًّا على رأسه، لكي يخلصه من غمه. ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحًا عظيمًا". (يونان ٣: ٥، ٦)، في حين يذكر القرآن أن ذلك كان فور خروجه من بطن الحوت إلى الشاطئ؛ لحاجته إلى شيء يظلله من الشمس؛ لظهوره المباشر تحت أشعتها بعد أيام قضاها في الظلمات، كما أنه خرج سقيمًا لا يستطيع أن يتحمل الشمس، فأنبت الله عليه يقطينةً تظلله رحمة منه ﷻ.

وقد يسأل سائل: لماذا أنبت الله يقطينة على يونس حين هرب للمدينة، ولم يكن في حاجة إليها، ولم ينبتها عليه حين خرج من بطن الحوت وهو في حاجةٍ لها؟

إن إنبات يقطينة عليه إثر خروجه ـ على حد تعبير القرآن ـ فيه من البلاغة الكثير، حيث يفيد السياق القرآني أن الخروج كان نهارًا والشمس ساطعة، على حين لم تحدد التوراة وقت الخروج ليلًا كان أم نهارًا.

تقرر التوراة أن الله ندم على الشرِّ الذي أخبر أنه سيصنعه بقوم يونس عليه السلام؛ فلم يصنعه: "فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة، ندم الله على الشر الذي تكلَّم أن يصنعه بهم، فلم يصنعه". (يونان ٣: ١٠)، على حين يقرر القرآن أن الله قدر مقادير الكون قبل أن يخلق الخلق ودون ذلك في اللوح المحفوظ، فلا يتجاوز الواقع ما قدره الله، وإذا تكلم الله بشيء فهو وفق مشيئته والتي لا تتعارض مع ما قدره الله في اللوح المحفوظ؛ ولذا فلا تعارض؛ لأن الله يتكلم بعلمه، وأنه قدَّر كلَّ شيء بعلمه، وأن ما يكون وما سيكون قد وقع في علم الله ودونه في اللوح المحفوظ؛ فالكون وما يقع فيه بالنسبة لعلم الله إنما هو تحصيل حاصل، وذلك يقتضي ألا يندم الله؛ لأن ما يقع هو ما قدره، ولأن الله إله، والإله كاملٌ لا يعتريه نقص، والندم نقص وقدح في علم الله الذي قرر القرآن أنه عِلمٌ محيطٌ وشامل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ (الإنسان)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ (العنكبوت)، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ (الفرقان)، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (القمر).

التوراة إذن تطعن في الله وفي نبيه في سفرٍ واحدٍ، ويفوتها أن تذكر الكثير الذي ذكره القرآن ولم يرد فيها مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ (الصافات).

فأنت تجد في التوراة أن يونس عليه السلام فرَّ مرتين لماذا؟ وإذا كان هذا هو شأن الأنبياء ـ عدم الاستجابة لأوامر الله ـ فما شأن باقي البشر، وماذا أن تتوقع منهم غير التكذيب والعصيان، أليس هذا تناقضًا؟ كيف يصح إثبات الإلوهية لله ثم يتم وصفه بالنقص الذي يتنزه عنه البشر؟

يمكنك أن تسأل كثيرًا، كما يمكنني أن أخبرك بأنك لن تجد جوابًا؛ لأن العقيدة اليهودية محرَّفة، والكتاب المقدس ـ مصدر هذه العقيدة ـ محرَّف؛ وبالتالي فهو

www.kalemasawaa.com

مليء بالتناقض والاضطراب، الذي يستطيع أي باحثٍ موضوعي أن يقرره فور قراءته لسفرٍ واحدٍ من أسفار الكتاب المقدس.

الخلاصة:

• القرآن محكم بعيد كل البعد عن التعارض والتناقض والاضطراب، ومسألة نبذ يونس عليه السلام بالعراء في غاية الإحكام؛ إذ يقول تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ (الصافات). وهذا معناه أنه نبذ بالعراء سقيمًا، ولم ينبذ بالعراء مذمومًا، حيث قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ (القلم)، فهل هناك تعارض في هذا الكلام؟!

• بالمقارنة بين ما ورد في العهد القديم من ذكر لقصة النبي يونان بن أمتاي، وذلك في كتاب يونان (١ـ ٤) وبين ما ذكره القرآن من إيجاز محكم في مسألة نبذ يونس عليه السلام بالعراء ـ يثبت عظم إحكام القرآن وبعده كل البعد عن التعارض والتناقض.

الشبهة الثامنة والأربعون

ادِّعاء أن القرآن أخطأ في إخباره أن من عثر على موسى عليه السلام هي امرأة فرعون(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم أخطأ في إخباره أن من عثر على موسى عليه السلام ـ بعد أن وضعته أمه في التابوت وألقته في اليم ـ هي امرأة فرعون، ويستدلون على ذلك بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ (القصص). ويزعمون أن التي عثرت عليه عليه السلام هي ابنة فرعون، كما ورد في التوراة.

وجها إبطال الشبهة:

١) لم ينص القرآن الكريم على أن من عثر على موسى عليه السلام هي امرأة فرعون، ولكنه نص على أن من التقطه هم آل فرعون بصفة عامة.

٢) نحن لا نحتكم إلى ما ورد في الكتاب المقدس للحكم بصدق ما جاء به القرآن، فالكتاب المقدس تناولته الأيدي البشرية، وهو بصورته الحالية محل لانتقادات وتناقضات كثيرة.

التفصيل:

أولا. لم ينص القرآن الكريم على أن من عثر على موسى عليه السلام هي امرأة فرعون، ولكنه نص على أن من التقطه آل فرعون بصفة عامة:

اختلف المفسرون في أول من عثر على التابوت الذي وضع فيه موسى عليه السلام صغيرًا، فمنهم من ذهب إلى "أن الجواري التقطته من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسَرْنَ[1] على فتحه، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبًّا شديدًا، فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه، ودفعت عنه وقالت: ﴿قُرَّتُ

(*) موقع المتنصرين. www.mutenessrin.com

١. يتجاسَرْنَ: يَتَجَرَّأْنَ.

www.kalemasawaa.com

عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ (القصص: ٩)[١]، فقال لها: أمَّالك فنعم، وأمَّا لي فلا"[٢].

"ويروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر، فأمرت بسوقه إليها وفتحه، فرأت فيه صبيًّا صغيرًا فرحمته وأحبته، فقالت لفرعون: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾[٣] وذهب فريق ثالث إلى أن حرس القصر الفرعوني رأوا صندوقًا يمر على سطح النيل من جهة القصر، فحملوه إلى فرعون، ولما فُتح الصندوق رأى فرعون بداخله غلامًا فأمر بقتله، واعترضت امرأته، عندما رأت وجهه يتلألأ نورًا، وألقى الله عليه محبة منه"[٤].

وكل هذه آراء اجتهادية لا تستند إلى دليل واضح، أما الحقيقة الواضحة فإن القرآن لم يذكر اسم أول من عثر على تابوت موسى عليه السلام؛ حيث إن قوله: ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ قابل لأن يفسر بامرأة فرعون، أو ابنة فرعون أو جواريه أو غيرهن من "آل فرعون" أو اشترك في التقاطه وتداوله أكثر من واحد، فهذا يأخذه من "اليم" وآخر يحمله منه، وثالث يتلهف على هذه المفاجأة فيحمله ناظرًا إليه، وهذا ما يفهم من الآية الكريمة، ويصور هذا الحدث المفاجئ أصدق تصوير "فالتقطه آل فرعون" وليس واحدًا منهم بعينه.

١. قُرَّة عين: سببًا للسرور والسعادة.

٢. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٢٢٤، ٢٥٥ بتصرف يسير.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٢٥٣.

٤. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي، مرجع سابق، ص١٨٥ بتصرف يسير.

ثانيًا. نحن لا نحتكم إلى ما ورد في الكتاب المقدس للحكم بصدق ما جاء به القرآن، فالكتاب المقدس بصورته الحالية محل لانتقادات وتناقضات كثيرة:

لقد صدق القرآن الكريم في كل ما أخبر به؛ لأنه تنزيل رب العالمين، ومن الأمثلة الدالة على صدق القرآن فيما يخبر، إخباره بغلبة الروم على الفرس يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ (الروم) يقول القرطبي: "وكان في هذا الإخبار دليل على نبوة محمد ﷺ لأن الروم غلبتها فارس، فأخبر الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين... فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله ﷻ مما لم يكن علموه"[٥].

والأمثلة على ذلك كثيرة مما أخبر به القرآن ووقع بالفعل، كإخباره بحفظ القرآن من التحريف وظهور الإسلام على سائر الأديان، وموت أبي لهب والوليد بن المغيرة على الكفر، وغيرها مما حدث بالفعل.

وكذلك أخبر القرآن الكريم عن إثبات حركة الشمس بقوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ ﴾ (يس) تدل الآية على أن الشمس متحركة وليست ثابتة، وهي تجري لمستقر لها وفق ناموس[٦] إلهي ثابت، وهذا ما انتهى إليه البحث العلمي مؤخرًا، مع العلم بأن العلماء إلى وقت قريب

٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٤، ص٥.

٦. النَّاموس: القانون الثابت.

www.kalemasawaa.com

كانوا يعتقدون أنها ثابته[1].

وأمثلة الاكتشافات العلمية الحديثة التي أشار إليها القرآن الكريم كثيرة ومتعددة مثل حركة الشمس وشكلها، وعملية تكوّن السحب، وحفظ توازن الأرض بالجبال، وانتشار الزوجية من كل شيء.

أما إذا ذهبنا إلى التوراة فإننا نجد كلماتها مشكوكًا فيها، والدليل على ذلك: أن اسم الرجل في موضع يأتي من موضع آخر باسم آخر، وكذلك المرأة وهذا يتكرر كثيرًا، فإسماعيل عليه السلام كانت له ابنة اسمها محلث، وتزوجت العيس بن إسحاق عليه السلام كما جاء في سفر التكوين: "فذهب عِيْسُو إلى إسماعيل ،وأخذ محلة بنت إسماعيل بن إبراهيم، أخت نبايوت، زوجة له على نسائه". (التكوين٢٨: ٩)، وفي ترجمة لبنان "محلة"، وفي ترجمة البروتستانت "بسمة" كما جاء في سفر التكوين أيضًا: "وبسمة بنت إسماعيل أخت نبايوت". (التكوين ٣: ٣٦)، والشيخ الكبير في أرض مدين مختلف في اسمه، ففي الخروج "رعوئيل": "فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن قال: ما بالكن أسرعتن في المجيء اليوم". (الخروج٢: ١٨)، وفي موضع آخر من سفر الخروج "يثرون": "فمضى موسى ورجع إلى يثرون حميه، وقال له: أنا أذهب وأرجع إلى إخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد أحياء. فقال يثرون لموسى: اذهب بسلام". (الخروج١٨: ٤)[2].

والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى مما تناقضت فيه التوراة.

وبناء على هذا فإن القرآن الكريم حجة فيما يذكر؛ لأنه كلام الله عز وجل الذي لم ولن تمتد إليه يد البشر، قديمًا ولا حديثًا، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ (النساء)، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ (النساء).

أما ما ورد في الكتاب المقدس فهو محل انتقادات كثيرة لما فيه من تناقضات وأباطيل مخالفة للتاريخ والعلم والعقل، فلا يصح أن نُحكِّم الكتاب المقدس الظني المحرَّف في القرآن الكريم القطعي المعصوم من التحريف.

الخلاصة:

- لم ينص القرآن الكريم على أن من عثر على موسى عليه السلام هي امرأة فرعون، ولكنه نص على أن من التقطه آل فرعون بصفة عامة، وهنا يمكن أن يُفسر بامرأة فرعون، أو ابنته، أو جواريه، أو غيرهن.
- ما ورد في الكتاب المقدس محل انتقادات كثيرة، وذلك لما ورد فيه من أباطيل وتناقضات مع التاريخ والعقل والعلم، فلا يصح أن نُحكِّمَ الظني ـ الكتاب المقدس ـ في القطعي ـ القرآن الكريم ـ الذي هو الصدق كل الصدق، فهو كلام الله تبارك وتعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

١. الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١، ص٢١٦.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٩٧ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

الشبهة التاسعة والأربعون

ادِّعاء أن موسى عليه السلام قتل قبطيًّا لمجرد أن رجلا من شيعته استنصر به عليه(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهمين عصمة نبي الله موسى عليه السلام، ويستدلون على زعمهم بقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ (القصص). ففي ظنهم أن موسى عليه السلام قتل قبطيًّا لمجرد أن رجلًا من شِيْعَته[1] استنصر به عليه.

وجها إبطال الشبهة:

١) القبطي كان ظالمًا معتديًا على الإسرائيلي، فتدخل موسى عليه السلام دفعًا للظلم عن المظلوم لا أكثر.

٢) ما وقع من موسى عليه السلام كان قبل النبوة، فلا يطعن به في عصمته باعتباره نبيًّا من أنبياء الله.

التفصيل:

قبل الإجابة عن الشبهة نبين معنى الوكز، والدافع إليه، ومعنى الآيتين:

١. **معنى الوكز:** الضرب بالكف مضمومة أصابعها. وقيل: الوكز: الدفع بأطراف الأصابع. وفي القاموس: الوكز: الدفع، والطعن والضرب بمجمع الكف، وعلى هذا فالوكز ليس من باب الضرب المؤثّر قتلًا وإهلاكًا، ومن يريد أن يقتل فإنه لا يكتفي بالوكز سبيلًا موصلًا إليه، وإنما يستخدم وسائل الضرب الأخرى، وأدواته المؤثرة مما يحقق القتل.

٢. **الدافع إلى الوكز:** هو دفع ظلم هذا الذي من عدوه، فهو ـ كما قيل ـ كان يريد تسخير الإسرائيلي في حمل الحطب إلى مطبخ فرعون، وصنيع فرعون وقومه مع بني إسرائيل كان يتمثل فيه الظلم الصارخ لهم، فقد كان فرعون يستضعف بني إسرائيل، فيذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم[2] كما حكى القرآن الكريم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ (القصص).

أولا. القبطي كان معتديًا على الإسرائيلي، فتدخل موسى عليه السلام دفعًا للظلم عن المظلوم لا أكثر:

لما شب موسى وعقل أخذ يتكلم بالحق، وينكر على فرعون أعماله فأخافوه من فرعون، فكان لا يدخل المدينة إلا وأهلها في غفلة، وذات مرة وجد رجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل، والآخر من القبط، فطلب الإسرائيلي من موسى غوثه ونصره على القبطي الذي يظلمه، ويكلّفه حمل الحطب إلى مطبخ فرعون، فحاول موسى عليه السلام كفّ القبطي عن عدوانه، لكنه تمادى وقال لموسى عليه السلام: لقد هممت أن أحمله ـ أي الحطب ـ عليك، فاشتد غضب موسى عليه السلام فوكز

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. الشِّيعة: الأتباع.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٣٧.

www.kalemasawaa.com

القبطي ـ الذي تعدى أولًا على الإسرائيلي، وأغضب موسى عليه السلام ثانيًا ـ فوكزه موسى عليه السلام فقتله، فندم موسى عليه السلام وتضرع إلى الله، ليغفر له ذنبه إنه هو الغفور الرحيم.

إذن رأى موسى عليه السلام نفسه إزاء معتدٍ لا يرعوي ولا يكف عن ظلمه، فرأى أن الوكز وسيلة مناسبة لدفعه، ذلك لأنه رجل لا تنفع معه النصيحة، ولا تردعه الملامة، ولا يكفه اللين ولا يجدي معه. والوكز كما أسلفنا ليس من باب الضرب المؤثر قتلًا وإهلاكًا، ومن يريد أن يقتل إنسانًا، فإنه لا يكتفي بالوكز سبيلًا موصلًا إليه، وإنما يستخدم من وسائل الضرب الأخرى، وأدواته المؤثرة ما يحقق القتل. فما ترتب على الوكز من القتل غير مقصود، إنما المقصود دفع ظلم القبطي بوسيلة رآها موسى عليه السلام مناسبة؛ لم يجد معه أقل منها، ولا تؤدي في أصلها إلى القتل[1]. على أن موسى عليه السلام قد ندم؛ وقال: هذا القتل الحاصل بغير قصد من تزيين الشيطان الذي هو عدو ظاهر العداوة والإضلال، ثم تضرع موسى إلى الله عز وجل طالبًا مغفرة زلته، فغفرها الله له، فإنه هو الغفور الرحيم.

ثانيًا. ما وقع من موسى عليه السلام كان قبل النبوة، فلا يطعن به على عصمته عليه السلام باعتباره نبيًّا من أنبياء الله:

يدل سياق الآيات على أن هذه الفعلة كانت قبل فرار موسى عليه السلام من مصر، وهجرته إلى مدين، تلك الهجرة التي تم فيها التعرف بشيخها الكبير، في أعقاب سقايته لبنتيه، ثم اتفاقهما على أن يعمل موسى عليه السلام أجيرًا عنده ثماني حجج أو عشرًا صداقًا لإحدى ابنتيه، وأتم موسى عليه السلام الأجل ورحل بزوجه، فإذا بالنداء من شاطئ وادي الطور الأيمن في البقعة المباركة من قبل الله عز وجل يحمله الرسالة، ويكلفه بدعوة فرعون وملئه إليه عز وجل، فيذكر موسى عليه السلام أنه قتل منهم نفسًا، ويخشى أن يقتلوه به، فيؤمنه الله ويطمئنه بأنهم لن يقتلوه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (القصص). وقوله تعالى حكاية عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ (الشعراء).

وعلى ذلك فإن ما وقع من موسى من الوكز الذي لا يقتل غالبًا، والذي كان لدفع الظلم والعدوان، فترتب عليه القتل خطأ قد وقع قبل النبوة فلا يُطعن به على موسى سواء كان خلاف الأولى أو معصية صغيرة.

وأما وصفه نفسه بالكفر والضلال في فعلته هذه في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ (الشعراء). فإن معنى: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ (الشعراء) أي لنعمتي، وحق تربيتي، فإن موسى عليه السلام قد تربى في بيت فرعون إلى أن كبر وبلغ.

ومعنى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ (الشعراء) أي الذاهلين عن أن الوكزة تأتي على النفس، أو

١. المرجع السابق، ص٣٣٨، ٣٣٩.

www.kalemasawaa.com

أن المدافعة تفضي إلى القتل، وقد يوصف الذاهل عن الشيء بأنه ضال عنه، أو من المخطئين، أي لم أتعمد القتل. ومع أن الوكز ليس ذنبًا إلا أن موسى عليه السلام استعظمه نظرًا لعلو شأنه فاستغفر منه، واعتذر به في مقام الشفاعة يوم القيامة.

قال القرطبي: لم يزل عليه السلام يعد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له حتى إنه في القيامة يقول: "إني قد قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها"[١]. وإنما عدَّه على نفسه ذنبًا من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر، وأيضًا: فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم[٢].

الخلاصة:

- القبطي كان ظالمًا معتديًا على الإسرائيلي، فتدخل موسى عليه السلام دفعًا للظلم عن المظلوم لا أكثر. فلم تنفع معه النصيحة، ولم تردعه الملامة، ولم يكفه اللين، فارتأى موسى إزاء معتد لا يرعوي ولا يكف عن ظلمه ـ أن الوكز وسيلة مناسبة لدفعه. فَقَتَلَ القبطي بالوكزة دون قصد، ولا عَمْد، وندم على تلك الزلة، فغفرها الله له، فإنه هو الغفور الرحيم.
- ما وقع من موسى عليه السلام كان قبل النبوة، بدليل سياق الآيات التي وردت فيه الآية "ودخل المدينة..."، فلا يُطْعَنُ بهذه الزلة في عصمته عليه السلام باعتباره نبيًّا من أنبياء الله.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل (٢٤٣٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٥٠١).

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٣٩، ٣٤٠.

الشبهة الخمسون

إنكار استئجار الرجل الصالح لموسى عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهمين استئجار[٣] الرجل الصالح لموسى عليه السلام صداقًا لزواجه من ابنته وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ (القصص)[٤]. ويزعمون أن هذا يخالف ما ورد في التوراة.

وجه إبطال الشبهة:

ما جاء في التوراة من أن الذي خدم حماه كصداق لامرأته هو يعقوب عليه السلام لا يخالف ما جاء في القرآن الكريم عن موسى عليه السلام، ولكنه يدل على أنها كانت شريعة مُتَّبعة في تلك العصور.

التفصيل:

ما جاء في القرآن لا يخالف ما جاء في التوراة، ولكن يدل على أنها كانت شريعة متبعة.

لقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز أن المدة التي قضاها موسى في خدمة الشيخ الكبير كانت مقابل أن يُنكحه إحدى ابنتيه كمهر لها، وقد جمع الرجل بين غايتين وهو يعرض على موسى أن يزوّجه إحدى ابنتيه مقابل أن

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.islmeyat.com

٣. استئجار: أن يكون إنسان أجيرًا عند إنسان.

٤. الحِجَج: جمع حِجَّة، وهي السنة.

www.kalemasawaa.com

يخدم ويرعى ماشيته ثماني سنوات، فإن زادها إلى عشر فهو تفضّل منه لا يُلْزَم به، حيث أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة، وميلًا فطريًّا سليمًا صالحًا لبناء أسرة، يقول ﷻ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (القصص).

وهكذا صنع الشيخ الكبير ـ صاحب موسى عليه السلام ـ فعرض على موسى عليه السلام ذلك العرض واعدًا إياه ألا يشقّ عليه ولا يُتْعبه في العمل؛ راجيًا بمشيئة الله أن يجده موسى عليه السلام من الصالحين في معاملته ووفائه، وهو أدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله... وقَبِلَ موسى عليه السلام العرض وأمضى العقد، في وضوح ودقة، وأشهد الله[1]، قال ﷻ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ (القصص) ويبدو أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كل ملة، وهي من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس[2].

ولقد كان حال يعقوب عليه السلام مع خاله لابان كحال موسى عليه السلام مع شيخ مدين، فإنهما كانا يتعايشان من رعي الغنم، وخدم يعقوب عليه السلام خاله سبع سنين صداقًا لابنته الأولى لينة، وخدم سبع سنين أخرى صداقًا لابنته الأخرى راحيل.

ومن ثم فالعجب من هؤلاء، فلماذا ينفون الاستئجار لموسى، ويعترفون به ليعقوب عليهما السلام؟!

أليس موسى نبيًّا مثل يعقوب؟ أم إنهم يفرقون بين أنبياء الله ورسله.

ومما يؤكد هذا الاستئجار أن موسى عليه السلام هرب من أرض مصر بلا مال. فكيف يتزوج في أرض غريبة بلا مال؟!

وفي النص التوارتي ما يدل على ما اتفقا عليه، وهو: "فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل، فأعطى موسى صفورة ابنته". (الخروج ٢: ٢١)، إذن فعلام ارتضى موسى عليه السلام؟ ولماذا قال بعد الارتضاء: "فأعطى موسى صفورة ابنه"؟

وفي النص السامري: "فلما أمعن موسى في السكنى مع الرجل أعطاه صفورة ابنته لموسى زوجة"[3]. إذن فالواضح من النص أن الرجل أعطى لموسى عليه السلام ابنته مقابل أن يستأجره مدّة معينة محددّة.

وعلى هذا فلا اختلاف بين النص التوراتي والنص القرآني، وإن كان القرآن قد فصَّل القصة تفصيلًا دقيقًا، فهذه ميزة القرآن أنه جمع علوم الكتب السابقة المجملة وفصلها بلا غموض أو لبس، بل وزاد عليها علومًا ومعارف أخرى كثيرة لم تذكر في الكتب السابقة.

الخلاصة:

- أخبرنا القرآن الكريم أن موسى عليه السلام مكث مع

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٢٦٨٨، ٢٦٨٩ بتصرف.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٣، ص٢٧١.

٣. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٩٩، ٥٠٠.

www.kalemasawaa.com

الشيخ الكبير بِمَدْيَنَ المدة التي تم تحديدها بينهما كصداق لابنة الرجل ـ ثمان سنوات أو عشر ـ وهذا الذي أثبته القرآن لا يتنافى مع ما جاء في التوراة، حيث إن المعنى المفهوم من سياق النص التوراتي يوحي بوجود هذه المدة المحددة كصداق لابنة الرجل الصالح، ويبدو أنها كانت عادة متبعة في ذلك الوقت؛ حيث خدم يعقوب عليه السلام خاله أربعة عشر عامًا مقابل أن يتزوج ابنته الكبرى، ثم الصغرى، وهذا لا اختلاف عليه في التوارة.

- إذن فلماذا ينفون ذلك عن موسى، ويعترفون به ليعقوب ـ عليهما السلام؟! بيد أن هذا الأمر ليس بغريب عنهم فهذا من جملة ما درجوا عليه في التفريق بين أنبياء الله عز وجل.
- وإذا كان القرآن قد فصّل القصة فإن هذه من ميزاته، فقد وضّح وبيّن ما جاء في الكتب السابقة، بل وزاد عليه علومًا ومعارف أخرى لم يرد ذكرها عندهم.

الشبهة الحادية والخمسون

ادِّعاء أن موسى عليه السلام اعتذر عن حمل الرسالة، وطلب من الله أن يكلِّف بها هارون عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن موسى عليه السلام قد كلفه الله بدعوة فرعون وقومه إلى عبادته سبحانه وحده، فاعتذر موسى عليه السلام عن حمل الرسالة، وطلب من الله أن يكلف بها هارون، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ (الشعراء).

وجه إبطال الشبهة:

موسى عليه السلام لم يطلب إعفاءه من الرسالة، وتوجيهها إلى هارون عليه السلام، وإنما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون؛ ليكون معه رسولًا. وكان طلبه هذا مقبولًا لأمرين:

- أن فرعون ربما كذّبه، والتكذيب سبب لضيق الصدر، وضيق الصدر سبب لتعسّر الكلام على من يكون في لسانه حُبْسَة[1]، أمّا هارون عليه السلام فهو أفصح لسانًا.
- أن لفرعون وقومه عند موسى عليه السلام ذنبًا، فخاف أن يبادروا إلى قتله، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة، أما هارون عليه السلام فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة.

التفصيل:

هل طلب موسى عليه السلام إعفاءه من الرسالة وإعطاءها لهارون عليه السلام؟!

يوضح د. محمد أبو النور الحديدي القول على هذا التساؤل قائلًا: إن موسى عليه السلام لم يطلب إعفاءه من الرسالة، وتوجيهها إلى هارون عليه السلام، وإنما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون فيكون كل منهما رسولًا

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. الحُبْسَة: ثِقَل في اللسان يمنع من الإبانة.

www.kalemasawaa.com

يتعاونان في دعوة فرعون وقومه إلى الله، وإصلاح حال بني إسرائيل؛ وذلك لأن موسى كان في لسانه لُثْغَةٌ[1].

قال سفيان: كان ذلك من أثر الجمرة التي وضعها في فمه وهو صغير، وكان مع هذا يُفْقَه قوله[2]، وليس كما قال فرعون ـ لعنه الله ـ فيما حكاه عنه القرآن: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ (الزخرف) أي: ولا يكاد يفصح عن كلامه، فهو عَيِيٌّ حَصِرٌ[3]؛ لأنه سأل الله تعالى أن يحل عقدة لسانه ليفقه الناس قوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ (طه). فاستجاب الله ﷻ له ذلك فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ (طه)، فموسى عليه السلام تحقق له طلبه فتيسر له الإبلاغ والإفهام، ولا يعقل أن يرسل الله رسولًا لا يستطيع إفهام غيره. فكان طلب موسى الإعانة بأخيه هارون ـ عليهما السلام ـ طلبًا مقبولًا لثلاثة أمور:

الأول والثاني: لأن فرعون ربما كذَّبه، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حُبْسَة، فقد كان في لسان موسى عليه السلام لثغة لا يكاد يفصح عن كلامه، فسأل الله تعالى أن يحل عقدة لسانه، ليُفقِّه الناس: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ (الشعراء). فاستجاب الله تعالى له: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ (طه)، فتيسر له عليه السلام الإبلاغ والإفهام، ولكن هارون عليه السلام كان أفصح من موسى عليه السلام، والأفصح يكون أكثر إبلاغًا وإفهامًا، ثم إن هارون بإرساله يكون مُعينًا مقوِّيًا لأمر موسى عليه السلام، ومصدقًا له فيما يقوله، ويخبر به عن الله تعالى، لأن خبر الاثنين أوقع في النفس من خبر الواحد، قال الله ﷻ:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (القصص) والقول إجابة من الله لدعاء موسى عليه السلام.

الثالث: لأن القوم لهم عند موسى ذنبٌ، فخاف أن يبادروا إلى قتله، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة، حيث إن موسى عليه السلام قد قتل من قوم فرعون نفسًا، وهو الذي وكزه فقضى عليه، ويخشى أن يقتلوه به، فلا يتحقق المقصود من بعثته: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الشعراء)، أما هارون عليه السلام فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة.

ومما يدل صراحة على عدم استعفاء موسى عليه السلام من الرسالة ـ وإنما طلب مشاركة هارون عليه السلام له في مهمته الصعبة ـ قوله الذي حكاه عنه القرآن الكريم: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ (طه)[4][5].

---

١. اللُّثْغَة: تحوُّل اللسان من النطق بحرف إلى النطق بحرف آخر؛ كنطق السين ثاءً.

٢. يُفْقَه قوله: يُفْهَم.

٣. العِيُّ: العجز عن التعبير اللفظي بما يفيد المعنى المقصود، والحصر: ضرب من العي، وهو عدم القدرة على الكلام.

٤. أُشْدُد به أَزْرِي: قوِّ به ظهري.

٥. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٤٥، ٣٤٦.

www.kalemasawaa.com

وقد ذلَّل[١] الله له العقبة الأولى إذ أيده بالآيات الحسّيّة الدالة على صدقه في دعوة النبوة والرسالة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ (الإسراء)، فقال له الله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ (طه)[٢]، وهي ـ العصا ـ في سرعتها وخفة حركتها كأنها جانٌّ: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ (القصص: ٣١) فناداه الحق تعالى: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (النمل: ١٠) فرجع موسى عليه السلام آمنًا نحو العصا فقال له الله تعالى: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ (طه)، فوضع موسى عليه السلام يده بين أنيابها فعادت خشبة جامدة، ثم أعطاه الله آية أخرى وهي اليد البيضاء النقية من غير برص: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ (طه)، ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ (القصص: ٣٢)، ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ (النمل:١٢).

وهاتان الآيتان من المعجزات الخارقة للعادة التي أيد الله بها موسى عليه السلام إذا ما كذبه فرعون وقومه.

وكان كليم الله موسى عليه السلام قد دعا ربه لتذليل العقبة الثانية: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (طه) وقد طلب موسى من الله أن يحل عقدة لسانه، وأن يرسل أخاه هارون معه نبيًّا؛ لما يتمتع به من فصاحة في اللسان: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ (القصص)[٣].

وأما العقبة الثالثة فقد ذللها رب العالمين إذ أنزل السكينة على قلب موسى، ووعده بأن قوم فرعون لن يصلوا إليه، ولن يتمكنوا من قتله، وأن الله تعالى سينصره عليهم: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (القصص).

ومضى موسى إلى هارون ـ عليهما السلام ـ ليبلغه أمر الله، ويبشره بإرساله وزيرًا مصدقًا فصيح اللسان، يحمل معه الكتاب المستبين، وفيه قول الله: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ (طه)[٤].

وقد كان التكليف شاقًّا، إذ طغى فرعون وبغى، وتجبَّر وعلا، ونسي الجبار الأعلى. ولا بد للطاغية من رسول يبلغه كلمات الله، ليهز طغيانه بالكلمة المؤثرة الهادئة، ويواجه جبروته بالحق واللين، وقد علَّم الله موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ أسلوب الدعوة والتبليغ،

١. ذلَّل: أخضع وسهل.
٢. أَتَوَكَّأ: اعتمد عليها في المشي وحين التعب.
٣. ردءًا: عونًا لي.
٤. لا تَنِيَا: لا تُقَصِّرا.

www.kalemasawaa.com

المتمثل في القول اللين، وبيَّن لهما أن مهمتهما التذكير بنعم الله وزرع الخشية من الله في قلب الطاغية وأعوانه[1].

الخلاصة:

موسى عليه السلام لم يطلب إعفاءه من الرسالة، وتوجيهها إلى هارون عليه السلام، وإنما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون ليكون معه رسولًا. وكان طلبه هذا لأمرين:

الأول: لأن فرعون ربما كذَّبه، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حبسةٌ. وكان هارون عليه السلام أفصح من موسى عليه السلام، والأفصح يكون أكثر إبلاغًا وإفهامًا.

الثاني: لأن القوم لهم عند موسى عليه السلام ذنبٌ، وهو قتل نفس، فخشي أن يقتلوه به، فلا يتحقق المقصود من بعثته، أما هارون عليه السلام فليس كذلك؛ فيتحقق المقصود من البعثة.

الشبهة الثانية والخمسون

الزعم أن شريعة موسى عليه السلام هي أولى الشرائع للبشر (*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن شريعة موسى عليه السلام هي شريعة تنظم حياة البشر من زواج وغيره، وأنه لم يكن هناك شرائع قبلها؛ بدليل أن الكتاب المقدس لم ينص على وجود شريعة قبل شريعة موسى عليه السلام.

وجه إبطال الشبهة:

القرآن الكريم الذي سَلِم من التحريف الذي وقع للكتاب المقدس هو الحُجّة والمصوِّب للأخطاء الناشئة عن تحريف الكتاب المقدس، وقد ذكر أن الله تعالى قد شرع لنوح وإبراهيم من قبل موسى عليهم السلام.

التفصيل:

القرآن هو الصدق كل الصدق، في كل ما جاء به من عقيدة وشريعة وقصص وأخبار، وقد ذكر أن الله تعالى قد شرع لنوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ من قبل:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ (الشورى).

أخبر الله تعالى أنه قد شرع لنوح وإبراهيم ما قد شرعه لموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ من شريعة فقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة ـ رحمه الله ـ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ قال: الحلال والحرام.

وأخرج ابن جرير، عن قتادة رضي الله عنه قال: بعث نوح عليه السلام، حين بعث بالشريعة، بتحليل الحلال وتحريم الحرام[2].

وأخرج ابن المنذر، عن زيد بن رفيع، بقية أهل

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص١٩٦، ١٩٧.

(*) قناة الحياة الفضائية، القمص زكريا بطرس، الحلقة.

® في "التشريعات التي كُلِّف بها آدم" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من هذا الجزء.

٢. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢١/ ٥١٢)، تفسير سورة الشورى، الآية ١٣.

www.kalemasawaa.com

الجزيرة، قال: بعث الله نوحًا عليه السلام، وشرع له الدين، فكان الناس في شريعة نوح عليه السلام ما كانوا، فما أطفأها إلا الزندقة[١]، ثم بعث الله موسى عليه السلام، وشرع له الدين، فكان الناس في شريعة من بعد موسى ما كانوا، فما أطفأها إلا الزندقة، ثم بعث الله عيسى عليه السلام، وشرع له الدين، فكان الناس في شريعة عيسى عليه السلام ما كانوا، فما أطفأها إلا الزنادقة، قال: ولا يُخاف على هلاك هذا الدين إلا الزَّنادقة[٢].

وعدم نص الكتاب المقدس على شريعة قبل شريعة موسى عليه السلام لا يعد دليلًا على عدم وجود شرائع قبل موسى عليه السلام، وذلك لوقوع تدخلات بشرية فيه أدت إلى احتوائه على العديد من الأباطيل والأساطير - وذلك باعتراف علماء اللاهوت أنفسهم - وبهذا لا يعد الكتاب المقدس الحالي دليلًا أو حكمًا يُحتج به أو يُتحاكم إليه.

ولقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحكم، قال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ (الشورى) قال: جاء نوح عليه السلام بالشريعة، بتحريم الأمهات والأخوات والبنات[٣]، وفي هذا تدَرُّج في التشريع عبر الأزمان، وتخصيص في تناول قضايا الحِل والحرمة، والتعامل مع بعضهم بعضًا في الحياة العامة، أليست هذه هي الشريعة بعينها؟! والرسل - عليهم السلام - هم القدوة الحسنة للناس في شتَّى مناحي الحياة، فالذي يسير على منهاجهم، فقد طبق الشريعة بعينها؛ لأنه لا يفعل شيئا عن أمره، إنما هو يفعل ما أمره الله أن يفعل، ويترك ما أمره الله تعالى أن يترك، أليست هذه هي الشريعة[٤]؟!

قال القاسمي: وتخصيص هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم بالذكر؛ لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة، ولاستمالة قلوب الكفرة لاتفاق الكُل على نبوة بعضهم[٥].

ويوضح الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ (الشورى) اختلاف كل الشرائع في الفروع واتخاذها في الأرض منذ آدم عليه السلام فإنه وإن كان نبيًّا إلا أنه لم يكن رسولًا، فلم تفرض له الفرائض ولا شرعت له المحارم، وإنما كان تنبيهًا على بعض الأمور واقتصارًا على ضرورات المعاش، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء، واستقر المدى إلى نوح عليه السلام فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظّف عليه الواجبات، وأوضح

---

١. الزَّنْدَقَة: مذهب مَنْ يقول بأزليَّة العالم، وأطلق على الزرادشتية والمانوية وغيرهم من الثنوية، وتُوسِّع فيه فأطلق على كل شاكٍّ أو ضالٍّ أو مُلْحِد.

٢. الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، مرجع سابق، ج٩، ص٥٨.

٣. المرجع السابق، ص٥٨.

٤. النبوة والأنبياء، الصابوني، مرجع سابق، ص٢٣، ٢٤ بتصرف.

٥. محاسن التأويل، القاسمي، مرجع سابق، ج٨، ص٢٤٧.

www.kalemasawaa.com

له الآداب في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل، ويتناصر بالأنبياء صلوات الله عليهم واحدًا بعد واحد، وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ؛ فكان المعنى: أوصيناك يا محمد ونوحًا دينًا واحدًا، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، والزَّلف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنا، والإذاية للخلق كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفما دار، واقتحام الدناءات وما يعود بخَرْم[1] المُرُوءات.. فهذا كله مشروع دينًا واحدًا وملة واحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم[2].

وبهذا يتبين أن شريعة موسى عليه السلام ليست أول الشرائع الإلهية للبشر فقد سبقتها شرائع كثيرة منها شريعة نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ، بل إن لكل أمة شريعة، وإلا فلماذا كان يرسل الله إليهم رسلًا؟ وبماذا كانوا يأمرونهم وينصحونهم؟ فكل ما كان يبعث به النبي إلى قومه من الأوامر والحلال والحرام فهذا تشريع، ويدل على هذا ما تبقى من بعض الشرائع السابقة كالذي بقي من ملة إبراهيم، مثل شعائر الحج ومناسكه التي شرعها الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ بعدما صححها من مظاهر الشرك التي ألحقها الناس بها.

١. خَرْم المروءات: القدح فيها.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٦، ص١١.

الخلاصة:

- القرآن هو الصدق في كل ما أخبر به من عقيدة وشريعة وقصص وأخبار، وقد أخبر الله أنه شرع لنوح وإبراهيم ما شرعه لموسى وعيسى ـ عليهم جميعا السلام ـ إذن فليست شريعة موسى عليه السلام أول الشرائع.
- الله تعالى أرسل إلى كل أمة نذيرًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويبلغهم أوامر الله ونواهيه، ويعلمهم كيفية تعامل بعضهم مع بعض، ويكون قدوة حسنة لهم يسيرون على منهاجه. أليست هذه هي الشريعة؟!

الشبهة الثالثة والخمسون

الزعم أن القرآن خالف التوراة في عدد ألواح موسى (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن القرآن خالف التوراة في ألواح موسى عليه السلام فيقولون: إن موسى كتب الشريعة على لوحين لا على ألواح، وعلى اللوحين كتب الوصايا العشر فقط وليس تفصيلًا لكل شيء، وهذا يتناقض مع قوله ﷻ: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (الأعراف).

وجها إبطال الشبهة:

١) لفظ "الألواح" يستعمل في اللغة العربية للدلالة

(*) موقع الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة.

www.kjee.net
www.kalemasawaa.com

على الاثنين فأكثر من باب أن أقل الجمع اثنان، ومن ثم اختلف المفسرون في عدد هذه الألواح وهيئتها.

٢) نصوص التوراة ـ المحرفة ـ التي بين أيدينا الآن تثبت أن الأحكام والشرائع والوصايا التي تلقاها موسى عليه السلام من ربه، كُتبت على أكثر من لوحين، فضلًا عن أنها أشارت إلى كل شيء في شريعة موسى عليه السلام جملةً، وما يحتاج لتفصيل فصّلته.

التفصيل:

أولا. تستخدم لفظة الألواح في اللغة العربية للدلالة على الاثنين فأكثر من باب أن أقل الجمع اثنان، ومن ثم اختلف المفسرون في عددها وهيئتها:

الألواح جمع لَوْح، وهو قطعة مربعة من الخشب، وتسمية الألواح التي أعطاها الله موسى ألواحًا من باب المجاز؛ لأن الألواح التي أُعْطيها موسى عليه السلام كانت من الحجارة، كما في التوراة: "قال الرب لموسى: اصعد إلى الجبل، وكن هناك، فأعطيك لَوْحَي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم". (الخروج ٢٤: ١٢)، فتسميتها بالألواح، لأنها على صورة الألواح، والذي بالإصحاح الرابع والثلاثين أن اللوحين كتبت فيهما الوصايا العشر التي ابتدأت بها شريعة موسى، وكانا لوحين، كما في التوراة، أما إطلاق الجمع عليها في سورة الأعراف فهو: إما من باب إطلاق صيغة الجمع على المثنى؛ بناءً على أن أقل الجمع اثنان، وإما لأنهما كانا مكتوبين على كلا وجهيهما، كما يقصّه سفر الخروج: "لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا ومن هنا كانا مكتوبين". (الخروج ٣٢: ١٥)، فكانا بمنزلة أربعة ألواح، وأسندت الكتابة إلى الله تعالى؛ لأنها كانت مكتوبة نقشًا في الحجر من غير فعل إنسان، بل بمَحْض قدرة الله تعالى كما يُفهَم من سفر الخروج: "واللوحان هما صنعة الله، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين". (الخروج ٣٢: ١٦)[1].

وللمفسرين آراء في عدد وهيئة هذه الألواح، قال بعضهم: إنها كانت عشرة ألواح. وقيل: سبعة، وقيل: تسعة وإنها كانت من زُمُرُّدٍ[2] جاء بها جبريل عليه السلام، وقيل: من زبرجدة خضراء وياقوته حمراء، وقال الحسن: كانت من خشب نزلت من السماء، وقال وهب: كانت من صخرة صمَّاء ليِّنها الله لموسى عليه السلام، وأما كيفية الكتابة، فقال ابن جريج: كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور.

ذكر الإمام ابن كثير: "وكانت الألواح من جوهر نفيس ففي الصحيح: أن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ من الآثام، وتفصيل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام، وأمره أن يأخذها بعزم، وأن يأمر قومه أن يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها، والخارج عنها له عاقبة سيئة قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ (الأعراف)[3] ®.

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ٥، ج٩، ص٩٦.

٢. الزُّمُرُّد: حجر كريم أخضر اللون شفاف.

٣. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٢٨١.

® في "تعبير القرآن بالجمع مكان المثنى" طالع: الشبهة الحادية والخمسين، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم).

www.kalemasawaa.com

ثانيًا. نصوص التوراة تثبت أن الشرائع والوصايا التي تلقاها موسى عليه السلام من ربه كتبت على أكثر من لوح، وكانت متضمنة لكل شيء يخص رسالة موسى:

يذكر الطاهر ابن عاشور أن ما كتب لموسى عليه السلام في الألواح هو أصول وكليات هامة للشريعة التي أوحى الله بها إلى موسى عليه السلام ومن ذلك خطاب الله لموسى عليه السلام قائلًا: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع إحسانًا إلى ألوف من مُحبي وحافظي وصاياي. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلًا، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلًا، اذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملًا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك، لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع؛ لذلك بارك الرب يوم السبت وقدَّسه. أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تَشْتَهِ بيت قريبك". (الخروج ٢٠: ٣ ـ ١٧).

واشتهرت عند بني إسرائيل بالوصايا العشر، وبالكلمات العشر أي الجمل العشر، وقد فُصِّلَت في الإصحاح العشرين إلى نهاية الحادي والثلاثين من سفر الخروج، ومن جملتها الوصايا العشر التي كلَّم الله بها موسى في جبل سيناء، وجاء في الإصحاح الرابع والثلاثين أن الألواح لم تكتب فيها إلا الكلمات العشر التي بالفقرات السبع عشرة منه[1].

يتضح لنا مما سبق أن التوراة تنص في الإصحاح الرابع والثلاثين على أنه لم يكتب في الألواح سوى الوصايا العشر، بيد أننا ونحن نتصفَّح كتابهم اتضحت لنا عدة أمور منها:

الأمر الأول: في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج جاء ما نصه: "وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل، وكن هناك. فأعطيك لَوْحَي الحجارة والشريعة والوصية التي كَتَبْتُها لتعليمهم". (الخروج ٢٤: ١٣)، أخبرني بربك أيها العاقل، ماذا تفهم من صريح هذا الكلام، ألستَ تفهم معي ـ ويشاركنا فيه كل العقلاء المنصفين ـ أن موسى عليه السلام تلقَّى من ربه ألواحًا مكونة من:

- لوحين للعهد "لوحي الحجارة" للعمل بالتوراة.
- عِدَّة ألواح مكتوب عليها كل أحكام التوراة.

إن المنطق والعقل السليمين يقضيان بأن أحكام التوارة ـ الشريعة والوصية ـ لا يمكن كتابتها على لوح أو لوحين، بل عدة ألواح، يؤيد ذلك قول التوراة: "فجاء موسى وحدث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام، فأجاب جميع الشعب بصوت واحد

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٥، ج٩، ص٩٧.

www.kalemasawaa.com

وقالوا: كل الأقوال التي تكلَّم بها الرب نفعل". (الخروج ٢٤: ٣).

الأمر الثاني: أن الله ﷻ أخبر موسى عليه السلام بعبادة قومه للعجل، فنزل موسى عليه السلام من الجبل وكسر لَوْحَي العهد: "فقال الرب لموسى: "اذهب انزل؛ لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعًا عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلًا مسبوكًا، وسجدوا له وذبحوا له وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر"، وقال الرب لموسى: "رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة، فالآن اتركني ليَحْمَى غضبي عليهم وأفنيهم، فأصيرك شعبًا عظيمًا" فتضرع موسى أمام الرب إلهه، وقال: "لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال، ويفنيهم عن وجه الأرض؟ ارجع عن حُمُوِّ غضبك، واندم على الشر بشعبك، اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك، وقلت لهم: أكثر نسلكم كنجوم السماء، وأعطى نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد" فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه، فانصرف موسى ونزل من الجبل ولَوْحَا الشهادة في يده: لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا ومن هنا، كانا مكتوبين واللوحان هما صنعة الله، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين وسمع يشوع صوت الشعب في هتافه فقال لموسى: "صوت قتال في المحلة". فقال: "ليس صوت صياح النصرة ولا صوت صياح الكسرة، بل صوت غناء أنا سامع" وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص، فحمي غضب موسى، وطرح اللوحين من يديه، وكسرهما في أسفل الجبل". (الخروج ٣٢: ٧ ـ ١٩).

ويتبين لنا من النص السابق أن الألواح لم تكن كما يدعي هؤلاء لوحين فقط، بل أربعة.

الأمر الثالث: أن الله أمر موسى بإنشاء لوحين جديدين: "ثم قال الرب لموسى: انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين، فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما". (الخروج ٣٤: ١).

وجاء في سفر التثنية أن موسى كسر لوحين كان عليهما كل أحكام الشريعة: "وأعطاني الرب لوحي الحجر المكتوبين بأصبع الله، وعليهما مثل جميع الكلمات التي كلمكم بها الرب في الجبل من وسط النار في يوم الاجتماع". (التثنية ٩: ١٠).

ومن خلال النصين نستنتج أن لوحي العهد لا يمكن أن يحملا كل أحكام الشريعة التي نزلت يوم الاجتماع، بل المناسب لها ألواح بالجمع، ومنها لوحي العهد.

وتأسيسًا على ما سبق فإنه من السخف والجهل القول بأن شريعة موسى عليه السلام اقتصرت كتابتها على لوحين فقط، وليس هذا حكما خاليًا من الأدلة، بل الأدلة من كلام القوم وبلسان القوم.

يبقى بعد ذلك شيء أخير وهو ادِّعاء القوم أن ما كتب هو الوصايا العشر فقط ـ وقد ألمحنا لذلك في الوجه الأول ـ وباقي الأحكام والشرائع لم تكتب، وفي سبيل توضيح هذا الأمر والرد عليه نقول: من خلال

www.kalemasawaa.com

قراءة النصوص السابقة التي أوردناها في الوجه الثاني يتضح أن الألواح كتب فيها كل شيء من الأحكام.

ومن ثم فلا مجال للحكم بخطأ القرآن الكريم حين قال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٤٥)، ويعلق صاحب "المنار" على هذه الآية قائلًا: أي إننا أعطيناه ألواحًا كتبنا له فيها من كل نوع من أنواع الهداية موعظة من شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيبًا وترهيبًا وتفصيلًا لكل نوع من أصول التشريع، وهي أصول العقائد والآداب وأحكام الحلال والحرام وتفصيلها، ذكرها معدودة مفصولًا بعضها عن بعض[1].

غير أن صاحب "التحرير والتنوير" يلفت النظر إلى شيء جميل ولمحة رائعة عند تفسيره لهذه الآية، فيذكر أن التفصيل هنا التبيين للمجملات، ولعل الموعظة هي الكلمات العشر، والتفصيل ما ذكر بعدها من الأحكام في الإصحاحات[2].

بناءً على ما سبق نستطيع القول بأن القرآن الحكيم جاء صادقًا في حديثه عن ألواح موسى عليه السلام وما سجِّل عليها، غير أن الخلط في عقول هؤلاء وفي كتاباتهم جعلهم يتصورون الخطأ فيه، تعالى الله أن يكون في كلامه خلط أو خطأ.

الخلاصة:

- لفظ الألواح يُستعمل في لغة العرب للدلالة على اثنين من باب أن أقل الجمع اثنان؛ ومن ثم فلا خطأ ولا إشكال فيما أورده القرآن عنها، فضلًا عن اعتراف التوراة بأن لوحي العهد كانا ذا وجهين. وهذا اعتراف بصحة القرآن.
- أشارت نصوص التوراة التي بين أيدينا إلى أن موسى عليه السلام تلقَّى من ربه نوعين من الألواح هما: لوحي العهد، وعدة ألواح كتب عليها أحكام الشريعة والوصية.
- كما أشارت التوراة أيضًا أن موسى عليه السلام كسر لوحين كانا عليهما جميع كلام الرب، وأمره الرب بكتابة لوحين آخرين بدلًا منهما، وهذا يُفسَّر بأن ما كتب على الألواح ليس فقط كما زعم القوم بما يسمونه بالوصايا العشر، بل كل شيء وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (الأعراف).

الشبهة الرابعة والخمسون

دعوى خطأ القرآن الكريم بشأن إيمان سحرة فرعون(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن سحرة فرعون لم يسجدوا لإله موسى عليه السلام، وأن القرآن الكريم أخطأ في ذلك حيث قال: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٩، ص١٨٨.
٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٥، ج٩، ص٩٨.

(*) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأعراف). وتارة يقول تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ (طه)، مستدلين بما جاء في الكتاب المقدس على لسان موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ حينما طلبا من فرعون إطلاق بني إسرائيل، فقال فرعون: "من هو الرب حتى أسمع لقوله، فأطلق إسرائيل. لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه". (الخروج ٥: ١، ٢)، ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في القرآن الكريم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الباطل لا يقبله عقل، ولا يكون حجة ومعيارًا على الحق الذي ثبتت حجته وموافقته للعقل، ذلك أن سجود الملائكة لإله موسى ثابت لأنه محل الإعجاز.

٢) القرآن يقص حقيقة السحرة مع موسى عليه السلام وإيمانهم كاشف لزيف الكتاب المقدس.

٣) لا تباين في موقف إيمان السحرة أو سجودهم، بل إن إيمانهم وسجودهم كان لله وحده لا شريك له، لا كما زعمت التوراة التي أشركت موسى عليه السلام بالله في الألوهية، تعالى الله عن قولها علوًا كبيرًا.

التفصيل:

أولا. الباطل لا يقبله عقل، ولا يكون حجة ومعيارًا على الحق الذي ثبتت موافقته للعقل:

القرآن الكريم يقصُّ الحق، ويخبر أن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ نبيَّان لبني إسرائيل، ويشرح رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وقصة السحرة الذين آمنوا لله رب العالمين، فالقرآن حجة ثابتة تاريخيًا تبرز الفارق بين كلام الخلق المتمثل في الكتاب المقدس، وكلام الخالق الموافق للعقل والمتمثل في آيات القرآن الكريم. فالتوراة تجعل من موسى إلهًا وهارون نبيَّه.

وموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ يدعوان فرعون إلى "إله العبرانيين"، وليس إلى "رب العالمين"، هكذا تقصُّ علينا التوراة، ولا يدعوان فرعون إلى عبادة الإله الواحد أولًا، بل إلى تخليص بني إسرائيل وفقط: "وبعد ذلك دخل موسى وهارون، وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إله إسرائيل: أطلق شعبي ليُعيِّدوا في البَرِّيَّة، فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع لقوله فَأُطْلِق إسرائيل؟ لا أعرف الرب، وإسرائيل لا أطلقه، فقالا: إله العبرانيين قد التقانا". (الخروج ٥: ١ ـ ٣).

والطامة الكبرى أن موسى اعتذر للرب عندما طلب منه أن يكلم فرعون قائلًا: "ها أنا أغلق الشفتين، فكيف يسمع لي فرعون؟ هنا قال الرب لموسى: انظر: أنا جعلتك إلهًا لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك"!! موسى إله، وهارون نبي موسى!! هذه هي التوراة التي يحتجون بها.

أما القرآن الكريم فيقدم لنا موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ رسولين من رب العالمين جاءا برسالة تهدي الناس إلى الحق والخير، هذا هو الهدف الأول، والهدف الثاني هو: إنقاذ بني إسرائيل من ذل وعبودية فرعون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (الأنبياء)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ (غافر)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ (الشعراء)، وقال تعالى: ﴿فَأْتِيَا

www.kalemasawaa.com

﴿فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الشعراء).

فموسى عليه السلام رسول من رب العالمين ﷻ، ومعه أخوه هارون عليه السلام، رسول من رب العالمين كذلك إلى فرعون وقومه، وآمن بهما من آمن من قوم فرعون من السحرة، عندما قامت الحُجَّة، وهم أعلم الناس بالسحر وحدوده، فوجدوا أن معجزة موسى عليه السلام تفوقت على السحر: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الشعراء).

إن التوراة المحرفة أغفلت مهمة موسى عليه السلام الأساسية الأولى وهي الهداية، ووضعتنا أمام الدوران في فلك بني إسرائيل، كما عهدناها دائمًا، وليتها تتحدث عنهم لهدايتهم، بل للتَّنْفِيث[1] عن عقيدتهم، المتمثلة في الشعور بالنقص، والمذلة، والمهانة، والنقمة على الأمم، والانتقام منها. فهذه صورة حية تبرز الفارق بين كلام الخلق، وكلام الخالق.

متى كان هذا التخبط الذي لا يقبله عقل ولا دين حجة على الحق، ومعيارًا يقاس به؟!!

إن التوراة التي يتخذونها مقياسًا للحقيقة، ووصية عليها، وعلى التاريخ، تجعل من رب العالمين إلهًا لبني إسرائيل وحدهم، وهم شعبه! قال الرب لموسى: "وأنا أيضًا قد سمعت أنين بني إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون، وتذكرت عهدي، لذلك قل لبني إسرائيل: أنا الرب، وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين، وأنقذكم من عبوديتهم، وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة، وأتخذكم لي شعبًا، وأكون لكم إلهًا". (الخروج ٦: ٥ ـ ٧).

ومع أن رب العالمين جعلهم خاصته، وجعل نفسه إلهًا لهم وحدهم، ونقل موسى عليه السلام هذه الرسالة لهم، لكنهم "لم يسمعوا لموسى من صغر النفس، ومن العبودية القاسية". (الخروج ٦: ٩).

وعليه، فالقول الفصل هو الذي حكاه القرآن، لأنه كلام رب العالمين المنزل على خير خلقه ﷺ.

ثانيًا. القرآن يقص حقيقة السحرة مع موسى عليه السلام وإيمانهم برب موسى:

مضى موسى عليه السلام يشرح رسالة ربه، وأخذ فرعون يتهدده؛ ويتوعده بالسجن والتعذيب، والتشريد، فقال له موسى عليه السلام: أو لو جئتك بشيء مبين؟ فقال: وماذا عندك؟ فألقى العصا فإذا هي ثعبان مبين، وأدخل يده إلى صدره، ثم أخرجها، فإذا بها كأنها قطعة من نور الشمس تضيء، ففزع فرعون لهذا ودعا جماعته، واستشارهم فأشاروا عليه أن يجمع السحرة؛ ليبطلوا ما جاء به موسى عليه السلام؛ لأنهم ظنوا أنه من قبيل السحر، فاجتمع السحرة عند فرعون، فطلب منهم فرعون أن يجمعوا قواهم، ويوحدوا هدفهم؛ ليبطلوا ـ بعزيمتهم ـ سحر موسى عليه السلام، وأغراهم بالمال، والمنصب، وأن يجعلهم من خاصته فيما إذا تمكنوا على موسى عليه السلام وغلبوه، ثم كانت النتيجة بعد تداول بين السحرة أن طلبوا من موسى عليه السلام أن يلقي ما معه، أو يبدأوا هم بالإلقاء اعتزازًا منهم بالنفس واعتقادًا بالغلبة: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ

١. التنفيث: التفريج عنها وكشفها ونشرها.

www.kalemasawaa.com

﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧﴾ (الأعراف)[1].

ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، وقالوا في غرور: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ (الشعراء). ونظر موسى عليه السلام، وإذا بهذه الحبال والعصي، كأنها حيَّات وثعابين، فهاله أمرها، وأَوْجَس في نفسه خيفة[2] منها، ولكن الله ثبته أمام ذلك الجمع الزاخر، وأوحى تعالى إليه ألا تخف فإنك أنت المنصور، وأمره أن يلقي العصا، فإذا هي تبتلع كل ما قذف به السحرة، من زور وبهتان: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ (طه).

وأن موسى عليه السلام لما ألقى العصا، انقلبت إلى حية عظيمة لها عنق طويل، وشكل مفزع هائل، حتى إن الناس هربوا فزعًا منها، وقد أقبلت هذه الحية على الحبال والعصي، فجعلت تَلْقَفها[3] في أسرع ما يكون، والناس في فزع واضطراب، وفي دهشة واستغراب، وكان أول من أذعن للحق وأعلن إيمانه، إنما هم "السحرة" الذين أتى بهم فرعون لينصروه، ويتغلبوا على خصمه موسى عليه السلام. قال عز وجل: ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ٤٦﴾ (الشعراء).

آمن السحرة، وسجدوا لله تبارك تعالى، وأقروا له بالوحدانية؛ لأنهم أيقنوا أن هذا ليس بسحر، ولا شعوذة، ولا زور ولا بهتان، وإنما هي آية من آيات الله الباهرة، أظهرها على يد رسوله موسى عليه السلام لتكون برهانًا على صدقه، وعرفوا أن ذلك ليس بطاقة إنسان ولا قدرته، وإنما هي القوة الإلهية التي تصنع العجائب؛ فَخَرُّوا لله ساجدين وقالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨﴾ (الشعراء). علم فرعون أنه لم يعجز موسى عليه السلام، ولكن موسى عليه السلام أعجزه، فأراد أن يستر هزيمته، ويستعيد هيبته، فقال للسحرة ـ وكان صاحب مكر وخداع: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩﴾ (الشعراء) توعَّد جميع السحرة بالقتل والصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل، واتهمهم بالتآمر مع موسى، مع أنه يعلم علم اليقين، أن موسى عليه السلام لم يعرفهم، ولم يجتمع معهم من قبل؛ لأنه كان مقيمًا مع أهل مدين، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟! ثم إن موسى عليه السلام لم يجمعهم، ولا علم باجتماعهم، وإنما استدعاهم فرعون من أنحاء البلاد؛ ليبطلوا دعوى موسى عليه السلام، ولكنه المقهور المغلوب يلتمس لنفسه العذر، وإن كان لا يغني أمام الحق شيئًا[4].

أما السحرة فقد ثبتوا على الإيمان، ولم يبالوا بوعيد فرعون الطاغية وتهديده، بل صرخوا في وجهه صرخة الإيمان والبطولة، مُتَحَدِّين فرعون وبطشه وجبروته:

---

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٧٧.

٢. أَوْجَس في نفسه خِيْفَة: وجد في نفسه بعض الخوف نتيجة المفاجأة.

٣. تَلْقَف: تبتلع وتأكل.

٤. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٧٨، ١٧٩.

www.kalemasawaa.com

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ (طه).

قال سعيد بن جبير: لما سجد السحرة، رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة، تُهيَّأُ لهم، وتُزَخْرَفُ لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون، وتهديده، ووعيده بل صَدَعوا بالحق في وجهه، ولقد نفذ فرعون ما هددهم به، فصلبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم، وقتلهم شر قتله، ومع ذلك لم يثنهم ذلك عن الإيمان بالله، فماتوا شهداء أبرارًا رضوان الله عليهم أجمعين، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانوا أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة.

ثالثًا. لا تباين في موقف السحرة من الإيمان بالله والسجود له، بل إن إيمانهم وسجودهم كان لله وحده لا شريك له، رب العالمين، رب موسى وهارون، لا كما جاء في الكتاب المقدس:

حين رأى السحرة المعجزة استيقظت عندهم الفطرة الإيمانية، قال الحق ﷻ: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ (طه)، فهنا الفعل "ألقى" مبني للمجهول، فكأن نفوسهم من تلقاء نفسها خرّت ساجدة لله، فكأن قوة الحق تلاقت مع صَحْوة الفطرة، فلم يملكوا إلا أن يقعوا ساجدين بدون اختيار، وهذا السجود عملية مرئية.

وهناك عملية أخرى قولية هي قولهم: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ إذن هناك منظر رآه الناس، وهو: أنهم أُلقوا سجدًا، والذي ألقاهم هو قوة الحق؛ لمفاجأته الفطرة؛ فانكبوا على الأرض ساجدين دون اختيار أو شعور، ومع أن موسى عليه السلام هو المرسل وهارون عليه السلام هو العَضُد، إلا أنهم حينما سجدوا قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ بعض الناس قد يتساءل، ماذا قال السحرة؟ هل قالوا: آمنا بـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾، أم قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ (طه)، ونحن نقول: إذا كان رؤساء السحرة سبعين فلا بد أن الأتباع يصل عددهم إلى سبعمائة أو يزيد، فهل من المعقول أن يتحدوا جميعًا في الحركة وفي القول، أم أن كل واحد انفعل بحسب مداركه الإيمانية الجديدة، فبعضهم قال: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الشعراء)، وبعضهم قال: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ (طه) فقيل هذه وهذه، والقرآن عدَّد كل اللقطات مجتمعة؛ لأنه ليس من المعقول أن يتفق هذا العدد الضخم في الحركة وفي اللفظ؛ ولذلك نجد الواحد من خصوم الإسلام يقول: القرآن يقول عن السحرة مرة: إنهم قالوا كذا، ومرة يقول: إنهم قالوا كذا... فأيهما قالوا؟ نقول له: هذه جمهرة لا نستطيع أن تحكي أقوالهم، فكل واحد انفعل بما يقول؛ فنحن نستطيع أن نردّ على من يقول: إن القرآن يحكي أقوالًا متعددة عن كلام السحرة بعد إيمانهم، فأي قول قيل؟ فنقول له: هذه لقطات لمجتمع جماهيري لا تضبط حركاته، ولا تضبط كلماته، بل كل واحد ينفعل حسب مداركه الإيمانية. فالقرآن عدّد اللقطات؛ ليقصّ كل ما حدث في القصة[1].

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٣٠٠، ٣٠١.

www.kalemasawaa.com

الخلاصة:

- الباطل لا يقبله العقل، ولا يصح ـ أن يكون ـ حجة على الحق، ومعيارًا يقاس به، فالتوراة المحرفة التي يتخذونها مقياسًا للحقيقة ـ في زعمهم ـ تجعل من رب العالمين إلهًا لبني إسرائيل وحدهم، وتجعلهم شعبه المختار، وما عداهم عبيد لهم.
- الكتاب المقدس يزيف الحقائق، ويجعل موسى عليه السلام إلهًا وهارون عليه السلام نبيًّا له، وهذا لا يتوافق مع العقل السليم.
- القرآن يخبر بالحقيقة، والقرآن ثبتت حجته تاريخيًّا. وهو يحكي قصة السحرة مع موسى عليه السلام وإيمانهم بالله عز وجل عندما اكتشفوا زيف سحرهم حقيقته، وإعجاز ما يفعله موسى عليه السلام، فعلموا أن هذا ليس بسحر، وإنما هي آية من آيات الله الباهرة، أظهرها على يد رسوله موسى عليه السلام، وعرفوا أن ذلك ليس بطاقة إنسان، وإنما هي القوة الإلهية التي تصنع العجائب، فخروا لله ساجدين، وقالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨﴾ (الشعراء).
- فهذه صورة حية تبرز الفارق بين كلام الخلق المتمثل في الكتاب المقدس، وكلام الخالق المتمثل في القرآن الكريم.
- لا تباين في موقف السحرة من الإيمان بالله والسجود له وحده، بل كان إيمانهم وسجودهم لله وحده لا شريك له، رب العالمين، رب موسى وهارون.

الشبهة الخامسة والخمسون

دعوى مخالفة القرآن الكريم التوراة في عدد آيات موسى عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين تعارض القرآن الكريم مع الكتاب المقدس في عدد الآيات ـ أي المعجزات والعلامات ـ التي جاء بها موسى عليه السلام، ففي حين أنها في التوراة عشر آيات، نجد القرآن يقول: إنها تسع، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ (الإسراء: ١٠١).

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم صاحب الكلمة الفصل في عدد الآيات التي ابْتُلي بها بنو إسرائيل؛ لأن القرآن ثبتت حجته تاريخيًّا بصحة سنده، وبموافقة المؤرخين له.

٢) إن مفسري التوراة أنفسهم قد اختلفوا في عدد هذه الآيات، وهذا الاختلاف من شأنه أن يثبت صحة ما ورد في القرآن.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم هو الحجة وثبتت حجته، والكتب الأخرى لم تثبت حجتها:

بداية نقول: إن ما ثبتت حجته يكون حجة على ما لم تثبت حجته، والقرآن حجة تاريخية موثقة، ويبدو أن الزاعمين لا تزيد معلوماتهم التاريخية عما جاء في

(*) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

الكتاب المقدس، وأن القرآن الكريم - وهو صاحب كلمة الفصل الحق - يذكر أن الله ﷻ آتى موسى عليه السلام تسع آيات بينات: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ (الإسراء).

أمر الله ﷻ موسى أن يُعلِم فرعون وقومه، بأن الله سيوقع عليهم العذاب الشديد، جزاء تكذيبهم، وامتناعهم عن إطلاق بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم أنواعًا من العذاب وصُنُوفًا[1] من البلاء، وكانت بمثابة إنذار لهم من الله ﷻ ليعودوا إلى رشدهم، وأظهر هذه الابتلاءات أو الآيات التسع التي أرسلها الله على قوم فرعون، وهي:

- **القحط والجدب**: وهو الذي عبَّر عنه القرآن بـ "السنين"، وهي أعوام الجدب التي أصابتهم، حيث لا يستغل فيها زرع، ولا ينتفع بضرع.
- **النقص من الثمرات**: وهي قلة الثمار من الأشجار بسبب الجوائح والعاهات.
- **الطوفان**: وهو كثرة الأمطار المتلفة للزوع والثمار، وهو مروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وقيل: المراد فيضان نهر النيل عليهم.
- **الجراد**: وقد أرسله الله على آل فرعون بشكل غير معهود، فكان يغطي الخضراء، ويحجب ضياء الشمس لكثرته، وكان لا يترك لهم زرعًا ولا ثمرًا.
- **القُمَّل**: وهو السوس الذي يفسد الحبوب، وقيل: هو القمل المعروف، وقيل: هو البعوض الذي أقضَّ مضاجعهم ولم يمكنهم من الغمض ولا العيش.

- **الضفادع**: وقد كثرت عندهم حتى نغَّصت عليهم عيشهم، حيث كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، وتقفز على فُرُشهم وملابسهم.
- **الدم**: وهو من الآيات الواضحة، فقد استحال الماء دمًا، فلا يسقون من بئر، ولا نهر إلا انقلب إلى دم في الحال.
- **العصا**: وكانت من معجزات موسى عليه السلام حيث تنقلب إلى حية تسعى.
- **اليد**: إذ كان يضع يده في جيبه، ثم يخرجها بيضاء من غير سوء آية أخرى، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ (الإسراء).

فكان هؤلاء كلما شاهدوا آية أظهروا الأسف والندم، وجاءوا إلى موسى عليه السلام يطلبون منه أن يدعو ربه ليكشف عنهم الرِّجْز[2] والعذاب، فإذا رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه، حتى كانت الآية الكبرى التي لم ينج منها أحد من فرعون الطاغية وجميع جنوده، ألا وهي غرقهم - جميعًا - في البحر، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الزخرف)[3][4].

ثانيًا. اختلاف مفسري التوراة في عدد هذه الآيات:

إن مفسري التوارة صرَّحوا بالاختلاف في عدد هذه

١. الصُّنُوف: جمع صنف، وهو النوع.

٢. الرِّجْز: العذاب.

٣. آسفونا: أغضبونا بكثرة عصيانهم.

٤. النبوة والأنبياء، محمود علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٨٠: ١٨٢.

www.kalemasawaa.com

الآيات، فالآية الثانية وهي الضفادع، يوجد من يقول: إنها التماسيح، والآية الثالثة، قال بعضهم: إنها ضربة القمل، وقال بعضهم: إنها ضربة البعوض، والآية الرابعة قال بعضهم: إنها ذباب الكلب خاصة، وقيل: مطلق الذباب. وفي القرآن الكريم أن الآيات التسع فيها آية الطوفان، فقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (الأعراف)، في حين أن التوراة ليس فيها هذه الآية[1].

وهذا الاختلاف بين مفسري التوراة يؤكد أن ما جاء في القرآن هو الصواب.

الخلاصة:

- القرآن الكريم أخبر أن آيات موسى عليه السلام تسع، وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص الثمرات. والقرآن صاحب الكلمة الفصل في ذلك؛ لأنه ثبتت حجته تاريخيًّا، والكتاب المقدس لم تثبت حجته تاريخيًّا، فأيادي التحريف قد عبثت به.
- لقد اختلف مفسرو التوراة أنفسهم بشأن هذه الآيات، سواء من حيث العدد أم التسمية، ففي الآية الثالثة ـ على سبيل المثال ـ نجد أن منهم من قال: إنها القمل، ومنهم من قال: إنها ضربة البعوض؛ مما يؤكد عدم صدق هذه التوراة واضطراب ما جاءت به من أخبار.

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٥٠٣.

الشبهة السادسة والخمسون

ادِّعاء أن موسى عليه السلام استهان بكلام الله واعتدى على نبي الله هارون عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن موسى عليه السلام أهان كلام الله وآذى نبيه، ويستدلون على زعمهم بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (الأعراف). ففي إلقاء الألواح ـ وما فيها من كلام الله ـ إهانة لها، وإخلال بواجب تعظيمها ـ حتى على القول بعدم تكسرها ـ وفي الأخذ برأس هارون عليه السلام ولحيته إيذاء له، وهو نبي بدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾ (طه). ويتساءلون: كيف يصدر ذلك عن نبي؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) إلقاء الألواح لا يقتضي إهانتها، وليس في الأمر إلا العجلة في الوضع الناشئ عن الغيرة لله تعالى.

٢) أخْذُ موسى عليه السلام بشعر رأس هارون عليه السلام ولحيته ليس ذنبًا؛ لأنه لم يكن يجره إليه على سبيل الإيذاء، بل كان يدنيه إلى نفسه؛ ليتبين منه حقيقة الأمر

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

في تلك الواقعة (عبادة العجل)، ويعرف منه كيف وقعت.

التفصيل:

أولا. إلقاء الألواح لا يقتضي إهانتها، وليس في الأمر إلا العَجَلَة في الوضع الناشئ عن الغيرة لله تعالى:

فإلقاء الألواح لا يقتضي إهانتها، إذ كان السبب في إلقائها غضبه على قومه الذين عبدوا العجل، كما هو واضح من الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ (الأعراف).

فإن العقل يقضي بأنه لا يستهين رسول بكلام ربه، وهو الذي يدعو إلى تعظيمه، والقيام بحقه.

و ينبغي فهم إلقاء موسى عليه السلام الألواح على أنه لما رأى قومه على ما رأى، غضب غضبًا شديدًا حمية للدين، وغيرة من الشرك برب العالمين، فعجَّل بوضع الألواح؛ لتفرغ يده، فيأخذ برأس أخيه، فعبر عن ذلك الوضع بالإلقاء؛ تفظيعًا لفعل قومه الذي كان سببًا له، وليس في وضع الألواح إهانة لكلام الله تبارك وتعالى.

وعلى القول بأن بعض الألواح قد انكسرت، فلم يكن قصد موسى عليه السلام أن تنكسر، ولا ظن ترتبه على ما فعل، وليس ما في الأمر إلا العجلة في الوضع الناشئ عن الغيرة لله تعالى[1].

ثانيًا. أخذ موسى عليه السلام بشعر رأس هارون عليه السلام ولحيته ليس ذنبا؛ لأنه لم يكن يجره إليه على سبيل الإيذاء، بل كان يدنيه إلى نفسه؛ ليتبين منه حقيقة الأمر:

فقد كان خوف هارون عليه السلام أن يعتقد بنو إسرائيل أن موسى عليه السلام يؤذيه، ولهذا قال هارون إشفاقًا على موسى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾(طه: ٩٤)أي لئلا يظن القوم بك ما لا يليق، والأرجح أن أخذ موسى بلحية ورأس هارون ـ عليهما السلام ـ كان لشدة غضبه حين رأى قومه قد عبدوا العجل، ولظنه أن هارون ربما قَصَّر في نهيهم عن ذلك، ولعدم لحاقه به حين رأى قومه قد ضلُّوا، ويكون إنكار موسى على هارون ـ عليهما السلام ـ لأن الواجب عليه ـ في نظر كليم الله موسى عليه السلام ـ أن يكف قومه عن عبادة العجل إن استطاع، أو يتبعه إلى جبل الطور إن لم يستطع كفّهم عن عبادة العجل[2].

والذي يقره العقل ويؤيده النقل أن هارون عليه السلام لم يُقصِّر في نهي قومه عن اتخاذ العجل إلها وعبادة، وإنما بذل قصارى جهده للحيلولة دون ذلك؛ لأنه رسول مهمته الأولى الدعوة إلى عبادة الله وحده. فلا يعقل أن يسكت عن قومه، وهم ينكصون على أعقابهم ـ مرتدين بعد إيمانهم ـ والقرآن الكريم قد حكى عنه قوله لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ (طه). ولكنهم لم يستجيبوا له، بل كادوا يقتلونه. وأما أن هارون عليه السلام لم يتركهم بعد أن جاهد لردهم عن الضلال ـ ويتبع موسى عليه السلام؛ فلأنه لم يرد أن يخالف أمر موسى عليه السلام له

١. المرجع السابق، ص٣٤١، ٣٤٢.

٢. المرجع السابق، ص٣٤٢.

www.kalemasawaa.com

في قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾(الأعراف)؛ ولأنه خشي - إن فارقهم - أن يلومه أخوه موسى عليه السلام على هذا؛ لأنه تفريق بين بني إسرائيل، ولهذا رد على موسى عليه السلام لما قال له: ﴿قَالَ يَهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (طه) بقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه).

أي الذي قلته لك حين استخلفتني فيهم، وعلى هذا فهارون عليه السلام لم يُقَصِّرْ في شيء مما كان عليه أن يفعله، وساحته بريئة من الذنب في هذا المقام كأخيه موسى عليه السلام.

واستغفار موسى عُقيب ما تقدم لنفسه ولأخيه - عليهما السلام - لأن الأنبياء - عليهم السلام - يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم، ويندمون على مخالفة الأَوْلَى، ويستغفرون منه، حيث كان الأولى به عليه السلام ألا يُروِّع أخاه هارون عليه السلام، وألا يظن به التقصير، ولكن شدة الغضب، والغيرة لله على قومه في اتخاذهم العجل جعلته يفعل هذا وهارون عليه السلام خالف الأولى بتركه العجل، وكان الأَوْلَى أن يحرقه ويَنْسِفه[1] في البحر، كما صنع موسى عليه السلام: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ (طه).

ولكن مما يشفع لهارون عليه السلام أنه ليس بالقوة والشدة التي بهما موسى عليه السلام، فكان يخشى من القتل ما لا يخشاه موسى[2].

الخلاصة:

- إلقاء الألواح لا يقتضي إهانتها، ولا إهانة كلام الله تعالى، وحاشا لنبي من الأنبياء أن يستهين بكلام الله، وكيف يستهين به وهو الذي يبلغه ويدعو إلى تعظيمه فهو أولى بالتعظيم له من غيره؛ ولكنه عندما رأى قومه على ما رأى من عبادة العجل غضب غضبًا شديدًا، فعجل بوضع الألواح تفظيعًا لفعل قومه. فليس في الأمر إلا العجلة في الوضع الناشئ من الغيرة لله تعالى.
- أَخْذُ موسى برأس هارون - عليهما السلام - ولحيته ليس ذنبًا؛ لأنه لم يكن يجره إليه على سبيل الإيذاء، بل كان يدنيه إلى نفسه؛ ليتبين منه حقيقة الأمر في تلك الواقعة، واستغفار موسى عليه السلام عقب ما تقدم لنفسه ولأخيه؛ لأن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم، ويندمون على مخالفة الأَوْلى.

الشبهة السابعة والخمسون

ادِّعاء أن موسى وهارون لم يكونا مؤمنَيْن، وأن موسى عليه السلام وَصَّى قومه بسرقة المصريين (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن موسى وهارون - عليهما السلام - لم يكونا مؤمنين بالله، بدليل أن الله تعالى قال في التوراة لموسى عليه السلام: "إنكما لم تؤمنا بي ولم تقدساني على

١. يَنْسِف: ينشر.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٤٣، ٣٤٤.

(*) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، دار الدعوة، مصر، ١٩٩٦م.

www.kalemasawaa.com

عيون بني إسرائيل؛ لذلك لا تدخلان أنتما وهؤلاء الجماعة الأرض التي أعطيها لهم"، لذا وصَّى قومه أن يسرقوا من المصريين حليهم وأَمْتِعتهم[1] عند خروجه من مصر اعتمادًا على ما ورد في سفر الخروج.

وجها إبطال الشبهة:

١) دعوة الأنبياء قِوامها الإيمان بالله ﷻ وتوحيده، ولا يعقل أن يدعو إلى الإيمان من لم يؤمن.

٢) لم يثبت عن موسى عليه السلام أنه وصَّى قومه بالسرقة، وهذا التحريف واقع من اليهود؛ لإضفاء الشرعية على جرائمهم ضد غير اليهود.

التفصيل:

أولا. دعوة الأنبياء قائمة على الإيمان بالله تعالى وتوحيده، فكيف يصبح نبيًّا دون أن يؤمن بالله؟! وكيف يدعو إلى ما لم يؤمن به ويعتقده؟!

من المعلوم أن وظيفة الأنبياء هي دعوة البشرية إلى الإيمان بالله وحده، لا شريك له، وتخليص العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. ويظهر هذا جليًّا في دعوة موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ لفرعون إلى عبادة رب العالمين، فحينما سأل فرعون موسى عليه السلام: مَنْ ربك؟ من رب العالمين؟ قال موسى: ربنا الذي خلقنا وهدانا وجعل لنا الأرض ممهدة لنتخذ فيها مسالك وطرقًا، وأنزل من السماء ماء، فأخرج به أزواجًا من نبات شتى، ربنا رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم مؤمنين، واستمر موسى عليه السلام في تعريف فرعون والحاضرين حقيقة الألوهية، ومن هو الله الذي تجب عبادته، فقال: رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون[2].

فالله أرسل موسى وهارون لفرعون وملئه ليدعواه إلى عبادة الله وحده عبادة رب العالمين، فكيف يرسلهما الله لهذه المهمة، وهما غير مؤمنين به؟! وكيف يدعوان إلى ما لم يؤمنا به، ويعتقدا صحته؟!

ونتساءل: كيف ينكر هؤلاء إيمان موسى عليه السلام، وقد صرَّحت التوراة به؟!

فقد جاء في سفر الخروج ما نصُّه: "والآن هو ذا صراخ بني إسرائيل قد أتى إلي، ورأيت أيضًا الضيقة التي يضايقهم بها المصريون، فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون، وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر"، فقال موسى لله: "من أنا حتى أذهب إلى فرعون، وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر؟" فقال: "إني أكون معك، وهذه تكون لك العلامة أني أرسلتك: حينما تخرج الشعب من مصر، تعبدون الله على هذا الجبل" فقال موسى لله: "ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم: إله آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي: ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟" فقال الله لموسى: "أهيه الذي أهيه" وقال: هكذا تقول لبني إسرائيل: أهيه أرسلني إليكم". (الخروج ٣: ٩ـ ١٤).

فهذا نصٌّ صريحٌ على أن نبي الله موسى عليه السلام دعا بني إسرائيل إلى الإيمان بالله رب العالمين، وكان ذلك هو السبب في اضطهاد فرعون له ولمن آمن معه، وتعذيبه لهم على النحو الذي صرَّح به القرآن الكريم في

١. الأمتعة: كل ما ينتفع به ويرغب في اقتنائه؛ كالطعام وأثاث المنزل.

٢. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٨٧.

www.kalemasawaa.com

غير موضع، ومن تلك المواضع التي جمعت دعوة موسى عليه السلام لفرعون إلى الإيمان بالله وحده ووعيد فرعون لموسى عليه السلام لئن اتخذ إلهًا غيره ليسجننَّه، ثم وعيده لمن اتبع موسى ليقطِّعن أيديهم وأرجلهم من خلاف وليصلبنهم من تلك المواضع سورة الشعراء، قال الله تعالى حاكيًا ما حدث: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الشعراء)، فهل يأتي أحد بعد ذلك وينكر إيمان موسى عليه السلام، ولو لم يكن موسى عليه السلام مؤمنًا فلماذا عاداه فرعون وملؤه؟

ثانيًا. لم يثبت عن موسى عليه السلام أنه وصَّى قومه بالسرقة؛ فكيف يأمر بالسرقة وهو صاحب الرسالة الربانية التي تأمر بالعدل والإحسان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر؟!

إن هذا الزعم ـ توصية موسى عليه السلام بالسرقة ـ أمر لا دليل عليه ـ نقلًا أو عقلًا ـ فهو لا يتفق مع مقام النبوة ومنزلة كليم الله وواحد من أولي العزم من الرسل.. إنه عليه السلام خرج بقومه من مصر مستخفين أحرص ما يكون على سرية هذا الخروج. فعندما أراد الله عز وجل إنقاذ بني إسرائيل من شر فرعون وقومه، أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾ (طه)[1].

اتفق عليه السلام موسى مع بني إسرائيل على الخروج من مصر، والذهاب إلى الأرض المقدسة "فلسطين" التي كتبها الله لهم، وأعدَّ عدته معهم، ثم سار بهم ليلًا من أرض مصر مستخفين حريصين أن يكون خروجهم هذا سِرِّيًّا؛ حتي لا يشعر به فرعون وقومه، فتصيبهم ألوانٌ من العذاب. فكيف يكون خروجهم بهذه الطريقة، ثم يأمر موسى عليه السلام قومه بسرقة أمتعة المصريين وحُليِّهم، أليس هذا مخالفًا للعقل؟!

لقد كتب الله في الألواح التي أعطاها له ولقومه هذه الوصايا العشر وهي معظم التوراة، وعليها مدار كل

١. المرجع السابق، ص١٩٧.

www.kalemasawaa.com

شريعة، وهي الأخلاق التي دعا الله إليها موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ وبني إسرائيل، وهي:

"بسم الله؛ هذا كتاب من عند الله الملك العزيز القهار ورسوله موسى بن عمران، أن سبحني وقدسني، لا إله إلا أنا فاعبدني، ولا تشرك بي شيئًا، واشكر لي ولوالديك إلي المصير؛ أحييك حياة طيبة، ولا تقتل النفس التي حرم الله عليك؛ فأضيق عليك السماء بأقطارها، والأرض برحبها، ولا تحلف باسمي كاذبًا؛ فإني لا أطهر ولا أزكي من لا يعظم اسمي، ولا تشهد بما لا يَعِي سمعُك ولا تنظر عينك، ولا يقف عليه قلبك؛ فإني أوقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة وأسألهم عنها، ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي ورزقي؛ فإن الحاسد عدو نعمتي ساخط لقسمتي، ولا تَزْنِ ولا تسرق؛ فأحجب عنك وجهي، وأغلق دون دعوتك أبواب السماوات، ولا تذبح لغيري فإنه لا يصعد إلي من قربان أهل الأرض إلا ما ذكر عليه اسمي، ولا تفجر بحليلة جارك فإنه أكبر مقتًا عندي، وأحب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكرهه لنفسك".

فقد نهى الله تعالى موسى عليه السلام في تلك الوصايا عن السرقة، وتلك الوصايا العشر، أو الأخلاق العشر، التي أعطاها الله لنبيِّه موسى عليه السلام قد أعطاها جميعها لنبيه وحبيبه العظيم محمد ﷺ في ثلاث آيات من سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ (الأنعام) وقد فصَّلها الله تبارك وتعالى في آيات أخر[1].

أبعد هذا كله يحق لهؤلاء أن يتهموا الأنبياء بهذه التهم الشنيعة التي لا يرضاها العقل والمنطق، فضلًا عن أصحاب العقائد السليمة والفطر القويمة؟!

الخلاصة:

- موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ نبيان من عند الله ﷻ ووظيفة النبي هي الدعوة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، وتوحيده ﷻ وقبل أن يدعو النبي إلى ذلك ـ لا بد أن يؤمن هو أولًا بذلك ويقتنع به؛ لأنه لا يعقل أن يدعو أحد إلى شيء لا يؤمن به.
- توصية موسى عليه السلام قومه بسرقة المصريين زعم لا دليل عليه، ولا تتفق مع مقام النبوة، ومنزلة كليم الله، وواحد من أولي العزم من الرسل. فضلًا عن أنه خرج من مصر بقومه مستخفيًا، هاربًا من فرعون وقومه، فكيف يأمر بما يثير القوم، ويهيجهم؟!
- جاء في الوصايا العشر لموسى عليه السلام من الله ﷻ ألا يسرق؛ فإن السرقة تحجب عن العبد وجه ربه،

١. المرجع السابق، ص٢٠٣، ٢٠٤.

www.kalemasawaa.com

وتغلق دون دعواته أبواب السماء فلا تُرْفَع.

الشبهة الثامنة والخمسون

ادِّعاء أن موسى عليه السلام كان وصيًّا على محمد ﷺ وأمته(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن موسى عليه السلام كان وصيًّا على محمد ﷺ وأمته، ويستدلون على ذلك بما حدث ليلة الإسراء والمعراج من موسى بعد ما أخبره محمد ﷺ بأن الله فرض على أمته خمسين صلاة، فأوصى محمدًا ﷺ أن يرجع إلى ربه، ويسأله التخفيف، ففعل.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأنبياء كلهم مبلِّغون عن الله رسالته، متآخون متناصحون. وما قاله موسى عليه السلام لمحمد ﷺ كان من قبيل التناصح لا من باب الوصاية.

٢) محمد ﷺ هو أفضل الأنبياء جميعًا، وقد أخذ الله الميثاق على النبيين لئنْ بُعث وهم أحياء ليؤمنُنَّ به ولينصرنه، فلو أدرك موسى عليه السلام زمن محمد ﷺ لما وسعه إلا اتباعه.

التفصيل:

أولا. ما كان بين موسى عليه السلام ومحمد ﷺ من ليلة الإسراء والمعراج كان من قبيل التناصح لا من باب الوصاية:

قبل كل شيء لا بد أن نوضّح أن دين الأنبياء جميعًا واحد، وهو الإسلام، وأن العلاقة بين رسل الله قائمة على التآخي والتناصح فكلهم مبلِّغون عن الله رسالته، وهي علاقة قائمة على أساس التأكيد والتتميم، وهذا ما أبرزه النبي ﷺ في قوله: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلَّا وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"(١).

لذا نجد أن طريق الأنبياء واحد، وهدفهم واحدٌ، وهو تبليغ رسالة ربهم إلى الناس، وقد جعل الله تعالى من ديدن الرسل أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدِّق بأولهم ويؤمن به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: "لم يبعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه"(٢).

ولقد ضرب لنا النبي ﷺ مثلًا يؤكد على علاقة

(*) المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٣٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين (٦١٠١).

٢. شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، د. ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص٥٤.

www.kalemasawaa.com

الأخوة القائمة بين الأنبياء جميعًا في قوله ﷺ: "الأنبياء إخوة لعلَّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد"[1].

وانطلاقًا مما سبق نستطيع أن نفسد حديث المراجعة الذي دار بين النبي ﷺ وبين موسى عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج، والذي يتخذه بعض المتوهمين دليلًا على وصاية موسى عليه السلام على محمد ﷺ وعلى أمته، ولكي تظهر الحقيقة جلية لا بد أن نذكر نص هذا الحديث كما روته كُتب السنة يقول النبي ﷺ: ".. ثم فُرِضت عليّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت، فمررت على موسى، فقال: بما أُمرت؟ قلت: أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأُمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأُمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بما أُمرت؟ قلت: بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأسلِّم، قال: فلما جاوزت نادى منادٍ أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي"[2].

إن المتأمل لهذا الجزء من حديث الإسراء والمعراج، لا يجد ما يدعيه هؤلاء من أن موسى عليه السلام جعل من نفسه وصيًّا على محمد ﷺ وأمته، وإنما يشير هذا الحديث إلى نصح موسى عليه السلام للنبي ﷺ بحكم خبرته وتجربته مع بني إسرائيل ومعالجتهم، فأشفق على أمة محمد ﷺ رحمة بهم في أن يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل، قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في تعليقه على هذا الحديث: "والظاهر من السياق أن الذي حمل موسى عليه السلام على ما ذكر من طلب تكرار المراجعة هو رحمة أمة محمد ﷺ والشفقة عليهم، فجزاه الله خيرًا".

ويقول القرطبي: الحكمة في تخصيص موسى عليه السلام بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلاة لعلها لكون أمة موسى عليه السلام كلفت من الصلوات بما لم تكلَّف به غيرها من الأمم، فثقلت عليهم، فأشفق موسى عليه السلام على أمة محمد ﷺ من مثل ذلك، ويشير إلى ذلك قول موسى عليه السلام في الحديث السابق: "وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة".

وذكر السهيلي: أن الحكمة في ذلك أنه كان رأى في مناجاته صفة أمة محمد ﷺ، فدعا الله أن يجعله منهم، فكان إشفاقه عليهم كعناية من هو منهم[3].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾(مريم:١٦) (٣٢٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٦٢٨١).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج (٣٦٧٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (٤٣٤)، واللفظ للبخاري.

٣. أضواء على أحاديث الإسراء والمعراج، د. سعد المرصفي، مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٧٣: ٧٥ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

إذن فالأمر لم يكن أمر وصاية من موسى عليه السلام على محمد ﷺ، وأمته كما يتخيل هؤلاء، بل هي الرحمة التي جعلها الله في قلوب الأنبياء أكثر مما جُعل في قلوب غيرهم، فخشي أن تقع أمة محمد ﷺ فيما وقعت فيه أمته من التقصير في أداء حقوق الله تعالى، فنصح النبي ﷺ أن يسأل ربه التخفيف، ولا شك أن هذا يدل على ما سبق أن ذكرناه من أن طريق الأنبياء واحد وغايتهم واحدة وهي الدعوة إلى الله، فلا عصبية لأمة ولا لجنس ولكن عصبية الأنبياء لا تكون إلا لله تعالى، وهو يدل أيضًا على علاقة الأخوة بين الأنبياء جميعًا، هذه العلاقة القائمة على الحب والتناصح لا التباغض والحسد وفرض الإرادة والوصاية كما يزعمون®.

ثانيًا. محمد ﷺ هو أفضل الأنبياء جميعًا، ولو أدرك موسى عليه السلام زمنه ﷺ لما وسعه إلا اتباعه:

لقد أمر الله تبارك وتعالى المسلمين في القرآن الكريم بالإيمان بكل الرسل الكرام وعدم التفريق بينهم: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴿٢٨٥﴾﴾ (البقرة)، والتفريق المنهي عنه في الآية هو التفريق في أصل النبوة لا في ذات الأنبياء؛ لأن منازل الأنبياء متفاوتة، وقد فضل الله بعض النبيين على بعض كما ورد في قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

والمتأمل في فضائل الأنبياء الكرام، وقصصهم مع أقوامهم، كما ذكرها القرآن الكريم والسنة المطهرة يجد أنه لا خلاف أن أولي العزم من الرسل هم أفضل من غيرهم من الرسل وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ولا خلاف أيضًا أن محمدًا ﷺ أفضل منهم جميعًا قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ (الأحزاب). فبدأ في هذه الآية بمحمد ﷺ الخاتم؛ لشرفه وكرمه وفضله عند ربه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم[1].

وقد خصَّ الله محمدًا ﷺ بست لم يُعْطِهَا أحدًا من الأنبياء قبله؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "فضلت على الأنبياء بست: أُعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون"[2].

والمتأمل في الفضيلة السادسة التي أُعطيها النبي ﷺ وهي كونه خاتم الأنبياء يجد أن المعنى هو: أن الله لا يبعث رسولًا من بعده يغير شرعه، ويبطل شيئًا من دينه[3].

® في "طلب النبي تخفيف الصلاة كان تقديرًا كونيًّا" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

١. محمد ﷺ خير البشر وأمته خير الأمم، محمد أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٨٨، ٨٩ بتصرف يسير.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١١٩٥).

٣. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢١٨، ٢١٩ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

مما سبق نستطيع أن نقرر أن الله قد فضل محمدًا ﷺ على سائر الأنبياء، وجعل شريعته مهيمنة على سائر شرائعهم، بل لقد أخذ الله ميثاق جميع الأنبياء والرسل إن هم أدركوا زمن محمد ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه كما سبق أن أشرنا.

ومن ثم فإنه من العجيب حقًّا أن يتوهم بعضهم أن موسى عليه السلام وصيٌّ على محمد ﷺ وعلى أمته، والحق الذي لا مراء فيه أن موسى عليه السلام لو أدرك زمن محمد ﷺ لما وسعه إلا اتباع محمد ﷺ، قال ﷺ: "لو كان موسى حيًّا مَا وسعه إلا أن يتبعني"[1]، وكذلك رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إني أمرت بأخ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله ـ راوي الحديث ـ فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا، قال: فَسُرِّي عن النبي ﷺ، ثم قال: "والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين"[2].

فالرسول محمد ﷺ خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وسلامه إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر، لكان هو الواجب طاعته، المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان ﷺ إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس[3].

ولا عجب في هذا، فلقد جمعت شريعته ﷺ الخاتمة محاسن الرسالات السابقة، وفاقتها كمالًا وجلالًا، وهذا ما أشار إليه القرآن في غير موضع كقول الله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، وقوله ﷻ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وعليه فإن من الخطأ البين أن يوصف طلب موسى عليه السلام من محمد ﷺ مراجعة ربه في عدد الصلوات وسؤاله له التخفيف ـ بالوصاية؛ لأن الأمر لا يعدو كما قررنا أن يكون نصيحة من نبي لأخيه، إشفاقًا منه على أمته ورحمة وضعها الله في قلبه.

الخلاصة:

- إن العلاقة بين رسل الله جميعًا قائمة على التآخي والتناصح، فدينهم جميعًا واحد، وطريقهم واحد، وهدفهم واحد وهو تبليغ رسالة الله إلى الناس؛ لهذا نجد موسى عليه السلام بحكم تجربته مع بني إسرائيل ومعالجته لهم، يطلب من النبي ﷺ أن يسأل ربه التخفيف في عدد الصلوات، وهذا من باب النصح للنبي ﷺ والشفقة على أمته، فقد جعل الله في قلوب أنبيائه رحمة لم يجعلها في قلوب غيرهم.
- لا خلاف أن محمدًا ﷺ هو أفضل الأنبياء جميعًا وخاتمهم إلى يوم الدين، وقد أخذ الله الميثاق على النبيين وأممهم لئن بُعث ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به، ولينصرنه، فلو وُجد ﷺ في أي عصر لوجب اتباعه، ولو وجد أي

---

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (١٤٦٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٩٩) برقم (١٧٦)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٩).

٢. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث عبد الله بن ثابت رضي الله عنه (١٥٩٠٣)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٩).

٣. محمد خير البشر وأمته خير الأمم، عمر محمد أحمد، مرجع سابق، ص٩٠، ٩١ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

نبي في عصره للزمه طاعته، لهذا قال ﷺ ـ كما تقدم ـ: "لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني"[١]؛ ومن ثم فلا وصاية لأحد من البشر ـ وإن علا قدره ـ على النبي ﷺ أو على أمته.

الشبهة التاسعة والخمسون

استنكار تعلم موسى عليه السلام من الخضر(*)

مضمون الشبهة:

يستنكر بعض المتوهمين أن يكون موسى عليه السلام قد تعلَّم من الخضر؛ لأن هذا ـ في ظنهم ـ يعني أن الخضر أفضل منه، ويتساءلون: كيف يتعلم نبي يتلقى العلم من الله وحيًا دون واسطة بشرية، من بشر عادي؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد اختص الله الخضر بعلم لم يُعطَ لموسى عليه السلام، فأراد موسى عليه السلام بهمته العالية أن يزداد من العلم النافع، وهذا لا يعد انتقاصًا من قدر موسى عليه السلام.

٢) على الرغم من اختلاف آراء العلماء حول حقيقة الخضر بين كونه عبدًا صالحًا أو وليًّا أو نبيًّا، فهو على كل حالٍ ليس بشرًا عاديًّا؛ إذ إن أفعاله كلها صادرة عن وحي إلهي.

التفصيل:

أولا. تعلم موسى عليه السلام من الخضر لا يعني تفضيل الخضر عليه:

بداية نشير في عجالة إلى أن أحدًا من المسلمين لا يستطيع أن يقدح في فضل نبي الله موسى عليه السلام، أو أن يشكك في مكانته، ويكفي أنه أكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن الكريم، فقد ورد اسمه في القرآن (١٦٦) مرة، وذكرت قصته في ست وثلاثين سورة في القرآن، وهو من أولي العزم من الرسل الذين أمر الله نبيه ﷺ أن يقتدي بهم، ويصبر كما صبروا: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وقد آتى الله موسى مقام المخلصين الذين لا سبيل للشيطان عليهم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾ (مريم)، وقد خصه الله بمقام التكليم المباشر من وراء الحجاب؛ إذ ناداه من جانب الطور الأيمن، وقرّبه نجيًّا، وقال له: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ (الأعراف: ١٤٤)، وقد أنزل الله عليه التوراة فيها هدى ونور[٢]: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ (المائدة: ٤٤)، وكذلك نهى النبي ﷺ أصحابه أن يفضّلوه على موسى عليه السلام بقوله ﷺ: "لا تخيّروني على موسى"[٣].

---

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله ﷺ (١٤٦٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٩٩) برقم (١٧٦)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٩).

(*) موقع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية. موقع المعرفة.

٢. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص١٨٠، ١٨١.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والملازمة والخصومة (٢٢٨٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام (٦٣٠٢).

www.Marefa.org
www.kalemasawaa.com

وإذا أردنا أن نتتبع كل فضائل موسى عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة، لاحتجنا إلى مصنفات طوال، ولكن يكفي ما ذكرنا للتمهيد لحقيقة تعلم موسى عليه السلام من الخضر، وبيان أنها لا تعني بحال من الأحوال الانتقاص من شأن موسى عليه السلام، أو القول بأن الخضر أعلى منه منزلة كما فهم بعضهم خطأً.

وبداية قصة التقاء موسى عليه السلام بالخضر رواها أبي بن كعب حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن موسى عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل فسُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يارب، فكيف لي به. قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله في مِكْتَل[1]، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ"[2][3].

من هذه الرواية يتبين لنا أن موسى عليه السلام لَمَّا لم ينسب العلم إلى الله، أوحى الله إليه أن هناك من هو أعلم منه، وكان هذا الوحي أمرًا إلهيًّا أن يلحق موسى عليه السلام بمن هو أعلم منه، ويطلب العلم على يديه، فرضي موسى عليه السلام بذلك، وأحب أن يزداد علمًا على علمه، فسأل الله أن يدله على مكانه ليهاجر إليه، ولو طوى لأجل ذلك المسافات الشاسعة، ولو طالت به الرحلة أحقابًا[4] مديدة: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ (الكهف)، ولا يعني أن الخضر أعلى منه منزلة؛ لأن طلب العلم أسمى ما يبتغيه الإنسان، ولا يملُّ من طلبه امرؤ عرف قدره وذاق حلاوته[5].

لهذا "تشوقت نفس موسى الفاضلة، وهمته العالية، لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه: إنه أعلم منك"[6]، هذا من **ناحية**، ومن **ناحية أخرى** فإن العلم الذى سأل موسى عليه السلام تعلمه هو من العلم النافع الذي لا يتعلق بالتشريع للأمة الإسرائيلية، فإن موسى عليه السلام مستغن في علم التشريع عن الازدياد إلا من وحي الله إليه مباشرة، لأنه لذلك أرسله، وإنما رام[7] موسى عليه السلام أن يعلم شيئًا من العلم الذي خص الله به الخضر لأن الازدياد من العلوم النافعة هو من الخير، وقد قال تعالى تعليمًا لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ (طه)[8].

وعليه فلا غَضاضة في أن يطلب موسى عليه السلام العلم على يد غيره، وخاصةً إذا علمنا أن هذا العلم الذي كان عند الخضر هو مما اختص الله به الخضر كما اختص الله موسى عليه السلام بعلم لا يعلمه الخضر، فالتفضيل في قوله: "أعلم منك" ليس مطلقًا بدليل قول الخضر

---

١. المِكْتَل: السلة أو القُفَّة الضخمة، تصنع من أوراق النخيل، يحمل فيها التمر وغيره.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله (١٢٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٦٣١٣).

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١١، ص٩، ١٠.

٤. الأحقاب: جمع حِقْبة، وهي فترة زمنية طويلة.

٥. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢١٤ بتصرف.

٦. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١١، ص١٠.

٧. رام: أراد.

٨. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٥، ص٣٧٠، ٣٧١ بتصرف يسير.

www.kalemasawaa.com

لموسى عليه السلام: "إنك على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علّمنيه لا تعلمه أنت" وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر[١].

ولكن هل كان العلم الذي لدى الخضر أفضل من العلم الذي لدى موسى عليه السلام حتى يطلبه موسى عليه السلام؟ بالطبع لا؛ لأن العلم الذي أوتيه الخضر "هو علم سياسة خاصة غير عامة تتعلق بمعيَّنين لجلب مصلحة أو دفع مفسدة بحسب ما تهيئه الحوادث والأحوال لا بحسب ما يناسب المصلحة العامة، فلعل الله يسَّره لنفع معيّنين من عنده، كما جعل محمدًا ﷺ رحمة عامة لكافة الناس، ومن هنا فارقَ سياسة التشريع العامة ".

ولهذا كان موسى عليه السلام في غناء عنه بما أعلمه الله من أمور الشريعة، ولكن أراد الله أن يعلِّم موسى عليه السلام ألا يغترَّ بعلمه، وأن الإنسان مهما وصل من العلم فعلمه قليل بالقياس إلى علم الله، وهذا ما قاله الخضر لموسى عليه السلام كما جاء من حديث البخاري ـ رحمه الله ـ حينما جاء عصفور فوقع على حرف السفينة التي كانا يركبانها فنقر في البحر نقرة: "ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر"[٢]، ولعل مما يدل على أن العلم اللّدنّي الذي اختص الله به عبده الصالح الخضر لم يكن واجبًا على موسى عليه السلام تعلّمه هو اشتراط العبد الصالح على موسى أن يضبط نفسه إذا أراد صحبته، فلو كان واجبًا ما اشترط عليه الخضر، ولما فارقه لأي سبب من الأسباب.

وخلاصة ما قررناه من حقائق أن تعلُّم موسى عليه السلام من الخضر لا يقدح في مكانة موسى عليه السلام وفضله كما يتوهمون، كما لا يعني بحال من الأحوال أن يكون الخضر أعلى منزلة من موسى عليه السلام.

ثانيًا. لم يكن الخضر في تصرفاته يتصرف باعتباره بشرًا عاديًّا، بل كانت أفعاله صادرة عن وحي إلهي:

سبق أن وضَّحنا حقيقة تعلُّم موسى عليه السلام من الخضر، ونود هنا أن نوضح أن الخضر لم يكن رجلًا عاديًّا كما يزعمون، بل كانت أفعاله كلها صادرة عن وحي من الله تعالى، وعلى الرغم من أن اسمه لم يرد صراحة في القرآن الكريم، إلا أن الله قد وصفه بأحب الصفات، ونسب له العديد من الخصال نذكر منها:

١. حاز شرف العبودية لله، إذ شهد الله له بقوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ (الكهف:٦٥).

٢. آتاه الله رحمة من عنده، وقد وصفه الله بقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ (الكهف).

٣. علَّمه الله علمًا لدُنّيًّا عرف من خلاله حكمة الأقدار والأفعال، كما جاء في وصفه: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ (الكهف).

٤. كانت أفعاله صادرة عن وحي من الله تعالى، ولهذا قال لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ (الكهف: ٨٢)، وقد اختلف العلماء والمفسرون في حقيقة الخضر، فمن قائل: إنه نبي، ومن قائل: إنه عبد صالح

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١١، ص١٠.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام (٣٢٢٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٦٣١٣).

www.kalemasawaa.com

أوتي علم الباطن[1]، وقد رجَّح ابن كثير القول بنبوته لما يلي:

- وصفه الله بالعبودية له ﷻ بقوله: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ وهذا المقام وصف الله به الأنبياء في القرآن الكريم فقال عن نوح عليه السلام: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ (الإسراء)، وقال عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (ص)، وقال عن داود عليه السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ (ص: ١٧) وكذلك قال عن أيوب وزكريا والمسيح عليهم السلام، وقد قال عن خاتم النبيين محمد ﷺ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ (الإسراء: ١).

- آتاه الله رحمة من عنده فقال: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ والرحمة تأتي بمعنى النبوة، كما جاء على لسان صالح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً ﴾ (هود: ٢٨)، فالرحمة هنا النبوة، وكذلك في قوله عن موسى عليه السلام: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ (الأحقاف: ١٢) وقوله عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ (مريم: ٢١). فهذه الآيات تدل على أن الرحمة قد وردت بمعنى النبوة أو الرسالة.

- علَّمه الله علمًا من لدنه فقال: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾. وقد ذكر القرآن الكريم أن الله تولى بنفسه مهمة تعليم الأنبياء، فقال عن آدم: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١)، ووصف يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ (يوسف: ٦٨)، وقال عن داود: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (المائدة: ١١٠) وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ (النساء: ١١٣).

- إنه بعد أن فسَّر لموسى عليه السلام حقيقة الأحداث الثلاثة قال لموسى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾، وهذا أقوى دليل على نبوته؛ إذ إن الأنبياء والمرسلين لا يتصرفون في شيء إلا بأمر الله، إن يتبعون إلا ما يوحى إليهم من الله، كما جاء في القرآن على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (يونس: ١٥).

- أضف إلى ما سبق أن ما أقدم عليه الخضر من أفعال، وخاصة قتل الغلام، يخالف نصوصًا إلهية أنزلها الله على موسى عليه السلام، فلو لم يكن نبيًّا يتصرف عن وحي الله لكان عقابه القتل وفق ما أنزل الله، وليس عجبًا أن يوحي الله إليه بأن يقتل الغلام لحكمة يعلمها الله، فقد ورد أن الله أوحى إلى إبراهيم بأن يذبح ولده إسماعيل عليهما السلام[2].

وبعد عرض هذه الحقائق نستطيع أن نقول: إن موسى عليه السلام لم يتلقَ العلم على يد بشر عادي كما يزعمون، بل هو وإن افترضنا أنه ليس نبيًّا فهو عبد صالح لا تصدر أفعاله تبعًا لهواه، بل إن أفعاله كلها صادرة عن وحي إلهي كما قلنا.

ولكن لا ينبغي أن يظن أحد أنه أفضل من

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص٢٥٥ بتصرف يسير.

٢. المرجع السابق، ص٢٦٠: ٢٦٢ بتصرف يسير.

www.kalemasawaa.com

موسى عليه السلام؛ لأنه وإن كان عبدًا صالحًا فموسى عليه السلام نبي ورسول، وإن كان نبيًّا فموسى عليه السلام أفضل منه كذلك؛ لأن موسى عليه السلام رسول وصاحب شريعة بل هو من أولي العزم من الرسل®.

الخلاصة:

- لا يستطيع مسلم أن يشكك في فضل نبي الله موسى عليه السلام، فهو كليم الله، ومن أولي العزم من الرسل، وقد أنزل الله عليه التوراة فيها هدى ونور، وقد أثنى الله عليه في كثير من آيات القرآن الكريم.
- إنّ تعلّم موسى عليه السلام من الخضر لا يقدح في منزلة موسى عليه السلام فقد أراد الله أن يعلّم موسى أن علم الإنسان مهما بلغ فهو قليل إلى علم الله، وقد أراد موسى عليه السلام أن يزداد من العلم والخير ويقابل من قيل عنه: "أعلم منك". وليس في هذا انتقاص لموسي عليه السلام ولا لقدره.
- لقد اختص الله الخضر بعلم لم يكن يعلمه موسى، واختص موسى بعلم لم يكن يعلمه الخضر، وعليه فقد كان كل واحد منهما أعلم من الآخر فيما يعلمه.
- لم يكن العلم الذي أُختص به الخضر أفضل من العلم الذي أُختص به موسى عليه السلام، فقد كان علم الخضر هو سياسة خاصة تعود بالنفع على أفراد مُعَيَّنين لجلب مصلحة لهم أو دفع مفسدة عنهم، بخلاف علم موسى عليه السلام العام الذي يهتم بمصالح الناس كافة في زمان ومكان أمته المبعوث لهم.
- اختلف العلماء في حقيقة الخضر، فمن قائل: إنه عبد صالح، ومن قائل: إنه ولي عنده علم الباطن، ومن قائل: إنه نبي، وعلى كلٍّ فهو بشر غير عادي، فقد كانت أفعاله صادرة عن وحي إلهي لا هوى شخصي كما يزعمون.

® في "حقيقة الخضر وذي القرنين بين نص القرآن وأقوال المفسرين" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

الشبهة الستون

توهم وقوع موسى عليه السلام في المعصية، لعدم وفائه بشرطه مع الخضر(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن موسى عليه السلام قد وقع في المعصية حينما خالف الشرط الذي أخذه عليه الخضر، وتعهد بالوفاء به، وهو أن يضبط نفسه فلا يسأل عن شيء ابتداءً حتى يبيِّنه له الخضر من غير سؤال، ولكن ما إن ركبا السفينة وخرقها الخضر حتى اعترض عليه موسى عليه السلام قائلًا: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ (الكهف)، وكذلك قال له عندما قتل الغلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ (الكهف) على الرغم من أن أفعال الخضر لم تكن منكرة بل كانت أفعالًا نافعة. كما يتساءلون: كيف يصف موسى عليه السلام نفس الغلام بأنها زكية وهذا مخالف للواقع؟!

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

وجها إبطال الشبهة:

١) تصرّفات الخضر مع موسى عليه السلام يُوهِمُ ظاهرها أنها تصطدم بالمنطق العقلي، وما أنزله الله على موسى عليه السلام من شرع، فلا عجب أن تُثير استنكار موسى عليه السلام.

٢) صدور الاعتراض من موسى عليه السلام نابع من غيرته على الدين، وعدم سكوته عن المنكر، ولانتفاء علمه بالحكمة الربانية من وراء هذه التصرفات، إذ إن السكوت على مثل هذه التصرفات المتوهم خطؤها يتنافى مع كونه نبيًّا مرسلًا مأمورًا بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف.

التفصيل:

أولا. تصادم تصرفات الخضر مع المنطق العقلي، ومع شريعة موسى عليه السلام هو الذي أثار استنكار موسى عليه السلام:

قبل بيان حقيقة مخالفة موسى عليه السلام الشرط الذي أخذه عليه الخضر قبل اصطحابه ليتعلَّم منه، لا بد أن نشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن الله تعالى قد اختص الخضر بعلم لم يُطلع عليه موسى عليه السلام، واختص موسى بعلم لم يطلع عليه الخضر، وهذا ما قاله الخضر لموسى عليه السلام كما جاء في حديث البخاري: "إنك على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علّمنيه لا تعلمه أنت"[1]، وهذا دليل على أن كل واحد منهما كان أعلم من الآخر فيما يعلمه.

والحقيقة الثانية التي نود توضيحها وهي مبنيّة على الحقيقة السابقة، أن هذا العلم الذي اختص به الخضر وسأل موسى عليه السلام أن يتعلمه هو من العلم النافع الذي لا يتعلق بالتشريع الذي أُنزل على موسى عليه السلام، بل قد يتعارض معه ويخالفه؛ فتشريع موسى عليه السلام عام يُراعي المصلحة العامة لمن تُشرَّع لهم في كل زمان ومكان، بينما علم الخضر علم خاص يراعي مصلحة أفراد معيّنين، ولا يجوز الاعتماد عليه في الأحكام على الأحداث المختلفة التي تتعرض لها الجماعة.

وتأسيسًا على ما سبق ذكره نستطيع أن نقول: إن موسى عليه السلام لـمَّا كان من الأنبياء الذين أقامهم الله تبارك وتعالى لإجراء الأحكام على الظاهر، فلا عجب أن يستنكر ما يشاهده من تصرفات للخضر تختلف مع الشريعة التي ألزمه الله تعالى بها؛ لهذا توقع الخضر أن يَضِيق ذَرْع موسى[2] عليه السلام عن قبول ما يبديه إليه؛ لأنه علم أن ما يصدر عنه من أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف؛ لهذا قال لموسى عليه السلام في بادئ الأمر: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ (الكهف) وهذا تحذير منه لموسى عليه السلام وتنبيه على ما يستقبله منه حتى يقدم على متابعته ـ إن شاء ـ على بصيرة وعلى غير اغترار، وفي هذا إشارة إلى خطورة أعماله وغرابتها في المتعارف بحيث لا تتُحمل[3].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام (٣٢٢٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٦٣١٣).

٢. يَضِيق ذَرْعًا: لم يحتمل.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٥، ص٣٧١ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

ثانيًا. صدور الاعتراض من موسى عليه السلام نابع من غيرته على الدين، وعدم سكوته عن المنكر:

بعد أن بيَّنا أن تصرفات الخضر كانت من التصرفات التي يصطدم ظاهرها مع أحكام العقل، ومع أحكام شريعة موسى عليه السلام، نبين الآن الأسباب الحقيقية التي دفعت موسى عليه السلام إلى أن يستنكر الأفعال التي صدرت من الخضر، ويمكننا تفصيل ذلك في النقاط الآتية:

- إن مخالفة موسى عليه السلام للشرط في أول مرة حينما خرق الخضر السفينة، فاعترض عليه قائلًا: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ (الكهف)، على الرغم من أنه خرقها لمصلحة لا يعلمها موسى - كانت بسبب نسيان موسى عليه السلام لشرط الخضر، يقول تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ (الكهف: ٧٣)، والنسيان جائز على الأنبياء في غير التبليغ والشرع[١]، وسِرُّ نسيان موسى عليه السلام لما قاله الخضر، ولما أخذه على نفسه من عهد هو أنه وجد نفسه أمام تصرف عجيب لا مبرر له في نظر المنطق العقلي ولا مسوِّغ له في شريعته، فإن هذا التصرف من الخضر يعرِّض السفينة وركابها لخطر الغرق وتؤدي بهم إلى شر كبير، فلا عجب أن يسأل موسى الخضر: لماذا يقدم على هذا الشر الكبير الذي فيه مفسدة عظيمة حسبما يرى؟ بل العجيب حقًّا أن يرى موسى منكرًا - وهو نبي - فيقره ولا يغيره، ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار الثورة والحمية للحق، أنه قال حين خَرق الخضر السفينة: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ (الكهف: ٧١) ولم يقل: لتغرقنا، فنسي نفسه واشتغل بغيره، في الحالة التي كل أحد فيها يقول: نفسي نفسي، لا يلوي على مال ولا ولد، وتلك حالة الغرق، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم[٢].

- أما قول موسى عليه السلام للخضر عندما قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ (الكهف) فإن موسى عليه السلام فزع من هذا القتل الشنيع المخالف - بحسب الظاهر - لشرع الله الذي أنزل على موسى في التوراة "أنه لا يجوز أن تُقتل نفس بغير حق"، وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها، فهذه قتل نفس، قتل عمد لا مجرد احتمال، وهي فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده... فليس ناسيًا في هذه المرة ولا غافلًا، ولكنه قاصد، قاصد أن ينكر هذا الفعل المؤثم في شريعته، والذي لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له أسبابًا[٣].

أما حكمه عليه السلام على الغلام بأنه نفس زكية، وهذا مخالف للواقع؛ فلأنه حكم عليه حسبما يراه من الظاهر؛ فإن ظاهر أمر الغلام عدم ارتكاب ذنب، قال ابن حزم: وتكلم موسى عليه السلام على ظاهر الأمر، وقدَّر أن الغلام زكي، إذ لم يعلم له ذنبًا، وكان عند الخضر العلم الجلي بكفر الغلام واستحقاقه القتل، فقصد موسى عليه السلام بكلامه في ذلك وجه الله تعالى والرحمة بالغلام[٤]، وعليه "فلو كان الأمر موكولًا إلى العلم البشري

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٤٨ بتصرف.

٢. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، ج٧، ص٥٨.

٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٨٠.

٤. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٤٩.

www.kalemasawaa.com

الظاهر، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، وما كان له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعدُ ما يستحق عليه القتل شرعًا، وليس لغير الله ولمن يُطلعه من عباده على شيء من غيبه أن يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس، ولا أن يرتب على هذا العلم حكمًا غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة وهذا ما فعله موسى.

وقد يسأل سائل: لماذا لم يحترز موسى لنفسه، ويظن أنه قد لا يصبر على شرط الخضر؟ بل جزم بأنه سيصبر بقوله: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾(الكهف: ٦٩).

والحق أن المتأمل لقول موسى عليه السلام للخضر لا يجد فيه هذا الجزم المزعوم، بل لقد علَّق موسى هذا الصبر على مشيئة الله ﷻ، ولم يجزم به كما توهموا، وفي هذا ما فيه من الاحتراز من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الإنسان قد يتصوَّر المعنى الكلي المجرد (التصور النظري)، ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى والنموذج الواقعي منه يستشعر له وقعًا غير التصور المجرد، فالطبيعة البشرية تلتقي كلها في أنها تجد للتجربة العملية وقعًا وطعمًا غير التصور النظري، ولا تُدرِك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها[1]، حتى ولو كانت هذه الطبيعة طبيعة نبي مرسل، بل نبي من أولي العزم من الرسل هو موسى عليه السلام.

وعليه فلا يصح نسبة المعصية لموسى عليه السلام في موقفه من الخضر بأي حال من الأحوال.

الخلاصة:

- لقد اختص الله تعالى الخضر بعلم لم يُطلِعْ عليه موسى عليه السلام، وهو علم خاص نافع لا يتعلق بالتشريع الذي أُنزل على موسى عليه السلام، بل إنه يصطدم معه، كما يصطدم بالمنطق العقلي؛ لهذا استثار إنكار موسى عليه السلام واعتراضه.
- إن سبب مخالفة موسى عليه السلام لشرطه مع الخضر هو أنه رأى تصرفات عجيبة لا مبرر لها في نظر العقل، ولا مسوِّغ لها في الشريعة؛ فالتصرف الأول يعرِّض السفينة وركابها لخطر الغرق وهذا شر كبير، والتصرف الثاني جريمة شنيعة فهي قتل نفس بغير حق، فلم يستطع موسى أن يصبر على هذا، وهو نبي مرسل مأمور بإحقاق الحق وإنكار المنكر.

الشبهة الحادية والستون

ادِّعاء أن موسى عليه السلام تعدى على ملك الموت بلطمه، وفَقَأ عينه(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن موسى عليه السلام لم يطع أمر ملك الموت حين أرسله الله إليه ليقبض روحه، وتعدَّى عليه بلطمه، وفقأ عينه؛ ويستدلون على ذلك بما جاء في الصحيح من طريق طاوس عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفًا قال: "أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكَّه[2] فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. قال: ارجع إليه، فقل له يضع يده على متن ثور،

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٢٧٩.

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

٢. صكَّه: دفعه بقوة وضربه.

www.kalemasawaa.com

فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن... الحديث"[١].

وجها إبطال الشبهة:

١) موسى عليه السلام ما كان يعلم أن الذي لطمه كان ملك الموت؛ لأنه جاءه على صورة إنسان ودخل عليه بلا استئذان، فكان فعله دفاعًا عن نفسه.

٢) كان لطم موسى لملك الموت لأنه لم يخبره، وقد ثبت أن ملك الموت لم يقبض نبيًّا من الأنبياء إلا بعد إخبار الله تعالى له.

التفصيل:

أولا. موسى عليه السلام ما كان يعلم أن الذي لطمه كان ملك الموت؛ لأنه جاءه على صورة إنسان ودخل عليه بلا استئذان فكان فعله دفاعا عن نفسه:

إن الله عز وجل لم يبعث ملك الموت لموسى عليه السلام وهو يريد قبض روحه في المرة الأولى، وإنما بعثه إليه اختبارًا، وموسى عليه السلام ما كان يعلم حين لطمه أنه ملك الموت؛ لأنه جاءه على صورة إنسان فلما رأى موسى إنسانًا يريد الاعتداء عليه دافعه، حيث إن الإنسان مأمور بدفع من يعتدي عليه.

وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط ـ عليهما السلام ـ في صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداء، ولو عرفهم إبراهيم عليه السلام لما قدم لهم المأكول، ولو عرفهم لوط عليه السلام لما خاف عليهم من قومه.

قال الخطابي: إن موسى عليه السلام دفعه عن نفسه لما رُكِّبَ فيه من الحدة، وإن الله رد عين ملك الموت؛ ليعلم موسى عليه السلام أن الذي جاءه من عند الله، فلهذا استسلم حينئذ.

ثانيًا. كان لطم موسى عليه السلام لملك الموت لأنه لم يخيّره، فقد ثبت أنه لم يُقبَضْ نبي حتى يخبره الله تعالى:

كان لطم موسى عليه السلام لملك الموت وفَقْء عينه؛ لأنه لم يخيِّره بين الموت والحياة؛ لأن هذه سنة الله تعالى في قبض أرواح الأنبياء؛ فعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يخيَّر بين الدنيا والآخرة"[٢].

فلهذا لـمَّا خُيِّر موسى عليه السلام في المرة الثانية أَذْعَن[٣] واستسلم لأمر الله تعالى.

ويرجح د. أبو النور الحديدي الجواب الأول لأنه يستبعد من موسى عليه السلام أن يلطم ملك الموت حتى ولو أراد قبض روحه من غير أن يخبره، لأنه يعلم أن ملك الموت لا يقبض روح إنسان إلا بأمر الله تعالى، ولو كان موسى عليه السلام يعلم أنه ملك الموت لقال له: كيف تقبض روحي، أو أنى قبل أن تخيرني والأنبياء لا يقبضون إلا أن يخيروا؟

فالأصح أنه لم يعلم في المرة الأولى أنه ملك الموت، ومن حق الإنسان مدافعة المعتدي، بدليل استسلامه له لما عرف أنه ملك الموت جاء لقبض روحه[٤].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من أحب الدفن ليلا في الأرض المقدسة أو نحوها (١٢٧٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام (٦٢٩٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤١٧١)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٦٤٤٨).

٣. أَذْعَن: خضع.

٤. عصمة الأنبياء، د. الحديدي، مرجع سابق، ص٣٥٠.

www.kalemasawaa.com

الخلاصة:

- موسى عليه السلام ما كان يعلم حين لطم ـ ملك الموت ـ أنه ملك الموت؛ لأنه جاءه على صورة إنسان، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط ـ عليهما السلام ـ في صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداء، وما فعله موسى من لطم الملك كان دفاعًا عن نفسه، إذ إن الإنسان مأمور بدفع من يعتدي عليه.
- كان لطم موسى لملك الموت ـ عليهما السلام ـ لأن ملك الموت لم يخيِّر موسى بين الحياة والموت، وسنة الله تعالى في قبض أرواح الأنبياء هو تخييرهم.

الشبهة الثانية والستون

توهُّم وقوع الخلط في القرآن بشأن قصة قارون (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن القرآن يخلط في قصة قارون بين قارون وكروسوس ملك ليديا (٥٦٠ ـ ٥٤٦ ق. م) الذي هو عَلَمٌ على الغني عند العرب وغيرهم، وقورح الذي ورد ذكره في التوراة في زمن موسى عليه السلام، ويستدلون على ذلك بالتشابه الواقع بين قصص الأشخاص الثلاثة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) قارون الذي ذكره القرآن ليس كروسوس ملك ليديا، ولا قورح الذي ورد ذكره في التوراة؛ وذلك بناء على ما أكده المؤرخون بخصوص نسب قارون الذي يختلف عن نسب هذين الرجلين.

٢) الحكمة من القصص القرآني هو استخلاص العبرة والعظة، لا ذِكْرُ الأنساب والأسماء، والقرآن يكتفي بما يفيد توصيل العبرة والعظة.

٣) وردت قصة قارون في القرآن واضحة متماسكة، بل فصَّلها الذكر الحكيم تفصيلًا بحيث لا تلتبس بأي قصة أخرى.

التفصيل:

أولا. قارون الذي ذكره القرآن ليس كروسوس ملك ليديا، ولا قورح الذي ذُكِر في التوراة:

كروسوس الذي يقولون عنه إنه ملك ليديا، قد ذُكر التاريخ الذي وجد فيه (٥٦٠ ـ ٥٤٦ ق. م) كما حُدِّد المكان الذي عاش فيه وهو ليديا، وقد وردت قصة قارون بتمامها في سورة القصص دون أن يحدد الحق سبحانه وتعالى زمان وقوعها ولا مكان حدوثها.

كما أن كروسوس هذا الاسم ليس هو اسم قارون وليس له علاقة به لا من جهة المعنى ولا المبنى، وإن كان هناك علاقة بين الاسمين؛ فلماذا لم يأتوا بالأدلة العلمية الواضحة التي تثبت هذه العلاقة؟! فمن أين ـ إذن ـ يأتي لهم الزعم أن القرآن يخلط بين كروسوس؟ وقورح في قصة قارون، وهم لا دليل لهم على ذلك؟!

كما أن الأدلة العلمية تثبت أنه ليس قورح، وإن كان لا بد من معرفة نسبه وإلى من ينتهي هذا النسب، فالراجح بالأدلة العلمية أنه يصهار عم موسى عليه السلام إذ جاء في قاموس الكتاب المقدس، ص١٠٧٢: "يصهار:

(*) من إعجاز القرآن، رؤوف أبو سعدة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣م.

www.kalemasawaa.com

اسم عبري معناه يضيء أو يشرق".

وجاء في تفسير القرطبي والرازي، وجاء في قصص الأنبياء كذلك أن قارون كانت كنيته في قومه المنور؛ لوَضاءته وجماله وحسن صوته بالتوراة.

كما أن الجذر العبري "قـر ن" معناه: "أنار وأضاء وأشع، واشتُقَّ منه: قارون بمعنى الأوار المنور".[١] ويقول أكثر المؤرخين وأهل العلم: إنه كان ابن عم موسى عليه السلام فهو قارون بن يصهب بن قاهث بن لاوي، وموسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب[٢]. وقيل: إنه يصهار عم موسى الذي ورد ذكره في التوراة، فضلًا عن أن اسم قارون يحمل معنى آخر، وذلك الفعل "يقر" العبري هو الفعل "وقر" العربي، وكلاهما يفيد معاني الثقل والعظمة والمال، فالوقر يعني الحمل الثقيل والوقار من معانيه العظمة، وحينما اشتق القرآن الكريم من "يقرون" اسم قارون لم يبعد كثيرًا عن قواعد اللغة العبرية؛ حيث يشتق من "يشرون" اسم "شارون"، فاختيار القرآن لاسم "قارون" كان إعجازًا لفظيًّا، إذ يتماشى مع قواعد اللغة العبرية، وفي نفس الوقت يعني المنير، وهو نفس اسم "يصهار"، كما أنه يتضمن الحمل الثقيل، وفيه إشارة إلى كنوزه التي كانت مفاتيحها من الثقل، بحيث يعجز عن حملها الرجال الأشداء.

مما سبق يثبت أن قارون هو يصهار أو يصهر - كما ورد في التفاسير - بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام، وليس كروسوس ولا قورح.

ثانيًا. ليست الحكمة من القصص القرآني ذكر الأسماء والأنساب، وإنما هي استخلاص العبرة والعظة، بغض النظر عن الزمان والمكان والأسماء والأنساب:

فالأسلوب القرآني المعجز - يهتم بما يفيد في توصيل العبرة والعظة؛ لذا نراه هنا يكتفي بذكر أن قارون كان من قوم موسى؛ ليعلم أهل البغي والضلال أن النسب لا يغني عن صاحبه شيئًا، إن جاءه بأس الله في الدنيا، وحلَّت به نقمته، "فمن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه" كما قال الرسول ﷺ[٣].

فقد كان قارون من قوم موسى، وكان ممن سمع منه التوراة ولازمه مدة طويلة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، ولم تؤثر فيه مواعظه، فنافق قومه، وحسد موسى على ما آتاه الله من فضله، وتمنى أن يكون رسولًا مثله، كما تمنى ذلك كثير من أثرياء مكة، وكبراء الطائف، ورؤساء اليهود؛ ظنًّا من هؤلاء القوارين - جمع قارون - أن النبوة والشرف، والعزة، تنالُ بالثراء والغنى قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ (الزخرف). أي: عظيم في نسبه وجاهه وثروته، فضرب الله لهم قارون مثلًا يستبينون به حالهم، ومآلهم ويعرفون به أقدارهم، ومنازلهم بين الناس؛ فيعلمون من خلال هذا المثل أنهم ليسوا على شيء، وأن العزة ليست لهم، وإنما هي للمؤمنين، وأن العاقبة يوم القيامة للمتقين[٤].

من هذا نصل إلى أن اهتمام القرآن بالتوجيه

---

١. المرجع السابق، ج٢، ص٧١.

٢. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٣٤٥.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٧٠٢٨).

٤. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٣٩.

www.kalemasawaa.com

والإرشاد، واستخدامه الأسلوب الصالح لكل زمان ومكان ـ يبرر عدم تحديده لزمان هذه القصة، ولا مكانها، كما يبرر عدم ذكره وتفصيل نسب "قارون" والقرآن بهذا الأسلوب لم يترك فرصة لأعدائه لأن يتصيدوا عليه أي عيب أو خلط؛ فلا يرمي هذا القرآن بعيب إلا سفيه غاب عنه فقه الأسلوب القرآني المعجز.

ثالثًا. وردت قصة قارون في القرآن واضحة متماسكة، يفهمها الصغير والكبير، والمسلم وغيره:

فقد يعرف شخص ما بصفة من الصفات كالغنى، وغيرها، لكن هذا لا يمنع غيره أن يكون مثله أو أكثر منه، وقد عرف حاتم الطائي ـ مثلًا ـ بين العرب بالكرم، فهل منع اشتهاره بالكرم مِنْ أن يضاهيه غيره في هذه الصفة؟!

وما المانع ـ كذلك ـ أن تكون نهاية ومصير هؤلاء ـ الذين يشتركون في صفة أو صفات ما ـ واحدة؟ فكثير ممن كذبوا الرسل أخذتهم الصيحة، وكثير أخذتهم الرجفة... إلخ.

وقورح هذا الذي يزعمون أن القرآن يخلط بينه وبين كروسوس ـ هو ابن يصهار الذي هو "قارون". وقد ثار قارون على موسى عليه السلام في سيناء، وقد ذكره القرآن فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (القصص)، وكانت نهايته الخسف: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ (القصص).

ولعل ما حدث من خسف أموال "قارون" كان له أثر عميق في نفس قورح؛ إذ فقد المال الذي كان يُمَنّي نفسه بالتمتع به بعد أن يئول إليه، ولكن ها هي آماله قد ضاعت، فخرج من مصر مع موسى؛ إذ لم يعد هناك شيء يربطه بمصر إلا الأسف على هذه الثروة الضائعة، ونفّث عما في دخيلته فيما بعد بالثورة على موسى وهارون، وكان مصيره أن خسف الله به الأرض هو الآخر في سيناء كما خسفت الأرض بأبيه من قبل في مصر.

فهل هناك ما يمنع من أن يكون مصير الابن كمصير أبيه[1]؟!

الخلاصة:

- ثبت أن القرآن محكم متماسك بأسلوبه المعجز؛ إذ هو من عند الله، لا ريب فيه، ولا خلط، ولا اضطراب، وقصة قارون التي ورد ذكرها في القرآن على قمة التماسك والإحكام، ولا خلط فيها بين قارون وكروسوس وقورح؛ إذ إن قارون الذي ذكره القرآن ليس كروسوس ملك ليديا، ولا قورح الذي ورد ذكره في التوراة، وإنما هو يصهار بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام كما ثبت هذا بالأدلة العلمية.
- الحكمة من القصص القرآني هي استخلاص العبرة والعظة، والتوجيه والإرشاد؛ لذا لا يعطي كل اهتمامه لتحديد الزمان، والمكان، أو الأسماء، وتفصيل نسبها، وقد حقق هذا الأسلوب القرآني المعجز ما سعى إليه؛ حيث رسم لنا لوحة كاملة لهذا الرجل الذي أنعم

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ١١، ص١٨٦. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٣٣ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

الله عليه، فبغى في الأرض، وتكبر ومنع حق الله؛ فكان مصيره أن خسف الله به وبداره الأرض.

- هذا المصير الذي آل إليه قارون لا يمنع من أن يصير إليه غيره؛ فقد كان لابنه نفس المصير، وهذا لا يعني وجود الخلط في القصة التي يشبهها غيرها.

الشبهة الثالثة والستون

ادِّعاء أن القرآن أخطأ في ذكر عقيدة ذي القرنين (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم أخطأ في ذكر عقيدة ذي القرنين، ويستدلون على زعمهم بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الكهف). فيزعمون أن القرآن الكريم قد مدح الإسكندر الأكبر ـ ذا القرنين ـ باعتباره عبدًا صالحًا يؤمن بالله تبارك وتعالى، في حين أن جميع مؤرخي الإغريق يجمعون على أنه كان من عبدة الأوثان!

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد كان ذو القرنين ملكًا عادلا صالحًا، بلغ مُلكه المشارق والمغارب، وقد أعطاه الله ﷻ القدرة على السير في الأرض شرقًا وغربًا لنشر الإسلام في ربوعها، ومن ثم فالقرآن لم يخطئ في ذكر عقيدته حين أخبر أنه كان مؤمنا بالله موحدًا.

٢) جمهور المؤرخين وكبار المفسرين على أن ذا القرنين الذي ذُكر في القرآن الكريم، ليس هو الإسكندر الأكبر المقدوني، الذي لُقِّبَ بذي القرنين تشبيهًا له بالأول بعدما قضى على مملكة فارس، ودانت له الممالك شرقًا وغربًا، ومن هنا حدث الخلط بينهما عند بعض الباحثين.

التفصيل:

أولا. ذو القرنين ملك من الملوك العادلين بلغ ملكه المشارق والمغارب على نحو ما جاء في القرآن:

لقد ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا وأثنى عليه بالعدل، وأنه بلغ المشارق والمغارب، وملك الأقاليم وقهر أهلها، وسار فيهم بالعدل التام، والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط، والصحيح أنه كان ملكًا من الملوك العادلين، قال إسحاق بن بشر عن عثمان بن الساج، عن خفيف، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: كان ذو القرنين ملكًا صالحًا عمله، وأثنى عليه في كتابه، وكان منصورًا، وكان وزيره الخضر، وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه، وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم، وقد ذكر الأزرقي وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ.

ورُوي عن عبد الله بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما أن ذا القرنين حج ماشيًا، وأن إبراهيم عليه السلام لما سمع بقدومه تلقاه ودعا له ورضاه، وأن الله سخر لذي

(*) شبكة بلدي لمقاومة التنصير. www.balady.net

www.kalemasawaa.com

القرنين السحاب يحمله حيث أراد[1].

وقد اختلف في كونه نبيًّا أم ملكًا أم عبدًا صالحًا، فقد جاء عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لا أدري ذو القرنين كان نبيًّا أو لا"[2]، وذكر وهب في "المبتدأ" أنه كان عبدًا صالحًا، وأن الله بعثه إلى أربع أمم: أمتين بينهما طول الأرض، وأمتين بينهما عرض الأرض، وهي ناسك ومنسك وتأويل وهاويل، وعن أبي الطفيل قال: سمعت ابن الكوّا يقول لعلي بن أبي طالب ﷺ: أخبرني ما كان ذو القرنين؟ قال: كان رجلًا أحب الله فأحبه، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله إليهم فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله فسُمِّي ذا القرنين. ورغم ضعف عبد العزيز أحد رواة الحديث إلا أنه توبع على أبي الطفيل، أخرجه سفيان بن عيينه في جامعه عن ابن أبي حسين عن أبي الطفيل نحوه وزاد: "وناصح الله فناصحه"، وفيه: لم يكن نبيًّا ولا ملكًا، وقيل: كان ملكًا من الملائكة حكاه الثعلبي، وهذا مروي عن عمر ﷺ أنه سمع رجلا يقول يا ذا القرنين، فقال: تسميه بأسماء الملائكة، وقيل: كان من الملوك، وعليه الأكثر[3].

واختلف العلماء والمفسرون في اسمه، فقيل هو الصعب ابن ذي يزن الحميري من ولد وائل بن حمير، وبه جزم كعب الأحبار، وذكره ابن هشام في التيجان عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضًا، وقال أبو جعفر بن حبيب في كتاب "المحبر": هو المنذر أحد ملوك الحيرة، وأمه ماء السماء ماوية بنت عوف بن جشم، قال: وقيل الصعب بن القرن بن حمال من ملوك حمير، وأما قول ابن إسحاق الذي حكاه ابن هشام عنه من أن اسم ذي القرنين مرزبان بن مرديه، فقد صرح بأنه الإسكندر، لذلك اشتهر على الألسنة لشهرة السيرة لابن إسحاق.

قال السهيلي: والظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان أحدهما كان على عهد إبراهيم عليه السلام، ويقال إن الخليل إبراهيم عليه السلام تحاكم إليه في بئر السبع بالشام فقضى لإبراهيم، والآخر كان قريبًا من عهد عيسى عليه السلام. ثم يقول ابن حجر: "لكن الأشبه أن المذكور في القرآن هو الأول بدليل ما ذُكر من ترجمة الخضر، حيث جرى ذكره في قصة موسى قريبًا أنه كان على مقدمة ذي القرنين، وقد ثبتت قصة الخضر مع موسى، وموسى كان قبل زمن عيسى قطعًا"[4].

واختُلف في سبب تلقيبه بذي القرنين، فقيل: لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها، رواه الزبير بن بكار عن الزُّهري، وقيل لأنه ملكهما، وقيل لأنه رأى في منامه أنه أخذ بقرني الشمس، وقيل لأنه كان له ضفيرتان تواريهما ثيابه، وقيل لأنه عُمِّر حتى فني في زمانه قرنان من الناس، وقيل غير ذلك[5].

---

١. البداية والنهاية، ابن كثير، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤م، ج١، ص٤٥١، ٤٥٠ بتصرف.

٢. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الدخان (٣٦٨٢)، ووافقه الذهبي في التلخيص.

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٦، ص٤٤٢، ٤٤١ بتصرف.

٤. المرجع السابق، ج٦، ص٤٤٢، ٤٤٣ بتصرف.

٥. سُبُل الهدى والرشاد في هَدْي خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٢٢، ص٤٦٤.

www.kalemasawaa.com

وقد أخبر الله تعالى عنه أنه مكّن له في الأرض فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ (الكهف)؛ أي وسعنا مملكته في البلاد، وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة، والمقاصد الجسيمة، قال قتيبة، عن أبي عوانة، عن سمّاك، عن حبيب بن حِمَاز، قال: كنت عند علي بن أبي طالب ﷺ، وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال له: سُخِّر له السحاب، ومُدَّت له الأسباب وبُسِط له في النور، وقال: أزيدك؟ فسكت الرجل وسكت علي ﷺ.

وعن أبي إسحاق السبيعي، عن عمرو بن عبد الله الوادعي سمعت معاوية ﷺ يقول: ملك الأرض أربعة: سليمان بن داود النبي ـ عليهما السلام ـ وذو القرنين، ورجل من أهل حلوان، ورجل آخر، فقيل له الخضر؟ قال: لا. وقال الزبير بن بكار: حدثني إبراهيم بن المنذر، عن محمد بن الضحاك، عن أبيه، عن سفيان الثوري قال: بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة: مؤمنان وكافران: سليمان النبي وذو القرنين، ونمرود وبختنصر، وهكذا قال سعيد بن بشير: سواء، وقال إسحاق بن بشر، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة عن الحسن قال: كان ذو القرنين مَلَك بعد النمروذ، وكان من قصته أنه كان رجلًا مسلمًا صالحًا، أتى المشرق والمغرب، مدّ الله له في الأجل ونصره حتى قهر البلاد، واحتوى على الأموال، وفتح المدائن، وقتل الرجال، وجاب[1] في البلاد والقلاع، فسار حتى أتى المشرق والمغرب، فذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾[2].

فهل يعطي الله كل هذه الأسباب لرجل مشرك، ثم يمدحه بعد ذلك في القرآن؟!! ولقد رأينا كيف أن الله ﷻ يتوعد الملوك الذين يخالفون أوامره ويصدون العباد عن عبادته وحده كفرعون والنمروذ وغيرهم.

وبهذا يتبين لنا أن ذا القرنين هو ذاك الملك المسلم، الذي كان في زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأنه حقق العدالة ورفع الظلم، ودعا إلى عبادة الله ﷻ في كل البلاد التي فتحها. فكيف يدَّعون أن القرآن أخطأ في ذكر عقيدته؟!!

وما كان هذا الخطأ إلا نتيجة خلطهم بين ذي القرنين الملك الصالح، وبين الإسكندر الأكبر المقدوني الذي تؤرخ به الروم، وهذا ما سنوضحه في الوجه الآتي:

ثانيًا. ليس الإسكندر الأكبر المقدوني هو ذا القرنين المذكور في القرآن:

لقد فرق العلماء وأصحاب السير بين ذي القرنين المذكور في القرآن، وبين الإسكندر الأكبر المقدوني اليوناني، يقول ابن كثير:

فأما ذو القرنين الثاني ـ أي الإسكندر الأكبر المقدوني ـ فهو إسكندر بن فيلبس بن مضريم بن هرمس بن هردس بن ميطون بن رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن نونة بن سرحون بن رومة بن ثرنظ بن توفيل بن رومي بن الأصفر بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، كذا نسبه ابن

١. جاب: طاف.

٢. البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ج١، ص٤٥٣، ٤٥٢ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

عساكر في تاريخه، المقدوني اليوناني المصري باني الإسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم، وكان متأخرًا عن الأول بدهر طويل، كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان أرسطوطاليس الفيلسوف وزيره، وهو الذي قتل دارا بن دارا، وأذل ملوك الفرس وأَوْطَأَ[1] أرضهم. وإنما نبهنا عليه؛ لأن كثيرًا من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطاطاليس وزيره، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير، وفساد عريض طويل كثير، فإن الأول كان عبدًا مؤمنًا صالحًا، وملكًا عادلًا، وكان وزيره الخضر، وقيل إنه كان نبيًّا على اختلاف في ذلك.

وأما الثاني فكان مشركًا، وكان وزيره فيلسوفًا، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة. فأين هذا من هذا؟ لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور[2].

ويؤكد ما ذهب إليه ابن كثير ما قاله ابن القيم في "إغاثة اللهفان":

ومن ملوكهم الإسكندر المقدوني وهو ابن فيلبس، وليس بالإسكندر ذي القرنين، الذي قص الله ﷻ نبأه في القرآن، بل بينهما قرون كثيرة، وبينهما في الدين أعظم تباين، فذو القرنين كان رجلًا صالحًا موحدًا لله تعالى، يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكان يغزو عبَّاد الأصنام، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها.

وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج، وأما هذا المقدوني، فكان مشركًا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة، والنصارى تؤرخ له وكان أرسطاطاليس وزيره، وكان مشركًا يعبد الأصنام[3].

ومما يؤكد ذلك ما قاله الفخر الرازي في تفسيره: إن في كون الإسكندر ذا القرنين إشكالًا قويًّا، وهو أنه كان تلميذ أرسطا طاليس الحكيم وكان على مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق، وذلك مما لاسبيل إليه.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ عدة قرون بين ذي القرنين العبد الصالح الذي ذُكر في القرآن الكريم، وبين الإسكندر الأكبر المقدوني اليوناني، فقال: الأكثر على أنه ـ أي ذا القرنين الصالح الأول ـ كان من الملوك الصالحين، وفي إيراد المصنف ترجمة ذي القرنين قبل إبراهيم عليه السلام إشارة إلى توهين قول من زعم أنه الإسكندر اليوناني؛ لأن الإسكندر كان قريبًا من زمن عيسى وبين زمن إبراهيم وعيسى ـ عليهما السلام ـ أكثر من ألفي سنة، والذي يظهر أن الإسكندر المتأخر لقب بذي القرنين تشبيهًا بالمتقدم لسعة ملكه، وغلبته على البلاد الكثيرة، أو لأنه لما غلب على الفرس وقتل ملكهم انتظم له ملك المملكتين الواسعتين الروم والفرس فلُقِّب ذا القرنين لذلك، والحق أن الذي قص الله نبأه في القرآن هو المتقدم، والفرق بينهما من أوجه: أحدها ما ذكرته، وثانيًا: قول

---

١. أَوْطَأَ: دخل.

٢. البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ج١، ص٤٥٢ بتصرف يسير.

٣. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ج٢، ص٢٦٣.

www.kalemasawaa.com

الفخر الرازي في تفسيره: كان ذو القرنين نبيًّا على اختلاف في ذلك، وكان الإسكندر كافرًا، وكان معلمه أرسطاطاليس، وكان يأتمر بأمره وهو من الكفار بلا شك. وثالثًا: كان ذو القرنين من العرب، وأما الإسكندر فهو من اليونان، والعرب كلها من ولد سام بن نوح باتفاق، واليونان من ولد يافث بن نوح على الراجح فافترقا[١].

ثم يدلل ابن حجر على عروبته بذكر بعض الأبيات من كلام العرب، قيل: والذي يقوّي أن ذا القرنين من العرب كثرة ما ذكروه في أشعارهم، قال أعشى بن ثعلبة:

والصعب ذو القرنين أمس ثاويًا

بالحنو في حدث هناك مقيم

قال الربيع بن ضبيع:

والصعب ذو القرنين عُمِّر مُلْكُه

ألفين أمسى بعد ذاك رميما

ويقول قس بن ساعدة:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا

باللحد بين ملاعب الأرياحِ

وقال تبع الحميري:

قد كان ذو القرنين قبلي مسلمًا

مَلِكا تدين له الملوكُ وتحشد

من بعده بلقيسُ كانت عمتي

ملكتْهُمُ حتى أتاها الهدهدُ

ويؤخذ من أكثر هذه الشواهد أن الراجح في اسمه الصعب، ووقع ذكر ذي القرنين أيضًا في شعر امرئ القيس وأوس بن حجر وطرفة بن العبد وغيرهم[٢].

ويؤكد كلام ابن حجر ما قاله الشيخ تقي الدين المقريزي في "الخطط": اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار أن ذا القرنين الذي ذكره الله ﷻ في القرآن اسمه الصعب بن الحارث، وساق نسبه إلى قحطان بن هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وأنه ملك من ملوك حمير وهم العرب العاربة، ويقال لهم أيضًا العرب العَرْباء، وكان ذو القرنين تبعًا متوجًا، ولما تولى الملك تجبَّر، ثم تواضع لله تعالى، وقد غلط من ظن أن الإسكندر هو ذو القرنين الذي بنى السد، فإن لفظة "ذو" عربية، وذو القرنين من ألقاب ملوك اليمن، وذلك يوناني رومي[٣].

ومن خلال تتبعنا لأقوال علماء المسلمين، سواء أكانوا مؤرخين أم مفسرين أم محدّثين، فإننا نجد أن ما قرروه من ضرورة التفرقة بين ذي القرنين الذي ذُكر في القرآن، وذي القرنين الذي هو الإسكندر المقدوني اليوناني ـ يؤكده ما ذكره المؤرخون في سيرة هذا المقدوني اليوناني؛ فقد ذكروا أنه كان قائدًا عظيمًا، وذا قدرة كبيرة على التخطيط والبراعة في الأداء والقيادة، ولكنه كان قاسيًا وبلا رحمة في أوقات أخرى. ومن المعروف أنه كان سكِّيرًا لدرجة أنه في إحدى المرات قتل صديقه كليتوس في نوبة غضب، وقد ندم كثيرًا على ذلك الأمر، وقبل موته بفترة وجيزة، جعل اليونان تعبده بوصفه إلهًا؛ وذلك بسبب طبيعته كإله كما كان يقول عن نفسه... وقد انتهى هذا الأمر بموته،

١. مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق، ج٢١، ص١٧٢.

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ج٦، ص٤٤٠، ٤٤١ بتصرف.

٣. سبل الهدى والرشاد في هدي خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٦٥.

www.kalemasawaa.com

وقد استطاع أن يؤسس عام ٣٣٢ مدينة الإسكندرية عند نهاية نهر النيل، والتي أصبحت بعد ذلك المركز الثقافي والعلمي والتجاري للعالم اليوناني. وكان أرسطو هو معلم الإسكندر، وقد أعطاه تدريبًا كبيرًا في علم البلاغة والخطابة والأدب، وحث اهتمامه بالعلوم والطب والفلسفة.

ومما يدل على أن هذا الملك اليوناني كان سيء الخلق، ولا يصح أن يُطلق عليه وصف القرآن الكريم، ومدحه بالعدل والقسط والإيمان بالله ﷻ - أنه مات بعد أن سقط مريضًا بحوالي أسبوعين، وكان قد سلم الخاتم الخاص به لقائد جيشه، وهو على فراش الموت، وطلب من الجنود زيارته في فراشه، ويبدو أن المحيطين به في تلك الفترة كانوا متآمرين عليه نظرا لتصرفاته وسلوكياته الغريبة، حيث إنه في أواخر أيامه طلب من الإغريق تأليهه في الوقت الذي كان فيه عنيفًا مع الكثيرين، بالإضافة إلى إكثاره في شرب الخمر، كل هذه العوامل جعلت البعض يتربصون به ويحاولون الفتك به. وقد مات مسمومًا كما ذكرت بعض المصادر التاريخية.

وهذا ما أكده د. جواد علي حيث قال: وأورد أريان في كتابه قصة أخرى، خلاصتها: أن العرب كانوا يتعبدون لإلهين هما: أورانوس، وديونيوس وجميع الكواكب وخاصة الشمس، فلما سمع الإسكندر بذلك أراد أن يجعل نفسه الإله الثالث للعرب[1].

فهل يُعْقل أن مَنْ يريد أن يجعل نفسه إلهًا من دون الله يذكره الله في كتابه ويثني عليه خيرًا؟!!

إن هذه الحياة التي يصورها لنا المؤرخون والمفسرون عن هذا الرجل - الإسكندر المقدوني - من كفر وسكر ومكر في معاملة قواده - لتؤكد الفرق الكبير والبون الشاسع بين هذا الذي ذكره القرآن، وبين المقدوني اليوناني.

الخلاصة:

- ذو القرنين ملك من الملوك الصالحين العادلين، الذين رفع الله بهم الظلم عن العباد، وقد أعطاه الله القدرة على السير في الأرض لنشر دينه ﷻ في ربوع الأرض، وقد زوده الله بالعلم والمعرفة والتقوى.
- لم يخطئ القرآن في ذكر عقيدة ذي القرنين، لأنه كلام الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾(النساء: ١٢٢).
- سُمّي الإسكندر الأكبر المقدوني بذي القرنين تشبيهًا بالأول الذي ذُكر في القرآن، لأن ممالك المشرق والمغرب دانت له بعد أن قضى على الفرس، وذلك سنة (٣٣٦ ق. م)، ومن هنا جاء الخلط بينهما.
- فرق العلماء والمؤرخون بين ذي القرنين الذي ذكره الله في القرآن وبين الإسكندر الأكبر المقدوني، فالأول كان ملكًا صالحًا مؤمنًا يدعو إلى الله ويعمل على نشر دينه، والثاني كان كافرًا مشركًا بالله يعبد الأصنام هو وقومه. والأول كان في زمن إبراهيم عليه السلام وحج معه، والثاني كان قبل بعثة عيسى عليه السلام بثلاثمائة وست وثلاثين سنة، أي أن بينهما ما يزيد على ألفي عام، والأول على أصح الأقوال كان عربيًّا، ويبدو هذا من ذكر بعض الشعراء العرب له في أشعارهم، والثاني كان

١. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، جامعة بغداد، العراق، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج٢، ص٦ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

يونانيًّا مقدونيًّا انحدر إلى الشرق بعدما استولى على أملاك الدولة الفارسية؛ فكيف يتشابهان أو يتقاربان كما قال ابن كثير وابن حجر ؟!!

- كان الإسكندر الأكبر المقدوني قائدًا عظيمًا، فتح البلاد شرقًا وغربًا، إلا إنه كان سِكِّيرًا يشرب الخمر، وكان أحيانًا يبطش بقواده، وهذا كان سببًا في حقدهم عليه ومحاولتهم للتآمر عليه، على خلاف ذي القرنين المذكور في القرآن، الذي كان عادلًا صالحًا يخدم الناس، ويقوم على مصلحتهم، وقد بنى السد بينهم وبين يأجوج ومأجوج.

www.kalemasawaa.com

www.kalemasawaa.com

المصادر والمراجع

- آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧م.
- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- أحكام القرآن، الجصاص، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت.
- الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمود العمادي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت.
- أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- أساقفة كنيسة إنجلترا وألوهية المسيح، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، كتاب المختار، القاهرة، ١٩٩١م.
- استحالة تحريف الكتاب المقدس، القمص مرقص عزيز خليل، كنيسة القديسة العذراء، والشهيدة دميانة المعلقة، مصر، ٢٠٠٣م.
- أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، جون هك، ترجمة: نبيل صبحي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٨م.
- الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، د. ت.
- الإسلام والغرب، روم لاندو، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.
- أصول العقيدة الإسلامية دراسات وبحوث، د. محمد سلامة أبو خليفة، مكتبة دار الهاني، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- أضواء على أحاديث الإسراء والمعراج، د. سعد المرصفي، مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- إظهار الحق، قساوسة وعلماء مستشرقون أشهروا إسلامهم، محمد عبد الحليم عبد الفتاح، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٥م.

www.kalemasawaa.com

- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مطابع النصر الحديث، الرياض، ١٩٥٤م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- بنو إسرائيل من التاريخ القديم وحتى الوقت الحاضر، د. محمد الحسيني إسماعيل، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- البهريز في الكلام اللي يغيظ، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- البيان في تحليل وتوجيه الإشكالات التي تثار حول قصص القرآن، د. عاطف قاسم المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م.
- بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١م.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت.
- تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد النسفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت.
- تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، أبو الحسن علي بن أحمد السبتي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجنة والنار، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، د. ت.
- الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح، الألوسي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- جولة نقدية في نصوص الرواية التوراتية، محمد صالح توفيق، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥/ ٢٠٠٤م.
- حياة وأخلاق الأنبياء، د. أحمد الصباحي عوض الله، مكتبة مدبولي، القاهرة، دار اقرأ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

www.kalemasawaa.com

- دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، د. محمد عوض الهزايمة، دار عمار، الأردن، ط٥، ١٩٩٧م.
- دراسات لغوية مقارنة، د. محمد صالح توفيق، مطبعة الزهراء، القاهرة، د. ت.
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دار المعارف الأمريكية، د. ت.
- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٢م.
- الرد الجميل على المشككين في الإسلام من القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، عبد المجيد صبح، دار المنارة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م.
- رد القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجموعة علماء، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- الردود الجلية على من اتهم المسيح بالألوهية، جمع وترتيب: أبو بصير، دار الفرقان، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- الرسل والرسالات، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- الرياضيات المسلِّية، بيريلمان، ترجمة: د. إبراهيم محمود شوشة، دار أمير للطباعة والنشر، موسكو، ١٩٧٧م.
- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- سُبُل الهدى والرشاد في هَدْي خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٣٩هـ/ ١٩٩٥م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٩٥م.
- سلسلة القصص القرآني، د. حمزة النشرتي وآخرون، مؤسسة الأهرام، القاهرة، د. ت.
- شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، د. ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، شرح ابن العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ.

www.kalemasawaa.com

- الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز عثمان، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، ١٩٦٢م.
- شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- صيحات تحذير من دعاة التنصير، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- العالم الإسلامي والمكائد الدولية، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، د. أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغبي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٨م.
- عيسى ليس المسيح الذي تفسيره المسيا، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- عيسى ومريم في القرآن والتفاسير، مجموعة مؤلفين، إشراف: يوسف قزما خوري، المعهد الملكي للدراسات الدينية، دار الشروق، الأردن، ط١، ١٩٩٦م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م.
- قصة الهداية، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.
- القصة في القرآن، محمد قطب، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١م.
- قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق: محمد عبد الملك الزغبي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.
- قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الكشاف، الزمخشري، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.

www.kalemasawaa.com

- لا يأتيه الباطل، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- اللقاء بين الإسلام والنصرانية، مناظرة بين الشيخ أحمد حجازي السقا، والأنبا غريغوريوس، دار البشير للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٤م.
- مؤلفات أحمد ديدات: المجموعة الثالثة، الشيخ أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، مطبعة كتاب المختار، القاهرة، د. ت.
- ما فرطنا في الكتاب من شيء، د. أحمد شوقي إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- المائة الأعظم أثرًا في التاريخ، ميخائيل هارث، ترجمة: علي الجوهري، مكتبة القرآن، القاهرة، د. ت.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- محمد ﷺ خير البشر وأمته خير الأمم، محمد أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل، دار المنار، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مطابع الوليد، مصر، ٢٠٠٣م.
- مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام الزين، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، رابطة العالم الإسلامي، مكة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- مشكل الحديث وبيانه، ابن فورك، تحقيق: د. موسى محمد علي، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
- المصطفون الأخيار، عطية صقر، دار مايو، القاهرة، ١٩٩٧م.
- مع الأنبياء والرسل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
- المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، دار الشروق، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، جامعة بغداد، العراق، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- من إعجاز القرآن، رؤوف أبو سعدة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣م.
- المناظرة الكبرى مع القمص زكريا بطرس حول ألوهية يسوع، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

www.kalemasawaa.com

- مناظرة بين الإسلام والنصرانية لمناقشة العقيدة الدينية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، دار الحديث، القاهرة. ط٢، ١٤١٢هـ.
- مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ٢٠٠٥م.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق بحث من المستشرقين، ترجمة نخبة من الأساتذة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف: د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- موسوعة القرآن العظيم، عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- النبوات، ابن تيمية، مكتبة فياض، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ.
- النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.
- هذا هو الحق، رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، مصر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٧م.
- الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، دار الدعوة، مصر، ١٩٩٦م.

www.kalemasawaa.com

موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد السادس

ج٩

شبهات حول الأنبياء والرسل (١)

www.kalemasawaa.com

العنوان:

موسوعة بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد السادس (ج٩، ج١٠)

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 977-14-4243-0
رقم الإيداع: 2010/10896
الطبعة الأولى: يناير 2011

دار نهضة مصر للنشر
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

www.kalemasawaa.com

المحتويات

- الشبهة الرابعة والستون ٥

ادِّعاء أن داود عليه السلام خائن وسفَّاك للدماء

- الشبهة الخامسة والستون ١٠

ادِّعاء طمع داود عليه السلام في زوجة قائد جيشه، والتآمر على قتله

- الشبهة السادسة والستون ١٤

ادِّعاء خطأ داود في حُكْمِه في قضية الحَرْث والغنم

- الشبهة السابعة والستون ١٨

الزعم أن داود عليه السلام قد حكم ظلمًا بين المتخاصمين لديه؛ لاستغفاره بعد الحكم

- الشبهة الثامنة والستون ٢٤

الزعم أن سليمان عليه السلام ثمرة زنا

- الشبهة التاسعة والستون ٣١

ادِّعاء أن سليمان عليه السلام ليس نبيًّا، وأنه ساحر

- الشبهة السبعون ٣٧

الزعم أن سليمان عليه السلام غفل عن ذِكْر ربه

- الشبهة الحادية والسبعون ٤١

الزعم أن سليمان عليه السلام قد فتن افتتانًا لا يليق بنبوته

- الشبهة الثانية والسبعون ٤٧

ادِّعاء كفر سليمان عليه السلام وعبادته الأصنام

- الشبهة الثالثة والسبعون ٤٩

الزعم أن سيدنا سليمان بن داود عليه السلام هو الذي بنى حائط المبكى

- الشبهة الرابعة والسبعون ٥٨

ادِّعاء خطأ القرآن في ذكر قصة وفاة سليمان عليه السلام

www.kalemasawaa.com

- الشبهة الخامسة والسبعون ٦٠

ادِّعاء أن العُزَيْر عليه السلام ابن الله

- الشبهة السادسة والسبعون ٦٣

ادِّعاء خطأ القرآن في ذكر أسماء لا وجود لها ؛ مثل : عزير

- الشبهة السابعة والسبعون ٦٦

ادِّعاء خلط القرآن بين هاجر أم إسماعيل، ومريم أم عيسى

- الشبهة الثامنة والسبعون ٧٢

توهم خطأ القرآن في تسمية مريم "أخت هارون"

- الشبهة التاسعة والسبعون ٧٤

ادعاء خطأ القرآن في عدم ذكر سبب انتباذ مريم العذراء

- الشبهة الثمانون ٧٧

التشكيك في صيام مريم العذراء

- الشبهة الحادية والثمانون ٧٩

التشكيك في مادة خَلْق المسيح عليه السلام

- الشبهة الثانية والثمانون ٨٣

دعوى تناقض القرآن حول تصوره للمسيح عليه السلام

- الشبهة الثالثة والثمانون ٩٣

إنكار تكلُّم المسيح عليه السلام في المهد

- الشبهة الرابعة والثمانون ٩٦

الزعم أن القرآن ينصُّ على أن المسيح ابن الله

- الشبهة الخامسة والثمانون ١٠١

ادعاء أن بُنوَّة المسيح عليه السلام لله تعالى لا تُنافي التوحيد

- الشبهة السادسة والثمانون ١٠٥

الزعم أن المسلمين يُثبتون العصمة للمسيح وينفونها عن محمد ﷺ

www.kalemasawaa.com

- الشبهة السابعة والثمانون ١٠٨

ادعاء أن القرآن الكريم يقرر ألوهية المسيح عليه السلام

- الشبهة الثامنة والثمانون ١١٨

ادعاء ألوهية عيسى عليه السلام لأنه خالق مثل الله

- الشبهة التاسعة والثمانون ١٢١

ادعاء أن القرآن الكريم أقرَّ أزلية المسيح

- الشبهة التسعون ١٢٣

ادعاء أن عيسى عليه السلام هو الدَّيَّان

- الشبهة الحادية والتسعون ١٢٦

ادعاء أن معجزات عيسى عليه السلام سحر وشعوذة وخداع

- الشبهة الثانية والتسعون ١٢٩

دعوى عدم حسم القرآن مسألةَ صَلْب المسيح عليه السلام

- الشبهة الثالثة والتسعون ١٦٢

دعوى صَلْب المسيح عليه السلام فداءً للبشر

- الشبهة الرابعة والتسعون ١٧٨

ادِّعاء أن القرآن والإنجيل يثبتان أفضلية المسيح عليه السلام على محمد ﷺ

- الشبهة الخامسة والتسعون ١٨٥

توهُّم وقوع النقص والخلل في القرآن الكريم؛ لعدم إشارته إلى كتب بعض الأنبياء والرسل

- الشبهة السادسة والتسعون ١٨٨

الزعم أن القرآن لا يُراعي الفوارق الزمنية بين الأنبياء والرسل

- الشبهة السابعة والتسعون ١٩٠

الزعم أنه لا حكمة من إرسال الرسل والأنبياء

- الشبهة الثامنة والتسعون ١٩٧

ادعاء تناقض القرآن حول تفضيل بعض الرسل على بعض

www.kalemasawaa.com

- الشبهة التاسعة والتسعون ٢٠٢

ادعاء أن الرسل ينبغي ألا يأكلوا أو يتزوَّجوا؛ لأن هذا نقص في حقهم

- الشبهة المائة ٢١٠

دعوى ردّ ما جاء به الأنبياء والرسل؛ لعدم حاجة البشرية إليه

- الشبهة الحادية بعد المائة ٢١٦

الزعم أن حمارًا أفضل من نبي

- الشبهة الثانية بعد المائة ٢٢٠

ادِّعاء أن الأنبياء غير معصومين لوقوعهم في بعض الذنوب

- الشبهة الثالثة بعد المائة ٢٣٢

ادعاء أن القرآن يأتي بأحداث لا وجود لها في الحقائق التاريخية

محمد رسول الله ﷺ ٢٣٥

المصادر والمراجع ٢٤٥

www.kalemasawaa.com

الشبهة الرابعة والستون

ادِّعاء أن داود عليه السلام خائن وسفَّاك للدماء(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن داود عليه السلام كان خائنًا وسفَّاكًا للدماء، ويستدلون على ذلك بما فعله مع الفلسطينيين الذين أذلهم؛ حتى إنهم كانوا يقدمون له الهدايا؛ اتقاءً لشرِّه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) حديث القرآن الكريم، والسنة المطهرة عن النبي داود عليه السلام حديثٌ صادقٌ؛ آية صدقه أنه يُقَدِّر الأنبياء ويضعهم في منازلهم من التقوى والورع؛ لأنهم هم المصطفَون الأخيار، والطعن فيهم طعن فيمن اصطفاهم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

٢) من يُطالع الكتاب المقدس يجد تناقضًا كبيرًا حول قصة داود عليه السلام؛ مما يؤكد عدم صحة ما جاء في هذا الكتاب عنه.

٣) حديث الكتاب المقدس عن الأنبياء فيه تطاولات وافتراءات لا يمكن تصديقها في جانب خير خلق الله تعالى، أولئك الذين زكَّاهم الله واصطفاهم.

التفصيل:

أولا. حديث القرآن الكريم والسنة عن داود عليه السلام صادقٌ؛ لأنهما وحي من قبل الله تعالى:

لقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن صفات نبي الله داود عليه السلام الحميدة وأخلاقه الكريمة، وحديث القرآن يدفع كل شبهة تُثار عن مثل هذا النبي الكريم، الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض؛ ليحكم بين الناس بما أمر الله تعالى به، وكان مما ذكره القرآن الكريم عنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ (البقرة)، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: آتى الله نبيه داود الْمُلْكَ الذي كان بيد طالوت، والحكمة؛ أي: النبوة بعد شمويل، وعلمه مما يشاء من العلم الذي اختصه به، وهو العلم الذي ينبغي أن يعلمه الأنبياء ـ عليهم السلام ـ[1].

وقال تبارك وتعالى عنه أيضًا: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنبياء)، فهل يمكن بحال تصديق مثل هذه الافتراءات في حق نبي سخر الله تعالى الجبال والطير معه؟!

وقال تعالى أيضًا: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾

(*) بنو إسرائيل من التاريخ القديم حتى الوقت الحاضر، د. حمد الحسيني، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ، ج١، ص٣٠٣.

www.kalemasawaa.com

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ (ص)، فهذه الصفات التي وصف بها النبي داود عليه السلام لا يمكن أن يتأتى معها ارتكابه للمنكرات، فقد وصفه الله تبارك وتعالى بعدة صفات؛ منها:

- **ذو الأيد**: أي: القوة، ويقصد بها القوة في الدين، والعزم الشديد على أداء الواجبات، وترك المنكرات.
- **أوّاب**: أي: الرَّجَّاع الذي يكثر من ذكر الله تعالى.
- **تسخير الجبال والطير معه**: واللائق بتسخير مثل هذه الأشياء لنبي من الأنبياء أن يشكر الله تعالى عليها ويبتعد عن الهوى.
- **وشددنا ملكه**: أي: شددنا ملكه في أمور الدين والدنيا.
- **آتيناه الحكمة**: والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علمًا وعملًا.
- **فَصْل الخطاب**: قال ابن عباس: بيان الكلام؛ أي: معرفة الفرق بين ما يلتبس في كلام المخاطبين له من غير صعوبة في ذلك. ومن كان هذا شأنه، كيف يجور على إنسان بريء، ويهضم حقه ويظلمه لمصلحة نفسه[1]؟!

وقد جاء نص من الله تبارك وتعالى يأمر فيه نبيه محمد ﷺ أن يتبع الرسل من قبله، ومن ضمن هؤلاء نبي الله داود عليه السلام، قال الله عز وجل: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنعام)، فكيف يأمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يتبع الرسل ويقتدي بهم، وهم - كما يدعي هؤلاء - يرتكبون المعاصي والمنكرات؟! هذا حديث القرآن عن سيدنا داود عليه السلام.

وإذا نظرنا في سُنَّة رسول الله ﷺ نجد فيها كثيرًا من الأحاديث التي تمدح أفعال داود عليه السلام؛ من هذا قول رسول الله ﷺ: "ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"[2]، وكانت عبادة داود عليه السلام من أفضل العبادات التي يقوم بها المؤمن تجاه ربه؛ لذلك مدحها رسول الله ﷺ حين قال: "أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه"[3].

وعلى هذا الأساس نجد أن الله عز وجل قد تكفَّل بالرد على الذين يتهمون داود عليه السلام ظلمًا وزورًا، فإن الذي يستحق الزلفى وحسن المآب - كما جاء في القرآن - هو الذي يفعل الطاعة لا المعصية، والذي يجب أن يُقتَدى به هو الذي يطيع الله ولا يعصيه، والذي يُمدح من قِبَل خير خلق الله تعالى - وهو رسول الله ﷺ - هو من كان يعمل الأعمال الصالحات لا المنكرات، وكان مُزكًّى من قِبَل الله عز وجل؛ لأنه ﷺ لا ينطق إلَّا عن

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشُّبَه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص١٨٢.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٦).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام (٣٢٣٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر (٢٧٩٦).

www.kalemasawaa.com

وَحْي في مثل هذا.

ثانيًا. من يطالع الكتاب المقدس، يجد تناقضًا حول قصة داود عليه السلام؛ مما يؤكد عدم صحة ما جاء في هذا الكتاب عنه عليه السلام:

من يطالع نصوص الكتاب المُقدَّس الذي جاء فيه ذُمَّ داود عليه السلام يجد فيه أيضًا دليل كذب هذا الافتراء، حيث نجد فيه نصوصًا تؤكد على فضل داود ومكانته العالية عند الله تعالى، فكيف يُحتَج بكتاب يوجد فيه الشيء ونقيضه في وقت واحد؟!

ففي جانب ذم داود نجد الكتاب المقدس يقول: "قام داود وذهب هو ورجاله، وقتل من الفلسطينيين مائتي رجل، وأتى داود بغُلَفِهم[1] فأكملوها للمَلِك لمصاهرة الملك". (صموئيل الأول ١٨: ٢٧).

ويروى في الكتاب المقدس أن داود عليه السلام رَقَص حتى كُشفت عورته، عندما فرح باسترجاع التابوت من الفلسطينيين، واحتقرته امرأته لهذا الفعل، ونصُّ ذلك يقول: "وكان داود يرقص بكل قُوَّته أمام الرب. وكان داود مُتَنَطِّقًا بأَفُودٍ من كِتَّان. فأصعد داود وجميع بيت إسرائيل تابوت الرب بالهُتاف وبصوت البُوق. ولما دخل تابوت الرب مدينة داود، أشرفت ميكال بنت شاول من الكُوَّة، ورأت الملك داود يَطْفُر ويرقص أمام الرب، فاحتقرته في قلبها". (صموئيل الثاني ٦: ١٤ ـ ١٦).

ومن المنكرات التي تنسب لنبي الله داود عليه السلام زواجه من امرأة أحد رجاله، وقيامه بفاحشة الزنا معها، وإرسال زوجها إلى ساحة الحرب حتى يلقى حتفه، يقول الكتاب المقدس: "وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت المَلِك، فرأى من على السطح امرأة تستحمُّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: «أليست هذه بَثْشَبَع بنت أَلِيعام امرأة أُورِيَّا الحِثِّيّ؟»». فأرسل داود رُسُلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مُطهَّرة من طَمْثِها. ثم رجعت إلى بيتها. وحَبِلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود، وقالت: «إني حُبْلَى». فأرسل داود إلى يوآب يقول: «أرسل إليَّ أُورِيَّا الحثي». فأرسل يوآب أوريا إلى داود. فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب. وقال داود لأوريا: «انزل إلى بيتك واغسل رجليك». فخرج أوريا من بيت الملك، وخرجت وراءه حِصَّة من عند الملك. ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داود قائلين: «لم ينزل أوريا إلى بيته». فقال داود لأوريا: «أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟» فقال أوريا لداود: «إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟ وحياتك وحياة نفسك، لا أفعل هذا الأمر». فقال داود لأوريا: «أقم هنا اليوم أيضًا، وغدًا أُطْلِقك». فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده. ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل. وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب، وأرسله بيد أوريا. وكتب

١. الغُلْفَة: الجلدة التي تُقْطع للخِتان.

www.kalemasawaa.com

في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت". (صموئيل الثاني ١١: ٢ــ ١٥)، "يا لها من خيانة عُظْمَى أن يُضحِّي القائد بجُنْده من أجل خِسَّته ونَذالته، وزناه مع امرأة أحد جنوده الشرفاء، الذي ضنَّ على نفسه بالتَّنعُّم في فراشه، وأبى إلَّا أن يبيت الليل على باب نبي الله وقائده الأعلى لحراسته، ثم يتخلص منه نبي الله ويقتله!، أين القدوة التي أتى بها هذا النبي ـ على زعمكم ـ لشعبه"[1]؟

أما عن جانب مدح داود عليه السلام في الكتاب المقدس فنجد أيضًا العديد من النصوص التي جعلت من داود مثلًا أعلى ومقياسًا يُقاس عليه ملوك بني إسرائيل، فقد ذكرت الأسفار أن الله لم يُمَيِّز ملك سليمان عليه السلام إكرامًا لأبيه داود، الذي حفظ وصايا الله، فتقول: "ولا آخذ كل المملكة من يده، بل أُصَيِّره رئيسًا كل أيام حياته؛ لأجل داود عبدي الذي اخترته، الذي حفظ وصاياي وفرائضي". (الملوك الأول ١١: ٣٤).

ويؤكد الكتاب المقدس استقامة داود على فرائض الله، ويعتب على سليمان أنه لم يكن مثل أبيه الذي اتبع أوامر الله بالتمام، فتقول: "عَمِل سليمان الشرَّ في عَيْنَي الرب، ولم يَتْبَع الرب تمامًا كداود أبيه". (الملوك الأول ١١: ٦).

فهل بعد ما ذكرناه من نصوص الكتاب المقدس الذي يؤمنون به يمكن التسليم لهذه الافتراءات على رسول من أفضل الرسل في الطاعة والعبادة والعمل؟!

ثالثًا. حديث الكتاب المقدس عن الأنبياء فيه العديد من التطاولات والافتراءات التي لا يمكن تصديقها في جانب الأنبياء خير خلق الله ﷻ:

لم يقتصر اتهام الكتاب المقدس للأنبياء على النبي داود عليه السلام فقط؛ بل يتعداه إلى غيره من الأنبياء الذين شهد لهم القرآن الكريم بالأفضلية حين قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنعام).

ومن هذه الافتراءات ما يلي:

١. الأنبياء كَذَبَة:

نجد ذلك على لسان إبراهيم عليه السلام في الكتاب المقدس: "وحَدَث لما قَرُب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته فيقتلونني ويَسْتَبْقونك، قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفس من أجلك". (تكوين ١٢: ١١ ـ ١٣).

٢. الأنبياء كَفَرَة:

جاء عن سليمان عليه السلام ما نصُّه: "وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أَمَلْنَ قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملًا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عَشْتُورَث إلهة الصِّيدُونيِّين ومَلْكُوم رِجْس العَمُّونيِّين". (الملوك الأول ١١: ٤ ـ ٦).

٣. الأنبياء زُناة:

جاء عن لوط عليه السلام في الكتاب المقدس ما يلي: "وصعد لوط من صُوغَر وسكن في الجبل، وابنتاه معه،

١. البهريز في الكلام اللي يغيظ، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص٢٨٨.

www.kalemasawaa.com

لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البِكْر للصغيرة: «أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلمَّ نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنُحْيِي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: «إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه، فنُحْيِي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحَبِلَت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنًا ودَعَت اسمه «مُوآب»، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضًا ولدت ابنا ودعت اسمه «بن عَمِّي»، وهو أبو بني عَمُّون إلى اليوم". (تكوين ١٩: ٣٠ ـ ٣٨).

فإبراهيم عليه السلام في الكتاب المقدس يكذب حتى يفدي نفسه من الموت، وسليمان كفر بالله عز وجل بتأثير من زوجاته لكبر سنِّه، ولوط زنا بابنتيه دون علمه متأثرًا بالخمر، وداود يقتل ويغتصب النساء دون وجه حق، وسليمان ولد زنا، وغير هذا العديد والعديد من الأكاذيب والأباطيل التي نسبت إلى خير خلق الله على وجه الأرض، الذين أرسلهم الله تعالى لهداية العالمين، فإن فعلوا مثل هذه المنكرات، فما هو الحال مع أتباعهم الذين أرسلوا لهدايتهم؟ وكيف يكونون قدوة لأقوامهم؟ وما موقف ذلك من عصمة الأنبياء التي نص عليها القرآن الكريم؟ فهل بعد هذا يمكن تصديق ما جاء في الكتاب المقدس؟! وهل بعد كل هذا نَعُدُّ هذا الكتاب مصدرًا من مصادر المعلومات والأخبار التي نعتمد عليها في إطلاق الأحكام ووصف الناس[1] ®؟

الخلاصة:

- داود عليه السلام نبي من أنبياء الله، وهم معصومون من الخطأ والكذب، وذلك بنص القرآن، فكيف يفعل داود ـ مع عصمته ـ ما نسب إليه من منكرات ؟!
- لقد خصَّ الله تعالى داود عليه السلام بالعديد من الصفات التي قل أن نجد مثلها في واحد من البشر، وأكد النبي ﷺ على أن عبادة داود هي أفضل العبادات، وصيامه هو أفضل الصيام، وهذا تفضيل من الله ورسوله ﷺ لنبي الله داود، فكيف يكون بمثل هذه الصفات الحميدة، وتصدر عنه هذه الأعمال المنكرة ؟!
- لقد تناقضت نصوص الكتاب المقدس حول داود، فتارة تَصِف داود بعدَّة صفات خبيثة، مثل: الزنا والقتل، وتارة أخرى تصفه بصفات الكمال، وتجعل منه مثلًا أعلى يحتذى به، وتجعل منه مقياسًا يُقاس عليه ملوك بني إسرائيل، فكيف نُقر بما جاء في هذا الكتاب المقدس في نظرهم وهو يحوي هذا التضارب المُشين ؟!
- من يقرأ الكتاب المقدس يجد فيه العديد من الأعمال المنكرة المنسوبة إلى أنبياء الله عز وجل، من ذلك

---

١. انظر: محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مطابع الوليد، القاهرة، ٢٠٠٣م.

® في "مقام النبوة في التوراة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة عشرة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١). والوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان). وفي "مقام الأنبياء بين القرآن والتوراة" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

www.kalemasawaa.com

كذب إبراهيم عليه السلام؛ لكي يفدي نفسه من القتل، وكفر سليمان عليه السلام بسبب اتباع أزواجه، وزنا لوط عليه السلام بابنتيه متأثرًا بالخمر، وقتل داود عليه السلام وسفكه الدماء واغتصابه النساء، وغير ذلك كثير؛ كيف يمكن أن نصدق مثل هذه الأكاذيب والأباطيل في حق أفضل خلق الله على وجه الأرض، الذين أمر الله عز وجل رسوله محمد ﷺ باتباع هداهم حين قال عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠)؟!

الشبهة الخامسة والستون

ادِّعاء طمع داود عليه السلام في زوجة قائد جيشه، والتآمر على قتله (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن داود عليه السلام أُعْجب بزوجة قائد جيشه، فَزَجَّ به في مقدمة الجيش؛ حتى يُقْتل، فيظفر بزوجته، ويضمها إلى نسائه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ألصقت التوراة بداود عليه السلام نقائص يَأْبى كثير من عامة الناس أن يرتكب بعضها، فكيف يأتيها نبي اصطفاه ربه واختاره ليصلح به المفسد؟!

٢) الآيات التي سبقت قصة الخَصْمين اللَّذَيْن تَسَوَّرا المحراب، والآيات اللاحقة لها، تقضي للنبي داود عليه السلام بالبراءة مما نُسب إليه مما لا يليق بنبي من أنبياء الله عز وجل.

٣) لم يَرِدْ حديث صحيح عن رسول الله ﷺ يجب اتباعه فيما نُسب إلى داود عليه السلام من التآمر لقتل قائد جيشه والظفر بزوجته.

التفصيل:

أولا. ألصقت التوراة بداود عليه السلام نقائص يأبى كثير من عامة الناس أن يرتكب بعضها، فكيف يرتكبها نبي اصطفاه ربه واختاره؟!

من أَجَلِّ الأعمال وأعظمها مثوبة عند الله الجهاد في سبيله والقتال لإعلاء كلمته، ولا أقل من أن يكافأ المجاهد ـ الذي باع نفسه لله ـ بتوفير الأمن لأهله، والحفاظ على عرضه. ولكن العهد القديم ينسب إلى داود عليه السلام أنه لم يراع أقل واجب نحو مجاهد مخلص لدينه وأمته، بل جازاه بالتي هي أسوأ؛ حيث خانه في عرضه، واعتدى على شرفه؛ ولم يكتف بذلك، بل كاد له ليُقْتَل من أجل الظفر بامرأته، والاستيلاء على زوجته.

من يقرأ القصة التي أوردتها التوراة عن سيدنا داود وقائد جيشه نجد أنها تلصق بداود عليه السلام عدة نقائص:

- النظر إلى امرأة غيره، فضلًا عن كونها عارية.
- حسد زوجها عليها.
- الزنا بها.
- سقي زوجها خمرًا.
- التسبب في قتله، وقتل بعض الجنود معه.

وهذه الذنوب يأبى كثير من عامة الناس أن يرتكب بعضها، فما بالك بها جميعًا إذا صدرت من نبي اصطفاه ربه واختاره ليصلح به المفسد، ويقوِّم به

(*) عصمة الأنبياء، الرازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.

www.kalemasawaa.com

المعوجَّ، إن هذا غير معقول!! كما أنه ليس من المعقول كذلك أن يكون العقاب الذي عاقب به الرب داود عليه السلام ـ كما أوردت التوراة ـ هو تسليط أبشالوم بن داود على نساء أبيه يزني بهن، ويَهْتِك أعراضهن علانية أمام جميع بني إسرائيل كما زعم ذلك سفر صموئيل الثاني: "فقال ناثان لداود: «أنت هو الرجل! هكذا قال الرب إله إسرائيل: أنا مَسَحتك ملكًا على إسرائيل، وأنقذتك من يد شاول، وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حِضْنِك، وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا. وإن كان ذلك قليلًا، كنت أزيد لك كذا وكذا. لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشرَّ في عينيه؟ قد قَتَلْتَ أُورِيَّا الحِثِّي بالسيف، وأخذت امرأته لك امرأة، وإياه قتلت بسيف بني عَمُّون. والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة. هكذا قال الرب: هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك، فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس. لأنك أنت فعلت بالسر، وأنا أفعل هذا الأمر قُدَّام جميع إسرائيل وقدام الشمس». فقال داود لناثان: «قد أخطأت إلى الرب». فقال ناثان لداود: «الرب أيضًا قد نقل عنك خطيتك. لا تموت. غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يَشْمَتون، فالابن المولود لك يموت»". (صموئيل الثاني ١٢: ٧ ـ ١٤).

بَيْدَ أن السؤال المطروح الآن على أولئك المؤمنين بهذا الكتاب المقدس هو: ما عقوبة الزاني عندكم؟ أليس هو الرجم؟ يقول الكتاب المقدس: "وإذا زَنَى رجل مع امرأة، فإذا زنى مع امرأة قريبه، فإنه يُقتل الزاني والزانية. وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه، فقد كشف عورة أبيه. إنهما يقتلان كلاهما. دمهما عليهما". (اللاويين ٢٠: ١٠ ـ ١٢)، ولماذا لم يُنفَّذ هذا الحد فيه لو صحَّ وقوع هذه الجريمة منه؟ ومن ثم فعدم تطبيق حد الفحشاء على سيدنا داود عليه السلام ـ وحاشاه ذلك ـ دليل على كذب دعواهم وبطلان افترائهم.

ولذا فإن ما ينسب إلى داود عليه السلام كذب وافتراء، إذ لا يليق بنبي من أنبياء الله أن يطمع في امرأة متزوجة، ويتحايل في ضمها إلى ما عنده من نساء، لا شك أن داود عليه السلام يستحي من ربه أن يراه طامعًا في امرأة متزوجة، ويستحي من الناس أيضًا أن يجدوا نبيهم الذي يدعوهم إلى القناعة، وملكهم الذي يزجرهم عن الاعتداء على حقوق الآخرين غير قنوع وغير مراعٍ حقوق غيره. ومعلوم أن الله ﷻ ملأ قلوب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ غنى وقناعة بما عندهم[1].

ثانيًا. الآيات السابقة واللاحقة لقصة الخَصْمَيْن تقضي لداود عليه السلام بالبراءة مما نُسِب إليه:

وذلك من عدة أوجه هي:

١. أنه قَبْل ذِكْر نبأ الخصم أمر الله تبارك وتعالى نبينا محمدًا ﷺ أن يصبر على ما يفتريه عليه كفار مكة، وأن يقتدي بداود وغيره من الرسل في الصبر على مشاق تبليغ الدعوة: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ (ص). ولو أن داود عليه السلام ارتكب الكبائر ما أُمر نبينا ﷺ بالاقتداء به في الصبر؛ إذ كيف يقتدي في الصبر بمن لم يصبر عن المعصية؟!

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢١٤: ٢١٨ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

٢. أنه لو صحَّت هذه الحادثة يكون داود عليه السلام باحتياله على قتل أوريا قاتلًا له، ولو كان هذا لندم داود واستغفر منه، والقرآن لم يَحْكِ له استغفارًا من قتل أوريا. وإنما استغفاره ـ على فرض صحة هذه الحادثة ـ من الاستيلاء على زوجته، فهل يُترك الاستغفار من الذنب الأشد، ويستغفر مما هو أقل منه؟!

٣. أن الله عز وجل مدح داود عليه السلام قبل ذِكْر الخَصْمَين اللذين تسورا المحراب بأوصاف حميدة لا يتناسب أبدًا معها صدور هذه المعصية منه عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ (ص). ومن كان بهذه الصفات لا يجور على إنسان ولا يهضم حقه.

٤. ما ذُكِر بعد قصة نبأ الخصمين يدل على براءة ساحة نبي الله داود عليه السلام مما نُسب إليه؛ إذ إن داود قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (ص: ٢٤)، فاستثنى الذين آمنوا من البَغْي، ولو كان مرتكبًا ما ذكرته القصة لكان باغيًا، فيلزم الحكم على نفسه بعدم الإيمان ـ أو نقصه ـ ولا يجوز هذا على نبي. وقال الله تبارك وتعالى في حقه أيضًا: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ (ص)، فهذا إنما يستقيم لمن يفعل المأمورات، ويجتنب المنهيات، أما من يسعى في قَتْل غيره والعدوان عليه في زوجته، فلا يستحق القُرْبَى وحُسْن المَرْجِع في الجنة؛ إذ كيف يبتعد عن الله بمعصيته ويزيده الله رِفْعَة ومَثوبة؟!

٥. قبل هذه القصة صفات مدح، فلو كانت تقتضي الذم؛ لاختلط المدح بالذم بطريقة لا تتفق وما عرف عن القرآن الكريم من حسن الترتيب، وروعة التنسيق. ومن هذا يتضح بطلان القصة ـ على النحو السابق ـ ويتعين براءة داود عليه السلام مما نسب إليه فيها[1].

ثالثًا. لم يثبت عن النبي ﷺ ـ فيما نُسب إلى داود ـ حديث يجب اتباعه وتصديقه؛ ولذا لم يذكر هذه القصة أحد من أصحاب الكتب الستة:

لم يثبت في أيّ من كتب السنة الصحيحة خبر يؤكد هذه القصة المُفْتَراة، أما الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم فغير صحيح السَّنَد؛ لأن في إسناده ابن لَهِيعة، ويزيد الرَّقاشيّ وكل منهما ضعيف؛ قال السيوطي: "القصة التي يحكونها في شأن المرأة، وأنها أعجبته، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ـ أخرجها ابن أبي حاتم من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا، وفي إسناده ابن لهيعة ـ وحاله معروف ـ عن ابن صخر عن يزيد الرقاشي، وهو ضعيف، وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفًا".

وعلى هذا يكون من ذكرها من المفسرين إنما أخذها عن الإسرائيليات. قال ابن كثير: "قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثًا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرَدَّ علمها إلى

١. المرجع السابق، ص٣٥٦، ٣٥٧.

www.kalemasawaa.com

الله ﷻ؛ فإن القرآن حق، وما تضمنه حق أيضًا. وما ذُكر موقوفًا منها على بعض الصحابة ـ كابن عباس ـ فلا يُستبعد ـ لو صحَّ السند إليه ـ أنه أخذه عن التوراة، أو عمن حكى عنها". وجدير بالذِّكر أن اليهود يتعمَّدون هذا في حق داود عليه السلام؛ ليصلوا من ذلك إلى الطعن في عيسى عليه السلام؛ لأنه من ذريته. قال البقاعي في تفسيره: "وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود، وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام؛ لأن عيسى ابن مريم عليه السلام من ذريته؛ ليجدوا سبيلًا إلى الطعن فيه".

وعلى هذا فهذه القصة لم ينص الله ﷻ في القرآن عليها، ولم تَرِد عن نبينا ﷺ في حديث صحيح ولا حسن، فهي مُختَلقة مُفْتَراة للنَّيل من داود عليه السلام، فلا يصح أن ننخدع بها، وإنما نشدِّد على مَنْ يُرَوِّجها ويُشيعها، كما فعل علي رضي الله عنه. قال أبو السعود: "وأما ما يُذكر من أن داود عليه السلام دخل ذات يوم محرابه.. إلى آخر القصة ـ فإفك مُبْتَدع مكروه، ومَكْر مُخْتَرع مكروه، تمجُّه الأسماع، وتنفر عنه الطباع، ويل لمن ابتدعه وأشاعه، وتبًّا لمن اخترعه وأذاعه؛ ولذلك قال علي رضي الله عنه: من حدَّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القُصَّاص جَلدتُه مائة وستين، وذلك حدُّ الفِرْيَة على الأنبياء[1].

وأما من ناحية المضمون: فهذه القصة تضمنت نسبة هذه المعاصي الكبيرة إلى داود عليه السلام:

- نظره إلى زوجة رجل آخر بقصد سيّء.
- حسده الرجل على زوجته، والرغبة فيها لنفسه.
- الاحتيال لقتل زوجها حتى قتل بغير حق.

وقد قامت الأدلة العقلية والنقلية على عصمة الأنبياء من الكبائر، مما يحكم بالبطلان على أي قصة تتضمن وقوع كبيرة من أحدهم.

وتأسيسًا على ما سبق نخلص إلى نتيجة مُفادها أن داود عليه السلام بريء مما نسبه إليه اليهود من المعاصي والأفعال السيئة، والشواهد التي سبقت والأدلة العقلية كذلك خير من يبرئ ساحة هذا النبي النقي الأوَّاب.

الخلاصة:

- ألصقت التوراة بداود عدَّة نقائص هي: النظر إلى امرأة غيره وهي عارية، وحسد زوجها عليها، والزنا بها، وسقاية زوجها خمرًا، والتسبُّب في قتله، وقَتْل بعض الجنود معه، وهذه الذنوب يأبى كثير من عامة الناس أن يرتكب بعضها، فكيف يأتيها نبي اصطفاه ربه واختاره؛ ليُصْلِح به المفسد ويُقوِّم به المُعْوَجَّ؟!
- الآيات التي سبقت قصة الخَصْمَين اللَّذَين تسوَّرا المحراب، من أمر النبي محمد ﷺ أن يصبر على ما يفتريه عليه كفار مكة، وأن يقتدي بداود وغيره من الرسل في الصبر، تدل دلالة عقلية على كذب وافتراء القوم، وبطلان ادعائهم، وأن القرآن لم يحك له استغفارًا مِنْ قتل أوريَّا، وأن الله ﷻ مدحه بصفات حميدة لا يتناسب معها صدور هذه المعاصي.
- لم ينص الله ﷻ في القرآن الكريم، ولم ترد عن نبينا ﷺ في حديث صحيح ولا حسن، قصة داود وامرأة أوريَّا، فهي ـ إذن ـ مختلقة للنَّيل من نبي الله

١. المرجع السابق، ص٣٥٣: ٣٥٥.

www.kalemasawaa.com

داود عليه السلام، وهذه القصة تضمنت نسبة هذه المعاصي الكبيرة إلى داود عليه السلام، وقد قامت الأدلة العقلية والنقلية على عصمة الأنبياء من الكبائر.

الشبهة السادسة والستون

ادِّعاء خطأ داود في حُكْمِه في قضية الحَرْث والغنم(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن داود عليه السلام أخطأ في حكمه في قضية الحرث والغنم، وأن ابنه سليمان عليه السلام قضى بعده فأصاب القضاء، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنبياء). ويتساءلون: كيف يتناسب الاجتهاد الخاطئ في الحُكْم مع ما يتصف به الأنبياء من العصمة؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) قضاء داود عليه السلام بإعطاء الغنم لصاحب الحرث قضاء صائب؛ لأن الغنم أفسدت الحرث، ولا يعد حكمه خطأ ألبتة.

٢) قضاء سليمان عليه السلام بانتفاع صاحب الحرث بمنافع الغنم حتى تبلغ قيمة ما أفسدته، ثم تُردُّ الغنم إلى صاحبها، غير متعارض مع حكم داود عليه السلام ولكلٍّ سنده من فقه الواقع.

٣) داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ اجتهدا في الحكم، واجتهادهما مُزَكًّى بتوفيق الله، وكلاهما أصاب، ولكل أجره، لا سيما أنهما نبيَّان.

التفصيل:

أولا. قضاء داود عليه السلام بإعطاء الغنم لصاحب الحرث قضاء صائب:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ۖ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ (الأنبياء): أنَّ رجلين دخلا على نبي الله داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا أرسل غنمه في حرثي، فلم تُبق من حرثي شيئًا. فقال له داود عليه السلام: اذهب فإن الغنم كلها لك، فقضى بذلك داود، ومَرَّ صاحب الغنم بسليمان عليه السلام، فأخبره بالذي قضى به داود، فدخل سليمان على داود ـ عليهما السلام ـ فقال: يا نبي الله، إن القضاء سوى الذي قضيتَ. فقال: كيف؟ قال سليمان: إن الحرث لا يخفى على صاحبه ما يخرج منه في كل عام، فله من صاحب الغنم أن ينتفع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث، فإن الغنم لها نسل في كل عام. فقال داود: قد أصبتَ، القضاء كما قضيتَ، ففهمها الله تعالى سليمان(١).

وروي أن سليمان عليه السلام لما سمع حُكْم داود عليه السلام قال: غير هذا أرفق بالفريقين، فأخبر بذلك داود،

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج١٨، ص٤٧٥، ٤٧٦.

www.kalemasawaa.com

فدعاه، فقال: كيف تقضي؟ ويروى أنه قال: بحق النبوَّة والأبوَّة إلا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين. قال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث، فينتفع بدَرِّها، ونسلها، وصوفها، ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث كهيئته دفع إلى أهله، وأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود: القضاء ما قضيتَ[1]، كما قال الله ﷻ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ (الأنبياء). أي: انتشرت الغنم في الزرع ليلًا بغير راع، فأفسدته على صاحبه، وأكلته "وكنا لحكمهم شاهدين" أي: وكنا لحكم الحاكِمَيْنِ والمتحاكِمَيْنِ إليهما حاضرين بعلمنا؛ فلم يخف علينا الحكم، بل علمناه.

وهذه الحادثة، وإن كان حكم سليمان عليه السلام أرجح من حكم أبيه داود عليه السلام فإن هذا لا يعني خطأ داود في الحكم، ومما يؤيد صحة حكم داود عليه السلام قوله تعالى في ختام الآيات التي حكت تلك القصة: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٩)، وهذا يفيد أن قضاء النبي داود عليه السلام كان عن حكمة وعِلْم.

ذكر الله تعالى بعد ذلك أنه سخر لنبيه داود عليه السلام كثيرًا من المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنبياء). ولا يكون تسخير هذه المخلوقات لداود عليه السلام إلا لاستحقاقه وجدارته بمثل هذا، فلو كان داود عليه السلام أخطأ في حكمه، ما استحق ثناء الله عليه، وإنعامه عليه بما عدده من نعم بعد ذلك. وقد أخرج ابن جرير عن الحسن رضي الله عنه قال: كان الحكم بما قضى به سليمان، ولم يعب داود في حكمه[2].

يتساءل بعض المشككين: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا خصَّ الله تعالى سليمان عليه السلام في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

وجواب ذلك: أن تخصيص سليمان عليه السلام بالذكر في الآية لا يدل على أن داود بخلافه، فإن دليل الخطاب في اللقب لا يُقيّد بإجماع المُحقِّقين؛ أي أن تخصيص سليمان عليه السلام بالذِّكر لا يعني اختصاصه بالفهم والحكمة دون غيره.

كما أن في هذا التخصيص فائدتين هما:

١. أن داود عليه السلام كان متوقِّفًا؛ لتعارض الأمارات، وسليمان عليه السلام لم يكن كذلك، بل كانت الأمارات واضحة جَلِيَّة أمامه، فأصدر حكمه بناءً على هذه الأمارات.

٢. أن داود عليه السلام كان عالمًا بالحكم، لكنه أفتى امتحانًا لابنه سليمان رجاء أن يفتي به ويستخرج حكمه.

وبالنظر إلى هذا التخصيص ـ ذكر سليمان ـ نلحظ أنه كان إقرارًا لعين والده داود، وخاصة أن سليمان أفتى بحكم كان أرفق بالخصمين مما رفع قدره بين الناس، وإنما أعرض القرآن عن ذكر داود عليه السلام للعلم باشتهاره فيما بين الخلق بمعرفة الأحكام، ثم إن الله

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٧١.

٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، ص١٨، ص٤٧٩.

www.kalemasawaa.com

عقب على تخصيص سيدنا سليمان بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنبياء)؛ لئلا يُتوهَّم أنه كان جاهلًا به، وحاكمًا فيه بغير الحق أو الصواب[1].

ثانيًا. قضاء سليمان عليه السلام لا يتعارض مع قضاء داود:

على الرغم من اختلاف حكم داود عليه السلام عن حكم سليمان عليه السلام، إلا أن حُكم كل واحد منهما لم يكن متعارضًا مع الآخر، فكل منهما قد أصاب القضاء، ولكن حكم سليمان عليه السلام كان أكثر صوابًا من حكم أبيه، **ومما يدل على عدم تعارض الحكمين ما يأتي:**

١. أن كل حكم من الحكمين قد وافقه مذهب فقهي من المذاهب الفقهية الإسلامية الأربعة؛ فَوُجِّه قضاء داود عليه السلام بأن الضرر لما وقع بالغنم سُلِّمت بجنايتها إلى المجني عليه، كما قال أبو حنيفة في العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه، وعند الشافعي: يبيعه في ذلك أو يفديه، ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الزرع.

وَوُجِّه قضاء سليمان عليه السلام بأنه جعل الانتفاع بالغنم مقابل ما فات من الانتفاع بالحرث، من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان الذي أصابه.

ومن هذا القبيل ما قاله أصحاب الشافعي فيمن غصب عبدًا، فأَبَق من يده، فله أن يضمن القيمة، فينتفع بها المغصوب منه مقابل ما فوَّته الغاصب من منافع العبد، فإذا ظهر العبد تراضَيا.

وحكم هذه المسألة في شريعتنا أن يضمن أصحاب الماشية قيمة ما أتلفته مواشيهم ليلًا؛ إذ المعتاد ضبط الدواب ليلًا، كما قضى النبي ﷺ، لما دخلت ناقة البراء حائطًا وأفسدته، فقال: "على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل الماشية حفظها بالليل". وعلى هذا، فإن كلًّا من الحُكْمَيْنِ له أصل شرعي يستند إليه، ومن ثم فلا تعارض بينهما، وإنما هو اختلاف وارد، لا يمنع صحة الحُكْمَيْنِ.

٢. قضاء نبي الله سليمان عليه السلام كان أرفق بالفريقين من قضاء أبيه داود، وأحسن ما قيل في تفسير حكم داود وحكم سليمان أنهما ليسا حُكْمَيْنِ مُتَعَارِضَيْنِ، فقضاء داود بإعطاء الغنم لصاحب الحرث؛ لأنه قوَّم الغنم والكَرْم ـ أي الحرث ـ الذي أفسدته الغنم، فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم[2].

أما حكم سليمان باستفادة أصحاب الحرث بألبان الغنم وأصوافها، ودفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الحرث إلى حاله التي أصابته الغنم في السنة المقبلة ردَّ كل واحد منهما ماله إلى صاحبه، فكان حكم سليمان هذا بالنظر إلى تساوي قيمة ما أفسدته الغنم بقيمة ما سيستفيده المتضرر من الغنم.

وهكذا قال النحاس: إنما قضى بالغنم لصاحب

---

١. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص١١٩.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٧٣.

www.kalemasawaa.com

الحرث؛ لأن ثمنها كان قريبًا منه، وأما في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم، وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضًا.

وكان حكم سليمان أنفع للطرفين، فلو نفذ حكم داود ـ مع أنه حكم عادل ـ فسيحرم صاحب الغنم من ثروته التي ربما ليس له غيرها، ويوغر صدره على صاحب الحرث وهو يرى غنمه قد آلت إليه، ففائدة صاحب الحرث المتضرر من منتجات الغنم تعويض له، وإعادة زراعة ما تلف من قبل صاحب الغنم المعتدية تأديب له، ورَدُّ كل مال لصاحبه إبقاء لهما معًا، وعودة للوضع إلى ما كان عليه.

وعلى هذا فإنه لا تعارض بين الحُكْمَيْنِ، وإنما كان حكم سليمان عليه السلام أرفق بالفريقين من حكم داود عليه السلام، وقد دلل على هذا سليمان عليه السلام ـ لما سمع حكم داود ـ بقوله: "غير هذا أرفق بالفريقين"، ثم صدَّقه داود عليه السلام بقوله: "القضاء ما قضيت".

ثالثًا. قضاء داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ كان عن اجتهاد:

والسؤال المطروح الآن هو: هل كان قضاء داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ عن اجتهاد منهما، أو عن وحي إلهي؟

ذهب بعض العلماء إلى أن القضاء كان بوحي من الله عز وجل، فقال قوم: كان داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ نبيَّيْن يقضيان بما يُوحَى إليهما، فحَكَم داود بوَحْي، وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود، وعلى هذا "ففهمناها سليمان" أي: بطريق الوحي الناسخ لما أُوْحِي إلى داود، وأمر سليمان أن يبلِّغ ذلك داود؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1].

وقال الجمهور: إن حكمهما كان باجتهاد، إلا أن اجتهاد سليمان أوفق وأرفق، وهذا هو الأرجح.

وهناك عدة أدلة ترجح أن هذا القضاء كان عن اجتهاد؛ وهي:

١. لو كان القضاء بنص عند داود عليه السلام لوجب أن يكون النص الناسخ له نازلًا أيضًا على داود، لا على سليمان عليه السلام.

٢. أن الله عز وجل مدح كلًّا منهما عقب ذلك بقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ولو كان قضاؤهما عن طريق النصِّ، ما استحقا هذا المدح؛ لأن استحقاق المدح إنما يكون على البراعة في الاستنباط، واستخلاص الحُكْم الذي ليس فيه نص.

٣. قول سليمان عليه السلام عن حكم أبيه: "غير هذا أرفق"، وقوله في بعض الروايات: "أرى أن تدفع"، ومناشدة داود لسليمان ـ عليهما السلام ـ إظهار ما عنده، ولو كان عند سليمان نص فيها لأظهره من بادئ الأمر، ولما انتظر مناشدة والده له؛ إذ يَحْرُم كتمان النص، وخاصة عند الحاجة إليه.

٤. أن الظاهر أن سليمان عليه السلام لم يكن نبيًّا وقت هذه الحادثة، وإنما نُبِّئَ بعد ذلك، فقضاؤه كان باجتهاد، وقضاء داود عليه السلام باجتهاد أيضًا؛ لأنه لايجوز نقض حكم النص بالاجتهاد[2].

وبناء على هذا، يُرَجَّح أن قضاء داود وسليمان كان

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م، ج١١، ص٣٠٧ وما بعدها.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبهه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٧٤.

www.kalemasawaa.com

عن اجتهاد منهما، أما القول بأنه عن وحي فهو مستبعد.

الخلاصة:

- إن داود عليه السلام قضى في حادثة الغنم التي نَفَشَت في الحرث فأصاب في حُكمه، ثم قضى ابنه سليمان عليه السلام فخالفه في الحكم، لكنه كان أكثر صوابًا منه.
- يدل على صحة حكم داود عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فهو حكم قد بُني على الحكمة والعلم الذي منحه الله له.
- ويدل عليه أيضًا إخبار الله تبارك وتعالى أنه سخر لنبيه داود عليه السلام ما شاء من المخلوقات؛ كالجبال والطير وغير ذلك، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنبياء)، وهذه النعم لا يهبها الله تبارك وتعالى لأحد من عباده إلا لمن اصطفاهم، وارتضاهم قدوة لعباده.
- إن تخصيص الله لسليمان عليه السلام بالذكر في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ لا يدل على عدم فهم داود عليه السلام؛ وذلك لاختلاف موقف كل منهما، فداود عليه السلام كان متوقفًا لتعارض الأمارات، وسليمان حكم لوضوح الأمارات.
- لم يذكر القرآن الكريم أن داود عليه السلام أخطأ في حكمه، ولم ينتقص من قدره، بل قال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وفي الآية إبراز لبراعة سليمان عليه السلام، وتوفيقه في الحكم الذي يُسْعد والده، ودأبُ الوالد أنه يُحبُّ أن يكون ولده أفضل منه، خاصة أنه سَيرِثه في الحكم: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل).
- حكم سليمان عليه السلام كان أرفق بالفريقين من حكم داود عليه السلام؛ لأنه أبقى على ملكية صاحب الغنم لغنمه، كما عوض صاحب الحرث عما أفسدته الغنم.
- كان قضاء كل من داود وسليمان عليهما السلام عن اجتهاد، وليس عن وحي من الله عز وجل.

الشبهة السابعة والستون

الزعم أن داود عليه السلام قد حكم ظلمًا بين المتخاصمين لديه؛ لاستغفاره بعد الحكم(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن اللَّذَيْن تَسَوَّرا المحراب على داود من الملائكة، أرسلهما الله عز وجل ليعرضا عليه قضية ليس لها وجود حقيقي، وإنما قُصد بها تدريبه على القضاء. ولما حكم النبي داود عليه السلام على المدَّعى عليه ـ قبل أن يسمع منه ـ أدرك أنه امتُحِن بما عُرِض عليه؛ فاستغفر ربه؛ لذا أمره الله عز وجل أن يحكم بين الناس بالحق في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

﴿ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ (ص). ويتساءل هؤلاء: ألا يتنافى هذا مع ما يُقال عن عصمة الأنبياء؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الخصمان اللذان تسورا المحراب على داود عليه السلام كانا من البشر، ولم يكونا من الملائكة.

٢) الخصومة بين الخصمين كانت حقيقية في أغنام لهما؛ لأن القرآن الكريم لا يمكن أن يذكر أشياء لم تقع.

٣) حكم داود عليه السلام كان حكمًا عادلًا، لأنه بُني على مقدمات أدت إليه، ولم يكن مجرد حكم عارٍ من الأدلة.

٤) استغفار داود عليه السلام كان لظنه ـ خطأً ـ أن الرجلين أتيا لقتله.

التفصيل:

أولا. الخصمان اللذان تسورا المحراب على داود عليه السلام كانا من البشر، ولم يكونا من الملائكة:

لا شك أن الادعاء بأن الخصمين من الملائكة يتنافى مع ما ورد في القرآن الكريم، وفي الروايات الصحيحة التي تثبت أن اللذَيْن تسورا المحراب على داود كانا من البشر؛ حيث يقول الله عز وجل: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ (ص).

يقول الإمام الشنقيطي في "أضواء البيان": "قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ قد أمر نبيه داود عليه السلام فيه بالحكم بين الناس بالحق، ونهاه فيه عن اتباع الهوى، وأن اتباع الهوى سبب للضلال عن سبيل الله"[١].

وهناك عددٌ من الروايات التي تؤيد القول بأن الخصمين اللذين تسوَّرا المحراب كانا من البشر، ومنها:

- قول الألوسي ـ رحمه الله ـ: "والذي يذهب إليه ما دلَّ عليه ظاهر الآية من أن المتسورين للمحراب كانا من الإنس، دخلا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظانًّا أنهم يغتالونه..."[٢].
- قول ابن حزم: "كان هذا الخصم قومًا من بني آدم بلا شك مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية. ومن قال: إنهم كانوا ملائكة مُعرِّضين بأمر النساء، فقد كذب على الله عز وجل، وتقوَّل عليه لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وأقر على نفسه الخبيثة أنه كذَّب الملائكة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ (ص:٢١) فقال هو: أي من ادعى أنهم ملائكة، لم يكونا قط خصمين، ولا بغى بعضهما على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجة واحدة، ولا قال له: اكفلنيها؛ فاعْجَبوا لما يقحم فيه أهل الباطل أنفسهم، ونعوذ بالله من الخِذْلان، ثم كل ذلك بلا دليل"[٣].

فالحق الواضح ـ عند المحققين ـ إذن أن الخصمين

---

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٢م، عند تفسير الآية.

٢. روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت، ج٣، ص١٨٥.

٣. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص١١٥.

www.kalemasawaa.com

كانا رجلين من بني البشر، وهو ما يدل عليه ظاهر الآيات الكريمة.

ثانيًا. الخصومة كانت حقيقية، وليست مفتعلة:

بناءً على ما سبق إثباته من أن الخصمين كانا من بني البشر، فإن الخصومة التي كانت بينهما لا شك حقيقية على أغنام لهما، وليس كما قيل من أنها كانت خصومة وهمية أراد بها الملكان تدريب داود عليه السلام على القضاء، فلا يحكم بين المتخاصمين من الناس بعد ذلك إلا بالحق.

وأثبت ما ورد في هذا الموقف: أن الخصومة حقيقية في شركة على أغنام، وأن المتخاصمين أرادا التحاكم إلى داود عليه السلام حتى يحسم النزاع، غير أن داود كان إذ ذاك في خلوته الخاصة يعبد ربه... ولم يجد الخصمان وسيلة للوصول إليه إلا تسور المحراب الذي يتعبد فيه، فظن داود أن مجيئهما في هذا الوقت، وبهذه الصورة يراد به شر، فطمأناه وطرحا أمامه الموضوع، وبدأ أحد الخصمين بتوجيه الاتهام إلى الآخر، فنطق داود بالحكم بإدانة صاحب الغنم الكثيرة قبل أن يدلي بحجته، وهنا أحس داود بأنه كان على غير صواب في ظنه أن هذين يريدان به شرًّا، وأن الله امتحنه بالخوف منهما، فاستغفره مما حدثته به نفسه، ومنَّ الله عليه بقبول استغفاره، وأنزله عنده منزلًا كريمًا[1].

وقد ذكر بعض المؤرِّخين أن الخصمين كانا من الأعراب ـ رعاة الغنم ـ لهما من الجرأة ما دفعهما لتَسَوُّر المحراب على نبي الله داود عليه السلام؛ لكي يَعرضا عليه خصومتهما.

ثالثًا. حكم داود عليه السلام كان حكمًا عادلا:

ويتساءل المشككون: كيف يكون داود عليه السلام عادلًا في حكمه، وقد نطق بالحكم على أحد الخصمين قبل أن يسمع منه؟

ويتخذ هؤلاء هذا الأمر ذريعة لإلصاق تهمة أخرى بداود عليه السلام، وهي أنه كان ظالمًا في حكمه على المدَّعَى عليه، ولكن ما عليه ظاهر الآيات من امتداح لداود عليه السلام لا يوحي بذلك، وإنما يمكن حمل حكم داود عليه السلام قبل سماع الطرف الآخر على **عدة احتمالات:**

- أن هذا من باب ترك الأولى، وهو ما ذهب إليه الفخر الرازي؛ حيث عَدَّ هذا من باب ترك الأفضل والأوْلَى، ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن اعتبار قضاء داود عليه السلام لأحد الخصمين قبل سماع كلام الثاني من باب ترك الأولى فيه مضيعة للحقوق، كما أنه يتعارض مع أوليات القضاء بين الناس، وإذا فعل ذلك قاض ليس بنبي، فإنه يعاب عليه ويطعن به في حقه، والأولى ألَّا يجوز هذا في حق الأنبياء[2].
- أن داود عليه السلام لما حكم على المدعَى عليه قبل أن يسمع منه، واكتفى بما قاله المدعِي، فربما كان ذلك لأنه سكت ولم يتكلم؛ فكان سكوته هذا بمثابة الإقرار والاعتراف بما نسب إليه، كما أنه ليس في القرآن ما يثبت أنه صَدَّق المدَّعي من غير ظهور الحجة؛ فيكون المراد: إذا كان الأمر كما ذكرت؛ فقد ظلمك، ومن ثم

١. المصطفَون الأخيار، عطية صقر، دار مايو الوطنية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٩٠، ٩١.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٦٦ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

لا يكون داود عليه السلام مخطئًا في حكمه، بل بَنَى حكمه على مقدمات ودلائل سيقت إليه.

- أن حكم داود عليه السلام هذا، إنما كان بعد سؤال المدعَى عليه، وإقراره بما نسب إليه، ولكن القرآن الكريم لم يحك هذا؛ لأنه معلوم، حيث لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدعى عليه[١].

وهذا يعني أن داود عليه السلام استمع لقول المُدَّعِي، ثم استمع لقول المدعَى عليه، ثم حكم بقوله: "لقد ظلمك... "[٢].

وهذا هو أرجح الاحتمالات، وأكثرها توافقًا مع ظاهر الآيات، وأكثرها تناسبًا مع عصمته عليه السلام وتنزيهه عن الذنوب والمعاصي[٣].

وهنا يثار تساؤل آخر: إذا كان داود عليه السلام عادلًا في حكمه، فلماذا إذن أمره الله باتباع الحق، وعدم الميل مع الهوى على الرغم من صوابه؟ حيث قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ (ص).

والجواب: أن ذلك لا يدل على ظلمه أو ميله مع العواطف، وإنما يعد هذا توجيهًا له بالاستمرار على ما هو عليه من اتباع للحق، وبُعْد عن الهوى، أي: استمر على ما أنت عليه من الحكم بين الناس بالحق، وعدم اتباع الهوى، ويدل على هذا المعنى:

قوله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ (الأحزاب)، فهو لا يدل على أنه ﷺ لم يكن يتقي الله، أو أنه كان يتبع الكافرين والمنافقين، وإنما هو أمر بالاستمرار على ما هو عليه من تقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، ومثل هذا يقال في داود عليه السلام.

ويدل أيضًا على عدل داود عليه السلام في حكمه وعلى أن هذه الآية من باب الحث على الاستمرار على ما هو عليه، وصف الله تعالى له بالاستخلاف في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ومعلوم أن الاستخلاف على شيء لا يتم إلا بعد التحقق من استحقاق الشخص المستخلف لهذا الأمر العظيم، ولا يكون إلا بعد ثبات عدله في الحكم.

وقد جاء في "الدر المنثور" للإمام السيوطي عن معنى "خليفة": أخرج الثعلبي من طريق العوَّام بن حوشب قال: حدثني رجل من قومي شهد عمر رضي الله عنه أنه سأل طلحة والزبير، وكعبًا وسلمان: ما الخليفة من المَلِك؟

قال طلحة والزبير: ما ندري! فقال سلمان رضي الله عنه: الخليفة الذي يعدل في الرعية، ويقسم بينهم بالسوية، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله، ويقضي بكتاب الله تعالى. فقال كعب: ما كنت أحسب أحدًا يعرف الخليفة من الملك غيري[٤].

---

١. المصطفون الأخيار، عطية صقر، مرجع سابق، ص٩٣.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٦٦.

٣. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٦٣.

٤. الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، عند تفسير الآية.

www.kalemasawaa.com

رابعًا. فتنة داود واستغفاره:

اختلفت الآراء حول فتنة داود عليه السلام على عدة أقوال، منها[1]:

١. أن المراد بفتنة داود عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ (ص) أن داود عليه السلام قد ظن أن يكون ما آتاه الله تعالى من سعة الملك العظيم فتنة؛ فاستغفر الله تعالى من هذا الظن، فغفر له ظنه؛ إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة.

وهذا القول ضعيف، وإن كان يجري في تفسير الآيات على الظاهر، إلا أنه كذلك خلاف الظاهر من أن الآيات كلها تحكي قصة واحدة، وأن فتنة داود عليه السلام إنما هي فيما جاء الخصم من أجله

٢. أن المراد أن داود عليه السلام لما ظن أن الخصمين إنما أتيا لقتله عزم على أن ينتقم منهما، ثم عفا عنهما واستغفر ربه، **وأن الاستغفار لأمر من أمور أربعة:**

- لما عزم عليه من الانتقام منهما، وغضبه لنفسه.
- لما دخل قلبه من العجب؛ حيث إنه عفا عنهما مع إرادتهما قتله، وقدرته على الانتقام منهما، ثم أناب إلى الله، واعترف بأن إقدامه على العفو لم يكن إلا بتوفيق الله، فغفر الله له ذلك الخاطر.
- أن يكون من هَمِّه الانتقام منهما، ثم تذكَّر أنه لم يدل دليل قاطع على أنهما أرادا به سوءًا؛ فعفا عنهما، ثم استغفر من هَمِّه ذلك.
- أن يكون استغفاره لمن قصدا قتله؛ حيث تابا إلى الله، وطلبا منه أن يستغفر الله لهما، فاستغفر لأجلهما، وعليه فمعنى قوله تعالى "فغفرنا له" أي: فغفرنا ذنبهما لأجله، وبسبب دعائه لهما[2].

وقد ذهب إلى هذا القول الإمام الرازي، وكذلك الألوسي والنيسابوري، وهو ضعيف كذلك؛ لأنه مبني على أن الخصمين لم يكونا كذلك، وإنما كانا أعداءً، وأن الخصومة كانت مفتعلة منهما، وقد أثبتنا أن الخصومة كانت حقيقية، وبناء عليه فهذا الرأي ضعيف أيضًا.

٣. أن المراد أن فتنة داود كانت في تعجله في الحكم، قبل سماع المدَّعى عليه، مستدلين على ذلك بقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾، وقد أجاب عن هذا القاضي ابن العربي بقوله: "وأما قول من قال: إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر ـ فلا يجوز على الأنبياء"[3]، كما أن هذا يتنافى مع ما وُصِف به من أنه أُوتِي فَصْل الخطاب.

٤. وأرجح هذه الأقوال: أنَّ داود عليه السلام كان منفردًا في محرابه للعبادة، وأن وقته هذا لا يدخل فيه عليه أحد، فلما دخل عليه الخصمان من غير المدخل ـ حيث

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٦٣.

٢. المرجع السابق، ص٣٦٤.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٥، ص١٨١.

www.kalemasawaa.com

تسورا المحراب ـ وفي غير وقت جلوسه للحكم، فزع منهما ظانًّا أنهما جاءا لقتله، فلما اتضح له أنهما جاءا في خصومة، ولم يقع ما كان ظنه استغفر من ذلك الظن، وخرَّ ساجدًا؛ فغفر الله له ذلك الظن، وهذا هو أرجح الأقوال؛ لأنه ينزه نبي الله داود عليه السلام عن كل مالا يتلاءم مع النبوَّة، كما أنه يتفق مع ما وصفه الله به، قبل ذكر نبأ الخصم من الصفات الحميدة.

يرى الإمام ابن كثير أن قصة داود عليه السلام مأخوذة من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم ﷺ حديث. وفسَّر قوله تعالى: ﴿فَتَنَّاهُ﴾ بقوله: عن ابن عباس بمعنى: ابتليناه واختبرناه، ولم يوضِّح حقيقة الابتلاء، وفسَّر قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ بقوله: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الإبرار سيئات المقربين[1].

والمعنى أن استغفار داود عليه السلام كان لظنه خطأً أن الرجلين أتيا لقتله، فلما تيقَّن أنهما إنما أتيا في خصومة بينهما، وأنه ظن بهما خطأً ـ استغفر ربه، فغفر له[2].

الخلاصة:

- أن اللذيْن تسوَّرا المحراب على داود عليه السلام كانا رجلين من بني البشر، ولم يكونا ملكين ـ كما ادَّعى المدَّعون ـ ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ (ص: ٢٦)؛ حيث دلت على أن ما عرض عليه كان من قبيل الحكم بين الناس.
- الخصومة التي كانت بين الرجلين خصومة حقيقية واقعية في أغنام لهما، وليس كما قيل من أنها كانت خصومة مفتعلة من الملائكة، أريد بها تدريبه على القضاء؛ حتى يحكم بين الناس بالحق فيما يعرض له بعد ذلك.
- أن داود عليه السلام كان عادلًا في حكمه، وهو ما تدل عليه ظاهر الآيات، والتي تمتدح داود عليه السلام.
- أن حكم داود عليه السلام كان بعد سؤال المدَّعى عليه، وإقراره بما نسب إليه، ولكن القرآن لم يحك هذا؛ لأنه معلوم، حيث لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدَّعى عليه، والتحقق من قول كلا الخصمين.
- أمر الله تعالى لنبيه داود عليه السلام بأن يحكم بالحق ولا يتبع الهوى في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ ليس إلا توجيهًا له بالاستمرار على ما هو عليه من اتباع للحق، وبُعْدٍ عن الهوى؛ وذلك مثل قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ (الأحزاب).
- فتنة داود عليه السلام كانت في ظنه الخاطئ بأن الخصمين إنما أتيا لقتله، ولما علم أن مجيئهما بسبب خصومة حقيقية بينهما، استغفر ربه، فغفر له ذلك الظن الخاطئ.

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، طبعة عيسى الحلبي، القاهرة، د. ت، ج٤، ص٣١.

٢. انظر: عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٦٧.

www.kalemasawaa.com

الشبهة الثامنة والستون

الزعم أن سليمان عليه السلام ثمرة زنا(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن سليمان عليه السلام ثمرة زنا داود عليه السلام بزوجة أُورِيَّا قائد جيشه، وقد زجَّ به داود في إحدى المعارك وتسبب في قتله؛ ليتزوج امرأته بعد أن خانه معها؛ ليخفي آثار جريمته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) العقل يوجب عصمة الأنبياء؛ لأنهم الصفوة المختارة من الخلق، اختارهم الله لحمل رسالته وهداية خلقه، ولا يليق بهم إلا كريم الصفات.

٢) الكتب السابقة طعنت في أنبياء الله تعالى ورسله ـ عليهم السلام ـ، ولفقت لهم افتراءات لا تليق إلا بأحط البشر، وهو أمر يبطله العقل والمنطق، والدين، والواقع.

٣) زعم التوراة أنَّ داود عليه السلام زنى بزوجة أوريا، وأنها حملت من الزنا زعم باطل، حملهم على ذلك حرصهم على إباحة الزنا لأنفسهم، وما ذكره بعض مفسري المسلمين قريبًا من هذا هو من الإسرائيليات التي لا يمكن تصديقها.

٤) الزعم أن سليمان عليه السلام ثمرة زنا داود بزوجة أوريا زعم باطل لا يليق بنبي الله سليمان، الذي أعطاه الله من المنح والعطايا ما لم يعط أحدًا ممن سبقه، ولن يعطى أحدًا مثله بعده.

التفصيل:

أولا. العقل يوجب عصمة الأنبياء؛ لأنهم الصفوة المختارة من الخلق:

إن الذي يؤمن به كل مسلم ويعتقده أن كل الأنبياء معصومون، فلن تجد في حياة أي منهم أي انحراف، فهم أناس مختارون، وهم ليسوا أخيارًا فحسب، بل مصطفون من بين أفضل الأخيار، وهؤلاء لا يقترفون طوال حياتهم أي شيء يلقي ظلًا على اصطفائهم هذا، وعلى قدسية المهمة التي بُعثوا من أجلها.

فقد بعثوا بيننا من أجل القيام بمهمة التبليغ، فغاية وجودهم هي التبليغ فقط، أي: إنهم أول المخاطبين بكلام الله تعالى وأوامره؛ ومن ثم عليهم أن ينقلوا هذه الأوامر إلى الناس كما هي، ولو لم يكونوا أصحاب أرواح طاهرة ونفوس قوية، ما استطاعوا نقل الرسائل الإلهية كما هي إلى الناس، ولو اقترف هؤلاء ـ الذين هم قدوة الناس وأئمتهم ـ الذنوب، فكيف يجوز اتباعهم؟ إن الاتباع نابع من بحث الإنسان عن الاستقامة، أما اتباع من يجوز عليه الانحراف، فهو ضد هذا الميل الإنساني الباحث عن الاستقامة وعن الطريق القويم، كلا لم يقترف أي نبي أي ذنب، بل كانوا قدوة في جميع تصرفاتهم طوال حياتهم؛ لأن من الصعب التصور أن إنسانًا ليس من أهل الجنة يقوم بالإمساك بأيدي الناس ويقودهم؛ ليكونوا من أصحاب الجنة، بينما أرسل الله الأنبياء والرسل؛ لكي يهدوا الناس؛ ويجعلوهم أهلًا لدخول الجنة...

إن عصمة الأنبياء، وعدم اقترافهم لأي إثم فطرة وطبيعة، فهم ـ على مذهب الجمهور ـ معصومون من

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

الذنوب كبيرها وصغيرها، وبعض الهنات أو الهفوات المنسوبة إلى بعض الأنبياء لا تعد ذنوبًا، سواء وقعت قبل نبوتهم أم بعدها؛ ففي كلتا الحالتين يبقى النبي معصومًا، وما ندعوه نحن بالهفوة أو الزلة إنما يتعلق بمقامهم، أي: إن هذه الهفوات لا تعد أخطاءً بالنسبة للأشخاص العاديين، ولكنها تعد هفوات بالنسبة للمقربين إلى الله تعالى[1].

لنتأمل كيف أن الملك الذي ينقل الوحي يُختار أيضًا من بين الملائكة.. ملك متميز بالأمانة؛ لكي تعهد إليه هذه المهمة، فالقرآن الكريم يصف جبريل عليه السلام بأنه: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ (التكوير)؛ أي: تطيعه الملائكة في السماء والملأ الأعلى، وهو أمين في نقل الوحي كذلك، فهل يطالب الملك الناقل للوحي بهذه الصفات، ولا يطالب النبي الذي سيمثل هذا الوحي بالصفات نفسها؟!

أجل، لا يمكن لله أن يعهد بمثل هذه المهمة المقدسة إلى شخص مخادع، أو سِكِّير، أو معتدٍ على الأعراض؛ فكيف يمكن أن توجد مثل هذه الصفات القبيحة التي يشمئز منها عامة الناس في نبي يبلغ عن الله؟

إذن فهؤلاء الرسل الذين اختارهم الله لهداية الخلق هم الصفوة المختارة من عباده، كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ (الحج). وقال تبارك وتعالى بعد ذكر جماعة من الأنبياء: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ (ص).

وكان الرسل مصطفين وأخيارًا؛ لأنهم حملة أكرم رسالة، ولا يليق بأكرم الرسالات إلا أكرم البشر، ولأنهم في مقام القادة والهداة، ولا يتصور أن يسوس القومَ إلا أكملهم وأرفعهم في هذه المهمة بالذات، ومع صدق الرسل، فهم كذلك أمناء ملتزمون لأوامر الله سبحانه، ولو لم يكونوا كذلك؛ لسلب الله عنهم شرف الاصطفاء الذي ما كان ليعطيهم إياه لولا علمه بجدارتهم، وأهليتهم له.

وقد أجمع العلماء على عصمة الرسل عليهم السلام من الزيغ في العقيدة والانحراف عن الفطرة السوية، حتى قبل أن يحظوا بشرف الرسالة، كما أشار إليه قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (الأنبياء)؛ ولا تقع منهم كبيرة أبدًا ؛ حتى لا تهتز ثقة الناس بهم، بل ونُجِلّهُم من الصغائر التي لا تليق بمقامهم، فقربهم من الله يجعل مقاييس سلوكهم أشد دقة وأقوى ضبطًا[2].

ويعد الطعن في أي نبي طعنًا فيهم جميعًا، ذلك أن الرسالات كلها عقد واحد، نظامه الدعوة إلى الله، وهداية البشر إلى أقوم الطرق، والأنبياء جميعًا إخوة في أسرة واحدة، وإن كان الله فضَّل بعضهم على بعض، ومحمد ﷺ أحد أفرادها وإن كان أفضلهم جميعًا، فهو سيد ولد آدم... وانطلاقًا من هذه الأخوة ووصلًا للرحم بين الأنبياء، أمر الإسلام بالإيمان بجميع الرسل دون تفريق بين أحد منهم، كما أمر الله نبيه أن يقتدي بهداهم، وأن يتبع ملة إبراهيم عليه السلام.

١. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٨: ١٢ بتصرف.

٢. المصطفون الأخيار، عطية صقر، مرجع سابق، ص٨، ٩.

www.kalemasawaa.com

إن الإيمان بالرسل، وتوفير الاحترام لهم، والدفاع عنهم واجب على كل مسلم، وهو إنصاف من الإسلام وتقدير لدورهم الكبير في خدمة الإنسان، ومن القيم الدينية إنزال الناس منازلهم، والدفاع عن الأبرياء منهم، والقرآن الكريم خط دفاع قوي يحرس الدين بوجه عام، ويهيمن على الكتب السماوية، مُصدِّقًا لأصولها، ومصحِّحًا لما فيها من تحريف، وباعثًا للقيم الأصيلة التي تكاثف عليها غبار القوم، أو لوثها دخان الشكوك والريب، وتلك سمة الدين العالمي الذي ارتضاه الله للناس جميعًا، وبهذا يتضح السر في الاهتمام بالحديث عن السابقين من الأنبياء، فهو حديث عن ركن كبير من أركان الإسلام[1].

يذكر القرآن الكريم أن المسيح عيسى عليه السلام كان روح الله تعالى وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء ونفحة ربانية، وأن الخليل إبراهيم عليه السلام كان خليل الله، وأن موسى عليه السلام كليم الله، وأنه تعالى خاطب آل داود عليهم السلام قائلًا: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ (سبأ). هذه هي الأوصاف التي يصف الله تعالى أنبياءه الكرام بها[2] ®.

ثانيًا. الكتب السابقة طعنت في أنبياء الله ولفقت لهم ما لا يليق إلا بأحط الناس:

وردت في الكتب السابقة افتراءات شنيعة حول الأنبياء، ومن هذه الافتراءات في حق الأنبياء:

• ذكرت التوراة أن لوطًا عليه السلام شرب الخمر وزنى بابنتيه، وأن نسله دام منهما، ففي سفر التكوين: "وصعد لوط من صُوغَر وسكن في الجبل، وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البِكْر للصغيرة: «أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلمَّ نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنُحْيِي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: «إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه، فنُحْيِي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحَبِلَت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنًا ودَعَت اسمه «مُوآب»، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضًا ولدت ابنا ودعت اسمه «بن عَمِّي»، وهو أبو بني عَمُّون إلى اليوم". (تكوين ١٩: ٣٠ ـ ٣٨).

تأملوا.. إن الله تعالى قد خسف بأهالي سَدوم وعَمُورة الأرض؛ ذلك لأنهم لم يستمعوا إلى نبي طاهر مثل النبي لوط عليه السلام، بل استهزءوا به وبدعوته إلى الطهر والعفاف؛ فاستحقوا بذلك العقاب الجماعي: "وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صُوغَر، فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب من السماء. وقَلَب تلك المدن، وكل الدائرة، وجميع سكان المدن، ونبات الأرض. ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود مِلْحٍ". (التكوين ١٩: ٢٣ ـ ٢٦)، ولو لم يكن هناك

---

١. المرجع السابق، ص٣٣: ٣٦ بتصرف.

٢. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص٢٥.

® في "عصمة الأنبياء" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة والثمانين. والشبهة الثانية بعد المائة، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

شاهد آخر على عِفَّة لوط عليه السلام الذي هو ابن أخ للنبي إبراهيم عليه السلام غير أنقاض هذه المدن المخسوفة، وغير الجدران المُتهدِّمة لبيوتها، أما كان شاهدًا كافيًا؟ وهل يمكن أن ننظر إلى كتاب يحوي مثل هذه الافتراءات الشنيعة على أنه كتاب إلهي؟!

• يذكر العهد القديم أن داود عليه السلام طمع في زوجة قائده أُورِيَّا وتسبب في قتله؛ ليأخذ زوجته، جاء في سفر صموئيل الثاني: "وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت المَلِك، فرأى من على السطح امرأة تستحمُّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: «أليست هذه بَثْشَبَع بنت أَلِيعام امرأة أُورِيَّا الحِثِّيّ؟»". فأرسل داود رُسُلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مُطهَّرة من طَمْثِها. ثم رجعت إلى بيتها. وحَبِلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: «إني حُبْلَى». فأرسل داود إلى يوآب يقول: «أرسل إليَّ أُورِيَّا الحثي». فأرسل يوآب أوريا إلى داود. فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب. وقال داود لأوريا: «انزل إلى بيتك واغسل رجليك». فخرج أوريا من بيت الملك، وخرجت وراءه حِصَّة من عند الملك. ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داود قائلين: «لم ينزل أوريا إلى بيته».

فقال داود لأوريا: «أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟» فقال أوريا لداود: «إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟ وحياتك وحياة نفسك، لا أفعل هذا الأمر». فقال داود لأوريا: «أقم هنا اليوم أيضًا، وغدًا أُطْلِقك». فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده. ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل. وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب، وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت". (صموئيل الثاني ١١: ٢ـ ١٥).

ثالثًا. زعم التوراة زنا داود بزوجة أوريا زعم باطل، أرادوا بذلك إباحة الزنا لأنفسهم:

لقد تأثر بعض المفسرين المسلمين بالإسرائيليات في تفسيرهم لقوله تعالى حكاية عن داود: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ (ص). فذهبوا إلى أن داود عليه السلام عشق امرأة أوريا، فاحتال حتى قتل زوجها فتزوجها. ثم عتب الله عليه في ذلك، فأرسل إليه ملكين يختصمان في نعجة كانت لأحدهما على سبيل التمثيل، ليعلم داود من هذه القضية الملفقة عظيم خطيئته، فيتوب ويستغفر[1].

إن الذي لا شك فيه أن داود عليه السلام نبي من الأنبياء المكرمين المعصومين، لا يليق به ما نسب إليه مما لا يليق بمن هو ليس بنبي، فكيف به عليه السلام؟!

والحقيقة أن ما ذهبت إليه التوراة، من تسببه في قتل قائد جيشه أوريا ليظفر بزوجته بعد أن أعجب بها إنما

١. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٥٩.

www.kalemasawaa.com

هو إفك مفترى في حق نبي الله عليه السلام، فأنبياء الله منزهون لا يليق أن تقع منهم الصغائر فضلًا عن الكبائر، ولقد رأينا كيف زعموا أن داود قد زنى بزوجة أوريا بعد أن أعجب بها، كما أنه تسبب في قتله بعد أن دبر له هذه المؤامرة، فداود عليه السلام عندهم ارتكب كبيرتين: الزنا والقتل، فهل هذا يليق بنبي من أنبياء الله المصطفين الأخيار؟!

وتجدر الإشارة إلى أن اليهود يتعمدون هذا في حق داود عليه السلام؛ ليصلوا من وراء ذلك إلى الطعن في عيسى عليه السلام؛ لأنه من ذريته.

قال البقاعي في تفسيره: "وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود، وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمَّدون ذلك في حق داود عليه السلام؛ لأن عيسى عليه السلام من ذُرِّيَّته، ليجدوا سبيلًا إلى الطعن فيه. وهذه القصة ـ على النحو السابق ـ لم ينص الله ﷻ في القرآن الكريم عليها، ولم تَرِد عن نبينا ﷺ في حديث صحيح ولا حسن، فهي ـ إذن ـ مُخْتَلَقة مُفْتَراة للنَّيْل من نبي الله داود عليه السلام، فلا يصح أن ننخدع بها، وإنما نتشدَّد على من يُروِّجها ويُشِيعها، كما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ حيث قال رضي الله عنه: من حدَّث بحديث داود عليه السلام على ما يَرْوِي به القُصَّاص جلدتُه مائة وستين، وذلك حدُّ الفِرْيَة على الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ"[1].

ويمكن القول ـ إن صحَّ أنَّ داود تزوج بَثْشَبَع زوجة أُورِيَّا ـ إن داود عليه السلام لعله قد أشفق على زوجة أوريَّا قائد جيشه بعد قتله، الذي لا علاقة لنبي الله داود به من قريب أو بعيد، فتزوَّجها وضمَّها إلى نسائه، وليس في هذا أدنى شبهة، وما نُسِب إليه بعد ذلك من قتل أو زنا هو من حقد الحاقدين.

وما فعله داود عليه السلام من الإشفاق على زوجة أوريا بعد قتله، وتزوجه بها له أصل عندنا في الإسلام، فهذا مثل ما فعله النبي ﷺ مع من تزوجهم من أمهات المؤمنين، فقد تزوَّج النبي ﷺ أمَّ سَلَمَة ـ رضي الله عنها ـ لظروف إنسانية بعد موت زوجها بعد معركة أُحُد متأثرًا بجراحه، وقد ترك لها أربعة أبناء تكفَّلهم رسول الله ﷺ بالرعاية وبحث احتياجاتهم. وتزوج زينب بنت خُزَيمة ـ رضي الله عنها ـ بعد استشهاد زوجها عُبَيدة بن الحارث في موقعة أُحُد.

أما ما ذهب إليه بعض مفسري المسلمين في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ (ص: ٢١) أن داود عليه السلام أُعْجِب بزوجة أوريا... إلخ فمأخوذ من الإسرائيليات كما ذكر ابن كثير، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، وقد قامت الأدلة العقلية والنقلية على عصمة الأنبياء من الكبائر، فيجب رد هذا الافتراء.

لقد ذهب المفسرون إلى أن الله تعالى عتب عليه في فعلته الشنيعة هذه، وأرسل إليه ملكين يختصمان في نعجة كانت لأحدهما على سبيل التمثيل، ليعلم داود عليه السلام من هذه القضية الملفقة عظيم خطيئته فيتوب ويستغفر.

وتوجيه الله داود عليه السلام باتباع الحق وعدم الميل مع الهوى، على الرغم من صواب حكمه، لا يدل على ظلمه أو ميله مع العواطف، فقد يكون توجيهًا

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٥٤، ٣٥٥.

www.kalemasawaa.com

بالاستمرار على اتباع الحق، كما قال ﷻ لنبيِّه عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ (الأحزاب). فلم يكن منه عصيان حتى يؤمر بالتقوى[١].

وخلاصة القول أن داود عليه السلام قد اجتهد في تقسيم أوقاته، فجعل للناس وقتًا، ولأزواجه وقتًا، ولعبادته وقتًا، وجعل الأوقات الثلاثة متساوية، وفاته أنه خليفة في الأرض، وأن الخلافة تتطلب وقتًا أكبر، فسخَّر الله له هؤلاء الأعراب، فتسوَّروا عليه المحراب، وكان من أمرهم ما يشعره بخطئه في هذا الاجتهاد، ففطن إلى المقصود، وعاد إلى ما هو أولى.

وخطأ الأنبياء في الاجتهاد لا يُحرِّم حلالًا، ولا يحلُّ حرامًا، ولكنه لا يعدو أن يكون خلاف الأَوْلَى، ولهذا خاطبه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۝٢٦﴾ (ص). أي: أنت يا داود لست كآحاد الناس لا يشغله إلا نفسه وأهله، ولكنك مسئول عن كل من يقيم في مملكتك، أو يدخل فيها من غير أهلها، وهذه المسئولية تتطلب منك تفرغًا أكثر الوقت لتحمل تبعاتها.

ومن المعلوم أن هوى الأنبياء ليس فيه عدول عن الطريق السوي، ولكنه هوى في مرضاة الله، "فهوى داود عليه السلام كان معظمه في ملازمة المحراب، فرده الله إلى الاعتدال فيه إلى الحد الذي يكفل مصلحته ومصالح الناس. فمن ولي أمرًا فشُغل بغيره كان عاصيًا أو مقصرًا، حتى ولو كان هذا الأمر الذي شُغل به عبادة من العبادات. وعلى المؤمن أن يوفق بين الدين والدنيا، وأن يضع نفسه حيث وضعه الله"[٢].

فلا يليق بنبي الله داود ما نُسب إليه، وما ذهب إليه بعض المفسرين؛ لأن سورة (ص) من أولها إلى آخرها في محاجَّة منكري النبوة، فكيف يلائمها القَدْح في بعض أكابر الأنبياء بهذا الفسق القبيح؟! وأيضًا لأن الله تعالى وصف داود عليه السلام في ابتداء القصة بأوصاف حميدة،وهذا ينافي ما ذكروه مما لا يليق به[٣] ®.

رابعًا. الزعم أن سليمان ثمرة زنا داود بزوجة أوريًّا باطل، ولا يليق بنبي الله سليمان الذي أعطاه الله المنح والكرامات التي لم تعط لأحد قبله:

يتبين مما سبق أن داود عليه السلام بريء مما نُسب إليه من تهمة قتل قائد جيشه، وتهمة الزنا بزوجته، وقد زعموا أن سليمان بن داود هو ثمرة زنا داود بزوجة أوريا، وهذا زعم باطل **للأسباب الآتية:**

١. براءة داود عليه السلام مما نُسب إليه من القتل والزنا، ولعل الأنسب في هذه القصة المُلفَّقة أن بَثْشَبَع كانت خطيبة لأُوريَّا الجندي بجيش داود، فتزوجها داود بعد موته في إحدى الحروب وأكمل بها المائة، قبل أن يتزوج بها أوريا. أو أنها كانت زوجة لأوريا ثم قتل زوجها في إحدى الحروب، ثم تزوجها داود عليه السلام وضمَّها إلى نسائه رَأْفة ورحمة بها وتكريمًا لها، كما فعل

---

١. المصطفون الأخيار، عطية صقر، مرجع سابق، ص٩٠: ٩٢.

٢. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٦٢.

٣. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص١١١.

® في "طمع داود في زوجة قائد جيشه والتآمر على قتله" طالع: الشبهة الخامسة والستين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

رسول الله ﷺ مع السيدة أمِّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ وهو أمر يليق بمروءة ونخوة الأنبياء.

٢. أن سليمان عليه السلام إن كان قد ولد من هذه المرأة، كما ذكرت التوراة، فهو ولد بعد أن صارت هذه المرأة زوجة لداود عليه السلام وانضمت إلى نسائه، ففي سفر صموئيل الثاني: "وعزَّى داود بَثْشَبَع امرأته، ودخل إليها واضطجع معها، فولدت ابنًا فدعا اسمه سليمان، والرب أحبه". (صموئيل الثاني ١٢: ٢٤)، فإن كان سليمان ولد زنا فكيف يحبه الرب ويكرمه كما ذكرت التوراة؟!

٣. أن الرسل الذين اختارهم الله لهداية خلقه هم الصفوة الممتازة من عباده كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ (الحج). ولا يمكن ـ سبحان ـ حدوث الزنا والفاحشة في البيت النبوي، وقد ذكرنا أن الفقه الإسلامي يكره أن يكون الإمام الذي يصلي بالناس مولودًا من الزنا إن كان غيره موجودًا، فكيف يستطيع أن يكون إمامًا للناس جميعًا أي يكون نبيًّا يُقْتدى به ويُتَّبع؟!

٤. أن سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ طاهر النسب كما هو شأن الأنبياء، نشأ في بيت الملك والنبوة، نشأة الصالحين المؤمنين، فأحبه أبوه حُبًّا شديدًا، ولم يكن يطيق فراقه في حِلِّه وترحاله، ولما اطمأن والده إليه وعرف حسن أخلاقه أخذ يعده لولاية العهد من بعده دون إخوته الثمانية عشر، فأخذ يجلسه معه في مجالس الحكم والقضاء، ويستشيره في مهام الأمور، ويعرض عليه الفصل في الخصومات، فرأى منه ذكاءً خارقًا وحكمًا صائبًا[1].

لقد أحب الله سليمان عليه السلام واختاره رسولًا، وأعطاه من المنح والعطايا ما لم يعط أحدًا ممن سبقه، فسخَّر له الريح تجري بأمره حيث أراد، غُدُوُّها شهر ورواحها شهر، وسخَّر له من الشياطين كل بَنَّاء وغوَّاص، وآخرين مُقرَّنين في الأصفاد، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجِفان كالجواب وقُدور راسيات، وسخر له الطير وعلمه منطقها، بل منطق الحيوانات؛ كالنمل، وجاءه الهدهد بخبر ملكة سبأ وقومها الذين يعبدون الشمس من دون الله، بل أودع الله في بعض رجاله قوة وكرامة فاقت في بعض أحوالها ما يقوم به الجن من الغرائب، وكان من نتيجة ذلك مجيء ملكة سبأ من اليمن إليه وهو بأرض الشام، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين[2].

وهذه بعض المعجزات التي خص الله بها نبيه سليمان عليه السلام ووهبها له، وأعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، هل يُعقل أن تكون لمن هو ثمرة الزنا، وهل يعقل أن يكون والده مرتكبًا لمثل هذه الفحشاء؟! ومن ثم فهذا الافتراء وهذا الزعم باطل لا جذور له.

الخلاصة:

- إن الذي يؤمن به كل مسلم ويوجبه العقل أن الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله أشرف الناس، وأنهم معصومون من الوقوع في الكبائر أو الصغائر؛ فالله يقول: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا

١. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م، ص٢٤٦.

٢. المصطفون الأخيار، عطية صقر، مرجع سابق، ص٩٣، ٩٤.

www.kalemasawaa.com

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥)، فلا يليق بنبي أن تقع منه الكبائر ولا الصغائر التي لا تليق بمقام النبوة.

• وعلى عكس هذا الاعتقاد يأتي اعتقاد أهل الكتاب الذين يفترون على أنبياء الله، ويلفقون لهم اتهامات ورذائل لا تليق بمن هم دونهم، فكيف بمن اصطفاهم الله لحمل رسالته؟! فقد نسبوا إلى داود عليه السلام الزنا بزوجة قائده أوريا، وأنه زجَّ به في إحدى المعارك وتسبب في قتله؛ ليتزوج بامرأته ليخفي آثار جريمته، وهو أمر باطل لايليق إلا بأحط الناس، فكيف يثبتون لنبي تهمتي القتل والزنا؟! وهذا من فعل الحاقدين وكيد الكائدين للقدح في عصمة الأنبياء، والنيل من نبي الله داود وابنه سليمان عليهما السلام.

• الزعم أن سليمان عليه السلام ثمرة زنا داود بزوجة أوريا زعم باطل، لا يليق بنبي الله الذي أعطاه الله من المنح والعطايا مالم يعط أحدًا ممن سبقه، ولن يعطي أحدًا مثله بعده ببركة دعوته: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ (ص).

الشبهة التاسعة والستون

ادِّعاء أن سليمان عليه السلام ليس نبيًّا، وأنه ساحر(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهمين نبوة سليمان عليه السلام، ويدعون أنه عليه السلام ساحر، ويستدلون على زعمهم هذا بأن الشياطين كتبوا السحر في كتاب، وختموه بخاتم سليمان.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد أيد الله تعالى سليمان عليه السلام بالآيات المعجزات التي تثبت صدق نبوته؛ من ذلك: تسخير الجن والشياطين، ومعرفة منطق النمل والطير وتسبيحهم، وتسخير الريح، ولم تكن هذه المسخرات من تعاطي سليمان للسحر.

٢) لقد أنزل الله عز وجل آيات يُبرِّئ فيها سليمان من أنه صار ملكًا وثريًّا بفضل ما تعلمه من السحر، كما أوضح عز وجل في تلك الآيات أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلمون الناس السحر، وليس من سليمان عليه السلام.

٣) هناك كثير من العِبَر التي تستفاد من قصة سليمان عليه السلام؛ مما يدل على أن هذه قصة نبي وليست قصة ساحر.

التفصيل:

أولا. لقد أيد الله تعالى سليمان عليه السلام بالآيات المعجزات التي تثبت صدق نبوته:

كان نبي الله سليمان عليه السلام بارًّا بوالديه مطيعًا لهما، وقد حباه الله تعالى كثيرًا من الخصال والصفات إثر دعوته لله عز وجل أن يهبه مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فضلًا عن وراثة النبوة عن أبيه داود عليه السلام، وعن هذا يحدثنا الأستاذ أحمد الصباحي فيذكر قول الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل). فسليمان ورث أباه في نبوته وحكمه وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود عليه السلام أولاد

(*) العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، د. أحمد عبد الله الزغبي، مكتبة العبيكان، السعودية، ط١، ١٩٩٨م.

www.kalemasawaa.com

أصغرهم سليمان، ومعلوم أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا يورِّثون مالًا ولا جاهًا، وإنما يورثون العلم والحكمة.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ (النمل)، وقال الله ﷻ إخبارًا عنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ (ص)، فأجاب الله دعاءه وأكرمه بخصائص لم يكرم بها أحدًا من قبله ولا من بعده؛ منها:

- **تسخير الريح**: قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ (ص) أي: حيث أراد عليه السلام، وفي آية أخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الأنبياء). أي: الريح العاصفة تجري بأمره رخاء.

- **تعلُّم منطق النمل**: علمه الله تعالى منطق النمل والدواب؛ كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ (النمل).

- **تعلُّم منطق الطير وتسبيحه**: من آيات الله ﷻ ونعمه على سليمان عليه السلام أن علَّمه منطق الطير؛ كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل). والمراد بقوله: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ كثرة نعم الله تعالى عليه ومنها: تعليمه كلام الطير وتسبيحه.

- **تسخير الجن والشياطين**: أخبر الله ﷻ في كتابه الكريم بأنه تعالى سخر الجن لنبيه سليمان عليه السلام، إذ قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ (سبأ). فبعد أن ذكر الله تعالى تسخير الريح له تجري بأمره رُخاء حيث أصاب، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ (ص)، وقال الله ﷻ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ (النمل). وذلك بأن الله تعالى وكَّل بهم ملكًا بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان عليه السلام ضربه ضربة أحرقته، فكانت الجن والشياطين تطيعه وتنفذ أمره عليه السلام، وكانوا يعملون له ما يشاء من أضخم المباني والعمائر والتماثيل والقدور الراسيات والجفان التي كأنها حِياض السُّفن العِظام[1].

ثانيًا. بيَّن الله تعالى أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلِّمون الناس السحر وليس من سليمان عليه السلام:

لقد أنزل الله تعالى آيات تبرئ سليمان عليه السلام مما زعمه المدعون من أنه صار ملكًا وثريًّا بفضل ما تعلمه من

١. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص٢٤٧: ٢٥٣ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

السحر، كما أوضحت الآيات أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلِّمون الناس السحر، وليس من سليمان عليه السلام. ولما توفي سليمان عليه السلام وجدت فرقة من بني إسرائيل تُعلِّم السحر بعده، بدعوى أن السحر كان علم سليمان ولا شيء سواه.

فالشياطين ـ كلهم ـ لِلطافة جوهرهم، ودقة أفهامهم استخرجوا علمًا يُغيِّرون به الأشياء بسرعة أكبر من سرعة البشر وبدقة أكبر، فذلك مما علَّموه لهاروت وماروت، فكانا يعلمان الناس بدورهم أحاجي يفرقون بها بين المرء وزوجه. فهل كانت أحاجيهم تفعل فعلها وتؤتي ثمارها؟ يقول القرآن الكريم: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (البقرة)، إذن فلم يكن سليمان عليه السلام يستعمل السحر، ولا كان يتعلمه ولا كان يعلمه، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنهم بعده صاروا يعلمون السحر، وأما سليمان فكان التَّقي الوَرِع.

ويُعلِّق الشيخ الشعراوي على ذلك قائلًا: "وهكذا يتضح لنا أن بعضًا من بني إسرائيل قد ترك كتاب الله المُصدِّق لما معهم من التوراة، ولم يقفوا عند الترك لآيات الحق، بل اتبعوا ما جاء به الباطل.. فالكتاب الذي كان يجب أن يتبعوه تركوه وخالفوه، والبهتان الذي كان يجب أن يجتنبوه اتبعوه، وهذا سلوك مخالف لقضية الحق بين الخير والشر.

والآية الكريمة تعرَّضت لأمر قد شاع عند بعض من بني إسرائيل، لقد قالوا: إن سليمان إنما صار ملكًا ثريًّا بفضل ما تعلمه من سحر، وهذا قول باطل برّأ الله منه سليمان عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ إن سليمان لم يكفر، وإنما تلقى نعمة الله بالعرفان والشكر، وسخَّر الله له ما شاء من خلقه؛ تكريمًا له وإرادة الحق في ذلك لها حكمة بالغة، ومن حكمته تعالى أن يعطيه ملكًا لا ينبغي لأحد من العالمين، لقد شاءت إرادة الحق ذلك، ليكون سليمان رسولًا له مكانه في قومه؛ أي: مكانة تليق بالزمن الذي جاء فيه سليمان.

إن المتأمل للموكب الرسالي يجد أن كل رسول قد صادف في قومه المكابرين والمعاندين والكافرين والمتربصين به الدوائر، لماذا؟ لأن الرسول لا يجيء إلا وقد استشرى الشر، وما دام الشر قد استشرى فلا بد أن يكون للشر قوم ينتفعون به، وحين يأتي رسول لينهي سيادة الشر في الأرض، فهو يواجه أول ما يواجه المنتفعين بالشر، ولا يتبع النبي إلا الضعفاء؛ ليخلصهم الرسول برسالته من شر الأقوياء، وقد أراد الله برسالة سليمان عليه السلام أن يبين لنا طبيعة الإنسان.. حين يؤيد رسولًا بمُلْك لا يمكن لأحد أن يخالفه، إنه رسول ومَلِك من نوع خاص.

www.kalemasawaa.com

فالملوك يملكون كل ما يدخل تحت قدرتهم بالإمكانيات المادية، لكن الله أعطى سليمان عليه السلام ملكًا لا ينبغي لأحد من العالمين؛ لأنه سخر له القُوَى التي لا يمكن أن تسخر لبشر عادي، فكأن الله يريد أن ينبه الإنسان أنه لو أراد حكمًا من السماء مسنودًا بحكم ملكي، فلن يستطيع إنسان أن يرفع رأسه؛ لأن الخالق ﷻ قادر على أن يسخر لمثل ذلك الحكم ما يجعله يقهر الجميع على أن يذعنوا له، لكن الحق لا يريد ذلك، إنما يريد سبحانه طواعية الإيمان واختيارية اليقين؛ لذلك يترك الرسل ضعفاء ليعلم من يقبل عليهم بنداء الإيمان لا بمجرد القهر؛ ولذلك خير رسول الله ﷺ أن يكون نبيًا ملكًا فرفض، لماذا؟ لأنه إذا كان ملكا نبيًّا ستكون له من أسباب القوة ما لا يستطيع أحد أن يخالف دعوته قهرًا وعنوة، لذلك اختار رسول الله ﷺ الرسالة والنبوة دون المُلْك... اختار أن يدعو الناس إلى الله فيأتونه رغبًا في منهج الله لا رهبًا من ملكه هو، ولقد اتهم بعض بني إسرائيل سليمان عليه السلام بأنه كفر، ويقرر الحق عدم كفره فيقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ ويدلنا على أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلمون الناس السحر، ونكتشف من ذلك أن النبي سليمان لم يكن يعلم السحر وأن ملكه واستتباب الأمر له لم تكن قضية سحر إنما هي مشيئة الحق ﷻ"[1] ®.

ثالثًا. هناك العديد من العبر التي تستفاد من قصة سليمان عليه السلام:

يشير الأستاذ محمد بسام الزين إلى أن قصة نبي الله سليمان عليه السلام اشتملت على عديد من الحكم والمواعظ، منها:

المملكة الصالحة:

بَنى نَبِي الله سليمان عليه السلام المملكة الصالحة، وكان للحضارة في مملكته جانبان:

أحدهما: صناعي وعمراني، وهذه تسمى في عصرنا بالمدنية.

الآخر: أخلاقي وروحي، وهذه تسمى في عصرنا بالإنسانية.

ولا يجوز بحال من الأحوال أن ينشغل الإنسان بالحضارة المدنية لذاتها دون أن يسخرها لخدمة الحضارة الإنسانية، وإن الدارس لسيرة رسول الله ﷺ ليرى أنه ﷺ أرسى أسس الحضارة الإنسانية دون أن يغفل العناية بالحضارة المدنية.

أما حضارة العصر الحالي فهي حضارة مدنية فيها قلوب الناس كالأحجار، تتسابق فيها الأمم بناطحات السحاب، والصناعات الحربية، غير أن الإنسان فيها مسحوق مظلوم، ليس له من الحقوق المقررة في الأمم المتحدة سوى الشعارات البراقة واللافتات الكبيرة، والنداءات التي لا يستجيب لها ضمير.

حُسن استغلال الطاقات التي سخرها الله له في بناء المملكة الصالحة:

استعمل نبي الله سليمان عليه السلام لبناء المملكة الصالحة كل الطاقات التي سخرها الله له؛ إذ استغل الريح

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٣٨٣، ٣٨٤.

® في "نفي كفر سليمان" طالع: الشبهة الثانية والسبعين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

وحركتها، واستغل البحار وغاص فيها، واستخرج المواد الخام وصنعها، واستغل الطير في جو السماء، وكان كل عضو أو جندي في مملكته له مكانه المناسب، حيث تتضافر الجهود في عملية البناء، وتتعاون الأيدي لتحقيق أهداف المملكة الصالحة، التي لا تُؤْذَى فيها نملة، ولا تُهْدَر فيها طاقة.

وقد ضل قوم سبأ إذ لم يضعوا الأشياء في مواضعها، فبدلًا من أن يستغلوا منافع الشمس عبدوها من دون الله، كما ضل الإنسان قديمًا إذ عبد الرياح بدلًا من الإفادة من حركتها!! والمشركون ضلوا أيضًا إذ عبدوا الحجر بدلًا من تسخيره في البناء، وإن الله أرسل الأنبياء والمرسلين لتخليص الناس من الوثنية، وإزالة التحجر عن عقولهم، وتطهير اعتقادهم من الضلال، وإرشادهم إلى وضع كل شيء في مكانه المناسب.

أما إنسان اليوم فعلى الرغم من أنه استفاد مما سخره الله للإنسان، إذ تمكن من استغلال حركة الرياح، وأرسل الطائرة في جو السماء، واستفاد من الطاقة الشمسية، واستخرج الحديد والمواد الخام وقام بتصنيعها، على الرغم من ذلك كله فإنه لم يضع الأشياء في مواضعها؛ إذ ما زال المال الغاية المنشودة عنده، يكنزه ويشعل الحروب، ويفتعل الفتن لأجل تحصيل المزيد من الأموال والأرباح. ولذلك فهو لا ينعم بالسعادة وفي الحديث: "تَعِس عَبْد الدِّينار والدرهم"[1]؛ أي: لن يذوق السعادة.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٧٣٠).

١. مكاتبة الملوك:

ولو دققنا النظر في كتاب نبي الله سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ نجده يحتوي على كلمات قليلة ومركزة جدًا: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (النمل)، وفي السنة السابعة للهجرة بعث رسول الله ﷺ رسائل إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام بعبارات مختصرة مفيدة تشبه إلى حد كبير كتاب سليمان عليه السلام:

- فقد أرسل كتابًا إلى هرقل عظيم الروم، حمله دحية بن خليفة الكلبي، جاء فيه: "أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين"[2].
- وأرسل كتابًا إلى كسرى عظيم الفرس، حمله عبد الله بن حذافة السهمي جاء فيه "أسلم تسلم فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك"[3].
- وأرسل كتابًا إلى النجاشي ملك الحبشة، حمله عمرو بن أمية الضمري.
- وأرسل كتابًا إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، حمله العلاء بن الحضرمي.
- وأرسل كتابًا إلى المقوقس عظيم القبط، حمله

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، وفي مواضع أخري، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٣. حسن: أخرجه الطبري في تاريخ الأمم والملوك (٢/ ١٣٣)، وحسنه الألباني في فقه السيرة (٣٥٦).

www.kalemasawaa.com

حاطب بن أبي بلتعة.

• وأرسل كتابًا إلى جيفر بن الجلندي ملك عمان، حمله عمرو بن العاص.

الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون:

إن ضعاف النفوس يعيشون حياتهم في الأوهام، ويكثر حديثهم عن السحر والجن والرَّبط والنفاثات في العُقَد؛ إذ تملأ رءوسهم الوساوس من الخنَّاس، ويلقون أسباب الإخفاق في حياتهم الزوجية والمهنية والاجتماعية على الجن والشياطين، وقد يفسرون بعض الأمراض بأنها ناجمة عن جني أو شيطان!!

وللبيان نضع بين يدي القارئ الحقائق التالية:

• الجن حقيقة غيبية أخبرنا الله بها، وحدثنا أنه يوجد عالم آخر غير عالم الإنس، وهم مخلوقات نارية، منهم المؤمن ومنهم الكافر، وقد استمع نفر منهم إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن، وقد سميت سورة في القرآن باسمهم، غير أن القرآن الكريم أكد على أمرين:

○ أن الجن لا سلطان لهم على المؤمنين، وذلك في قوله ﷻ عن الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (النحل). بل إن الله سبحانه قد جعل لنبيه سليمان عليه السلام سلطانًا عليهم وسخرهم له كما ذكرنا آنفًا.

○ أن الجن لا يعلمون الغيب الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل، وقد حرس الله تعالى السماء بمبعث نبيه محمد ﷺ، فمن استرق السمع أتبعه شهاب ثاقب، وقد حكى القرآن الكريم عن الجن قولهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ (الجن). وهذه قصة سليمان عليه السلام فيها دليل قاطع على أن الجن لا يعلمون الغيب؛ إذ قد مات سليمان وهم بين يديه ولم يعلموا بموته!

وبناء على ذلك فقد حرَّم الإسلام أن يذهب مسلم إلى كاهن أو عرَّاف؛ قال ﷺ: "من أتى كاهنًا أو عرَّافًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ"[1].

• إن الله تبارك وتعالى ذم فريقًا من بني اسرائيل إذ نبذوا التوراة وراء ظهورهم، واتبعوا كلهم أوامر الشيطان وضلالات السحرة الكفرة كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (البقرة)، وإن الله سبحانه قد أنزل في القرآن الكريم تشريعات صالحة لكل زمان ومكان، ذكر فيها أسس الحياة الاجتماعية

---

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٩٥٣٢)، وحسنه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

www.kalemasawaa.com

السليمة؛ إذ بين كيفية العلاقة الزوجية الصحيحة، ووضع قوانين المعاملات المادية بين الناس، ووضح طريقة النجاح في الحياة الإنسانية. وإنه لمن الضلال أن ينبذ المسلم مبادئ القرآن الكريم وراء ظهره كأنه لا يعلمها، ثم يمضي إلى السحرة، أو الكهنة أو المشعوذين ليستفتيهم في أمور حياته، أو ليسألهم عن أسباب إخفاقه[1]!!

انطلاقًا مما سبق يتضح لكل ذي عقل وبصيرة أن سليمان نبي الله ورسوله اختصه الله بكثير من النعم والفضائل والمعجزات، وقابل عليه السلام هذه النعم بالشكر والإيمان وليس كما يدعي الواهمون من تعلمه السحر، بل هو الرسول المعصوم من ذلك؛ فعليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام.

الخلاصة:

- سليمان عليه السلام نبي من أنبياء الله تعالى، وقد أيده الله بالعديد من الآيات والمعجزات التي تدل على صدق نبوته منها: تسخير الجن والشياطين، وتَعَلُّم منطق الطير، ومنطق النمل، وتسخير الريح وغيرها.
- الله تعالى برأ سليمان عليه السلام من الدعاوى التي زعمها الزاعمون من أنه صار ملكًا ثَرِيًّا بفضل ما تعلمه من السحر، فلم يكن سليمان يستعمل السحر، ولا كان يتعلمه، ولا كان يعلمه، كما أن سليمان عليه السلام لم يكفر وإنما تلقى نعمة ربه بالشكر والعرفان.
- هناك العديد من العبر التي تستفاد من قصة سليمان عليه السلام منها خصائص المملكة الصالحة، وحسن استغلال الطاقات المختلفة لبناء تلك المملكة، وطريقة مكاتبة الملوك، وكذلك ليس للشيطان سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

الشبهة السبعون

الزعم أن سليمان عليه السلام غفل عن ذِكْر ربه(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن سليمان عليه السلام قد شُغِلَ باستعراض الخيل حتى فاتته الصلاة، أو فاته ورد من الذكر كان له، فندم سليمان عليه السلام على ذلك، وأمر برد الخيل، فقام بقطع أعناقها وسُوقها بالسيف وهو منهي عنه، ويستدلون بقول الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾(ص)، وذلك يتنافى مع طاعة الأنبياء لربهم، وعصمتهم من انشغالهم بأمور الدنيا.

وجها إبطال الشبهة:

١) هذا الزعم قد يؤيده ظاهر الآيات، لكنه لا دليل عليه ولا يصح، حتى وإن اعتذر الجمهور بأن ترك الصلاة كان نسيانًا، وذبح الخيل كان قربانًا.

٢) ما ذهبوا إليه قول ساقط لا دليل عليه ولا يقبله عقل، ولا يليق بعصمته عليه السلام، والصحيح أنه أحب

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص٢٩٥: ٢٩٩.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

الخيل المجاهدة في سبيل الله تعالى لحبِّه لذكر ربه وطاعته.

التفصيل:

أولا. هذا الزعم قد يؤيده ظاهر الآيات، لكنه لا دليل عليه ولا يصح:

ذهب بعض المفسرين إلى أن سليمان عليه السلام قد شُغل باستعراضه الخيل حتى فاتته صلاة العصر، أو فاته ورد من الذكر كان له حتى غربت الشمس، وذلك قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (ص: ٣٢)؛ فندم سليمان، وأمر برد الخيل، فطفق يقطع أعناقها وسُوقها؛ تقربًا إلى الله، وذلك قوله ﷻ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ (ص). والحقيقة أن مدلولات الألفاظ ليست واضحة فيما ذهبوا إليه، وإنما الذي قالوه في معاني الألفاظ محتمل، ومحتمل بعيد، فهم يقولون: إن الضمير في قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾، إنما هو للشمس، المفهومة من قوله بالعشي، كما يقولون: إن معنى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ (ص: ٣٢) أنه أحب هذه الخيل معرضًا عن ذكر ربه، فلما ندم أبدله الله تعالى ما هو أسرع منها وهو الريح، وهذا ما ذهب إليه الجمهور، وقد اعتذر الجمهور عن ترك سليمان عليه السلام صلاة العصر بأنه كان نسيانًا، أو ربما كان هذا سائغًا في شريعة سليمان، فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد، وعرضه الخيل، ويستدلون على جواز ذلك بانشغال النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب. يقول ابن كثير: ويحتمل أنه كان سائغًا في مِلَّتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعًا فنسخ ذلك بصلاة الخوف[1].

ويرى آخرون أن هذه الادعاءات في حق نبي الله سليمان عليه السلام، إنما هي أقوال باطلة، لا تليق بمقام هذا النبي الكريم، ولا تتفق مع سياق الآيات، ولا مع مجريات الأمور، ومصالح المملكة السليمانية، فضلًا عن أنه لم يدل عليها حديث صحيح، ويرفضها سياق الآيات الكريمة.

ثانيًا. ما ذهبوا إليه قول ساقط لا دليل عليه ولا يقبله عقل، ولا يليق بعصمة نبي الله سليمان؛ والصحيح الذي لا معدل عنه غير ذلك:

إن الصحيح الذي لا مَعْدِل عنه ـ كما يرى ابن حزم والرازي وغيرهما ـ أن سليمان عليه السلام قد طلب من جُندِه أن يعرضوا الخيل عليه؛ ليرى مدى كثرتها وقوتها وقدرتها على العَدْو والثبات، فعرضت عليه، وهي كما وصفها الله صافنات جياد. والصافنات هي التي تقف على قوائمها الثلاثة وترفع الرابعة، فتقف على مقدم حافرها مُتهيِّئة للعَدْو إذا حركها راكبها، والجياد هي: التي تجيد العَدْو، وتسرع للقاء العَدُوّ، كأنها الريح المرسلة، فلما رآها سليمان وأعجب بكثرتها وقوتها، وشكر الله ﷻ على هذه النعمة العظيمة، وقال في نفسه أو للمقربين إليه: إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي، أي من أجل أن أكون لربي ذاكرًا، والذكر يبعث على الشكر، ويبعث على التفاني في الخضوع والطاعة، فالحرف "عن" في الآية للتعليل؛ أي: أحببتها حبًّا ناشئًا

١. قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق: محمد عبد الملك الزغبي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٣٧٤.

www.kalemasawaa.com

عن ذكري لربي، فلولا الذكر ما أحببت الخيل ولا أعددتها؛ لأن هواي في طاعة الله تعالى، والجهاد في سبيله[١].

والمراد بالخير في الآية: الخيل؛ قال رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"[٢].

وظل سليمان عليه السلام يستعرض الخيل حتى توارت الخيل بالحجاب، أي: استترت بظلمة الليل. وقيل: حتى توارت الشمس بالحجاب، وهو الليل الذي سترها عن الأبصار. وأيا كان فإن المآل واحد، ثم طلب سليمان ردها إليه مرة أخرى فطَفِق[٣] يمسح بيده الشريفة على سوقها وأعناقها إعجابًا بها وحُنُوًّا عليها، وإيماءً للجند بأنه قد وهبها لله عز وجل، ووقفها على الجهاد في سبيله[٤].

يقول الفخر الرازي في تفسيره: إن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقب قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ (ص). وإن الكفار لما بلغوا من السفاهة إلى هذا الحد قال ﷻ لمحمد ﷺ: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ (ص). وذكر قصة داود ثم ذكر عقبها قصة سليمان، وهذا الكلام لا يكون لائقًا إلا بقولنا: إن سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة، والأخلاق الحميدة، وصبر على طاعة الله، وأعرض عن الشهوات واللذات، فلو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذه المواضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة، والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر القصة لائقًا بهذا الموضع، فثبت أن كتاب الله تعالى ينادي على هذه الأقوال بالرد والإفساد والإبطال، بل التفسير المطابق للحق ولألفاظ القرآن، والصواب أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوبًا إليه في دينهم، كما أنه مندوب إليه في دين محمد ﷺ، فاحتاج إلى الغزو، فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها، وذكر أنه لا يحبها لأمر الدنيا ونصيب النفس، وإنما يحبها لأمر الله تعالى وطلب تقوية دينه، وهو المراد من قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾، ثم إنه عليه السلام أمر بتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين أن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور:

- تشريفها وبيان عزتها لكونها من أعظم الأعوان لدفع العدو.
- أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك متطلع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.
- أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها، ويمسح سوقها وأعناقها، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض.

فهذا التفسير الذي ذكرناه يتفق مع عصمة نبي الله سليمان عليه السلام ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات

---

١. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٨٤.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد ماضي مع البر والفاجر (٢٦٤٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٣٤٨٠).

٣. طَفِق: أخذ.

٤. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٣٨٠، ٣٨١.

www.kalemasawaa.com

المحظورات إلى سليمان عليه السلام، ثم قال الرازي: وأنا شديد التعجب من الناس! كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن النقل والعقل يردّها، وليس لهم فيها شبهة فضلًا عن حجة[1]؟!

وقد ذكرنا أن الجمهور اعتذر عن ترك سليمان عليه السلام صلاة العصر بالنسيان، ثم ذكرنا حقيقة هذا الأمر، ولقد اعتذر الجمهور مرةً أخرى عن ذبح سليمان عليه السلام للخيل بأنه كان قربانًا، وكان هذا مشروعًا في دينه. لكن لئن سلم للجمهور اعتذارهم عن ترك سليمان عليه السلام صلاة العصر بالنسيان، **فلا يسلم له ذبح الخيل لأمور:**

١. أن كونه شغل بها حتى نسي الصلاة، لا يدعو إلى التخلص منها بذبحها تقربًا أو غيره؛ لأن النسيان يرفع إثم التأخير.

٢. أن فيه تضييع عدته في جهاد أعداء الله، والحفاظ على دينه، وهذا لا يليق من النبي، إذ إن الخيل ـ وقتها ـ كانت عدة لا يُستهان بها في قتال الأعداء، وفي ذبحها إضعاف لقوة يحتاج إليها قطعًا في مواجهة أعدائه، وتمكين للعدو من نفسه.

٣. أنه لو كان المراد بمسحه بالسوق والأعناق تقطيعها الذي يتطلب جهدًا كبيرًا ومشقة شديدة، لكان يكفي سليمان عليه السلام أن يعهد إلى بعض رعيته بهذا، ولا يُحَمِّل نفسه هذه المهمة الشاقة، أما مسحها بيده فأمر سهل، ويناسب أن يباشره عليه السلام بنفسه.

٤. من أين للجمهور دليلهم على أن تقريب القربان بالخيل كان مشروعًا في دينه؟ فإن قالوا بأن الدليل هو فعله عليه السلام، فيرد عليهم بأن قول الله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ (ص) ليس نصًّا صريحًا محددًا في الذبح، وإنما يحتمل المسح باليد، وهو الأظهر فلا يصلح دليلًا لهم.

٥. أن الأرجح في عود الضمير في "توارت" للخيل لا للشمس؛ لذكر الخيل صريحًا في "الصافنات الجياد"، ولأنها الأقرب إلى الضمير في الذكر، والأنسب في عود الضمير أن يكون إلى أقرب مذكور[2].

فقولهم: إنه ذبحها وفرق لحمها على الفقراء والمساكين؛ لأنها شغلته عن صلاة كان يصليها قبل غروب الشمس، فهو قول ساقط لا يقبله عقل؛ إذ كيف يقضي على هذه القوة الضاربة فيأخذها من مرابطها؛ ليضعها في بطون الجائعين؟ وما ذنب هذه الخيل؟ هل هي التي أنسته صلاته؟ وَهَبْهُ نسي صلاته، هل في النسيان ذنب يوجب ذبح الخيل كلها من أجل أن يكفر الله عنه ذنبه؟ ولِمَ ذلك والله عز وجل يغفر لمن استغفره من غير أن يتقرب بمثل هذا القربان الذي يترتب عليه إهدار قوة لا غنى للجيش عنها، وهي لا تقل عن الريح شأنًا من حيث إنها تلاحق العدو، وتتوسط جمعه، وتدخل الرعب في قلبه، وتصنع الأعاجيب في إحراز النصر بإذن الله عز وجل[3]؟!

يقول ابن حزم في الرد على هذه الشبهة: "وهذه

١. مفاتيح الغيب، الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، عند تفسيره الآية.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٨٠: ٣٨٢.

٣. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٨٤.

www.kalemasawaa.com

خرافة مكذوبة سخيفة باردة، قد جمعت أفانين من القول، والظاهر أنها من اختراع زنديق بلا شك؛ لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها، والتمثيل بها، وإتلاف مال منتفع به بلا معنى، ونسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه، لا على ذنبها، وهذا أمر لا يستجيزه صبي ابن سبع سنين، فكيف بنبي مرسل"[1]؟!

ولقد كان على أولئك المفسرين الذين شغفوا بالنقل عن أهل الكتاب أن يتحروا الدقة في هذا النقل، وأن يكونوا على حذر منه، وأن يعتمدوا على النص القرآني؛ فيأخذوا المعنى من كلماته وحروفه، ويربطوا بين سابقه ولاحقه، ويأخذوا في اعتبارهم الجو الذي يسبح النص في أجوائه، فبذلك يصلون إلى المعاني المرادة من كلامه بتوفيق الله وعونه، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

الخلاصة:

- لقد زعم بعض المتوهمين أن سليمان عليه السلام قد شُغِلَ باستعراض الخيل حتى فاتته صلاة العصر، أو فاته ورد من الذكر كان له حتى غربت الشمس، فلما أحس بالذنب أمر بإحضار الخيل، وطفق يقطع أعناقها وسوقها بالسيف تقربًا إلى الله. والحقيقة أن ما ذهبوا إليه مجرد زعم لا دليل عليه، ولم يرد فيه حديث صحيح عن رسول الله ﷺ.
- اعتذر جمهور العلماء بأنَّ ذبح الخيل كان قربانًا، وأن الغفلة عن صلاة العصر كانت نسيانًا، والصواب أن هذا أمر لا يليق بعصمة نبي الله سليمان عليه السلام، ولا يتفق مع مصالح المملكة السليمانية، فسليمان قد طلب من جُنده أن يعرضوا عليه الخيل؛ ليرى مدى قوتها وكثرتها وقدرتها على العَدْوِ والثبات، فعرضت عليه فرآها وأُعْجِبَ بها وشكر الله عليها، ثم ذكر أن حبه لها حب ناشئ عن ذكره لربه؛ لأن هواه في طاعة الله والجهاد في سبيله، ثم أخذ سليمان ـ بعد أن مضت وتوارت عنه وطلب بردها عليه ـ يمسح بيده الشريفة على سوقها وأعناقها؛ إعجابًا وحُنُوًّا عليها.
- لا يصح أن يكون سليمان عليه السلام قد قام بذبحها؛ لأنها ألهته عن ذكر ربه؛ إذ كيف يقضي على هذه القوة الضاربة؟ وما ذنب هذه الخيل؟ وهل هي التي ألهته عن الصلاة؟ وهل في النسيان ذنب يوجب ذبح الخيل كلها؟ ولم ذاك والله عز وجل يغفر لمن استغفره؟!

الشبهة الحادية والسبعون

الزعم أن سليمان عليه السلام قد فتن افتتانًا لا يليق بنبوته(*)

مضمون الشبهة:

زعم بعض المتوهمين أن سليمان عليه السلام قد فُتِن وابتُلِي، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ (ص). وقد نسبوا إلى سليمان عليه السلام ـ في تفسير هذه الآية ـ ادعاءات شتى لا تليق بنبوته وعصمته، ومن أبرز ما قالوه في ذلك: إن

١. انظر: الفِصَل في المِلَل والنِّحَل، ابن حزم، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت، ج٤، ص١٦.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

الجسد الذي أُلقي على كرسيّ سليمان عليه السلام عبارة عن شيطان، تمثَّل له في صورة إنسان احتال عليه، وأخذ خاتمه الذي كان يصرِّف به ملكه، وقعد على كرسيه، ولم يعد سليمان عليه السلام إلا بعد أن عثر على خاتمه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) آراء بعض المفسرين في تأويل هذه الفتنة وأقوالهم المنقولة عن أهل الكتاب وغيرهم لا تصح ولا تليق بمقام النبوة، ولا يستسيغها عقل راشد.

٢) الادعاءات التي ذُكرت في حق سليمان عليه السلام لم يرد بها قرآن أو حديث صحيح، وهي ادعاءات يمجها العقل ويأباها، وقد ردَّها العلماء وفنَّدوها.

٣) وردت في السنة أحاديث قد تفسر هذه الفتنة تفسيرًا يلائم مع النص القرآني، ويليق بمقام النبوة، ويقبله العقل السليم.

التفصيل:

أولا. نقل بعض المفسرين في تأويل هذه الفتنة عن أهل الكتاب وغيرهم أقوالا لا تصح ولا تليق بمقام النبوة:

"بعد حديث سليمان عليه السلام مع الخيل كما ورد في سورة (ص) جاء حديث آخر ينبئ عن اختبار آخر وقع فيه ثم تاب منه وأناب، واستغفر الله وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب الله له وآتاه من خيْري الدنيا والآخرة ما قرَّت به عينه وسر به قلبه؛ لأنه تميز بصفة هي من أعظم صفات العبودية، وهي الأوبة إلى ربه في كل ما يفعل وما يذر.

قال الله ﷻ: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠)، والأوبة هي: التوبة والإنابة، وإظهار كمال الافتقار إلى الله تعالى في كل شأن وفي كل حال. وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ (ص).

وقد تخبَّط بعض المفسرين في تأويل هذه الفتنة ونقلوا عن أهل الكتاب وغيرهم أقوالًا لا تصح ولا تليق بمقام النبوة، ولا تجد لها في العقل صدًى ولا قبولًا"[1].

ولقد فصل د. محمد أبو النور الحديدي القول في ذلك؛ حيث قال: ونذكر الآن ما حكاه كثير من المفسرين عن ذنب سليمان عليه السلام وسبب وقوع هذا الذنب، المستقى من أقوال كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وبعض التابعين وتابعيهم، ثم نحكم على ذلك الذنب بما يتفق ومسلمات العقل السليم والنقل الصحيح، وأخيرًا نذكر القول الصحيح في فتنة سليمان وأسباب اختياره.

القول الأول: أن الجسد الذي أُلقي على كرسي سليمان عليه السلام عبارة عن شيطان تمثَّل له في صورة إنسان، ثم أخذ من سليمان خاتمه الذي كان يصرف به ملكه. وقعد ذلك الشيطان على كرسي سليمان، ولم يعد سليمان إلا بعد أن عثر على خاتمه. وقالوا في كيفية احتيال الشيطان على سليمان وأخذ خاتمه أقوالًا شتى؛ فمن قائل: إن سليمان سأل الشيطان "آصف" كيف تفتنون الناس؟ فقال: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقائل:

١. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٨٥.

www.kalemasawaa.com

إن فتنة سليمان عليه السلام هي أخذ الشيطان خاتمه من تحت فراشه؛ لأن سليمان كان إذا دخل الحمام وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان. وقائل آخر: إن سليمان أعطى خاتمه لزوجته، ودخل لحاجته فجاء الشيطان في صورته، وأخذ الخاتم، ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يومًا، وساح سليمان أربعين يومًا، وكان يستطعم الناس ويقول: أنا سليمان فيدفعونه ويكذبونه، حتى أُعطي يومًا حوتًا أو سمكة يطيب بطنه فوجد خاتمه في بطنه، فتختم به، ثم جاء فأخذ بناصيته، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ (ص)[1].

القول الثاني: أن سبب فتنة سليمان عليه السلام هو سجود إحدى زوجاته وجواريها لتمثال أبيها في بيته أربعين ليلة وهو لا يعلم، ويحكون في ذلك حكايات مصطنعة؛ أن سليمان بلغه خبر مدينة اسمها "صيدون" بجزيرة في البحر، فخرج إليها بجنوده تحمله الرياح فدخلها، وقتل ملكها وأخذ بنتًا له اسمها "جرادة" من أحسن الناس وجهًا، فاصطفاها لنفسه وأسلمت، فأحبها وكانت تبكي على أبيها أبدًا، فأمر سليمان فمثل لها صورة أبيها، فكستها بمثل كسوته، وكانت تذهب إلى هذه الصورة بكرة وعشيًّا مع جواريها يسجدون لها، فأخبر آصف سليمان بذلك، فكسر الصورة، وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى خلاء، وفَرَش الرماد وجلس عليه تائبًا إلى الله تعالى[2].

القول الثالث: أن سبب فتنة سليمان عليه السلام أنه ولد له ولد فخاف عليه من الشياطين، فأمر السحاب بحفظه وتغذيته، ولكن هذا الولد وقع ميتًا على كرسي سليمان، فاستغفر سليمان ربه؛ لأنه لم يعتمد عليه في حفظ ابنه[3].

القول الرابع: أن فتنة سليمان عليه السلام هي مرضه الذي صار به على كرسيه من الضعف كأنه جسد بلا روح، ثم رجع إلى صحته، فقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ ابتليناه وأمرضناه، وألقيناه على كرسيه ضعيفًا كأنه جسد بلا روح ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، ثم رجع إلى صحته.

القول الخامس: أن السبب في فتنة سليمان عليه السلام قتله الخيل ظلمًا؛ فسُلِبَ ملكه[4].

إلى غير ذلك من الأقوال التي ذكروها في كتبهم، وهي أقوال لم يرد بها القرآن، ولا النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ ولا تدل على عقل ولا على حكمة، فهي حَرِيَّةٌ بالرد، وقد رد عليها العلماء بوجوه، وردها المحقِّقون من العلماء؛ كابن كثير، والرازي، والبيضاوي.. وغيرهم من العلماء.

ثانيًا. هذه الادعاءات في حق نبي الله سليمان عليه السلام لم يرد بها القرآن أو الحديث، ويمجها العقل ويأباها، وقد رد عليها العلماء وفندوها:

١. إن الله ﷻ لم يبين في كتابه الفتنة ما هي، ولا الجسد الملقى على كرسي سليمان عليه السلام ما هو.

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٨٥، ٣٨٦.

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع ساق، ص٣٨٥.

٣. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٣٨٧.

٤. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٨٧، ٣٨٨.

www.kalemasawaa.com

• قال أبو حيان: نقل المفسرون في هذه الفتنة، وإلقاء الجسد أقوالًا يجب براءة الأنبياء منها، يُوقَف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وهي إما من وَضْع اليهود، أو الزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان[1]. وكذلك لم يرد عن نبينا ﷺ حديث يبين ذلك على نحو ما جاء في تلك الأقوال، فما مستند أصحاب هذه الأقوال إذن فيما قالوه؟!

أغلب الظن أن مستندهم هو ما نسب إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره، وهو لا يكفي سندًا في هذا الموضوع الخطير، فقد ذكر بعض العلماء الأجلاء أن صحة نسبة الخبر إلى ابن عباس غير مسلَّم بها، كما جاء عن ابن عباس نفسه أن ذلك من أخبار كعب الأحبار التي رواها عن كتب اليهود، وهي زاخرة بالأباطيل.

• قال ابن كثير: والظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إن صحَّ عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، وقد رُوِيَتْ هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف؛ كسعيد بن المُسيِّب، وزيد بن أَسْلَم.. وجماعة آخرين، وكلها مُتلقَّاة من قصص أهل الكتاب[2].

• ويرى الألوسي: أن نسبة الخبر إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لا تَسْلَم صحتها، وكذا لا تسلم دعوى قوة سنده إليه، وإن قال بها من سمعت، وجاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ برواية عبد الرزَّاق وابن المنذر ما هو ظاهر في أن ذلك من أخبار كعب، ومعلوم أن كعبًا يرويه عن كتب اليهود، وهي لا يوثق بها[3].

٢. لما أقسم إبليس بعزة الله ليُغْوِينَّ الناس أجمعين، أجابه الحق بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحجر). وقد شهد الله لسليمان عليه السلام بمقام العبودية لله، فقال عنه: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ (ص). فكيف تسلط الشيطان إذن على كرسي سليمان مع أنه لا سلطان له عليه[4].

٣. إن الشيطان لو قدر على التشبه في الصورة والخلقة بالأنبياء، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس في صورة محمد وموسى وعيسى ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ما كانوا أولئك، بل كانوا شياطين تشبَّهوا بهم في الصورة؛ لأجل إغواء الناس وإضلالهم، ولما كان ذلك باطلًا؛ لأنه يؤدي إلى إبطال الدين بالكلية ـ كان ما أدَّى إليه باطلًا بالكلية[5].

إن هذه الأقوال لو صحَّت لترتَّب عليها وقوع الممنوع عقلًا وشرعًا، وهو عدم الوثوق بالشرائع. وقد قامت الأدلة الصحيحة على صحة الشرائع والوثوق بها، وما يؤدي إلى الباطل ممنوع. والشيطان لا يتصور

١. المرجع السابق، ص٣٨٨.
٢. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج٤، ص٣٦.
٣. روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ج١٧، ص٣٤٢.
٤. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص٢٩١.
٥. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٨٩: ٣٩١.

www.kalemasawaa.com

بصورة النبي ﷺ في الرؤيا المنامية، قال ﷺ: "مَنْ رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتخيَّل بي"[١]، وإذا كان الشيطان ممنوعًا من هذا في الرؤيا المنامية، فبالأولى هو ممنوع من التمثل بالنبي في حالة اليقظة، وما ثبت لنبي يثبت لغيره، إذ لا فرق، قال أبو حيان: ويستحيل عقلًا وجود بعض ما ذكروه، كتمثيل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدون أن ذلك المقصود هو النبي، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية"[٢].

٤. لو قدر الشيطان على سليمان عليه السلام فعامله هذه المعاملة، لقدر على مثلها من العلماء والزهاد، ومزَّق كتبهم ومحاها وأثبت فيها شيئًا آخر، ولما كان المشاهد خلاف ذلك وأنه لم يقدر من أحد منهم على هذا، وجب أن يكون سليمان عليه السلام ممن لا يقدر عليهم بالأولى[٣].

٥. هذه الأقوال مبنية على أن ملك سليمان عليه السلام مرتبط بخاتمه، فما دام معه الخاتم فالملك ثابت مستقر له، وإن فقد الخاتم سلب منه الملك، وليس لهذا سند من العقل أو النقل، فالعقل يستبعد أن يرتبط ملك سليمان بخاتمه، كما أنه لم يرد عن الله ﷻ ولا عن نبيه ﷺ ما يدل على أن ملك سليمان عليه السلام مرتبط بخاتمه، ولو كان في ذلك الخاتم السر الذي يقولون، لذكره الله ﷻ في كتابه[٤].

٦. إن اتخاذ التماثيل يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع، فقد كان الجن يصنعون لسليمان عليه السلام التماثيل: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ (سبأ: ١٣). أما السجود للتماثيل ـ على القول بأن سبب فتنة سليمان هو سجود إحدى زوجاته وجواريها لتمثال أبيها في بيته أربعين ليلة، وهو لا يعلم ـ فإنه لم يأذن فيه، لعدم علمه به، وعلى ذلك فلا ذنب عليه، بل الذنب على تلك المرأة، وكيف يؤاخذ الله تعالى سليمان عليه السلام بفعل لم يصدر منه، ولم يأذن لغيره فيه؟!

٧. إن سياق الآيات شاهد على بطلان هذه الأقوال، فإن الآيات قبل ذكر الفتنة وإلقاء الجسد، والآيات بعده تدفع أن تكون الفتنة وإلقاء الجسد على نحو ما ورد في هذه الأقوال. فالآيات السابقة تحكي أمر الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ بالصبر على ما يقوله كفار قريش وغيرهم، أن يذكر من ابتُلي فصبر من إخوانه الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كداود وسليمان وأيوب ـ عليهم السلام ـ ليتأسى بهم، ولا يتأتى التأسي إلا وقد صدرت عنهم الأعمال الفاضلة لا الأعمال المشينة.

٨. والزعم بأن الفتنة هي خوف سليمان عليه السلام على ابنه من مضرة الشياطين، وأمره السحاب بحفظه وتغذيته.. فهذا قول تبدو عليه سمات الضعف من وجوه:

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في المنام (٦٥٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب قول النبي ﷺ: "من رآني في المنام" (٦٠٥٦)، واللفظ له.

٢. انظر: عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

٣. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٩٠، ٣٩١

٤. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٩١.

www.kalemasawaa.com

• يبعد أن يبلغ الخوف بنبي الله سليمان عليه السلام، من مضرة الشياطين لابنه، إلى حد أن يأمر السحاب بحفظه وتغذيته، وهل الشياطين يعجزها بلوغ السحاب؟!

• أنه لا يستند إلى حديث صحيح مرفوع إلى نبينا ﷺ حتى يقبل ويطمأن إليه.

• أن تسخير السحاب والريح كان بعد فتنة سليمان عليه السلام كما تدل الآيات.

٩. أما الزعم بأن فتنة سليمان عليه السلام هي مرضه الذي صار به على كرسيه من الضعف كأنه جسد بلا روح ثم رجع إلى صحته، فهو قول ظاهره الضعف لأمور:

• أنّه لو كان المراد مرض سليمان عليه السلام لذكر المفعول، إذ ذكره يحدد المعنى، ولجاءت الآية هكذا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ (ص).

• قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ فإنه يدفعه؛ لأن الأنسب في لفظ الإنابة عقيب ذكر الفتنة أن يكون معناه: الرجوع إلى الله عز وجل.

• قول سليمان عليه السلام بعد ذلك: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ دالٌّ على أن الذي صدر منه من قبيل ترك الأفضل، وليس المرض من هذا القبيل[1].

ثالثًا. وردت في السنة أحاديث قد تفسر هذه الفتنة تفسيرًا ينسجم مع النص القرآني ويليق بمقام النبوة:

ولعل الأرجح في ذلك والصحيح الذي ينسجم مع النص القرآني، ويليق بمقام النبوة ولا ينكره العقل السليم، هو ما جاء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "قال سليمان: لأَطوفَنَّ الليلة على تسعين امرأة كلهنَّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله. فلم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشِقِّ رَجُل، وايمُ الذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله؛ لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون"[2].

صحيح أن هذا الحديث ليس فيه ما يدل على أنه تأويل لمعنى هذه الآية، والبخاري ومسلم لم يضعاه في كتاب التفسير، ولكنه يستأنس به على ما ذكره العدول من المفسرين من أن هذا الشق من المولود جاءت به القابلة على كرسيه، فكانت الفتنة فيه، وهي خيبة أمله فيما عزم عليه حين لم يقل: إن شاء الله[3].

فهذا الحديث قد يبين المراد بالفتنة في الآية، وأنها ترك الاستثناء، وكان نسيانًا، واستغفاره منها هو قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾؛ لأنه ترك الأَوْلَى، والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يستغفرون من ترك الأولى؛ نظرًا لسمو مقامهم. والجسد على هذا هو شق الولد الذي ولد له، وإلقاؤه على كرسيه هو وضع القابلة له عليه ليراه. وهذا القول يرجَّح بأمرين:

الأول: أنه يستند إلى حديث صحيح مرفوع إلى نبينا محمد ﷺ، وأصح التفسير ما كان بالحديث المرفوع.

---

١. المرجع السابق، ص٣٩١: ٣٩٤.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦١٤٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الاستثناء (٣١٢٤)، واللفظ للبخاري.

٣. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٨٦.

www.kalemasawaa.com

الثاني: أن ما يلحق سليمان عليه السلام هو ترك الأولى، وترك الأولى لا يقدح في عصمة الأنبياء، ولا سيما أن الذنب المنسوب إلى سليمان عليه السلام كان نسيانًا ـ كما في رواية مسلم ـ ولا طعن على الأنبياء في صدور الصغائر غير الحسية عنهم سهوًا[1].

الخلاصة:

- لقد تخبط المفسرون في تأويل هذه الفتنة، ونقلوا عن أهل الكتاب وغيرهم أقوالًا لا تليق بمقام النبوة، ولا تجد لها في العقل صدى ولا قبولًا.
- هذه الأقوال والادعاءات في حق سليمان عليه السلام لم يرد شيء عنها في القرآن ولم ينص عليها، ولم ينقل عن النبي ﷺ حديث يبين الفتنة، ويثبت ما قد أورده هؤلاء على جهة القطع واليقين، ويترتب على صحة هذه الأقوال وقوع الممنوع عقلًا وشرعًا، وهو عدم الوثوق بالشرائع، وقد قامت الأدلة الصحيحة على صحة الشرائع والوثوق بها، وما يؤدي إلى الباطل فهو باطل.
- الحديث الذي ورد في صحيح البخاري، وصحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، يوضح أن المراد بالفتنة هي ترك الاستثناء والأولى، وكان ذلك نسيانًا، ثم إنه استغفر منه بعد ذلك، ويُرجح هذا المراد أنه يستند إلى حديث صحيح عن النبي ﷺ، وأن ما يلحق بسليمان عليه السلام هو ترك الأولى، وترك الأولى لا يقدح في عصمة الأنبياء.

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٩٥، ٣٩٦.

الشبهة الثانية والسبعون

ادِّعاء كفر سليمان عليه السلام وعبادته الأصنام (*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن نبي الله سليمان عليه السلام كفر في أُخريات حياته؛ إذ قادته زوجاته إلى عبادة الأصنام من دون الله تعالى.

وجوه إبطال الشبهة:

١) مصدر هذا الكلام هو الكتاب المقدس الذي أصابه التحريف والتغيير، فهو ليس ثقة، وفضلا عن هذا فمعلوم أن اليهود لا يتركون نقيصة صغيرة ولا كبيرة إلا ألصقوها بالأنبياء.

٢) الثابت عند العلماء أن القرآن مصدر ثقة غير محرف، فما ورد به فهو الصحيح الذي تُزكيه الأدلة التاريخية، والمنطق العقلي السليم.

٣) العقل يستنكر أن يفعل ذلك إنسان مؤمن، فما بالنا بالنبي سليمان عليه السلام.

التفصيل:

أولا. مصدر هذا الكلام هو الكتاب المقدس، وهو غير ثقة فقد أصابه التحريف والتغيير:

إن افتراءات اليهود على الأنبياء لم تتوقف عند سليمان عليه السلام، فأنبياء التوراة كلهم لصوص ومجرمون

(*) بنو إسرائيل من التاريخ القديم وحتى الوقت الحاضر، د. محمد الحسيني إسماعيل، مرجع سابق. الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي، د. محمود ماضي، دار الدعوة، القاهرة، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.

® في "نفي كفر سليمان" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة والستين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

وزناة ومفسدون في الأرض، فكيف يؤخذ من هذا الكتاب معلومة أو حكم؟ وكيف يكون مصدرًا لسير الأنبياء؟ ويأليت الأمر وقف عند الأنبياء، بل إن الأدهى من ذلك أن نصوص الكتاب المقدس تصف الله ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ـ بالجهل والعجز والغفلة والنسيان، وتنعته بصفات النقص وأنه ﷻ يعتريه كل ما يعتري البشر من النقص، فهل هذا يصح أن يكون إلهًا؟!

ولقد شهد علماء الأديان والدراسات المقارنة ودائرة المعارف الأمريكية بأن نصوص الكتاب المقدس تمَّ تحريفها، وأن معظمها من وضع البشر النسَّاخ للكتاب المقدس، والنقلة له على مرِّ التاريخ، وهي مليئة بالأخطاء والتناقضات والاضطرابات[1].

والقرآن لم يذكر قصة كفر سليمان عليه السلام التي قادته إليه إحدى نسائه المزعومة، بل نفى عنه الكفر والسحر؛ لأن بعض بني إسرائيل اتهم سليمان بأنه كفر، ويقرر الحق عدم كفره في قول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ (البقرة: ١٠٢)، ويدلنا الحق أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلِّمون الناس السحر، ونكتشف من ذلك أن سليمان عليه السلام لم يكن يعلم السحر، وأن ملكه واستتباب الأمر له لم تكن له علاقة بقضية سحر إنما هي مشيئة الحق سبحانه[2]، فإن نقل أحد من المفسرين مثل هذه الروايات الواهية المكذوبة على سليمان عليه السلام فالقرآن الكريم منها براء، ولا تنسب إلى القرآن ما دامت غير واردة به.

ثانيًا. الثابت عند العلماء أن القرآن مصدر موثوق به؛ لأنه غير محرَّف، فكل ما ورد به الصحيح:

ما أشد الفارق وأبعده بين ما جاء في القرآن الكريم عن سليمان عليه السلام وما جاء في التوراة المحرفة!! فالقرآن ثبتت حجته تاريخيًّا، والتوراة والإنجيل لم تثبت حجتهما.

فهو عليه السلام في القرآن الكريم من رسل الله ﷻ، أيده الله بالملك فآتاه الله مُلكًا لم يهبه لأحد من بعده: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ (ص)، وكان عليه السلام، يقابل هذه النعم العظيمة بالمزيد من الشكر لله تعالى، فقال الله عنه في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل).

وفي القرآن الكريم نفي صريح لكفر سليمان عليه السلام، وكأنه رد مباشر على من اتهمه بهذا الجرم الشنيع من أهل الكتاب؛ قال ﷻ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ وكيف يتفق الكفر وعبادة الأوثان مع نبي ورسول كرَّس كل حياته للدين، ولدعوة التوحيد، ومقاومة الوثنيات؟! وقصته مع ملكة سبأ وقومها في دعوتهم إلى الله تعالى، وعقيدة التوحيد مشهورة؛ حيث كانوا يعبدون الشمس من دون الله، فدعاهم إلى التوحيد،

١. رد القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ج١، ص٩٤.

٢. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٣٨٤.

www.kalemasawaa.com

وأخرجهم من هذه العبادة الوثنية إلى عبادة الله تعالى، والقصة واردة في سورة النمل: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (النمل).

ثالثًا. العقل يستنكر أن يفعل ذلك إنسان مؤمن فما بالنا بالنبي سليمان عليه السلام:

كيف يليق بمن وصفتموه بالحكمة، والعلم، والفلسفة، والشعر عندكم في كتابكم، وهو عن سائر الأنبياء مُفضَّل عندكم بكل صفات الكمال البشري، كيف بمن هذه صفته أن يسقط في عبادة الأصنام، ويترك التوحيد؛ استجابة لرغبة نسائه، وانسياقًا وراء شهواته؟! فهل بقيت بعد ذلك حكمة؟ ومَن مِن العقلاء يصدق أن رجلًا واحدًا يتزوج في وقت واحد بمئات الزوجات بالإضافة إلى الجواري؟! ومتى يتفرغ من هذا شأنه ـ لو صدقنا جدلًا ـ لشئون الحكم؟

وإذا كانت هذه تصرفات أحكم ملك في تاريخ بني إسرائيل، فكيف تكون تصرفات ملوكهم من دونه؟ وكيف تكون تصرفات عامتهم؟!

الخلاصة:

- إن ما ورد في التوراة بشأن عبادة سليمان عليه السلام للأصنام وكفره بالله استجابة لرغبة نسائه ـ باطل ولا يوثق به؛ لأن مصدره محرَّف ومغيَّر، لعبت فيه أيدي العابثين والمفسدين من اليهود.
- الصحيح ما ورد في القرآن الكريم؛ لأنه كتاب مجمع على صحته وأنه غير محرف، وثابت الحجة، وقد ذكر القرآن الكريم: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ (البقرة: ١٠٢).
- العقل الصحيح يستنكر أن يفعل ذلك إنسان مؤمن فكيف يقبل أن يصدر ذلك عن سليمان عليه السلام؟!

الشبهة الثالثة والسبعون

الزعم أن سيدنا سليمان بن داود عليه السلام هو الذي بنى حائط المبكى(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن سليمان عليه السلام هو الذي بنى حائط المَبْكَى، وأن السور الذي بناه سليمان القانوني ـ السلطان العثماني ـ من بناء سيدنا سليمان بن داود عليه السلام، ويهدفون من وراء ذلك إلى قلب الحقائق؛ من أجل إيجاد مكان لهم في التاريخ، وخاصة بفلسطين.

وجها إبطال الشبهة:

١) لا وجود لما يسمى بحائط المبكى في كتب

(*) بنو إسرائيل من التاريخ القديم وحتى الوقت الحاضر، د. محمد الحسيني إسماعيل، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

اليهود المقدسة، ولا في كتبهم التاريخية، ولا حتى في مراجعهم المعاصرة، وهو دليل على زَيْف هذه الدعوى، بل أثبتت المعلومات التاريخية الموثقة أنه حائط البراق.

٢) إن تاريخ ظهور مشكلة الحائط بين العرب واليهود، تاريخ حديث يعود لسنة ١٩٢٩م عندما ظهرت انتفاضة البراق، وصدر حكم اللجنة الدولية بملكية المسلمين له، غير أن هزيمة العرب سنة ١٩٤٨م سمحت بتجديد هذه الصيحة.

التفصيل:

أولا. لا وجود لما يسمى بـ "حائط المبكى" في كُتب اليهود المقدسة ولا في كتبهم التاريخية وتراثهم، ولا حتى في مراجعهم المعاصرة، ولكنه حائط البُراق:

إذا كانت اليهودية قائمة على أساطير في شعائرها وشرائعها؛ وطمس شرائع أنبيائها الحقة؛ فإن أسطورة الأساطير ما يسمونه بـ "حائط المبكى"، فلا وجود لهذا الحائط ولا أثر للبكاء عنده في كتبهم المقدسة مع تحريفها واختلاقها من عند أنفسهم، وهم يزعمون أن حائط المبكى هو جزء من الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف، وآخر أثر من آثار هيكل سليمان عليه السلام ولا أساس لهذا الزعم من الدين، ولا من التاريخ، ولا من القانون، أما دينهم فعلى الرغم من تحريفه فليس في طقوسهم البكاء عند حائط يسمى حائط المبكى.

وأما التاريخ فمن المعروف أن الهيكل المزعوم تعرَّض للهدم أربع مرات، آخرها على يد الرومان عام ٧٠م، فما الذي يمكن أن يبقى من أطلاله بعد أن يُهدم ويُبنى أربع مرات؟!

أما الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف فالجميع يعرفه بأنه حائط البراق، فمنذ حادثة الإسراء عرف أهل القدس سواء بالتواتر أم بالتوارث أنه يوجد مكان في الحائط الغربي في الحرم القدسي يسمى البراق، وتعود هذه التسمية إلى ما ذكرته مصادر إسلامية من أن رسول الله ﷺ حين أسري به إلى المسجد الأقصى عن طريق دابَّة تسمى البراق، فلما وصل المسجد الأقصى ربط البراق في مكان بالحائط الغربي في الحلقة التي يربط فيها الأنبياء من قبل، ثم صلَّى بالأنبياء، ثم عرج به من هناك إلى السماوات العُلَا.

ومن يتابع التاريخ العثماني فسوف يجد عددًا من السلاطين العثمانيين أحسنوا معاملة اليهود قبل ظهور أهدافهم الصهيونية، فقد سمح لهم السلطان محمد الفاتح (٨٥٥: ٨٨٦هـ/ ١٤٥١: ١٤٨١م) بالاستقرار في إستانبول، وعندما طُرِدَ اليهود من إسبانيا عام ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م أصدر السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦: ٩١٨هـ/ ١٤٨١: ١٥١٢م) أمرًا يقضي بحُسْن معاملتهم.

وهكذا أصبحت فلسطين وممتلكات الدولة العثمانية في أوائل القرن السادس عشر ملجأ لليهود المطرودين من إسبانيا والبرتغال، أو الهاربين من أوربا.

وخلال حكم السلطان العثماني سليمان القانوني (٩٢٦: ٩٧٤هـ/ ١٥١٩: ١٥٦٦م) شهدت الدولة العثمانية صحوة حضارية كبيرة، واستفادت مدينة القدس ـ وبيت المقدس بصفة خاصة ـ من جهوده الإصلاحية، فقد أمر بإعادة بناء أسوار المدينة، وبلغ طول السور الذي ما زال قائمًا حتى اليوم ميلين،

www.kalemasawaa.com

وارتفاعه حوالي أربعين قدمًا، ودعا السلطان رعاياه إلى الإقامة في بيت المقدس خاصة اللاجئين اليهود، وقد صدر منذ سنوات كتاب هام عن القدس لمؤلفة أمريكية تذكر فيه أن اليهود لم يُظهِرُوا في الماضي أي اهتمام بذلك الجزء من الحائط، وأن المكان في عهد هيرودوس ـ بعد أن أعيد بناء الهيكل للمرة الثانية ـ كان جزءًا من مركز تجاري، ولم تكن له أهمية دينية، وأن اليهود كانوا يتجمعون للصلاة على جبل الزيتون، وعند بوابات الحرم، وأنهم عندما منعوا من دخول المدينة في أثناء الحروب الصليبية كانوا يصلُّون عند الحائط الشرقي للحرم، وتضيف المؤلفة الأمريكية أن سليمان القانوني هو الذي أصدر فرمانًا يسمح بمكان لليهود للصلاة عند الحائط الغربي، ويقال: إن سنان باشا مهندس البلاط الكبير هو الذي قام بتخطيط الموقع وبالحفر؛ كي يبيح للحائط انتفاعًا أكبر، وقام ببناء حائط مُوازٍ له يفصل مصلى لليهود عن حي المغاربة الذي يعتبر وقفًا إسلاميًّا من آخر القرن ١٣م، وسرعان ما أصبحت المنطقة مركز الحياة الدينية ليهود القدس، ويضيف المصدر أنه لم تكن تقام هناك بعد طقوس رسمية للعبادة، غير أن اليهود كانوا يحبون قضاء فترة ما بعد الظهيرة هناك، يقرءون المزامير، ويقبلون الأحجار، وسرعان ما اكتنف الحائط الغربي أساطير كثيرة، فقد تمَّ ربط الحائط بأقاويل من التلمود تخص الحائط الغربي للهيكل ـ يلاحظ أن هيكل سليمان تمَّ بناؤه وهدمه أربع مرات، وأنهم التقطوا اسم سليمان القانوني، الذي أعاد بناء السور لينسبوه إلى الملك سليمان عليه السلام ـ وهكذا أصبح الهيكل رمزًا لليهود، وأصبحوا يشرعون بتواصلهم مع الأجيال الماضية، وبمجدهم الذي ولَّى.

ومن الواضح أن ما ذكرته المؤلفة الأمريكية من أن سليمان القانوني هو الذي سمح لليهود بمكان للصلاة عند الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف قد حدث فعلًا، حيث ورد في بحث مُقدَّم من روحي الخطيب ـ أمين القدس السابق ـ إلى مؤتمر حماية المقدسات والتراث الإسلامي في فلسطين نص أخذه من الموسوعة اليهودية الصادرة في القدس عام ١٩٧١م، يقول هذا النص: "إن الحائط الغربي أصبح جزءًا من التقاليد الدينية اليهودية حوالى سنة ١٥٣٠م؛ نتيجة الهجرة اليهودية من إسبانيا وبعد الفتح العثماني سنة ١٥٧١م".

ويعني ما ورد في المرجعين الأمريكي واليهودي أن العثمانيين ـ في عهد السلطان سليمان القانوني ـ هم الذين منحوا اليهود حق التعبد والصلاة عند حائط البراق أو الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف من قبيل التسامح الديني مع اليهود، بعد طردهم من إسبانيا بعد الفتح العثماني للقدس سنة ١٥٧١م. ويدعم هذه الحقيقة نص ورد في تقرير اللجنة الدولية لتحديد الحقوق والادعاءات، حيث ذكر أنه وردت إشارة لأحد الباحثين في سنة ١٦٣٥م تتحدث عن إقامة صلوات منظمة عند الحائط لأول مرة. وخلال الحكم المصري للشام (١٨٣١: ١٨٤٠م) كان يسمح لليهود بالاقتراب من الحائط والبكاء عنده مقابل ٣٠ جنيهًا إنجليزيًّا، كانوا يسددونها سنويًّا لوكيل وَقْف أبي مدين. وهو أرض مجاورة للحائط الغربي من المسجد الأقصى، وقفها الملك الأفضل بن صلاح الدين عام ١١٩٣م على الحُجَّاج المغاربة، حيث تمَّ بناء منازل لهم

www.kalemasawaa.com

فيها عرفت باسم "حيّ المغاربة"، ثم أطلق عليها فيما بعد اسم "أبي مدين الغوث"، وتمَّ توثيق الوقفية عام ١٦٣٠م.

لكن إبراهيم باشا أصدر مرسومًا في مايو ١٨٤٠م حظر فيه على اليهود تبليط الممر الكائن أمام الحائط، وسمح لهم بزيارته فقط على الوجه القديم.

ورغم موقف السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦: ١٩٠٩م) من عدم الموافقة على هجرة اليهود إلى فلسطين، فإنه بالنسبة لليهود المقيمين في فلسطين أصدر ـ عام ١٨٨٩م ـ فرمانًا يمنع فيه التعرض للأماكن التي يؤدي فيها اليهود طقوسهم في أثناء الزيارة؛ مما يعني التسامح مع اليهود الذين يتمتعون بالجنسية العثمانية[1].

وقد ورد في مؤلفات مختلفة معاصرة أن السُّيَّاح الذين زاروا الأرض المقدسة ـ خاصة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديَّين ـ ذكروا أن اليهود استمر ذهابهم إلى الحائط وجواره؛ لتقديم تضرُّعاتهم.

أما بالنسبة لما تذكره المصادر اليهودية من علاقة اليهود بالحائط بعد هدمه، فتروي أن اليهود اعتادوا بعد خرابه للمرة الثانية الذهاب إلى أطلاله، لكنها لم تشر إلى البكاء عند الأطلال، كما يذكر عدد من المؤرخين اليهود في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين أن اليهود كانوا يذهبون إلى الحائط لإقامة شعائرهم الدينية خلال الحكم العربي، وأنه في الطور الأخير من احتلال القدس كان اليهود يقيمون صلاتهم الدائمة عند الحائط، فالمصادر اليهودية وحدها هي التي ذكرت ذلك، وليس هناك أدلة ولا شواهد على صدق قولها.

ثانيًا. كيف ظهرت مشكلة الحائط بين العرب واليهود؟ وكيف تطورت؟

عن ظهور مشكلة الحائط وتطورها أعد د. عادل حسن غنيم بحثًا شافيًا في ذلك؛ حيث قال: بدأت جذور المشكلة قبل الحرب العالمية الأولى عندما احتجَّ مُتولِّي أوقاف "أبي مدين الغوث" في ١٣ تشرين الثاني ١٣٣٧هـ/ ١٩١١م على أفراد الطائفة اليهودية الذين جرت عادتهم بزيارة الحائط وقوفًا، ثم أخذوا مؤخرًا يجلبون معهم الكراسي؛ للجلوس عليها أثناء الزيارة، وطلب متولي الأوقاف مَنْع القيام بذلك؛ تجنبًا لادعاء اليهود في المستقبل ملكيَّة المكان، وبناء على ذلك أصدر مجلس إدارة لواء القدس تعليمات تنظم زيارة اليهود للحائط، وتمنع جلب أي مقاعد أو ستائر عند الحائط.

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الأولى، واعتمادًا على تصريح بلفور الذي يعد بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين؛ أخذ اليهود يسعون إلى تثبيت حقوق لهم واسعة في هذا المكان عن طريق تغيير الحالة الراهنة التي كان عليها الحائط قبل الحرب، حيث بدءوا تحركهم عام ١٩١٩م، بما قدموه من عرائض رسمية ونشروه من مقالات، ووصل الأمر إلى نشر صور لهيكل يهودي جديد مكان مسجد الصخرة، يعلوها العلم الصهيوني والكتابات العبرية، وأخذ اليهود يساومون على شراء المنطقة الوقفية الواسعة المحيطة

١. مؤتمر حماية المقدسات والتراث الإسلامي، روحي الخطيب، د. م، د. ت. الموسوعة اليهودية الصادرة في القدس، ١٩٧١م.

www.kalemasawaa.com

بالحائط، وعرضوا أرقامًا باهظة للشراء.

وعندما وقع صَكُّ الانتداب على فلسطين ـ الذي صُدِّق عليه من قِبَل عُصْبَة الأمم في ٢٤ يوليو ١٩٢٢م ـ تضمنت مواده ـ وعددها اثنتا عشرة مادة ـ عددًا من المواد المتعلقة بالأماكن المقدسة، كان أهمها المادة ١٤ التي تنصُّ على ما يأتي:

"تُؤلِّف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدَرْس وتحديد الحقوق والادعاءات المتعلقة بالأماكن المقدسة، والحقوق والادعاءات المتعلقة بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين، وتعرض طريقة اختيار هذه اللجنة وقوامها، ووظائفها على مجلس عصبة الأمم لإقرارها، ولا تُعيَّن اللجنة ولا تقوم بوظائفها دون موافقة المجلس المذكور"، لكن هذه اللجنة لم تُعَيَّن إلا عام ١٩٣٠م، بعد أن أوصت لجنة التحقيق في أسباب انتفاضة البراق عام ١٩٢٩م بسرعة تعيينها، وطوال السنوات ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٨ كان هناك محاولات يهودية لجَلْب مقاعد عند الحائط، لكنهم في عام ١٩٣٨م، حاولوا استخدام خزانة، ومصابيح، وحُصُر، وستائر؛ للفصل بين الرجال والنساء، وأرسل مفتي فلسطين رسائل إلى حاكم القدس يُنبِّهه إلى تلك المخالفات، وصدرت التعليمات من الإدارة المنتدبة في أكثر من موقف بمنع اليهود من جَلْب كراسي أو ستائر إلى الحائط، ولفترة تَقْرُب من العام اعتبارًا من سبتمبر ١٩٣٨ حتى أغسطس ١٩٣٩م، الذي حدثت فيه انتفاضة البراق، حيث حدثت مشادَّات واحتجاجات وتجاوزات كلامية وكتابية وسياسية بين العرب واليهود في فلسطين وخارجها، وشُكِّلت لجنتان: إحداهما عربية للدفاع عن البراق، والأخرى يهودية للدفاع عن المَبْكَى، ودعت لجنة الدفاع عن البراق لعقد مؤتمر إسلامي في أول نوفمبر ١٩٣٨م، حيث احتج المؤتمر على أية محاولات تزعم وجود أي حق لليهود في مكان البراق، وشكل المؤتمر جمعية عرفت باسم "جمعية الأماكن الإسلامية المقدسة".

واستقر في أذهان المسلمين في ذلك الوقت أن اليهود يطمعون في الأماكن المقدسة، وأنهم ينوون الاستيلاء على المسجد الأقصى، ورغم تكرار نفي ذلك من قبل السلطة البريطانية، والمنظمات اليهودية المسئولة في فلسطين، فإن المسلمين في فلسطين لم يصدقوا ذلك، خاصة وهم يرون محاولات مستمرة من اليهود لتغيير الأوضاع المستقرة عند الحائط، وفي هذا الجو المتوتر صدرت قرارات المؤتمر الصهيوني السادس عشر الذي عقد في زيورخ في ٢٨ يوليو إلى ١١ أغسطس ١٩٣٩م، والتي كان من أهمها المطالبة بفتح أبواب فلسطين على مصراعيها لليهود، وبذل الجهود لحمل الحكومة البريطانية على سحب كتابها الأبيض لعام ١٩٣٨م، الذي اعترف بحقوق المسلمين في الأماكن المقدسة، كما عقد فور انتهاء المؤتمر الصهيوني أول اجتماع للوكالة اليهودية التي جمعت الصهاينة واليهود، وتابعت لجنة الدفاع اليهودية عن المبكى نداءاتها المقلقة لإثارة يهود العالم إلى أن يعاد إليهم حائط المبكى.

وأما على الجانب الإسلامي فلم تكن جمعية حراسة الأماكن المقدسة هادئة، فقد كانت تصدر البيانات تباعًا، وكان لكل من الجمعية واللجنة دور مُهِمٌّ في تصاعد هذه الأحداث حتى انفجار الانتفاضة في ١٥ أغسطس ١٩٣٩م، واشتعلت انتفاضة البراق عام ١٩٣٩م، وخلال الشهر التالي للانتفاضة فكرت

www.kalemasawaa.com

السلطة المنتدبة في تطبيق المبادئ التي وردت في الكتاب الأبيض عام ١٩٣٨م، بشأن الحائط وأبلغت ذلك إلى رئاسة الخاخامات في ١١ أكتوبر ١٩٣٩م، غير أن هذه التعليمات لم ترض اليهود؛ لأنهم كانوا يحاولون الحصول على مزيد من الحقوق عند الحائط، ولم ترض العرب الذين كانت بعض هيئاتهم مثل جمعية حراس الأماكن المقدسة ترفض قبول المبادئ المقررة في الكتاب، والتي تقول: إن للطائفة اليهودية حق التوجه إلى الحائط في جميع الأوقات لإقامة الشعائر.

ونتيجة للضغوط اليهودية أصدرت الحكومة البريطانية بيانًا جديدًا في أكتوبر ١٩٣٩م يتضمن تراجعًا عما جاء في كتابها الأبيض، لكن تهديد العرب بالإضراب العام جعل الحكومة تجمد الوضع على ما هو عليه؛ حتى يعاد تنظيم قوة الشرطة، ويتم حماية المستعمرات اليهودية المكشوفة.

وفي ١٣ سبتمبر ١٩٢٩م عين وزير المستعمرات البريطانية لجنة عرفت باسم "لجنة شوا"؛ للتحقيق في الأسباب المباشرة للانتفاضة، ووضع التدابير لمنع تكرارها، وكان من توصيات تلك اللجنة: اقتراح على عصبة الأمم بتشكيل لجنة لتحديد الحقوق والادعاءات بشأن الحائط، ووافق مجلس عصبة الأمم على تشكيلها، وهي لجنة دولية محايدة على أعلى مستوى قضائي وتحكيمي، وبعد أكثر من خمسة أشهر من بدء جلسات اللجنة الدولية في القدس، وبعد أن استمعت إلى ممثلي العرب واليهود، واطلعت على كل الوثائق التي تقدم بها الطرفان، وزارت كل الأماكن المقدسة في فلسطين، عقدت اللجنة جلستها الختامية في باريس من ٢٨ نوفمبر إلى ١ ديسمبر ١٩٣٠م، حيث انتهت اللجنة إلى قرارها الذي استهلته بالفقرة التالية: "للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي، ولهم وحدهم الحق العيني فيه؛ لكونه يؤلف جزءًا لا يتجزأ من مساحة الحرم الشريف، التي هي من أملاك الوقف، وللمسلمين أيضًا تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط، وأمام المنطقة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط؛ لكونه موقوفًا حسب أحكام الشرع الإسلامي لجهات البر والخير".

إن أدوات العبادة وغيرها من الأدوات التي يحق لليهود وضعها بالقرب من الحائط، لا يجوز بحال من الأحوال السماح بها أو أن يكون من شأنها إنشاء أي حق عيني لليهود في الحائط أو في الرصيف المجاور له.

ومن قرارات اللجنة: "منع جلب المقاعد، والحُصُر، والكراسي، والستائر، والحواجز، والخيام، وعدم السماح لليهود بنفخ البوق قرب الحائط".

وقد وضعت أحكام هذا الأمر موضع التنفيذ اعتبارًا من ٨ يونيو ١٩٣١م، وأصدرت الحكومة البريطانية كتابًا أبيض عن الموضوع اعترف بملكية المسلمين للمكان وتصرفهم فيه.

وقد حمل كل من الحُكم الدولي والكتاب الأبيض اليهود على التزام حدودهم، ولم يلبث أن خَفَتَ صوت اليهود ظاهريًّا إزاء مشكلة الحائط. وعلى كلٍّ، فقد كانت قضية النزاع حول الحائط مقدمة للنزاع الكبير على ملكية فلسطين؛ إذ إن اليهود يطالبون بهذه البلاد لتجديد مملكتهم القديمة فيها، ويبنون حقوقهم في مشروع الوطن القومي على هذه الحجة، وهذا الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف هو في اعتقادهم جزء

www.kalemasawaa.com

من هيكل سليمان الذي كان أقدس مكان بتلك المملكة.

فإذا كانوا قد خسروا دعواهم باعتبار أن الملكيات القديمة لا تلغي ملكية جديدة مشروعة مكتسبة بالحق، وبالطرق القانونية التي مر عليها مئات السنين؛ فلا شك في بطلان دعواهم استعادة امتلاك البلاد من الناحية القانونية.

وإذا كان هذا الحكم الدولي الصادر من لجنة محايدة شكلت على أعلى المستويات التحكيمية في العالم، فهو كافٍ من الناحية القانونية لأن نقول: إن الحائط الغربي للمسجد الأقصى هو حائط البراق، وليس حائط المبكى، وإنه مِلْك للمسلمين[1].

وفي هذا السياق يقول د. عادل حسن غنيم: لا أكتفي بهذا الحكم، بل أقدم عددًا من الشواهد والأدلة والقرائن على أن هذا الحائط هو حائط البراق، وليس حائط المبكى:

١. تذكر اللجنة الدولية في تقريرها أن الحجارة الضخمة الكبيرة الكائنة في أسفل الحائط، وعلى الأخص المداميك الستة المنحوتة يرجع عهدها حسب رأي أغلب علماء الآثار إلى زمن الهيكل الثاني الذي أعيد بناؤه، وأنه يعلوها ثلاثة مداميك من الحجارة غير المنحوتة يرجح أنها من بقايا العصر الروماني، ويعني ما ذكرته اللجنة ـ اعتمادًا على علماء الآثار ـ أنه ليس هناك في الحائط الغربي للحرم الشريف أي أثر من بقايا هيكل سليمان عليه السلام.

٢. يؤكد مَرْجِع أَثَرِيٌّ هامٌّ مؤلفه عالم أمريكي كبير ـ كان مدير الهيئة المدرسية الأمريكية للبحوث الشرقية في القدس، ورئيسًا لعدة بعثات أثرية، وعضوًا في عدة أكاديميات عالمية ـ أن أبنية هيرودوس في أورشليم قد مَحَتْ محوًا تامًّا كل أثر للمباني السابقة لها، لدرجة لم يستطع معها الأثريون العثور على معالم مؤكدة من هيكل سليمان عليه السلام.

ويضيف هذا العالم الأمريكي أنه من المؤكد أن هيكل سليمان عليه السلام لم يصمم ليكون مركزًا لحج حشود من الناس، وأنه لم يكن هناك داعٍ في عهد سليمان عليه السلام لإقامة مبنى ضخم كما هو الحال في عهد هيرودوس، حيث إن بنَّائي هيرودوس قد نزلوا حتى الصخر الطبيعي؛ ليكون لهم الأساس الذي يتحمل ثقلًا جبَّارًا.

ولعل هذا يفسر لنا أنه رغم قيام سلطات الاحتلال منذ عام ١٩٦٧م بالحفر في مناطق مختلفة أسفل ساحة الحرم ومساجدها واستمروا في الحفر حتى الآن، لم يجدوا أية إشارة واضحة إلى وجود أساسات لهيكل سليمان.

٣. إن اليهود لم يدَّعوا أمام اللجنة الدولية ملكية الحائط، ولا ملكية الرصيف الكائن أمامه، لكن اللجنة هي التي رأت أن من واجبها التحقيق في مسألة الملكية قانونًا.

إن كل ما طالب به ممثلو اليهود أمام اللجنة هو الاعتراف بحقهم في الدعاء أمام الحائط، وحقهم في السلوك إليه وفقًا لطقوسهم وشعائرهم الدينية دون مداخلة أو ممانعة، وأن يكون من حق رئاستهم الدينية في فلسطين وضع أية أنظمة ضرورية للقيام بهذه

١. انظر: حائط البراق وليس حائط المبكى، د. عادل حسن غنيم، مجلة رؤية، السلطة الفلسطينية، د. ت.

www.kalemasawaa.com

التضرعات والصلوات.

٤. بمراجعة وثيقتين أساسيتين معاصرتين عن الحركة الصهيونية لم أجد كلمة واحدة عن حائط المبكى؛ الأولى: هي كتاب "الدولة اليهودية" لتيودور هرتزل الذي يتحدث فيه بالتفصيل عن الدولة اليهودية المرتقبة، والثانية: نص يتعلق بفلسطين والصهيونية في تقرير لجنة كنج كرين الأمريكية المؤرخ في ٢٨ أغسطس ١٩١٩م، وهي اللجنة التي أرسلتها الحكومة الأمريكية للتعرف على حقائق تدور في المشرق العربي قبل اتخاذ قرار بشأن مستقبل المنطقة، وقد استمعت اللجنة لمطالب المسلمين واليهود؛ حيث تحدث اليهود بشكل مفصل عن برنامجهم الصهيوني.

فإذا كان الصهاينة لم يتحدثوا في أي من الوثيقتين عن حائط المبكى أو يطالبوا بملكيته، فكيف نسمح لأنفسنا بترديد عبارة لم يذكروها في وثائقهم؟ ولو كان الأمر أساسيًّا بالنسبة لهم ما فاتتهم الإشارة إلى هذا الحائط ضمن خططهم وبرامجهم.

٥. في محاولة من د. عادل حسن غنيم لتقصي الأمر، ومحاولة العثور على شواهد وأدلة تساعدنا على الوصول للحقيقة، قام بمناقشة أستاذين كبيرين من أساتذة اللغة العبرية وهما: د. رشاد الشامي، د. إبراهيم البحراوي حول استخدام عبارة "حائط المبكى" في المراجع العبرية، فأكدا أن اليهود لا يستخدمون في مراجعهم هذه العبارة، وإنما يستخدمون عبارة "الحائط الغربي" ـ هاكونيل همعرافي ـ باعتبارها أكثر دلالة على حائط المبكى؛ لأنها تعني بالنسبة لهم أن جزءًا من الحائط هو بقايا هيكلهم، واهتمامًا منهما ببحث الموضوع تمَّ الرجوع إلى الموسوعة العبرية الموجودة بمكتبة كلية الآداب جامعة عين شمس، حيث تبين أن الموسوعة تشير أيضًا إلى "الحائط الغربي" ولم تشر إلى عبارة "حائط المبكى"، وأضافت الموسوعة أنه بمرور السنين استخدم اليهود ذلك الجزء من السور مكانًا للصلاة، وأصبح مقدسًا في وعي الأمة كمكان للتوحد الديني مع ذكر مجد إسرائيل من جهة، وذكرى خراب الهيكل من ناحية أخرى، وبالرجوع إلى القاموس العربي العبري الذي أصدرته وزارة الدفاع الإسرائيلية عام ١٩٧٧م، ط٥، تبين أنه كُتب أمام العبارة العبرية "كوتيل هدماعوت" عبارة: "حائط الدموع" باللغة العربية، ولم يستخدم القاموس عبارة "حائط المبكى".

فإذا كانت اللجنة الدولية قد أصدرت حكمًا بملكية المسلمين للحائط. وإذا كان معظم علماء الآثار قد أكدوا أنه ليس في الحائط الغربي للحرم الشريف أي آثار أو حجارة من بقايا هيكل سليمان، وإذا كان اليهود لم يدَّعوا أمام اللجنة الدولية ملكيتهم للحائط، وإذا كانت بعض الوثائق الأمريكية واليهودية المهمة لم تشر بكلمة واحدة إلى حائط المبكى، وإذا كان أساتذة العبريات يؤكدون أن اليهود لا يستخدمون في مراجعهم المعاصرة "حائط المبكى"، بل يسمونه الحائط الغربي؛ فمن أين أتى الإعلام الغربي بعبارة "حائط المبكى"؟!

إن هذه العبارة لم نجد استخدامًا لها إلا في عام ١٩٢٩م، قبل انتفاضة البراق وخلالها بواسطة البيانات التي كانت تذيعها لجنة الدفاع اليهودية عن المبكى، ثم توقف استخدام تلك العبارة بعد انتهاء انتفاضة البراق، وصدر حكم اللجنة الدولية بملكية

www.kalemasawaa.com

المسلمين للحائط، ولم أجد استخدامًا لهذه الكلمة منذ انتفاضة البراق حتى الهزيمة العربية عام ١٩٦٧م، حيث شاع منذ ذلك الحين استخدام هذه العبارة حتى الآن، فما مصدر هذا الاستخدام؟

يُعتقد أن مُخطِّطي الإعلام الغربي والصهيوني قد نجحوا في إدخال مثل هذه العبارات في عقولنا وألسنتنا عن طريق ما ترسله وكالات الأنباء من أخبار وصور، كما أن استخدام هذه العبارات على لسان بعض الكتاب العرب، الذين زاروا القدس والحائط منذ أواخر السبعينات قد ساعد على إشاعة هذه العبارة بين فصائل الرأي العام العربي. وإذا كان من حق اليهود أن يطلقوا على الحائط ما يشاءون من أسماء، وأن يذرفوا ما يشاءون من دموع، أليس من حق العرب والمسلمين أن يطلقوا على الحائط عبارة حائط البراق؟! وهي التسمية التي يؤيدها التاريخ، والتراث، والقانون الدولي.

وإذا كان الصهاينة والإعلام الغربي ـ الذي يساندهم ـ قد نجحا في نقل مصطلحاتهما إلى عقل المواطن العربي، ألا يجعلنا ذلك نزداد تتبعًا ووعيًا وإدراكًا لما يحيط بنا من تحديات؟!

إن القضية ليست مجرد شكليات أو ألفاظ عابرة، لكنها أعمق من ذلك بكثير؛ لأن اهتمام اليهود بهذا الحائط ليس سوى ذريعة لتدعيم مزاعمهم، فهم يتخذونه غطاءً دينيًّا لاغتصاب القدس العربية الإسلامية، ومبررًا لاستثارة مشاعر اليهود وعواطفهم[1].

الخلاصة:

- لا وجود لما يسمى بحائط المبكى في كتب اليهود المقدسة، ولا في كتبهم التاريخية وتراثهم، ولا حتى في مراجعهم المعاصرة.
- لم يبق لهيكل سليمان عليه السلام الذي يزعمون أن حائط المبكى جزء منه وجود ولا أثر، بعد أن هدم أربع مرات آخرها عام ٧٠م.
- أثبتت المصادر والوثائق اليهودية والأمريكية عدم وجود أي أثر لهيكل سليمان عليه السلام، وبالتالي لما يسمى بحائط المبكى.
- قضت المحكمة الدولية التي شكلتها عصبة الأمم بملكية المسلمين لحائط البراق وما حوله، وما جاوره من أوقاف.
- لم يدَّع اليهود أنفسهم وهم يقدمون دعواهم لهذه اللجنة ملكية هذا الحائط، وإنما طالبوا بتمكينهم من إقامة طقوسهم عنده.
- الحائط الغربي الذي يضم حائط البراق وليس حائط المبكى جُدِّد على يد سليمان القانوني العثماني، ومنذ العهد العثماني سُمِحَ لليهود بأداء بعض شعائرهم عند الحائط الغربي.
- بدأت فكرة حائط المبكى والبكاء عنده منذ انتفاضة البراق عام ١٩٢٩م، واختفت عقب صدور حكم اللجنة الدولية بملكية المسلمين له، وتقرير اللجنة الأمريكية، ومرسوم ملكي بريطاني بذلك، وجُدِّدت هذه الصيحة بعد هزيمة العرب عام ١٩٦٧م.
- نجاح الإعلام الغربي في نقل المصطلحات

١. المرجع السابق.

www.kalemasawaa.com

الصهيونية واليهودية إلى المواطن العربي، والسيطرة على ثقافته الإعلامية عن قضية الحائط، ومن هنا يجب علينا التمسك بتراثنا المقدس، ومصطلحاتنا العربية والإسلامية.

الشبهة الرابعة والسبعون

ادِّعاء خطأ القرآن في ذكر قصة وفاة سليمان عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين خطأ القرآن في ذكر قصة وفاة سليمان عليه السلام، ويتساءلون: كيف يموت سليمان الملك ولا يعلم أحد من رعيته ـ أو حتى نسائه ـ لمدة سنة، وهو قائم على عصاه دون صلاة أو طعام أو نوم؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن لم يحدد مدة مَكْث سليمان عليه السلام ميتًا، بل هي نُقول المفسرين عن أهل الكتاب.

٢) صحة هذه الروايات أو عدم صحتها أمر لا علاقة للقرآن به، وجلُّ هذه الروايات منقول عن أهل الكتاب والمشكوك في صحتها.

التفصيل:

أولا. القرآن لم يحدد مدة مكث سليمان ميتًا، بل هي نقول المفسرين عن أهل الكتاب:

عرض القرآن الكريم قصة سليمان عليه السلام في أكثر من موضع، بَيْد أنه في عرضه للقصة لم يذكر تفاصيل قصة الوفاة، فقط أشار إلى أشياء فيها؛ حيث قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ (سبأ).

فلم يذكر في الآية القرآنية مدة مكث سليمان ميتًا متكئًا على عصاه، وكل ما ورد في هذا الشأن إنما هي نقول للمفسرين استندوا فيها إلى الإسرائيليات وأخبار أهل الكتاب، دون التثبت من صحتها.

والآية الكريمة تكتفي بالحديث عن عدم علم الجن الغيب؛ بدليل أنهم مكثوا في العمل الشاق: ﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ وهم لا يدرون أن سليمان عليه السلام قد مات لولا رؤيتهم دابة الأرض قد أكلت العصا، وتكتفي الآية بذلك دون تحديد تفاصيل عن المدة التي مكثها وهو ميت.

وقد استبعد الشيخ عبد الوهاب النجار هذه الأقوال، ورجَّح أن يكون سليمان عليه السلام قد مات ميتة معتادة، وأن الجن قد وجدوا عصاه قد أكلتها الأَرَضَة، فعرفوا من خلال ذلك أنه قد مات. وعليه فأنت تجد أن هذه الأقوال التي دفعت المشككين إلى الاعتراض على القرآن الكريم، ليست حجة على القرآن الكريم. فالمقصود والظاهر من الآية الكريمة هو تكذيب دعوى الجن التي كانوا يدعونها للناس من أنهم يعلمون الغيب.

ويعلق الصابوني على الآية قائلًا: "وهنا إشارة لطيفة، وهي أن الجن كانت توهم الناس بمعرفة الغيب، فلما مات سليمان ولم يعلموا بموته، وهم في

(*) موقع الكلمة

www.kalemasawaa.com

أعمالهم الشاقة التي كلفهم بها سليمان؛ اتضح الأمر بكذب دعواهم"[١].

ثانيًا. صحة هذه الروايات أو عدم صحتها أمر لا علاقة للقرآن به:

ذكرنا أن القرآن لم يتعرض للتفاصيل الواردة في قصة وفاة سليمان عليه السلام، وإنما كان مقصوده التنبيه على عدم معرفة الجن للغيب وكشف كذبهم للناس، ولكن هل هذه الروايات تستساغ عقلًا أو لا؟

يستبعد بعض المفسرين أن يمكث سليمان ميتًا متكئًا على عصاه سنة كاملة قائلًا: إنه من غير المعقول أن يمكث مدة طويلة تمر فيها الأعياد ولا يقوم بالطقوس الدينية، كما أنه من غير المعقول أن يمكث هذه المدة الطويلة ولا يعلم أحد به، خاصة أنه كان ملكًا، فعليه مسئولية إقامة العدل بين الناس، ومقابلة الوفود من الملوك، ومطالعة العرفاء والرؤساء في مشكلاتهم[٢].

في حين يرى بعضهم أنه لا مانع من أن يموت سليمان عليه السلام ويظل متكئًا على عصاه سنة كاملة على هيئة المصلي، والجن تعمل بين يديه خوفًا منه؛ لأن القرآن قال: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ (سبأ: ١٤)، فلا بد أنهم مكثوا في العذاب مدة طويلة، ويرون أنه لا مانع من أن تمر الأعياد والطقوس الدينية وتأتي سليمان زوجته في العيد فتراه واقفًا على عصاه بهيئة المصلي فترجع، ولم لا يجوز أن تكون عادة سليمان أن يتعبد وحده عبادة خاصة به، وفي حال قيامه بها لا يستطيع أحد من الإنس والجن أن يقرب من مكانه؟ وكذلك ما المانع أن يكون له عرفاء ورؤساء ينوبون عنه في مقابلة الوفود، وفي أداء هذه المهمات، وأن يكون هناك قضاة من قبله يفصلون في الخصومات كما هو الحاصل اليوم[٣].

وبالنظر إلى وجهتي النظر يتضح لنا أن الوجه الأول هو المقبول، والذي يرجحه العقل والمنطق؛ إذ إنه يتطابق مع الهدف الأساسي من الآية، وهو تكذيب دعوى الجن التي كانوا يدعونها للناس من حيث إنهم يعلمون الغيب، وما حدث من موت سليمان عليه السلام بالكيفية التي وقع عليها حسبما أراد الله، وعدم معرفتهم بذلك ـ خير دليل على كذب دعواهم.

الخلاصة:

- القرآن الكريم لم يحدد مدة مكث سليمان عليه السلام ميتًا، والروايات التي تحدد مدة موته عليه السلام ــ سواء قبلها البعض أم لم يقبلها ـ ليست حجة على القرآن الكريم.
- ما ذهب إليه بعض المفسرين من كلام أهل الكتاب تحريف بيِّن، لكن القرآن الكريم صريح في

١. انظر: قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٩٩: ٤١٤. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ، ص٣٩٥، ٣٩٦.

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤١١.

٣. المرجع السابق، ص٤٠١: ٤٠٨. وانظر: موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ج١، ص١٠٦١ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

الإتيان بما يوافق العقل والمنطق.

الشبهة الخامسة والسبعون

ادِّعاء أن العُزَيْر عليه السلام ابن الله(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن العزير ابن الله، مستدلين على ادعائهم هذا بأنه كَتَبَ التوراة بعد ضياعها من صدور اليهود؛ ولذلك قالت اليهود: والله ما أوتي عزير هذا إلا لأنه ابن الله.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن اتخاذ الولد من قبل البشر للضعف المستحكم فيهم، فهم يتخذون الولد لإيجاد المعين، وتخليد الذكر بعد الوفاة، وإلى غير ذلك من الأسباب، والله ﷻ مستغن عن كل هذه الأسباب.

٢) إن أدلة النقل والعقل تنفي عن الله ﷻ اتخاذ الولد، وتثبت أنه محض افتراء.

التفصيل:

أولا. اتخاذ الأولاد يكون له أسباب، وليس هناك سبب لأن يتخذ الله ولدًا:

إن هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله ﷻ وكمال عظمته، ذلك أن متخذ الولد ضعيف يحتاج إلى معين، وقد تعددت الأسباب التي من أجلها اتخذ الإنسان الولد، وحُصرت فيما يأتي:

- أنه يريد أن يُبْقي ذكره في الدنيا بعد أن يرحل، والله ﷻ هو الحي الذي لا يموت.
- أنه يريد إعانة ابنه له عندما يكبر ويضعف، والله ﷻ هو القوي.
- أنه يريد أن يرث ماله وما يملك، والله ﷻ يرث الأرض ومن عليها.
- أنه يريد أن تكون له عزة ومنعة باستكثار الولد، والله ﷻ عزيز بلا ولد ولا عشيرة.

وكما هو ملاحظ فإن هذه الأسباب تتلبس بالضعيف المفتقر إليها، لا القوي الغني عنها، إذ كيف يستقيم القول عقلًا بأن الله ﷻ المنزَّه عن كل نقص يتخذ ولدًا، واتخاذُ الولد نقصٌ يطعن في كمال ألوهيته وربوبيته؟! وهذه آية جلية تدل على أن هذه العقيدة عقيدة باطلة افتراها قلب غير سليم، أنزل الإله من مقام الألوهية إلى مقام البشرية، ثم كيف لرسول معصوم موحى إليه أن ينقل عن ربه كلامًا ينتقص من كمال صفاته؟! تعالى الله عما يقولون [1].

ثانيًا. الأدلة النقلية والعقلية تنفي بنوة العزير عليه السلام لله ﷻ:

١. الأدلة النقلية:

لقد رد الله ﷻ على اليهود زعمهم حيث يقول:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ

(*) العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، د. أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغبي، مرجع سابق.

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٣٩٦ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

﴿ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ (التوبة)، أي يشابهون في قولهم: "إن عزيرًا ابن الله" قول الأمم الوثنية القديمة التي كانت تقول بتعدد الآلهة، وهو محض زعم لا دليل عليه، بل هو تقليد أعمى، وحقد دفين من قبل اليهود لرب العزة، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص)، وهي سورة صريحة في نفي الولد، والوالد، والصاحبة عن الله ﷻ.

وقوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (البقرة)، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ (مريم)، وقال الله ﷻ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المؤمنون).

إن هذه الآيات وغيرها تضافرت لتأكيد حقيقة نفي الولد عن الله ﷻ، فآية البقرة السالفة تنزهه ﷻ عن ذلك وتستشكل حصوله، ولسان مقالها وحالها، كيف يتخذ الولد؟! وقد ملك السماوات والأرض وما فيهما. وكأنها تشير إلى سبب رئيسي في اتخاذ الولد، وهو ابتغاء المعين والمساعد، والله منزَّه عن ذلك؛ لأنه أغنى الأغنياء، وفي آية سورة مريم نلحظ أن القرآن الكريم قد تدرج في ذكر الأدلة الداحضة، فالسماوات تمور، والأرض تتصدع، والجبال تندك؛ لهول هذا الادعاء وشدته، وهي آية كونية عظيمة تفيد أن الكون برُمَّته عبد ذليل لله ﷻ، وقد أحصاهم الله تعالى على كثرتهم - كما تؤكد الآية - وسيبعثهم يوم القيامة فرادى. ويستمر القرآن في عرض أدلته الداحضة في آية سورة المؤمنين، وهي تشتمل على دليل أقوى من سابقيه، ذلك أن الله ﷻ خاطب العقلاء ممن يتخذون لله الولد بما مُفاده أنه لو اتخذ الولد - تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا - لطمحت نفس الولد إلى الألوهية وزاحمته عليها، أو شاركته فيها، والمشاركة مظنة التنازع والتنافس والخصام لبغى أحد الشريكين على الآخر، ولو أجزنا لله ذلك - وحاشاه تعالى - لفسد الكون، وضاعت مصالح العباد، وتبدّدت الحكمة التي من أجلها خلق الله الناس في الأرض واستعمرهم فيها، ألا وهي العبادة.

٢. الأدلة العقلية:

- **الشبهة تتنافى مع العقل والمنطق السليمين:**

السبب الذي جعل اليهود يزعمون أن عزيرًا ابن الله، هو أن عزيرًا قد كتب التوراة بعد ضياعها من صدور اليهود؛ ولذلك قالت اليهود: والله ما أوتي عزير هذا إلا لأنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا؛ فالله ﷻ ليس بحاجة إلى أحد من خلقه حتى

www.kalemasawaa.com

يتخذ له ولدًا، فالذي يبحث عن الولد ويتخذه لا بد أن يكون نتيجة شعوره بالحاجة، وحاجته بالفعل تتمثل في حاجته للوقوف بجانبه عند كبره، وحاجته لإبقاء ذكره من بعده.. وما إلى غير ذلك من صنوف الحاجات البشرية، لكن الغني مطلقًا ما حاجته إلى الولد؟

والذي يتخذ له ولدًا من الطبيعي أن يكون بينه وبين ولده تجانس وتشابه، فإذا كان الوالد إنسانًا كان الولد كذلك، وإذا كان الوالد حيوانًا كان الولد كذلك، وهكذا لو صح كلامهم لكان عزير إلهًا! ولو سلمنا بذلك الزعم، فهل يصح أن يكون للكون إلهان؟!

إن هذا ما لم يكن ولن يكون، إن ما في الكون من سنن ثابتة، وقوانين مطردة، ونظام محكم يدل على وحدانية الإله الخالق لهذا الكون؛ لأنه لو اشترك في الخلق أكثر من إله لفسد الوجود؛ لأن من شأن الإله أن يكون تام العلم، نافذ الأمر،مطلق الإرادة، كامل القدرة؛ فإذا كان كل واحد منهما متصفًا بهذه الصفات فلا بد أن تظهر آثارها في الوجود، وعندئذٍ يقع التنازع والاختلاف الذي يؤدي إلى الفساد، ويتفق هذا مع ما استقر في فطرة البشر من أن تعدد الرئاسة للشيء الواحد يؤدي إلى تضارب الآراء واختلاف الأهواء، فإذا كان هذا من صفات البشر الذين يتصور انقياد بعضهم لبعض، فكيف يكون الأمر بالنسبة للألوهية التي تقتضي الكبرياء والعلو والهيمنة والعظمة؟

وهكذا نجد أن التعدد يؤدي إلى الفساد، ولما كان الكون بريئًا من الاختلاف منزَّهًا عن الفساد، فإن ذلك دليل على وحدة خالقه وصانعه، وهو الله ﷻ، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾(الأنبياء)، وإذا كانت النتائج الملموسة في الواقع تصدِّق صحة الفرض، كان ذلك دليلًا على أن الفرض صحيح، أما إذا كانت نتائجه فاسدة فإن ذلك يكون دليلًا على فساد الفرض، وتسمى هذه الطريقة في المنطق بطريقة التفنيد، وقد بَيَّنَ القرآن أن افتراض تعدد الآلهة يؤدي إلى فساد الوجود، لكن الوجود غير فاسد، إذن فهذا الافتراض فاسد، والقول بوحدانية الإله هو الصحيح؛ ويسمى الدليل الذي استخلصه المتكلمون من الآية الأولى هنا دليل التمانع.. ومما قالوه في هذا الدليل: إننا إذا افترضنا وجود إلهين، وأراد أحدهما شيئًا فإما أن يستطيع الآخر إرادة ضده أولا يستطيع، وكلا الأمرين محال، لما يترتب عليهما؛ لأنه إذا أراد أحدهما حركة شيء وأراد الثاني سكونه، فإما أن يقع الأمران معًا، وهذا غير ممكن؛ لأن الشيء لا يكون متحركًا ساكنًا في وقت واحد باعتبار واحد، وإما أن يتخلف الأمران معًا فيكون الشيء لا ساكنًا ولا متحركًا وهذا باطل أيضًا؛ لأن الشيء لا بد أن يوصف بواحد منهما فيكون متحركًا أو ساكنًا، فيلزم وصف الإلهين ـ على هذا الفرض ـ بالعجز؛ لعدم نفاذ إرادتهما، فإذا تحقق مراد أحدهما دون الآخر، فالذي تحقق مراده يكون هو الإله، أما العاجز فلا يوصف بالألوهية.

- **التوحيد والفطرة الإنسانية:**

أوضح القرآن أن الإيمان بإله واحد هو الذي يستقيم مع الفطرة الإنسانية؛ لأن مثل هذا الاعتقاد

www.kalemasawaa.com

يؤدي إلى استقامة الشعور، ووحدة الاتجاه، ووحدة الولاء؛ لأن صاحب هذه العقيدة يرجع الأمر كله لله: خلقًا، ورزقًا، وإحياءً، وإماتةً، وتصريفًا، وتدبيرًا، وإعطاءً ومنعًا، ورفعًا وخفضًا، فإذا آمن الإنسان بهذا إيمانًا راسخًا ثابتًا في القلب والضمير، فإنه لن يتوجه بقلبه ومشاعره وعبادته إلا لهذا الإله وحده، يرجو رحمته، ويخشى عذابه، لا يتوكل إلا عليه ولا يلجأ إلا إليه، ولا يطلب حوائجه إلا منه، تقرُّ عينه بعبادته، ويهفو قلبه إلى قربه ومحبته، يصبر على بلائه، ويرضى بقضائه، يشكو إليه ضره، ويرجو منه خيره، فيزداد لله شكرًا وطاعةً وقربًا، فإذا كان المؤمن ـ على هذا الحال ـ استقامت نفسه، واطمأن قلبه وتوحدت مشاعره، وتحددت قبلته: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ (هود)، وأيقن أن لا إله للكون إلا إله واحد.

وعلى هذا فلا نستطيع أن نصف عزيرًا بأنه "ابن الله" لدليل واهٍ لم يثبت أمام الأدلة النقلية والعقلية التي أوردناها، فضلًا عن أن اليهود لهم هوًى في إسباغ خِصال البشرية على الذات الإلهية، والمطلع على التوراة يقف على صحة هذا الكلام.

الخلاصة:

- لقد قامت الأدلة النقلية والعقلية على استحالة أن يكون لله ﷻ شريك أو ولد، وهو ليس بحاجة إلى أحد من خلقه حتى يتخذ ولدًا، فالذي يبحث عن الولد ويتخذه لا بد أن يكون هذا نتيجةً لشعوره بالحاجة، ولكن الغَنِيّ غِنًى مطلقًا لا يحتاج أحدًا؟!
- ثم إن الكون ليس له إلا إله واحد وهو الله رب العالمين، ولو كان ما يقولونه صحيحًا لثبت أن يكون عزير أيضًا إلهًا، وهذا ما لا يستقيم عقلًا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنبياء).
- إن اليهود لهم هوى في إنزال الإله من مقامه العظيم إلى مقام البشرية الناقص، فهم لا يتركون أية مناسبة لإلصاق وصف الألوهية بعظمائهم بدون بينة.

الشبهة السادسة والسبعون

ادِّعاء خطأ القرآن في ذكر أسماء لا وجود لها؛ مثل: عزير (*)

مضمون الشبهة:

يُنكر بعض المتوهمين وجود رجل يُدْعَى "عزير"؛ لعدم وروده في الكتاب المقدس، ويدَّعون أن القرآن أخطأ في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠).

وجها إبطال الشبهة:

١) إن كلمة "عزير" الواردة في القرآن وردت في الكتاب المقدس بلفظ "عزرا" دون تصغير في سفر كامل، ومن ثم فلا وجه لوصم القرآن بالخطأ.

٢) الأحداث التاريخية وشهادات المؤرخين يثبتان وجود "عزير" أو "عِزْرَا"، واليهود يُقدِّسونه ويطلقون عليه لقب "ابن الله".

(*) قناة الحياة الفضائية، زكريا بطرس، برنامج "أسئلة الإيمان"، الحلقة ٨٢.

www.kalemasawaa.com

التفصيل:

أولا. كلمة "عزير" الواردة في القرآن وردت في الكتاب المقدس بلفظ "عزرا" في سفر كامل:

إن الذي سماه القرآن الكريم "عزيرًا"، والذي قال في حقه اليهود - كما حكى الله عنهم في القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾(التوبة) هو الذي يسميه أهل الكتاب "عزرا"، وله سفر في العهد القديم باسمه، وهو مكون من عشرة إصحاحات، والظاهر أن يهود العرب صغَّروه بالصيغة العربية للتحبيب، وصرفوه، واستخدم القرآن هذه الصيغة؛ والتصرف في أسماء الأعلام المنقولة من لغة إلى أخرى - معروف عند جميع الأمم[1].

يقول الطاهر ابن عاشور: وعزير: اسم حَبْر كبير من أحبار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي، واسمه في العبرانية عِزرا - بكسر العين المهملة - بن سرايا من سِبْط اللاويين، كان حافظًا للتوراة، وقد تفضل عليه كورش ملك فارس فأطلقه من الأسر، وأطلق معه بني إسرائيل من الأسر الذي كان عليهم في بابل.. فأعاد شريعة التوراة من حفظه، فكان اليهود يعظمونه إلى حد أن ادَّعى عامتهم أن عزرا ابن الله غلوًّا منهم في تقديسه، والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة، وتبعهم عامتهم، وأحسب أن الداعي لهم إلى هذا القول أن لا يكونوا أخلياء من نسبة أحد عظمائهم إلى بنوة الله تعالى... كما قال متقدموهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨)[2].

ثانيًا. الأحداث التاريخية وشهادات المؤرخين يثبتان وجود عزرا:

ذكر الشيخ سيد قطب أن الشيخ رشيد رضا قد أورد في الجزء العاشر من "تفسير المنار" أخبارًا مفيدة عن مكانة عزرا عند اليهود، وعلَّق عليها كذلك تعليقًا مفيدًا ننقل منه هنا فقرات تفيدنا في بيان حقيقة ما عليه اليهود إجمالًا. قال: جاء في "دائرة المعارف اليهودية" أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ المِلِّي لليهودية الذي تفتحت فيه أزهاره، وعَبَق شذا وَرْده، وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة لو لم يكن جاء بها موسى فقد كانت نُسيت، ولكن عزرا أعادها أو أحياها، ولولا خطايا بني إسرائيل لاستطاعوا رؤية الآيات - المعجزات - كما رأوها في عهد موسى.. وذكر فيها أنه كتب الشريعة بالحروف الآشورية - وكان يضع علامة على الكلمات التي يشك فيها - وأن مبدأ التاريخ اليهودي يرجع إلى عهده.

وقال د. جورج بوست في "قاموس الكتاب المقدس": عزرا - عون - كاهن يهودي، وكاتب شهير سكن بابل مدة ارتحستا الطويل الباع؛ وفي السنة السابعة لملكه أباح لعزرا بأن يأخذ عددًا وافرًا من الشعب إلى أورشليم نحو سنة ٤٥٧ ق. م، وكانت مدة السفر أربعة أشهر، وفي تقليد اليهود يشغل عزرا

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج١٠، ص٢٨٣.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، مج٦، ج١٠، ص١٦٨.

www.kalemasawaa.com

موضعًا يقابل بموضع موسى وإيليا؛ ويقولون: إنه أسَّس المجمع الكبير، وإنه جمع أسفار الكتاب المقدس، وأدخل الأحرف الكلدانية عوضًا عن العبرانية القديمة، وأنه ألف أسفار " الأيام" و " عزرا" و"نحميا".

ويُعلِّق الشيخ سيد قطب فيقول: إن المشهور عند مؤرخي الأمم ـ حتى أهل الكتاب منهم ـ أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في تابوت العهد أو بجانبه، قد فقدت قبل عهد سليمان عليه السلام؛ فإنه لما فتح التابوت في عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كُتبت فيهما الوصايا العشر[1]، كما تراه في سفر الملوك الأول، وأن عزرا هذا هو الذي كتب التوراة وغيرها بعد السبي بالحروف الكلدانية، واللغة الكلدانية الممزوجة ببقايا اللغة العبرية التي نسي اليهود معظمها.

ويقول أهل الكتاب: إن عزرا كتبها كما كانت بوحي أو بإلهام من الله.. وهذا ما لا يسلمه لهم غيرهم، وعليه اعتراضات كثيرة مذكورة في مواضعها من الكتب الخاصة بهذا الشأن، حتى من تآليفهم، كـ "ذخيرة الألباب" للكاثوليك، وقد عقد الفصلين الحادي عشر والثاني عشر لذكر بعض الاعتراضات على كون الأسفار الخمسة لموسى. ومنها قوله: جاء في سفر عزرا ـ ٤ف ١٤ عدد ٢١ ـ أن جميع الأسفار المقدسة حرقت بالنار في عهد نبوخذ نصر، حيث قال: "إن النار أبطلت شريعتك فلم يعد سبيل لأي امرئ أن يعرف ما صنعت!"[2] ويزيد على ذلك أن عزرا أعاد بوحي الروح القدس تأليف الأسفار المقدسة التي أبادتها النار، وعضده فيها كتبة خمسة معاصرون، هم القديس ثرثوليانوس، والقديس إيريناوس، والقديس إبرونيموس، والقديس يوحنا الذهبي، والقديس باسيليوس، وغيرهم يدعون عزرا: مرمم الأسفار المقدسة المعروفة عند اليهود.

نكتفي بهذا البيان هنا، ولنا فيه غرضان:

أحدهما: أن جميع أهل الكتاب مدينون لعزير هذا في مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم.

وثانيهما: أن هذا المستند واهي البنيان متداعي الأركان. وهذا هو الذي حققه علماء أوربا.

فقد جاء في ترجمة عزرا من "دائرة المعارف البريطانية" بعد ذكر ما في سفره، وسفر نحميا من كتابته للشريعة: أنه جاء في روايات أخرى متأخرة عنها أنه لم يعد إليهم الشريعة التي أحرقت فقط، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التي كانت قد أتلفت، وأعاد سبعين سفرًا غير قانونية، ثم قال كاتب الترجمة فيها: وإذا كانت الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم، ولم يستندوا في شيء منها إلى كتاب آخر، فكتاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقًا.

وجملة القول: أن اليهود كانوا ـ وما يزالون ـ يقدسون عزيرًا هذا، حتى إن بعضهم أطلق عليه لقب

---

١. جاء في القرآن الكريم عن هذه الواقعة قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (البقرة: ٢٤٨).

٢. ونحن نقول: إن قول القرآن أصدق، وقد قرر أنه كان هناك بقية.

www.kalemasawaa.com

"ابن الله"، ولا ندري أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما، أم بمعنى قريب من فلسفة وَثَنِيِّي الهند التي هي أصل عقيدة النصارى؟! وقد اتفق المفسرون على أن إسناد هذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم[1] [2].

الخلاصة:

- ليس هناك خطأ في القرآن كما يدعي بعض المغرضين؛ فالذي سمَّاه القرآن الكريم "عُزَيرًا"، هو الذي يسميه أهل الكتاب "عِزْرا"، وهذا أمر طبيعي؛ لاختلاف اللغات واللهجات.
- أسفار التوراة وما نسب إلى عزرا تثبت وجود هذا الرجل، وكذلك تثبت الشهادات التاريخية من قبل المؤرخين اليهود والنصارى وجوده.
- إن بعض اليهود ما زالوا يُقدِّسون عزيرًا، ويطلقون عليه لقب "ابن الله"، فلماذا ينكرون هذه التسمية إذن، ولا سيما أن له في كتابهم المقدس سفرًا باسمه ؟!

الشبهة السابعة والسبعون

ادِّعاء خلط القرآن بين هاجر أم إسماعيل، ومريم أم عيسى (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم خلط بين هاجر أمِّ إسماعيل، ومريم أم عيسى، ويستدلون على دعواهم بقوله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ (مريم)، وقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾(مريم)، فيزعمون أن هاجر هَرَبت إلى البَرِّيَّة بإسماعيل، ولما عطشت هيَّأ الله لها عين ماء فشربت منها، أمَّا مريم العذراء فلم تهرب إلى برية، ولا احتاجت إلى الماء، ولا كانت تحت نخلة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ليس في القرآن خلط بين هاجر أم إسماعيل ومريم أم عيسى، إنما الخلط في عقول هؤلاء المدَّعين وأفهامهم المنحرفة.

٢) كان خروج هاجر وولدها بأمر من الله ﷻ لإبراهيم عليه السلام بأخذهما إلى تلك الأرض، ليُعَمّر بهما ذلك الوادي.

٣) هناك العديد من أوجه الاختلاف بين قصة خروج هاجر ومريم، التي تنفي وقوع خلطٍ أو تشابه، يؤدي إلى الخلط بين القصتين.

---

١. ونحن نرى أنه لا مجال لهذا التردد، فإن النص القرآني يلهم أن قول اليهود: "عزير ابن الله" هو كقول النصارى: "المسيح ابن الله"، كلاهما مقصود به ما يضاهي قول الذين كفروا من قبل! فهو من إسناد البنوة التي تخرج قائلها من دين الحق، وتلحقه بالكافرين والمشركين.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص١٦٣٦، ١٦٣٧ بتصرف.

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.

www.Islamiyat.com
www.kalemasawaa.com

التفصيل:

أولا. ليس في القرآن خلطٌ بين هاجر أم إسماعيل ومريم أم عيسى عليهم السلام:

للمسيح عيسى عليه السلام ولأمه البتول مريم ابنة عمران مكانة سامية في قلوب المسلمين وفي كتابهم، يؤكد ذلك وجود سورة كاملة في القرآن الكريم باسم مريم، على حين لا تجد في الإنجيل سفرًا واحدًا باسمها.

إن القرآن الكريم تناول قصة المسيح عيسى عليه السلام وأمه في أكثر من موضع، تناول القرآن ميلاد أمه، وكفالة زكريا عليه السلام لها، كما تناول عبادتها في بيت المقدس، وتناول أيضًا قصة حملها بعيسى عليه السلام، وقصة وضعه، ومعجزاته، وعرض القرآن دعوته إلى التوحيد وعبوديته لله، كما أفرد أيضًا مشهد محاكمة المسيح عيسى عليه السلام وهو واقفٌ بين يدي الله يوم القيامة وعرضه بدقة، وتحدث القرآن عن نبوته، وعن موته عليه السلام، وتناول عقيدة النصارى فيه.

إن عقيدة المسلمين في عيسى عليه السلام وأمه ـ شأن سائر جوانب اعتقادهم ـ منضبطة ودقيقة، وخالية من التَّخبُّط والخلط، على عكس ما هو موجود عند غيرهم كالنصارى واليهود، ولم لا والقرآن الكريم هو الكتاب السماوي الخاتم المهيمن، المصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، لايستطيع أحدٌ أن يشكك في حفظه ونقله ودقته، فلا يوجد فيه خطأ واحدٌ على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان، ولم لا والله تعالى حفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر)، ونفى أن يدخله أو يداخله باطل؛ فقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: ٤٢)، وهو بذلك لا يقارن بكتاب سماوي آخر قد حُرِّف، وتدخلت فيه أيدي البشر؛ فالكتاب المقدس مثلًا بشهادة طائفة من علماء الغرب المنصفين يشمل على نحو خمسن ألف خطأ[1].

إن القرآن الكريم هو الكتاب الخاتم المهيمن على ما سبق من كتب، وهو الذي ارتضاه الله كتابًا خاتمًا تستنير منه وبه الأجيال المتتابعة من لدن بعثة النبي محمد ﷺ إلى يوم القيامة، ومن الغريب أن يأتي بعد ذلك جاهل متخبط ليقول: إن القرآن به خطأ وتخبط؛ لأنه ذكر أن مريم ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ (مريم)، وهي لم تخرج إلى الصحراء، ولم تلد تحت نخلة،ولم تأكل وتشرب؛ لأنها لم تكن في حاجة إلى الماء، وإننا سنلخص ردنا عليه بما يلي:

مريم قبل حملها بعيسى عليه السلام:

إن مريم جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس، وإن زوج أختها أو خالتها ـ نبي ذلك الزمان ـ زكريا عليه السلام كفلها، واتخذ لها محرابًا، وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحدٌ عليها سواه[2].

إذن كانت مريم تقطن بيت المقدس، فأين ولدت المسيح إذن؟ هل ولدته ببيت المقدس؟!

قصة ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت في سورة مريم:

يقول الطبري في تفسيره لقوله تبارك وتعالى:

---

١. انظر: مؤلفات أحمد ديدات: المجموعة الثالثة، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، كتاب المختار، القاهرة. الحوار دائمًا، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م، ص٧٠.

٢. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٤٢٠ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ (مريم): فاعتزلت بالذي حملته ـ وهو عيسى ـ وتنحَّت به عن الناس مكانًا قصيًّا. يقول: مكانًا نائيًا قاصيًا عن الناس، يقال: هو بمكانٍ قاصٍ وقَصِيّ بمعنى واحد، كما قال الراجز:

لَتَقْعُدِنَّ مَقْعَدَ القَصِيِّ

مِنِّي ذِي القاذُورَةِ المَقْلِيِّ

يقال منه: قصا المكان يقصو قصوًا، وإذا تباعد. وأقصيت الشيء: إذا أبعدته وأخرته[1].

وعن السدِّي قال: لما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب الشرقي منه فأتت أقصاه. وقال ابن عباس ﷺ في قوله ﷻ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ (مريم: ٢٣): ألجأها المخاض إلى جذع النخلة[2].

هذه هي قصة ميلاد المسيح كما رواها الإمام الطبري ــ رحمه الله ـ وجميع المفسرين من بعده، والعجيب أن أحدًا منهم لم يقل: إن هذه الآيات هي قصة هاجر أم إسماعيل وليست مريم أم عيسى!

قال الحافظ ابن كثير: "قال محمد بن اسحاق: شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل ـ يعني مريم ـ فما دخل على أهل بيتٍ ما دخل على آل بيت زكريا. قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم، وانتبذت مكانًا قصيًّا".

١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، ج١٨، ص١٦٦، ١٦٧.

٢. المرجع السابق، ج١٨، ص١٦٨.

وقوله ﷻ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾: فألجأها واضطرها الطَّلْق إلى جِذْع النخلة، وهو ـ بنصِّ الحديث الذي رواه النسائي بإسنادٍ لا بأس به عن أنس مرفوعًا، والبيهقي بإسناده عن شداد بن أوس مرفوعًا أيضًا ـ ببيت لحم[3].

هذا هو ابن إسحاق، وهو رأس علماء المسلمين في السيرة يروي قصة ميلاد المسيح عليه السلام كما رواها الإمام الطبري صاحب التفسير، والعجيب أنه لم يأت أحدٌ من علماء السيرة بقول جديد يخالف قول ابن إسحاق، أو يدعي أن هذه القصة ليست قصة ميلاد المسيح عليه السلام.

رواية العلماء عن أهل الكتاب لقصة ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام:

رُوِي عن الحَبْر الذي أسلم وَهْب بن مُنَبِّه ـ كان أحد أعلم الناس بأخبار أهل الكتاب في زمانه ـ أنه قال: لما حضر ولادها ـ يعني مريم ـ ووجدت ما تجد المرأة من الطلق خرجت من المدينة مغربة من إيلياء حتى تدركها الولادة إلى قرية من إيلياء على ستة أميال يُقال لها "بيت لحم"، فأجاءها المخاض إلى أصل نخلة إليها مِذْوَد بقرة[4] تحتها ربيعٌ من الماء فوضعته عندها[5].

سبب انتباذ مريم بالمسيح عيسى عليه السلام مكانًا قصيًّا:

وربما سأل سائلٌ فقال: إذا كان الانتباذ هو

٣. انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص٣٩٠.

٤. المِذْوَد: المكان الذي يُوضع فيه العَلَف للدابة.

٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، ج١٨، ص١٧٠.

www.kalemasawaa.com

الاعتزال فلماذا انتبذت به الناس واعتزلتهم؟

يقول الإمام الزمخشري: لعل ذلك يرجع إلى ما لحقها من فرط الحياء والتستُّر من الناس على حكم العادة البشرية، ولا كراهة لحكم الله، أو لشدة التكليف عليها؛ إذ بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة، وبضد ما قرفت به من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام؛ لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح، وتستوجب التعظيم ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيبًا يعاب به، ويعنف بسببه[١].

ويقول المراغي: إنما اتخذت المكان البعيد حياءً من قومها، وهي من سلائل بيت النبوة؛ ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة، فرأت ألا تراهم وألا يروها[٢].

المكان الذي ولدت فيه مريم المسيح عليه السلام:

يقول د. عبد الوهاب النجار: ولما حان انفصال جنين مريم ألجأها المخاض إلى جذع نخلة هناك في الموضع الذي فيه مدينة بيت لحم وهي على بضعة من الكيلو مترات من بيت المقدس[٣].

موقع بيت لحم مهد المسيح عليه السلام:

يقول ياقوت الحموي: بيت لحم: بالفتح وسكون الحاء المهملة. بُلَيدة قرب بيت المقدس... مكان مَهْد عيسى ابن مريم.[٤] وبيت لحم مدينة فلسطينية تقع جنوب الضفة الغربية تقع على بعد حوالي ١٠ كم جنوب القدس الشرقية[٥].

وهكذا يتبين لنا أن السيدة مريم هربت من قومها ـ ببيت المقدس ـ حتى أتت بيت لحم ـ مكانًا قصيًّا ـ وهناك عند النخلة التي يجري بالقرب منها نهر صغير ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ (مريم) ولدت مريم ابنة عمران المسيح عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله.

هذه هي القصة كما وردت في القرآن وكتب التفسير والسيرة، وقصص الأنبياء، وكلها تقرر أن الآيات الواردة في سورة مريم تتكلم عن قصة ولادة مريم المسيح عليه السلام، وأنها ليست هاجر أم إسماعيل عليه السلام؛ لأن هاجر خرجت بولدها إلى مكة وليس إلى بيت لحم، ولأنها خرجت بعد أن ولدت إسماعيل، في حين تتكلم آيات سورة مريم عن قصة مريم حين ولادة المسيح ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ (مريم: ٢٣).

ومن المعروف أن المخاض هو ألم الولادة أو ما يعرف بـ "الطلق"، ومن حقنا الآن أن نتوجه إلى هذا المتوهم والمغالط بعدد من الأسئلة قائلين له: إذا كنت تنكر أن مريم هربت إلى البرية ـ لأسباب عدَّة ـ وأنها حملته: ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ (مريم) ألم تكن مريم تقيم مع قومها وأهلها في بيت المقدس، فلماذا إذن ولدت المسيح في بيت لحم التي تبعد عن بيت المقدس بـ ١٠ كم؟

---

١. الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، بيروت، د. ت، ج٢، ص٥٠٦.

٢. المرجع السابق، ص٤٥٨.

٣. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٥٢. انظر: قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٤٢٣ وما بعدها.

٤. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

٥. موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

www.kalemasawaa.com

ليس أمام المدعي إلا أن يجيب بإحدى إجابتين، إما أن ينفي ميلاد المسيح عليه السلام ببيت لحم، وفي هذه الحالة يقع في الطعن في نصوص الإنجيل، ويكذِّب بما ورد فيه، ففي إنجيل متى: "ولما وُلِد يسوع في بيت لحم اليهودية، في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود مَلِك اليهود؟ فإننا رأينا نَجْمه في المشرق وأتينا لنَسْجُد له". (متى ٢: ١، ٢)، وإما أن يجيب بأن مريم انتبذت به مكانًا قصيًّا على نحو ما أخبر القرآن فولدته في بيت لحم، وبهذا الجواب يكون قد أقام الحجة على نفسه[١].

أما الطعن في قوله ﷻ: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ (مريم: ٢٦) بحجة أن مريم لم تكن في حاجة إلى الماء؛ لأنها لم تكن عطشى فهو طعن مردود على صاحبه، يدفعه ما سقناه وأثبتناه سلفًا ـ بلا خلافٍ بين أهل العلم من المسلمين وأهل الكتاب، وبلا خلاف بين القرآن والإنجيل في شأن مكان ميلاد المسيح عليه السلام حيث أثبتنا أنه ولد ببيت لحم في حين كان مقام أمه مريم ابنة عمران ببيت المقدس، وعليه فهل من المعقول أن تسير امرأة حامل بها آلام المخاض مسافة ١٠ كم دون أن تأكل أو تشرب، ثم تكون بعد ذلك في غير حاجة للطعام أو للماء؟!

يبقى أن نسأل المدَّعي في النهاية: ما سند دعواه وما أدلته على ذلك؟ ومن قال بقوله طوال أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان هي مدة وجود القرآن في الأرض أيًّا كانت ديانة القائل وأيًّا كان اتجاهه؟ ولماذا اتخذ النصارى المشرق قبلة لهم، مع العلم أنهم كانوا يستقبلون بيت المقدس في زمن عيسى عليه السلام، وما استقبلوا الشرق إلا بعد رفعه عليه السلام[٢] ولم يكن استقبالهم للشرق بنص من الكتاب المقدس أو تشريع من الله؟

يجيب عن هذا السؤال الإمام الزمخشري فيقول: "إنَّ النصارى اتخذت الشرق قبلةً؛ لانتباذ مريم مكانًا شرقيًّا"[٣].

ثانيًا. كان خروج هاجر وولدها بأمر من الله ﷻ لإبراهيم عليه السلام بأخذهما إلى تلك الأرض ليعمر بهما ذلك الوادي:

لم يأت في القرآن الكريم تفصيل لقصة هاجر وإسماعيل عليه السلام، وإنما جاء ذلك في السنة النبوية المطهرة، وإغفال هذه التفاصيل حجة للقرآن، وليست حجة عليه.

وقد ورد في السُّنَة ـ التي ما هي إلا وَحْي يُوحى ـ أن الله ﷻ أمر إبراهيم عليه السلام أن يخرج بهاجر وولدها إلى مكة ويتركهما هناك؛ وذلك ليعمر الله بهما هذا الوادي المبارك، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوحَة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ٨، ج١٦، ص٨٤.

٢. عيسى ومريم في القرآن والتفاسير، مجموعة مؤلفين، ترجمة: يوسف قزما خوري، دار الشروق، الأردن، ط١، ١٩٩٦م، ص٤٤٧.

٣. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٥.

www.kalemasawaa.com

جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قَفَّى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم.. أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق الخليل إبراهيم عليه السلام، حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال نبي الله ﷺ: "فلذلك سعى الناس بينهما". فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صَهْ ـ تريد نفسها ـ، ثم تَسمَّعتْ فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعتَ إنْ كان عندك غُواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعَقِبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تَغْرِف من الماء في سِقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: "يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عينًا معينًا". قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة؛ فإن ها هنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيِّع أهله"[1][2].

ثالثًا. هناك العديد من أوجه الاختلاف بين قصة هاجر ومريم:

إن كان هناك وجه تشابه بين قصة هاجر ومريم وهو خروج كلتيهما من بلديهما إلى مكان آخر، فإن هناك أوجه اختلاف بين القصتين محصلتها استحالة وقوع خلطٍ أو لبسٍ بينهما.

أوجه الاختلاف والتباين بين قصة هاجر ومريم:

١. إن في القرآن سورة تسمى سورة مريم، تعرض قصة حمل مريم وخروجها ووضعها المسيح عيسى عليه السلام بكل تفاصيلها، في حين لا توجد سورة في القرآن باسم هاجر، ولم يتعرض القرآن لقصة خروجها إلى مكة إجمالًا ولا تفصيلًا، اللهم إلا آية في سورة إبراهيم، ولم يرد فيها ذكر هاجر ولا قصتها، وإنما وردت قصة هاجر في السنة النبوية المطهرة.

٢. إن مريم حملت بلا زوج، في حين حملت هاجر

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿يَزِفُّونَ ٩٤﴾ (الصافات) (٣١٨٤).

٢. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص١٢٠.

www.kalemasawaa.com

بإسماعيل عليه السلام من إبراهيم عليه السلام.

٣. إن مريم خرجت إلى بيت لحم، في حين خرجت هاجر إلى مكة.

٤. إن مريم عندما خرجت كانت حاملًا بعيسى عليه السلام في حين خرجت هاجر بإسماعيل عليه السلام وهو رضيع.

٥. إن مريم نزلت بمكان فيه نخلة ـ أي زرع ـ وماء، في حين نزلت هاجر بوادٍ غير ذي زرعٍ ولا ماء.

٦. إن هاجر خرجت بأمر زوجها ـ وبوحي من الله ـ وكان برفقتها، في حين أخرج مريم خوفها من أهلها وآلام المخاض، ولم يكن برفقتها أحد.

٧. إن مريم اتجهت للشرق، أما هاجر فللجنوب.

بهذه الأوجه يتبين لنا أن الخلط بين القصتين ضرب من الوهم وطمسٌ للحقيقة.

الخلاصة:

- لم يخلط القرآن الكريم بين هاجر ومريم، بل أفرد لمريم ـ أم المسيح عليه السلام ـ سورة تحدث فيها عن قصة حملها وولادتها.
- لا يوجد من أهل العلم طوال أربعة عشر قرنًا من ينكر على القرآن إقراره بانتباذ مريم مكانًا قصيًّا عن بيت المقدس، بل أكد العلماء من أهل الكتاب ذلك.
- خرجت مريم بحملها؛ خوفًا من القيل والقال، وحتى لا تُمس بسوء، ولبى الله حاجتها إلى الطعام والشراب وهي في حاجة إليهما.
- إن عدم ذكر القرآن لتفاصيل قصة هاجر وعدم وجود اسمها به حجةٌ له وليس حجة عليه.
- هناك من أوجه الاختلاف بين هاجر ومريم ما يدفع وقوع خلطٍ أو تشابهٍ يؤدي إلى الخلط بينهما.

الشبهة الثامنة والسبعون

توهم خطأ القرآن في تسمية مريم "أخت هارون" (*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن القرآن خلط بين مريم أم المسيح ومريم أخرى كانت أختًا لهارون وموسى. وأنه خلط لم يقع مثله في الكتاب المقدس، مع مخالفة القرآن للأناجيل الأربعة فيما أورده عن مريم.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأخوة التي ذكرها القرآن الكريم في قوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ (مريم: ٢٨) هي أخوة الدين والصفة، وليست أخوة النسب.

٢) القرآن هو وحي الله ﷻ المنزل، المحفوظ، بشهادة المخالفين قبل المسلمين، أما الكتاب المقدس فهو كتابات بشرية لم تسلم من التحريف والخطأ بقصد أو بدون قصد، فلا وجه للمفاضلة بينهما.

(*) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م.

® في "المراد بـ "أخت هارون" في القرآن الكريم" طالع أيضًا: الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم).

www.kalemasawaa.com

التفصيل:

أولا. الأخوة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ هي أخوة الدين والصفة، وليست أخوة النسب:

ويتضح ذلك من السياق الذي وردت فيه هذه التسمية، فقد وردت في موقف تعجب، واستنكار، وتوبيخ ثقيل عوتبت فيه مريم بهذا الأسلوب، كأنما أراد قومها أن يقولوا لها: يا مريم، يا من كنا نراك أختًا لهارون في إيمانه، وصفاته وأخلاقه، أيجوز منك أن تصنعي ما صنعت؟!

والمسلمون بوصفهم عربًا ورثوا من أعراف لغتهم وبيئتهم ما ينفي وقوع لبس في المعنى، حيث كانوا يؤاخون بين أصحاب الصفات المشتركة، فقد آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ لاشتراكهم في الإيمان، وأيد القرآن الكريم هذا المعنى بإقراره أخوة الدين في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ (الحجرات).

وبهذا البيان يتضح أن أخوة مريم لهارون بهذا العرف لا تعنى أخوة النسب، وإنما تعنى الاشتراك في الصفات الإيمانية والخلقية، التي يستبعد معها إتيان مريم لما توهموا من الفعلة القبيحة.

ويذكر أنَّ أبا مريم هو: عمران بن ياشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يهفا شاط بن إيشاين إيان بن رحبعام ابن سليمان بن داود، وكان أكثر أجدادها من الأحبار، فهي نسل طيب من نسل طيب، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ (آل عمران)[1].

ومعنى آل عمران: مريم وعيسى عليهما السلام.

ثانيًا. القرآن الكريم هو وحي الله تعالى المنزل الثابت المحفوظ، أما الكتاب المقدس فهو شهادات بشرية لم تسلم من التحريف والخطأ بقصد أو بدون قصد:

ثبت أن القرآن وحي من الله ﷻ، وليس بكلام بشر، ولا مقتبس من أي مصدر بشري، ونكتفي هنا بشهادة د. موريس بوكاي عن القرآن بعد مقارنته بين الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، فهو يقول: "وهناك فرق آخر جوهري بين المسيحية والإسلام، فالإسلام لديه القرآن الذي هو وحي منزل وثابت معًا؛ فالقرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ عن طريق جبريل، وقد كتب فور نزوله، ويحفظه المؤمنون ويتلونه عند الصلاة، وخاصة في شهر رمضان، وقد رُتِّب في سور بأمر من محمد ﷺ نفسه، وجُمِعت هذه السور فَوْر موت النبي ﷺ، وفي خلافة عثمان ـ من السنة الثانية عشرة إلى السنة الرابعة والعشرين التالية لوفاة محمد ﷺ ـ ذلك لتصبح النص الذي نعرفه اليوم.

أما الكتاب المقدس، فإنه يختلف بشكل بَيِّن عما حدث بالنسبة للقرآن؛ فالإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة، وإننا لا نملك ـ مثلًا ـ أي شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى، وهذا خلافًا لما يتصوره الكثير من المسيحيين"[2].

---

١. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٣٣٥.

٢. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دائرة المعارف الأمريكية، القاهرة، د. ت، ص٧٨، ٧٩، ٢١٠.

www.kalemasawaa.com

وبناءً على ما تقدم فالقرآن الكريم هو الصدق الذي بقي، وإن من خالف القرآن فإن مخالفته للقرآن كافية في إقامة الحُجَّة على كذبه وتكذيبه، أما محاولة جمع أسماء: عمران، وهارون، ومريم، لإثبات تناقض التاريخ القرآني لأخبار مريم، فهذا هو الباطل والتزييف بعينه، فلم يقل القرآن: إن هارون موسى هو هارون مريم، ولم يقل القرآن: إن عمران والد مريم هو عمران والد موسى، ولا مانع ـ عقلًا ـ أن تتعدد الأسماء في الأمة الواحدة، خاصة إذا كانت أسماء مشهورة لمشاهير كأنبياء أو صالحين، ولا مانع أن يكون في أمة اليهود أكثر من شخص يُسمَّى هارون، ومريم، وعمران.

ومن الثابت تاريخيًّا أن أصحاب الأناجيل دوَّنوا أناجيلهم من أفواه الناس، ولم يأخذوها من وحي الله تعالى لهم، ولا يجدي ـ بعد ذلك ـ أن يقولوا: هي بوحي الله.

وبمعرفة هذه الحقيقة التاريخية لا يحق للمتوهمين أن يحتجوا بصحة الأناجيل، أو يدَّعوا أنها المعيار الذي يُقاس عليه صحة أية أخبار وردت في غيرها[1].

الخلاصة:

- الأُخوة التي ذكرها القرآن الكريم في قوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ عن السيدة مريم هي أخوة الدين والصفة، وليست أخوة النسب، فأخوة مريم لهارون ـ بما تعارف عليه العرب ـ أخوة مبنيَّة على الصفات المشتركة بينهما، كما آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ لاشتراكهم في صفة الإيمان تحقيقًا لقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ (الحجرات).

- ثبت أن القرآن الكريم وحي من الله ﷻ وليس كلام بشر، ولا مقتبسًا من أي مصدر بشري بكل وسائل الإثبات، ولم يقل القرآن الكريم إن هارون موسى هو هارون مريم، ولم يذكر أن عمران والد مريم هو عمران والد موسى.

- إن أصحاب الأناجيل دونوا أناجيلهم من أفواه الناس ولم يأخذوها من وحي الله لهم، ولا يجدي بعد ذلك أن يقولوا: هي من وحيه ﷻ، فقد وقع الاختلاف فيما بينها بما يتنافى مع صحتها، وبما يمنع جعلها معيارًا يقاس عليه صحة أية أخبار وردت في غيرها.

الشبهة التاسعة والسبعون

ادعاء خطأ القرآن في عدم ذكر سبب انتباذ مريم العذراء(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن أخطأ؛ لأنه لم يذكر السبب في انتباذ مريم مكانًا شرقيًّا، واتخاذها حجابًا من دون أهلها. ويتساءلون: هل تشاجرت مريم مع أهلها، وهم المشهورون بالتقوى؟ كما أن القرآن يقول:

١. انظر: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٦٦ وما بعدها.

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.

www.Islamiyat.com
www.kalemasawaa.com

إنها كانت في المحراب في كفالة زكريا في حين يقول الإنجيل: إن مريم كانت في الناصرة.

وجها إبطال الشبهة:

١) هذه الدعوى لا أساس لها من الصحة؛ لأن المتأمل في القرآن الكريم، يجد أن هذه القصة سيقت لبيان سبب انتباذ مريم عليها السلام.

وكان هذا الانتباذ مرتين:

- الأولى: مكانًا شرقيًّا للعبادة والتنسك.
- الثانية: مكانًا قصيًّا أي بعيدًا، وذلك بعدما أحست بحملها خوفًا من رميها بالمنكر، أو أن تمس بسوء.

٢) قول الأناجيل: إن مريم كانت في الناصرة ـ إن صح ذلك ـ فقد يكون في بعض تنقلاتها، فقد ذكروا أيضًا أنها جاءت إلى مصر.

التفصيل:

أولا. كيف يدعي هؤلاء أن القرآن لم يذكر سبب انتباذ مريم عليها السلام، والقصة كلها مَسُوقة من أجل هذا الغرض:

إن هذا يدل على أن القوم حينما قرءوا القصة في القرآن الكريم لم يعقلوا منها شيئًا؛ حيث إنهم لم يفهموا الغرض الواضح الذي من أجله سِيقت هذه القصة.

لقد انتبذت مريم من أهلها مرتين:

الأولى: انتبذت مكانًا شرقيًّا للعبادة والتنسك.

الثانية: انتبذت مكانًا قصيًّا بعيدًا، وذلك بعدما أحسَّت بحملها؛ خوفًا من رميها بالمنكر، أو أن تُمَسَّ بسوء من قبل أهلها.

والمقصود بالانتباذ هنا التنحي والتباعد، وانتبذت: أي تنحت وتباعدت، والانتباذ هو الاعتزال والانفراد[١].

أما عن المرة الأولى وهي الواردة في بداية القصة في سورة مريم قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ (مريم). والسبب في هذا الانتباذ إذا لم يكن مفهومًا هنا، هو عبادة الله تعالى والخلوة بمناجاته، فإنه قد ذكر صراحة في: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ (آل عمران).

وبذلك يتبين لنا أن مريم ـ عليها السلام ـ كانت وقفًا على سِدانة المَعْبَد وخدمته والعبادة فيه، فتنحَّت عن الناس لذلك، ودخلت المسجد إلى جانب المحراب من جهته الشرقية لتخلو للعبادة فيه، فدخل عليها جبريل عليه السلام، فقوله: "مكانًا شرقيًّا" أي: مكانًا من جانب الشرق، والشرق بسكون الراء: المكان الذي تشرق فيه الشمس، والشرق بفتح الراء: الشمس، وإنما خصَّ المكان بالشرق؛ لأنهم كانوا يُعظِّمون جهة المشرق من حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها[٢].

إذن لم يكن اعتزال السيدة مريم بسبب مشاجرة مع أهلها، كما يفترض هؤلاء هذا الافتراض السخيف

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١١، ص٩٠.

٢. المرجع السابق، ص٩٠.

www.kalemasawaa.com

الذي لا يخطر ببال عاقل يتابع ويفهم ما جاء في القرآن الكريم عن مريم ـ عليها السلام ـ ونشأتها وأبويها، وقد تعودنا ونحن نقرأ قصص القرآن أن نلاحظ أن كثيرًا من التفاصيل تطوى ولا تُذكر، خاصة إذا كانت تفهم من سياق القصة ولا حاجة لذكرها ولا جدوى منه.

والذي يفهم من حال مريم أنها اتخذت مكانًا شرقي بيت المقدس بمعزل عن الناس؛ إمعانًا في عبادة الله، والأنس به وحده، وحتى لا يشغلها شاغل من البشر عن عبادة ربها[1].

وليس بلازم أن يكون المكان الذي "انتبذته" مكانًا بعيدًا جدًّا يُخْشَى عليها فيه الخطر بسبب بُعْدِه، ولكنه يكفي لأن يكون بعيدًا عن الاختلاط بالناس.

جاء في رسالة يعقوب: أن مريم وهي في سن الثالثة ذهبت بها أمها بصُحْبة أبيها إلى أورشليم، وسلَّمها إلى كهنة هيكل سليمان، وكانت علامات السرور تبدو عليها، ثم تركاها ورجعا إلى أورشليم، وعاشت مع الراهبات المنذورات إلى أن حبلت.

وإن نظرنا في خريطة فلسطين، نجد حبرون أسفل أورشليم، وقريبة منها، ونجد الناصرة على الخط نفسه وبعيدة عن أورشليم؛ فتكون أورشليم غرب الناصرة، وشرق حبرون.

أما المرة الثانية التي ذكرها القرآن الكريم بشأن انتباذ مريم فكانت بعدما أحسَّت بحملها، فخافت أن يرميها قومها بالمنكر، قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ (مريم).

إذن كان خروج مريم ـ عليها السلام ـ في هذه المرة خوفًا من القيل والقال، وحتى لا تُمَسَّ بسوء، وقيل: "انتبذت مكانًا قصيًّا" أي: اعتزلت بحَمْلها وتنحَّت به عن الناس مكانًا نائيًا.[2] وقيل في "زوائد الزهد" عن نوفل: إن جبريل نفخ في جيبها فحملت حتى أثقلت، وآلمها ما يؤلم النساء، وكانت في بيت نبوة فاستحيت وهربت؛ حياءً من قومها، فأخذت نحو المشرق[3] [4].

وكان من فيض كرم الله عليها أنه هيأ لها الطعام والشراب والمأوى.

ولما حملت مريم ـ عليها السلام ـ ضاقت بحملها ذرعًا، وعلمت أن كثيرًا من الناس سيتكلمون في حقها، وهذا ما حدث، حيث تعجب "يوسف بن يعقوب النجار" وكان ابن خالها، فجعل يتعجب من ذلك عجبًا شديدًا؛ وذلك لما يعلم من ديانتها، ونزاهتها وعبادتها.

بل وصل الأمر إلى أكبر من ذلك حيث اتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم، واعتزلتهم، وانتبذت مكانًا قصيًّا، وألجأها المَخاض واضطرها إلى جذع النخلة الذي كان يابسًا، ولكن الله ﷻ لبَّى حاجتها إلى الطعام والشراب، حيث قال ﷻ:

---

١. انظر: تفسير القاسمي، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ج٧، ص٩٤ وما بعدها.

٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

٣. أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٥١).

٤. روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

www.kalemasawaa.com

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ (مريم)، وقول الله ﷻ: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ (مريم: ٢٦)[1].

ثانيًا. إن صح قول الأناجيل بأن مريم كانت في الناصرة، فإنما كان ذلك في بعض تنقلاتها:

لما كبرت السيدة مريم ـ عليها السلام ـ تفرَّغت للعبادة، وأوغلت فيها باعتزالها، فكانت البُشرى بعيسى في قمة عبادتها لربها وأنسها به، وأما قول الإنجيل: إن مريم كانت في الناصرة، فعلى فرض صحته، فإن ذلك يكون في بعض تنقلاتها، فقد ذكروا أيضًا أنها جاءت إلى مصر.

وقد تبين أن الناصرة من نصيب سبط زبولون ـ وهو من أسباط السامريين ـ وهي من سبط يهوذا ـ على حدِّ زعمهم ـ فكيف تكون من سكان الناصرة؟! وإذا كانت من سكان الناصرة، فلماذا أتت إلى أورشليم لتعد مع سكانها، وسكان أورشليم من سبطي يهوذا وبنيامين؟ فالحق ما قاله القرآن إنها كانت هارونية، ومعلوم أن زكريا وامرأته، ويوحنا المعمدان كانوا من التابعين لأهل أورشليم[2].

الخلاصة:

- لم يكن اعتزال السيدة مريم ـ عليها السلام ـ بسبب مشاجرة مع أهلها كما يفترض بعض المتوهمين، بل كان اعتزالًا للناس، وخلوة لعبادة الله، كما أن هناك كثيرًا من التفاصيل لا تذكر في القرآن؛ لأنها تفهم من سياق الكلام، ولا حاجة لذكرها.
- الانتباذ لا يدل على مشاجرة، أو كراهية، ولكنه هنا بمعنى الابتعاد والاعتزال، كما حدث مع موسى وهو طفل، ثم إن خروج مريم ـ عليها السلام ـ كان خوفًا من القيل والقال، وحتى لا تُمسَّ بسوء، وقد حفظها الله ﷻ ورزقها المأوى والطعام والشراب.
- الإعجاز في ولادة مريم هو الذي أثار تعجب اليهود، وظنوا بها أسوأ الظنون بعد أن غابت عنهم لبعض الوقت.
- إذا سلمنا جدلًا بقول الأناجيل: إن مريم كانت في الناصرة، فإن ذلك يكون في بعض تنقلاتها، حيث ذكروا أيضًا أنها جاءت إلى مصر.

الشبهة الثمانون

التشكيك في صيام مريم العذراء (*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض المتوهمين في صيام مريم العذراء، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ (مريم: ٢٦)، قائلين: كيف يتفق هذا مع قوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا

١. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٤٢٢: ٤٢٤.

٢. انظر: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٧٥. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، ترجمة: عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٣٩٠.

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.

www.Islamiyat.com
www.kalemasawaa.com

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ (مريم: ٢٦). ويتساءلون: كيف يستقيم قول مريم إذا مرَّ بها أحدٌ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾، وهي الآكلة الشاربة، فأين هذا الصوم إذن؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) إن الصيام المقصود في كلام مريم، هو صيامها عن التَّحدث مع قومها؛ إذ حُمل الصوم على المعنى اللغوي لا الشرعي.

٢) المراد بقوله ﷻ: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: قولي ذلك بالإشارة، فالإشارة تنزل منزلة الكلام.

التفصيل:

أولا. الصوم في الآية هو الصوم عن الكلام، وليس عن الطعام والشراب:

فالمقصود بالصوم في الآية ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ هو الصوم بمعناه اللغوي، وهو الإمساك عن أي فعل أو قول كان، وكل مُمْسِكٍ عن طعام، أو كلام، أو سير فهو صائم[١]. فالله ﷻ يقول لمريم: إنك إذا رأيت أحدًا ستدخلين معه في جدل؛ لأن المسألة التي أنت عليها لن تستطيعي أن تأتي بمبررات لها؛ لأن امرأة تحمل وتلد دون أن يمسها رجل كلام غير مقبول عند الناس، ولن يصدقوه، وسيتكلمون معك بسفاهة وجهل، فعليك بالصمت، وإذا رأيت أحدًا من البشر، وسألك عما أنت فيه فقولي: إني نذرت لله صومًا عن الكلام، فلن أكلم أحدًا[٢].

ويؤيد هذا المعنى قولُها مؤكدة نذرها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ (مريم)، وقد ظهرت براءتها، وأُعلنت على لسان وليدها عليه السلام، فإن كانت هي قد أمسكت عن الكلام بأمر الله ﷻ، فقد أنطق الله ابنها ليبرئها ربها ﷻ.

ثانيًا. المراد بقول الله ﷻ: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: قولي ذلك بالإشارة، فالإشارة تنزل منزلة الكلام:

هناك العديد من الأدلة على قيام الإشارة مقام الكلام؛ فمن ذلك ما سمع في كلام العرب من إطلاق الكلام على الإشارة؛ كقول أحد الشعراء:

إذا كَلَّمَتْنِي بالعُيونِ الفَواتِرِ

رَدَدْتُ عليها بالدّموعِ البَوادِرِ

ومن الأدلة على قيام الإشارة مقام الكلام أيضًا، قصة الأمة السوداء التي قال لها رسول الله ﷺ: "أين الله"؟ فأشارت إلى السماء، فقال ﷺ لسيدها: "أعتقها فإنها مؤمنة"[٣]. فجعل إشارتها كنطقها في الإيمان الذي هو أصل الديانات؛ وهو الذي يعصم به الدم والمال، وتستحق به الجنة، وينجي من النار. ومن ذلك

---

١. مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م، مادة: صوم. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م، مادة: صوم.

٢. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٤٢٦.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (١٢٢٧).

www.kalemasawaa.com

ما جاء في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فضرب بيديه فقال: "الشهر هكذا، وهكذا، وهكذا ـ ثم عقد إبهامه في الثالثة ـ فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن أُغْمِي عليكم فاقدروا له ثلاثين"[١]، فهذا الحديث صريح في أنه ﷺ نزل إشارته بأصابعه إلى أن الشهر قد يكون تسعة وعشرين يومًا، وقال النووي في شرح مسلم في الكلام على هذا الحديث: وفي هذا الحديث جواز اعتماد الإشارة المفهمة في مثل ذلك[٢].

يجوز أن هذه الكلمة (فقولي) هي التي تقطع بها مريم الكلام مع القوم، أو يجوز أن تكون الدلالة بالإشارة، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمها، ولذلك فالأخرس حين يكون في بيئة تفهمه يستطيع أن يتفاهم مع الناس، ويفهم الناس منه ما يريد قوله عن طريق الإشارات[٣].

الخلاصة:

- المراد بالصوم المذكور في قوله ﷻ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ (مريم) الصوم بمعناه اللغوي، وهو "الإمساك عن أي فعل، أو قول كان، وكل ممسك عن طعام، أو كلام، أو سير فهو صائم"، وليس المقصود الصوم عن الطعام والشراب، وصيام مريم كان عن الكلام مع قومها؛ لعدم قدرتها على إقناعهم، ولأن ذلك أمر سيطول الجدال فيه.

- المراد بقوله ﷻ: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، أي: قولي ذلك بالإشارة المفهمة، فالإشارة تنزل منزلة الكلام، ومن ذلك ما سمع في كلام العرب من إطلاق الكلام على الإشارة كثيرًا، وما ورد في السنة النبوية الشريفة، مما يؤيد هذا المعنى المراد.

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال (٢٥٥١).

٢. أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ص٢٧٥: ٢٧٨.

٣. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٤٢٦.

الشبهة الحادية والثمانون

التشكيك في مادة خَلْق المسيح عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض المغرضين في حديث القرآن عن مادة خَلْق عيسى عليه السلام، ويستدلون على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ (آل عمران: ٥٩)، وقوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ (آل عمران: ٤٥) وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١)، ويتساءلون: هل خلق المسيح من تراب، أو هو كلمة الله وروحه؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) كل مخلوق خُلق بكلمة الله ﴿كُن﴾، فآدم

(*)أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة.

www.kalemasawaa.com

خُلق بها، وعيسى خلق بها، فهي أمر الله كما أخبر الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (يس)، ولا يتنافى ذلك مع مادة أصل خلق عيسى عليه السلام التي هي التراب.

٢) المراد بالآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أن الله خلق عيسى ابن مريم بالكلمة التي أُرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله، فعيسى قد نشأ عن الكلمة التي قالها له "كن" فكان.

التفصيل:

أولا. كل مخلوق خلق بكلمة "كن" فآدم خلق بها، وعيسى خلق بها:

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران)، ولقد أثارت ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام من غير أب شبهات عند النصارى جعلتهم يقولون: إنه ابن الله، تعالى الله عما يشركون.

فإن ولادة عيسى عليه السلام من أم بلا أب تعد معجزة دالة على طلاقة قدرة الله التي لا تحدها حدود، ولا يقف أمامها مانع ليظهر للناس أنه ﷻ على كل شيء قدير، وقد أوضحت مريم ـ عليها السلام ـ هذه الحقيقة بقولها لابن عمها: فمن خلق الإنسان الأول؟ ومعنى هذا أن الله سبحانه قد خلق آدم من غير ذكرٍ ولا أنثى، وكانت مادة خلقه الأولى التراب قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ (ص)، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١)، وخلق نبيه عيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر البشر من ذكر وأنثى، وفي ذلك يقول: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

وهذا دليل على أن الله ﷻ لا يعجزه شيء، وأن قانون الأسباب والمسببات مِنْ وضعه ﷻ، يجريه كيف شاء ومتى شاء، ويلغيه كذلك وفق مشيئته وإرادته، وقد أثارت هذه الشبهة وفد نصارى نجران عندما سألوا النبي ﷺ: من أبو عيسى؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

وواضح أن الآية قد ردت عليهم بأمر قد سلموا له سابقًا، بأنه لو لزم من وجود عيسى من أم بلا أب أن يكون ابنًا لله تبارك و تعالى، للزم أن يكون آدم ابنًا لله بطريق الأولى، فإنه وجد من غير أم ولا أب، ثم إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب، فلِمَ لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم؟! وهذا الدليل ملزم لهم، إذ لم يقولوا بألوهية آدم ولا بنوته لله ـ تعالى الله عما يفترون ـ وبهذا الإلزام قطع القرآن الجدال بعد إقامة الحجة[1].

وبذلك يتضح أن كل مخلوق خُلق بكلمة الله ﴿كُن﴾، فآدم عليه السلام خلق بها، وعيسى عليه السلام خلق بها، فأمر الله كما أخبر ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص ٣٣٠، ٣٣١.

www.kalemasawaa.com

﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (يس).

فلا يُعقل أن يدعي أحد عدم اتساق هذه الآية مع حال عيسى ابن مريم، فقد شاء الله وجوده، فأرسل المَلَك ليبشر أمه، فلما استعظمت أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر قال لها الملك: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ (مريم).

وقد قال صاحب "الظلال" في تعليقه على هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران) ما يلي: "إن ولادة عيسى لعجيبة حقًّا بالقياس إلى مألوف البشر، ولكن أي غرابة فيها حين تُقاس بخلق آدم أبي البشر؟ وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى بسبب مولده، ويصوغون حوله الأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب، كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه الكائن الإنساني، دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى، ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية، على حين أن العنصر الذي صار به آدم إنسانًا هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب، عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك، وإن هي إلا كلمة "كن" تنشئ ما يُراد له النشأة فيكون"[1].

ويُعلق د. عبد المنعم فؤاد على ذلك قائلًا: وهنا نلمس أن القرآن الكريم تحدث عن شيء لدى العقل معلوم، ولم يبدأ ببرهانه من مجهول، وهذا ما يرضاه المنطق السليم. وإذا كان الله ﷻ أوجد هذه الأكوان الرهيبة بعجائبها وعظائمها من العدم؛ أي: من لا شيء؛ فإنه أوجد آدم من شيء وهو التراب، والتراب لا روح فيه فهو جماد، ومع ذلك خلق منه آدم ونفخ فيه الروح، وإذا أوجد آدم من جماد لا حياة فيه؛ فإنه أوجد عيسى من امرأة ذات حياة وروح، وهي مريم ـ عليهما السلام ـ فأمر عيسى أمر سهل إدراكه على العقل البشري إذا تطرق إلى خلق الأشياء في الكون، ومن ثم لا يصح على أصحاب العقول النيرة أن يذهبوا بعيسى بسبب ميلاده إلى مرتبة الألوهية، ولا يصح أن يكون ميلاده هو مفتاح بنوته لله تعالى، بل هو مفتاح التفكر في كمال قدرة الله ﷻ.

ويقول أبو عُبيدة الخَزْرَجي: أليس من الواضح عند ذوي العقول أنه لا يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم عليه السلام أن يكون ابنًا لله؟ ولمَّا لَمْ يُستبعد خلق آدم من التراب، لم يُستبعد خلق عيسى عليه السلام من الدم الذي كان يجتمع في رحم أمه.

نعم إن الذي خلق الرحم، وجعل الدم يسير فيه هو الذي يجعل الوليد يتحرك في أحشائه، وينفخ فيه من روحه، حتى وإن خالف ذلك مألوف البشر؛ لأن قدرته تفوق عقولهم، وهو الذي خلقهم، وهو الذي يعلن عن قدرته متى شاء، وكيف شاء، ولمن شاء، ويوم أن تنتبه العقول أمام حدث غريب ـ كميلاد المسيح ـ تظهر نداءات الله للمؤمنين قائلة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ (الشورى: ٤٩).

وعن المثليَّة بين آدم والمسيح، يقول ابن تيمية: إن

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٤٠٤، ٤٠٥ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

الله خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى، كما قال ﷻ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى، وكان خلق آدم أعجب من هذا وذاك، وهو أصل خلق حواء، فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلقه.

وهذا التشابه بين آدم والمسيح الذي أثاره القرآن يمكن حصره في أمرين:

أولهما: النفخ من روح الحق تبارك وتعالى، وهذا كان لآدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (ص).

وثانيهما: في كلمة ﴿كُن﴾. وهذان الأمران نجدهما في المسيح، فهو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم وهي "كن" وروح منه، وهي النفخة عن طريق الملاك، وهذا قياس واضح على مثلية الخلق بينهما[1].

والمماثلة بين المشبه والمشبه به تكون في بعض الأوصاف، وليس بلازم أن تكون في كل الأوصاف، كمن يشبه الجندي بالأسد في الشجاعة فقط، والذي يفهم من الجملتين من وجه شبه هو أن عيسى شُبِّه بآدم في أنه وجد وجودًا خارجًا عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران؛ ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشُبِّه الغريب بالأغرب؛ ليكون أقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران).

ثانيًا. المراد بالكلمة في قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ أنه عليه السلام قد نشأ عن الكلمة التي قالها الله ﷻ له "كن" فكان بإذنه تعالى:

وإذا عدنا إلى الآيات القرآنية التي تتحدث عن كون عيسى عليه السلام هو كلمة الله تعالى مثل: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٤٥) نجد أنه من الثابت عقلًا أن الله قديم، لا يجوز عليه الحدوث، كما ثبت أنه ﷻ واحد في ذاته، وصفاته، وأفعاله، فذاته ليست مركبة من أجزاء كما يزعم النصارى، ولا تقبل الانقسام. وإن القول بأن الكلمة جزء من الذات يوصل إلى القول بالتركيب، وهو من صفات الحوادث، وبناء على ذلك فلا يجوز تفسير أن عيسى كلمة الله بمعنى أنه جزء من ذات الله، وأن الله خلق عيسى ابن مريم بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى بإذن الله، فعيسى عليه السلام ناشئ عن الكلمة التي قالها له ﴿كُن﴾ فكان. وقال شاذُّ بن يحيى: "ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى"[2].

وقد تكون الكلمة بمعنى: الآية، وفي هذا الإطار يكون معنى أن "عيسى كلمة الله" هو آية دالة على قدرة الله، ويؤيد هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ

١. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٢م، ص٥٩، ٦٠.

٢. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ٤٥٣) برقم (٦٣٤٣).

www.kalemasawaa.com

ءَايَةً ﴾ (المؤمنون: ٥٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾(مريم: ٢١)[1].

وعلى ضوء هذا الفهم الصحيح لهذه الآيات يتضح لنا، ولكل ذي عقل وبصيرة أنه لا تناقض بين الآيات؛ فهي تتحدث عن نفاذ كلمة الله تعالى نفاذًا بلا سبب مألوف، ناسبة إطلاق الكلمة على عيسى إطلاقًا غير مألوف، وفي النهاية كل الخلق أثر لنفاذ كلمة الله تعالى®.

الخلاصة:

- كل مخلوق خلق بكلمة الله تبارك وتعالى ﴿كُن﴾ فآدم خلق بها، وعيسى خلق بها، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ (آل عمران). فآدم خلق من طين جماد بلا روح، وعيسى خلق من مريم، وفيها روح؛ فلذلك شبهه الله تعالى بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح؛ فلا عجب من خلق المسيح بهذه الطريقة.
- المراد بالآية: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾(النساء: ١٧١) أن الله تعالى خلق عيسى عليه السلام بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى بإذن الله، فعيسى عليه السلام ناشئ عن الكلمة ﴿كُن﴾ فكان.
- ومن سياق الآيات ومعانيها الصحيحة والمراد بها يتضح جليًّا أنه لا تناقض ولا تعارض بين الآيات، بل هناك تشابه ومماثلة بين خلق آدم عليه السلام وعيسى عليه السلام فكلاهما خلق بكلمة ﴿كُن﴾ الدالة على قدرة الله عز وجل.

الشبهة الثانية والثمانون

دعوى تناقض القرآن حول تصوره للمسيح عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن بالقرآن تناقضًا حول تصوره للمسيح عليه السلام، فتارة يذكر أنه عبد، وتارة أخرى يشير إلى أن طبيعته تشبه الطبائع الإلهية. كما أن القرآن يُعطي المسيح من الألقاب العِظام ما لم يعطه لغيره من الأنبياء، فهو "كلمة الله"، و "روح الله"، و: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (آل عمران: ٤٥)... إلى غير ذلك. ويتساءلون: إذا كان الذي ذكره القرآن عن المسيح عليه السلام يفوق ما ذكره عن سائر البشر بمن فيهم محمد ﷺ، ألا يشير هذا إلى تَمَيُّز المسيح عليه السلام عن سائر البشر، وهذا ما يُقرُّه الإنجيل عن لاهوت المسيح؟!

وجه إبطال الشبهة:

لا تناقض بين الآيات التي تعرضت لذكر المسيح عليه السلام فهي تصفه بأنه بشر خَصَّه الله ببعض الخصائص التي

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام الزين، مرجع سابق، ص٣٣١، ٣٣٢.

® في "المراد بأن عيسى كلمة الله وروحه" طالع: الشبهة الثانية والثمانين. والوجه الأول، من الشبهة السابعة والثمانين؛ من هذا الجزء. والشبهة العاشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.

www.Islameyat.com
www.kalemasawaa.com

تَمَيَّز بها عن بقية الرسل، وهذه الخصائص والمزايا، مِنح من الله تعالى له، وليست ذاتية فيه.

التفصيل:

لا تناقض بين الآيات التي تعرضت لذكر المسيح عليه السلام فهي تصفه بأنه بشر خصه الله ببعض الخصائص التي تميز بها عن بقية الرسل؛ مثل تسميته بـ "كلمة الله"، و "روح الله"، وولادته بالروح القدس من عذراء، وقدرته على إتيان المعجزات، ورفعه إلى السماء، وكونه وجيهًا في الدنيا والآخرة، ووصفه بأنه المخلص، وأنه قُدُّوس بلا شر، وهذه الخصائص والمزايا منح من الله ﷻ له، وليست ذاتية فيه؛ ولو كان القرآن الكريم ينسب للمسيح شيئًا بمعزل عن إرادة الله وإذنه، لكان لهؤلاء المغالطين حق في أن يستدلوا بهذه الخصائص على ألوهيته.

أما وإنها منح من الله ﷻ له، فإنها تدل على عبوديته لله، لا على ألوهيته، كما قال الله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ (الزخرف).

ولو كانوا موضوعيين، يبحثون عن الحقيقة المجردة، لاعترفوا بفضل القرآن، وأنه كلام الله، وبفضل رسول الله محمد ﷺ، وأنه مبلغ عن الله كلامه، وبفضل الأمة الإسلامية، وأنها نقلت ما بلغه رسول الله لها نقلًا أمينًا، ولم تُبَادلهم بغضاء ببغضاء، ولم تُبَدِّل كلام الله.

بل نقلت ما قاله الله في نبيه عيسى عليه السلام دون تبديل أو تحريف، ولم تُبادلهم تشويهًا بتشويه، فكم حاولوا ـ زورًا ـ تشويه صورة الإسلام ونبيه ﷺ!!

أما البيان التفصيلي لما قيل عن لاهوت عيسى عليه السلام في القرآن فهو كالتالي:

١. **وصفه بأنه كلمة الله، أو كلمة منه**، أي: أنه نفاذ كلمته ﴿كُن﴾ وإن كان الخلق جميعًا نفاذ كلمته، وأثرًا لها، إلا أن عيسى جاء على نسق غير مألوف للناس لكونه ولد من غير أب، ومن هنا وصف بهذا الوصف.

و"من" في قوله ﷻ: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ (آل عمران: ٤٥) ليست للتبعيض حتى لا يُفهم أنه جزء من الله انفصل منه كما يتوهم النصارى، وإنما هي للابتداء، مثل "من" في قوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣)، وإذا كان المسيح هو ذات كلمة الله كما يزعم النصارى، وما دامت كلمة الله تعالى قابلة لأن تنفصل منه، وتتحول إلى مخلوق أو إنسان، فلِمَ لا يكون الخلق أو الإنسانية كلها كذلك؟! إن تحوُّل الصفة إلى ذات هو غاية في الشناعة، وإغراق في الاستحالة العقلية.

ووصفه بأنه "روح منه" لا يعني أنه ابن الله كما زعموا، ولا يعني أنه انفصل من الله، وإلا كان آدم أحق بذلك فقد قال الله تعالى في حقه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (ص: ٧٢)، وكان البشر كلهم كذلك؛ فالنبي ﷺ قال في الحديث: "إن أحدكم يجمع خلقه.. ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح"[1]، وضم الحديث مع الآيات في شأن آدم وعيسى يُقدِّم لنا الحقيقة ناصعة، وهي أن جميع البشر ـ بمن فيهم عيسى عليه السلام ـ نُفخت فيهم

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه (٦٨٩٣).

www.kalemasawaa.com

الروح بتكليف المَلَك المُخصَّص بنفخ الروح، وبنفخ الروح تحلُّ الحياة في الجسد[١].

فقد قال تعالى في حق مريم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ (الأنبياء: ٩١)، كما قال عن آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، لكن التعبير عن عيسى بأنه "روح" أو "روح منه" لكونه جاء على غير الإلف، فكأنه هو الروح، ومشكلة النصارى أنهم حولوا التعبيرات المجازية في كتابهم ككلمة الأب، إلى تعبيرات حقيقية.

٢. **ولادته بالروح القدس من عذراء:** يتخذ بعض المغالطين من هذا التمييز لعيسى عن سائر الأنبياء دليلًا على أنه إله وابن إله، ويصرحون بأنه ابن، وأمه مريم وأبوه الله ـ حاشا لله ـ أما السبب في هذا التميز عندنا ـ نحن المسلمين ـ فهو لكي يظهر الله تعالى لنا آية على طلاقة قدرته، وأنه يخلق الشيء وضده، لا يعجزه شيء، فكما خلق الإنسان من أبوين، أعطانا آية على أنه يخلق من غير أب، كما خلق آدم بلا أب ولا أم، وكما خلق حواء من آدم، فقدم لنا الاحتمالات المفترضة كلها، وأنه ﷻ لم يعجزه واحد منها.

كما قدم الاحتمالات الأربعة في قوله ﷻ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ (الشورى)، وأنه ينفذها كلها.

ولو كان المقصود بقول الله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أنه جزء من الله انفصل منه، وأنه ابن الإله، ما عَقَّب الله تعالى على هذه الآية بإثبات الوحدانية له ﷻ، ونفي الولد وإبطال التثليث، وأكد أن المسيح عبد الله ورسوله، وأن المسيح لا يستنكف أن يكون عبدًا لله، بل إن مقصود الآية في المقام الأول هو نهي النصارى عن الغلو في المسيح بتأليهه، قال ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (آل عمران)، وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ (النساء).

معاني كلمة "روح الله" في الكتاب المقدس[٢]:

إن الله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام ونفخ فيه من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الحجر)، ولم يقل أحد: إن آدم إله، ثم إن روح الله تأتي عندكم ـ في المسيحية ـ على عدة أوجه:

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٦، ص٢٠: ٢٥ بتصرف. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص٨١٤: ٨٢٣ بتصرف. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي، تحقيق: عبد القادر عرفات، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٨م، ج٢، ص١٣٠، ١٣١ بتصرف.

٢. المناظرة الكبرى مع القمص زكريا بطرس حول ألوهية يسوع، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٩٩ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

• **القدرة**: "ولكن في الناس روحًا، ونَسَمَة القدير تُعلِّمُهم". (أيوب ٣٢: ٨).

• **الرأي**: "الحكمة تنادي في الخارج. في الشوارع تعطي صوتها. تدعو في رءوس الأسواق، في مداخل الأبواب. في المدينة تبدي كلامها قائلة: «إلى متى أيها الجُهَّال تحبون الجهل، والمستهزئون يسرون بالاستهزاء، والحَمْقى يبغضون العلم؟ ارجعوا عند توبيخي. هأنذا أفيض لكم روحي. أعلمكم كلماتي". (الأمثال ١: ٢٠ ـ ٢٣).

• **نفس الإنسان**: "فيرجع التراب إلى الأرض كما كان، وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها". (الجامعة ١٢: ٧).

• **الإلهام**: "وحلَّ عليَّ روح الرب، وقال لي: قل هكذا الرب". (حزقيال ١١: ٥).

• **قوة الله وقدرته**: "وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكنًا فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضًا بروحه الساكن فيكم". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٨: ١١).

• **الخلق والإحياء**: "روح الله صَنَعَني، ونَسَمَة القدير أَحْيَتْني". (أيوب ٣٣: ٤).

• **مُنْزِل الوحي على رسل الله**: "لم تَأْتِ نبوَّة قطُّ بمشيئة إنسان، بل تكلَّم أناسُ الله القِدِّيسون، مَسوقين من الروح القدس". (رسالة بطرس الرسول الثانية ١: ٢١).

وهل من الممكن أن تكون الكلمة الصادرة عن الرب هي الرب نفسه؟ فأنتم تقولون بذلك في بداية إنجيل يوحنا، بَيْد أن العقل السَّويّ يأبى ذلك، ويناقض معتقداتكم. فليس معنى أنه كلمة الله أنه هو الله نفسه؛ فالكلمة هنا تعني أمر الله تعالى إلى أمه مريم. وفي هذا إجلال لمريم؛ إذ يصفها الله تعالى بأنها أطاعت كلمته وأمره بمجرد تأكدها أنها صادرة من عند الله تعالى.

معاني كلمة "كلمة الله" في الكتاب المقدس[1]:

• **كتاب الله وكلامه وتعاليمه**: "وهؤلاء هم الذين زرعوا بين الشوك: هؤلاء هم الذين يسمعون الكلمة، وهموم هذا العالم، وغرور الغني، وشهوات سائر الأشياء تدخل وتَخْنُق الكلمة فتصير بلا ثمر". (مرقس ٤: ١٨، ١٩).

• **الإيمان وجهاد النفس لطاعة الله**: "وإذا كان الجمع يزدحم عليه ليسمع كلمة الله". (لوقا ٥: ١)، وأيضًا: "وهذا هو المثل: الزرع هو كلام الله والذين على الطريق هم الذين يسمعون ثم يأتي إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم لئلَّا يؤمنوا فيخلصوا". (لوقا ٨: ١١، ١٢).

• **الكلمة العادية أو الأمر الموجه لشخص ما، والتي قد تكون سبب سعادة أو حزن**: "قال له يسوع: إن أردت أن تكون كاملًا فاذهب وبع أملاكك، وأَعْطِ الفقراء فيكون لك كنز في السماء، وتعالَ اتبعني، فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينًا؛ لأنه كان ذا أموال كثيرة". (متى ١٩: ٢١، ٢٢).

• **النطق والكلام العادي**: "ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيداء، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التُّخوم صرخت إليه قائلة:

١. المرجع السابق، ص١٠٠ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

"ارحمني يا سيد يا ابن داود. ابنتي مجنونة جدًّا"، فلم يُجِبْها بكلمة". (متى ١٥: ٢١ ـ ٢٣).

- **دليل أو إثبات:** "وإن لم يسمع فخُذْ معك أيضًا واحدًا أو اثنين؛ لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة". (متى ١٨: ١٦).
- **السؤال:** "فأجاب يسوع: وأنا أيضًا أسألكم كلمة واحدة، فإن قلتم لي عنها أقول لكم أنا أيضًا بأي سلطان أفعل هذا: مَعْمُوديَّة يُوحنَّا من أين كانت؟ من السماء أم من الناس؟". (متى ٢١: ٢٤، ٢٥).
- **التَّجْدِيف:** " لذلك أقول لكم: كل خطيَّة وتجديف يُغْفَر للناس، وأما التجديف على الروح فلن يُغفر للناس. ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي". (متى ١٢: ٣١، ٣٢).
- **السَّب واللَّعن والتَّهجُّم على الآخرين:** "ولكن أقول لكم: إن كل كلمة بطالة يتكلَّم بها الناس سوف يُعْطَون عنها حسابًا يوم الدين". (متى ١٢: ٣٦).
- **الخطأ، أو الإثم، أو العلة، أو سبب الإدانة:** "فراقبوه وأرسلوا جواسيس يتراءون أنهم أبرار؛ لكي يمسكوه بكلمة، حتى يسلموه إلى حُكْم الوالي وسلطانه. فسألوه قائلين: «يا معلم، نعلم أنك بالاستقامة تتكلم وتعلم، ولا تقبل الوجوه، بل بالحق تعلم طريق الله. أيجوز لنا أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟» فشعر بمكرهم، وقال لهم: لماذا تُجرِّبونني؟ أروني دينارًا. لمن الصورة والكتابة؟» فأجابوا وقالوا:«لقيصر». فقال لهم:«أعطوا إذا مالقيصر لقيصر وما لله لله». فلم يقدروا أن يمسكوه بكلمة قُدَّام الشعب، وتعجبوا من جوابه وسكتوا". (لوقا ٢٠: ٢٠ ـ ٢٦).

وكما رأينا لم تأت "الكلمة" أبدًا بمعنى ذات الله ولا نفس الله، كما يحلوا لهم أن يفسروا على هواهم ما يثبت ألوهية يسوع؛ ومن ثم لا يمكن أن يكون الذي أوحى بكل معاني لفظ "الكلمة" قد أفاق أخيرًا؛ ليوحي في إنجيل يوحنا بأن الكلمة هي الإله نفسه، مع الأخذ في الاعتبار أن علماء اللاهوت يعلمون أن هذا الإنجيل كتب بعد عام ١٢٠ ميلادية، فلا يمكن أن يكون الرب المتجسد عندهم نسي أن يوحي بأنه الكلمة لباقي الإنجيليين، وتذكرها بعد ١٢٠ سنة من مولده!! ثم قالوا: "والذين قاموا بكتابة أسفار الكتاب المقدس هم أناس الله القِدِّيسون".

لقد خلت الأناجيل الأربعة، وما ألحقوه بها من رسائل، من بينة واحدة على أن عيسى عليه السلام أشار إلى نفسه أنه الكلمة، كما أن الثلاثة أناجيل الأولى المتوازية لم تُشِر بها إليه قط على ألسنة كاتبيها أو حكاية عن غيرهم، وأشير إلى قول لوقا الشهير في بداية إنجيله: "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المُتيَقَّنة عندنا، كما سلَّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعاينين وخُدَّاما للكلمة، رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق، أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوُفِيلُس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به". (لوقا ١: ١ ـ ٤).

فماذا تعني "الكلمة" هنا غير ما سوف نذكره؟ وما الذي يمنع أن يكون هذا المعنى هو الذي قصده يوحنا في بداية إنجيله هو أيضًا؟

معاني لفظ " كلمة" في إنجيل لوقا:

ورد هذا اللفظ في إنجيل لوقا، بالمعنى نفسه الوارد

www.kalemasawaa.com

في أسفار التوراة، أي: بمدلول الوحي، أو الأمر الإلهي، أو الرسالة النبوية عند أنبياء العهد القديم، ولم يتجاوز هذا الحد ولم يُشِر بها إلى مسيح الناصرة، أو حتى أي مسيح آخر. وهو نفس المدلول في سفر إرميا، ونصُّه: "اسمعوا الكلمة التي تكلَّم بها الرب عليكم يا بيت إسرائيل. هكذا قال الرب: ألا تتعلموا طريق الأمم، ومن آيات السماوات لا ترتعبوا؛ لأن الأمم ترتعب منها". (١٠: ١، ٢).

ومعنى "الكلمة" هنا واضح لا يحتاج إلى شرح، وبمثله قال لوقا عن يوحنَّا المِعْمِدان: "في أيام رئيس الكهنة حنَّان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البَرِّيَّة". (لوقا ٣: ٢)، فقد جاءت بعدة معانٍ؛ منها:

- **كتاب الله**: "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيَقَّنة عندنا كما سلَّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعايِنِين وخُدَّامًا للكلمة". (لوقا ١: ١، ٢).

- **رضا الله**: "وقال له إبليس: إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزًا. فأجابه يسوع: مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة من الله". (لوقا ٤: ٣، ٤).

- **التوبيخ والنَّهْر**: "فوقعت دهشة على الجميع، وكانوا يخاطبون بعضهم بعضًا قائلين: ما هذه الكلمة؛ لأنه بسلطان وقوة يأمر الأرواح النَّجِسة فتخرج". (لوقا ٤: ٣٦).

- **أوامر الله ونواهيه**: "وإذ كان الجمع يزدحم عليه ليسمع كلمة الله كان واقفًا عند بحيرة جَنِّيسارَت". (لوقا ٥: ١).

- **الإيمان وجهاد النفس لطاعة الله**: "وهذا هو المثل: الزرع هو كلام الله، والذين على الطريق هم الذين يسمعون، ثم يأتي إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم؛ لئلَّا يؤمنوا فيَخْلُصوا". (لوقا ٨: ١١، ١٢).

- **العمل بكتاب الله**: "والذي في الأرض الجيدة هم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد صالح ويثمرون بالصبر... وجاء إليه أمه وإخوته ولم يقدروا أن يصلوا إليه لسبب الجمع. فأخبروه: أمك وإخوتك واقفون خارجًا يريدون أن يروك، فأجاب: أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها". (لوقا ٨: ١٥ـ ٢١).

- **التَّجْدِيف**: "وكلُّ من قال كلمة على ابن الإنسان يُغفر له، وأما من جَدَّف على الروح القُدُس فلا يغفر له". (لوقا ١٢: ١٠).

- **السؤال**: "فأجاب: وأنا أيضًا أسألكم كلمة واحدة، فقولوا لي: مَعْمُودية يوحنَّا من السماء كانت أم من الناس؟". (لوقا ٢٠: ٣).

- **الخطأ أو الإثم**: "فراقبوه وأرسلوا جواسيس يتراءون أنهم أبرار؛ لكي يمسكوه بكلمة حتى يسلموه إلى حكم الوالي وسلطانه.. فلم يقدروا أن يمسكوه بكلمة قُدَّام الشعب وتعجبوا من جوابه وسكتوا". (لوقا ٢٠: ٢٠ ـ ٢٦).

ومن هذا نستنتج بوضوح أن الكلمة عند لوقا هي: التعليم، والوحي، والأمر الإلهي الصادر عن الله ﷻ والمبلَّغ عن طريق نبي من عباده. فهل شذَّ من كَتَب إنجيل يوحنا واستخدم الكلمة "لوجوس" في وصف

www.kalemasawaa.com

عيسى عليه السلام مخالفًا سياق الأناجيل الأخرى والرسائل مستسقيًا مصادر أجنبية، وهي الفلسفة اليونانية في جانبها الوثني؛ ليدسه في النصرانية؛ لأن المضمون عند فلاسفة اليونان مثل هيراقليطس: أن "اللوجوس" أو الكلمة هو العقل الإلهي الضابط لحركة الموجودات والمهيمن على الكون، وهذا ما التقطه كاتب إنجيل يوحنا كفكرة فلسفية ليس لها أي أصل ديني صحيح، بل هو تصور وثني أضافه كاتب هذا الإنجيل؛ ليزيد الأمور تعقيدًا عند النصارى.

والملاحظ أنه تعالى قال عن عيسى وأمه: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩١)، ولم يقل: "رحمة للعالمين" كما فهم الكاتب، ولكنه قال: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ (مريم: ٢١) إشارة إلى أنه من حيث كونه آية، فهو آية للعالمين على طلاقة قدرة الله تعالى، ونفاذ مشيئته بلا حدود، أما من حيث كونه رحمة، فهو رحمة لأناس بعينهم، وهم قومه من بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ (الصف). وكما جاء في الإنجيل على لسانه: "إنما بعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالة"، فهو آية للعالمين، وليس رحمة للعالمين؛ لأن رسالته ليست عالمية. أما صاحب الرسالة العالمية فهو محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء).

إن الله عز وجل غني عن أن يكون له ابن، أو زوجة تلد له ابنًا، وهو تعالى لا يشبه خلقه، فالتوالد نتيجة التجانس والتشابه، وهو تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، وكل المخلوقات خلقه وملكه، فلا حاجة لاختصاص أحد من الخلق ببنوة، ولهذا كانت الحجج في القرآن الكريم تتوالى لإبطال الولد: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (يونس: ٦٨) ®.

أمَّا أن القرآن لقب المسيح بأنه قُدُّوس بلا شر:

وهذا افتراء على كتاب الله تعالى؛ فالله تعالى لم يسم أحدًا من خلقه باسم القدوس، وإنما هو سبحانه وحده القدوس، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ (الحشر: ٢٣)، ومعنى القدوس: المنزَّه عن كل وصف يدركه حس، أو خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير[١].

وكون المسيح ذُكر في القرآن الكريم من غير أن يُذكر له خطيئة لا يعني أنه إله، أو ابن إله، فهو بشر، عبد الله، عصمه الله من الوقوع في المعصية، ولم يمسه الشيطان عند ولادته كما جاء في قوله ﷺ: "كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يُولد غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب".[٢] وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال: "ما من مولود يولد إلا نَخَسَه الشيطان؛ فيستهل صارخًا من نَخْسَة الشيطان

® في "المراد بأن عيسى كلمة الله وروحه" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة والثمانين، من هذا الجزء. والشبهة العاشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

١. المقصد الأسنى، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجندي، القاهرة، د. ت، ص٥٥.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣١١٢).

www.kalemasawaa.com

الرجيم إلا ابن مريم وأمه"، ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾(آل عمران)". [1] لا لأنه إله ابن إله، ولكن تحقيقًا لدعوة المرأة الصالحة امرأة عمران عندما لجأت إلى الله ﷻ أن يُعيذ مريم وذُرِّيَّتها من الشيطان الرجيم.

أما ما يستدل به بعضهم على ألوهية المسيح، وهو:

- **قدرته على إتيان المعجزات:**

والمعجزة أمر خارق للعادة يُجريه الله ﷻ على يد نبي؛ تصديقًا له في دعوى النبوة، فهي فعل من الله أظهره الله على أيدي أنبيائه، ولم يختص عيسى عليه السلام دون سائر الأنبياء بالمعجزات؛ فلكل نبي معجزاته التي أظهرها لقومه؛ ليثبت لهم صدقه، ولا تدل المعجزة على ألوهية من جرت على يديه، وإلا كان الأنبياء جميعًا آلهة، وكما قال الله تبارك وتعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ قال على لسان نبيه يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ (يوسف: ٣٧).

والإحاطة الكاملة بالغيب كله ليست إلا لله ﷻ علمًا كاملًا ليس مستمدًّا من غيره ﷻ، وهذا لا يمنع أن يعلم بعض خلقه ما تقتضيه الحكمة، كإطلاع رسله على بعض الغيب، قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ (الجن).

وما جاء في القرآن الكريم من نسبة الخلق لعيسى في قول الله ﷻ: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩)، وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ (المائدة: ١١٠).

فعيسى لم يدَّعِ أنه يتفرد بالخلق، ولكنه لا يفعل شيئًا إلا بإذن الله، ومن معاني الخلق التقدير، قال الشاعر:

فَلَأَنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْـ

ـضُ القَوم يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

فالخلق الذي نُسب له هو التقدير، لذلك جاء في الآيتين أنه يخلق ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ ولم يرد أنه يخلق الطير، فهو لا يوجد الطير ويخلقه، ولكنه يعمل من الطين شكل الطائر، كما يصنع ذلك أي إنسان، لكن الله تعالى أعطاه آية، بأن ينفخ فيما شكلَّه فيكون طائرًا بإذن الله ﷻ، فهو الذي يوجد الحياة عقب نفخ عيسى عليه السلام في الطين المشكل طيرًا، وكذلك الأمر في إحياء الموتى فإنه بإذن الله تستجيب الأموات لندائه، فإذا بهم أحياء، وليس عيسى عليه السلام أول من أظهر الله على يديه هذه المعجزة، فقد أجرى الله تعالى على يد الخليل إبراهيم عليه السلام إحياء الطير بعد تقطيعها أشلاء، وخلط بعضها ببعض، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (البقرة)، وعلى يد نبي الله موسى عليه السلام جاءت معجزة إحياء القتيل عندما ضربوه

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٦٢٨٢).

www.kalemasawaa.com

ببعض البقرة المذبوحة، قال الله ﷻ: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (البقرة).

وإبراء الأَكْمَه والأبرص معجزة كغيرها من معجزات الأنبياء، والله ﷻ هو الذي شفاهما على الحقيقة، ولكن نسبة الإبراء إلى عيسى عليه السلام بإذن الله لما باشر السبب بأن مسح عليهما فشفيا بإذنه تعالى، والفعل يُنسب إلى السبب المباشر كما ينسب إلى الفاعل الحقيقي، وذلك كثير في القرآن وفي اللغة، تقول: شفى الله المريض، وشفى الطبيب المريض، وقال الله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ (النساء: ٥)، مع أن الله سبحانه هو الرزاق®.

- **رَفْعه إلى السماء:**

لا يدل ذلك على ألوهيته، بل يدل على ما خصه الله ﷻ به لتكتمل خصائصه، وليكون آية للعالمين في بدء حياته، وفي خاتمتها، وفي أثنائها، أما أن يتخذ البعض من رفعه دليلًا على خلوده، ويجعل ذلك اعترافًا من القرآن بخلوده، فهذا ما يكذبه القرآن نفسه؛ فالقرآن الكريم يذكر على لسان عيسى عليه السلام أنه يموت كغيره من البشر، قال ﷻ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ (مريم)، وقال ﷻ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ (النساء: ١٥٩)، والآية التي استدل بها الكاتب على موت النبي ﷺ؛ ليقارن بين موت محمد، وخلود عيسى - عليهما الصلاة السلام - تدل على موت عيسى ولو بعد حين، فالآية تقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾(الأنبياء: ٣٤)، وعيسى من بين البشر الذين كانوا قبل محمد ﷺ.

- **وجيهًا في الدنيا والآخرة:**

نعم جاء ذلك عن عيسى عليه السلام بمعنى أنه ذو جاه ومنزلة في الدنيا والآخرة، وكونه ذا جاه ومنزلة لا ينفي أن يكون غيره كذلك، وقد قال الله تعالى في حق الكافرين: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (المدثر: ٤٨)، فيفهم من هذا أن غير الكافرين من أهل الإيمان تنفعهم الشفاعة، وأنها شفاعة شافعين كثيرين، وليست شفاعة واحد فقط، فعيسى عليه السلام يشفع لمن أذن الله له بأن يشفع له، وغيره من ذوي الجاه من الأنبياء والملائكة والصالحين كذلك، ولو أكمل الكاتب الآية ووقف عندها، ما تطاول على كتاب الله، فالله ﷻ يقول: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(آل عمران: ٤٥)، فهو واحد من المقربين إلى الله، لكنه يفرض عقائده الباطلة فرضًا على آيات كتاب الله؛ ليقول عن المسيح عليه السلام: "إنه ابن الله المتجسد، والوسيط الوحيد بين الله والناس".

- **المُخلِّص:**

يتخذ بعض الكُتَّاب من إطلاق القرآن الكريم على المسيح اسمه المتداول؛ أي: عيسى، ولقبه المعروف؛ أي: المسيح، وإطلاق القرآن الكريم اسم "الإنجيل" على كتابهم - اعترافًا من القرآن بعقائدهم، فعيسى هو الإطلاق العربي لاسم يسوع عندهم، ويسوع بمعنى المخلص، ويزعمون أن هذا اعتراف من القرآن الكريم بأن يسوع مخلص العالم من الخطيئة الموروثة، ومخلص

® في "تهافت الاستدلال بمعجزات عيسى على ألوهيته" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والثمانين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

المؤمنين به، كما أن إطلاق المسيح في القرآن الكريم اعتراف منه بأنه معين ملكًا ونبيًّا وكاهنًا، لتعيينه مخلصًا للجنس البشري، كما أن الإنجيل بمعنى: الخبر المُفْرِح.

ونقول ردًّا على هذه المزاعم: إن استخدام القرآن الكريم لهذه الإطلاقات: "عيسى، المسيح، الإنجيل" لا يعني الاعتراف بعقائدهم الفاسدة، ولا يعني حتى الاعتراف بما تحمله من معان، فإن كانت هذه الكلمات في أصل اشتقاقها تحمل المعاني المذكورة، فإنها أصبحت أسماء لمسميات، فأصبح عيسى عليه السلام علمًا على النبي المرسل، وكذلك المسيح أصبح لقبًا له، وأصبح الإنجيل علمًا على الكتاب الذي أنزله الله تبارك وتعالى عليه.

وحتى لو كان معنى كل اسم من هذه الأسماء مقصودًا، فليس على عقيدتهم الوثنية، ولكن عيسى عليه السلام مخلص للمؤمنين به من عذاب الله لكونه سببًا في هدايتهم، والمسيح معين ليكون نبيًّا وقد كان، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، لا ما بأيديهم مما افتروه على الله، فيه بشرى للمؤمنين، وهذا الفهم لا ينكره القرآن، بل يقرر أن المرسلين مبشرون ومنذرون: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (الأنعام: ٤٨)، أما كثرة ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام في القرآن الكريم فليس اعترافًا بألوهيته؛ ولكن لأنه لم يقل أحد قولًا عظيمًا في حق مخلوق مثلما قيل في المسيح عليه السلام، فكان تكرار ذكره تأكيدًا على أنه بشر ابن بشر ـ ابن مريم ـ ونفيًا لألوهيته، ولو كانوا صادقين في الإيمان بعيسى عليه السلام وفي حبه، لآمنوا بالكتاب الذي اعترفوا بأنه أشاد به، ووضعه في المكانة اللائقة به، ولأخذوا بكل ماجاء فيه عن المسيح وعن غيره، لا أن يُزيِّفوا الحقائق ويَقْلِبوها، ويُحرِّفوا آيات القرآن ويستنطقوها ضلالاتهم.

الخلاصة:

- المسيح عليه السلام كلمة الله وروح منه، أي: أنه نفاذ لكلمته "كن"، ونتيجة نفخ الروح في أمه، لكونه خلقًا غير معتاد، ما خص الله تعالى به عيسى عليه السلام من معجزات لا يدل على ألوهيته، ولكنها تصديق لنبوته، يشاركه في ذلك بقية الرسل، فهم مؤيدون بالمعجزات، وما كان من أمر خلقه، ورفعه فذلك آية للناس تدل على طلاقة قدرة الله تعالى.
- تكرار ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم لا يدل على ألوهيته، بل لأنه أكثر من فُتن الناس به، واختلفوا فيه، ومنهم من عاداه من بني إسرائيل، حتى كفروا به وحاولوا قتله، ومنهم من أفرط في حبه ـ أو هكذا توهموا ـ حتى رفعوه إلى درجة الألوهية؛ فجاء القرآن ليحسم هذا الخلاف، وليضعه في منزلته اللائقة به.

www.kalemasawaa.com

الشبهة الثالثة والثمانون

إنكار تكلُّم المسيح عليه السلام في المهد(*)®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن القرآن الكريم يناقض التاريخ والكتب المقدسة، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (آل عمران)؛ حيث يذكر أن عيسى ابن مريم عليه السلام تكلم في المهد، وهو يخالف ما جاء في الكتاب المقدس والتاريخ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن ذِكْر الكتاب المقدس لتحدث المسيح عليه السلام في المهد أو ما يدل على هذا التحدث يقطع الألسنة المشككة في الخبر لا سيما من المسيحيين.

٢) كيف يقرون بأنه ولد ولادة غير طبيعية من أم فقط دون أب، ثم ينفون عنه أنه تكلم في المهد، فكيف يثبتون له الخارق، وينفون ما هو أقل من ذلك؟

٣) كان كلامه عليه السلام في المهد تبرئة لأمه ودرءًا لتُهْمَة الزنا عنها.

التفصيل:

أولا. في الكتاب المقدس ما يدل على تحدث المسيح عليه السلام في المهد:

إن القرآن الكريم لا يناقض التاريخ والكتب المقدسة في مسألة كلام عيسى عليه السلام في المهد، ففي كتابهم المقدس ما يدل على ذلك، حيث وردت هذه القصة عند لوقا ونُسبت إلى زكريا: "وأما أَلِيصابات فتمَّ زمانها لِتَلِد، فولدت ابنًا. وسمع جيرانها وأقرباؤها أن الرب عظَّم رحمته لها، ففرحوا معها. وفي اليوم الثامن جاءوا ليَخْتِنوا الصبي، وسمَّوه باسم أبيه زكريا. فأجابت أمه وقالت:«لا! بل يُسمَّى يوحنا». فقالوا لها:«ليس أحد في عشيرتك تَسَمَّى بهذا الاسم». ثم أَوْمَئوا إلى أبيه، ماذا يريد أن يُسمِّي. فطلب لوحًا وكتب قائلًا: «اسمه يوحنا». فتعجب الجميع. وفي الحال انفتح فمه ولسانه، وتكلَّم وبارك الله. فوقع خوف على كل جيرانهم. وتحدث بهذه الأمور جميعها في كل جبال اليهودية، فأودعها جميع السامعين في قلوبهم قائلين:«أَتَرَى ماذا يكون هذا الصبي؟» وكانت يد الرب معه". (لوقا ١: ٥٧ ـ ٦٦).

فلو دققنا في هذه القصة التي تحكي عن صيام زكريا، ثم تكلمه، ثم تعجب السامعين من تكلمه لتعجبت أنت أيضًا. فهل لو أنا امتنعت عن الكلام، ثم تكلمت، فهل سيسبب هذا خوف السامعين أو شعورهم بمعجزة تستحق تسبيح الله؟ وهل لو تكلم الصائم يكون حديث البلدة كلها؟ لا، إن هذه الحادثة حدثت مع عيسى عليه السلام حيث تكلم في المهد؛ مبرئًا أمه، ومعلنًا أنه عبد الله ورسوله، والدليل على ذلك أن السامعين تعجبوا قائلين: "أَتَرَى ماذا يكون هذا الصبي؟ وكانت يد الربّ معه"، إذن فقد كان التعجب من عمل قام به الصبي.

وإلا أخبرني كيف بَرَّأتْ مريم نفسها من تهمة الزنا؟ فتبعًا للتوراة فإن ابنة الكاهن إذا زنت تُحْرَق

(*) موقع ابن مريم. www.ebnMarayam.com .

® في "تفرد القرآن بذكر كلام المسيح في مهده" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والعشرين، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

www.kalemasawaa.com

حية، وبما أن اليهود لم يحرقوها فلا بد أن تكون قد أتت بدليل براءتها: "إذا تَدَنَّست ابنة كاهن بالزنا فقد دنَّست أباها. بالنار تُحرَق". (اللاويين ٢١: ٩).

وحتى يطمئن قلبك إلى صدق هذه المعلومة؛ فإن إنجيل الطفولة ـ وهو أحد الأناجيل الذي ترفضه الكنيسة ـ يحكي أن عيسى عليه السلام قد تكلَّم في المَهْد[1].

وهذا هو كتابكم يذكر أن عيسى عليه السلام قد تكلم في المهد، فلماذا التكذيب إذن؟ ومحاولة رفضه حتى في كتابكم؟ فمرة ترفضون إنجيل الطفولة، ومرة تحاولون لَيّ عُنُق النص عند لوقا حتى يتفق مع هواكم، وإلا فما قولكم في كتابكم الذي تؤمنون به؟! هل ستكفرون بهذه الفقرة أو تلك حتى تخرجوا من هذا المأزق؟!

ثانيًا. كيف ينكرون كلامه في المهد مع أنهم يقرون بأنه وُلد ولادةً غير طبيعية، وبأنه ولد من غير أب، أليس الذي خلقه الله من غير أبٍ قادرًا على أن ينطقه في المهد؟!

كيف تثبتون له الأعلى وتنفون عنه الأدنى؟! لا يأتي هذا التفكير إلا من عقول جاهلة بحقيقة الأمور، وقلوب تعمل على الكفر بكل ما جاء به القرآن الكريم، ثم إنهم غالوا وشطحوا حتى أثبتوا له أشياء عظيمة جدًّا وصدقوا أنفسهم فيها، وفي بداية الأمر لا يستطيعون تصديق أنه عليه السلام تكلم في المهد، فلماذا لا يتكلم نبي في المهد ليدافع عن نفسه، وعن أمه، كرامة من الله عز وجل له في حين أننا نرى كل يوم، ونسمع عن أطفال عاديين ليسوا بأنبياء، ولكن الله حباهم بأشياء عظام، فهذا طفل في سن الخامسة، ولكن الله حباه ذاكرة يحملها رجل أعيته المذاكرة، وأضناه العمل في هذا المجال، ونحن نصدق هذا الأمر ونراه، فلماذا نكذب كون عيسى عليه السلام تكلم في المهد ليبرئ نفسه وأمه أمام مجتمعه؟

ومما يؤكد هذا أن جماعة من النصارى سألوا الإمام عليًّا رضي الله عنه فقالوا له: إن من كرامات نبينا عيسى عليه السلام أنه نطق في المهد.. فهل نطق نبيكم وهو في المهد؟ فقال علي رضي الله عنه: "إن نبيكم عيسى عليه السلام كان في حاجة إلى النطق في المهد، لأنه ولد ولادة غير عادية من غير أب فخاف من التهمة، فأنطقه الله معجزة له من أجل نبوته ورسالته، ليدرأ التهمة عن نفسه وعن أمه أمام مجتمعه والأجيال القادمة.. أما نبينا محمد ﷺ فكان في غير حاجة إلى النطق وقت ولادته؛ لأنه وُلد ولادة طبيعية من أم وأب معروفين"[2].

إذن، كانت العلة من نطق عيسى عليه السلام ضرورية ومُلحَّة؛ حتى يبرئ نفسه وأمه مما قد يلحق بهما من صفات لا تليق بهما. هذا وقد جاء الحديث الشريف ليؤكد هذا الكلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لم يتكلَّم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج...".[3] وقد قال الضحاك: تكلم في المهد ستة: شاهد يوسف، وصبي ماشطة امرأة

---

١. عيسى ليس المسيح الذي تفسيره المسِّيًا، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٣٢، ١٣٣.

٢. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص٢٨٧ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (مريم:١٦) (٣٢٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٦٦٧٣).

www.kalemasawaa.com

فرعون، وعيسى، ويحيى، وصاحب جريج، وصاحب الجيار، ولم يذكر صاحب الأخدود، وبه يكون المتكلمون سبعة[١].

ثالثًا. كان كلامه عليه السلام في المهد، تبرئة لأمه ودرءًا لتهمة الزنا عنها:

وإذا حققنا النظر في الذين تكلموا في المهد نجد أنهم قد تكلموا جميعًا لعلل ضرورية لا يمكن السكوت عنها، وإذا تم السكوت عنها فإنها تجلب مفاسد عظيمة، وهذا هو السبب الحقيقي لنطق عيسى عليه السلام في المهد.

فعلام ينكرون كلامه في المهد وقد حدث منهم ما كان يخشاه ويخافه؟!

وقد وضح القرآن الكريم مقالة هؤلاء السفهاء، ورد عليها ردًّا شافيًا مقنعًا؛ كما جاء على لسان سيدنا عيسى ابن مريم: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ (مريم)، هذا أول كلام تفوَّه به عيسى عليه السلام، فكان أول ما تكلم به أن اعترف لربه بالعبودية، وأن الله ربه، فنزَّه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله تعالى، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه مما نسبه إليها الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله تعالى: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠).

فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا، لعنهم الله وقبحهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ (النساء)، ذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنا في زمن الحيض، لعنهم الله فبرأها الله من ذلك، وأخبر أنها صِدِّيقة، واتخذ ولدها نبيًّا مرسلًا أحد أولي العزم من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾؛ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونزَّه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة[٢].

وهكذا كان حديث عيسى عليه السلام إليهم في المهد يرد على افتراءاتهم ومزاعمهم التي رموا بها أمه الصِّدِّيقة، وإلا كيف تنجو مريم من هذه التهمة؟! وكيف يثبت عيسى عليه السلام بشريته وعبادته لله الواحد القهار، وأنه نبي مرسل من عند الله تعالى؛ جاء ليدعو الناس إلى وحدانية الله تعالى؟!

وليخبرنا المنكرون الحاقدون كيف نَجَت مريم؟ وكيف أسكتت المجتمع عنها، وعن ولدها؟ وكيف أفلتت من الحرق لما عُلم أن ابنة الكاهن إذا زنت تُحرق حية، كما ورد في التوراة: "وإذا تَدنَّست ابنة كاهن بالزنا، فقد دنَّست أباها، بالنار تحرق". (اللاويين ٢١: ٩)، فكيف برَّأت نفسها؟

فإنك لو دققت النظر لعلمت أنه لا بد لهذا الولد من معجزة تنجيه وأمه، وكرامة تنفي عنه وعن أمه هذه التهمة، وكانت هذه الكرامة هي كلامه عليه السلام في المهد.

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٤، ص٩١ بتصرف.

٢. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٤٢٦.

www.kalemasawaa.com

الخلاصة:

- اشتمل الكتاب المقدس على نصوص دالة على صدق القرآن فيما أخبر به من كلام عيسى عليه السلام في المهد، فرغم تحريفهم لهذه الواقعة، وتوجيهها إلى زكريا عليه السلام فإنها لا تصدق إلا على عيسى عليه السلام؛ لأنه أول من تكلم في المهد.
- إن أصحاب الكتاب المقدس يقرون بولادة عيسى عليه السلام بدون أب، وينكرون كلامه في المهد. ألا يدل ذلك على شدة جهلهم وتزييفهم للحقائق؛ لأن ميلاده بدون أب معجزة أكبر من كلامه في المهد.
- كان كلام عيسى عليه السلام في المهد معجزة جعلها الله ﷻ ليبرئ نفسه وأمه أمام الجميع من التهم التي قد تلحق بهما، وقد حدث ما يخشاه فرموا أمه بالزنا، وجعلوه إلهًا وابن إله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فكان كلامه لعلة واضحة هي تبرئة أمه مما رموها به من الزنا، وإثبات بشريته وعبوديته لله ﷻ.

الشبهة الرابعة والثمانون

الزعم أن القرآن ينصُّ على أن المسيح ابن الله (*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن القرآن الكريم يقرِّر أن المسيح هو روح الله تعالى، وروح الله غير مخلوقة، وإذا كانت روح الله مخلوقةً وكلمته مخلوقةً، فإن الله تعالى كان قبل خلقهن بلا روح ولا عقل، وهذا لا يمكن تصوره، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ (مريم)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ (الأنبياء). مستدلين بذلك على أن عيسى عليه السلام ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وجها إبطال الشبهة:

١) نسب المسيح عند النصارى يقرر بشريته، وأنه ليس ابن الله، ونصوص كتابهم المقدس تثبت ذلك، وقد ذكر القرآن ذلك صراحة.

٢) أصل الإشكال عند النصارى في هذه القضية، هو عدم فهمهم وإدراكهم للنص القرآني، أو فهمهم النص القرآني وفق ما يروق لهم، واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بآيات القرآن الكريم.

التفصيل:

أولا. نسب المسيح عند النصارى يقرر بشرية المسيح، وأنه ليس ابن الله.

إن زعم النصارى أن المسيح ابن الله، في نفس الوقت الذي ينسب فيه الكتاب المقدس عيسى عليه السلام إلى يوسف النجار، يدل على فساد هذا القول وعدم صحته؛ حيث ورد في إنجيل لوقا في نسب المسيح: " ولمَّا ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سَنَةً، وهو على ما

(*) الرسول النكّاح والقمص المنكوح، إبراهيم عوض، مقال على شبكة الإنترنت.

® في "تنافي بُنُوَّة عيسى لله مع عقيدة التوحيد" طالع: الشبهة الخامسة والثمانين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

كان يُظَنُّ ابن يوسف، بن هَالِي، بن مَتْثَات، بن لاَوِي، بن مَلْكِي، بن يَنَّا، بن يوسف، بن مَتَّاثِيَا، بن عَامُوصَ، بن نَاحُومَ، بن حَسْلِي، بن نَجَّاي، بن مَآثَ، بن مَتَّاثِيَا، بن شِمْعِي، بن يُوسُفَ، بن يَهُوذَا، بن يُوحَنَّا، بن رِيسَا، بن زَرُبَّابِلَ، بن شَأَلْتِيئِيلَ، بن نِيرِي، بن مَلْكِي، بن أَدِّي، بن قُصَمَ، بن أَلْمُودَامَ، بن عِيرِ، بن يُوسِي، بن أَلِيعَازَرَ، بن يُورِيمَ، بن مَتْثَاتَ، بن لاَوِي، بن شِمْعُونَ، بن يَهُوذَا، بن يوسف، بن يُونَانَ، بن أَلِيَاقِيمَ، بن مَلَيَا، بن مَيْنَانَ، بن مَتَّاثَا، بن نَاثَانَ، بن دَاوُدَ، بن يَسَّى، بن عُوبِيدَ، بن بُوعَزَ، بن سَلْمُونَ، بن نَحْشُونَ، بن عَمِّينَادَابَ، بن أَرَامَ، بن حَصْرُونَ، بن فَارِصَ، بن يَهُوذَا، بن يَعْقُوبَ، بن إِسْحَاقَ، بن إِبْرَاهِيمَ، بن تَارَحَ، بن نَاحُورَ، بن سَرُوجَ، بن رَعُو، بن فَالَجَ، بن عَابِرَ، بن شَالَحَ، بن قِينَانَ، بن أَرْفَكْشَادَ، بن سَامٍ، بن نُوحٍ، بن لاَمَكَ، بن مَتُوشَالَحَ، بن أَخْنُوخَ، بن يَارِدَ، بن مَهْلَلْئِيلَ، بن قِينَانَ، بن أَنُوشَ، بن شِيتٍ، بن آدم، ابن الله". (لوقا ٣: ٢٣ ـ ٣٨).

فالمسيح كما هو واضح من النص ـ على فرض صحته ـ لم يُنسب لله، بل الذي نُسب لله هو آدم، ويعني ذلك أن الكتاب المقدس نفسه يضع آدم في مكانة أعلى من المسيح. ويَذْكُر إنجيل مَتَّى نسب المسيح فيقول: "كتاب ميلاد يسوع المسيح بن داود بن إبراهيم، إبراهيم ولد إسحق... ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يُدْعَى المسيح". (متى ١ ـ ١٦).

وفيه أيضًا: "فستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع؛ لأنه يخلص شعبه من خطاياهم، وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل. هوذا العذراء تحبل وتلد ابنًا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا، فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب، وأخذ امرأته ولم يعرفها، حتى ولدت ابنها البكر، ودعا اسمه يسوع". (متى ١: ٢١ ـ ٢٥).

إذن فآدم ـ في زعمهم ـ هو ابن الله، وأما المسيح فهو أحد أبناء آدم كما في كتبهم. وأما نحن ـ المسلمين ـ فعقيدتنا واضحة فهو ابن مريم، وهو كلمة الله ألقاها إلى مريم.

ومن الجدير بالذكر أن المسيح عليه السلام لم يُدْعَ "عمانوئيل" رغم أن هذا الاسم يطلق على من ليسوا بأبناء الله، كما أن النص يقول: إنها ستسميه "يسوع"؛ لكي تتحقق النبوءة القديمة التي تقول: إنه سيُسمَّى "عمانوئيل"، ومن فمهم وبلسانهم أنفسهم يدانون! فقد كان الناس جميعًا يقولون بأن أبا عيسى هو يوسف النجار، لا نقول افتراءً عليهم ذلك، بل إن أناجيلهم هي التي تقول، ومن ذلك: "وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة". (يوحنا ١: ٤٥).

"ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح". (متى ١: ٥٥).

"وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه، ويقولون: أليس هذا ابن يوسف"؟ (لوقا: ٤: ٢٢).

وكان عيسى عليه السلام يسمع ذلك منهم فلا ينكره عليهم، بل إن لوقا نفسه قال عن مريم ويوسف: إنهما

www.kalemasawaa.com

"أبواه" أو "أبوه وأمه". ونصُّ ذلك: "وعندما دخل بالصبي يسوعَ أبواه، ليصنعا له حسب عادة الناموس، أخذه على ذراعيه". (لوقا ٢: ٢٧). "وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح. ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد. وبعدما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي يسوع في أورشليم، ويوسف وأمه لم يعلما. وإذ ظنَّاه بين الرُّفْقَة، ذهبا مسيرة يوم، وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف. ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه. وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل، جالسًا في وسط المعلمين، يسمعهم ويسألهم. وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته. فلما أبصراه اندهشا. وقالت له أمه:«يا بني، لماذا فعلت بنا هكذا؟ هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك مُعذَّبَين!» فقال لهما:«لماذا كنتما تطلباني؟ ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي"؟ (لوقا ٢:٤١ ـ ٤٩)[1].

نصوص الكتاب المقدس أكبر دليل على أن المسيح ليس ابن الله:

إن الكتاب المقدس لم يقل: إن عيسى عليه السلام وحده هو ابن الله، بل لقد أطلقت هذه اللفظة على بشر كثيرين منذ أول الخليقة؛ حيث سمى آدم كما رأينا "ابن الله". وهذه شواهد على ما نقول، وهي أكبر برهان على أن كل ما يزعمه القوم كلام باطل بأدلة من كتابهم المقدس نفسه، لا من العقل والمنطق فحسب، ناهيك عن أدلة القرآن الكريم:

"وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب: «لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد، لزيغانه، هو بشر. وتكون أيامه مئة وعشرين سنة». كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادًا، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم". (تكوين ٦: ١ ـ ٤)، "قدِّموا للربِّ يا أبناء الله، قدِّموا للرب مجدًا وعزًّا". (المزامير ٢٩: ١)، "من في السماء يعادل الرب، من يشبه الرب بين أبناء الله". (المزامير٨٩: ٦)، "طُوبَى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء الله يُدْعَون". (متى ٥: ٩).

فلماذا يخصون عيسى عليه السلام وحده بهذه الصفة، فضلًا عن أن المسيح قد أخذه الشيطان ليجربه فوق الجبل، ويدفعه إلى السجود، وليس من المعقول أن يجرب الشيطان الله، ليرى أيمكن أن يسجد له الله أم لا، كما أنه ليس من المعقول أن يكون رد الله على الشيطان هنا هو "اذهب يا شيطان؛ لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد". (لوقا ٤: ٨)، وهو ما يعني بكل جلاء أن عيسى كان ينظر لله على أنه "ربه" ومن الواجب عليه أن يسجد له لا على أنه هو نفسه ولا على أنه "أبوه"، كما أنه عليه السلام قد سمَّى نفسه أيضًا: "ابن الإنسان". (متى ١١: ١٩).

فهذا كتابهم المقدس يدلل على أن المسيح ليس ابن الله، وإلا لكان كل هؤلاء أيضًا أبناء الله ـ تعالى الله عما

١. انظر: النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٦٥ وما بعدها. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٧٨ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

يقولون علوًّا كبيرًا ـ قال ﷻ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ (الإخلاص).

هناك دليل آخر من أفواههم، حيث يقول د. شارل نيبر ـ الذي نشأ مسيحيًّا من أب مسيحي، وأم مسيحية في بيئة مسيحية صحيحة ـ في كتاب "المسيحية: نشأتها وتطورها": والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين هي أن عيسى لم يدَّعِ قط أنه هو المسيح المنتظر، ولم يقل عن نفسه: إنه "ابن الله"، وذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل بالنسبة إلى اليهود سوى خطأ لغوي فاحش، وضَرْبٌ من ضُروب السَّفَه في الدين، كذلك لا يسمح لنا أي نص من نصوص الأناجيل بإطلاق تعبير "ابن الله" على عيسى، فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين المتأثرين بالثقافة اليونانية، إنها اللغة التي استخدمها القديس بولس منشئ الديانة المزعومة، والذي وقف وراء زعم ألوهية المسيح[1].

إن القرآن الكريم لم يذكر أن عيسى ابنُ الله، بل إن القرآن بَيَّن أنه بشر:

لقد دعا القرآن إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده؛ مما يدل على جهل الكافرين الفاضح بحقيقة الأمور، حيث إنهم تركوا كل هذه الآيات التي تقرر بشرية المسيح، وما هذا إلا لجهلهم واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بآيات القرآن الكريم.

ومن الآيات القرآنية التي تبين بشرية المسيح عليه السلام، وتدعو إلى التوحيد قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ (المائدة). وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١١٧﴾ (المائدة).

وردًّا على ما يقول النصارى من أن المسيح ابن الله تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا

١. أساقفة كنيسة إنجلترا وألوهية المسيح، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، كتاب المختار، القاهرة، ١٩٩١م، ص٢٠٢، ٢٠٣.

www.kalemasawaa.com

لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (التوبة).

فهذا هو القرآن الكريم ـ الذي تستدلون بكلامه ـ يدعو إلى التوحيد، بل إنه يصف من يقول: إن المسيح ابن الله بالكفر، ولكن إذا احتاج ضوء النهار إلى دليل فلا يثبت في الأذهان شيء: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦)[1].

ثانيًا. أصل الإشكال عند النصارى في هذه الآية هو عدم فهمهم وإدراكهم للنص القرآني، واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بآيات القرآن:

يحاول النصارى الاستدلال بالقرآن الكريم على أن المسيح جزء من الإله، انفصل عن الكل، ولهم أن يعتقدوا من العقائد الباطلة ما يشاءون، أما أن يستدلوا على عقيدتهم الباطلة في أن عيسى ابن الله ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا ـ بآيات القرآن الكريم التي تدعو إلى توحيد الله، وتحارب الوثنية بكل وسيلة، فهذا لا سبيل لهم إليه.

حيث إن الإشكال عند النصارى في هذه الآية هو عدم فهمهم، وإدراكهم للنص القرآني، أو فهمهم للنص القرآني وفق ما يروق لهم؛ واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بآيات القرآن الكريم.

ولو كان الاستدلال بالآية: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ (الأنبياء: ٩١) صحيحًا، لكان هذا دليلًا على بنوة آدم لله ﷻ من باب أولى، وليس عيسى وحده، فالله ﷻ يقول: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ (الحجر: ٢٩)، تمامًا مثلما جاء في الحديث عن عيسى وأمه.

بل ليس آدم وعيسى ـ عليهما السلام ـ وحدهما فقط يصيران ابني الله ﷻ إن صحت الآية دليلًا، بل كل أبناء آدم يصبحون أبناء الله ﷻ، فالله ﷻ يقول عن النوع الإنساني كله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (السجدة).

وأما استدلالهم هذا فغير صحيح، بل هو استدلال فاسد، فلو أننا تأملنا القرآن الكريم حيث يقول عن آدم: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ مثلما يقول عن مريم: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ لوجدنا أن النفخ حسبما يقول، لم يتم في آدم وعيسى، بل في آدم ومريم.

إن الذي يترتب على ذلك أن يكون الخارج من آدم ومريم متشابهًا، أي: إن البشر جميعًا، وهم الذين خرجوا من صلب آدم، يشبهون عيسى الذي خرج من رحم مريم، وعلى هذا فإما أن نقول: إن الطرفين جميعًا ـ البشر من ناحية، وعيسى من الناحية الأخرى ـ آلهة إذا قلنا إن "الروح" تعني "الألوهية"، أو أن نقول: إنهم جميعًا بشر على أساس أن "الروح" تعني "الحياة، والوعي، والإرادة، وما إلى ذلك"، وعلى النصارى والزاعمين أن عيسى ابنُ الله أن يختاروا الطريق للتمييز بين عيسى عليه السلام، وأبناء آدم، وليعلموا أن الطريق أمامهم مسدود، إذ هما شيء واحد، على حد زعمهم.

فلو كان إلهًا لكان البشر جميعًا آلهة، فأنت إله، وأنا

١. الرسول النكَّاح والقمص المنكوح، د. إبراهيم عوض، مقال من شبكة الإنترنت.

www.kalemasawaa.com

إله، فإذا حكموا بذلك فلن تستقيم الحياة، ولن يكون لإرسال الرسل فائدة، وستكون الدنيا بأسرها عبثًا، ولن تكون هناك خطيئة، فلا بد إذن أن يكونوا بشرًا، فمن هنا نقول بأن عيسى عليه السلام بشر.

الخلاصة:

- المسيح ابن مريم عليه السلام عَبْدُ الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وليس هو الله ولا ابن لله، ولا ثالث ثلاثة كما زعمت طوائف النصارى، وبشريته ثابتة في كتبهم، وعدم بنوته لله ثابتة في نسبه في كتبهم كما في (لوقا: ٣/ ٢٣ ـ ٣٨)، ذلك إن صحَّ السند في هذه النسبة، مع استبعاد أنه ابن يوسف النجار بالطبع.
- ومما يدحض قولهم ببنوة عيسى عليه السلام لله عز وجل نصوص الكتاب المقدس التي تذكر أن عيسى عليه السلام ليس وحده ابن الله تعالى، بل أطلقت على كثير من البشر تلك الصفة، وهذا على فرض صحة هذه النصوص.
- الذي يستدل بالقرآن على بنوة المسيح لله عز وجل كيف غفل عن الآيات الواضحة ـ وهي كثيرة ـ في الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والإيمان به وحده، ودعوة الله تعالى على لسان المسيح نفسه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (المائدة: ١١٧)، بل وإنكار دعوى النصارى في التثليث وتكفيرهم بها؟! ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣).
- إن الإشكال عند النصارى في قول الله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ هو عدم فهمهم وإدراكهم للنص القرآني، أو فهمهم للنص على وفق أهوائهم، واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بالقرآن الكريم.

الشبهة الخامسة والثمانون

ادعاء أن بُنوَّة المسيح عليه السلام لله عز وجل لا تُنافي التوحيد(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن بُنوة عيسى لله عز وجل ليست بنوة جسدية تناسلية، وإنما هي بنوة روحية كبنوة الفكر للعقل، والأبوة عندهم لها معانٍ عدة؛ فهي قد تكون مجازية كقولك "أبو الخير"، وقد تكون شرعية كـ "التَّبنِّي" في زعمهم، وقد تكون جوهرية كـ "تولد النور من النار"، وقد تكون روحانية كـ "بنوة عيسى من الله"؛ ولذلك فإن بنوة المسيح لا تنافي التوحيد في زعمهم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لو كانت بنوة عيسى عليه السلام لله عز وجل بنوة روحانية ـ كما يزعمون ـ لكان من الأولى أن تكون هذه البنوة لآدم عليه السلام، فهو أوّل من خلقه الله من البشر، ونفخ فيه من روحه.

(*) مناظرة بين الإسلام والنصرانية لمناقشة العقيدة الدينية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، دار الحديث، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ.

® في "أكذوبة بُنُوَّة عيسى لله" طالع: الشبهة الرابعة والثمانين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

٢) محاولة تفسير البنوة بأنها بنوة روحية محاولة باطلة؛ لأن عيسى عليه السلام مثل سائر الخلق في ذلك، هذا فضلًا عن أن نسبة الولد لله عز وجل إنقاص من كمال عظمته.

٣) إقرار عيسى عليه السلام ببشريته في الكتاب المقدس وبكونه عبدًا لله تأكيد منه على أن ادعاء البنوة لله ينافي التوحيد، فضلًا عن أنها ذريعة للإشراك بالله.

التفصيل:

أولا. إذا كانت بنوة عيسى عليه السلام لله عز وجل بنوة روحانية - كما يزعمون - لكان من الأولى أن تكون هذه البنوة لآدم عليه السلام، فهو أوّل من خلق الله من البشر، ونفخ فيه من روحه:

لماذا لم يدَّع المدَّعون البنوة الروحانية هذه لآدم عليه السلام؛ فمعجزة خلقه أعظم في النفوس البشرية من معجزة عيسى عليه السلام فقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم، ثم نفخ فيه من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الحجر)، وأما المسيح عيسى عليه السلام فقد خلقه الله من أمٍّ بلا أب، فأي المعجزتين أكبر؟! آدم الذي خُلِقَ من غير أب ولا أم، أم المسيح الذي خُلِقَ من أم بلا أب؟! ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران). ثم إن البشر جميعًا نُفخت فيهم الروح.

وجاء في الحديث الصحيح: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة"[1].

إذن.. فكل إنسان لا بد أن يوكل به ملك فينفخ فيه الروح: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ (السجدة)، ومريم وُكِّلَ بها ملك نفخ فيها روح عيسى عليه السلام فجعله الله خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد اعترف النصارى أنفسهم ببشرية المسيح عليه السلام، وعدم تميزه في الطبيعة عن غيره من البشر، فهذا النجاشي - وكان نصرانيًّا آنذاك - لما سأل جعفر بن أبي طالب قائلًا: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قال له جعفر: هو عبد الله ورسوله ﷺ، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتول، فضرب النجاشي بيده في الأرض فأخذ عودًا، ثم قال: والله، ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. فهذا ملك من ملوك النصارى، يعترف ببشرية المسيح، وصدَّق القرآن فيما أتى به عن عيسى عليه السلام.

والكتاب المقدس ذكر أن أبا عيسى هو يوسف

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) (٣١٥٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه (٦٨٩٣).

www.kalemasawaa.com

النجار، ومن ذلك: "وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة". (يوحنا ١: ٤٥).

"ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح". (متى ١: ٥٥).

"وكان الجميع يشهدون له، ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه، ويقولون: أليس هذا ابن يوسف"؟ (لوقا: ٤: ٢٢).

ثانيًا. محاولة تفسير البنوة بأنها بنوة روحية محاولة باطلة؛ لأن عيسى عليه السلام مثل سائر الخلق في ذلك:

الأبوة الروحية إن قُصد بها نفخ الروح، فالبشر جميعًا منفوخ فيهم الروح، فلا فرق في ذلك بين سائر البشر وبين المسيح عليه السلام، وإن قصد بها أنه مخلوق من أم بلا أب بشري، فإن آدم عليه السلام مخلوق من غير أب ولا أم، فأيهما أولى بالأبوة لو صحَّت؟!

وإن قصدتم بالأبوة الروحية أبوة الشيخ لمريديه، فهي أبوة روحية؛ لأنه يربي أرواحهم، وهم يتأثرون به في أخلاقهم، وصفاتهم المعنوية، لا أنهم يستمدون منه أسباب الحياة الجسدية، فلم يخرجوا من صلبه، ولكنهم نتاج عقله وتهذيبه، وتأثيره الروحي، إن قصد ذلك، فليس عيسى وحده ابنًا روحيًّا لله عز وجل بل كل المؤمنين الذين تهذبهم وتربيهم تعاليم الإله الواحد أبناء روحانيون لله عز وجل بهذا المعنى.

لكن وصف النصارى للأبوة بأنها أبوة روحية، يتعارض مع عقيدتهم في التجسيد، فإنهم يقولون: إن الكلمة تجسدت فصارت إلهًا، وابنًا لله، فكيف تكون روحية، وهي متجسدة، وصارت جسد إنسان؟

إن عقيدتهم في يسوع ـ بإقرارهم ـ تقضي بأن المسيح عليه السلام يجب أن يكون إما مجنونًا، أو سيئًا، أو إلهًا[1]، وتعالى الله أن يكون العبد المخلوق إلهًا.

والأب والابن من الأمور المتلازمة، فإذا وجد أب، وجد ابن، وإذا وجد ابن وجد أب، فلا وجود لأحدهما بدون الآخر، وذلك في غير آدم، وحواء، وعيسى. والبنوة نتاج زوجين متزوجين شرعًا، أو بطريقة مشروعة، أقرها الشرع وباركها، وقامت على شروط الشرع.

وأما البنوة بالتبني ـ كما زعموا ـ كبنوة زيد بن حارثة لرسول الله ﷺ فذلك عُرفٌ كان سائدًا، وهو عُرف فاسد باطل، وليس شريعة متبعة، وما عدا الأبوة الحقيقية التي ذكرناها ـ الأبوة الشرعية الناتجة عن زواج مشروع ـ فأبوة وبنوة مجازية، ومن ذلك قولنا: النور ابن النار، أو أبو الخير.

ثالثًا. إقرار عيسى عليه السلام ببشريته في الكتاب المقدس، وبكونه عبدًا لله:

يشير د. عبد المنعم فؤاد إلى أن الكتاب المقدس جاء فيه ما يقرر بشرية المسيح على لسان المسيح نفسه، وأنه ليس إلا عبدًا لله، أرسله برسالته ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ولكن القوم ضلوا، فعبدوه من دون الله، والمسيح منهم براء، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا. ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ

---

١. يعترف موريس وايلز ـ أستاذ الإلهيات، والكتاب المقدس في كلية المسيح، بأكسفورد ـ بأن القساوسة كانوا يعلمونه هذه العبارة في وصف التثبيت للخدمة الكهنوتية انظر: أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، جون هك، ترجمة: نبيل صبحي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٨م، ص٣١.

www.kalemasawaa.com

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ (المائدة).

وقد جاء في سفر أعمال الرسل قول بطرس عن السيد المسيح: "أيها الرجال الإسرائيليون، اسمعوا هذه الأقوال، يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قِبَل الله بقُوَّات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم، كما أنتم أيضًا تعلمون". (أعمال الرسل ٢: ٢٢)، فلم يقل بطرس: إن المسيح إله، ولا ابن إله، وإنما قال: هو رجل أجرى الله على يده معجزات، وكذلك قال بطرس في السفر نفسه: "يسوع الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة، الذي جال يصنع خيرًا، ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس، لأن الله كان معه". (أعمال الرسل ١٠: ٣٨)، فقال: إن الله كان معه، كما أن الله مع جميع المرسلين، ولم يقل: إنه إله ولا ابن إله"، وكل هذا يبين لنا أن المسيح عليه السلام إنسان بشر، وأنه رسول الله، وأنه ليس إلا نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل.

والمسيح دعا إلى التوحيد الخالص لله رب العالمين، فقد جاء في إنجيل لوقا أنه سأله رئيس المجمع قائلًا: "أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلَّا واحد وهو الله". (لوقا ١٨: ١٨، ١٩).

لقد كان المسيح حريصًا على نفي صفة الصلاح عن نفسه، وردها إلى الله وحده، فكيف يُقال بعد ذلك: إن المسيح إله، أو ابن إله، ولما جاء رجل من الكتبة، وسمعهم يتحاورون رأى حُسْن إجابة يسوع، فسأله: "أية وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد". (مرقس ١٢: ٢٨، ٢٩)، فلم يَدَّعِ أنه إله يُعبد، ولكن موقفه أمام الله كموقف كل أنبياء بني إسرائيل.

هذه هي اعترافات السيد المسيح عليه السلام من كتبهم، فهل بعد ذلك يثبتون للمسيح الألوهية، أو الربوبية أو حتى البنوة؟ سبحان القائل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص)[1].

الخلاصة:

- إنه لو كان أحد يستحق البنوة الروحانية من الله عز وجل، لكان أحق الناس بذلك آدم عليه السلام؛ إذ إنه أول من خُلِقَ من البشر، وأوّل من نفخ فيه الروح من الله عز وجل.
- مثل عيسى عليه السلام في البنوة الروحية التي يزعمونها كمثل سائر البشر في ذلك، ولم يتميز عن أحد في ذلك؛ فالطبيعة البشرية طبيعة واحدة.
- أقر عيسى عليه السلام ببشريته، وذلك بإخبار الكتاب المقدس، وإقراره عليه السلام على نفسه من كتبهم، وهذا صريح في كتاب الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ

١. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مرجع سابق، ص٨٦ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ (المائدة).

الشبهة السادسة والثمانون

الزعم أن المسلمين يُثبتون العصمة للمسيح وينفونها عن محمد ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن المسلمين يُقرُّون أن المسيح معصوم، وأنهم لم يثبتوا العصمة للنبي محمد ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) عقيدة المسلمين في جميع الأنبياء والرسل أنهم جميعًا معصومون، وليس المسيح عليه السلام وحده، ومن ادعى غير ذلك فهو جاحد لا عقل له.

٢) النبي محمد ﷺ معصوم في قوله، وفعله، وبلاغه عن الله، وهذا ثابت عقلًا ونقلًا عند جميع المسلمين، ولم يخالف منهم في ذلك أحد.

التفصيل:

أولا. عقيدة المسلمين في جميع الأنبياء والرسل واحدة، وهي أنهم جميعًا معصومون:

والعصمة في اللغة تعني: المنع، تقول: اعتصمت بالله: إذا امتنعت بلطفه من المعصية[١]. أما العصمة في الاصطلاح الشرعي فلها تعريفات متعددة أوضحها، وأنسبها للمعنى اللغوي أنها: لطف من الله ﷻ يحمل النبي على فعل الخير، ويزجره عن الشر، مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء[٢].

وفي عصمة الأنبياء من المعاصي قبل النبوة يتردد سؤال هو: هل يُجوِّز العقل صدور الذنب من الأنبياء قبل النبوة أو لا؟

وللجواب عن هذا السؤال نوضح أن الذنوب تنقسم قسمين:

الأول: يستقل العقل بإدراك أنه ذنبٌ فَيُنَفِّر صاحبه من ارتكابه كالزنا، والقتل العمد، ونحوهما، فهذا لا يُجوِّز العقل صدوره منهم **لأمرين هما:**

١. أن عقل الإنسان العادي الصحيح ينفر عنه، والأنبياء أصح الناس عقولًا، فهم أولى بالامتناع والنفرة عنه.

٢. أن صدور هذا النوع من الذنوب منهم يكون وصمة عار تزعزع الثقة بهم ـ بعد النبوة ـ وتنفر الناس من اتباعهم.

والثاني: هو ما يتوقف معرفة أنه ذنب على الشرع، كالتعامل بالربا مثلًا، فهذا النوع لا مانع لدى العقل من فعله، ولا تشريع قبل البعثة يمنع منه، ولا يُنَفِّرُ أتباع الأنبياء بعد البعثة، ولم ينقل إلينا أن أحدًا من الأنبياء قد فعل شيئًا منه قبل بعثته.

ولما كان الله ﷻ لم يرسل إلى خلقه إلا من هو أعقل أهل زمانه، وأقواهم فطرة، وأحسنهم خُلُقًا وخَلْقًا؛ كان الأنبياء معصومين قبل النبوة وبعدها، ولم يقع

(*) الإسلام والغرب، روم لاندو، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.

١. لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، مادة: عصم.

٢. نسيم الرياض، أحمد شهاب الدين الخفاجي، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة، د. ت، ج٤، ص٣٩.

www.kalemasawaa.com

ذنب من أحدهم قط.

والأنبياء في هذه العصمة من الذنوب سواء؛ لأنه لا فرق بين نبي وآخر في عصمة الله ﷻ لهم، وأما صدور الصغائر قبل البعثة منهم ـ عليهم السلام ـ فلا مانع من وقوعها عمدًا أو سهوًا؛ لعدم قيام دليل على المنع. ولا خلاف أن الأنبياء معصومون من الصغائر التي تزري بفاعلها، وتحط منزلته، وتسقط مروءته، وأما وقوع الصغائر من الأنبياء سهوًا، أو خطأً في الاجتهاد فيجوز، وعلى هذا يحمل ما نسب إلى بعضهم من ذنوب في القرآن الكريم، والحديث الشريف، عوتبوا عليها، وأشفقوا منها، واستغفروا، وتابوا[1].

فما ذكر في القرآن الكريم عن بعضهم يظهر منزلتهم برجوعهم إلى الله ﷻ، واعترافهم بتقصيرهم في جنب الله، فهذا يظهر مكانتهم ولا يزري بهم، والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ معصومون زمان النبوة عن الكبائر والصغائر. أما الخطأ على السهو فهو جائز في غير الوحي والتشريع[2]®.

ثانيًا. النبي محمد ﷺ معصوم في قوله وفعله وبلاغه عن الله، وهذا ثابت عقلا ونقلا عند جميع المسلمين:

اختار الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ أصلاب الطاهرين وأرحام الطاهرات من لدن آدم، وحواء إلى أبيه وأمه، وهذا من عناية الله ﷻ بنبيه ﷺ من قبل أن يولد. وبعد أن ولد حفظه الله ﷻ من الشيطان، فلم يجعل له سبيلًا إلى قلب محمد ﷺ؛ فقد شق صدره وقلبه وهو صغير، واستخرجت منه العلقة السوداء، التي هي حظ الشيطان من الإنسان، ثم غُسل قلبه حتى نُقِّيَ[3].

وحفظه ربه من قبائح الجاهلية ومساوئها، فلم يتدنس بدنسها، يدل على هذا ما جاء عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية ـ أي: ويفعلونه ـ إلا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله ﷻ منهما؛ قلت لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها: أبصِرْ لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان قد تزوج بفلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الصوت، فغلبتني عيناي، فنمت، فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك، فوالله ما هممت بشيء من ذلك ـ بعد ـ حتى أكرمني الله ﷻ بنبوته"[4].

وثبت النبي ﷺ على هجر المآثم، فكان على الطريق المستقيم لم يعدل عنه، وأقسم الحق تبارك وتعالى أن نبيه ﷺ لم يعدل عن الطريق المستقيم، فقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١١٨، ١١٩.

٢. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق. ص٤١: ٤٧.

® في "عصمة الأنبياء" طالع: الشبهة الثانية بعد المائة، من هذا الجزء.

٣. الطبقات الكبرى، ابن سعد، مطبعة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، د. ت، ج١، ص١٣١.

٤. حسن: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق (٦٢٧٢)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه صحيح ابن حبان.

www.kalemasawaa.com

﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ (النجم).

قال البيضاوي في معنى الآية: ما عدل محمد ﷺ عن الطريق المستقيم، وما اعتقد باطلًا ـ والمراد نفي ما ينسبون إليه ـ وما يصدر نطقه بالقرآن عن الهوى[1]، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ (آل عمران).

ويضيف ابن كثير إلى معنى الآية: "لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من جنسهم؛ ليتمكنوا من مخاطبته، وسؤاله، ومجالسته، والانتفاع به، فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته، ومراجعته في فهم الكلام عنه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر؛ لتزكو نفوسهم، وتطهر من الدنس الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: القرآن والسنة النبوية، ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ هذا الرسول ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لفي غي وجهلٍ ظاهر بيِّن لكل أحد"[2].

ومما وصف به نبينا ﷺ في التوراة والإنجيل أنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (الأعراف: ١٥٧) وإذا كان ﷺ آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، فهل يترك معروفًا، أو يأتي منكرًا؟ كلا. ومن هنا يُقطع ببعده عن المآثم، ونزاهته عن كل ما يخالف دعوته، وتثبت له العصمة، ثم إن ربه قد وصفه بأنه نور يضيء للناس حياتهم، وتبصر به بصائرهم، ويخرجهم من ظلمات جهالاتهم، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾ (الأحزاب).

ومن كان بهذه المكانة؛ فإنه يكون في أقواله وأفعاله مثالًا يحتذى به في فعل كل خير، والبعد عن كل شر؛ لأن من يترك الخير، أو يفعل الشر لا يهدي غيره، ولا يضيء للآخرين حياتهم.

وحتى يستضاء بنوره، ويهتدى بهديه كان ﷺ متواضعًا للمؤمنين رفيقًا بهم، كما أمره ربه بذلك في قوله ﷻ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥﴾ (الشعراء).

وكان متسامحًا يعفو عن المسيئين، ويأمر بالمعروف، ولا يكافئ الجاهلين بمثل أفعالهم تنفيذًا لأمر ربه بذلك في قول الله ﷻ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ (الأعراف).

ولا عجب أن يكون ﷺ على هذا الخلق العالي؛ وقد اقتدى بهدي الرسل جميعًا ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كما أمره ربه بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠) وتخلق ﷺ بأخلاقهم.

١. أنوار التنزيل، البيضاوي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٠.

٢. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج١، ص٤٢٤.

www.kalemasawaa.com

وأخيرًا، وبعد زمان طويل بدأ المنصفون من غير المسلمين في الاعتراف بصدق محمد ﷺ وكمال رسالته، واعتباره "الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقًا على كلا المستويين: الديني والدنيوي، فهو قد دعا إلى الإسلام، ونراه كواحد من أعظم الديانات، وبعد أربعة عشر قرنًا من وفاته؛ فإن أثره ما يزال متجددًا"[1] ®.

الخلاصة:

- الأنبياء كلهم معصومون، والمسلمون يعتقدون لجميعهم العصمة، والمسلمون مأمورون بعدم التفرقة بين أحد من رسل الله ﷻ؛ فالأنبياء في العصمة سواء، وهم معصومون عن المعَاصي فلا تقع منهم في زمان النبوة، أما وقوعها منهم على سبيل السهو، فهو جائز في غير الوحي والتشريع.
- لقد تكفل الله ﷻ بحفظ النبي ﷺ وعصمته قبل البعثة وبعدها، ولا عجب أن يكون ﷺ على هذا الخُلق العالي؛ فإنه اقتدى بهدي الرسل جميعًا ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كما أمره ربه بقوله ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ ومن يتخلق بأخلاق الرسل جميعًا، لا شك في أنه يكون أسرع الناس في الخيرات، وأبعدهم عن المعاصي.

الشبهة السابعة والثمانون

ادعاء أن القرآن الكريم يقرر ألوهية المسيح عليه السلام (*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن يقرر أن المسيح إله، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ عن المسيح: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١)، وقوله تبارك وتعالى حكاية عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٩)، فيستدلون بالآية الأولى على أن المسيح ابن الله، والآية الثانية على أنه يشارك الله ﷻ بصفات منها: صفة الخلق وإحياء الموتى وعلم الغيب، كما يزعم هؤلاء أن المسيح عليه السلام قال عن نفسه: أنا ابن

---

١. انظر: المائة الأعظم أثرًا في التاريخ، ميخائيل هارث، ترجمة: علي الجوهري، مكتبة القرآن، القاهرة، د. ت.

® في **"عصمة النبي في تبليغ الوحي"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي **"عصمة النبي وبطلان قصة الغرانيق"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية. وفي **"عصمة النبي من كيد الشيطان وتمَنِّيته"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين؛ من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

(*) مناظرة بين الإسلام والنصرانية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، مرجع سابق. مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

® في **"إبطال القرآن الكريم ألوهية المسيح"** طالع: الشبهة السادسة. وفي **"إبطال القرآن الكريم لاعتقاد النصارى ألوهية عيسى ومريم"** طالع: الشبهة الحادية والستين؛ من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد إليها). وفي **"تهافت الاستدلال بخلق عيسى للطير على ألوهيته"** طالع: الشبهة الثامنة والثمانين. وفي **"وصف عيسى بالديَّان ومدى دلالته على ألوهيته"** طالع: الشبهة التسعين؛ من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

الله، وأن الإسلام لا ينكر عقيدة المسيحيين في ألوهية المسيح، مستدلين على ذلك بما جاء في تفسير أبي السعود من قول السُّدِّي: إن أم يحيى قابلت أم عيسى، ثم قالت لها: إن ما في بطني ـ يحيى عليه السلام ـ يسجد لما في بطنك ـ عيسى عليه السلام ـ والسجود لا يكون إلا لإله. وهم بهذا التقول على القرآن الكريم وعلى علماء المسلمين يهدفون إلى إثبات الألوهية للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الكلمة في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١) هي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وليست شيئًا خارجًا عن ذاته، أو قد تكون هي أمر التكوين أي قوله: ﴿كُن﴾، ومن هنا صح إطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام من باب إطلاق المصدر على المفعول في اللغة العربية.

٢) الله تعالى هو الذي أوجد المعجزات وأظهرها على يد عيسى عليه السلام تأييدًا وتصديقًا له في نبوته ورسالته.

٣) لم يثبت عن المسيح عليه السلام أنه قال عن نفسه: إنه ابن الله، بل إن فريقًا من النصارى هم الذين زعموا ذلك، ولا يوجد عند النصارى شهادة صريحة على لسان المسيح تؤيد ألوهيته، بل على النقيض من ذلك يوجد الكثير من الدلائل على بشريته.

٤) حوار النبي ﷺ مع نصارى نجران، حول طبيعة المسيح أثبت عقلًا، ونقلًا بشرية المسيح وعدم ألوهيته.

٥) ما نسب إلى السُّدي ـ على فرض صحة نسبته إليه ـ ليس حجة على الإسلام؛ لأنه لم يرد في القرآن الكريم، أو السنة المطهرة ما يؤيده، والسجود هنا بمعنى التقدير والاحترام، وليس سجود العبادة كما فهم المتوهمون.

التفصيل:

أولا. الفهم الصحيح لمعنى الكلمة في الآية:

لتفنيد هذه الشبهة لا بد من تفصيل القول في جزأين رئيسين في الآية التي معنا، الجزء الأول قول الله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، والجزء الثاني قول الله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، ولنبدأ بالجزء الأول، فنقول: إن "كلمة الله" مركبة من جزأين: مضاف "كلمة"، ومضاف إليه "الله"، وإذا كان الأمر كذلك، فإما أن نقول: إن كل مضاف لله عز وجل هو صفة من صفاته، أو نقول: إن كل مضاف لله عز وجل ليس صفة من صفاته، وبعبارة أخرى، إما أن نقول: إن كل مضاف لله مخلوق، أو إن كل مضاف لله غير مخلوق، وإذا قلنا: إن كل مضاف لله صفة من صفاته وهو غير مخلوق؛ فإنا سنصطدم بآيات في القرآن، وكذلك بنصوص في الإنجيل، يضاف فيها الشيء إلى الله، وهو ليس صفة من صفاته، بل هو مخلوق من مخلوقاته.

كما في قوله تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾(الأعراف: ٧٣) وكما نقول: بيت الله، وأرض الله وغير ذلك، وإذا عكسنا القضية، وقلنا: إن كل مضاف لله مخلوق؛ فإننا كذلك سنصطدم بآيات ونصوص أخرى، كما نقول: علم الله، وحياة الله، وقدرة الله. إذن لا بد من التفريق بين ما

www.kalemasawaa.com

يضاف إلى الله؛ فإذا كان ما يضاف إلى الله شيئًا منفصلًا قائمًا بنفسه، كالناقة، والبيت، والأرض فهو مخلوق، وإذا كان ما يضاف إلى الله شيئًا غير منفصل، أي: صفة من صفاته، فيكون من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ومن البدهي أن يكون هذا غير مخلوق، إذ الصفة تابعة للموصوف ولا تقوم إلا به، فلا تستقل بنفسها بحال.

أما الجزء الثاني، فهو "كلمة الله"، وهي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فـ"الكلمة" هي صفة الله تعالى، وليست شيئًا خارجًا عن ذاته حتى يقال: إن المسيح هو الكلمة، أو يقال: إنه جوهر خُلق بنفسه كما يزعم النصارى.

فخلاصة هذا الوجه أن "كلمة الله" صفة من صفاته وكلامه كذلك، وإذا كان الكلام صفة من صفاته فليس شيئًا منفصلًا عنه، لما تقرر آنفًا من أن الصفة لا تقوم بنفسها، بل لا بد لها من موصوف تقوم به، وأيضًا فإن "كلمة الله" ليست ـ بداهة ـ جوهرًا مستقلًا، فضلًا عن أن تتجسد في صورة المسيح.

إن أبى المغرضون ما سبق، وقالوا: بل المسيح هو "الكلمة" وهو الرب، وهو خالق وليس بمخلوق، إذ كيف تكون الكلمة مخلوقة؟، فالجواب: إذا سلمنا بأن المسيح هو "الكلمة" وهو الخالق، فكيف يليق بالخالق أن يُلقى إلى مخلوق (السيدة مريم)، إن الخالق حقيقة لا يلقيه شيء، بل هو يلقي غيره.

فلو كان خالقًا ما أُلْقِيَ، ولما قال الله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ﴾(النساء: ١٧١)؛أي: المسيح عيسى، ومن ثم كان لزامًا علينا أن نبين المراد بكلمة الله الواردة في الآية موضوع النقاش: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، والجواب على ذلك أن نقول: إن المراد من "كلمة الله" يشتمل على معنيين كلاهما صحيح، ولا يعارض أحدهما الآخر:

المعنى الأول: أن قوله: "وكلمته" الكلمة هنا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ومعنى الآية على هذا: أن كلمة الله ـ التي هي صفته ـ ألقاها إلى مريم ـ عليها السلام ـ لتحمل بعيسى عليه السلام، وهذه الكلمة هي الأمر الكوني الذي يخلق الله به مخلوقاته وهي كلمة "كن"؛ ولهذا قال تعالى في خلق آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران) فكما أن آدم خُلق بكلمة "كن"، فكذلك خُلق عيسى، فـ "الكلمة" التي ألقاها الله إلى مريم هي كلمة "كن"، وعيسى خلق بهذه "الكلمة" وليس هو "الكلمة" نفسها.

المعنى الثاني: أن قوله "كلمته" هو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، فـ"الكلمة" هنا عيسى عليه السلام وهو مخلوق؛ لأنه منفصل، وقد بيَّنا سابقًا أن إضافة الشيء القائم بذاته إلى الله، هو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، فيكون المراد بـ "الكلمة" هنا عيسى، وأضافه الله إلى نفسه تشريفًا له وتكريمًا. فإن قلتم: كيف يسمي الله ﷻ عيسى "كلمة"، والكلمة صفة الله؟ فالجواب: أنه ليس المراد هنا الصفة، بل هذا من باب إطلاق المصدر، وإرادة المفعول نفسه، كما نقول: هذا خلق الله، ونعني: هذا مخلوق الله؛ لأن خلق الله نفسه فعل من أفعاله، لكن المراد هنا المفعول، أي المخلوق، ومثل قولنا: أتى أمر الله، يعني المأمور به، أي ما أمر الله به،

www.kalemasawaa.com

وليس نفس الأمر، فإن الأمر فعل من الله تعالى.

والمعنى الثاني للآية راجع عند التحقيق إلى المعنى الأول؛ فإننا إذا قلنا: إن عيسى "كلمة الله" بمعنى أنه نتيجة "الكلمة"، ومخلوق بـ "الكلمة"، فهذا يدل على "الكلمة" أساسًا، وهو فعل الله، ويدل على عيسى عليه السلام وهو الذي خُلِقَ بـ "الكلمة".

فحاصل هذا الجزء من الآية أن "كلمة الله" التي ألقاها إلى مريم هي أمر التكوين، أي قوله ﴿كُن﴾، فكان عيسى عليه السلام، ومن هنا صح إطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام، من باب إطلاق المصدر على المفعول، وكما يسمى المعلوم علمًا، والمقدور قدرة والمأمور أمرًا، فكذلك يسمى المخلوق بالكلمة كلمة.

هذا جواب ما يتعلق بالجزء الأول من الآية، أما الجزء الثاني، وهو قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فليس فيه أيضًا دلالة على ألوهية المسيح أو بنوته لله، فضلًا عن أن يكون فيه أي دليل لما يدَّعيه النصارى عن طبيعة عيسى عليه السلام، **وبيان ذلك فيما يلي:**

١. أن قول الله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ليس فيه ما يدل على أن عيسى جزء من الله تعالى، أو أن جزءًا من الله تعالى قد حلَّ في عيسى، وغاية ما في الأمر هنا أننا أمام احتمالَيْنِ لا ثالث لهما: فإما أن نقول: إن هذه "الروح" مخلوقة، وإما أن نقول: إنها غير مخلوقة؛ فإذا كانت الروح مخلوقة، فإما أن يكون خلقها الله في ذاته، ثم انفصلت عنه، ولهذا قال عنها: "منه"، أو خلقها الله في الخارج؛ فإذا كانت هذه الروح غير مخلوقة، فكيف يصح عقلًا أن تنفصل عن الله تعالى لتتجسد في شخص بشري؟ وهل هذا إلا طعن في الربوبية نفسها، لتجويز التجزؤ والتبعض على الخالق عز وجل؛ وإذا كانت الروح مخلوقة، وخلقها الله في ذاته، ثم انفصلت عنه، فهذا معناه تجويز إحداث الحوادث المخلوقة المربوبة في ذات الإله سبحانه، وهذا عين الإلحاد والزندقة، أما إذا كانت الروح مخلوقة، وخلقها الله في الخارج، فهذا يدل على أن الله عز وجل خلق الروح ونفخها في مريم، ليكون بعد ذلك تمام خلق عيسى عليه السلام ومولده.

هذا هو عيسى في التصور الصحيح، أما ما سوى ذلك فهو مجرد ترهات تأباها الفِطَر السليمة، فضلًا عن العقول المستقيمة.

٢. ما دمتم تقرُّون أنه ليس ثمة أحد يحمل صفات الألوهية، أو البنوة لله عز وجل إلا المسيح عليه السلام، وتستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، فحينئذ يلزمكم أن تقولوا: إن آدم عليه السلام أحق بالبنوة من عيسى، حيث قال الله في آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ (الحجر: ٢٩)، ولا شك أن القول بهذا حجة عليكم لا لكم، فإذا كان قوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِى﴾ في حق آدم معناه الروح المخلوقة، وأن هذه الروح ليست صفة لله عز وجل فهي كذلك في حق عيسى؛ إذ اللفظ واحد، بل إن الإعجاز في خلق آدم بلا أب ولا أم أعظم من الإعجاز في خلق عيسى بأم بلا أب، وحسب قولكم يكون آدم حينئذٍ أحق بالبنوة والألوهية من عيسى، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ولو سلمنا بأن الروح في الآية هو جزء من الإله، فهذا يقتضي أن يكون في الإله أقنومان ـ حسب اعتقاد النصارى ـ أقنوم الكلمة، وأقنوم الروح، وفي هذا تناقض في موقف النصارى؛ إذ إنهم لا يقولون إلا

www.kalemasawaa.com

بأقنوم "الكلمة"، ولا يقولون بأقنوم "الروح".

٣. لو كان معنى "منه" أي: جزء من الله، لكانت السماوات والأرض، وكل مخلوق من مخلوقات الله جزءًا من الله، ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣)، وقال عن آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وقال ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣)، إن معنى "منه" وفق السياق القرآني، أي: منه إيجادًا وخلقًا، فـ "من" في الآية لابتداء الغاية، وليس المعنى أن تلك الروح جزء من الله ®.

وبعد ما تقدم نقول: إن القرآن الكريم في هذا الموضع وفي غيره، يقرر بشرية المسيح عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله، وأنه ليس له من صفة الألوهية شيء، وقد قال الله تعالى في نفس الآية نفسها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٧١)، فهو ابن مريم وليس ابن الله، وهو رسول الله وليس هو الله تعالى، وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ٧٢)، وقال الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣)[1].

فهل بعد هذا الاستدلال العقلي؛ والبيان القرآني يبقى متمسك بشبهات أوهى من بيت العنكبوت؟ أو يلصق بالقرآن ما ليس منه؟

ثانيًا. إن الله ﷻ هو الذي أوجد المعجزات وأظهرها على يد عيسى عليه السلام تأييدًا وتصديقًا له في نبوته ورسالته:

إن الاستدلال على ألوهية المسيح بالمعجزات التي جُسِّدَتْ على يديه باطل؛ فعيسى عليه السلام لم يُوجِد هذه المعجزات، وإنما الله ﷻ هو الذي أوجدها وأظهرها على يديه، وعيسى عليه السلام لما نفخ في الأموات، أو ناداهم كما أمره الله، فكان عقب هذا أن أحياهم الله ﷻ فنُسب الإحياء إلى عيسى على اعتبار أنه باشر أسبابه بأمر الله، وهذه معجزة دلت على صدقه في نبوته ورسالته؛ ولذلك صَدَّر الحديث عن هذه المعجزات بقوله ﷻ على لسانه عليه السلام: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٩).

وإننا إذ نتحدث عن معجزات عيسى عليه السلام يجب أن نلاحظ شيئًا مهمًّا، هو أن الله ﷻ أكد على نسبة الإرادة لله تعالى ـ بإذن الله ـ رغم أنَّ عيسى عليه السلام رسول مؤيد من الله، فقال الله ﷻ على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (آل عمران).

ذلك أن الله ﷻ قد احتفظ بسر خلقه لنفسه، ولم يعطه لعبد من عباده، ومن هنا كان لزامًا أن تأتي كلمة "بإذن الله" بمعنى أن الخلق يتم لا بمعجزة ذاتية ولكن بإذن الله ﷻ، ثم تمضي السورة: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ

® في "المراد بأن عيسى كلمة الله وروحه" طالع: الشبهة الثانية والثمانين، من هذا الجزء. والشبهة العاشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

١. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، دار ابن القيم، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٢٥ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

﴿وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ذلك أن الشافي هو الله ﷻ وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا كانت هذه المعجزات إعلانًا من الله، وهو الفاعل لا يشرك أحدًا معه في ذلك، وإذا كانت هذه المعجزات قد تمت على يد رسول؛ فإنها تتم بإذن الله، فإنه هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يشفي من المرض.

فعيسى عليه السلام من أنبياء الله ورسله الذين أيدهم الله بالمعجزات وإحياء الموتى، والله لم يُجْرِ المعجزات على يد عيسى عليه السلام وحده، ولكنه أجراها على يد غيره من الأنبياء كذلك، فلو كان ذلك دليلًا على ألوهية عيسى؛ لكان ـ كذلك ـ دليلًا على ألوهية كل من ظهر على يديه إحياء الموتى.

ولقد ظهر إحياء الموتى على يد موسى عليه السلام عندما احتكم إليه المختصمون من قومه في شأن القتيل؛ قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا﴾ (البقرة: ٧٢)، وأحيا الله ﷻ على يد إبراهيم عليه السلام الطير بعد أن ذبحها وقطعها، وخلطها، وجعل على كل جبل منهنَّ جزءًا، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (البقرة).

فإن قالوا: استدللنا على كون المسيح إلهًا؛ لأنه أحيا الموتى، ولا يحيي الموتى إلا الله، قلنا لهم: فاجعلوا موسى إلهًا آخر؛ فقد أحيا بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه، وأتى من ذلك بشيء لم يأت المسيح بنظيره، ولا ما يقاربه، فقد جعل العصا حيوانًا عظيمًا ـ ثعبانًا ـ فهذا أبلغ وأعجب من إعادة الحياة إلى جسم كانت فيه أولًا.

فإن قلتم ـ أيها النصارى ـ: جعلناه إلهًا للعجائب التي ظهرت على يديه، قلنا: إن عجائب موسى أعجب وأعجب، وهذا إيليا النبي بارك على دقيق العجوز ودهنها، فلم ينفد ما في جرابها من الدقيق، وما في قارورتها من الدهن سبع سنين.

وإن جعلتموه إلهًا؛ لكونه أطعم من الأرغفة اليسيرة آلافًا من الناس، فهذا موسى قد أطعم أمته أربعين سنة من المنِّ والسلوى، وهذا محمد بن عبد الله ﷺ قد أطعم العسكر كله من زاد يسير جدًّا حتى شبعوا وملئوا، وسقاهم كلهم من ماء يسير لا يملأ اليد حتى ملئوا كل سقاء في العسكر، وهذا منقول عنه بالتواتر، فهل قال المسلمون بأنه إله؟!

وإن قلتم: جعلناه إلهًا؛ لأنه كان يعلم الغيب؛ إذ كان ينبئ أصحابه بطعامهم وشرابهم الذي يأكلونه أو يدخرونه في بيوتهم، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٩).

فإننا نقول لكم: إن مصدر علمه بذلك هو الوحي، وقد جرت مثل هذه المعجزة على يدي يوسف عليه السلام حيث أخبر صاحبه في السجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى﴾ (يوسف: ٣٧)[١].

كما أن علم عيسى عليه السلام لبعض الأمور ليس من ذاته، وليس علمًا مطلقًا بكل غيب، ولكنه بإعلام الله

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص٣٢٧ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

له، وإيحائه إليه، وهو بعض الغيب، وليس كل الغيب، فالغيب كله لا يعلمه إلا الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥)، والعلم الذاتي لأي معلوم ليس إلا لله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، فالله يُعلم رسله من الغيب ما يجعله آية لهم على صدقهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ (الجن).

ولو كان عيسى عليه السلام إلهًا لعلم الغيب ـ كل الغيب ـ بذاته من غير إعلام الله له، ولعلم يوم القيامة، متى يكون؟ وقد أعلن في الإنجيل أنه لا يعلمها، وأن الله وحده هو الذي يعلمها.

جاء في إنجيل مرقس: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلم بها أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن إلا الآب، انظروا، اسهروا وصلُّوا؛ لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت". (مرقس ١٣: ٣٢)[1].

فلو كان المسيح عيسى عليه السلام إلهًا لعلم الغيب علمًا ذاتيًا، ولعلم موعد الساعة، فما عُلم بالذات لا يتخلف، لكنه اعترف بعدم علمها، وأنه لا يعلمها إلا الله عز وجل.

إن معجزات عيسى عليه السلام مثلُها كمثل معجزات غيره من الأنبياء والرسل كناقة صالح، وعدم إحراق النار لإبراهيم، وكونها بردًا وسلامًا عليه، وعصا موسى، ومعجزة رسول الله ﷺ الخالدة، التي ما زالت تتحدى العالمين، وكل يوم يثبت للعقلاء صدقها وصدق من نقلها، وهي القرآن الكريم.

إن غرابة الخوارق التي جرت على يد المسيح لا تجعل منه إلهًا، بل تجعله آية على قدرة خالقه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ (مريم: ٢١).

ثالثًا. لم يثبت عن المسيح أنه قال عن نفسه: إنه ابن الله، بل إن فريقًا من النصارى هم الذين زعموا ذلك:

إن عقيدة المسلمين في المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام أنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وقد أمر المسيح عليه السلام أتباعه بعبادة الله وحده، وحذرهم من عاقبة الشرك بالله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢)، فالمسيح عليه السلام لم يقل عن نفسه: إنه ابن الله تعالى، بل إن فريقًا من النصارى الذين غالوا فيه، ورفعوه عن درجة البشرية إلى درجة الألوهية هم الذين زعموا ذلك، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (التوبة).

وقد جاء في إنجيل يوحنا على لسان المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: "الحق أقول لكم، من الآن ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على

١. رسالة للرد على رسالة تنصيرية شهيرة تزعم ألوهية المسيح من القرآن، إعداد وترتيب: محمود مهران، د. م، د. ن، د. ت.

www.kalemasawaa.com

ابـن الإنـسان". (يوحنـا ١: ٥١)، وكـذلك ورد أن المسيح عيسى عليه السلام يخاطب ربه على أنه الإلـه الواحـد، وأنه رسوله وليس ابن إله ولا إله: "وهذه هـي الحيـاة الأبدية أنت الإله الحقيقـي وحـدك، ويـسوع المـسيح الذي أرسلته". (يوحنا: ١٧: ٣).

فإن جعلتموه إلهًا؛ لأنه ادَّعـى ذلـك كـما تقولـون، فإما أن يكون الأمر كـما تقولـون عنـه، أو يكـون كـما ادعيتم عليه فهو أخو المسيح الدجال، ولـيس بمـؤمن ولا صادق، فضلًا عن أن يكون نبيًّـا كـريمًا، وجـزاؤه جهنم وبئس المـصير، كـما قـال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ (الأنبياء: ٢٩)، وكل من ادعى الألوهية من دون الله، فهو مـن أعظـم أعداء الله كفرعون، والنمرود، وأمثالهما من أعداء الله، فأخرجتم المسيح عـن كرامـة الله، ونبوتـه، ورسـالته، وجعلتموه من أعظم أعداء الله، ولهذا كنتم أشد الناس عداوة للمسيح في صورة محبٍّ مُوالٍ!

ومن أعظم ما يعرف به كذب المسيح الدجال، أنـه يدَّعي الألوهية، فيبعث الله عبده ورسوله مسيح الهدى ابن مريم فيقتله، ويُظهر للخلائق أنه كان كاذبًـا، هـذا فضلًا عـن أنـه لـو كـان إلهًـا لم يقتـل، فـضلًا عـن أن يصلب، ويُسمَّر ويُبصق في وجهه كما زعمتم!

ولو كان المسيح قد أقرّ بأنه عبد، ونبـي، ورسـول، كما شـهدت بهـذا الأناجيـل كلهـا ودلَّ عليـه العقـل، والفطـرة، وشـهدتم أنـتم لـه بالألوهيـة ـ وهـذا هـو الواقع ـ فلم لم تأتوا على ألوهيته ببينة؟ وقد ذكرتم عنه في أناجيلكم في مواضع عديـدة مـا يـصرِّح بعبوديتـه، وأنه مربوب مخلوق، وأنه ابن البشر، وأنـه لم يـزد عـن كونه نبيًّا رسولًا، وكنتم بهذا مكـذِّبين لـه ولكتـابكم، وصدقتم من كَذَبَ على الله وعليه وحرَّف في كتابكم!

وها هي نُقولٌ من الكتاب المقدس تؤكد على لسان المسيح نفي الألوهية عنه منها:

- "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا كـما أسـمع أَدِين، ودَيْنونَتي عادلـة؛ لأني لا أطلـب مـشيئتي، بـل مشيئة الآب الذي أرسلني". (يوحنا ٥: ٣٠).
- "قال لهـم يـسوع: متـى رفعـتم ابـن الإنـسان، فحينئذٍ تفهمون أني أنا هـو، ولـست أفعـل شـيئًا مـن نفسي، بل أتكلم بهذا كما علمني أبي، والـذي أرسـلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي؛ لأني في كـل حـين أفعل ما يرضيه". (يوحنا ٨: ٢٨).
- "فأخذ الجميع خوف، ومجَّدوا الله قـائلين: قـد قام فينا نبي عظيم، وافتقد الله شعبه". (لوقا ٧: ١٦).
- "فلـما رأى النـاس الآيـة التـي صـنعها يـسوع قـالوا: إن هـذا هـو بالحقيقـة النبـي الآتي إلى العـالم". (يوحنا ٦: ١٤).
- "قال لها يسوع:«لا تلمسيني لأني لم أصعد بعـد إلى أبي. ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهـم:إني أصـعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم". (يوحنا ٢٠: ١٧).
- "يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قِبَـل الله بقُـوَّات وعجائـب، وآيـات صـنعها الله بيـده في وسطكم". (أعمال الرسل ٢: ٢٢).
- "ولا تدعوا لكم أبًـا عـلى الأرض؛ لأن أبـاكم واحد، الذي في الـسماوات، ولا تـدعوا معلِّمـين؛ لأن معلِّمكم واحد المسيح". (متى ٢٣: ٩، ١٠).
- "تكلَّم يـسوع بهـذا ورفـع عينيـه نحـو الـسماء

www.kalemasawaa.com

وقال:«أيها الآب، قد أتت الساعة. مَجِّد ابنك ليُمَجِّدَك ابنك أيضًا، إذ أعطيته سلطانًا على كل جسد ليُعطي حياة أبدية لكل من أعطيته. وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته". (يوحنا ١٧: ١ ـ ٣).

- " إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى". (مرقس ١٢: ٢٩، ٣٠).
- "ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا. فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل". (متى ٢١: ١٠، ١١).
- "الحقَّ الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيِّده، ولا رسول أعظم من مُرسِله". (يوحنا ١٣: ١٦).
- "ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله"(يوحنا ٨: ٤٠).
- "الله لم يره أحد قط". (يوحنا ١: ١٨).
- "أبي أعظم مني". (يوحنا ١٤: ٢٨).

ومن الواضح أن المقصود بالابن: العبد؛ إذ لو كان المسيح ابنَ الله، لصار النصارى كلهم أبناء الله، إذ يقول الكتاب المقدس: "إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم"، أو آلهة كما يزعمون، وهذا ما لم يدَّعه أحد منهم. وهذه النصوص كما أسلفنا صريحة في نفي الألوهية عن المسيح، وتوقع النصارى في التناقض[1].

١. انظر: البهريز في الكلام اللي يغيظ، علاء أبو بكر، مرجع سابق.

رابعًا. حوار النبي ﷺ مع نصارى نجران، حول طبيعة المسيح أثبت عقلا ونقلا بشرية المسيح وعدم ألوهيته:

لقد رد القرآن على أهل التثليث، وأوضح في رده عليهم أن عيسى إنما أتى بعقيدة التوحيد، كما أنكر عيسى نفسه أن يكون إلهًا، ولكن عبد الله ورسوله، وقد حذر قومه من الشرك بالله ﷻ، ودعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، ويدل على ذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ (المائدة). وذكر القرآن أن تأليه عيسى عليه السلام ليس إلا نوعًا من الغلوِّ، والقول على الله بغير حق، ولذلك يجب العدول عنه: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ١٧١).

ولم يكتف القرآن بالحديث عن بشرية عيسى عليه السلام ورسالته، وعبادته لربه، وتنزيهه لله ﷻ عن أن يكون له شريك في الألوهية، بل وصفه بصفات هي من صفات البشر، والله يتنزه عن هذه الحاجة وعما يرتبط بها، من جوع وضعف وهزال، وعما يترتب عليها من هضم وتخلص من بقايا الطعام، فالله ﷻ يُطْعِم ولا يُطعَم، وهو الرازق للعباد، ويطعمهم من خيره وهم لا يطعمونه، وهو الغني عن العالمين وهم مفتقرون إليه: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الذاريات).

فإذا كان المسيح عليه السلام يأكل الطعام، فإن ذلك دليل

www.kalemasawaa.com

حاسم على أنه بشر وليس إلهًا، وقد جاء في السنة النبوية ما يؤيد حجة القرآن ويفصلها، وذلك في جدال الرسول ﷺ لنصارى نجران حول طبيعة المسيح، فقد أثبتوا له الألوهية؛ لأنه وُلِد من غير أب، وقالوا للرسول ﷺ: من أبوه؟ فقال لهم النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ فقالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيُّوم على كل شيء يكلؤه، ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى. قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما عُلِّم؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يُحْدِث الحَدَث؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن عيسى حَمَلَته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذى الصبي، ثم كان يُطعَم ويشرب الشراب ويحدث الحديث؟ قالوا: بلى. قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ قال: فعرفوا، ثم أَبَوا إلا جحودًا، فأنزل الله ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ (آل عمران)[1].

وقد كان مما جاء في هذه الآيات وصف الله بأنه الحي القيوم وقد مات عيسى وصلب ـ في قولهم ـ والقيوم: القائم على مكانه، من سلطانه في خلقه لا يزول، وقد زال عيسى ـ في قولهم ـ عن مكانه الذي كان به، وذهب عنه إلى غيره. وكان مما وصف الله ﷻ به نفسه قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ (آل عمران: ٦)، أي: قد كان عيسى ممن صوَّرهم الله في الأرحام، ومثيرو هذه الشبهة لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه، فكيف يكون عيسى إلهًا[2]؟!

خامسًا. ما نسب إلى السُّدِّي ليس حجة على الإسلام؛ لأنه لم يرد في القرآن أو السنة المطهرة ما يؤيده، والسجود بمعنى الاحترام والتقدير لا العبادة:

استدل بعض النصارى على ألوهية المسيح بما جاء في تفسير أبي السعود من قول السُّدِّي: إن أم يحيى قابلت أم عيسى عليه السلام، ثم قالت لها: إن ما في بطني ـ يحيى عليه السلام ـ يسجد لما في بطنك ـ عيسى عليه السلام ـ قالوا: السجود لا يكون إلا لإله؟ والحق أننا لا نستطيع أن نَجْزِم بصحة نسبة هذا القول للسُّدِّي، ولو صحت نسبته إليه فلا تصح نسبته إلى أم يحيى؛ لأنه من كلام القصاصين.

وعلى فرض صحته، فالمراد بالسجود هنا التقدير والاعتراف بالفضل والنبوة، وليس سجود العبادة. وعلى كلٍّ فهذا القول ليس حجة على الإسلام، ما دام لم يَرِد في القرآن، ولا في السنة المطهرة، ولا عصمة لأحد بعد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهذا الكلام لا ينهض أمام النصوص القاطعة بأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، وأن الإله هو الله ﷻ وحده دون سواه.

أما الانتقال من هذا الدليل الضعيف إلى الزعم أن علماء المسلمين، ونصوص القرآن تقر بأن المسيح هو الله، فهذا عبث، وكلام مرسل يصطدم بواقع الإسلام

---

١. أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ١٥٤) برقم (٦٥٤٤).

٢. أصول العقيدة الإسلامية، د. محمد أبو خليفة، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٨٠.

www.kalemasawaa.com

وإجماع النصوص من القرآن والسنة. تلك النصوص التي تؤكد دون أدنى شك أو مواربة أن السيد المسيح إن هو إلا عبد الله ورسوله، وأنه يتبرَّأ من دعوى تَأْلِيه الناس، قال الله ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: ١٧).

وقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾(المائدة)[1].

الخلاصة:

- لم يفهم النصارى القرآن الكريم، وما عرفوا أن الكلمة في قوله ﷻ: ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ هي ﴿ كُن ﴾ أي: بكلمة الله كان عيسى ﷺ، وهذا واضح في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾.
- إن قوله ﷻ: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ ليس فيه أيضًا دلالة على ألوهية المسيح ﷺ أو بنوته لله؛ لأن هذا يؤدي إلى ألوهية آدم وبنوته لله، فقد قال الله في آدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾.
- المعجزة أمر الخارق للعادة، الذي يجريه الله على يد الأنبياء تصديقًا لهم، وما حدث لعيسى ﷺ من معجزات إنما كان بإذن الله ومشيئته، وقد حدث مثلها مع أنبياء الله مثل: إبراهيم، وموسى، ويوسف ـ عليهم السلام ـ ولم يزعم أحد أنهم آلهة أو أبناء لله.
- إن الباحث في الكتاب المقدس لا يجد مثل هذا النص الذي يحتج به أهل التثليث على أن المسيح ﷺ قال لهم: إنني أنا الله، فاعبدوني وصلوا لي وصوموا لأجلي؟ بل إن كتابهم المقدس يدل على أنه جاء ليدعوهم إلى عبادة الله، والإيمان برسالته، أي: إنه رسول وليس إله.
- إن ما نسبه أبو السعود للسُّدِّي، لا يصح أن يكون دليلًا على ألوهية المسيح؛ لأننا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا القول، وإن ثبتت صحته، فلا يعد حجة على الإسلام، ما دام لم يَرِد في قرآن ولا سنة.

الشبهة الثامنة والثمانون

ادعاء ألوهية عيسى ﷺ لأنه خالق مثل الله(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن عيسى ﷺ يعمل أعمال

١. الشبكة الإسلامية، الخميس ٨/ ٩/ ٢٠٠٤م (شبهات حول القرآن وشبهات أخرى).

(*) هذا هو الحق: رد على مفتريات كاهن الكنيسة، محمد عبد اللطيف بن الخطيب، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٧م.

® في "تهافت الاستدلال بمعجزات عيسى على ألوهيته" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والثمانين. وفي "تهافت الاستدلال بولادة المسيح بالروح القُدُس على ألوهيته" و"تهافت الاستدلال برفع عيسى إلى السماء على ألوهيته" طالع: الشبهة الثانية والثمانين؛ من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

الله تعالى؛ كالخلق، وأن الذي يخلق يُعبد، استنادًا إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النحل)، ويرمون بذلك إلى القول بألوهية عيسى عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) عيسى عليه السلام لم يَخْلُق من عدم، ودوره اقتصر على النفخ، فتحول الطين إلى طير بإذن الله، ومن ثم فلا مزية لسيدنا عيسى عليه السلام بهذا الخلق ترفعه لمقام الألوهية.

٢) الإنجيل يشير إلى أن عيسى لم يدَّع الألوهية، ولم يدَّع علم الغيب الذي هو من خصائص الألوهية، فكيف ينسبون له الألوهية، وكتابهم ـ على الرغم من أنه محرّف ـ لم ينسبها له.

التفصيل:

أولا. عيسى عليه السلام لم يخلق الطين من عدم، بل نفخ فيه؛ فتحول إلى طير بإذن الله:

عيسى عليه السلام لم يَخْلُق من عدم، ولم يُنسب إليه في القرآن هذا النوع من الخلق الذي لا يتصف به أحد إلَّا الله تعالى، فهذا الخلق الذي هو الإيجاد من عدم استقلالًا ليس لأحد إلا لله، والقرآن الكريم أثبته لله تعالى ونفاه عن غيره، وتحدى بشدة أن يقوم أحد من المعبودات التي تعبد من دون الله بخلق أي شيء مثل خلق الله، فقال الله ﷻ: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان: ١١)، وقال الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (النحل)، وقوله ﷻ: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٤٩)، ويتضح من الآيات أن تحول الطين إلى طير ليس بيد عيسى عليه السلام وإنما هو بإذن الله، أما دور عيسى عليه السلام فهو مجرد النفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وذلك معجزة له عليه السلام أجراها الله على يديه كما أجرى مثل ذلك على أيدي بعض أنبياء بني إسرائيل[1].

الخلق لله هو الصنع والتقدير والإبداع من عدم وعلى غير مثال سابق، أما لعيسى فهو تصوير على مثال، يوضح ذلك صاحب كتاب "مدرسة الأنبياء" فيقول: صنع نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام تمثالًا من الطين كهيئة الطير، قيل: على صورة الخفاش أو الوطواط، ثم نفخ فيه فكان طائرًا بإذن الله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى ﴾ (المائدة: ١١٠). وفي هذا الإطار ينبغي توضيح ما يلي:

لا يفهم من نسبة الخلق إلى عيسى عليه السلام أنه شارك الله في الخلق، ذلك أن معنى الخلق هو التقدير والتصوير، ومعنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير أي: أقدر وأصنع وأصور مثل هيئة الطير، والخلق إذا نسب إلى الإنسان فهو صنع وتقدير على مثال سابق، وإذا نسب إلى الله فهو الصنع والتقدير، والإبداع على غير مثال سابق.

وبناء على ذلك فإن عيسى صنع تمثالًا من الطين،

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٤٣٥.

www.kalemasawaa.com

ولم يوجد الطين من العدم، والله هو خالق الطين الذي هو مادة الطير. إن عيسى عليه السلام صنع التمثال على هيئة الطير، فهو لم يبتكر شكله من عنده، والله هو خالق الهيئة والصورة. إن عيسى عليه السلام إنما صنع ذلك بإذن الله الذي علمه الصنعة، ولولا الإذن الإلهي ما استطاع ذلك. إن النفخة التي نفخها عليه السلام في الطين فتحول بها إلى طير كانت بإذن الله، وهذا يعني أن الأمر كله متوقف على إذن الله، خالق الروح وواهبها[1].

لقد جاءت كلمة: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ من قول عيسى ابن مريم عليه السلام وعلى لسانه، فهذا اعتراف منه بأن ذلك ليس من صنعه، لكنه بإذن الله، وإنما هو إنسان وعبد لله يفعل ما يأذن له به الله، وكأنه عليه السلام يريد أن يقول لقومه: إن كنتم فُتنتم بهذا فكان يجب أن تفتنوا بإبراهيم عليه السلام من باب أولى، حينما قطَّع الطير، وجعل على كل جبل جزءًا منهن ثم دعاه.

وبهذا يتضح أن معجزات المسيح عليه السلام ـ وقد ذكر القرآن بعضها ـ إنما هي كسائر معجزات الأنبياء لا تدل على ألوهيته، وإنما تدل على صدق نبوته وبشريته.

ثانيًا. الإنجيل يشير إلى أن عيسى لم يدَّع الألوهية، ولم يدَّع علم الغيب الذي هو من خصائص الألوهية:

والإنجيل يشير إلى أن المسيح عيسى عليه السلام لم يدَّع الألوهية، ولم يدَّع عِلم الغيب، فلم يعرف موعد الساعة: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب". (مرقس ١٣: ٣٢)، وكذلك لما طُلب منه إحياء أخي مَرْثَا، فذهبت أخته مريم معه إلى الجبَّانة، وهناك سألها: "أين وضعتموه"؟ (يوحنا ١١: ٣٤)، وكذلك لم يعرف مدة مرض المجنون، فقد سأل أباه: "كم من الزمن منذ أصابه هذا"؟ فقال: منذ صباه". (مرقس ٩: ٢١)، كذلك جاء شجرة التِّين هو وأصحابه؛ ليصيبوا منها ما يسد مَخْمَصتهم، فلم يجدوا فيها شيئًا: "فنظر شجرة تين على الطريق، وجاء إليها فلم يجد فيها شيئًا إلا ورقًا فقط". (متى ٢١: ١٩).

كما بَيَّن إنه رسول الله؛ حيث قال: "لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني". (يوحنا ٥: ٣٠)، كما شهدت له مرثا أنه نبي الله وحبيبه: "ولكني الآن أيضًا أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه". (يوحنا ١١: ٢٢)، كما دعا الله وقت محنته، فقال: "يا أبتاه، إن أمكن فلتَعْبُرْ عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت". (متى ٢٦: ٣٩).

كما كان معروفًا بين شعبه أنه نبي: "فقال لهما: «ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين؟» فأجاب أحدهما، الذي اسمه كليوباس وقال له:«هل أنت متغرب وحدك في أورشليم، ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام؟» فقال لهما:«وما هي؟» فقالا: المختصة بيسوع الناصري، الذي كان إنسانًا نبيًّا مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب". (لوقا ٢٤: ١٧ ـ ١٩)، ونادته مريم المجدلية بقولها: "ربوني الذي تفسيره: يا معلم". (يوحنا ٢٠: ١٦)، والربانيون من الأحبار المعلمون في المعبد من نسل لاوي، وليست هذه من صفات الله.

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص٣٢٥، ٣٢٦.

www.kalemasawaa.com

الخلاصة:

- عيسى عليه السلام لم يخلق الطين الذي خلق منه الطير، ولم يخلق الطير وكل دوره هو النفخ في هذا الطير فصار طيرًا بإذن الله عز وجل.
- معنى الخلق المنسوب إلى المسيح عيسى عليه السلام هو التقدير والتصوير، على مثال سابق، أما الخلق لله فهو الصنع والتقدير والإبداع على غير مثال سابق، فهو الإيجاد من عدم؛ لأن الله هو خالق الطين الذي هو مادة الطير، فدور عيسى عليه السلام هو تصوير هذا الطين على هيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيحول إلى طير بإذن الله تعالى، وهذا يعني أن الأمر متوقف على إذن الله تعالى، وبهذا البيان يتضح جليًّا لكل ذي عقل أن هذه معجزة لعيسى عليه السلام أجراها الله على يديه مثل الذي أجراه الله تعالى على يد إبراهيم عليه السلام تأييدًا له وتصديقًا لنبوته وهو عبد الله ورسوله.
- تشير الأناجيل إلى أن عيسى لم يدَّع الألوهية كما لم يدع علم الغيب الذي هو من خصائصها.

الشبهة التاسعة والثمانون

ادعاء أن القرآن الكريم أقرَّ أزلية المسيح (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم أقرَّ أزلية المسيح عليه السلام، ويستدلون خطأً على زعمهم بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾(آل عمران: ٤٥)، قائلين: إن القرآن شهد للمسيح بأنه كلمة الله، وبما أن الله له صفة القدم، فإن كلمة الله قديمة، ونتيجة لذلك يكون عيسى عليه السلام أزليًّا.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأزلي هو الذي لا أوَّل لوجوده، ولا يكون إلا ذاتًا وهو الله عز وجل، وما عداه فهو حادث له أوَّل، وبهذا يتضح مفهوم الأزلية، وأنه لا ينطبق على أحد من الخلق.

٢) إن المراد بلفظ ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ خمسة أوجه هي:

- المراد بالكلمة كلمة التكوين، لا كلمة الوحي.
- لفظ "الكلمة" أطلق على المسيح عليه السلام لمزيد إيضاحه لكلام الله الذي حرَّفه اليهود حتى أخرجوه عن وجهه.
- لفظ "الكلمة" أطلق على المسيح للإشارة إلى بشارة الأنبياء به.
- المراد "بالكلمة" كلمة البشارة.
- المراد "بالكلمة" الآية.

التفصيل:

أولا. الأزلي هو الذي لا أول لوجوده ولا يكون إلا ذاتًا وهو الله عز وجل، وما عداه حادث له أوّل:

إن كل موجود يُسأل عمن أوجده، فهو حادث، ومن أوجده إما أن يكون أزليًّا أو حادثًا، فإن كان حادثًا فهو يُسأل أيضًا عمن أوجده، وهكذا تنتهي سلسلة المحدثات بنا إلى موجود واحد ليس قبله

(*)موقع الكلمة. مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق. نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، د. أحمد علي عجيبة، دار الآفاق العربية، القاهرة، د. ت.

www.kalemasawaa.com

موجود، وهو الله ﷻ، فالأزلي هو الله وحده، وصفاته أزلية؛ لأنه لا يكون إلهًا حقًّا إلا بتحققه بصفاته، والصفات لا تتحول إلى ذوات، كما زعموا تحوُّل الكلمة إلى المسيح، وزاد بعضهم الأمر جهلًا على جهل حينما زعموا أن عيسى عليه السلام كلام الله تعالى، وليس فقط كلمته، فخالفوا كتابهم المحرف، ومن على دينهم، وأضافوا إلى باطلهم باطلًا! كيف يكون عيسى كلام الله تعالى؟ هل يقصدون أن الإنجيل هو عيسى عليه السلام مثلًا؟!

ثانيًا. المراد بـ" كلمة " يقع على خمسة أوجه هي:

١. أن الكلمة هي كلمة التكوين لا كلمة الوحي؛ ذلك أنه لَمَّا كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن الباري ﷻ مما يعلو على عقول البشر، فقد عبَّر عنه ﷻ بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (يس)، فكلمة "كن" هي كلمة التكوين، وهنا يقال: إن كل شيء قد خلق بكلمة التكوين، وخُصَّ المسيح عليه السلام بإطلاق الكلمة عليه؛ لأن الأشياء تنسب في العادة والعرف عند البشر إلى أسبابها، ولَمَّا فُقِدَ في تكوين المسيح تلقيح ماء الرجل لما في الرَّحم من البويضات التي يتكوَّن منها الجنين، أضيف هذا التكوين إلى كلمة الله؛ لأن الله أكمل هذه الحلقة المفقودة في عملية خلق المسيح عليه السلام بقوله: ﴿كُن﴾ فكان.

٢. لفظ "الكلمة" أطلق على المسيح عليه السلام لمزيد إيضاحه لكلام الله الذي حرَّفه اليهود حتى أخرجوه عن وجهه، وجعلوا الدين ماديًّا محضًا، قاله الرازي، وجعل من قبيل ذلك وصف الناس للسلطان العادل بظلّ الله ونوره؛ لأنه سبب لظهور ظل العدل، ونور الإحسان، قال: فكذلك كان عيسى سببًا لظهور كلام الله ﷻ؛ بسبب كثرة بياناته له، وإزالة الشبهات والتحريفات عنه.

٣. لفظ "الكلمة" أطلق على المسيح عليه السلام للإشارة إلى بشارة الأنبياء به. فقد عرف بكلمة الله، أي: بوحيه إلى أنبيائه الكرام، والكلمة تطلق على الكلام، كقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ (الصافات).

٤. المراد بالكلمة "كلمة البشارة" فقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: بخبر عنده أو بشارة، وهو كقول القائل: ألقى إلى فلان بكلمة سرني بها، أي: أخبرني خبرًا فرحت به، قاله ابن جرير، واستشهد له بقول الله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ (النساء: ١٧١)؛ أي: بُشرى إلى مريم بعيسى عليه السلام ألقاها إليها[1]، قال القرطبي: وقيل: "كلمته" إشارة الله تعالى لمريم ـ عليها السلام ـ ورسالته إليها على لسان جبريل عليه السلام؛ وذلك قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ (آل عمران: ٤٥).

٥. قيل: الكلمة هاهنا بمعنى الآية، قال الله ﷻ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ (التحريم:١٢) و ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ (لقمان: ٢٧)، وكان لعيسى ابن مريم عليه السلام أربعة أسماء: المسيح، وعيسى، وكلمة، وروح، وقيل غير هذا مما ليس في القرآن، ومعنى: ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٣، ص٢٥٠.

www.kalemasawaa.com

مَرْيَمَ ﴾ أمر بها مريم[١].

وذهب بعضهم إلى أن "عيسى" سُمِّي كلمة الله ﷻ من حيث إنه صار نبيًّا، كما سُمِّي النبي ﷺ رسولًا، وعلى كل فليس إطلاق "كلمة" على المسيح يُعدُّ إطلاقًا حقيقيًّا، فالكلمة لا تتجسد لتكوِّن كائنًا حيًّا، وهذا الكائن يكون إلهًا - كما يزعمون - حلَّ في بطن مخلوق، فكيف تكون الكلمة الأزلية متصفة بصفات الحوادث؛ من حلوله في بطن مخلوق، وكونها محاطة بجدران الرحم، ودخول وخروج من الرحم، وغير ذلك من الصفات الخاصة بالحوادث، والتي لا تصلح صفات للقديم ولا للأزلي®.

الخلاصة:

- الأزلي لا أول لوجوده ولا يكون إلَّا ذاتًا غير محدثة، وعيسى عليه السلام لا يصح أن نقول: إنه ذات أزلية؛ لأنه كلمة الله فهو محدث من جهة، ومن جهةٍ أخرى الكلمة صفة، والصفات لا تتحول إلى ذوات.
- مجيء الضمير في الآية ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ "اسمه" مذكرًا لا مؤنثًا، فلم يقل "اسمها"؛ لأنه يدل على مُسمَّى الكلمة - وهو عيسى - لا لفظ الكلمة.
- المراد بـ "الكلمة" كلمة التكوين لا كلمة الوحي، وخُصَّ المسيح بإطلاق الكلمة عليه لما فُقِدَ في حلقة تكوينه من تلقيح ماء الرجل لما في الرحم، فأضيف هذا التكوين إلى كلمة الله؛ لأن الله ﷻ أكمل بكلمةٍ منه الحلقة المفقودة في مراحل خلق عيسى عليه السلام.

الشبهة التسعون

ادعاء أن عيسى عليه السلام هو الدَّيَّان(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن الإسلام يشهد لعيسى ابن مريم عليه السلام بأنه الديَّان، مستدلين بقول النبي ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حَكَمًا مُقْسِطًا"[٢]، وقوله: "لا تأتي الساعة حتى يأتي بينكم عيسى ابن مريم ديانًا للعالمين"؛ وفي هذا دليل كافٍ على أن المسيح هو الإله.

وجوه إبطال الشبهة:

١) المقصود بالديَّان هو الحكم القاضي أو المقسط بين الناس، وليس ما ذهب إليه هؤلاء المتوهمون من دعوى الألوهية واردًا في كلمة "ديان".

٢) المعنى الصحيح لحديثي النبي ﷺ أن عيسى ابن

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٦، ص٢٢٢.

® في "**المراد بأن عيسى كلمة الله وروحه**" طالع: الشبهة الثانية والثمانين. والوجه الأول، من الشبهة السابعة والثمانين؛ من هذا الجزء. والشبهة العاشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

(*) مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق. محاضرة عن ألوهية المسيح في كتب الآخرين، ميخائيل الإسكندر، تادرس يوسف، مؤتمر في شبين الكوم، مصر، د. ت.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب كسر الصليب وقتل الخنزير (٢٣٤٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ (٤٠٦).

www.kalemasawaa.com

مريم عليه السلام سيكون حكمًا عدلًا ومقسطًا، أي: يخضع الناس لحكمه؛ حتى يعيد الأمور إلى نصابها.

٣) تناقض الأناجيل فيما بينها حول وصف السيد المسيح عليه السلام بالديَّان، يبطل حجتهم ويسقط زعمهم، ويثبت بشرية المسيح عليه السلام.

التفصيل:

أولا. المقصود بالديَّان في كلام النبي ﷺ هو الحكم القاضي أو المقسط بين الناس:

قبل الحُكم على عيسى عليه السلام بأنه "ديَّان" التي يستغلها النصارى لدعوى ألوهيته ينبغي أن نعرف معنى كلمة ديان.

جاء في لسان العرب[1]: الديَّان من أسماء الله عز وجل معناه "الحكم القاضي"، وسئل بعض السلف عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كان ديَّان هذه الأمة بعد نبيها، أي: قاضيها وحاكمها. والديان: القهار، ومنه قول ذي الإصبع العدواني:

لَاهِ ابنُ عمِّك لا أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ

عنِّي ولا أنتَ ديَّاني فَتَخْزُوني

أي: لست بقاهري فتسوسني أو تقود أمري، والديان: الله عز وجل، وهو فعَّال من دان الناس؛ أي: قهرهم على الطاعة. يُقال: دِنْتهم فدانوا، أي: قهرتهم فأطاعوا.

وبناء عليه، فما جاء من وصف عيسى عليه السلام بأنه: الديان يعني أنه هو الحكم القاضي أو المقسط بين الناس.

ثانيًا. المعنى الصحيح لحديثي النبي ﷺ أن عيسى ابن مريم سيكون حكمًا عدلا ومقسطًا بين الناس، أي: له حكم الطاعة، فيخضع الناس لحكمه:

هذا وصف يتناسب مع بشريته ورسالته، وليس صفة إلهية، فهو يحكم بين الناس بالقسط في آخر الزمان، كما أخبر نبينا ﷺ أنه سيكون حكمًا ومقسطًا، وقد يكون له حكم الطاعة والإخضاع؛ فيخضع الناس لحكمه بحكم قيادته يومئذ، حتى يعيد الأمور إلى نصابها، ويعلن للعالمين عن الحق، ويبين أنه عبد الله ورسوله ـ وليس إلهًا ولا ابن إله ـ ويكسر الصليب، ويريق الخمر، ويقتل الخنزير، ويمحو تلك الجاهليات التي تفشت بين أتباعه، وأفشوها في العالمين، ويحكم بشريعة سيدنا محمد ﷺ التي جاءت مصدقة للشرائع ومهيمنة عليها، ووارثة لها، وهو في هذا ليس إلهًا، ولكنه خليفة ينفذ شرع الله في الأرض؛ ليقيم شريعته، ويقضي بين الناس بها، وهذا شأن الأنبياء والرسل، وأتباعهم من الدعاة والقضاة، والمصلحين، كما قال الله عز وجل لنبيه داود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ (ص: ٢٦)، وقال لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥).

أما أنَّ عيسى عليه السلام ديان يوم القيامة ـ كما يزعم النصارى ـ وأنه يأتي عن يمين الله ويقضي بين الخلائق، فهذا هراء؛ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ (الحج: ٥٦)، ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ (غافر)، ﴿إِن كُلُّ

١. لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، مادة: دين.

www.kalemasawaa.com

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ (مريم).

ثالثًا. تناقض الأناجيل حول المقصود بالديان: إذا سلمنا جدلا بإدانة المسيح للأحياء والأموات، فهل في إدانة المسيح للأحياء والأموات أية ألوهية؟!

إذا عدنا إلى الأناجيل نجدها تُصرِّح بأن المسيح ليس ديَّانا، "وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه، لأني لم آتِ لأدين العالم بل لأُخلِّص العالم. من رَذَلَنِي ولم يَقْبَل كلامي فله من يدينه. الكلام الذي تكلَّمت به هو يدينه في اليوم الأخير؛ لأني لم أتكلم من نفسي، لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية: ماذا أقول وبماذا أتكلم. وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية. فما أتكلَّم أنا به، فكما قال لي الآب هكذا أتكلم". (يوحنا ١٢: ٤٧ ـ ٥٠).

ومن خلال هذه النصوص نقول: إن الدينونة هي سلطان دُفِعَ للمسيح عليه السلام من الله، وإن هذا الكلام أعطاه الله للمسيح؛ ليكون الحكم بين العبد وأعماله، وأن المسيح لا حول ولا قوة له في إدانة العالم من غير دفع الله هذا السلطان له!

وجاء في إنجيل يوحنا: "وأعطاه سلطانًا أن يدين أيضًا؛ لأنه ابن الإنسان". (يوحنا ٥: ٢٧)، وهذا السلطان دُفع إلى كثيرين ممن سيدينون مع المسيح، ولو لزم من ذلك تأليه المسيح لأصبح تلاميذ المسيح آلهة يشاركونه في الملك، وهل هذا يعقل؟!

فقد جاء في إنجيل لوقا: "لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسيّ تَدِينون أسباطَ إسرائيل الإثني عشر". (لوقا ٢٢: ٣٠)، انظر إلى هذا البهتان وهذا الكذب لترى العجب، والأعجب من ذلك أن بولس والقديسين سيشاركون في إدانة الملائكة والعالم بأسره مع المسيح!!

فالاستدلال بأن دينونة المسيح للعالم دليلًا على ألوهيته استدلال باطل، وساقط للغاية، والأناجيل نفسها تنقضها، وها هو يوحنا يقول: "لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليَدِين العالم". (يوحنا ٣: ١٧).

وبهذا البيان يتضح لنا التناقض بين نصوص الأناجيل حول الزعم أن عيسى عليه السلام هو الديَّان المتأله، وبهذا التناقض يبطل زعمهم، وتسقط حجتهم في تأليه المسيح عليه السلام، إنما هو كما أخبر النبي محمد ﷺ سوف ينزل إلى الأرض؛ ليملأها عدلًا، ويعيد الناس إلى شريعة الحق، شريعة محمد ﷺ.

الخلاصة:

- الديَّان في اللغة: هو الحكم والقاضي، الذي يحكم بين الناس بالعدل، وقيل: هو الله عز وجل، وقيل عن النبي ﷺ أنه ديَّان العرب.
- المقصود من حديثي النبي ﷺ في وصف المسيح عيسى عليه السلام بالديَّان، أنه سوف ينزل ليحكم بين الناس بالعدل والقسط، ويكون له حكم الطاعة والإخضاع؛ لأنه يدعو الناس إلى طاعة الله، وإلى شريعة محمد ﷺ فيخضع الناس لحكمه، بحكم قيادته يومئذٍ، ويقتل المسيح الدجال، ويعيد الأمور إلى نصابها.
- تناقض الأناجيل فيما بينها حول معنى الديَّان يبطل حجتهم، ويسقط زعمهم، ويثبت بشرية المسيح عليه السلام، وأنه سوف ينزل قبيل الساعة؛ ليملأ الدنيا عدلًا ورحمة بعد أن ملئت جورًا وظلمًا، ويعيد الناس إلى شريعة الله تبارك وتعالى، ويدعو

www.kalemasawaa.com

الناس إلى الحق الذي جاء به النبي محمد ﷺ.

الشبهة الحادية والتسعون

ادعاء أن معجزات عيسى عليه السلام سحر وشعوذة وخداع (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن معجزات عيسى عليه السلام لم تقع منه قبل الثلاثين من عمره، بينما يزعم آخرون أنها سحر وخداع، ويدعون أن رسالة عيسى عليه السلام باطلة؛ لأنها إنما تثبت بالمعجزة.

وجها إبطال الشبهة:

١) لم يصنع عيسى عليه السلام المعجزات، ولكنها ظهرت على يديه تأييدًا من الله تعالى له، وابتدأت منذ البشارة به وهو جنين في بطن أمه.

٢) ما جرى على يد عيسى هو ما أُجري على يد موسى ـ عليهما السلام ـ من المعجزات، وادعاء أنها سحر وخداع مردود؛ لأن الساحر لا يقوى على الإتيان بمثلها.

التفصيل:

أولا. لم يصنع عيسى عليه السلام المعجزات، ولكنها ظهرت على يديه تأييدًا له من الله تعالى، وابتدأت منذ البشارة به وهو جنين في بطن أمه:

آية النبي لا بد أن تكون خارقة للعادة، أي: تخالف مألوف عادات الناس وما درجوا عليه، فإن فقدت هذا الشرط فإنها حينئذٍ لا تكون مختصة بالنبي، بل مشتركة بينه وبين غيره، وبهذا احتج العلماء على أنه لا بد أن تكون المعجزة خارقة للعادة.

لكن ليس في هذا ما يدل على أن كل خارق للعادة آية، فالكهانة والسحر أمر معتاد للكهان والسحرة، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم، كما أن ما يعرفه أهل الطب، والنجوم، والفقه، والنحو معتاد لنظرائهم، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم.

ويجب في معجزات الأنبياء ألا يعارضها من ليس بنبي، فكل من عارضها وليس من جنس الأنبياء، فليس من آياتهم؛ ولهذا طلب فرعون أن يعارض ما جاء به موسى عليه السلام لما ادعى أنه ساحر، فجمع السحرة ليفعلوا مثلما يفعل موسى، فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة، وأمرهم موسى أن يأتوا أولًا بخوارقهم، فلما أتت، وابتلعتها عصاه التي صارت حية، علم السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم، فآمنوا إيمانًا جازمًا.

ولما قال لهم فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ (طه).

فكان من تمام علمهم بالسحر أن السحر معتاد لأمثالهم، وأن معجزة موسى عليه السلام ليست من جنس السحر[1].

وسيدنا عيسى عليه السلام لما بُعث، وأظهر المعجزات كان الله عز وجل يخلق الحياة في الجسم بقدرته عند

(*) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م. موقع الكلمة. www.alkalema.net

١. النبوات، ابن تيمية، تحقيق: الشحات الطحان، مكتبة فياض، المنصورة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٧، ٢٨ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

نفخة عيسى عليه السلام، فهو ﷻ القائل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ (الملك: ٢).

وما حدث من معجزات ـ على سبيل تأييد الرسل والأنبياء بها كانت كلها بقدرة الله ﷻ، وبهذا اعترف عيسى عليه السلام بنفسه في قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩)؛ أي: بتكوين الله ﷻ وتخليقه لقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٤٥).

أي: إلا بأن يوجد الله الموت، وإنما ذكر عيسى عليه السلام هذا القيد إزالة للشبهة، وتنبيهًا على أنه لا يتعدى بعمله التصوير، فأما خلق الحياة فهو من الله ﷻ على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل.

وروي أن مداواته الأكمه والأبرص كانت بالدعاء وحده، وأنه عليه السلام أحيا عاذر ـ وكان صديقًا له ـ ودعا سام بن نوح من قبره، فخرج حيًّا، وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ رفع لتوهم من اعتقد فيه الإلهية.

وهذا كلام الله ﷻ عن نبيه عيسى ابن مريم عليه السلام، قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ (المائدة: ١١٠). وهذا الكلام المنزَّل من عند الله في هذه الآية لم يخترعه المسلمون إنما هو وحي من عند الله ﷻ، ولم يأتِ به المسلمون من تلقاء أنفسهم. وهذه المعجزات ليست إحياء للميت من قبل عيسى عليه السلام ولا نسبة الخلق له، فالآية تعني: أنه يخلق كهيئة الطير، أي يصنع من الطين ما يشبه الطير، كما أمره الله، وينفخ في هذا الذي صنع كما أمره الله ﷻ فيكون طيرًا بإذن الله تعالى، فهو لم يفعل أكثر من مباشرة الأسباب، عندما أذن الله له بها، ولم يدع عيسى عليه السلام أنه يخلق الطير أو يوجد الحياة، ولكنه قال عليه السلام ـ كما حكى القرآن الكريم ـ: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران:٤٩).

والتعبير عن تشكيل الطين على هيئة الطير بالفعل "خلق" لا يفيد مشاركة عيسى عليه السلام لله ﷻ في الخلق؛ لأن "خلق" هنا بمعنى قدَّر، وليس بمعنى أوجد من عدم، وخلق بمعنى قدر، جاء في لغة العرب، قال الشاعر العربي:

فَلَأَنتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْـ

ـضُ القَومِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي[1]

لقد أظهر الله ﷻ المعجزات على أيدي الأنبياء؛ لتكون دليل صدقهم أمام أقوامهم، وبرهانًا على نبوتهم، وعيسى عليه السلام في هذا كبقية الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فالمعجزات دليل نبوة لا دليل ألوهية.

ولقد بدأت معجزات سيدنا عيسى عليه السلام منذ البشارة به وهو جنين، فقد قيل: إن أمه لم تشعر بآلام الحمل والولادة كغيرها من النساء الحوامل، وكذلك تكلمه في المهد وهو لا يزال طفلًا وليدًا، بل إن المعجزة العظمى في ولادته بدون أب، فكيف يقال: إن معجزات عيسى لم تقع قبل الثلاثين؟! ولا يُقال: إن الكلام في المهد وغيره لم يكن من معجزات عيسى عليه السلام، بل كانت كرامات لأمه؛ لحمايتها من سوء

١. لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، مادة: خلق. المفردات، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت، د. ت، مادة: خلق.

www.kalemasawaa.com

الظن، فإن المعجزة تشمل مريم وعيسى ـ عليهما السلام ـ قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ (المؤمنون)؛ حيث يوجد لفظ مفرد، ولكنه يشمل الطرفين جميعًا، فقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾ يفيد أن الآية ليست من واحد منهما، ولكنها من مجموع الاثنين معًا؛ لأن الآية هنا أن عيسى ولد من غير أب، ومريم أنجبت من غير أن يمسسها بشر لا بزواج ولا زنا، فالمسألة متعلقة بكل منهما[1].

ثانيًا. ما جرى على يد عيسى هو ما أُجري على يد موسى ـ عليهما السلام ـ من المعجزات، وادعاء أنها سحر وخداع مردود:

إن دفاع المسلمين عن نبوة عيسى ﷺ لا يقل درجة عن دفاعهم عن نبوة محمد ﷺ وغيره من الأنبياء والرسل؛ لأنهم مأمورون بالإيمان بهم جميعًا، والكفر بعيسى ﷺ وتكذيبه كفر بمحمد ﷺ قال ﷻ: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (الصافات).

فاليهود يكفرون بعيسى ﷺ، والنصارى يكفرون بمحمد ﷺ، والمسلمون يؤمنون بجميع رسل الله ﷻ وأنبيائه؛ قال تعالى على لسان المؤمنين: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ (آل عمران: ٨٤)، وقال أيضًا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

وزَعْم بعضهم ـ ولا سيما اليهود ـ أن معجزات عيسى ﷺ سحر وشعوذة زعم باطل؛ لأن السحر مهما بلغ لا يصل إلى إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالغيب في أمور محدودة، ولو كان ما جرى على يد عيسى سحرًا لكان الذي جرى على يد موسى ـ عليهما السلام ـ من قلب العصا ثعبانًا، وخروج اليد بيضاء من غير سوء، وانفلاق البحر، من قبيل السحر أيضًا.

ولبطلت رسالة موسى بمثل ما أبطلوا به رسالة عيسى ﷺ، والمتواتر عن اليهود، هو تكذيبهم لعيسى ﷺ وإيذاؤهم له، ومحاولة قتله، والمتواتر أيضًا صدق عيسى ﷺ وزهده وتقواه، بحيث لا يكذب على الناس، ولا على الله ﷻ، ومن المتواتر أيضًا تأييد الله ﷻ لعيسى ﷺ بالمعجزات المبهرة التي تؤيد دعواه النبوة.

وأما زعم اليهود أن المعجزة تحصل بالعلم لمن باشرها، فهو زعم باطل؛ فالمعجزة لا يقتصر العلم بها على من باشرها، لكن يعلم بها العقلاء الذين يشاهدونها تظهر على يد نبي صادق، فيعرفون من معرفتهم حاله، وظهورها على يديه مع ادعائه النبوة أنه ـ مصدق ـ وكيف لا يحصل للأقوام العلم بالمعجزة، وهي موجهة إليهم؟ وإن أرادوا أنهم باشروا معجزات عيسى ﷺ فهذا مردود بأنهم عادوه، ومنهم من آمن به: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ (الصف: ١٤).

وما وافقت اليهود على ظهور الخوارق على يد عيسى ﷺ، فتارة يقولون: هي من قبيل السيمياء، وتارة يقولون: هي من قبيل الشياطين.

وعلى كل تقدير فجميع ما يقولونه يلزمهم في قلب

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٤١٥.

www.kalemasawaa.com

العصا ثعبانًا، واليد البيضاء، وفلق البحر، ونتق الجبل، وسائر معجزات رسلهم ـ عليهم السلام ـ هو نفسه الجواب عن معجزات عيسى عليه السلام حرفًا بحرف.

إن نص التوراة يقتضي نبوته عليه السلام، وأنه لا يزال الملك في اليهود من آل يهوذا، والرسل من ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح، وكذلك كان، فلم تزل لهم ممالك ودُول إلى زمن المسيح عليه السلام؛ حيث صاروا ذِمَّة مخفورة، ورعية مأسورة، وهذا شيء لا ينكرونه.

وهذا دليل قاطع على نبوة عيسى عليه السلام، وأن موسى عليه السلام أخبرهم أنهم يكونون في ذلك الوقت على باطل، وأن الحق يأتي مع المسيح عليه السلام فيُدحض الباطل بالحق، وهذه سنن المرسلين أبدًا، وسنة الله عز وجل في خلقه؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء: ١٨)، وفي هذا المقام كابرت اليهود واشتد عنادها، وقالت: هو المسيح الدجال الذي يأتي في آخر الزمان، ويزعمون أنه ينصر دين موسى عليه السلام ويظهر الحق على يده.

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم إذ أثبت نبوة عيسى عليه السلام لم يتطرق إلى سن بعثته، وإن اتفق العلماء على أنه بعث في الثلاثين من عمره خصوصية له عليه السلام.

الخلاصة:

- إن الله تعالى قد أظهر المعجزات على يد عيسى ابن مريم عليه السلام تأييدًا له، وبهذا اعترف عيسى عليه السلام بنفسه، فنسب معجزاته التي أجريت على يديه إلى الله في قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وروي أن مداواته الأكمه والأبرص كانت بالدعاء وحده، فلم يدَّع عيسى عليه السلام أنه يخلق الطير، ويوجد الحياة، وإنما اعترف بأنه يباشر الأسباب فحسب، عندما يأذن الله عز وجل له بذلك.
- ما أُجري على يد عيسى عليه السلام هو ما أجري على يد موسى عليه السلام من المعجزات من حيث إنها تأييد من الله عز وجل لهما ولباقي الأنبياء، ودليل على صدق دعواهم عند أقوامهم، ولا يقتصر العلم بالمعجزة على من باشرها، لكن يعلم بها العقلاء الذين يشاهدونها.
- في التوراة أدلة قاطعة على نبوة عيسى عليه السلام. ولقد أجمع المسلمون على نبوة المسيح عليه السلام، فالمسلمون يؤمنون بجميع الرسل والأنبياء إيمانًا جازمًا، ولا يفرقون بين أحد من رسله، وأن معجزات الأنبياء مختلفة عن السحر والشعوذة والخداع.

الشبهة الثانية والتسعون

دعوى عدم حسم القرآن مسألةَ صَلْب المسيح عليه السلام(*)®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن القرآن لم يكن حاسمًا في إثبات صلب المسيح، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧)؛

(*) برنامج "أسئلة عن الإيمان"، قناة الحياة، زكريا بطرس. هذا هو الحق: الرد على مفتريات كاهن الكنيسة، محمد بن الخطيب، مرجع سابق.

® في "ردّ القرآن الكريم على ادعاء اليهود قتلَ المسيح" طالع: الشبهة الستين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد إليها).

www.kalemasawaa.com

حيث يدعون أنه يعارض قول الله ﷻ على لسان المسيح: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ (المائدة: ١١٧)، مستنكرين الجمع بين إنكار صلب المسيح، وإلقاء الشَّبه على غيره وصلبه بدلًا منه، ونجاته من الصلب مع الإقرار بوفاته عليه السلام. ويسوقون قول الإمام الرازي لتقوية زعمهم: لو كان الله يُلقي شبه إنسان على آخر لاختلَّت الموازين. ويتساءلون: هل يصح أن يخلط القرآن في حديثه عن أحد أنبياء الله بهذه الصورة؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) عرض القرآن في سورة النساء يؤكد نجاة المسيح عليه السلام برفعه إلى السماء من القتل والصلب، وعقيدة المسلمين في خاتمة المسيح يسيرة لا تعقيد فيها، خلافًا لعقيدة النصارى.

٢) القرآن يقدَّم على الإنجيل في حادثة رفع المسيح ابن مريم عليه السلام وغيرها؛ لخلوه من الخلط والأباطيل، ولعصمته من التحريف، ولتواتره القطعي الثبوت، خلافًا للإنجيل.

٣) الأدلة العقلية تؤكد نفي صلب المسيح عليه السلام، وترد كل ما يقال عن قصة صلبه المزعومة.

٤) تعارض أقوال وأفعال المسيح عيسى ابن مريم في الإنجيل مع عقيدة الصَّلْب والفِداء[1] عند النصارى، يؤكد عدم صلاحية الإنجيل كمرجعية لإثبات حادثة الصلب أو غيرها.

٥) مصادر مسيحية تؤكد نجاة المسيح من الصلب، ووقوعه على شبيهه.

٦) اختلاف الأناجيل في مسألة الصلب يؤكد أن المسيح لم يصلب.

٧) تنبؤات المسيح في الكتاب المقدس بنجاته من القتل!

٨) شخصية المسيح لا تتلاقى مع النهاية الاستسلامية التي صنعها كتاب الأناجيل.

٩) هناك طوائف نصرانية متعددة تنكر صلب المسيح!

١٠) مسألة الصلب بين إقرار بولس ونفي المسيح، أيهما يصدق النصارى؟!

١١) نهاية يهوذا خير شاهد على صدق القرآن وتحريف الإنجيل، ونجاة المسيح.

١٢) كلام الإمام الرازي مقطوع من السياق، إيهامًا للمسلمين أنه ينكر أن عيسى ابن مريم عليه السلام شُبِّهَ لهم، ولو رجعت إلى مصدر كلامه لعلمت تدليس المدلسين.

التفصيل:

أولا. عرض القرآن في سورة النساء يؤكد الرفع وينفي قتل المسيح وصلبه:

التبس على كل النصارى صلب عيسى عليه السلام، كما التبس على اليهود.. وحلَّ القرآن الإشكال، وأزال اللبس، لكن النصارى لم يصدقوا القرآن. قال الله ﷻ:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا

١. عقيدة الصَّلْب والفِداء: هي عقيدة عند النصارى في عيسى عليه السلام أنه صُلِب وتحمَّل الآلام؛ ليَفْدِي البشرية من خطيئة آدم عليه السلام، والتي لم تكن لتُكفَّر في نظرهم إلا بصلبه، وإن المرء ليعجب من الاختلاف الكبير من قبل الأناجيل في إيراد هذه القصة، ولو صحَّ أن هذا أساس وأن المسيح أنبأ له، لكان اهتمامهم بتدونه متساويًا أو متقاربًا.

www.kalemasawaa.com

صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ (النساء).

واعترض النصارى على نفي القرآن الكريم قتل عيسى عليه السلام وصلبه، واعتبروه خطأ وقع فيه القرآن، واستغرب كثير منهم إنكار القرآن أمرًا مجمعًا عليه بين اليهود والنصارى، واليونان، والرومان. ويتساءلون: "لماذا يُنكر القرآن صلب المسيح وقتله بأيدي اليهود، مع أن اليهود يعترفون بذلك، والنصارى يؤكدونه ويفتخرون به؟ ومدار الإنجيل كله على خبر صلب المسيح والبشارة به، كفادٍ للبشر"؟

ويدعون أن القرآن ذكر في مواضع أخرى موت المسيح وقيامته، وارتفاعه إلى السماء، كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ (آل عمران: ٥٥)، وفيه يقول المسيح: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ (المائدة: ١١٧)، ويقول أيضًا: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ (مريم). ويقولون: أليس غريبًا أن يجيء من ينكر صلب المسيح بعد حدوثه بستمائة سنة؟! إن حادثة الصلب حقيقة تاريخية، سجلها اليونان، والرومان، واليهود، والمسيحيون... وفي "مجمع نيقية" الذي انعقد سنة (٣٢٥م)، كتب أساقفة العالم المسيحي قانون الإيمان مُقِرِّين صلب المسيح!

يؤمن كل النصارى أن اليهود والرومان قتلوا عيسى عليه السلام وصلبوه، وأن روحه خرجت على الصليب، وبعد ثلاثة أيام من دفنه رُدَّتْ إليه روحه، فقام من قبره، وصعد إلى السماء! وكان اليهود يتباهون ويتفاخرون بقتل عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٥٧). أما النصارى فقد جعلوا الصليب جزءًا من عقيدتهم ودينهم، والشعار المميز لهم عن باقي أتباع الأديان، ووضعوا الصليب في أعناقهم وعلى كنائسهم، وملابسهم، ومرافق حياتهم، فإذا نفى القرآن صلب عيسى عليه السلام نفيًا صريحًا، فإن النصرانية تتهاوى من أساسها. أما القرآن الكريم فقد نفى صلب عيسى عليه السلام وكذَّب اليهود في ادعاء ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧) فنفى أن يكونوا قد قتلوا عيسى عليه السلام أو صلبوه.

ويقرر القرآن أن المختلفين في موضوع القتل والصلب من اليهود والنصارى في شك منه لم يصلوا إلى اليقين؛ لأنهم لا ينطلقون من العلم، وإنما يتبعون الظن، والظن لا يوصل إلى يقين قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ (النساء: ١٥٧). ويؤكد القرآن مرة أخرى أنهم لم يقتلوا عيسى عليه السلام يقينًا؛ لأن الله العزيز الحكيم رفعه إليه قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ (النساء).

لقد أراد اليهود الرومان صلب عيسى عليه السلام، ولكن الله حماه وعصمه منهم، ورفعه إلى السماء، أما هم فقد صلبوا رجلًا آخر، وكل ظنهم أنه عيسى! فقال اليهود متبجحين: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله عليه السلام.

www.kalemasawaa.com

أما معنى قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ شبه لهم أمر الصلب والقتل، والتبس عليهم، وهذا معناه أنهم قتلوا وصلبوا شخصًا آخر سوى عيسى عليه السلام. ومعنى قول الله ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (النساء) لم يقتل اليهود عيسى عليه السلام يقينًا، ولم يكن الشخص المقتول المصلوب عيسى حقيقة، إنما كان شخصًا آخر غيره، بينما كان عيسى في السماء[1]!!

يقول الإمام محمد رشيد رضا في تفسيره لآيات سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أي: والحال أنهم ما قتلوه، كما زعموا تبجحًا بالجريمة، وما صلبوه كما ادعوا وشاع بين الناس: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: وقع لهم الشبهة أو الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى، وإنما صلبوا غيره، ومثل هذا الشبه أو الاشتباه يقع في كل زمان كما سنبينه قريبًا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي: وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب في شك من حقيقة أمره، أي: في حيرة وتردد ما لهم به من علم ثابت قطعي، لكنهم يتبعون الظن أي القرائن التي ترجح بعض الآراء الخلافية على بعض، فالشك الذي هو التردد بين أمرين شامل لمجموعهم لا لكل فرد من أفرادهم، هذا إذا كان ـ كما يقول علماء المنطق ـ لا يستعمل إلا فيما تساوى طرفاه بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر، والذين يتبعون الظن في أمرهم هم أفراد رجحوا بعض ما وقع الاختلاف فيه على بعض بالقرائن أو بالهوى والميل، والصواب أن هذا معنى اصطلاحي للشك. وأما معناه في أصل اللغة فهو نحو من معنى الجهل، وعدم استبانة ما يجول في الذهن من الأمر، قال الركاض الدبيري:

يَشُكُّ عليكَ الأمرُ ما دام مُقْبِلًا

وَتَعْرِفُ ما فيه إذا هو أَدْبَرَا

فجعل المعرفة في مقابلة الشك. وقال ابن الأحمر:

وأَشْياءُ مما يَعْطِفُ المَرْءَ ذا النُّهَى

تَشُكُّ على قَلْبِي فما استَبِينُها

وفي لسان العرب: أن الشك ضد اليقين، فهو ـ إذن ـ يشمل الظن في اصطلاح أهل المنطق، وهو ما ترجح أحد طرفيه. فالشك في صلب المسيح هو التردد فيه أكان هو المصلوب، أم غيره؟ فبعض المختلفين في أمره الشاكين فيه يقول: إنه هو، وبعضهم يقول: إنه غيره، وما لأحد منهما علم يقيني بذلك، وإنما يتبعون الظن. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ استثناء منقطع كما علم من تفسيرنا له، وفي الأناجيل المعتمدة عند النصارى أن المسيح قال لتلاميذه: "كلُّكم تَشُكُّون فِيَّ في هذه الليلة". (متى ٢٦: ٣١، ومرقس ١٤: ٢٧)، أي: التي يُطلب فيها للقتل.

فإذا كانت أناجيلهم لا تزال ناطقة، فإنه أخبر أن تلاميذه وأعرف الناس به سيشكون فيه في ذلك الوقت وخبره صادق قطعًا، فهل يستغرب اشتباه غيرهم وشك من دونهم في أمره، وقد صارت قصته رواية تاريخية منقطعة الإسناد؟

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: وما قتلوا عيسى ابن مريم قتلًا يقينًا أو متيقنين أنه هو بعينه؛ لأنهم لم يكونوا

١. القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص١٨٤: ١٨٦ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

يعرفونه حق المعرفة. وهذه الأناجيل المعتمدة عند النصارى تصرح بأن الذي أسلمه إلى الجند هو يهوذا الإسخريوطي، وأنه جعل لهم علامة أن من قبَّله يكون هو يسوع المسيح فلما قبله قبضوا عليه. وأما إنجيل برنابا فَيُصرِّح بأن الجنود أخذوا يهوذا الإسخريوطي نفسه ظنًّا أنه المسيح؛ لأنه أُلقي عليه شبهه. فالذي لا خلاف فيه هو أن الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية. وقيل: إن الضمير في قوله ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ للعلم الذي نفاه عنهم، والمعنى ما لهم به من علم، لكنهم يتبعون الظن، وما قتلوه عن علم وتثبُّت منه، بل رضوا بتلك الظنون التي يتخبطون فيها، يقال: قتلت الشيء علمًا وخبرًا: إذا أحطت به واستوليت عليه حتى لا ينازع ذهنك منه اضطراب ولا ارتياب. وجاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﷺ أنه راجع إلى الظن الذي يتبعونه، قال: "لم يقتلوا ظنهم يقينًا"؛[1] أي: إنهم يتبعون ظنًّا غير ممحص ولا موفى أسباب الترجيح، والحِكَم التي توصل إلى العلم.

وقد اختلفت رواية المفسرين بالمأثور في هذه المسألة؛ لأن عمدتهم فيها النقل عمن أسلم من اليهود والنصارى، وهؤلاء كانوا مختلفين ما لهم به من علم يقيني، ولكن الروايات عنهم تشتمل على نحو ما عند النصارى من مقدمات القصة، كجمع المسيح لحواريه "أو تلاميذه"، وخدمته إياهم وغسله لأرجلهم، وقوله لبعضهم: إنه ينكره قبل صياح الديك ثلاث مرات، ومن بيعه بدلالة أعدائه عليه في مقابلة مال قليل، وكون الدلالة عليه كانت بتقبيل الدال عليه له.

ولكن بعضهم قال: إن شبهه ألقي على من دَلَّهم عليه، وبعضهم قال: بل ألقي شبهه على جميع من كانوا معه، وروى ابن جرير القولين عن وهب بن مُنَبِّه. والحاصل أن جميع روايات المسلمين متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أيدي مريدي قتله؛ فقتلوا آخر ظانين أنه هو.

وأما قوله ﷻ: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ فقد سبق نظيره في سورة آل عمران وذلك قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (آل عمران: ٥٥).

جاء عن ابن عباس تفسير التَّوَفِّي هنا بالإماتة كما هو الظاهر المتبادر، وعن ابن جريج تفسيرها بأصل معناها، وهو الأخذ والقبض، والمراد منه ومن الرفع: إنقاذه من الذين كفروا بعناية من الله الذي اصطفاه وقربه إليه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فبعزته، وهي كونه يَقْهر ولا يُقْهَر، ويَغْلِب ولا يُغْلَب، أنقذ عبده ورسوله عيسى عليه السلام من اليهود الماكرين، والروم الحاكمين، وبحكمته جزى كل عامل بعمله"[2].

خاتمة المسيح عند النصارى وعند المسلمين:

جعل النصارى خاتمة المسيح عليه السلام خاتمة شنيعة ومأساة مروعة، وجعلوا الاعتقاد بحصولها على الوجه

١. أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٣٧٧) برقم (١٠٧٩٠).

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٦، ص١٨: ٢١ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

الذي صوروه أصلًا من أصول دينهم، ودعامة من دعائم عقيدتهم لا يقبل من مؤمن إيمانه إلا بها، ولا ينفعه عمل صالح ولا عبادة ولا بر ولا تقوى ولا إخلاص دون الاعتقاد بصلب المسيح.

وقد تلمسوا لتلك العقيدة أصلًا في العهد القديم، وأسسوا عليه بدعة صلب المسيح. فقالوا: إن آدم ـ وهو أول كل البشر ـ قد عصى الله ﷻ بالأكل من الشجرة، التي نهاه عن الأكل منها، فصار خاطئًا، وصار جميع ذريته خطاة مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي.

وقد جاء جميع أبناء آدم خطاة مذنبين فهم يحملون وزر ذنوبهم، ووزر ذنب أبيهم الذي هو الأصل لذنوبهم.

ولما كان الله ﷻ من صفته العدل والرحمة، فمن عدله أنه لا يترك الجريمة دون عقاب، وإلا لم يكن عادلًا، والعقاب منافٍ للرحمة فلا يكون رحيمًا إذا عاقب، ولا بد من تحقق العدل والرحمة معًا، وللخروج من هذا الإشكال شاء الله أن يحل ابنه الذي هو بنفسه الله في رحم امرأة من ذرية آدم، ويتجسد جنينًا في رحمها ويولد منها، فيكون ولدها إنسانًا كاملًا من حيث إنه ابن الله، ويكون معصومًا من جميع المعاصي. ثم بعد أن يعيش كما يعيش الناس، ويأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، ويتلذذ ويتألم كما يتلذذون ويتألمون، يأتي أعداء الله وأعداء شريعته ويقتلونه شرَّ قِتْلة وأفظعها، وهي أن يصلبوه ويُسَمِّروا يديه ورجليه في الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه، ويَضْفِروا له إكليلًا من الشوك، ويَبْصُقوا في وجهه، كل ذلك ليفدي البشر من جريمة لم يقترفها هو ولا هم.

إن هذه العملية لم يتحقق بها عدل ولا رحمة؛ لأنه ليس من العدل في شيء أن يؤتى ببريء غير مذنب، ويطوق إثم جريمة جناها سواه، كما أن عقاب غير الآثم ليس فيه رحمة، وبخاصة إذا كان المعاقب من شأن الجبلة أن تشمله بالرحمة، ولو مع الذنب، فالابن البار غير الآثم أولى.

والعقاب على هذا الوجه يخالف الكتاب المقدس عندهم، فقد جاء فيه: "لا يُقتل الآباء عن الأولاد، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيته يُقتل". (التثنية ٢٤: ١٦)، "وإذا كان على إنسان خطيَّة حقُّها الموت، فقُتِل وعلَّقته على خشبة، فلا تَبِتْ جثَّته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم، لأن المُعلَّق ملعون من الله. فلا تُنَجِّس أرضك التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا". (التثنية ٢١: ٢٢، ٢٣).

وعلى قول المسيحيين قد بقي الله تعالى مجردًا عن صفتي العدل والرحمة من زمن عصيان آدم إلى أن اهتدى إلى تلك الحيلة التي ظهرت له قبيل خلق المسيح عليه السلام في مريم. هذا فضلًا عن أن عقيدة الصلب لما كانت هي كل الإيمان كانت حادية لمُعتنِقها إلى نَبْذ كل الفضائل، بل مُخذِّلة عن أفعال البر والتقوى، فيكون صاحبها إباحيًّا فاتكًا ليس للفضيلة في نفسه نصيب.

أما خاتمة أمر المسيح بحسب قصص القرآن فهي عجيبة وبسيطة، لا تعقيد فيها؛ ذلك أن المسيح قد

www.kalemasawaa.com

أحرج الكهنة والفَرِّيسيِّين[١] بتعليمه، وتجريمه إياهم في طريقتهم، وفَضْح ريائهم وخبثهم، فدفعهم ذلك إلى الكيد له والتدبير لقتله، فلما اختمر هذا الأمر في أنفسهم شكوا أمره إلى الوالي وزيَّنوا شكواهم بما يستدعي اهتمامه بأن ادعوا عليه أنه يقول: إنه ملك اليهود، وأنهم لا يُقرُّون بمُلْك سوى قَيْصَر روميَّة، فأرسل الوالي جندًا للقبض على المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فلما أتوا ولم يبق إلا القبض عليه - والمسيح قد اهتم لهذا الأمر، وخشى أن ينالوه بالأذى - أنقذه الله من أيديهم وطهَّره منهم، وألقى شبهه على شخص آخر، علم فيما بعد أنه تلميذه الخائن، وعرفته الأناجيل بأنه يهوذا الإسخريوطي - كما هو مشهور - وصار بحيث إن كل من رآه لا يشك في أنه يسوع، فأخذ وصلب وقتل، ونجا المسيح من شرهم، وقد أعلم الله عز وجل المسيح بما سيتم، وشاع في الناس أن يسوع الناصري قتل بعد أن صُلب، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم.

وقد أورد ابن كثير وابن جرير وغيرهما من المفسرين: أن المسيح لما قرب وقت القبض عليه ندب أصحابه ثلاث مرات طالبًا أن يتقدم واحد منهم ليفديه، ويقدم نفسه إلى اليهود عوضًا عنه، ويكون جزاؤه الجنة- فلم ينتدب له في كل مرة إلا واحد بعينه، فلما جاء أعداؤه ألقى الله على صاحبه الذي انتدب له شبه المسيح، وصار بحيث لا يشك أحد من أصحابه في أنه يسوع، فألقي القبض عليه وصلب وقتل، وهو يهوذا الإسخريوطي. الذي واطأ الكهنة على الدلالة على المسيح بأجر[٢].

ثانيًا. القرآن يُقدَّم على الإنجيل:

يُقدم القرآن على الإنجيل في قصة رَفْع المسيح وفي غيرها، إذا تعارض القرآن والإنجيل؛ لأن:

١. القرآن هو الكتاب الخاتم الذي أنزل الله فيه الحقيقة، التي لم تعبث بها الأيدي البشرية، أو المجامع الرومانية.

٢. الله فصل فيه كل شيء، وجعله مهيمنًا على الكتب السابقة.

٣. الله وعد بحفظه، ونفى عنه التحريف، والعبث، والباطل، فما فيه صدق، لا يحتمل الخطأ.

٤. القرآن الكريم كتب والنبي ﷺ حي، وعرضه جبريل عليه السلام عليه عام موته عرضتين.

٥. القرآن لم يزد فيه حرف، ولم ينقص منه حرف طوال أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان.

٦. القرآن الكريم نقل بالتواتر، وعلى أعلى درجات التواتر، حيث ينقله الجيل عن الجيل، والأمة

---

١. الفَرِّيسيُّون: إحدى الفرق اليهودية، ومعناها: المنعزلون أو المُنشقُّون، وهم يشبهون فريق المعتزلة عند المسلمين، وقد أطلق عليهم هذه التسمية أعداؤهم، ولذلك فهم يكرهونها، ويسمون أنفسهم "الأحبار"، وهذه الطائفة تعتقد أن التوراة بأسفارها الخمسة خُلِقَت منذ الأزل، وهم يعتقدون في البعث، وقيامة الأموات، والملائكة، والعالم الآخر، كما يرون أن التوراة ليس هي كل الكتب المقدسة التي يعتمد عليها، وإنما هناك بجانب التوارة روايات شفوية ومجموعة من القواعد والوصايا والشروح والتفاسير التي تعتبر توراة شفوية، وقد تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل، وربما دوَّنوها أحيانًا؛ خوفًا عليها من الضياع، وتلك الروايات الشفوية هي التي دُوِّنت فيما يُسمَّى بـ "التلمود".

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٥٠٤: ٥١٤ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

عن الأمة دون انقطاع®.

أما الإنجيل، فإن الله لم يَعِد بحفظه، ولم يكتب في حياة عيسى عليه السلام، وبه الكثير من المتناقضات التي لا يمكن التسليم بأنها من عند الله؛ لأنها تفيد تعددية المصادر التي أخذ منها، ولقد تدخل الحكام والأباطرة على مرِّ التاريخ ـ لحسم مسائل مهمة في النصرانية ـ في نصوص الإنجيل، فقاموا بإثبات ما يوافق عقيدتهم، وشطب ما يخالفها:

يقول النصارى: بأنه كان يوجد بعد رفع المسيح مباشرة:

- كتاب يحتوى على أقوال السيد المسيح.
- وكتاب يحتوي على سيرته.

وأن الأناجيل الأربعة قد جمعت الأقوال والسيرة معًا، ثم إن الأقوال قد فقدت، والسيرة أيضًا. ويسمون الأقوال "لوجيا" ***Logia***، ويسمون السيرة "كويل" ***Quelle***، وقد حكى الأستاذ عباس محمود العقاد عنهم: أن منهم من يُسمَّى "كويل لوجيا"، والحق: أنهما مختلفان. يقول: "الإنجيل" كلمة يونانية بمعنى الخبر السعيد، أو البشارة. وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل، ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع ـ أي بكثرة الأصوات ـ وهي إنجيل مرقس، وإنجيل متى، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، مع طائفة من أقوال الرسل المدونة في العهد الجديد.

ويُرجِّح المؤرخون المختصون بهذه المباحث أن الأناجيل تعتمد على نسخة آرامية مفقودة، يشيرون إليها بحرف "ك" مختزلة من كلمة كويل ***Quelle*** بمعنى "الأصل"[1].

ولقد تتبع الحكام والأباطرة الرومان من يخالفهم الاعتقاد، فقتلوا وأحرقوا الكثير منهم، كما عقدوا العديد من المجامع التي تدرس العقيدة وتقررها حسب أهواء هؤلاء الأباطرة، وتحذف ما يعارضها في هذا الاعتقاد من الأناجيل، ولقد استمر هذا الأمر حتى اليوم؛ حيث يتم عقد العديد من المجامع ـ على غرار مجمع نيقية ـ وحذف الكثير من مواد الإنجيل.

يقول الداعية الإسلامي أحمد ديدات تحت عنوان "كذبة الكتاب المقدس": "لم يسمر عيسى على الصليب، كما سمر الآخران، على العكس من الاعتقاد الشائع، هذا إذا كان فعلًا قد صُلِب! شكَّ توما في صلب المسيح، وقد تكون هذه القصة مجرد اختلاق أثيم، تمامًا كقصة المرأة التي أمسك بها مُتلبِّسة بفعل الزنا، وقد حُذفت قصة المرأة هذه من إنجيل يوحنا في النسخة الإنجليزية الحديثة.

يبدأ الإصحاح الثامن لهذا الإنجيل بفقرة (١٢)، أيُّ كتاب ديني يبدأ بفقرة (١٢)، لقد أُزيلَت الفقرات (١ــ ١١)؛ لأن الاثنين والثلاثين عالمًا، والخمسين طائفة تعاونت معهم لتنقيح الكتاب المقدس، ووجدوا أن هذه النصوص مختلقة وكاذبة فأمروا بإزالتها"[2].

وإذا تكلمنا عن التواتر عند نقل النصارى للكتاب

® في **"تواتر القرآن الكريم"** طالع: الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

١. الأدلة الكتابية على فساد النصرانية، د. أحمد حجازي السقا، دار الفضيلة، القاهرة، د. ت، ص٢٣٤.

٢. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص٢٠٨.

www.kalemasawaa.com

المقدس، فإن الواقع يؤكد لنا "أن دعوى التواتر ممنوعة، فإن التواتر عبارة عن إخبار عدد كثير لا يجوز العقل اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب بشيء قد أدركوه بحواسهم إدراكًا صحيحًا لا شبهة فيه، وكان خبرهم بذلك متفقًا لا اختلاف فيه، هذا إذا كان التواتر في طبقة واحدة، فإن كان التواتر في طبقات كان ما بعد الأولى مخبرًا عنها، ويشترط أن يكون أفراد كل طبقة لا يجوز عقل عاقل تواطؤهم على الكذب في الإخبار عمن قبلهم، وأن يكون كل فرد من كل طبقة قد سمع جميع الأفراد الذين يحصل بهم التواتر ممن قبلهم، وأن يتصل السند هكذا إلى الطبقة الأخيرة، فإن اختل شرط من هذه الشروط لا ينعقد التواتر.

وأنَّي للنصارى بمثل هذا التواتر، والذين كتبوا الأناجيل والرسائل المعتمدة عندهم لا يبلغون عدد التواتر، ولم يخبر أحد منهم عن مشاهدة، ومن تنقل عنه المشاهدة كبعض النساء لا يؤمن عليه الاشتباه والوهم، بل قال يوحنا في إنجيله: إن مريم المجدلية وهي أعرف الناس بالمسيح اشتبهت فيه، وظنت أنه البستاني، وهو قد كان صاحب آيات، وخوارق عادات، فلا يبعد أن يُلقى شبهه على غيره، وينجو بالشكل بصورة غير صورته، كما رووا عنه أنه قال لهم: إنهم يشكون فيه، وكما قال مرقس: إنه ظهر لهم بهيئة أخرى، ثم إن ما عزى إليهم لم ينقله عنهم عدد التواتر بالسماع منهم طبقة بعد طبقة إلى العصر الذي صار للنصارى فيه ملك، وحرية يظهرون فيها دينهم. وقد بين الشيخ رحمة الله الهندي وغيره انقطاع أسانيد هذه الكتب بالبينات الواضحة.

وإذا كانت الأناجيل ورسائل العهد الجديد قد أثبتت صلب المسيح دون القول بغير ذلك، ودون قبول أي رأي آخر يقول بغير ذلك، فالحق الذي يبدو جليًّا ولا يحتاج إلى برهان أن هذه الكتب:

١. لا دليل على عصمتها، ولا على أن كاتبيها كانوا معصومين.

٢. لا دليل على نسبتها إلى من نسبت إليهم؛ لأنها غير متواترة كما تقدم.

٣. معارضة بأمثالها كإنجيل برنابا، وترجيحهم إياها على هذا الإنجيل لا يصلح مرجحًا عندنا؛ لأنهم اتبعوا في اعتمادها تلك المجامع التي لا ثقة لنا بأهلها، ولا كانوا معصومين عندهم ولا عندنا.

٤. إنها متعارضة في قصة الصلب وفي غيرها.

٥. إنها معارضة بالقرآن العزيز وهو الكتاب الإلهي الذي ثبت نقله بالتواتر الصحيح دون غيره، فقصارى تلك الكتب أن تفيد الظن بالقرائن، كما قال ﷻ: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ (النساء)، والقرآن قطعي فوجب تقديمه؛ لأنه يفيد العلم القطعي[1].

ثالثًا. الأدلة العقلية على نفي صلب المسيح:

لا يمكن أن يقبل العقل قصة صلب المسيح لعددٍ من النتائج التي تترتب عليها، ولعددٍ من الأسباب هي:

لا يمكن أن يقبل هذه القصة من يؤمن بالدليل العقلي أن خالق العالم لا بد أن يكون بكل شيء عليمًا، وفي كل صنعه حكيمًا؛ لأنها تستلزم الجهل والبداء على

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٦، ص٣٥ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

الباري ﷻ، كأنه حين خلق آدم عليه السلام ما كان يعلم ما يكون عليه أمره، وحين عصى ما كان يعلم ما يقتضيه العدل والرحمة في شأنه، حتى اهتدى إلى ذلك بعد ألوف من السنين مرت على خلقه، كان فيها جاهلًا كيف يجمع بين تينك الصفتين من صفاته، وواقعًا في ورطة التناقض بينهما، ولكن قد يقبلها من يشترط في الدين عندهم ألَّا يتفق مع العقل، وأن يأخذ صاحبه بكل ما يسند إلى من نسب إليهم عمل العجائب، ويقول آمنت به، وإن لم يدركه، ولم تذعن له نفسه، ومن ينقلون في أول كتاب من كتبهم الدينية ـ سفر التكوين ـ هذه الجملة: "فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسَّف في قلبه". (التكوين ٦: ٦)، تعالى الله عن ذلك كله علوًّا كبيرًا.

• يلزم من يقبل هذه القصة أن يسلم بما يحيله كل عقل مستقل من أن خالق الكون يمكن أن يحل في رحم امرأة في هذه الأرض التي نِسْبَتها إلى سائر ملكه أقل من نسبة الذرة إليها، وإلى سمواتها التي ترى منها، ثم يكون بشرًا يأكل ويشرب ويتعب، ويعتريه غير ذلك مما يعتري البشر، ثم يأخذه أعداؤه بالقهر والإهانة فيصلبوه مع اللصوص، ويجعلوه ملعونًا بمقتضى حكم كتابه لبعض رسله، تعالى الله عن ذلك كله علوًّا كبيرًا.

• تقتضي هذه القصة أن يكون الخالق العليم الحكيم قد أراد شيئًا بعد التفكر فيه ألوفًا من السنين، فلم يتم له ذلك الشيء، ذلك أن البشر لم يخلصوا وينجوا بوقوع الصلب من العذاب، فإنهم يقولون: إن خلاصهم متوقف على الإيمان بهذه القصة وهم لم يؤمنوا بها، ولنا أن نقول: إنه لم يؤمن بها أحد قط؛ لأن الإيمان هو تصديق العقل وجزمه بالشيء، والعقل لا يستطيع أن يدرك ذلك، والذين يقولون: إنهم مؤمنون بها يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم تقليدًا لمن لقنهم ذلك، فإن سمينا مثل هذا القول إيمانًا، نقول: إن أكثر البشر لا يقولون به، بل يردونه بالدلائل العقلية، ومنهم من يرده أيضًا بالدلائل النقلية، من دينٍ ثبتت أصوله عندهم بالأدلة العقلية، ومنهم من لم يعلموا بهذه القصة، ومنهم من يقول بمثلها لآلهة أخرى، فإذا عذبهم الله ﷻ في الآخرة ولم يدخلهم ملكوته ـ كما تدعي النصارى ـ لا يكون رحيمًا على قاعدة دعاة الصلب والصليب، فكيف جمع بذلك بين العدل والرحمة؟

• يلزم من هذه القصة شيء أعظم من عجز الخالق ـ تعالى وتقدَّس ـ عن إتمام مراده بالجمع بين عدله ورحمته، وهو انتفاء كل من العدل والرحمة في صلب المسيح؛ لأنه عذبه من حيث هو بشر وهو لا يستحق العذاب؛ لأنه لم يذنب قط، فتعذيبه بالصلب والطعن بالحراب ـ على ما زعموا ـ لا يصدر من عادل ولا من رحيم بالأحرى، فكيف يعقل أن يكون الخالق غير عادل ولا رحيم، أو أن يكون عادلًا رحيمًا فيخلق خلقًا يوقعه في ورطة الوقوع في انتفاء إحدى هاتين الصفتين، فيحاول الجمع بينهما فيفقدهما معًا؟

• إذا كان كل من يقول بهذه العقيدة، أو القصة ينجو من عذاب الآخرة كيفما كانت أخلاقه وأعماله، لزم من ذلك أن يكون أهلها إباحيين، وأن يكون الشرير المبطل الذي يعتدي على أموال الناس وأنفسهم

www.kalemasawaa.com

وأعراضهم، ويفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، من أهل الملكوت الأعلى لا يعذب على شروره وخطيئاته ولا يجازى عليها بشيء، فله أن يفعل في هذه الدنيا ما شاء هواه، وهو آمن من عذاب الله ـ وناهيك بهذا مفسدًا للبشر ـ وإذا كان يعذب على شروره وخطيئاته كغيره من غير الصليبيين فما مزية هذه العقيدة؟ وإذا كان له امتياز عند الله ﷻ في نفس الجزاء فأين العدل الإلهي؟

• ما رأينا أحدًا من العقلاء، ولا من علماء الشرائع والقوانين يقول: إن عفو الإنسان عمن يذنب إليه، أو عفو السيد عن عبده الذي يعصيه، ينافي العدل والكمال، بل يعدون العفو من أعظم الفضائل، وترى المؤمنين بالله من الأمم المختلفة يصفونه بالعفو، ويقولون: إنه أهل للمغفرة، فدعوى الصليبيين أن العفو والمغفرة مما ينافي العدل مردودة غير مسلمة[1].

رابعًا. تعارض أقوال وأفعال المسيح في الإنجيل مع عقيدة الصلب والفداء عند النصارى:

هناك العديد من الشواهد والأدلة الواردة في الإنجيل التي تتعارض مع عقيدة الصلب والفداء عند النصارى، ومن هذه الشواهد:

• أن أصل هذه العقيدة أن المسيح بذل نفسه باختياره فداء، وكفارة عن البشر، مع أن هذه الأناجيل تُصرِّح بأنه حزن واكتَأَبَ عندما شعر بقرب أجله، وطلب من الله أن يَصْرِف عنه هذه الكأس. ففي إنجيل متَّى: "ثم أخذ معه بطرس وابنَي زَبْدِي، وابتدأ يحزن ويكتئب. فقال لهم: نفسي حزينة جدًّا حتى الموت. امكثوا ههنا واسهروا معي». ثم تقدم قليلًا وخرَّ على وجهه، وكان يُصلِّي قائلًا:«يا أبتاه، إن أمكن فلْتَعْبُر عنِّي هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت». ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نِيامًا، فقال لبطرس: «أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلُّوا لئلَّا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف». فمضى أيضًا ثانية وصلَّى قائلًا: «يا أبتاه، إن لم يمكن أن تَعْبُرَ عنِّي هذه الكأس إلا أن أشربها، فلتكن مشيئتك". (متى ٢٦: ٣٧ ـ ٤٢). ومثل هذا في لوقا: "لما صار إلى المكان قال لهم: «صلُّوا لكي لا تدخلوا في تجربة». وانفصل عنهم نحو رَمْيَة حَجَر وجَثا على رُكْبَتَيه وصلَّى قائلًا: يا أبتاه، إن شئتَ أن تُجِيز عنِّي هذه الكأس. ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك". (لوقا ٢٢: ٤٠ ـ ٤٢)، فكيف يقول المسيح هذا وهو إله عندهم، فهل يمكن أن يجهل بما يمكن وما لا يمكن، وأن يطلب إبطال الطريقة التي أراد الآب ـ وهو هو عندهم ـ أن يجمع بها بين عدله ورحمته؟!

• ومن الشواهد عليها مسألة اللِّصَّيْنِ اللذَيْن قالوا: إنهما صُلبا معه، قال مرقس: "وصَلَبوا معه لِصَّين، واحدًا عن يمينه وآخر عن يساره. فتمَّ الكتاب القائل:«وأُحْصِي مع أثمة». وكان المجتازون يُجدِّفون عليه، وهم يَهُزُّون رءوسهم قائلين:«آه يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام! خلِّصْ نفسك وانزِل عن الصليب!» وكذلك رؤساء الكهنة وهم مستهزئون فيما بينهم مع الكتبة، قالوا: «خلَّص آخرين، وأما نفسه فما يَقْدِر أن يُخلِّصها! لينزل الآن المسيح ملك إسرائيل عن الصليب، لنرى ونؤمن!». واللذان صُلِبا

١. المرجع السابق، ص٢٦: ٢٨.

www.kalemasawaa.com

معه كانا يُعَيِّرانه". (مرقس ١٥: ٢٧ ـ ٣٢).

وكذلك قال متى: "ثم جلسوا يحرسونه هناك. وجعلوا فوق رأسه عِلَّته مكتوبة: «هذا هو يسوع ملك اليهود». حينئذ صُلِب معه لِصَّان، واحد عن اليمين وواحد عن اليسار. وكان المجتازون يُجدِّفون عليه وهم يهزون رءوسهم قائلين: «يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام، خلِّص نفسك! إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب!». وكذلك رؤساء الكهنة أيضًا وهم يستهزئون مع الكَتَبَة والشيوخ قالوا: «خلَّص آخرين وأما نفسه فما يَقْدِر أن يُخلِّصها! إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به! قد اتَّكل على الله، فلينقذه الآن إن أراده! لأنه قال: أنا ابن الله!. وبذلك أيضًا كان اللِّصَّان اللذان صُلِبا معه يُعيِّرانه». (متى ٢٧: ٣٦ ـ ٤٤).

وأما لوقا فقد سمَّى الرجلين اللذين صُلِبا معه مُذْنِبين، ولكنه قال: "وكان واحد من المُذْنِبَين المُعَلَّقين يُجدِّف عليه قائلًا: «إن كنتَ أنت المسيح، فخلِّص نفسك وإيَّانا!» فأجاب الآخر وانتهره قائلًا: «أولا أنت تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحُكْم بعينه؟ أما نحن فَبِعَدْل، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئًا ليس في مَحِلِّه». ثم قال ليسوع: «اذكرني يا رب متى جئتَ في مَلَكُوتك». فقال له يسوع: «الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس». (مرقس ٢٣: ٣٩ ـ ٤٢)، فكانت نبوءة الكتاب ـ المراد به إشعياء ـ أنه يُصلب مع أثمة بصيغة الجمع، ثم كان الجمع اثنين ولا بأس بذلك، ولكن كيف يقول اثنان من الإنجيليين المعصومين على رأيهم أن الذي عيَّره وأهانه هو أحدهما، وهما مثله في عصمته؟

ومثل هذه المخالفات والمعارضات في هذه القصة كثيرة، ومن أظهرها مسألة دفنه ليلة السبت، وقيامه من القبر قبل فجر يوم الأحد، مع أن البشارة أنه يكون في بطن الأرض ثلاثة أيام بلياليها، وهي مُدَّة مَكْث يونس في بطن الحوت، ومنها مسألة النساء اللواتي جِئْن القبر، وفيها عدَّة خلافات في وقت المجيء ورؤية الملك... إلخ[1].

إن وقوع التشابه أمر وارد وواقع يراه الناس ويتلمسونه، ويدركونه حق الإدراك، فهو يقع في التوأم، ويقع في غيرهما من المتباعدين الذين يسكنون في أقطار شتى، وبيئات متباينة بين أفراد الجنس البشري، ووقوع شبه المسيح على غيره، سواء كان يهوذا أم غيره له ما يقويه وما يعضده من الأدلة، **وهو متحقق من وجهين هما:**

١. أنه عهد بين الناس أن يشبه بعضهم بعضًا شبهًا تامًّا، بحيث لا يميز أحد المتشابهين المعاشرون والأقربون، وقد يكون هذا بين الغرباء كما يكون بين الأقربين، ولعله يقل في الذين يسافرون وينقلبون بين الكثير من الناس من لم يقع له الاشتباه بين من يعرف ومن لا يعرف، وإننا لزيادة البيان نُورِد قليلًا من الشواهد عن الإفرنج الذين يَثِق دُعاة النصرانية عندنا بهم ما لا يثقون بغيرهم؛ لأن هؤلاء الدعاة من أبناء جنسهم أو مُقَلِّدَتهم.

قال إميل صاحب كتاب "التربية الاستقلالية" حكاية عن كتاب كتبته امرأة الدكتور إراسم إلى زوجها ما نصُّه: "لقد كثر ما لاحظتُ أنه يوجد في بعض

١. المرجع السابق، ص٣٧، ٣٨.

www.kalemasawaa.com

الأحوال بين شخصين مختلفين في الذكورة والأنوثة والموطن تشابه كالذي يوجد بين أفراد أسرة واحدة، مع أن كلًّا منهما يكون أجنبيًّا عن الآخر من كل الوجوه، أتدري من هو الذي حضرت صورته في ذهني عند وقوع بصري على السيدة وارنجتون؟ ذلك هو صديقك يعقوب نُقُولَا، خِلْتني أراه بذاته في زِيّ امرأة". فهذا مثال لرأي الكاتب في تشابه الناس.

ويوجد في كتب الطب الشرعي حوادث كثيرة في باب تحقيق الشخصيات دالة على أنه كثيرًا ما يحدث للناس الخطأ في معرفة بعض الأشخاص، ويشتبهون عليهم بغيرهم، وقد ذكر جاي وفرير مُؤلِّفَا كتاب "أصول الطب الشرعي" في اللغة الإنجليزية حادثة استحضر فيها ١٥٠ شاهدًا لمعرفة شخص يُدْعَى "مارتين جير"، فجَزَمَ أربعون منهم أنه هو هو، وقال خمسون: إنه غيره، والباقون تردَّدوا جدًّا ولم يمكنهم أن يبدوا رأيًا، ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير، وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون، وعاش مع زوجة مارتين محاطًا بأقاربه وأصحابه ومعارفه مدة ثلاث سنوات، وكلهم مُصدِّقون أنه مارتين، ولما حكمت المحكمة عليه - لظهور كذبه بالدلائل القاطعة - استأنف الحكم في محكمة أخرى فأُحْضِرَ ثلاثون شاهدًا آخرون، فأقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين وقال سبعة: إنه غيره، وتردد الباقون، وقد حدثت هذه الحادثة سنة ١٥٣٩م في فرنسا.. وأمثالها كثير.

وقد بلغ من شبه بعض الأشخاص بغيرهم أن وجد فيهم بعض ما يوجد في غيرهم ممن شابههم من الكسور أو الجروح، أو آثارها وغير ذلك؛ حتى تعسَّر تمييز بعضهم عن بعض، ولذلك جدَّ الأطباء في وضع مميزات لأشخاص البشر المختلفين.

٢. أن هذه الحادثة من خوارق العادات التي أيد الله بها نبيه عيسى ابن مريم، وأنقذه من أعدائه، فألقى شبهه على غيره، وغَيّر شكله هو فخرج من بينهم وهم لا يشعرون، وفي أناجيلهم وكتبهم جُمَل متفرقة تؤيِّد هذا الوجه أشرنا إلى بعضها من قَبْل، ولا شك أن هذا من الممكنات الخاضعة لمشيئة الله وقدرته.

ويمكن أن يستدل على استجابة الله لدعائه بقول يوحنا حكاية عنه في سياق قصة الصلب: "أجابهم يسوع: ألآن تؤمنون؟ هو ذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرَّقون فيها كل واحد إلى خاصته، وتتركونني وحدي. وأنا لستُ وحدي لأن الآب معي. قد كلَّمتكم بهذا ليكون لكم في سلام. في العالم سيكون لكم ضِيق، ولكن ثِقوا: أنا قد غلبتُ العالم". (يوحنا ١٦: ٣١ ـ ٣٣)، وفي هذا المعنى قول متى: " في تلك الساعة قال يسوع للجموع: «كأنه على لصٍّ خرجتم بسيوف وعِصِي لتأخذوني! كل يوم كنتُ أجلس معكم أُعلِّم في الهيكل ولم تمسكوني. وأما هذا كله فقد كان لكي تكمل كتب الأنبياء». حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا. (٢٦: ٥٥، ٥٦)، وقول مرقص: "فأجاب يسوع وقال لهم: «كأنه على لصٍّ خرجتم بسيوف وعِصِي لتأخذوني! كل يوم كنت معكم في الهيكل أعلم ولم تمسكوني! ولكن لكي تكمل الكتب». فتركه الجميع وهربوا". (مرقس ١٤: ٤٨ ـ ٥٠). فهذا نص في أن التلاميذ كلهم هربوا حين جاء الجند ليقبضوا

www.kalemasawaa.com

على المسيح، فلم يكن الذين يعرفونه .

ومما يدل على استجابة الله دعوته بأن ينقذه، ويَعْبُر عنه تلك الكأس عبارة المزامير التي يقولون: إن المراد بها المسيح، وهذا نصها: "أعني يا رب إلهي خلِّصني حسب رحمتك وليعلموا أن هذه يدك أنت يا رب فعلت هذا، أما هم فيَلْعَنون، وأما أنت فتُبارك، قاموا وخَزُوا، أما عبدك فيَفْرَح، ليَلْبِس خُصمائي خجلًا وليتعطَّفوا بخِزيهم كالرداء، أحمد الرب جدًّا بفمي وفي وسط كثيرين أسبحه؛ لأنه يقوم عن يمين المسكين ليُخلِّصه من القاضين على نفسه". (المزامير ١٠٩: ٢٦ ـ ٣١)، وفي العبارات التي ينسوبنها إلى المسيح شواهد أخرى تدور حول هذا المعنى[1].

خامسًا. مصادر مسيحية تؤكد نجاة المسيح من الصلب، ووقوع الصلب على شبيهه :

إن من أشهر وأقدم الأناجيل في الديانة النصرانية إنجيل برنابا، وهو أحد مصادر النصرانية الأساسية قبل انعقاد "مجمع نيقية"، ولقد كان برنابا صاحب هذا الإنجيل من أتباع المسيح القائمين على نشر دعوته، والتبشير باقتراب ملكوت السموات، وقد جاء عنه: "وكان هذا الرجل موثوقًا به في الكنيسة ثقة تامة ويندب لوعظ الناس المدعوين للدخول في الدين". (الأعمال ٢: ٢٦).

هذا الرجل وجد له إنجيل مدون، وهو عبارة عن قصة للمسيح كإنجيل متى ولوقا، ومرقس، ويوحنا، منقطع السند كما هي منقطعة السند، وهذا الإنجيل يقول فيه مترجمه د. خليل سعادة: تضاربت فيه آراء الباحثين، وتشعبت بخصوصه مذاهب المؤرخين وخبطوا فيه بين ضلالة وهدى، وتلمسوا حقيقته بين رشاد وهوى، واستنطقوا الآثار، والأسفار، واستفسروا الأعصار والأمصار، فما ظفروا بعد كل ذلك بما يشفي منهم عليلًا، أو يبرد لهم غليلًا.

وهذا الإنجيل كانت نسخته بمكتبة الباب ـ سكتس ـ بروما واختلسها أسقف يقال له "فرامرينو" حين عثر عليها مصادفة، فقرأها واعتنق الإسلام، وذلك في أواخر القرن السادس عشر، ويقول المترجم في مقدمته: إنه يرى أن كاتب إنجيل برنابا يهودي أندلسي متمكن من الديانة اليهودية والاطلاع عليها قد تنصر، واطلع اطلاعًا عظيمًا على النصرانية، ثم أسلم واطلع على الديانة الإسلامية، ويرى أن هذا الحل أقرب إلى الصواب، ثم قال: وبعد كل ما تقدم فإن هذا الإنجيل قد أتى على آيات باهرة من الحكمة، وطراز راق من الفلسفة الأدبية، وأساليب تسحر الألباب ببلاغتها السامية على ما فيها من البساطة في التعبير، وهو يرمي إلى ترقية العواطف البشرية إلى أفق سام وتنزيهها عن الشهوات البهيمية، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، حاثًّا على الفضائل، مقبِّحًا للرذائل داعيًا الإنسان إلى التضحية بنفسه في سبيل الإحسان إلى الناس حتى يزول منه كل أثر للأنانية ويحيا لنفع إخوانه.

وقال ناشره محمد رشيد رضا في مقدمته: "لم نقف على ذكر لإنجيل برنابا في أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس الأول في

١. المرجع السابق، ص٣٨: ٤٠ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

بيان الكتب التي تحرم قراءتها، فقد جاء في ضمنها إنجيل برنابا، وقد تولى جلاسيوس البابوية في أواخر القرن الخامس للميلاد؛ أي قبل بعثة نبينا محمد ﷺ، على أن بعض علماء أوربا يرتابون اليوم في ذلك المنشور، كما ذكر د. سعادة في مقدمته، والمثبت مقدم على المنفي.

مهما يكن من أمر فإنجيل برنابا واحد من الأناجيل التي ألفت في قصة المسيح، وإن كان يمتاز عن سائرها بالبلاغة، ودقة التعبير، ويصرح بأمور لعلها هي التي زهدت الكنيسة فيه حتى حرمه البابا جلاسيوس، ومن ذلك: التصريح باسم محمد في كثير من المواضع، وإني أنقل عن إنجيل برنابا لا لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ بل لأن روايته للحوادث أبين، واستقصاءه للأخبار أتم، وإن كان في نظري لا تخلو بعض الموضوعات فيه من المبالغات الشعرية.

على أن د. سعادة مترجم إنجيل برنابا قال في مقدمته بعد أن أفاض في الاحتمالات والآراء في إنجيل برنابا: "بيد أن هناك إنجيلًا يسمى بـ "الإنجيل الأغنطسي" طمست رسومه، وعَفَت آثاره، يبتدئ بمقدمة تندد بالقديس بولس، وينتهي بخاتمة فيها مثل ذلك من إنجيل برنابا، فمن المحتمل ـ أيضًا ـ أن يكون الإنجيل الأغنطسي أبًا لإنجيل برنابا. وأقول: ومن المحتمل ـ أيضًا ـ أن كاتب الإنجيل الأغنطسي ألم بما كتبه برنابا في إنجيله، واقتبس منه ما أثبته في إنجيله، وأن إنجيل برنابا يصح أن يكون أبًا للإنجيل الأغنطسي. ولو أن المسيحيين أبقوا جميع الأناجيل ولم تحرم الكنيسة قراءتها لوصلت إلينا، ولو على نوع من التحريف، ولكن ذلك التحريم أعدم تلك الأناجيل وربما كان فيها الكثير الطيب، وإلا فأين الإنجيل الأغنطسي والأناجيل المذكورة في الأناجيل، وأنها وجدت والأناجيل التي كان الداعون إلى المسيحية كبولس يحذرون الناس من اتباعها كالتي كانوا يقولون إن أصحابها يحرفون إنجيل المسيح[1]؟

ومن المعلوم أن إنجيل برنابا يقرر أن الذي صُلب هو يهوذا الإسخريوطي تحديدًا، وأن المسيح لم يصلب؛ لذا نجد أن هذا الإنجيل تم استبعاده من قبل الكنيسة، ومن قبل "مجمع نيقية"؛ لأنه يتعارض مع ما يعتنقه الإمبراطور الروماني، والطوائف النصرانية الحاكمة، والموجودة داخل هيكل السلطة، والقوة، والنفوذ، والتغيير، والعجب كل العجب أن تتبع الطوائف النصرانية بولس وتثق به، ولا تتبع برنابا ولا تثق بإنجيله، ومن يراجع صفحة أو صفحات في تاريخ النصرانية، يتبين له الحق، وليقارن بين بولس ـ صاحب عقيدة الصلب والفداء ـ وبرنابا ـ صاحب الإنجيل الشهير ـ ليجد العجب، حيث كان النصارى لا يثقون ببولس، بل كانوا يعتبرونه عدوًّا للنصرانية، أما برنابا فكان يقرر أن المسيح لم يصلب، وأن الذي صُلب هو يهوذا شبيهه، ولكن النصارى لا يأخذون بقوله؟!

أضف إلى ذلك ما نشرته مجلة "المجلة" في عددها الصادر بتاريخ ٩/ ١٠/ ١٩٩٣م، برقم (٧١٢) حول اكتشاف عدد من المخطوطات الضائعة من مكتبة الإسكندرية، كانت بنجع حمادي، وعثروا فيما عثروا على أناجيل مكتوبة بالقبطية، كانت قد دُفنت يوم

---

١. قصص الأنبياء، د. عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٧٩: ٤٨١.

www.kalemasawaa.com

أصدرت روما في القرن الرابع الميلادي أمرها بإحراق الأناجيل غير الأربعة. وقد جاء في الأناجيل القبطية المكتشفة: جاء على لسان بطرس: "إن الذي رأيته سعيدًا يضحك هو يسوع الحي، لكن من يدخلون المسامير في يديه وقدميه فهو البديل، فقد وضعوا العار على الشبيه"، وورد فيها أيضًا على لسان المسيح: "كان آخر هو الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه، كنت أنا في العلاء أضحك لجهلهم"[1].

لا أعلم إلى متى سيكتم النصارى المصادر التي تصرح بعدم صلب المسيح، ووقوع الصلب على شبيهه؟ وإلى متى لا يعترفون بالحقيقة الواضحة؟ أم إنهم كما يقول الله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (القصص: ٥٠).

سادسًا. اختلاف الأناجيل في مسألة الصلب يؤكد أن المسيح لم يصلب:

لم تختلف الأناجيل الأربعة في مسألة من المسائل كاختلافها في تفصيل مسألة صلب المسيح وقتله، فلا تكاد جزئية من الجزئيات في أحدها تتحد مع الجزئية نفسها في إنجيل آخر، ولما كانت هذه الأناجيل من تأليف قوم يدعي المسيحيون لهم الإلهام، ويعتقدون خلوها من الخطأ، كان ينبغي أن تكون كتابتهم في هذه الحادثة المهمة التي هي مناط النجاة، ودعامة الإيمان في نظرهم متطابقة متوافقة بحيث لا يكون فيها اختلاف أصلًا، إذ النفس لا تطمئن إلى الأخذ بروايات إذا اتفقت في موضع واحد من قصة جاءت في جميعها فإنها تتخالف في مواضع كثيرة، وإذا لم يكن الراوي أمينًا كل الأمانة كانت الثقة بروايته ضعيفة والتصديق بها غير سائغ.

فقد خالف مرقس متى، فزاد في شهادة الشهود عليه قول الشاهدين: "إني أنقضُ هذا الهيكل المصنوع بالأيادي، وفي ثلاثة أيام أبني آخر غير مصنوع بأياد.. فسأله رئيس الكهنة أيضًا وقال له: أأنت المسيح ابن المبارك؟ فقال يسوع: أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوة، وآتيًا في سحاب السماء". (مرقس ١٤: ٥٨ ـ ٦٢)، فخالف مَتَّى في هذه المواضع. وقوله: "المبارك" يريد "داود".

وأما لوقا فقد ضرب صفحًا عن طلب شهود زور على المسيح، ولم يذكر سوى قول مشيخة الشعب ورؤساء الكهنة: إن كنتَ أنت المسيح، فقل لنا! فقال لهم: إن قلتُ لكم لا تُصدِّقون، وإن سألتُ لا تُجيبونني ولا تُطْلِقونني. منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسًا عن يمين قوة الله. فقال الجميع: أفأنت ابن الله؟ فقال لهم: أنتم تقولون إني أنا هو". (لوقا ٢٢: ٦٧ ـ ٧٠)، فخالف بذلك كُلًّا من سابقيه، ومن المفارقات قول لوقا: إنهم قالوا له: " أفأنت ابن الله"؟ مع أنه لم يَدَّعِ أنه ابن الله، بل عَبَّر بلفظ "ابن الإنسان".

وأما يوحنا فقد ألغى شهادة الزور وشهوده، وألغى محاكمة الكهنة والشيوخ والكتبة له، ولم يذكر من ذلك شيئًا أصلًا وهو من أصحاب المسيح وقد شهد ما لم يشهده مَتَّى؛ لأنه كان معروفًا من رئيس الكهنة، ودخل داره مع يسوع، كما نصَّ على ذلك يوحنا في إنجيله مُكذِّبًا مرقس الذي يقول: وهرب منهم

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص٣٢٩.

www.kalemasawaa.com

عُريانًا". (مرقس ١٤: ٥٢)، وبعد هذا فشهادة من شهدوا بمسألة نقض الهيكل ليست شهادة زور، فقد جاء في يوحنا: "انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أُقِيمه". (يوحنا ٢: ١٩)، فكيف يصح أن يُقال: إنهم شهدوا زورًا؟

وبعد هذا كله فإن الكهنة، ورئيسهم لم يقولوا: إن سبب الموت هو ما ذكر من هدم الهيكل وبنائه، بل حين قال لهم: إنه المسيح على رأي مرقس، وإنه سيكون على يمين قوة الله، ومع هذا، فلم يرفعوه إلى الوالي بشيء من هذا، بل قالوا: إنه يفسد الشعب ويقول: إنه ملك اليهود.

قال متى: "ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة، وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه، فأوثقوه ومضوا به، ودفعوه إلى بيلاطس البنطي الوالي. (متى ٢٧: ١، ٢)، ووافقه مرقس غير، أنه لم يذكر صفة بيلاطس ولا جنسيته، واختصر فقال: "فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطس". (لوقا ٢٣: ١)، وقال يوحنا: "ثم جاءوا بيسوع من عند قَيافا إلى دار الولاية، وكان صُبْحٌ. ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية لكي لا يتنجَّسوا، فيأكلون الفِصْح". (يوحنا ١٨: ٢٨). وهذه العبارة انفرد بها يوحنا دون الثلاثة.

قال متى: "حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دِينَ، ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلًا: قد أخطأتُ إذ سَلَّمْتُ دمًا بريئًا. فقالوا: ماذا علينا؟ أنت أبصر! فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه. فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا: لا يَحِلُّ أن نُلْقِيَها في الخزانة لأنها ثمن دمٍ. فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخَّاري مقبرة للغُرباء. لهذا سُمِّي ذلك الحقل «حقل الدم» إلى هذا اليوم. حينئذ تم ما قيل بإرميا النبي القائل: وأخذوا الثلاثين من الفضة، ثمن المُثَمَّن الذي ثمَّنوه من بني إسرائيل، وأعطوها عن حقل الفخاري، كما أمرني الرب". (متى ٢٧: ٣ ـ ١٠).

هذا التقرير قد أسقطه أصحاب الأناجيل الثلاثة وخالفه مؤلفه الأبركسيس: "فإن هذا ـ أي يهوذا ـ اقتنى حقلًا من أجرة الظلم، وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط، فانكبت أحشاؤه كلها، وصار ذلك معلومًا عند سكان أورشليم حتى دعي ذلك الحقل في لغتهم "حقل دما" أي: حقل دم": (أعمال الرسل ١: ١٨، ١٩)، فالفرق بين تقرير متى وتقرير سفر الأعمال ظاهر، وإذا أخذنا بأحدهما وجب أن يكون الآخر كاذبًا، وعبارة سفر الأعمال تفيد أن مؤلفه ليس عبرانيًّا؛ بدليل قوله: "في لغتهم".

وبعد هذا فقد نسب متى إلى رؤساء الكهنة شراء حقل الفخاري بالفضة، وحينئذ تم ما قيل بأرمياء إلى آخره.

ونسب القول إلى أرمياء غلط؛ فإن هذا القول لا يوجد في كتب أرمياء، فذِكْر مَتَّى لاسم أرمياء غلط يقينًا، وورد هذا القول في سفر زكريا، ونصُّه: "فقلت لهم: «إن حَسُن في أعينكم فأعطوني أُجْرَتي وإلا فامتنعوا». فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة. فقال لي الرب: «أَلْقِها إلى الفُخَّاري، الثَّمن الكريم الذي ثمَّنوني به». فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها

www.kalemasawaa.com

إلى الفخاري في بيت الرب. ثم قصفت عصاي الأخرى حبالًا لأنقض الإخاء بين يهوذا وإسرائيل". (زكريا ١١: ١١٢ ـ ١٤).

وبعد فهذا الكلام الذي في زكريا لا تعلق له بالمسيح أصلًا، وليس في شأنه، ولكن القوم يتصيدون كل الكلام ويلحقونه بكتبهم المقدسة ليقيموه دليلًا على أن الحادثة قد تنبَّأ بها الأنبياء من قبل، وهي بعيدة من غرضهم بُعد السماء من الأرض.

وكذلك فقد اختلفت الأناجيل الأربعة في بَسْط السبب الذي بنى عليه الوالي صلب المسيح، وكل واحد يخالف الآخر، وإذا قلنا الوالي، فلا نعني بذلك أنه أدان المصلوب أو وجده مذنبًا، فإن كل أناجيل القوم مُصرِّحة بأنه لم يجد فيه عِلَّة تستوجب الموت، قال متَّى: "فوقف يسوع أمام الوالي. فسأله الوالي قائلًا: «أأنت ملك اليهود؟» فقال له يسوع: «أنت تقول». وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يُجِب بشيء. فقال له بيلاطس: «أما تسمع كم يشهدون عليك؟» فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة، حتى تعجب الوالي جدًّا. (متى ٢٧: ١١ ـ ١٤)، وقد وافقه مرقس: "فسأله بيلاطس: «أأنت ملك اليهود؟» فأجاب وقال له: «أنت تقول». وكان رؤساء الكهنة يشتكون عليه كثيرًا. فسأله بيلاطس أيضًا قائلًا: «أَمَا تجيب بشيء؟ انظر كم يشهدون عليك!» فلم يجب يسوع أيضًا بشيء حتى تعجب بيلاطس". (مرقس١٥: ٢ ـ ٥)، وأما لوقا فأثبت ما لم يثبته متى ومرقس؛ حيث قال: "وابتدءوا يشتكون عليه قائلين: إننا وجدنا هذا يفسد الأمة، ويمنع أن تُعطى جزية لقيصر، قائلًا: إنه هو مسيح ملك. فسأله بيلاطس قائلًا: أنت ملك اليهود؟ فأجابه وقال: أنت تقول". (لوقا ٢٣: ٢، ٣)، وبدهي أن هذا ضد ما قاله متى من أنه لم يُجِب بشيء حتى تعجب الوالي.

والمطلع على الأناجيل يعلم فساد تلك الدعاوى بما أثبته أصحابه من قوله: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ومن هربه ممن أرادوا المناداة به ملكًا، فلو أنه المسيح نفسه لتبرَّأ من مقالتهم، واستشهد على نقض دعواهم، ولكنه المسكين يهوذا الإسخريوطي الذي دُهِش للقبض عليه وارتبك عقله، واستغرق في التأمل فيما هو قادم عليه من أهوال الموت، فأنساه ذلك الجواب، وقد انفرد لوقا بإحياء هيرودس الذي أثبت موته من قبل، وذكر أن بيلاطس أرسل إليه يسوع، وكان هيرودس ـ الميت من زمن مديد ـ يتمنى رؤية المسيح، وأراد أن يصنع أمامه آية، فلم يُجبه بشيء، وكيف يجيبه أو يصنع آية وليس هو المسيح صاحب الآيات، وإنما هو يهوذا[1] ®؟

سابعًا. تنبؤات المسيح بنجاته من القتل:

لعله قد تبين لنا مما سبق أن فكرة قتل المسيح كانت دخيلة على رسالته، وأنه بذل كل جهده للعمل ضدها. ويزداد الأمر يقينًا حين نرى ما تذكره الأناجيل عن تنبؤات المسيح بنجاته من كل المحاولات التي يبذلها اليهود لقتله.

---

١. قصص الأنبياء، د. عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٥١٦: ٥٢٦ بتصرف.

® في "**بطلان عقيدة الصلب والفداء بنصوص الإنجيل**" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة والتسعين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

وسوف نكتفي بذكر تلك التنبؤات الواضحة، التي لا يحتاج فهمها إلا لقراءتها فقط:

• "فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلًا: «تعرفونني وتعرفون من أين أنا، ومن نفسي لم آتِ، بل الذي أرسلني هو حق، الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأني منه، وهو أرسلني». فطلبوا أن يمسكوه، ولم يُلقِ أحد يدًا عليه، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد. فآمن به كثيرون من الجمع، وقالوا: «ألعل المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا؟». سمع الفرِّيسيُّون الجمع يتناجون بهذا من نحوه، فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خُدَّامًا ليمسكوه. فقال لهم يسوع: «أنا معكم زمانًا يسيرًا بَعْد، ثم أَمْضِي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا». فقال اليهود فيما بينهم: إلى أين هذا مُزْمِع أن يذهب حتى لا نجده نحن؟ ألعلَّه مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويعلِّم اليونانيين؟ ما هذا القول الذي قال: ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟". (يوحنا ٧: ٢٨ ـ ٣٦).

لا نظن أن أحدًا يشك في وضوح هذا القول الذي يعني ـ رغم أي شيء ـ أن اليهود حين يطلبون المسيح لقتله فلن يجدوه؛ لأنه سيمضي للذي أرسله، أي: سيرفعه الله إليه. ومن الطبيعي أن يُقال: إن السماء مكان يعجز اليهود عن بلوغه تعقبًا للمسيح، بالإضافة إلى عجزهم عن فهم قوله وتحديد المكان الذي أشار إليه في حديثه هذا.

إن هذه النبوءة تقرر شيئًا مهمًا، وهو أن اليهود حين يطلبون المسيح فلن يجدوه، سوف تحدث المعجزة قبل أن يمسكوه، وتتدخل ذراع الرب لإنقاذه قبل أن يُلْقِي أحد عليه الأيادي.

• وفي موقف آخر من مواقف التحدي بين المسيح واليهود أكد لهم نبوءته السابقة، وأن محاولاتهم ضده ستنتهي برفعه إلى السماء بعد عجزهم عن الإمساك به: "قال لهم يسوع أيضًا: أنا أَمْضِي وستطلبونني، وتموتون في خطيَّتكم. حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا. فقال اليهود: ألعله يقتل نفسه حتى يقول: حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟ فقال لهم: أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم، أما أنا فلستُ من هذا العالم. فقلت لكم: إنكم تموتون في خطاياكم، لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم. فقالوا له: من أنت؟ فقال لهم يسوع: أنا من البدء ما أُكلِّمكم أيضًا به. إن لي أشياء كثيرة أتكلَّم وأحكم بها من نحوكم، لكن الذي أرسلني هو حق. وأنا ما سمعته منه، فهذا أقوله للعالم. ولم يفهموا أنه كان يقول لهم عن الآب. فقال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أني أنا هو، ولست أفعل شيئًا من نفسي، بل أتكلَّم بهذا كما علَّمني أبي. والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يُرضِيه". (يوحنا ٨: ٢١ ـ ٢٩).

ولقد كانت آخر أقوال المسيح لتلاميذه ـ في تلك اللحظات التي سبقت عملية القبض مباشرة ـ هو تأكيده لهم أن الله معه دائمًا، ولن يتركه: "أجابهم يسوع: ألآن تؤمنون؟ هو ذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرَّقون فيها كل واحد إلى خاصته،

www.kalemasawaa.com

وتتركونني وحدي. وأنا لستُ وحدي لأن الآب معي. قد كلمتكم بهذا ليكون لكم في سلام. في العالم سيكون لكم ضِيق، ولكن ثِقوا: أنا قد غلبتُ العالم". (يوحنا ١٦: ٣١ ـ ٣٣).

من المؤكد إذن أن ذلك المَصْلوب الذي تركه إلهه فأطلق صرخة اليأس على الصليب قائلًا: "إلهي إلهي، لماذا تركتني". (متى ٢٧: ٤٦) ـ إنما هو شخص آخر غير المسيح الذي يقول لتلاميذه بكل ثقة ويقين: "أنا لستُ وحدي لأن الآب معي". وما من شك في أن المصلوب قد غلبه أعداؤه، وقهره الموت، وساد عليه بعد أن تجرَّع كأسه المريرة حتى النهاية. ولهذا يقول بولس: "إن المسيح بعدما أُقيم من الأموات لا يموت أيضًا. لا يسود عليه الموت بعد". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٦: ٩).

نعم لقد ساد الموت على المصلوب كما يسود على كل الموتى ـ كما قرر بولس ـ أما ذلك الذي غلب العالم، فهو الذي حطَّم الإرادة الشريرة لمن في ذلك العالم من أشرار، فمنع محاولاتهم سَحْقه، وردَّ الضربة على رأس الخائن.

• "أقول لكم: إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب". (متى ٢٣: ٣٩). إن التحدي في هذا القول واضح، ذلك أن المسيح يؤكد لأعدائه أنهم لن يروه منذ تلك الساعة، حتى يأتي في نهاية العالم: "وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيًا في سحابة بقوة ومجد كثير". (لوقا ٢١: ٢٧). لكن ذلك المصلوب رآه الكهنوت اليهودي أسيرًا في قبضته أثناء المحاكمة، ثم رأوه بعد ذلك مُعلَّقًا على الخشبة قتيلًا، قد أسلم الروح والمشيئة، ولم يَبْقَ منه إلا جسد خامد، فقد نبض الحياة[1].

ثامنًا. شخصية المسيح لا تتلاقى مع النهاية الاستسلامية التي صنعها كُتَّاب الأناجيل:

إذا كانت الأناجيل مليئة بالتناقضات التي يستحيل قبولها وتصديقها عقليًّا على المستوى العام، فإنها مليئة بتناقضات أشد استعصاء وأبعد تصديقًا في الأحداث الأخيرة في حياة المسيح قبل الصلب المزعوم وبعده، وبوسع أي قارئ غير متخصص أن يدرك هذا بعد قراءة سريعة لصفحات الإنجيل فضلًا عن عالم متخصص.

وتعليقًا على الأحداث الأخيرة قبيل الصلب المزعوم وتحليلًا لها يقول الداعية الإسلامي أحمد ديدات: "لن يظل يسوع كالبطة الساكنة في انتظار القبض عليه خِلْسة من اليهود، ها هو يهوذا يُعِدُّ حواريِّيه للخاتمة الوشيكة، وفي حَيْطة وحذر؛ حتى لا يدخل الخوف على قلوب حواريه، أعدَّ خُطَّة الدفاع، فيقول لهم في لُطْفٍ: "حين أرسلتكم بلا كِيس ولا مِزْوَد ولا أحذية، هل أَعْوَزكم شيء؟ فقالوا: لا. فقال لهم: لكن الآن، من له كيس فليأخذه ومزود كذلك. ومن ليس له فلْيَبِعْ ثوبه ويشترِ سيفًا". (لوقا ٢٢: ٣٥، ٣٦).

هذا الإعداد للجهاد، للحرب المقدَّسة ضد اليهود، لماذا؟ لماذا هذا التحول نحو العنف؟ ألم يسبق له أن نصحهم: "سمعتم أنه قيل: عين بعين وسِنٌّ بسن. وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لَطَمَك على

١. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٢٠٧: ٢٠٩.

www.kalemasawaa.com

خدِّك الأيمن فحوِّل له الآخر". (متى ٥: ٣٨، ٣٩)، "حينئذ تقدَّم إليه بطرس وقال: يا رب، كم مرة يُخطئ إلي أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات". (متى ١٨: ٢١، ٢٢)، (٧٠ × ٧ = ٤٩٠)، أليس هو الذي أرسل حواريه الاثني عشر المختارين قائلًا لهم: "ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب، فكونوا حكماء كالحيَّات وبسطاء كالحمام". (متى ١٠: ١٦).

الموقف والظروف تغيَّرت، وكأي قائد مقتدر وحكيم، فإن الاستراتيجية يجب أيضًا أن تتغير. كان الحواريون قد تسلَّحوا بالفعل، كانت لهم بصيرة، لم يكونوا قد غادروا الجليل صفر اليدين من السلاح. أجابوا قائلين: "يا رب، هوذا هنا سيفان. فقال لهم: يكفي". (لوقا ٢٢: ٣٨).

يقول المبشرون إبقاءً على الانطباع السائد عن يسوع الوديع المسالم أمير السلام: "إن السيوف كانت سيوفًا روحية. ولكن إذا كانت السيوف روحية لكان من الواجب أن تكون الملابس أيضًا ملابس روحية. ولو كان الحواريون سيبيعون الملابس الروحية لشراء سيوف روحية، فإنهم في هذه الحالة سيكونون عُراة روحانيين، وبالإضافة إلى ذلك فإن أحدًا لا يستطيع قطع آذان الناس بسيوف روحية، ففي إنجيل متى: "وإذا واحد من الذين مع يسوع مدَّ يده واستلَّ سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة، فقطَع أذنه. فقال له يسوع: رُد سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يَهْلِكون". (متى ٢٦: ٥١، ٥٢)، إن العمل الوحيد للسيوف والبنادق هو القطع والقتل، والناس في عصر المسيح لم تكن تحمل السيوف لتقشير التفاح والموز"[١].

ويستطرد ديدات في تحليل ووصف مشهد القبض على يسوع، فيقول: "تم القبض عليهم نيامًا، داس عليهم عدوهم بأحذيته الثقيلة، "فلما رأى الذين حوله ما يكون، قالوا: «يا رب، أنضربُ بالسيف؟» وضرب واحد منهم ـ بطرس ـ عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى. فأجاب يسوع وقال:«دعوا إليَّ هذا!» ولمس أذنه وأَبْرَأها. (لوقا ٢٢: ٤٩ ـ ٥١).

ألم يكن يسوع يعرف وجه الحق في قوله السالف، عندما أمر أتباعه أن يبيعوا ملابسهم، ويشتروا بثمنها سيوفًا؟ بالتأكيد كان يعرف، إذن فلماذا هذا التناقض الآن؟!

لماذا لا يُعطي المسيحيون المجادلون سيدهم ومولاهم حقه وقدره؟ لأنهم بُرْمِجوا لمدة ألفين من السنين على أن عيسى عليه السلام الحمل الوديع، أمير السلام، لا يستطيع أن يؤذي ذبابة. ويتجاهلون الجانب الآخر في طبيعته الذي يتطلب الدم والنار. وهم يتناسون أوامره إلى أتباعه أن يحضروا أعداءه الذين لا يعترفون بحكمه: "جئتُ لأُلقِي نارًا على الأرض، فماذا أريد لو اضطَرَمَت؟ ولي صِبْغَة أصطبغها، وكيف أنحصر حتى تُكْمَل؟ أتظنُّون أني جئتُ لأُعْطِي سلامًا على الأرض؟ كلَّا، أقول لكم: بل انقسامًا". (لوقا ١١: ٤٩ ـ ٥١)[٢].

ثم يتكلم ديدات عن خُطَّة الخلاص التي يعرضها

---

١. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص١٦٨، ١٦٩ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص١٧٤، ١٧٥ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

الإنجيل، فيقول: "إذا كان ذلك هو خطة الله لاتخاذ قربان أخطاء البشرية، فإنه يكون ـ وحاشا لله أن يكون ـ قد اختار الفداء غير المناسب، إن الممثل الشخصي لله كان حريصًا على ألَّا يموت. يتسلَّح، يبكي، يعرق، يصيح، يشكو! وازن بينه وبين شخص آخر كاللورد نلسون بطل الحرب الإنجليزي الذي واجه الموت، بهذه الكلمات الخالدة: "شكرًا لله فقد أديت واجبي"، هناك ملايين اليوم يُقدِّمون أرواحهم طواعية، وفي سرور من أجل الملك، ومن أجل الوطن بابتسامة على وجوههم، وهم يصيحون "الحمد لله"، أو "الله أكبر"، أو "فلتحيا الملكة". عيسى كان ضحية غير راغبة في ذلك.

إذا كان ذلك حقًّا بتدبير الله في الخلاص، إذن فهي مؤامرة قاسية، إنه اغتيال بالدرجة الأولى وليس فداء شخصيًّا.

يقول الميجور بيتس براون في كتابه "حياة قنَّاص في بلاد البِنْجال" مُلخِّصًا عقيدة الفداء المسيحية في جملة واحدة: "لم تتفهَّم قبيلة واحدة من تلك القبائل الوثنية مثل هذه الفكرة الهائلة، وفيها ما فيها من أن الإنسان كان قد جاء إلى الوجود ملطخًا بالخطيئة، وأن هذه الخطيئة التي لم يكن مسئولًا عنها كانت في حاجة إلى مَنْ يُكفِّر عنها، وأن خالق كل الأشياء كان عليه أن يُضحِّي بابنه الوحيد المولود من صلبه؛ لكي يُزيل أثر هذه اللعنة المبهمة"[1].

وهكذا نرى المسيحية غير مقنعة لدى المبشِّرين والمبشَّرين بها على حدٍّ سواء، ومن العجب أن يطلبوا منا أن نقبل هذه الأضاليل التي لا يسوغها عقل سليم، فكيف إذا كان بين أيدينا السراج الساطع، والبرهان الواضح، والتفسير الشامل، أنتركه ونتبعهم؟!

ولقد ترتَّب على بحث قضية الصلب في الأناجيل ـ الكلام للواء أحمد عبد الوهاب ـ ما يلي:

١. اختلفت روايات الأناجيل الأربعة في أحداث الصلب: فقد اختلف الرواة في مقدمة الأحداث مثل قصة مسح جسد المسيح بالطيب، وقصة خيانة يهوذا. كذلك اختلف الرواة في العَشاء الأخير[2] وكيفية التحضير له وتوقيته ودور يهوذا، وما قيل عن شك التلاميذ الذي تنبأ المسيح بوقوعهم فيه في تلك الليلة الأخيرة، واختلفت الأناجيل في الليلة الأخيرة وأحداثها، وإن كان هناك اتفاق على أنه في قمة المحنة التي تعرَّض لها المسيح "تركه التلاميذ كلهم وهربوا".

واختلفوا في المحاكمات وإعدادها وزمانها ومكانها، كما اختلفوا في قصة إنكار بطرس، وكان الخلاف حادًّا في الصلب، وأحداثه السابقة واللاحقة، ولعل أخطر خلاف وقع هو ما قيل عن توقيت الصلب ويومه، فقد

---

١. المرجع السابق، ص١٧١، ١٧٢.

٢. العَشاء الأخير: يُطلق عليه أيضًا "التناول"، ويُرمز إليه أيضًا بـ "العشاء الرباني"، وهو عشاء عيسى عليه السلام مع تلاميذه؛ إذ اقتسم معهم الخبز والنبيذ، والخبز يرمز إلى جسد المسيح عليه السلام الذي كسر لنجاة البشرية. أما الخمر فيرمز إلى دمه الذي سُفِك لهذا الغرض، ويستعمل في هذا العشاء قليل من الخبز وقليل من الخمر لذكرى ما فعل المسيح ﷺ ليلة موته على حدِّ تعبير النصارى، وكذلك ليكون هذا طعامًا روحيًّا للمسيحيين، فمن أكل هذا الخبز وشرب هذا الخمر استحال الخبز إلى لحم المسيح والخمر إلى دمه، فيحصل امتزاج بين الآكل وبين المسيح وتعاليمه.

www.kalemasawaa.com

تأرجح ذلك بين يوم الخميس على أحد الأقوال، ويوم الجمعة على أقوال أخرى، وكما اختلفوا في الصلب، فإنهم اختلفوا في الدَّفن.

٢. واختلفت الروايات التي ذكرت عن نهاية يهوذا، وإن كانت قد اتفقت على أنه هلك في أعقاب حادث الصلب، وفي ظروف غامضة تناظر ما قيل عن هلاك بيلاطس الحاكم الروماني. وهذا الأخير ذكرت بعض الروايات أنه مات ميتة القديسين والشهداء، بينما قالت رواية أخرى أنه مات ميتة الشياطين.

٣. وفي شتى المناسبات رأينا المسيح يرفض كل محاولة لقتله يقول لليهود: "لماذا تطلبون أن تقتلوني"؟ وعند المحاكمة كان المقبوض عليه يقول لمحاكميه: "إن سألت لا تجيبوني ولا تطلقوني". بل في النزع الأخير نجد ذلك المصلوب يصرخ في يأس وحسرة قائلًا: "إلهي إلهي لماذا تركتني"؟!

٤. ويكفي أن نورد في موضوع تنبؤات المسيح بنجاته من القتل قوله: "ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا".

٥. وأما عن تنبؤات المزامير بنجاة المسيح من القتل، فقد ظهرت فيها الحقيقة بأوضح ما تكون مؤكدة جميعها نجاة المسيح؛ لأن "الرب يحفظه ويُحييه، يَغْتَبط في الأرض، ولا يُسلِّمه إلى مَرام أعدائه". (المزامير ٤١: ٢).

وجاء على لسان المسيح أيضًا: "لا أموت بل أحيا وأُحدِّث بأعمال الرب. تَأْدِيبًا أدَّبني الرب، وإلى الموت لم يُسْلِمني".(المزامير ١١٨: ١٧، ١٨)، أما يهوذا الخائن فإنه "سقط في الهُوَّة التي صنع. يرجع تعبه على رأسه، وعلى هامته يهبط ظلمه. أحمد الرب حسب بره، وأرنم لاسم الرب العلي". (المزامير٧: ١٥ــ ١٧)، وذلك لأن: "معروف هو الرب. قضاءً أمضى. الشرير يَعْلَق بعمل يديه". (المزامير ٩: ١٦)، لقد صُلِب يهوذا، فهكذا تنبأت المزامير.

٦. ولقد اختلف المسيحيون الأوائل في صلب المسيح: اختلفوا فيه كحادث، فقال بعضهم: ما صلب المسيح، ولكن صلب أحد تلاميذه. كذلك اختلفوا في الصلب كنظرية تتكلم عن الفداء والخلاص، فرفضه الرافضون، وقالوا: إن الإنسان يعتمد على ركيزتين اثنتين هما: إيمان بالإله الواحد خالق الأكوان، وعمل صالح يثبت ذلك الإيمان ويصدقه. وما عدا ذلك فهو ضلال وضياع.

تلك هي خلاصة النتائج التي انتهى إليها بحث قضية الصلب، وهي تبين أن الصلب يمثل بحق ذروة المشاكل والتناقضات التي تحتويها الأناجيل.

إنه مشكلة رئيسة يكمن حلها في عقل القارئ، وضميره، وهو يستطيع حلها بسهولة بشرط ألا يكون من الذين قال عنهم المسيح: تمت فيهم نبوة إشعياء القائلة: "اذهب وقل لهذا الشعب: اسمعوا سمعًا ولا تفهموا، وأبصروا إبصارًا ولا تعرفوا. غلِّظ قلب هذا الشعب وثَقِّل أذنيه واطمُس عينيه، لئلَّا يُبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه، ويَرجع فيُشْفَى". (إشعياء ٦: ٩، ١٠)[1].

---

١. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ص٢٨٠: ٢٨٣ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

تاسعًا. طوائف نصرانية تنكر صلب المسيح:

إذا نظرنا إلى مسألة صلب المسيح ابن مريم وقتله لم نجدها عند المسيحيين مسألة إجماعية، بل وجد من طوائف المسيحيين من ينفي الصلب والقتل، فمن القائلين بذلك: (الساطرسيون، والكاربوكراتيون، والمراكيونيون، والباردیسيانيون، والبارسكاليونيون، البوليسيون)، هؤلاء مع كثير غيرهم لم يسلموا بوجه من الوجوه بأن المسيح سُمِّر فعلًا، ومات على الصليب - وما ذكر هنا مقرر في تاريخهم - موسيهيم - الذي يُدرَّس في مدارس اللاهوت الإنجيلية.

ومن القائلين بأن الشخص المصلوب غير عيسى قطعًا، وأنه لم تُسلَّط عليه أيدي مضطهدين، بل رفع إلى السماء طوائف: (الدوسيتية ــ والمرسيونية ــ والقلنطنيائية)، ونذكر هنا شهادات من بعض علماء النصرانية تفيد المُطَّلِع بصيرة:

١. قال المسيو إرادوارسيوس الشهير بمعارضة المسلمين في كتابه "عقيدة المسلمين في بعض مسائل النصرانية" صفحة ٤٩ - قال: "إن القرآن ينفي قتل عيسى وصلبه، ويقول بأنه ألقي شبهه على غيره فغلط اليهود فيه وظنوا أنهم قتلوه، وما قاله القرآن موجود عند بعض طوائف النصارى، وقد صرَّح إنجيل القديس برنابا باسم الذي صلب بدل عيسى فذكر أنه يهوذا".

٢. ذكر الهرارنست دي بونس الألماني في كتابه "الإسلام أي النصرانية الحق" في صفحة ١٤٢: أن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح من أصول النصرانية الأصلية.

٣. قال ملمن في الجزء الأول من كتابه المُسمَّى "تاريخ الديانة النصرانية": "إن تنفيذ الحكم كان في وقت الغَلَس[1] وإسدال ثوب الظلام، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال أحد المجرمين بالمسيح ممن كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم، كما اعتقدت بعض الطوائف وصدقهم القرآن"[2].

٤. ألقى البروفسور فنك مؤسس "ندوة عيسى" الشكوك على قصة صلب المسيح عليه السلام إذ كتب: "إن قصة الصلب ليست من الأمور المقطوع بها"، وكتب أيضًا: "إن قصة إلقاء القبض على المسيح ومحاكمته وإعدامه هي في معظمها من نسج الخيال"، وكتب: "إن رواية مرقس عن الآلام التي تصل ذروتها بإلقاء القبض على عيسى، ومحاكمته وصلبه هي من نسج خياله القصصي"، وأيضًا: "إن قصة الصلب لا تليق أن تحدث للمسيح إطلاقًا".

٥. وكتب ويلسون: "ليس هنالك من براهين حقيقية وصادقة لقصة اعتقال عيسى وإعدامه"، وكتب أيضًا: "تذكر الأسفار الثلاثة الأولى أن عيسى أسس طقس القربان المقدس خلال، أو بعد الوجبة التقليدية لعيد الفصح اليهودي، فلو صح ذلك لكانت كل تفاصيل القصة: الاعتقال والمحاكمة، والصلب من نسج الخيال، إذ لا يعقل أن يقوم اليهود بخرق أكثر أعيادهم قداسة لأجل محاكمة شخص".

---

١. وقت الغَلَس: ظُلْمة آخر الليل إذا اختلط بضوء الصباح.

٢. قصص الأنبياء، د. عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٥٣٠، ٥٣١.

www.kalemasawaa.com

١. أما البروفسور بورتون ماك فليس لديه أي شك في أن القصة خرافية؛ حيث كتب: "أما بالنسبة لقصة الصلب والقيامة، فإن مرقس ـ أول من كتب القصة ـ أخذ الفكرة الأساسية من أسطورة كريستوس، غير أنه تجرأ بأن تخيل كيف يمكن أن تبدو قصة الصلب والقيامة لو كتبها تاريخًا فعليًّا تمت أحداثه في القدس، وهو ما كانت الأسطورة ترفضه، وهكذا يمكننا أن نفهم قصة مرقس باعتبارها دمجًا لأحداث عيسى الحقيقي مع أسطورة كريستوس"، وكتب: "كافة القصص في الأسفار الأخرى تبدأ من مرقس فلا يغير أحد من المؤلفين بعد مرقس أساس القصة"، وكتب أيضًا: "ثم بعد ذلك صار المسيحيون يتخيلون قصة مرقس الخيالية كما لو كانت تاريخًا واقعًا".

٢. وكتب البروفسور Geza Vermes ما يلي: "لم يكن النصارى يعتقدون بقصة آلام المسيح ولا بقصة صلبه"، و"إن أحداث محاكمة المسيح من قبل المحكمة اليهودية العليا بتهمة دينية، وصدور الحكم عليه ثم تصديقه من السلطة السياسية، كل هذه الأحداث ليست خارج نطاق الالتباس والريبة".

وفوق كل ذلك نلاحظ أنه لا يوجد في سفر الأقوال، ولا في سفر توما، المكتشف حديثًا، أي إشارة لا من قريب ولا من بعيد عن قصة الآلام والصلب، مع أنهما كتبا في وقت مبكر أي حوالي ثلاثين عامًا قبل أول ما كتب من الأسفار الأربعة، فلا بد أنهما أقرب إلى الحقيقة فيما يتعلق بحياة عيسى عليه السلام من الأسفار القانونية الأربعة.

٣. كانت رسالة شيث الكبير الثانية ***Second reatise of the Great Seth*** من جملة المخطوطات التي تم اكتشافها في نجع حمادي بمصر سنة (١٩٤٥م)، وقد ورد فيها على لسان المسيح ما يلي: "لقد كان شخصًا آخر.. الذي شرب المُرَّ والخل، لم يكن أنا.. كان شخصًا آخر. كان شخصًا آخر الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه، في حين كنت مبتهجًا في الأعالي من فوق.. كان خطؤهم.. وكنت أضحك من جهلهم". (٥٦: ٦ ـ ٢٠).

٤. كما ورد أيضًا في مخطوطة "رؤيا بطرس ***Apocalypse of Peter***"، المكتشفة أيضًا في نجع حمادي ما يلي: "لقد رأيته، كما بدا لي في ظاهره، وهم يقبضون عليه فقلت: ماذا أرى؟ يا إلهي! هل أنت حقًّا الذي أخذوه؟ وهل يدقُّون المسامير في قَدَمَي ويدي شخص آخر؟ ومن هو هذا الذي فوق الصليب يضحك مبتهجًا؟ قال لي: هذا الذي تراه يضحك مبتهجًا فوق الصليب هو المسيح الحي، أما الذي يدق المسامير في يديه ورجليه فهو البديل، لقد ألحقوا العار بشبيهه الذي بقي بين أيديهم فانظر إليَّ، وانظر إليه!". (رؤيا بطرس ٨١ : ٤ ـ ٢٤)[1].

إن القرآن الكريم حسم كليةً التخبط واللغط في موضوع الصلب ـ صلب المسيح ـ حين قال الله ﷻ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ

١. المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٢١: ٢٢٣.

www.kalemasawaa.com

وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ (النساء).

عاشرًا. مسألة الصلب بين إقرار بولس ورفض المسيح:

نشر ماكيل هارت ــ وهو مؤرخ بحَّاثة وعالم رياضيات مشهور ـ كتابًا بعنوان "المائة العظام في التاريخ" ووضع لائحة بأسماء هؤلاء المائة العظام، موضحًا الأسباب الموجبة لموقع كل واحد منهم في لائحته، ومن المدهش حقًّا أن يضع محمدًا ﷺ على رأس لائحة المائة؛ وذلك لأسباب وجيهة، في حين أنه وضع عيسى المسيح عليه السلام الرجل الذي يدعوه المسيحيون "الرب" و "المخلص"، ولأسباب وجيهة أخرى، وضعه في المقام الثالث في القائمة.

مع العلم بأن عدد المسيحيين اليوم يزيد على عدد المسلمين بما يقرب من مائتي مليون، فإن موقع عيسى ابن مريم هو الثالث في اللائحة؛ لأن المؤرخ هارت يقول بأن بولس وعيسى هما مؤسسا المسيحية، ولكنه يعطي الفضل الأكبر إلى بولس، وكل مسيحي يسلم بأن المؤسس الفعلي للمسيحية هو بولس، وليس عيسى عليه السلام.

إن أسباب الخلاف بين المسلم والمسيحي حول العقيدة، والإيمان، والأخلاق، والفضائل تعود إلى أقوال بولس في رسائله، كورنثوس، فيلبي، غلاطية، تسالونيكي، وغيرها في الكتاب المقدس.

وعلى العكس مما نصَّت عليه تعاليم المعلم ـ عيسى ـ بأن الخلاص يتم فقط بحفظ الوصايا وتطبيق الناموس: "فإني الحقَّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا، يُدْعَى أصغر في ملكوت السماوات. وأما من عمل وعلم، فهذا يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات". (متى ٥: ١٨، ١٩)، يدقُّ بولس هذا مسماره واضعًا الوصايا والناموس على الصليب "كولوسي ٢ ١٤ مدعيًا أن الخلاص هو فقط في موت وقيامة عيسى المسيح: "لأنه يقول: «الرسائل ثقيلة وقوية، وأما حضور الجسد فضعيف، والكلام حقير». لأننا لا نُمدِّد أنفسنا كأننا لسنا نَبلُغ إليكم. إذ قد وصلنا إليكم أيضًا في إنجيل المسيح. غير مفتخرين إلى ما لا يُقاس في أتعاب آخرين، بل راجين إذا نما إيمانكم أن نتعظَّم بينكم حسب قانوننا بزيادة". (رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١٠: ١٤، ١٥). يقول القديس بولس: ليس لدى المسيحية ما تقدمه إلى البشرية غير دم المسيح، فإن لم يمت عيسى ولم يقم من الموت، فلا خلاص في المسيحية!

يقول البروفسور جورغين مولتمان في كتابه "الرب المصلوب": "إن موت عيسى على الصليب هو أساس اللاهوت المسيحي.. وترتكز جميع الأقوال المسيحية عن الرب، والخلق، والخطيئة، والموت على مسألة المسيح المصلوب. كما تنبع كل الأقوال المسيحية عن التاريخ والكنيسة، والإيمان، والقدسية، والمستقبل، والأمل، عن قصة المسيح المصلوب" .

وبعبارة موجزة: لا اعتقاد بالصلب.. إذن لا مسيحية!!

إن دُعاة المسحية يزعمون أن الخلاص يأتي فقط من "دم الرب عيسى"، ويقولون في ذلك: إن كل أعمالكم

www.kalemasawaa.com

نجس... فلو قبلتم دم عيسى لغسل الخطايا، ولو قبلتم به على أنه مخلصكم لأصبحتم كملائكة تمشي على الأرض.

ماذا نقول ـ نحن المسلمين ـ ردًّا على هذا الادعاء المسيحي؟ ليس لدينا جواب أفضل من رد الله تبارك وتعالى على التجمع اليهودي[1]: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ (النساء).

لقد تبنى بولس فكرة سفك دم المسيح كفارة من خطايا البشر، وروَّج لها في رسائله، تلك الرسائل التي لم يكتب أقدمها إلا بعد رفع المسيح بأكثر من ٢٠ عامًا، فلقد كان الصلب وسفك الدم هو ما عزم بولس على ألا يعرف من المسيحية شيئًا غيره، وهو يقرر ذلك في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، حيث يقول: " أنتم الذين أمام عيونكم قد رُسِم يسوع المسيح بينكم مصلوبًا". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣: ١).

ولقد كان ذلك هو ما قبله بولس وإنجيله الذي ذهب يبشر به: "وأما أنتم أيها الإخوة فلستم في ظلمة حتى يدرككم ذلك اليوم كلص. جميعكم أبناء نور وأبناء نهار... وأما نحن الذين من نهار، فلنصح لابسين دِرْع الإيمان والمحبة، وخُوذة هي رجاء الخلاص. لأن الله لم يجعلنا للغضب، بل لاقتناء الخلاص بربنا يسوع المسيح، الذي مات لأجلنا، حتى إذا سهرنا أو نمنا نحيا جميعًا معه". (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي ٥: ٤ ـ ١٠)[2].

"ومن المعلوم أن بولس كان عدو المسيحيين وخصمهم، وأنه لما ادعى الإيمان لم يصدقه جماعة المسيح عليه السلام، ولولا أن شهد له برْنابا لما قبلوه. وبرنابا يقول في أول إنجيله: إن بولس نفسه كان من الذين بشَّروا بتعليم جديد غير تعليم المسيح"[3].

وإذا كان بولس مجرد مبشر يهودي بالإنجيل اعتنق النصرانية بدون قبول له من النصارى، لعداوته السابقة للنصرانية، وإذا كان بولس قد أخذ عقيدة الصلب والفداء من الوثنيين الهنود، وقام بنسبها للمسيح تلفيقًا وزورًا، على ما يؤكده علماء النصرانية المنصفون؛ فإننا ـ أولًا وأخيرًا ـ لا نريد أن نقف عند مصب النهر، بل أن نقف عند منبعه، إن الأهم من رأي بولس هو رأي المسيح، هل وافق المسيح على الصلب، وهل سلم نفسه لليهود، وهل تخلى الله عنه؟ ما هو تصورنا لما حدث من خلال تعاليم المسيح، وما ورد على لسانه في الكتاب المقدس، إن عقيدة الصلب والفداء تقتضي أن يبذل المسيح نفسه عن رضا، وطيب خاطر فداءً للبشرية، كما يفعل المواطنون حينما يبذلون أنفسهم طواعية في الحروب، ويقبلون على الموت فداءً لأوطانهم، فهل كان هذا هو موقف المسيح؟

---

١. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص١٨١: ١٨٣.

٢. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص١٩١، ١٩٢.

٣. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٦، ص٣٧.

www.kalemasawaa.com

"منذ بدأ المسيح دعوته حتى آخر يوم فيها، نجد الأناجيل تضع لنا، بين الحين والحين علامات على طريق الرسالة المسيحية، تذكرنا دائمًا باستبعاد فكرة قتل المسيح مهما وضع من أجل تبريرها من نظريات وفلسفات.

فالمسيح صاحب الدعوة الذي يعلم حقيقتها وحدودها، أكثر من بولس وغيره من كتبة الرسائل المسيحية، هو الذي رفض فكرة قتله واستنكرها تمامًا، ثم هو قد عمل كثيرًا لإحباط جميع المحاولات التي رآها تبذل من اليهود لقتله، فلقد حدث أن "ولما كان العيد قد انتصف، صعد يسوع إلى الهيكل، وكان يعلم. فتعجب اليهود قائلين: كيف هذا يعرف الكتب، وهو لم يتعلم؟ أجابهم يسوع وقال: تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم، هل هو من الله، أم أتكلَّم أنا من نفسي. من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه، وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم. أليس موسى قد أعطاكم الناموس؟ وليس أحد منكم يعمل الناموس! لماذا تطلبون أن تقتلوني"؟ (يوحنا ٧: ١٤ ـ ١٩). "أنا عالم أنكم ذُرية إبراهيم. لكنكم تطلبون أن تقتلوني؛ لأن كلامي لا موضع له فيكم. أنا أتكلَّم بما رأيت عند أبي، وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم». أجابوا وقالوا له:«أبونا هو إبراهيم». قال لهم يسوع:«لو كنتم أولاد إبراهيم، لكنتم تعملون أعمال إبراهيم! ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم". (يوحنا ٨: ٣٧ ـ ٤٠).

ولما كان المسيح يخشى على حياته من القتل، فإنه اتخذ من الاحتياطات ما يجنبه الوقوع في براثن أعدائه من اليهود؛ فقد " جاء إلى الناصرة حيث كان قد تربَّى. ودخل المَجْمَع حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ، فدفع إليه سفر إشعياء النبي.. وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه.. فامتلأ غضبًا جميع الذين في المجمع حين سمعوا هذا، فقاموا وأخرجوه خارج المدينة، وجاءوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مَبْنِيَّة عليه حتى يطرحوه إلى أسفل. أما هو فجاز في وسطهم ومضى. (لوقا ٤: ١٦ ـ ٣٠).

"فلما خرج الفرِّيسيُّون تشاوروا عليه لكي يهلكوه. فعلم يسوع وانصرف من هناك". (متى ١٢: ١٤، ١٥). "فرفعوا حجارة ليرجموه أما يسوع فاختفى، وخرج من الهيكل مجتازًا في وسطهم ومضى هكذا". (يوحنا ٨: ٥٩). "وكان يسوع يتردَّد بعد هذا في الجليل؛ لأنه لم يُرِد أن يتردد في اليهودية؛ لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه". (يوحنا ٨: ١). "فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه، فلم يكن يسوع أيضًا يمشي بين اليهود علانية، بل مضى من هناك إلى الكورة القريبة من البَرِّيَّة إلى مدينة يُقال لها أَفْرايِم، ومكث هناك مع تلاميذه". (يوحنا ١١: ٥٣، ٥٤).

وفي الساعات العصيبة، أو الساعات الأخيرة للمسيح بين الناس نجده يصرخ بكل قوته طالبًا النجاة، فما كانت فكرة سفك دمه فدية عن خطايا الكثيرين ـ إلا سرابًا علق برسالته فيما بعد. إن الذين يرفضون هذا القول، إنما يلحقون بالمسيح عليه السلام صفات يبرئه منها كل مؤمن وعاقل. إن الأناجيل

www.kalemasawaa.com

ترينا ـ وخاصة في الساعات الأخيرة ـ مواقف حاسمة، ترفض كلها فكرة قتل المسيح، وتقطع كل صلة بينها وبين رسالته ـ ومن هذه المواقف نذكر ما يلي:

١. في نهاية الفترة التي سبقت عملية القبض مباشرة، كان آخر ما نطق به المسيح في صلاته، هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأنه المسيح رسول الله، فقال: "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته". ثم أعقب المسيح ذلك مباشرة بتقرير واضح ـ لا لبس فيه ولا إبهام ـ بَيَّن فيه أن الرسالة التي بعثه الله بها قد اكتملت؛ فقال: "أنا مجدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته". (يوحنا ١٧: ٣، ٤). لقد اكتملت رسالة المسيح تمامًا قبل حادث الصلب، فمن الذي يفتي بما يخالف شهادة المسيح؟!

٢. وينطق كل مشهد من مشاهد المعاناة في النصوص الحديثة برفض المسيح فكرة قتله: "ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا، وابتدأ يدهش ويكتئب. فقال لهم: «نفسي حزينة جدًّا حتى الموت! امكثوا هنا واسهروا». ثم تقدم قليلًا وخرَّ على الأرض، وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن. وقال:«يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك، فأَجِز عني هذه الكأس. ولكن ليكن لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت». ثم جاء ووجدهم نيامًا، فقال لبطرس:«يا سمعان، أنت نائم! أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلَّا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف». ومضى أيضًا وصلَّى قائلًا ذلك الكلام بعينه. ثم رجع ووجدهم أيضًا نيامًا، إذ كانت أعينهم ثقيلة، فلم يعلموا بماذا يجيبونه. ثم جاء ثالثة وقال لهم:«ناموا الآن واستريحوا! يكفي! قد أتت الساعة! هوذا ابن الإنسان يُسلَّم إلى أيدي الخُطاة. قوموا لنذهب! هوذا الذي يُسلِّمني قد اقترب". (مرقس ١٤: ٣٣ ـ ٤٢).

٣. وحين شعر المسيح بالخطر يقترب منه وقوة الظلم تتقدم للقبض عليه، كانت صيحته لتلاميذه: "قوموا ننطلق؛ هوذا الذي يُسلِّمني قد اقترب". (متى ٢٦: ٤٦). لقد كان يطلب بإلحاح إلى تلاميذه أن ينهضوا لمعونته في الانطلاق بعيدًا عن المحنة الوشيكة، إلا أنهم كانوا "نيامًا إذ كانت أعينهم ثقيلة فلم يعلموا بماذا يجيبونه" وتركوه وحيدًا يعاني آلامه.

٤. وحين جاءت قوة الظلم وتقدَّم يهوذا ليدلّهم على سيده: "قال له يسوع: يا صاحب، لماذا جئت". (متى ٢٦: ٥٠).

٥. وفي المحاكمة: "ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب: رؤساء الكهنة والكتبة، وأصعدوه إلى مجمعهم قائلين: إن كنت أنت المسيح، فقل لنا! فقال لهم: إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبونني ولا تطلقونني". (لوقا ٢٢: ٦٦ ـ ٦٨).

وهنا نجد أن المسئول لو جاوبهم، فلن تخرج الإجابة عن أحد قولين، لا ثالث لهما:

- نعم، أنا المسيح.
- لا، لست أنا المسيح.

ومن الواضح أن كل من يؤمن بروايات الأناجيل عن أحداث الصلب، سوف يرفض حتمًا الإجابة

www.kalemasawaa.com

الثانية، وبذلك تبقى الإجابة الأولى، والتي يمكن أن توضع في الصيغة الآتية: "فقال لهم: نعم، أنا المسيح، لكنكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبونني، ولا تطلقونني"، وسواء وضعت الإجابة الأولى في الصيغة المقترحة، أم لم توضع، فالنتيجة التي لا مفر من قبولها تقول: بفرض أن الذي يستجوبه الكهنوت اليهودي هو المسيح، فمن الواضح أنه كان يطلب إطلاق سراحه. وبذلك لا يوجد محل لأي قول يقول: إنه جاء ليبذل نفسه فِدْية عن كثيرين.

ومن الواضح أيضًا أنه باستخدام القول الثاني، فإن إجابة المقبوض عليه يمكن أن تأخذ الصيغة التالية: "فقال لهم: لا، لست أنا المسيح الذي تطلبونه، لكنكم لا تصدقون. وإن سألت النجاة لا تجيبونني ولا تطلقونني". وسواء كان هذا أو ذاك، فإن ما جاء في هذه المحاكمة يلغي كل ما يُقال عن نظرية قتل المسيح.

٦. ونصل الآن إلى الشهادة الأخيرة، التي تنسبها الأناجيل للمصلوب في الرمق الأخير، ألا وهي: صرخة اليأس على الصليب. من يسمع قول مصلوب يصرخ إلى ربه "بصوت عظيم قائلًا: إلُوي إلُوي، لما سَبَقْتَني؟ الذي تفسيره: إلهي إلهي لماذا تركتني"؟ (مرقس ١٥: ٣٤)، من يسمع هذا ثم يقول إن المسيح "بذل نفسه لأجل خطايانا؛ لينقذنا من العالم الحاضر الشرير". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ١: ٤)، وإنه "بذل نفسه فدية لأجل الجميع". (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تيموثاوس٢: ٦)، أو إنه "إذ وُجِد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب". (رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي ٢: ٨)، أو إنه "بعدما قدَّم عن الخطايا ذبيحةً واحدة، جلس إلى الأبد عن يمين الله، منتظرًا بعد ذلك حتى تُوضَع أعداؤه موطئًا لقدميه". (الرسالة إلى العبرانيين١٠: ١٢، ١٣)؟!

منذ ما يقرب من ٢٠٠٠عام وقف المسيح يُعلِّم الكهنوت اليهودي مشيئة الله، فقال لهم: "لو علمتم ما هو؛ إني أريد رحمة لا ذبيحة". (متى ١٢: ٧)، وحتى اليوم لا يزال الكثيرون مُصرِّين على تجاهل مشيئة الله، فيرفضون الرحمة، ويقبلون الذبيحة[1]!

إننا نظلم عيسى ونغمطه حقه إذا قلنا: إنه كان يبكي كامرأة لينقذ جسده من الآلام الجسمية، سوف يحملون منطقًا زائفًا لو أنهم نجحوا في قتل أي واحد على أنه المسيح، سوف يتأكدون حينئذ أنه دعا؛ لأن الله العلي القدير لم يكن ليسمح أبدًا بقتل المسيح الحق، ومن هنا كان الرفض الدائم لليهود لعيسى ابن مريم عليه السلام على أنه المسيح الذي وعدوا به "الرفض الأبدي"[2].

حادي عشر. نهاية يهوذا خير شاهد على صدق القرآن وتحريف الإنجيل:

اتفقت النصارى على القول بأن يهوذا الإسخريوطي هو الذي دل على يسوع المسيح، وكان يهوذا هذا رجلًا عاميًّا من بلدة تسمى "خريوت"، تبع المسيح، وصار من خواص أتباعه الذين يلقبونهم بالتلاميذ الاثني عشر، الذين بشرهم بأنهم يكونون

١. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٢٠٢: ٢٠٦.

٢. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص١٧١.

www.kalemasawaa.com

معه في الملكوت على اثني عشر كرسيًّا، ويدينون بني إسرائيل، أي: يحاسبونهم يوم الدين، ومن الغريب أن يهوذا كان يشبه المسيح في خلقه، كما نقل "جورج سايل" الإنكليزي في ترجمته للقرآن المجيد، في تعليقه على سورة آل عمران، وعزا هذا القول إلى "السيرنثيين والكربوكراتيين" من أقدم فرق النصارى الذين أنكروا صلب المسيح، وصرحوا بأن الذي صلب هو يهوذا الذي كان يشبهه شبهًا تامًّا.

وقالوا: "حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دِين، ندم وردَّ الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلًا: قد أخطأتُ إذ سلَّمتُ دمًا بريئًا». فقالوا:«ماذا علينا؟ أنت أبْصِر!» فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه". (متى ٢٧: ٣ ـ ٥)، وغرضنا من هذا الخبر بيان أنهم معترفون بأن يهوذا فُقِد بعد حادثة الصلب، ولم يظهر في الوجود، وأنهم يدعون أن سبب هذا هو قتل نفسه من الحزن والأسف. ونحن نرى أنه إنما فُقِد؛ لأنه هو الذي صُلب، والمسيح هو الذي نجاه الله ﷻ ورفعه، فإن الذي يحمله حزنه وألم نفسه على أن يبخع نفسه بيده خنقًا أو شنقًا لا يستبعد منه أن يسلبها بالاستسلام إلى من يتولى ذلك عنه فإنه أهون عليه، فمن المعقول أن يكون يهوذا عندما دل اليهود على المسيح في الليل رأى بعينيه عناية الله ﷻ بإنجائه وإنقاذه من بين أيديهم "كما أنجى أخاه محمدًا ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من أيدي كفار قريش، وكانوا أشد معرفة له من معرفة اليهود للمسيح ـ لأنهم لم يكونوا يحتاجون إلى بذل المال لمن يدلهم عليه، كما بذلت اليهود ثلاثين قطعة من الفضة ليهوذا ـ فخرج ليلة الهجرة من بين الذين كانوا ينتظرونه عند داره ليقتلوه ولم يبصروه"، فلما رأى يهوذا ذلك وعلم درجة عناية الله ﷻ بعبده ورسوله عظم ذنبه في نفسه، واستسلم للموت ليكفر الله عنه ذنبه كما كفر ذنب الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل بقتل أنفسهم، فأخذوه وصلبوه من غير مقاومة تذكر، فرواية الإنجيل وسفر الأعمال عن وجدانه مخنوقًا أو مشنوقًا غير مسلمة، وقد تعارض القولان فتساقطا، ووجب اعتماد قول برنابا الذي أخذ به بعض قدماء النصارى.

وإذا كان إيمان يهوذا قويًّا إلى هذه الدرجة درجة الانتحار والبخع من ألم الذنب فليت شعري، لماذا لا تقبل توبته ولا ينفعه إيمانه حتى ادعوا أنه مات كافرًا، وأن كرسيه في الملكوت سيبقى خاليًا، وبشارة المسيح لا تكون صادقة؟ ولماذا تقبل توبة بطرس الذي أنكر المسيح ولعنه المسيح في حياته وسماه شيطانًا، على أن توبته دون توبة يهوذا، وما كان يهوذا إلا متممًا لذريعة الفداء التي هي أساس الدين عندهم".

"إن ما اتفق عليه متى ولوقا ـ وصمت عنه مرقس ويوحنا ـ هو أن يهوذا الخائن قد هلك في ظروف مريبة، لكن رواياتهما اختلفت في ثلاثة عناصر:

الأول: كيفية موته، وفيها يروي متى أن يهوذا قد انتحر بخنق نفسه، بينما يروي لوقا أنه مات ميتة دموية، انشق فيها وسطه، وانسكبت جميع أحشائه.

الثاني: يتعلق بمشتري الحقل، فيروي متى أن رؤساء الكهنة هم الذين اشتروه، بينما يروي لوقا أن يهوذا كان هو الشاري.

www.kalemasawaa.com

الثالث: كذلك اختلفت روايتا متى ولوقا في سبب تسمية الحقل باسم: حقل دم، فرواية متى ترجع ذلك لكونه قد اشترى بنقود كانت ثمنًا بيع به دم بريء، بينما يرد لوقا تلك التسمية إلى الميتة الدموية التي ماتها يهوذا.

إن ما يذكره متى ولوقا عن هلاك يهوذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا هو: أن يهوذا قد اختفى في فترة الاضطراب التي غشيت أحداث الصلب وملابساته.

وإذا كان هناك من يعطي أيًّا من هاتين الروايتين قدرًا من الثقة، فإن ذلك القدر يمكن تقييمه بمقارنتهما بما ترويه المصادر المسيحية القديمة عن هلاك بيلاطس.

عجبًا، وأي عجب... لقد جعلت القصة الأولى من بيلاطس شهيدًا، تتسلم رأسه ملائكة السماء؟! في حين جعلت منه القصة الثانية شيطانًا، ترتع في جسده الشياطين؟! على أن ما يعنينا هو التشابه الملحوظ بين نهايتي كل من يهوذا وبيلاطس، فقد وجدت روايات تقول أن كلًا منهما أهلك نفسه انتحارًا، بينما وجدت روايات أخرى تقول بعكس ذلك. فأيهما نرفض، وأيهما نصدق؟!!

إن ذلك يعني شيئًا جوهريًّا لا مناص من الأخذ به في كل ما يتعلق بالعقائد، والروايات الدينية، ألا وهو أن تخضع جميعها للبحث والتمحيص على ضوء ما ميز به الله الإنسان من عقل، وعندئذ يستطيع الإنسان أن يميز الخبيث من الطيب، والحق من الضلال، أما أن يدعي الناس إلى إبطال عقولهم، والتسليم بكل ما يقال عنه أنه كتاب مقدس، باعتبار "أن كل الكتاب هو موحى به من الله"، فتلك مغامرة لها باب واسع يستطيع التوصيل بسرعة إلى الهلاك الأبدي[1].

إن ما يحكيه متى عن نهاية يهوذا ـ يتعارض ـ كما بينا مع ما يحكيه لوقا، والقاعدة الأصولية في المتعارضين إذا لم يمكن الجمع بينهما ولا ترجيح أحدهما على الآخر أن يقال: "تعادلا فتساقطا"، وبهذه القاعدة التي لا مندوحة عن القول بها في هذه القصة وغيرها من التعارض في هذه الأناجيل اتقاء الوقوع في الترجيح بغير مرجح.

إذن فرواية متى عن نهاية يهوذا ساقطة، وكذلك رواية لوقا، فإذا أضفنا إليها إنجيل مرقس ويوحنا، صار عندنا أربعة أناجيل لا يوجد بها رواية صريحة وصحيحة لنهاية يهوذا، وإننا ـ بناءً على ما سبق ـ لا يسعنا إلا أن نتوجه إليهم بالسؤال قائلين: كيف كانت نهاية يهوذا عندكم يا كُتَّاب الأناجيل ويا أصحاب المعرفة والعلم؟!

إن الإجابة المتوقعة هي: ليس في الإمكان أفضل مما كان، وما كان ـ للأسف الشديد ـ من رواية متى ولوقا ساقط، لا يعتد به!

وإذا سألنا: لماذا لا يقبل النصارى إلقاء شبه المسيح على يهوذا، أو غيره وصلبه بدلًا من المسيح؟ وهل هذا الأمر صعب الحدوث على أرض الواقع؟

يجيب عن هذا السؤال د. عبد الوهاب النجار فيقول: مما يُسهِّل إلقاء شبه المسيح على غيره الحادثة التي ذكرها متى في إنجيله، ونصُّها: "وبعد ستة أيام

---

١. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص١٨٣: ١٨٨.

www.kalemasawaa.com

أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه، وصعد بهم إلى جبل عالٍ منفردِين. وتغيَّرت هيئته قُدَّامهم، وأضاء وجهه كالشمس، وصارت ثيابه بيضاء كالنور. وإذا موسى وإيليَّا قد ظهرا لهم يتكلمان معه. فجعل بطرس يقول ليسوع: «يا رب، جيِّد أن نكون ههنا! فإن شئتَ نصنع هنا ثلاث مظالَّ: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة». وفيما هو يتكلم إذا سحابة نَيِّرَة ظلَّلتهم، وصوت من السحابة قائلًا: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرْتُ. له اسمعوا». ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جدًّا. فجاء يسوع ولمسهم، وقال: «قوموا، ولا تخافوا». فرفعوا أعينهم، ولم يروا أحدًا إلا يسوع وحده". (متى ١٧: ١ـ ٨).

وقد ذكر هذه الحادثة أو المعجزة كل من مرقس ولوقا، وأغفلها يوحنا، ومن العجيب أنه كان أحد شهودها، ومع ما بينهم من التناقض في عدد الأيام فقد اتفقوا على حصولها في الجملة.

إن هذا التغيير الذي يُقرُّون به في هيئة المسيح يُفسِّر لنا بأجلى بيان إلقاء شبهه على غيره وتغير هيئته، حتى إن الذين أَتَوا للقبض عليه أخذوا من ألقى عليه شبه المسيح فوقع في الورطة ونجا عيسى عليه السلام[1].

ثاني عشر. كلام الإمام الرازي مقطوع من سياقه:

وأما كلام الإمام الرازي المستدل به فكلام مقطوع من السياق، إيهامًا للمسلمين بأن أحد علماء المسلمين ينكر أن عيسى عليه السلام شُبِّه لهم، ولو رجعنا إلى مصدر كلامه لعلمت تدليس هؤلاء المدلسين.

والذي ذكره الإمام الرازي هو سؤال ـ أي: اعتراض ـ نقله عن أصحابه نقلًا أمينًا بكامل أدلته كعادة علمائنا في المنهجية والأمانة العلمية، ثم أعقب هذا السؤال بعدة أجوبة عليه من علماء الأمة، ولما وجد أن هذه الأجوبة لا تسلم من الاعتراض، ولم ترق إلى الأجوبة العقلية المقنعة ـ من وجهة نظره ـ فوض حقيقة الأمر إلى علم الله تبارك وتعالى فقال: "وهذه الوجوه متعارضة متدافعة، والله أعلم بحقائق الأمور"[2].

الخلاصة:

لقد نص القرآن صراحة على أن سيدنا عيسى عليه السلام لم يصلب، ولم يقتل بل رفعه الله عز وجل إليه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ وقد اتفقت جماهير وعلماء الإسلام قديمًا وحديثًا على نجاة المسيح من كيد أعدائه، ومحاولتهم قتله وصلبه، انطلاقًا من التأكيدات القرآنية القاطعة. والصواب في رأي أكثر المفسرين أنه رفع حيًّا بروحه وجسده، وحجتهم في ذلك:

- القول بصلب المسيح عليه السلام ينفي ألوهيته عند النصارى، والقول بألوهيته ينفي صلبه.
- ما ورد على لسان المسيح عليه السلام في الأناجيل يؤكد أنه لم يصلب.
- هناك العديد من الطوائف والمصادر النصرانية

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٥٠٧، ٥٠٨.

٢. مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

www.kalemasawaa.com

تؤكد نجاة المسيح عليه السلام وعدم صلبه.

- ولا تعارض بين آية نفي الصلب والقتل، وآيات الوفاة والرفع إنما هي أفهام لا حظ لها من التدبر.
- ولقد شُبِّه لهم فقتلوه أو صلبوه، ولا يتنافى هذا مع عدل الله ولا يحصل بإلقاء الشبه على آخر أي اختلال في الموازين.
- وأما ما نسب زورًا إلى الإمام الرازي فهو تدليس وقطع للكلام من سياقه، لإيهام المسلمين أن بعض علمائهم ينكرون أن عيسى شُبِّه لهم، ولو رجعنا إلى المصدر، لعلمنا كذب ادِّعاء هؤلاء.

الشبهة الثالثة والتسعون

دعوى صَلْب المسيح عليه السلام فداءً للبشر (*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن الله قد ضحَّى بولده المسيح عليه السلام؛ كي ينقذ ويفدي البشرية من الخطيئة التي ورثوها عن آدم عليه السلام، وهم بذلك يُثبتون عقيدة الصلب والفداء.

وجوه إبطال الشبهة:

١) مفهوم العدالة الإلهية يقتضي أن يُحاسب الإنسان عن عمله، بيد أن إقرار عقيدة الصلب فداءً للبشر ينافي صفتي العدل والرحمة لله عز وجل.

٢) عقيدة الفداء والصلب خرافة وثنية اقتبسها بولس من العقائد الوثنية القديمة.

٣) نصوص الكتاب المقدس تبطل عقيدة الصلب والفداء.

٤) عقيدة صلب المسيح عليه السلام باطلة بشهادة بعض النصارى مثل: أدوارسيوس، وارنست دي بولس، وملمن... وغيرهم.

التفصيل:

أولا. مفهوم العدالة يقتضي أن يحاسب الإنسان عن عمله وإقرار عقيدة الصلب ينافي صفتي الرحمة والعدل لله:

يفصل الإمام الألوسي القول في هذه القضية مخاطبًا النصارى قائلًا: ألستم تقولون إن آدم عليه السلام استرجع وتاب؟ فأي شيء أبقت التوبة من ذنبه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له؟ فصار حينئذٍ قَتْلُ المسيح عبثًا تعالى الله عنه.

ونقول لهم: أخبرونا عن هذا القضاء أليس هو استدراك مصلحة الأداء، وهو أن يأتي القاضي بمثل ما قُضِّر فيه؟ فإن قالوا: نعم. قلنا: فالذي فَوَّته آدم الانكفاف عن الأكل، فيكون قضاؤه بصوم المسيح، فإن قالوا: إن آدم وجب عليه موت المعصية، وهو الخلود في النيران أبدًا وهو أعظم الميتين، فجاء موت

(*) صيحات تحذير من دعاة التنصير، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م.

® في "موقف القرآن من عقيدة الفداء النصرانية" طالع: الشبهة الثامنة. وفي "فداء إسماعيل ومخالفته لعقيدة الفداء النصرانية" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة. وفي "فكرة الإسلام عن خطيئة آدم" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي "العدل الإلهي ووراثة خطيئة آدم" طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الرابعة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١).

www.kalemasawaa.com

المسيح قضاء عن ذلك الموت، فصار من جنسه. قلنا: هذا باطل؛ لأنه لو كان موت المسيح من جنس موت آدم لكان أماته الله ﷻ موت الخطيئة، وكان مخلدًا في النار بدلًا عن آدم؛ فموت الطبيعة ليس بدلًا عن موت الخطيئة، وإذا بطلت دعواكم بطل قتل المسيح؛ إذ صار ساذجًا عن المعنى فارغًا عن الفائدة، والرب يتعالى عن العبث، وقلنا لهم أيضًا: إن ولد الصُّلْب أولى من ولد البنت في كثير من الأحكام، فولد صُلب آدم أولى في الفداء من ولد بنته، وهو المسيح.

فإن قالوا: هو ابن الله فلا يصلح لفداء الخلائق غيره، قلنا: أليس عندكم في التوراة أن إسرائيل هو بِكْر الله، والبكر أولى وأفضل عند أبيه؟ فَهلَّا فداه به ولم يَدَعِ الناس في عذاب إلى مجيء المسيح؟ ثم نقول: المسيح عندكم هو الإله الأزلي، وعند طائفة منكم هو ابن الله، فكيف يستقيم أن يكون الله ﷻ نفسه أو ابنه بدلًا عن عبيده؟ والله ﷻ هو الذي يتوفَّى الأنفس وبأمره وإرادته، فيتَّحد حينئذٍ القاتل والقتيل فيكون قاتلًا قتيلًا، ثم نقول: أرأيتم أن رجلًا أمر عبده بأمر فخالف العبد، فغضب عليه وأوعده، فخاف العبد وأشفق من عقوبته، فرجع إلى خِدْمَته، وشَمَّرَ في مرضاته، فعطف عليه مولاه رحمة منه، ثم التفت إلى ابنه فقال: هذا فداؤك فتسلَّم روحه أو إلى نفسه، فقتل نفسه عن عبده. أكنتم تَعُدُّونه حكيمًا أو عاقلًا؟ فاعترفوا بالحق ولا تغالطوا أنفسكم.

ثم نقول: ألستم تَعيبون قول ربنا ﷻ في القرآن العظيم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧)، ففي تكذيبه تكذيب لكل نبوات الأنبياء، عيسى فمن فوقه ـ عليهم السلام ـ وقد زعمتم أن قتل الشبه فداء عن المسيح عليه السلام ظلم وحيف لا يليق بالحكمة، فكيف نسيتم نفوسكم هاهنا وجوَّزتم أن يقتل الله ﷻ نفسه أو ابنه وينكِّل به على يد أعدائه فداء آدم، ولم تجعلوا ذلك ظلمًا وحيفًا، والجور لا يجوز على العبد؟

ثم يُقال لهم: هلَّا جعلتم هابيل بن آدم عليه السلام الذي قتله قابيل هو الفداء؛ لأنه من جوهر أبيه، وأما المسيح فهو ابن الإله وهما من جوهر واحد، فكان فداء هابيل أولى، ولا سيما أنكم توجبون على الله ﷻ الأصلح لعباده. فالأصلح في حقهم ألَّا يعذبوا مدة خمسة آلاف سنة إلى إرسال المسيح وصيرورته فداء، وله مندوحة عن ذلك بقتل هابيل.

ثم يُقال لهم: ألستم رويتم في توراتكم أن الله تبارك وتعالى قد فدى ولد عبده إبراهيم عليه السلام بذِبْح عظيم؟ فإن قالوا: بلى، قلنا لهم: أفكان ولد عبده أزكى لديه وأعز عليه من ولده المسيح الذي هو وإياه شيء واحد، وجوهر واحد، أم تقولون: أعوزته الغنم فلم يقدر على كبش يذبحه ويريح العالم من فتنة المسيح؟! وقد رويتم في التوراة أن الله تبارك وتعالى قدَّم إلى إبراهيم كبشًا بدل ولده لما أُمِر بذبحه، فعزم على ذلك رحمة منه سبحانه ولطفًا، فلعله قد أمر المسيح في حق نفسه بما أمر به إبراهيم في حق ولده، فاستسلم وصار يخبر بذلك تلاميذه كما كان إبراهيم يخبر به ولده، ثم لما صح، عزم على تجرع كأس المنية لَطُفَ به وفداه برجل قد حضر أجله، فإن عناية الله تعالى بالمسيح لا تَقْصر عن عنايته بولد إبراهيم.

www.kalemasawaa.com

وإذا كان هذا وشبهه غير مستحيل عند النصارى، فما الذي أحاله في حق المسيح عيسى عليه السلام؟ وقد تضرع إلى الله غير مرة في صرف كأس المنية عنه، كما شهدت أناجيلكم بذلك، والمسيح لا تُرَدّ له دعوة. قد استجاب الله دعاءه، وحال بين اليهود وبين ما أرادوا منه، ورُفع إليه. والدليل على ذلك: ما ذكره في الإنجيل.

ويُقال لهم: لم تنكروا أن الله تعالى تاب على عبده آدم، وعافى عبده المسيح في فدائه بكافر أو بمؤمن عجله إلى الجنة لا سيما وقد استعمل المسيح الحيدة في الجواب، وعدم الإفصاح لما سأله رئيس الكهنة أهو المسيح كما تقدم؟ ويقال لهم: ماذا تقولون لو أن أحدنا اليوم عصى ربه أتجزئه التوبة أم لا بد أن يقتل ويصلب؟

فإن قالوا: تُجْزِئه التوبة، يقال لهم: فهل هو أولى من صَفِيِّ الله آدم؟ إذ قلتم: لا بد في توبته من قتل المسيح لأجله؟ وإن قلتم: لا تُجزئه، كَذَّبتم بولس، حيث يقول في رسالته: "أفتظُنُّ هذا أيها الإنسان الذي تَدِين الذين يفعلون مثل هذه، وأنت تفعلها، أنك تنجو من دَيْنُونة الله؟ أم تستهين بغِنَى لُطْفه وإمهاله وطول أناته، غير عالم أن لُطْف الله إنما يَقْتادك إلى التوبة"؟ (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٢: ٣، ٤)، فلا حاجة إلى قَتْل وصَلْب؟

وكذا رويتم عن المسيح في الإنجيل أنه قال: "قد كَمَلَ الزمان، واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل". (مرقس ١: ١٥)؛ فقد شهد المسيح أن التوبة مستقلة بمحو الآثام، فلا حاجة إلى شيء آخر، ويقال لهم: ما تقولون فيمن مات قبل مجيء المسيح؟ أكانوا كفارًا أم مؤمنين؟ فإن قالوا: مؤمنين فقد سَلَّموا أن لا حاجة إلى قتل المسيح في تخليصهم؛ إذ إيمانهم مخلصهم لا غيره.

وإن قالوا: كانوا كفارًا كذبهم المسيح؛ إذ قال في الإنجيل: "لا يحتاج الأصحَّاء إلى طبيب، بل المرضى. لم آت لأدعو أبرارًا، بل خُطاة إلى التوبة". (لوقا ٥: ٣١، ٣٢)، وأنتم قلتم: إن المسيح نزل من السماء لخلاص كل الناس، فإن قالوا: نعم. قلنا: فما تقولون فيمن مات قبل نزوله عليه السلام؟ وكيف الطريق إلى بلوغ دعوته إليهم؟ فإن قالوا: تعذر تلافي أمره وفات استدراكه بموته. قلنا: فإذن تكونوا قد نسبتموه إلى الظلم؛ حيث لم ينزل لخلاصهم قبل ذلك، فلم أخر نزوله حتى ماتوا على الضلالة والكفر، وكيف صار الأحياء أحق بالرحمة منهم؟!

وفي هذه المقالة هدم أصلكم. وإن تحامقوا وقالوا: إن المسيح دعا الأحياء وهو حي، ثم مات فدعا الأموات في قبورهم، نقول: هل دعاهم وهو حي أم دعاهم وهو ميت؟ فإن قالوا: دعاهم وهو ميت سقطت مقالتهم وتبين جنونهم، وإن قالوا: دعاهم وهو حي فقد نقضوا قولهم: إنه مات[1].

وبهذا البيان يتضح أن زعمهم صلب المسيح عليه السلام لفداء البشر ومحو الخطيئة عنهم باطل؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

---

١. الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح، الألوسي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، د. ت، ص٦٠٠: ٦٠٢.

www.kalemasawaa.com

إقرار عقيدة الصلب تنافي صفتي العدل والرحمة لله:

يشير الأستاذ عبد المجيد صبح إلى أنه أقيمت ندوة عن "الإله في المسيحية" فقال راهب كاثوليكي يقرر عقيدة الصلب: إن آدم عليه السلام لما عصى الله عز وجل، بالأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها، صار هو وجميع أفراد ذريته خطاة مذنبين مستحقين للعقاب في الآخرة!!

ثم إن جميع ذرية آدم ولدوا خُطاة مُذْنِبين، فكانوا مستحِقِّين للعقاب بذنوبهم، فتقرر عقابهم بأصلين على قولهم وزعمهم: ذنب أبيهم الأول الذي به ولدوا مذنبين، ثم ولادتهم مذنبين، قبل أن يقوموا بعمل شيء بحكم ذلك الأصل!!

وبعصيان آدم طرأ على الله مُشْكِل: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ (الإسراء)، من جهة اتصافه بصفتي الرحمة والعدل. إن عاقب آدم إعمالًا لصفة العدل، ناقض صفة الرحمة، وإن لم يعاقبه إعمالًا لصفة الرحمة، ناقض صفة العدل.

ثم بدا لله ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ بعد آلاف السنين حلّ هذا المشكل، وهو تناقض صفتي رحمته وعدله، في مسألة عصيان آدم، فكان الحل ـ بعد تفكره آلاف السنين ـ أن يحل الله في رحم امرأة، يكون ابنًا لها من حيث هو إنسان ولد منها، ويكون هو ربها وإلهها من حيث هو الله!

ثم هو يعيش بين الناس يأكل كما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ويتألم كما يتألمون، ثم يُقتل أفظع قِتْلة: قتلة الصلب، ويُلعَن، ويُضرب على رأسه بالشوك. كل ذلك فداءً للبشر، وخلاصهم من خطاياهم كما قال يوحنا: "هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطيَّة العالم". (يوحنا ١: ٢٩). أهذا يليق بجلال الله وعظمته؟! فالمتصف بالضعف والعجز لا يكون إلهًا!

وترتب على هذا الاعتقاد الخاطئ مجموعة من الأمور وهي:

١. الاعتقاد بأن الله ناقص العلم، وأنه لم يكن يعلم ما يكون بعد.

٢. القول بهذه العقيدة يستلزم القول بجواز البداء على الله، والبداء: أن يبدو لله ما لم يكن يعلم، ثم يتخذ لهذا الذي بدا حكمًا لم يكن قَدَّره من قبل.

٣. لا يمكن أن يؤمن بهذه العقيدة إلا من يأخذ الدين على أنه مناقض للعقل، وأن الدين لا يكون دينًا إلا بهذه المناقضة!

٤. لا يؤمن بهذه العقيدة إلا من يرى أن الرب تجري عليه الأحوال البشرية، أو يجريه الشيطان، أو أن يحزن على بعض ما فعل ويندم عليه ويأسف قلبه، ومثل أن يقع في تناقض يفكر في حله آلاف السنين، ثم ينتهي إلى حلٍّ لا يقبله عقل، ويناقض ما لله من جلال وإجلال، حتى إنه يحل في رحم امرأة، ثم يجري عليه أسوأ ما يجري على بشر!

٥. إذا كان الله تبارك وتعالى قد فعل ذلك فداءً للبشر وخلاصًا للعالم، فلا داعي للإيمان بهذه العقيدة؛ لأن الدعوى في هذا الاعتقاد أنه فعل ذلك تفدية وتخليصًا للبشر أجمعين، فليكن عدم الإيمان بهذه العقيدة من خطاياهم التي تغفر، والتي هي مما ترتب على خلقهم.

٦. إذا قيل: إن غير المؤمن بها لا ينجو، اقتضى ذلك

www.kalemasawaa.com

أن "الله" بعد تفكير طويل فعل شيئًا، لغاية مقصودة، ثم لم تحقق غايته ومقصوده، وتلك منقصة أخرى في حق الألوهية!

وإذا سلمنا ـ جدلًا ـ بقبول القول بالصلب، واللعن، والضرب، وهو لم يذنب قط؛ وجدنا هذا القول منافيًا لصفة العدل والرحمة معًا. ثم لماذا كل هذه المأساة؟ ألم يكن الله قادرًا على العفو عن آدم عليه السلام بدونها؟

قال الأستاذ نظمي لوقا ـ المسيحي ـ في كتابه "محمد الرسالة والرسول": إن القرآن الكريم قد حسم مسألة خطيئة آدم عليه السلام بقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة)، وبهذا البيان يتضح أن المسيح عليه السلام لم يصلب كما يزعمون فداءً لخطيئة آدم عليه السلام.

ونقول: لماذا يؤخذ الجار بظلم الجار؟ لماذا يخطئ آدم عليه السلام؟ فيعاقب عيسى عليه السلام؟ وهل من العدل أن يخطئ واحد فيُقْتص من الآخر؟ وهل من العدل أن يَرِث البشر خطأ عن أبيهم آدم لم يقترفوه؟ وقد ذكرنا أن الله تاب عليه! إن الأمر الذي يتوافق مع العقل أن المرء ليس مسئولًا عن شيء ليس له فيه يد، ولا أظن القوانين الوضعية تعاقب إنسانًا على جرم إنسان آخر. فكيف إذا كان الأمر يتعلق بأمور إلهية؟ والله عز وجل قرر مبدأ مسئولية الإنسان عن أفعاله فقط قائلًا: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٦٤). وأخبر الرسول محمد ﷺ أن كل إنسان مسئول عن عمله وعن نفسه، فقال لأقرب الناس إليه: "يا فاطمة بنت محمد، سَلِيني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا" (١) (٢) ®.

ثانيًا. عقيدة الفداء والصلب خُرافة وثنية اقتبسها بولس من العقائد الوثنية القديمة:

هذا يؤكد أن جذور هذه الديانة المسيحية ترجع إلى الوثنية، وهذا ما سنوضحه في هذا العرض:

إعدام الإله في الديانات الوثنية:

يذكر علاء أبو بكر أن فكرة "إعدام الإله" فكرة انتشرت في الديانات الوثنية القديمة وتناقلتها الأمم، ومن ذلك:

١. ديانة مثرا الفارسية:

ديانة فارسية ازدهرت في فارس في القرن السادس ق. م، ثم انتقلت إلى روما، وانتشرت في أوربا فبلغت مُدُنًا شمالية في إنجلترا. ومن أوجه التشابه بين عقائد الديانتين وبين مثرا ويسوع، أن:

- كلًّا منهما كان وسيطًا بين الله والبشر.
- مثرا ولد في كهف وولد عيسى في مِذْوَد البقر.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب (٢٦٠٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء) (٥٢٤)، واللفظ للبخاري.

٢. الرد الجميل على المشككين في الإسلام من القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، عبد المجيد صبح، دار المنارة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م، ص٦٤: ٦٧.

® في **"فكرة الإسلام عن خطيئة آدم"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي **"العدل الإلهي ووراثة خطيئة آدم"** طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الرابعة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١).

www.kalemasawaa.com

- كـلًّا مـنهما ولـد في الخـامس والعـشرين مـن ديسمبر.
- كلًّا منهما كان له اثنا عشر حواريًّا.
- كلًّا منهما مات ليخلص البشر من خطاياهم.
- كلًّا منهما دُفن وعاد للحياة بعد دفنه.
- كلًّا منهما صعد السماء بعد دفنه.
- كلًّا منهما صعد السماء أمام تلاميذه.
- كلًّا مـنهما كـان يـدعى منقـذًا ومخلـصًا، ومـن أوصافه أنه كان كالحمل الوديع.
- كلًّا منهما كان له أتباع يعمدون باسـمه، ويُقـام عَشاء مُقدَّس في ذكراه.

هذا وقد جاء في كتاب "حياة المسيح في الكشوف والتاريخ" للعقاد أن: عبادة مثرا هذه انتقلت إلى الدولة الرومانية، وامتزجت بعبادة إيزوريس المصرية، ومنهما جاءت عبادة مثرا، وهي في جملتها هي الديانة المصرية التي صورت إيزيس أم الإله حوريس، وهو يرضع من ثديها. وهي أيضًا صورة مريم العذراء التي تحتضن ابنها عيسى عليه السلام في أثناء رضاعته، وقبل فطامه.

٢. **ديانة بَعْل:**

وهي ديانة بابلية انتقلت مع موجة الفتوحات البابلية إلى شمال الهلال الخصيب، وظل الكنعانيون يدينون بها. وفي كثير من الأحيان كان اليهود يتركون ديانتهم ويعبدون بعلًا، ونهاية هذا الإله تكاد تكون هي الصورة التي صورت بها نهاية المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام:

- أُسر قبل محاكمته.
- حُوكم علنًا.
- اعتُدي عليه بعد محاكمته.
- نُفِّذ الحكم عليه في أعلى الجبل.
- كان معه مُذْنِب آخر محكوم عليه.
- ولما أراد الحاكم العفو عنه طالب الشعب بإعدامه هو، والعفو عن المجرم.
- وبعد تنفيذ الحكم عليه ظهر الظلام، وعمَّ الاضطرابُ الناس، وعلا الرعد، وزلزلت الأرض.
- وكل منهما أُقيم حرس على قبره.
- وكل منهما قام من القبر وصعد السماء.

٣. **ديانة الهندوس:**

تتشابه كثير من تفاصيل قصة الصلب مع تفاصيل واردة في قصص وثنية مشابهة. فقد ذكر متَّى أحداثًا غريبة عِدَّة، صاحبت موت المسيح؛ حيث يقول: "ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الأرض إلى الساعة التاسعة. ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلًا: «إيلي، إيلي، لما شبقتني؟» أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني... فصرخ يسوع أيضًا بصوت عظيم، وأسلم الروح. وإذا حجاب الهيكل قد انشقَّ إلى اثنين، من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت، والصخور تشقَّقت، والقبور تفتَّحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين". (متى ٢٧: ٤٥ ـ ٥٢).

وهذا نقله النصارى من الوثنيات القديمة، فقد نقل العلامة التنير عن عدد من المؤرخين إجماعهم على انتشار هذه الغرائب حال موت المخلصين لهذه الأمم. من ذلك: أن الهنود يقولون: "لما مات "كرشنا" مُخَلِّصُهم على الصليب، حدثت في الكون مصائب جمَّة، وعلامات متنوعة، وأحاطت بالقمر دائرة

www.kalemasawaa.com

سوداء، وأظلمت الشمس عند منتصف النهار، وأمطرت السماء نارًا ورمادًا...".

ويقول عباد بروسيوس: "إنه لما صُلِب على جبل قوقاس، اهتزت الكائنات، وزلزلت الأرض".

والاعتقاد بحدوث أحداث سماوية عظيمة عند موت أحد العظماء معروف عند الرومان واليونان.

كما ينقل المؤرخ كنون فرار في كتابه "حياة المسيح"، وينقل جيبون في تاريخه أن عددًا من الشعراء والمؤرخين الوثنيين كان يقول: "لما قُتِل المُخَلِّص اسكولابيوس أظلمت الشمس، واختبأت الطيور في أوكارها؛ لأن شافي أمراضهم وأوجاعهم فارق هذه الدنيا". والقول بظلمة الشمس عند موت أحد المخلصين قيل عند مقتل هيركلوس، وبيوس، وكوتز لكوتثل، وكيبير ينوس إله الرومان. وعليه فهو أسطورة قديمة تداولتها الأمم، ونقلها أصحاب الأناجيل من تلك الوثنيات.

ويقول دوان: وكانوا في مصر يُقدِّمون من البشر ذبيحة، وتمكَّنت بهم هذه العادة الشريرة حتى صاروا يقدمون الابن البكر من أحد العائلات الأثانية ذبيحة، يأخذونه إلى هيكل في "فستات في عالوس"، ويضعون على رأسه إكليلًا، ثم يذبحونه قربانًا للإله.

ويقول العلامة ***M. William***: ".. يعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئة الأصلية[1]، ومما يدل على ذلك ما جاء في تضرُّعاتهم التي يتوسَّلون بها بعد "الكياتري"، وهي: "إني مذنب، ومرتكب الخطيئة، وطبيعتي شريرة، وحملتني أمي بالإثم، فخلصني يا ذا العين الحندقوقية، يا مخلِّص الخاطئين، يا مزيل الآثام والذنوب".

ويُضيف دوان ما نصُّه: "ويعتقد الهنود بأن كرشنا المولود البكر الذي هو نفسه فشنو، الذي لا ابتداء له، ولا انتهاء، قد تحرك شفقة وحنوًّا؛ كي يخلِّص الأرض من ثقل حملها، فأتاها وخلَّص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه".

وقال هوك: "ويعتقد الهنود ـ الوثنيون ـ بتجسُّد أحد الآلهة، وتقديم نفسه ذبيحة فداء عن الناس والخطيئة".

ويزعمون أن بوذا الطبيب العظيم ومخلِّص، العالم قدَّم نفسه ذبيحة؛ ليُكفِّر آثام البشر، ويجعلهم ورثة ملكوت السماوات، وبولادته ترك كافة مجده في العالم ليخلص الناس من الشقاء والعذاب كما نذر.

٤. ديانة الفرس:

وكان الفرس يدَّعون مثرا الوسيط بين الله والناس، والمخلِّص الذي بتألُّمه خلَّص الناس ففداهم، ويدعونه "الكلمة" و "الفادي".

ويعتقدون أيضًا أن زروستر المتشرع مُرْسَل إلهي، أُرْسِل ليخلص الناس من الطرق الشريرة، وإلى هذا الحين نرى أتباعه يدعونه زروستر ـ الحي المبارك المولود البكر الواحد الأبدي ـ وما شاكل ذلك من الألقاب، وأنه لما ولد ظهر نور أضاء الغرفة التي ولد فيها، وأنه ضحك على أمه من حين ولادته، ويدعونه "النور الشعشاني البارز من شجرة المعرفة الذي علق على شجرة".

---

١. الخطيئة الأصلية: هي أَكْل آدم من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها.

www.kalemasawaa.com

٥. **ديانة السوريين القدماء:**

كان السوريون يقولون: إن تموز ـ الإله المولود البكر من عذراء ـ تألَّم من أجل الناس، ويدعونه "المخلِّص" و "الفادي" و "المصلوب"، وكانوا يحتفلون في يوم مخصوص من السنة بذكرى موته، فيصنعون صنمًا على أنه هو، ويضعونه على فراش ويندبونه، والكهنة تُرتِّل قائلة: ثقوا بربكم، فإن الآلام التي قاساها قد جَلَبَت لنا الخلاص.

واللافت للنظر في هذه العبادة أنه لم يلعن أحدهم إلهه إلا في المسيحية على يد بولس، الذي قال: "المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا؛ لأنه مكتوب: ملعون كل من عُلِّق على خشبة". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣: ١٣). والحق أن بولس قد كفر بما جاء به المسيح عليه السلام، وأفشى عقائد غريبة في دينه، عاتبه عليها التلاميذ، وكفَّروا معتقداته، وأمروه بالتوبة وعدم العودة إلى هذا الكفر مرة أخرى، وأرسلوا إلى من أضلَّهم بولس، ليحذروهم من معتقداته الفاسدة، وهو أول من نادى بقتل المسيح عيسى ابن مريم وقيامته من الأموات، وهذا ما اعترف به كتابكم:

- فهل صِدْق الله ومجده يحتاجان إلى كتاب بولس؟!
- وهل عَجَزَ الرب عن نشر كلمته بالفضيلة والصدق؟
- وهل يعقل أن يلجأ الرب إلى الكذب والكذابين لنشر دينه بين الناس؟!
- وما حكمة الإله في أن يُوحِي إلى كذَّاب نشر رسالته وتعاليمه؟!
- وهل رضي الرب بكذب بولس ليكسب مزيدًا من الأتباع لدينه؟ أيخادع الرب عبيده؟! وما مصير من لم يخدعهم الرب ويُرْسِل إليهم كاذبًا لينقذهم؟!
- ألا يخشى ذلك الإله من تفشِّي الكذب والنفاق بين شعبه؟!
- وكيف أثق بهذا الإله الذي يرتكن إلى كاذب ومخادع لنشر رسالته؟!
- وهل سيحاسبنا الرب على الكذب يوم الحساب؟ كيف وهو ناشره؟!
- وما الفرق بين الشيطان والرب في هذه الصفة الرذيلة؟!
- ألم يكذب هو ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ بإعانته هذا الكاذب، وإرسال الوحي إليه؟!
- وكيف يأمر الله بما لا يفعله هو؟! أليست هذه حُجَّة عليه؟ أليس هذا من الظلم؟ ألم يقل في الناموس "لا تكذب"؟! فلماذا يُعين الكاذب ويوحي إليه؟!

عزيزي المسيحي:

إن بولس هو مخترع أسطورة صلب الإله فداء للبشرية في المسيحية، والتي علمت أنها أسطورة وثنية، والذي لعب بالكل ليربح الكل، وليكون شريكًا في الإنجيل: "فإني إذ كنت حرًّا من الجميع، استعبدتُ نفسي للجميع لأربح الأكثرين. فصِرْتُ لليهود كيهودي لأربح اليهود. وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس. وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أني لست بلا ناموس لله، بل تحت ناموس للمسيح لأربح الذين بلا ناموس.

www.kalemasawaa.com

صِرْتُ للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء. صرت للكل كل شيء، لأخلص على كل حال قومًا. وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل، لأكون شريكا فيه". (رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس الأولى ٩: ١٩ ـ ٢٣).

بولس هو الذي قرر أنه ليس له دين، ولن يؤمن، ولا يريد أن يعرف إلا دين صلب الإله وقيامته من الأموات: "وأنا لمَّا أتيتُ إليكم ـ أيها الإخوة ـ أتيت ليس بِسُمُوِّ الكلام أو الحكمة مناديًا لكم بشهادة الله، لأنِّي لم أعزم أن أعرف شيئًا بينكم إلَّا يسوع المسيح وإيَّاه مصلوبًا". (رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس الأولى ٢: ٢). ولن يقبل غيره حتى لو نزل إليه ملاك من السماء بما يخالف هذه الوثنية: "ولكن إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم، فليكن أناثيما". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ١: ٨).

لقد كان بولس كافرًا بما أنزل على عيسى عليه السلام وكان يضطهد تلاميذه وأتباعه، ثم ادعى فجأة أنه رأى عيسى عليه السلام في طريقه إلى دمشق، وتولى الدعوة إليه. فما مقدار صدق هذه الرواية؟ أين تلقى الرسالة وكيف تلقاها ؟ هل عصابته التي كانت معه ممكن أن تكون شاهدة عيان لما حدث[1]؟!

ثالثًا. نصوص الكتاب المقدس تبطل عقيدة الصلب والفداء:

يسوق الأستاذ علاء أبو بكر مجموعة من النصوص الإنجيلية التي يلحظ القارئ اضطرابها وقولها الصريح ببطلان عقيدة الصلب والفداء، وطريقنا في توضيح ذلك هو مسلك السؤال والجواب عنه على النحو التالي:

هل قبض اليهود على عيسى عليه السلام؟!

لا. وهذه هي إجابة عيسى عليه السلام نفسه، انظروا كيف وقف يتحدى اليهود علانية، قائلًا لهم: إنهم لن يتمكنوا منه، ولن يقبضوا عليه، وسيرفعه الله إلى مكان آمن، لا يستطيعون الوصول إليه: "سمع الفَرِّيسيُّون الجمع يتناجون بهذا من نحوه، فأرسل الفرِّيسيُّون ورؤساء الكهنة خُدَّامًا ليمسكوه. فقال لهم يسوع: أنا معكم زمانًا يسيرًا بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا". (يوحنا ٧: ٣٣، ٣٤).

إذن فقد أعلمهم عيسى عليه السلام أن الله سوف يتوفاه إليه، أي يستخلصه وينقذه منهم ويرفعه إليه. لكن هل يسوع هنا هو ابن الإنسان؟ لا. وإلا ما تكلَّم عنه بصيغة الغائب قائلًا: "متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذٍ تفهمون أني أنا هو". (يوحنا ٨: ٢٨).

لكن لماذا لا يكون يسوع هو ابن الإنسان؟ لاحظ أنها نبوءة أخبرهم بها! فلو كان يقصد نفسه، فما الحكمة إذًا من أن يعلمهم ذلك في مجال التبكيت، واللوم، والتحدي؟ وهل هذا منطق؟ هل من العقل أو من الكلام المفيد أن أقول لك: لو أنت أطلقت على النار ومت، فستعلم أن الميت هو أنا؟

وهل لو كان هو الذي علق على الصليب لكان إلهًا تافهًا كاذبًا، فقد تحدى اليهود، وأخبرهم أنه سيغلبهم، وسوف يغلب العالم كله، فهل بعد كلامه هذا تغلبه

١. إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، مصر، ٢٠٠٥م، ص٣٩ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

شرذمة قليلة من اليهود؟ ولا يمكن أيضًا أن يكون رسولًا؛ لأن الرسول لا يخبر إلا بالصدق، ويتكلم بما يوحى إليه، فكيف يتحداهم رسول الله، بناء على تعليمات من الإله، ثم يخدعه هذا الإله ويتركه يصلب؟

كما أنها نبوءة في المقام الأول، ولا بد أن تتحقق، وإلا كان نبيًّا كاذبًا وحاشاه. وعلى ذلك فإن الذي فهمه اليهود كان خطأ، وماتوا في خطيئتهم، وهم يؤمنون أنهم صلبوا رسول الله. ولو سلمتم أن يسوع هو ابن الإنسان هنا، لانتفت عنه صفة الألوهية، لقول الكتاب المقدس: "إن الله ليس كمثله أحد قط". أي: لا يشبهه إنسان ولا حيوان، ولا طائر، ولا أي كائن، ولقول الكتاب المقدس: "ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم". (العدد ٢٣: ١٩).

وبهذا التحدي يكون عيسى عليه السلام قد ضرب لليهود مثلًا يقترب في الإعجاز من قول الله عز وجل لأبي لهب: إنه سيموت كافرًا، وسيحشر إلى جهنم وبئس المصير هو وزوجته. وإلى أن ماتا كانا كافرين. وهو نفس ما قاله عيسى عليه السلام لليهود: إنهم سيؤمنون أنه ابن الإنسان الذي سيكون معلقًا على الصليب، ويموتون على هذا الفهم، وعلى هذه الخطَّية.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يحاول فيها اليهود قتل عيسى عليه السلام فقد سبقتها عدة محاولات، بَيْد أن عيسى عليه السلام نجح في الانفلات منهم، بما أعطاه الله من قدرة على التخفي، وإخفاء شخصيته وصوته وملامحه عن أقرب الناس إليه، وإليك مجموعة من محاولات اليهود:

- فقد أرادوا أن يقذفوه من فوق الجبل فمكَّنه الله من تغيير هيئته، وخرج من وسطهم وهم لم يعرفوه: "فامتلأ غضبًا جميع الذين في المجمع حين سمعوا هذا، فقاموا وأخرجوه خارج المدينة، وجاءوا به إلى حافَّة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيَّة عليه حتى يطرحوه إلى أسفل. أما هو فجاز في وسطهم ومضى". (لوقا ٤: ٢٨ ـ ٣٠).

- بل لم يعرفه سبعة من تلاميذه وخاصته: "بعد هذا أظهر أيضًا يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طَبَرِيَّة. ظهر هكذا: كان سمعان بطرس، وتوما الذي يقال له التوأم، ونثنائيل الذي من قانا الجليل، وابنا زَبْدِي، واثنان آخران من تلاميذه مع بعضهم. قال لهم سمعان بطرس: «أنا أذهب لأتصيد». قالوا له: «نذهب نحن أيضًا معك». فخرجوا ودخلوا السفينة للوقت. وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئًا. ولما كان الصبح، وقف يسوع على الشاطئ. ولكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون أنه يسوع. فقال لهم يسوع: «يا غلمان، ألعل عندكم إدامًا؟».[1] أجابوه: «لا!» فقال لهم: «ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا». فألقوا، ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك". (يوحنا ٢١: ١ ـ ٧).

- وكذلك لم يعرفه اليهود الذين كانوا يسمعونه في المعبد في كل حين، ولو كان بإمكان اليهود القبض عليه والتعرف عليه لفعلوا، ولكن تغيير صورته وشكله وصوته أشكل عليهم الأمر، مما اضطرهم للجوء لأحد تلاميذه ليرشدهم عليه.

---

١. الإدام: ما يُؤكل بالخبز، أو ما يُخلط معه لتطيبه.

www.kalemasawaa.com

لكن إذا كان عيسى عليه السلام قد مكَّنه الله من أن يخفي صورته وشكله وصوته، فما هي الحكمة من هذه المعجزة؟ فإن قلتم: إنه تعمد ذلك لفداء البشرية، لتناقض قولكم مع ما ثبت مع اجتهاد المسيح في الصلاة ليُذْهِب إلهه عنه كأس الموت!! ولكان يهوذا هو الرجل الجدير بالتقديس؛ لأنه في هذه الحالة سيكون الفادي الحقيقي لما تسمونه الخطيئة الأصلية[1].

إذن نخلص من هذه المقتطفات التي اقتطفناها من نصوص الكتاب المقدس إلى أن عيسى عليه السلام قد تحدى اليهود، وأعلمهم أنهم سيموتون في خطيتهم: أي على فهمهم الخاطئ، وعلى محاولتهم قتل نبي الله، ولن يمكنهم الله منه، أي: لن يقبضوا عليه ليصلبوه.

من الذي مات على الصليب؟

ويواصل الأستاذ علاء أبو بكر طرح أسئلته التي تُفنِّد مسألة الصلب قائلًا: يدعي النصارى باختلاف فرقهم أن عيسى عليه السلام هو الإله المتجسد مع اختلافهم في طبيعته: هل هو ذو طبيعة واحدة أم ذو طبيعتين؟ فسواء كان ابن الإله أو الإله الرئيسي، فهو في النهاية إله. والإله لا يموت باعتراف الكتاب!!

"انظروا الآن! أنا أنا هو. وليس إله معي. أنا أميت وأحيي". (التثنية ٣٢: ٣٩)، أما يسوع: "قال: قد أُكْمِل. ونكَّس رأسه وأَسْلَم الروح". (يوحنا ١٩: ٣٠). "إني أرفع إلى السماء يدي وأقول: حيٌّ أنا إلى الأبد". (التثنية ٣٢: ٤٠)، ولكن يسوع: "فصرخ يسوع أيضًا بصوت عظيم وأسلم الروح". (متى ٢٧: ٥٠).

فليس هو الله، وبما أنه ليس هو الله، فلا يوجد داعٍ لأن ينزل ويتجسَّد. وبما أنه ليس الله، فلا سلطان له لغفران الذنوب. وبما أنه لا سلطان له لغفران الذنوب، إذن فأسطورة الصلب والفداء من الوثنيات التي يحتويها الكتاب المقدس من الأديان الوثنية الأخرى.

إذن فقد أثبتنا في النقطة الثانية أن الذي مات على الصليب ليس هو عيسى عليه السلام، وهم يدعون أن عيسى هو الله، فلا بد أن الذي مات على الصليب شخص آخر غير يسوع.

ومن الضروري أن نثبت أن يسوع الذي يَدَّعون أنه صُلب ليس الله؛ لأنه سينفي من جانب آخر أنه لا ضرورة لنزول الإله وتجسده؛ لأنه أحب العالم وضحى بابنه من أجل الخطايا السابقة، كما يقول بولس مقتبس أسطورة الصلب والفداء من الأديان الوثنية القديمة: "ولكن الله بيَّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خُطاة، مات المسيح لأجلنا. فبالأولى كثيرًا ونحن متبرِّرون الآن بدمه نَخْلُص به من الغضب! لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيرًا ونحن مصالحون نخلص بحياته! وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضًا بالله، بربنا يسوع المسيح، الذي نِلْنا به الآن المصالحة. من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيَّة إلى العالم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس، إذ أخطأ الجميع. فإنه حتى الناموس كانت الخطية في العالم. على أن الخطية لا تحسب إن لم يكن ناموس. لكن قد ملَكَ الموتُ من آدم إلى موسى،

١. إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، علاء أبو بكر، مرجع سابق، ص٥ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

وذلك على الذين لم يخطئوا على شِبْه تعدِّي آدم، الذي هو مثال الآتي. ولكن ليس كالخطية هكذا أيضًا الهبة. لأنه إن كان بخطية واحد مات الكثيرون، فبالأولى كثيرًا نعمة الله، والعَطيَّة بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح، قد ازدادت للكثيرين! وليس كما بواحد قد أخطأ هكذا العطية. لأن الحكم من واحد للدينونة، وأما الهبة فمن جرى خطايا كثيرة للتبرير. لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد، فبالأولى كثيرًا الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر، سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح؛ فإذًا كما بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس، لتبرير الحياة. لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خُطاة، هكذا أيضًا بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبرارًا. وأما الناموس فدخل لكي تكثر الخطية. ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جدًّا. حتى كما ملكت الخطية في الموت، هكذا تملك النعمة بالبر، للحياة الأبدية، بيسوع المسيح ربنا". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٥: ٨ ـ ٢١).

"وأما الآن فقد ظهر برُّ الله بدون الناموس، مشهودًا له من الناموس والأنبياء، بر الله بالإيمان بيسوع المسيح، إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون. لأنه لا فرق. إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله، متبررين مجانًا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح، الذي قدَّمه الله كفارة بالإيمان بدَمِه، لإظهار برِّه، من أجل الصَّفْح عن الخطايا السالفة بإمهال الله". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٣: ٢١ ـ ٢٥).

إن لله صفات لا تغير، يقول الكتاب المقدس: "أنا الرب لا أتغير". (ملاخي٣: ٦). "فبمن تُشبِّهون الله؟ وأيّ شبه تُعادلون به"؟ (إشعياء ٤٠: ١٨). "لا مثل لك يا رب! عظيم أنت وعظيم اسمك في الجبروت". (إرمياء ١٠: ٦). فلا يمكن أن يكون الرب إنسان، ولا حيوان، ولا جماد، ولا نبات، ولا أي صورة يمكن الإنسان أن يتخيلها، فهو لا مثيل له، ليس كمثله شيء. وقد أكد الكتاب على هذه النقطة عدة مرات، حتى لا يلبس الشيطان على الناس أمر دينهم، فعندما طلب موسى من الله أن يراه: "قال: لا تَقْدِر أن ترى وجهي؛ لأن الإنسان لا يراني ويعيش". (الخروج ٣٣: ٢٠).

فكيف يكون عيسى عليه السلام هو الله. وهل الله له جسد، أو مولود من الجسد بالطبع تكون الإجابة بالنفي: لا، لأن "المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح". (يوحنا ٣: ٦). فهذا نفي قاطع من عيسى عليه السلام وتحذير أن يتخذه إنسان ما إله، لأنه مولود من جسد امرأة، فكان عظامًا ولحمًا.

أما الذين اتخذوا إنسانًا إلهًا وعبدوه بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة العقل، وعرفوا الإله الحقيقي الذي يُدين ولا يُدان، الحي الذي لا يُصلب ولا يموت، القدوس الذي لا يُهان، فهم من الأنجاس الخالدين في أتون النار: "لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كإله، بل حمقوا في أفكارهم، وأظلم قلبهم الغبي. وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء، وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذي يفنى، والطيور، والدواب، والزحافات. لذلك أسلمهم الله أيضًا في شهوات قلوبهم إلى النجاسة، لإهانة

www.kalemasawaa.com

أجسادهم بين ذواتهم. الذين استبدلوا حق الله بالكذب، واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق، الذي هو مبارك إلى الأبد. آمين. لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١: ٢١ ـ ٢٦).

ونكون في هذه النقطة قد أثبتنا أن عيسى عليه السلام ليس بإله، بل هو نبي أرسله الله إلى أمته، لا يملك غفران الذنوب، ولم يقل لبني إسرائيل: إنه قد جاء إليهم كإله، متجسدًا في صورة بشر لغفران الخطيئة الأزلية، كما أثبتنا أن الذي كان على الصليب لا يمكن أن يكون الله؛ لأن الله لا يموت، وفي ذلك تفنيد لأسطورة الصلب والفداء.

فالذي مات على الصليب فهذا أمر غير مهم بالنسبة لنا أو لكم، فبعض الكتب تقول: إنه يهوذا الخائن، وبعضها الآخر يقول: إنه لم يكن واحد من التلاميذ خائنًا، بل وافق يهوذا ـ وهو أصغر التلاميذ سنًّا ـ على أن يُلقي شبه عيسى عليه السلام عليه، ويلقي شبهه على عيسى عليه السلام، وأكد عليه هذا الطلب ثلاث مرات ووافق. وفريق الآخر يخمن أن الذي صُلِب هو سمعان القيرواني الذي كان يحمل الصليب. فلا يهمنا أن نعلم من الذي كان على الصليب. لكن جُلّ همنا هو: هل كان يسوع على الصليب أم لا؟

هل هناك شهود على صلبه؟

لا. فقد تركه كل تلاميذه وهربوا، بل إن حادثة الصلب والقيامة بها من التناقضات التي تضطر كل ذي عقل أن يرفضها. فعلى سبيل المثال:

- حدثت قصة العشاء الأخير، وتدليك يسوع بالطِّيب في بيت سمعان الأبرص عند مرقس ومتى: "وفيما هو في بيت عَنْيَا في بيت سمعان الأبرص، وهو مُتَّكِئ، جاءت امرأة معها قارورة طيب نارِدِين خالص كثير الثمن". (مرقس ١٤: ٣)، "وفيما كان يسوع في بيت عنيا في بيت سمعان الأبرص، تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن". (متى ٢٦: ٦، ٧)، بينما حدثت عند لوقا في بيت الفَرِّيسيِّ: "وسأله واحد من الفَرِّيسيِّين أن يأكل معه، فدخل بيت الفريسي واتَّكأ". (لوقا ٧: ٣٦)، إلا أنها حدثت في منزل مريم ومَرْثَا ولِعازَر في بيت عَنْيَا عند يوحنا: "ثم قبل الفصح بستة أيام أتى يسوع إلى بيت عنيا، حيث كان لعازر الميت الذي أقامه من الأموات. فصنعوا له هناك عشاء. وكانت مرثا تَخْدِم، وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه". (يوحنا ١٢: ١، ٢).

- حدثت واقعة تدليك يسوع بالطيب قبل عيد الفصح بيومين عند مرقس ومتى: "وكان الفِصْح وأيام الفطير بعد يومين". (مرقس ١٤: ١)، "تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح". (متى ٢٦: ٢)، بينما حدثت قبل الفصح بستة أيام عند يوحنا: "ثم قبل الفصح بستة أيام أتى يسوع إلى بيت عنيا". (يوحنا ١٢: ١)، وسكت عنها لوقا، ولكنه ذكرها قبل إرسال التلاميذ الإثني عشر.

- ثم سكب العطر على رأس يسوع عند مرقس ومتى: "فكَسَرَت القارورة وسَكَبَته على رأسه". (مرقس ١٤: ٤)، "فسكبته على رأسه وهو متكئ". (متى ٢٦: ٧)، إلا أنه عند لوقا ويوحنا دَهَنَت رجليه بالطيب: "ووقفت عند قدميه من ورائه باكية،

www.kalemasawaa.com

وابتدأت تَبُلُّ قدميه بالدموع، وكانت تمسحها بشعر رأسها، وتُقبِّل قدميه، وتدهنها بالطيب". (لوقا ٧: ٣٨)، "فأخذت مريم مَنًا من طِيْب نارِدِين خالص كثير الثمن، ودَهَنَت قَدَمَي يسوع، ومَسَحَت قدميه بشعرها، فامتلأ البيت من رائحة الطيب". (يوحنا ١٢: ٣).

• كان العشاء الأخير في اليوم الأول من الفطير عند مرقس ولوقا: "وفي اليوم الأول من الفطير. حين كانوا يذبحون الفصح، قال له تلاميذه:«أين تريد أن نمضي ونُعِدَّ لتأكل الفصح"؟ (مرقس ١٤: ١٢)، إلا أنه كان عند يوحنا بعد موت يسوع وقيامته: " ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية، وكان صبح. ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية لكي لا يتنجسوا، فيأكلون الفصح". (يوحنا ١٨: ٢٨).

ومن المعلوم أن وجود فكرة الخطيئة الأصلية ونزول الرب ليُصْلَب ليغفرها لتدل على أنه لم يوجد إنسان على وجه الأرض من الأبرار، ولا حتى من الأنبياء، والواقع أن الكتاب المقدس يؤكد عكس ذلك: فقد كان إبراهيم وإيليَّا وأَخْنُوخ ويوحنا المِعْمِدان، وأهل نِيْنَوى وغيرهم من الأبرار الذين أرضوا الرب بأعمالهم مع إيمانهم: "وبارك الرب إبراهيم في كل شيء". (التكوين ٢٤: ١)، "وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد؛ لأن الله أخذه". (التكوين ٥: ٢٤)، "الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه". (متى ١١: ١١)، إذا كان يوحنا من الأبرار، بل ومن أعظم من ولدتهم النساء، إذا فقد كان هناك عظماء آخرين، ومع ذلك فإن يوحنا أفضلهم، ويفضل الكل النبي الخاتم، أصغرهم فلا وجود إذًا للخطيئة الأزلية.

ومن العجيب أن تقرأ في الأناجيل نزول موسى وإيليَّا وظهورهم لعيسى عليه السلام، بل ورؤية التلاميذ لهما: "وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه، وصعد بهم إلى جبل عال منفردين. وتغيَّرت هيئته قُدَّامهم، وأضاء وجهه كالشمس، وصارت ثيابه بيضاء كالنور. وإذا موسى وإيليَّا قد ظهرا لهم يتكلمان معه. فجعل بطرس يقول ليسوع: يا رب، جيِّد أن نكون ههنا! فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظالَّ: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة". (متى ١٧: ١ـ ٤)، "وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا، وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وحدهم. وتغيَّرت هيئته قُدَّامهم، وصارت ثيابه تلمع بيضاء جدًّا كالثلج، لا يقدر قصار على الأرض أن يبيض مثل ذلك. وظهر لهم إيليا مع موسى، وكانا يتكلمان مع يسوع. فجعل بطرس يقول ليسوع: يا سيدي، جيد أن نكون ههنا. فلنصنع ثلاث مظالَّ: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة. لأنه لم يكن يعلم ما يتكلم به إذ كانوا مُرْتَعِبين". (مرقس ٩: ٢ ـ ٦). فإذا كانت هناك فرصة ما لتجلِّي الأنبياء ورجوعهم من الموت، فلماذا لم يتجلَّ آدم وحواء ليقتصَّ الله منهما بدلًا من ابنه أو نفسه® ؟

® في "اضطراب الأناجيل في تقرير الصلب والفداء" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

www.kalemasawaa.com

هل الإسلام هو أول من قال بعدم صلب عيسى عليه السلام؟

لا. لقد سبق الإسلام في نَفْي القول بصلب عيسى عليه السلام كثير من الطوائف المسيحية التي عاصرت عيسى عليه السلام وأحداث الصلب، أو اقتربت منه، وسمعت من شهود عيان، وهذه بعض فرق النصارى الأولين الذين آمنوا بعدم صلب عيسى عليه السلام: الباسيليديون، والباردیسيانية، والماينسية، والدوسيتية، والكورنثية، والساطريونسية، والمارسيونية، والبولسية، والماركيونية، والسيرنثية، والهرمسية، والكاربوكرايتة، والبارسكاليونية، والتايتانيسية، والفلنطانيائية، ومن ثم فليس الإسلام بدعًا فيما يقول بل جاء التصريح منهم أنفسهم.

رابعًا. عقيدة صلب المسيح باطلة بشهادة كثير من علماء النصارى:

هل صحيح أن المسيح قد صلب كما تزعم الكتب المقدسة؟!

إن كثيرًا من علماء النصارى ومحققيهم ينفون نفيًا قاطعًا وقوع الصلب على عيسى عليه السلام ومنهم أدوار سيوس في كتابه "عقيدة المسلمين"، ومنهم أرنست دي بولس في كتابه "النصرانية الحقة"، ومنهم ملمن في كتابه "تاريخ الديانة النصرانية"... إلخ.

أما دائرة المعارف الكبرى ـ التي اشترك في تأليفها قرابة (٥٠٠) من كبار العلماء والباحثين والمحققين ـ فقد أكدت وقوع التحريف والتزييف في الأناجيل، واعتبر مؤلفوها قصة الصلب وما فيها من تناقض وتعارض أحد الأدلة على ذلك، كما أكدوا أيضًا أن أصول تعاليم النصرانية مأخوذة من الوثنية والبوذية... ومن المحتمل جدًّا أن القبر الذي دفن فيه المصلوب قد نبش في اليوم الثالث، فلما اكتشف النابشون أن الجثة لغير عيسى عليه السلام سُقِطَ في أيديهم، فقرروا إخفاءها وأشاعوا أن عيسى قام من قبره في اليوم الثالث وصعد إلى السماء[1]!!

والحقيقة أن بولس اليهودي الماسوني العدوّ الأول للمسيح هو أصل كل ما حدث في النصرانية من أباطيل، وهو الذي اخترع قصة الصلب، واخترع دعوى ألوهية المسيح، وخرافة الفداء.

ولعل أكبر وثيقة تاريخية فضحت زيف الديانة النصرانية، وأثبتت بطلان معتقدات أتباعها هي إنجيل برنابا التي أثبتها العلماء قبل الإسلام بحوالي ٣٠٠ سنة، وقد قال فيها المستر تولاند العالم الإنكليزي الشهير الذي اطلع عليها سنة ١٧١٨م: "سأقول على النصرانية السلام"، كتب عنها في كتابه المسمى "الناصري"، واختتم تعليقه عليها بقوله: "إن مدّ النصرانية وقف منذ ذلك الحين"؛ أي: منذ ظهور النسخة الأولى من إنجيل برنابا.

كما قال: "إن المسيحية ستتلاشى تدريجيًّا حتى تنمحي من الوجود". وفي عهد البابا ستكس الخامس عثر الراهب فرامرينو بطريق المصادفة على نسخة من هذا الإنجيل في مكتبة الفاتيكان فسرقها، وطالعها بشوق عظيم، فكانت سببًا في اعتناقه الإسلام!!

وقد زعم بعض النصارى أن هذا الإنجيل من

---

١. قصة الهداية، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م، ج١، ص٣٧٥.

www.kalemasawaa.com

وضع المسلمين، و هذا يكذبه المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس الأول، والذي يتضمن بيان الكتب التي يَحْرُم، قراءتها وكان من بينها إنجيل برنابا، وكان صدور هذا المنشور في أواخر القرن الخامس الميلادي؛ أي: قبل بعثة النبي محمد ﷺ بحوالي مائة عام.

وهذا الإنجيل يؤكد تأكيدًا جازمًا وقوع الصلب على يهوذا دون غيره، كما ينفي نفيًا قاطعًا تأليه عيسى عليه السلام، بل يؤكد نبوته، وأنه مخلوق لله، يخضع للنواميس التي يخضع لها سائر البشر؛ كما يبشر برسالة محمد ﷺ تصريحًا لا تلميحًا!!

وبرنابا هذا هو أحد الحواريين (أنصار عيسى عليه السلام) وهو متفق مع بطرس رئيس الحواريين على نفي تأليه عيسى، وهو أول من حكم بكفر بولس اليهودي الذي اخترع فكرة تأليه المسيح، وقد صرح بذلك في أول صفحة من إنجيله.

وثمة دليل آخر على كذب الزاعمين بصلب المسيح عليه السلام: يروى أنه دخل على المنذر الثالث ـ أحد ملوك الحيرة ـ جماعة من الأساقفة في محاولة لتنصيره، وذلك في عام ٥١٣م، وفي أثناء مناقشته حول صلب المسيح عليه السلام ودعوى ألوهيته دخل عليه قائد شرطته، وأسرّ له بشيء، فتظاهر الملك بالتأثر وأخذ يضرب كفًّا بكف ويقول: يا له من خبر سيئ! ثم التفت إلى رئيس الأساقفة وقال له: لقد أخبرني قائد شرطتي أن رئيس الملائكة قد مات، فانتفض الأسقف مذعورًا، وقال له: هذا محال يا مولاي، لقد غشَّك من أخبرك بهذا الخبر؛ فإن الملائكة مخلدون يستحيل عليهم الفناء. فضحك الملك وقال له: إذا كانت الملائكة لا تموت، فكيف تريد مني أن أُصدِّق بموت من تزعمون أنه خلقهم ـ وهو المسيح عليه السلام ـ ثم أمر بطردهم وإخراجهم من البلاد؛ لسخفهم، وتناقضهم مع أنفسهم!!

نعم إذا كان المسيح عيسى عليه السلام قد صلب كما يزعمون فأين كان الآب، وهو الله عند صلبه؟ ولماذا ترك ولده رهين القتل والعذاب؟! أعن عجز؟! فالمتصف بالعجز لا يكون إلهًا!!. أعن قدرة؟ فلماذا تخلى عن نصرته؟!

الخلاصة:

- العدالة الإلهية تقتضي أن يحاسب كل إنسان على عمله فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، فكيف يخطئ آدم فيحاسب عيسى ؟!! وهل من العدل أن يخطئ إنسان فيحاسب إنسان آخر؟! وهل من العدل أن يرث البشر خطأ عن أبيهم آدم لم يقترفوه؟! علمًا بأن الله أخبرنا ـ بما لا يدع مجالًا للشك ـ بأنه تاب على آدم عليه السلام.
- عقيدة الفداء والصلب عقيدة وثنية اقتبسها النصارى من الديانات الوثنية المنتشرة، في بقاع العالم من مثل: ديانة مثرا الفارسية التي انتقلت إلى الدولة الرومانية واقترنت بعبادة إيزوريس المصرية. وديانة بَعْل البابلية التي انتقلت إلى شمال الهلال الخصيب ودان بها الكنعانيون، وديانة الهندوس التي تقول بالصلب والفداء، وتخليص البشرية من الذنوب والخطايا بالصلب والفداء لصاحب الديانة دائمًا مثل بوذا وغيره.
- عقيدة صلب المسيح باطلة بنصوص الكتاب المقدس وشهادة كثير من علماء النصارى ومحققيهم.

www.kalemasawaa.com

• إن بولس اليهودي الماسوني العدو الأول للمسيح عليه السلام هو أصل كل الأباطيل في النصرانية وهو الذي اخترع قصة الصلب، ودعوى ألوهية المسيح، وخرافة الفداء. وتناقض الأناجيل فيما بينها حول رواية صلب المسيح فداءً للبشر يهدم صحة هذه الروايات؛ ولأن القرآن الكريم قد حسم الخلاف بين الأناجيل حول قضية توارث الخطيئة، وأكد بطلانها من أساسها، فقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة).

الشبهة الرابعة والتسعون

ادِّعاء أن القرآن والإنجيل يثبتان أفضلية المسيح عليه السلام على محمد ﷺ (*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم والإنجيل يثبتان أفضلية المسيح عليه السلام على محمد ﷺ، ويستدلون على زعمهم بما يأتي:

• أن عيسى عليه السلام ابن الله، وأن محمدًا ﷺ بشر، ويستندون في ذلك إلى عبارة: "أني قلت: إنِّي ابن الله".

• أن يسوع أجرى المعجزات، وأن محمدًا ﷺ لم تُؤْثَر عنه أية معجزة، ويستندون في دعواهم إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩).

• أن عيسى عليه السلام يعلم الغيب: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٩)، وأن محمدًا ﷺ لا علم - بحال - له به: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

• أن عيسى عليه السلام يشفع في خطايا العالم كله، وأن محمدًا ﷺ لا يشفع، ولا تقبل منه الشفاعة، ويستدلون بقول الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠).

• أن المسيح عليه السلام دعا للمحبة والسلام، وأن محمدًا ﷺ سنَّ لأمته الإرهاب، ويستندون في ادِّعائهم إلى قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأنفال).

وجوه إبطال الشبهة:

١) المفاضلة الصحيحة بين اثنين تكون في نص واحد، لا في نصين متباينين، من حيث صحة المعنى وصحة التوثيق، وعبارة: "أني قلت: إني ابن الله" مقابلة ومعارضة بتصريحات الأناجيل المتكررة بأن عيسى عليه السلام "ابن الإنسان"؛ فكيف يَقْوى الإنجيل على محاجَّة القرآن وهو متناقض ينقض بعضه بعضًا، فمرة يقول هو: "ابن الله"، ومرة يقول: "ابن الإنسان".

٢) المسيح عليه السلام لم يفعل المعجزات استقلالًا، ولكن الله أجراها على يديه تصديقًا له، ولقد أيَّد الله

(*) الإسلام بدون حجاب، أبو عبد الله العربي، د. م، د. ن، د. ت.

® في "فضل عيسى على محمد بثبوت الحياة الأبدية له" طالع: الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

www.kalemasawaa.com

تعالى محمدًا ﷺ بالمعجزات المبهرة، وأعظمها معجزة القرآن، والمقصود بالآيات الممتنع إرسالها إلى محمد عليه السلام هي ـ فقط ـ الآيات المقترحة من المشركين.

٣) إن علم الغيب هو بيد الله ﷻ لا يظهر عليه أحد إلا من ارتضى من رسول مرسل أو ملك مقرب، وما اطلع عليه عيسى عليه السلام من أمر الغيب هو من هذا القبيل، وهو ليس بدْعًا من الرسل، فنبينا محمد ﷺ أيضًا ممن أطلعه الله ﷻ على أمور غيبية، وقوله ﷻ على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ (الأعراف:١٨٨) لا تفيد نفي علم الغيب عن نبينا محمد ﷺ.

٤) إن الشفاعة التي يزعمها هؤلاء النصارى لعيسى عليه السلام شفاعة أوحى بها فكرهم الباطل وعقلهم الضال ومنطقهم الفاسد، ليبيحوا لأنفسهم فعل المنكرات واستحلال المحرمات، وبلغ من حُمْقهم أن أجازوها ـ أي: الشفاعة ـ للناس برُمَّتِهم المؤمنين منهم بعيسى عليه السلام وغير المؤمنين به.

٥) ما نسب ولُفِّق للمسيح عليه السلام من دعوته للسلم في الأحوال كلها مهانة ومذلَّة، لا يرضاها ذو مروءة وكرامة ـ فضلًا عن نبي مرسل ـ فالأمر إذا اقتضى القتال فالعفو فيه تهاون وخِذْلان، وتحريض النبي ﷺ للمؤمنين على القتال من هذا الباب.

التفصيل:

أولا. المفاضلة الصحيحة بين اثنين تكون في نص واحد، لا في نصين متباينين:

على من أراد المفاضلة بين اثنين مفاضلة صحيحة، أن يفاضل بينهما في نصٍّ واحد، أما أن يفاضل بعضهم بين النبي ﷺ في القرآن، وعيسى في الإنجيل، فأمر لا يجوز؛ ذلك أننا لا نؤمن بأن الكتاب المقدس الحالي بعهديه وحي من عند الله، ولا النصارى أنفسهم يقولون: إنَّه وحي منزل، بل هو مكتوب بأيدي من نسب إليهم؛ وعليه فالمفاضلة ليست صحيحة.

أما عبارة: "أني قلت: إني ابن الله" فهي مناقضة ومعارضة بتصريحات الأناجيل المتكررة بأن عيسى عليه السلام "ابن الإنسان": "فإني الحق أقول لكم: لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان". (متى ١٠: ٢٣)، "فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وحينئذ يجازى كل واحد حسب عمله. الحق أقول لكم: إن من القيام ههنا قومًا لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيًا في ملكوته". (متى: ١٧: ٤٠)، "وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء. وكما رفع موسى الحيَّة في البَرِّيَّة هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان". (يوحنا ٣: ١٣، ١٤).

وعقلاء النصارى يدركون أن معتقد بني دينهم أن الله ثلاثة ـ الآب، والابن، والروح القدس ـ باطل، وأنه إله واحد، وكون عيسى ابن الله على الحقيقة لم يرد في كلام عيسى، وأن التعبير بـ "ابن الله" تعبير مجازي، كما جاء أن الجميع أبناء الله، يقول د. نظمي لوقا: "ولم يرد على لسان المسيح في أقواله الواردة في بشارات حواريه ـ الأناجيل ـ إشارة إلى شيء من ذلك "التثليث النصراني"، بل كان يدعو نفسه على الدوام بـ "ابن الإنسان"، أما البنوة لله ﷻ فما ورد لها ذكر إلا على سبيل المجاز المطلق، وبمعنى يشمل البشر كافة، حين أوصى أن تكون صلاة

www.kalemasawaa.com

الناس إلى الله بادئة بقولهم: "أبانا الذي في السماوات، ليتقدَّس اسمك". (متى ٦: ٩)، وحين طالب أتباعه وجميع الناس أن يسلكوا طريق البِرِّ؛ كي يكونوا جديرين بنسبتهم إلى الله: "أحبوا أعداءكم. باركوا لاعِنِيكُم. أحسنوا إلى مبغِضِيكم، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات". (متى ٥: ٤٤، ٤٥)[1].

وبناء على ما سبق، فلا فرق بين ما صرحت به الأناجيل في شأن عيسى من أنه ابن الإنسان، وبين النبي محمد ﷺ ومجيء القرآن الكريم مصرحًا بأنه بشر؛ فالأنبياء جميعًا بشر أرسلهم الله إلى البشر، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ (الأنبياء: ٧)، وقال جل شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠) بشر بكامل خواص البشرية.

ثانيًا. المسيح لم يفعل المعجزات استقلالا، ولكن الله ﷻ أجراها على يديه تصديقًا له، كما أن الله أيّد محمدًا ﷺ بالمعجزات المبهرة، وأعظمها معجزة القرآن:

من يزعمون أن يسوع أجرى المعجزات، مستدلين بنصِّ الأناجيل: "عمل كل شيء حسنًا، جعل الصُّمَّ يسمعون، والخُرْس يتكلمون". (مرقس ٧: ٣٧)، وأن محمدًا ﷺ لم يُجْرِ المعجزات، مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء)، متخذين ذلك دليلًا على تفضيل عيسى عليه السلام على محمد ﷺ زعم باطل وقول متهافت.

نعم إن الله ﷻ أجرى المعجزات على يد نبيه عيسى ابن مريم عليه السلام تصديقًا له، ولا ينكر ذلك المسلمون، والقرآن الكريم يذكر ذلك في الآيات، قال الله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ (آل عمران).

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ (المائدة)، ولكنه لم يفعلها استقلالًا، وإنما هي من فعل الله تعالى، أظهرها على يدي عيسى عليه السلام، وإذا نسبت إليه في القرآن، أو في الإنجيل، فهي نسبة مجازية، كما ينسب الشيء الواحد إلى أكثر من ذات، حسب دور كل من نُسِب إليه، فينسب إلى فاعله الأصلي، وينسب إلى من

١. محمد الرسالة والرسول، نظمي لوقا، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م، ص٤١.

www.kalemasawaa.com

باشره، وينسب إلى من تسبب فيه... إلخ.

كما نسب الله ﷻ التوفي إلى الله، وإلى ملك الموت، فعيسى عليه السلام يمسح بيده على الأبرص، فيعقب هذا المسح أن يبرئه الله ﷻ من هذا الداء، وينفخ فيما شكَّله من الطين، فيعقب هذا النفخ أن يوجد الله ﷻ الحياة، فنسب هذا وذاك إلى عيسى باعتباره متسببًا.

وأما نفي المعجزات عن النبي محمد ﷺ بحجة قوله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩)؛ فليس المراد بالآيات التي امتنع الله من إرسالها مطلق المعجزات التي تؤيد الرسول في صدقه ودعواه النبوة، ولكن المراد الآيات التي يقترحها المشركون، فالله ﷻ لم يُلَبِّ ما طلبوه؛ لأن من سبقهم من الأمم طلبوا من رسلهم آيات، وجاءتهم الآيات بناء على ما طلبوا، فما ازدادوا إلا تكذيبًا، كما حدث من بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام، وكما حدث من عادٍ وثمود، فإن من طلب الآيات وجاءته، واستمر على التكذيب هلك، فالمقصود بالآيات الممتنع إرسالها الآيات المقترحة، لا مطلق الآيات.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن يُنحِّي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني[1] بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهْلِكوا كما أهلكت من قبلهم، قال: لا، بل أستأني بهم، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ (الإسراء) [2].

وقد أيَّد الله تعالى نبيه ﷺ بالمعجزات الباهرات، وأعظمها معجزة القرآن الكريم، تلك المعجزة التي تخاطب العقول وتستحوذ على القلوب، وهي معجزة باقية صالحة للأمم جميعًا، ولمستويات الناس كافة أبد الدهر، وما زال القرآن الكريم يثبت لأولي العلم كل يوم أنه وحي من الله، وليس من عند بشر، وأنه الذي بلغه رسول الله للناس، هذا فضلًا عن معجزاته ﷺ الأخرى التي جرت على يديه، منها ما أثبته القرآن الكريم، ومنها ما جاء في سنته، فمن معجزاته في القرآن الكريم معجزة الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر، وإخباره بالغيب بجميع أنواعه: الماضي، والحاضر، والمستقبل، وما أكثر ما جاء في السُّنَّة من معجزات، كنبع الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع، وتكثير الطعام القليل[3].

ثالثًا. الذي يعلم الغيب ويعلم ما في القلوب هو علام الغيوب ﷻ وحده دون غيره:

ينسب بعضهم علم الغيب إلى عيسى عليه السلام وذلك استنادًا إلى عبارة جاءت في العهد الجديد تقول: "فستعرف جميع الكنائس أني أنا هو الفاحص للكُلَى

---

١. تَسْتَأْني: تتمهَّل.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس رضي الله عنهما (٢٣٣٣)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٣. سُبُل الهُدَى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٩، ص٥٥٥: ٦١٨، ج١٠، ص١٣: ٩٠٠. دلائل النبوة، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٥٧: ١٦٤.

www.kalemasawaa.com

والقلوب، وسأعطي كل واحد منكم بحسب أعماله". (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢: ٢٣). وينفي علم الغيب عن النبي ﷺ استنادًا إلى قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، وقوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ (الأنعام: ٥٠).

وللجواب عن هذا نقول: لا نُسلِّم بأن عيسى عليه السلام يقول مثل هذا الكلام، فهو ليس إلهًا ولا ابن إله، حتى يوحي إلى يوحنا بهذا الكلام، وإذا كان عيسى عليه السلام سيكلِّف يوحنا برسالة إلى الكنائس كما جاء في مستهل رؤيا اللاهوتي، فإنما يكلفه بأن يدعو الناس إلى عبادة الإله الواحد، ومتى كانت الكُلَى موضع أسرار؟! على أي حال، إن الذي يعلم ما في القلوب هو علام الغيوب ﷻ وحده دون غيره.

وأما قول الله على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ (الأنعام: ٥٠) فهذا حق لا ريب فيه، فلا النبي محمد ﷺ يعلم الغيب من تلقاء نفسه، ولا غيره من البشر، ولكن النبي إذا عَلِمَ، وظهر له من الغيب شيئًا، فإنما بتعليم الله له، قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن)، وقد أظهر الله ﷻ لنبيه من الغيب ما كان آية على صدقه، فقال تبارك وتعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾ (الروم)، ولو لم يتحقق ما جرى على لسان النبي ﷺ ونبوءته بهذا الحدث الكبير في هذه الأمة العظمى ـ وهو حدث ترقبه العالم آنذاك ـ لكذَّب الناس بالقرآن وما صدقه أحد، وهناك الكثير من الأحداث التي أخبرت بالغيب جاءت على لسان رسول الله في سنته؛ كإخباره بعلامات الساعة: "أن تلد الأَمَةُ رَبَّتَها، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رُعاة الشاء يتطاولون في البنيان"[1]. وقد تحققت هذه الأخبار وغيرها، مما يثبت صدقه ﷺ.

ولو افترضنا ـ جدلًا ـ أن عيسى عليه السلام قال هذا الكلام، فليس معنى ذلك أنه يعلم الغيب بل يكون علمه بأمور جزئية أعلمها الله له لتقع في المستقبل للدلالة على نبوته، كما أخبر النبي محمد ﷺ عن أمور كثيرة تقع في المستقبل ووقعت بالفعل، مثل فتن وملاحم آخر الزمان، وعلامات الساعة، والإعجاز العلمي الذي أخبر به القرآن والسنة، وما زال يقع ويتحقق حتى اليوم.

رابعًا. دليلهم على شفاعة عيسى للخطايا يتعارض مع العقل والواقع النصراني نفسه، وقد نفى الله ﷻ شفاعة محمد ﷺ في المنافقين:

في هذه المقارنة يثبتون الشفاعة لعيسى، وينفونها عن محمد ﷺ، ففي حق عيسى عليه السلام جاء في إنجيل يوحنا: "أنا قد جئت نورًا إلى العالم، حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة. وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه؛ لأني لم آتِ لأَدِين العالم بل لأُخلِّص العالم". (يوحنا ١٢: ٤٦، ٤٧). وفي حق محمد ﷺ يستشهدون بقوله ﷻ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر (١٠٢).

www.kalemasawaa.com

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠).

أمَّا ما جعلوه دليلًا على شفاعة عيسى عليه السلام لخطاياهم، وخطايا كل العالم، فهو يتعارض مع العقل والواقع النصراني نفسه؛ حيث إن شفاعة عيسى عليه السلام للخطايا تعدُّ تحريضًا على ارتكاب كل الرذائل والمنكرات، ما دام المسيح يشفع لكم بمجرد أن تؤمنوا بأنه المخلِّص، فهل ترضون ـ معاشر القساوسة ـ لأتباعكم أن يرتكبوا كل المنكرات باسم شفاعة عيسى عليه السلام وتكفيره لخطاياكم؟! وما جدوى مواعظكم في بني دينكم إذا كان الأمر كذلك؟

لقد فهم المسيحيون في الغرب الأمر على هذا الوجه، إنهم يستبيحون لأنفسهم كل الشهوات الدنيوية بلا حدود على اعتبار أن هذا حق الجسد من المتعة، ويكفيهم من أمر الآخرة أن المسيح مخلِّص لهم!

وأعجب من ذلك حينما يُعَمِّمُون القاعدة في حق العالم جميعًا، حتى من لم يؤمن بالمسيح ـ على طريقتهم ـ فهل تكفر خطايا جميع العالم بشفاعة المسيح من آمن به، ومن لم يؤمن به؟!

إذن فليفسد العالم، ولينتشر الفسق والفجور ما دام المسيح سيشفع للعالم عن خطاياه في نهاية الأمر!

أما الآية التي استدلوا بها على نفي شفاعة نبينا محمد ﷺ، فهي واردة في حقِّ المنافقين، وهم قوم أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، والنفاق أشرس أنواع الكفر، وأخطر من الكفر الصريح، فحق عليهم ألا يغفر لهم، وهذا إخبار من الله لنبيه، ما لم يكن يعلمه في شأنهم.

وصدق الله ﷻ القائل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ (النساء).

إن الشفاعة لا تكون إلا لمن آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ومن آمن فإنَّ إيمانه حتمًا سيدفعه إلى شيء من العمل، فيتداركه الله بشفاعة الشافعين في بعض ما قصَّر بمنِّه وكرمه®.

خامسًا. ما نُسبَ ولُفِّق للمسيح عليه السلام من دعوته للسِّلْم في كل الأحوال مهانة ومذلة، لا يرضاها ذو مروءة وكرامة، فضلا عن نبي مرسل، فالأمر إذا اقتضى القتال فالعفو فيه تهاون وخِذْلان:

وهذه المفاضلة تدخل ضمن ترويج اتهام الإسلام بالإرهاب، وأنه انتشر بالسيف، وأن النبي ﷺ سَنَّ لأمته الإرهاب، فكانوا إرهابيين، أما المسيحية فهي دعوة للمحبة والسلام. ويستدلون على منع يسوع أتباعه من استعمال السيف بقوله: "رد سيفك إلى مكانه؛ لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون". (متى ٢٦: ٥٢) وبقوله: "سمعتم أن قيل: عينٌ بعينٍ، وسنٌّ بسنٍّ، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدِّك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضًا". (متى ٥: ٣٨، ٣٩).

أما مُحَمَّد ﷺ فقد حث أتباعه على استعمال السيف قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ (الأنفال: ٦٥)، وهذه مغالطة ومناقضة، فهم لا

® في "الشفاعة وصلتها بمفهوم التواكل" طالع: الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

www.kalemasawaa.com

ينقلون عن المسيح قوله: "لا تظنُّوا أنِّي جئت لأُلقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا، بل سيفًا، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنَّة ضد حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته، من أحب أبًا أو أمًّا أكثر منِّي فلا يستحقني". (متى ١٠: ٣٤: ٣٧).

"لكن المسيحية اضطرت في القرن الرابع ـ أي بعد أن أصبح لها دولة تحت قيادة الإمبراطور قسطنطين ـ أن تستأصل شأفة الوثنية من المملكة الرومانية بالحديد والنار؛ ثم لما حصلت الكنيسة على السلطة الزمنية، جعلت الحرب من وسائلها، فاتخذت الجيوش والأساطيل.. وهل يغيب عن ذاكرة أحد.. الحروب الصليبية أو ما ورد في الكتاب المقدس من أوامر بالقتل، والتدمير، والقهر، والاستئصال لسكان المدائن التي اختُصَّ بها بنو إسرائيل دون أهلها الأصليين"[١].

فكيف يلتقي هذا مع ما استدلوا به من ترك السيف؟! فإما أن يكون النصَّان متناقضين، وإما أن تكون تعاليم المسيح مثل تعاليم النبي ﷺ في هذا الأمر، وإن أخطئوا في تصويرها؛ فيكون العفو في موضعه، والقتال في موضعه، فإذا كان الأمر يقتضي قتالًا لعدوٍّ معتدٍ باطش جبار؛ فالعفو هنا تهاون وفتنة في الدين، ومهانة لدين الله وتابعيه، وإن كان العفو عند القدرة يقود إلى تذوق سماحة الإسلام؛ للانقياد له فهو عفو مطلوب.

لكن هذه المهانة والمذلَّة التي تَقَوَّلوها على السيد المسيح لا يرضاها ذو مروءة وكرامة فضلًا عن نبي مرسل، فَمَنْ من العقلاء إذا لطمه شخص على خده حوَّل له خده الآخر، ليلطمه بدل اللطمة لطمتين؟! وهل يرضى مسيحي بهذا من مسيحي مثله فضلًا عمن يخالفه في الدِّين؟! هل عمل بهذا مسيحي في تاريخهم؟ كم لطموا الأبرياء بغير حق لطمات تلوثت بها أيديهم، وتلوثت بها صفحات التاريخ الذي كتب مآسيهم®.

الخلاصة:

- من أراد أن يفاضل بين اثنين مفاضلة صحيحة، فلا بد أن يفاضل بينهما في نصٍّ واحد، لا في نصين متباينين، فهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بنبيه، والإنجيل الذي بين أيديهم نحن لا نؤمن بأنه وحي من عند الله. وعبارة: "أني قلت إني ابن الله" مقابلة ومعارضة بتصريحات الأناجيل بأن عيسى عليه السلام ابن الإنسان، وعقلاء النصارى أنفسهم يعتقدون أن معتقد بني دينهم بأن الله ثلاثة ـ الأب، والابن، والروح ـ باطل؛ لأنه إله واحد.
- لم يفعل المسيح المعجزات استقلالًا، وإنما هي من فعل الله تعالى، أظهرها على يديه تصديقًا له، ونسبتها إليه نسبة مجازية، كما ينسب الشيء الواحد إلى أكثر من ذات، كما نسب التوفي إلى الله، وإلى ملك الموت.

---

١. الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م، ص١٨١، ١٨٢.

® في "**انتشار الإسلام بحد السيف**" طالع: الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي١). وفي "**موقف الشرع الإسلامي من الاغتيال والإرهاب**" طالع: الشبهة السادسة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

www.kalemasawaa.com

• إن الآيات التي امتنع الله من إرسالها ليس مطلق المعجزات التي تؤيد الرسول في صدقه ودعواه النبوة، ولكن المراد هنا الآيات التي يطلبها المشركون، ولقد أيَّد الله محمدًا ﷺ بالمعجزات المبهرة، وأعظمها معجزة القرآن الكريم.

• إن الذي يعلم الغيب ويعلم ما في القلوب هو الله ﷻ علام الغيوب وحده دون غيره، وعيسى عليه السلام ليس إلهًا ولا ابن إله حتى يوحي إلى أحد. والنبي ﷺ لا يعلم الغيب ـ حقًّا ـ من تلقاء نفسه، ولا غيره من البشر، ولكن الله ﷻ أظهر لنبيه ﷺ من الغيب ما كان آية على صدقه، كإخباره ﷺ بعلامات الساعة، والتنبؤ بانتصار الروم وغيرهما.

• شفاعة عيسى عليه السلام في الخطايا تتعارض مع العقل والواقع النصراني؛ حيث إنها تحرِّض على ارتكاب كل الرذائل والمنكرات، بحيث لا تجدي مواعظ القساوسة في بني دينهم، والآية التي استدلوا بها على نفي شفاعة محمد ﷺ واردة في حقِّ المنافقين.

• ما نُسب ولُفِّق للمسيح عليه السلام من دعوة للسلم وإلقاء السيف في كل الأحوال مهانة ومذلة لا يرضاها ذو مروءة وكرامة فضلًا عن نبي مرسل، فالعفو يوضع في موضعه والقتال في موضعه، فإذا كان الأمر يقتضي قتالًا لعدوٍّ باطش فالعفو هنا تهاون، وفتنة في الدين، وتاريخ المسيحية المليء بالدم والحروب والمذابح خير شاهد ـ في الماضي والحاضر ـ على خطأ هذا التلفيق، وكذلك نصوص الكتاب المقدس التي تأمر صراحة بالقتل والإبادة والتدمير.

الشبهة الخامسة والتسعون

توهُّم وقوع النقص والخلل في القرآن الكريم؛ لعدم إشارته إلى كتب بعض الأنبياء والرسل(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم كتاب ناقص ـ حاشا لله تعالى أن يكون كذلك ـ وبه خلل؛ حيث إنه لم يُشِر إلى كثير من كتب الأنبياء والرسل المذكورين فيه، والمقدَّر عددهم بخمسة وعشرين نبيًّا سوى داود، وموسى، وعيسى، وإبراهيم ـ عليهم السلام ـ. ثم ماذا عن عشرات الأنبياء الذين لم يتعرض القرآن الكريم إلى ذكر قصصهم ولا قصص أقوامهم من قريب أو بعيد؟ ويتساءلون قائلين: ألا يتناقض هذا النقص والخلل مع ما يدعيه المسلمون من إعجاز القرآن وكماله؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) إن القرآن الكريم سلك مسلك الإيجاز البليغ في قصِّ قصص بعض الأنبياء والرسل؛ لأخذ العبرة والأسوة الحسنة من حياتهم، فكان القصد الاعتبار بنهجهم في الدعوة، لا الإخبار بجميع الرسل وإحصاء كتبهم؛ لأنه أمر متعذر، فمن ذُكر يُغني عمن لم يُذكر.

٢) لا يُعاب القرآن الكريم في عدم تفصيله الحديث عن بعض الأنبياء وأممهم، فما ذُكِر فيه من قصصهم فيه الكفاية لتحصيل العبرة في الخير والشر، والترغيب والترهيب.

(*) موقع جودت سعيد. www.jawdatsaid.net

www.kalemasawaa.com

التفصيل:

أولا. لقد سلك القرآن مسلك الإيجاز والاختصار في ذكر قصص بعض الأنبياء؛ لأن القصد من ذكرها أخذ العبرة والعظة:

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن الأمر ليس موقوفًا على ما أتى به المعترضون، بل الأمر أبعد من ذلك، فنجد القرآن الكريم يقول: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ (النساء).

فهناك أنبياء ورسل لم يقصص الحق ﷻ خبرهم على نبيه ﷺ وليس في ذلك أي مطعن في القرآن الكريم؛ حيث إن الحق ﷻ أوجب على المسلمين الإيمان بهم على سبيل الإجمال، كما ينبئ عنه قوله ﷻ: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ (البقرة). أي ما قصَّه وما لم يقصَّه؛ فهناك من الأنبياء من آتاهم الله كتبًا كداود عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (النساء: ١٦٣). وإبراهيم وموسى عليهم السلام: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ (الأعلى). وعيسى عليه السلام: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (المائدة).

فالحق ﷻ لم يخبر نبيه عمَّا إذا كان قد آتى البعض الآخر كتبًا، أم لا؛ كيوسف، ويعقوب، وإسماعيل، وإسحاق، ويونس، وإلياس، واليسع ـ عليهم السلام ـ وليس في هذا ما يقدح في رسالتهم، فقد أخبر القرآن عن نهجهم في الحياة تجاه الدعوة وتوحيد الله ﷻ. ولا بد أن يفهم أن القرآن كتاب هداية، وأنه الأصل الأول للدين، وأنه لم يزعم أحد من قبل نبيًّا كان أو تابعًا له أنه جاء ليلخص لنا الديانات السابقة[1].

ثانيًا: القرآن لا يُعاب في عدم ذكره بعض الأنبياء، فما ذكره فيه الكفاية لتحصيل العِبْرة:

يقول الله تعالى في ذكره الحكيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ٧٨). ويوضح لنا الشيخ الطاهر ابن عاشور ـ عند تفسيره هذه الآية ـ الحكمة من عدم ذكر جميع الأنبياء وقصصهم في القرآن الكريم قائلًا: "لقد بعث الله رسلًا وأنبياء لا يعلم عددهم إلا الله تعالى؛ لأن منهم من أعلم الله بهم نبيه ﷺ، ومنهم من لم يعمله بهم، إذ لا كمال في الإعلام بمن لم يعلمه بهم، والذين أعلمه بهم منهم من له قصة في القرآن، ومنهم من أعلمه بهم وحيٌ غير القرآن، فورد ذكر بعضهم في الآثار الصحيحة بتعيين أو بدون تعيين، فورد في الحديث: "أن نبيًّا لسَعَته نملة فأحرق قريتها فعُوتِب في ذلك"[2]، ولا يكاد الناس يحصون عددهم لتباعد

---

١. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٩ وما بعدها.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق (٢٨٥٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل (٥٩٨٦).

www.kalemasawaa.com

أزمانهم وتكاثر أممهم وتقاصي أقطارهم مما لا تحيط به علوم الناس، ولا تستطيع إحصاءه أقلام المؤرخين وأخبار القصَّاصين، وقد حصل من العلم ببعضهم وبعض أممهم ما فيه كفاية لتحصيل العبرة في الخير والشر، والترغيب والترهيب.

ولقد جاء في القرآن الكريم تسمية خمسة عشر رسولًا وهم: نوح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى، وهارون، وعيسى، ويونس، ومحمد، واثنا عشر نبيًّا وهم: آدم، وداود، وسليمان، وأيوب، وزكريا، ويحيى، وإلياس، واليسع، وإدريس، وذو الكفل، وذو القرنين، ولقمان، وورد بالإجمال دون تسمية صاحب موسى المسمى في السنة الخضر، ونبي بني إسرائيل وهو صموئيل، وتُبَّع.

وليس المسلمون مطالبين بأن يعلموا غير محمد ﷺ، ولكن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن بصريح وصف النبوّة يجب الإيمان بنبوتهم لمن قرأ الآيات التي ذكروا فيها، وعدّتهم خمسة وعشرون بين رسول ونبي، ولقد اشتمل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (الأنعام) على أسماء ثمانية عشر منهم، وذكر أسماء سبعة آخرين في آيات أخرى، ولا يجب الإيمان إلا بوقوع الرسالة والنبوة على الإجمال[1].

وهكذا نجد القرآن الكريم يعرض ظاهرة الأنبياء نموذجًا موحدًا، فهم يشتركون في خصائص معينة لا يجوز أن نفرق بينهم فيها. فمن هذا الجانب يفرض القرآن على أتباعه أن يؤمنوا بجميع الأنبياء في آيات عديدة، فمثلًا يقول الله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ (البقرة).

ويقول ﷻ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ (البقرة).

ويقول الله ﷻ: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (آل عمران).

ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ١١، ج٢٤، ص٢١٠، ٢١١ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

لِّلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ (النساء)[1].

الخلاصة:

- لقد سلك القرآن في ذكر قصص الأنبياء مسلك الإيجاز والاختصار؛ وذلك لأن الهدف منها أخذ العبرة والأسوة والاعتبار بنهجهم في الدعوة.
- وعلى هذا فقد أرسل الله رسلًا لا يعلم عددهم إلا الله، والمطلوب منا هو الإيمان بهؤلاء الرسل وعدم التفريق بينهم لأن منهم من قصَّ الله ﷻ قصته، ومنهم من لم يذكر الله ﷻ حكايته قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ٧٨)، وهذا من حكمة القرآن في الإرشاد فما كان فيه فائدة من ذِكْرِه ذَكَرَه، وما لم يكن لم يذكره.

الشبهة السادسة والتسعون

الزعم أن القرآن لا يُراعي الفوارق الزمنية بين الأنبياء والرسل(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن لا يراعي الفوارق الزمنية بين الأنبياء ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنعام)، فأيوب بن أموص بن أسباط عيص بن إسحاق، ويتساءلون: أين أيوب من عصر إبراهيم وإسحاق والد إسرائيل ـ عليهم السلام ـ في أرض فلسطين؟ وأين أموص والد النبي أشعياء من أيوب؟

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم كتاب هداية، وليس كتاب تاريخ، فهو يركز على مواطن العبرة ليؤدي رسالته.

٢) كلام المفسرين والمؤرخين ليس حُجَّة؛ لأنه كلام بشر، وكلٌّ يؤخذ من كلامه ويُرَد إلا النبي ﷺ.

٣) الترتيب لا يكون في كل الأحوال ترتيبًا زمنيًّا فقط، فإذا دعت دواعي العبرة نظم بين بعض الوقائع المتفرقة والأسماء التي عاشت على مراحل متباعدة في سلك واحد، فإن هذا يحقق الهدف القرآني.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم كتاب هداية، وليس كتاب تاريخ:

فلا ينتظر منه أن يسرد تاريخًا ووقائع متتابعة، فهو يركز على مواطن العبرة ليؤدي رسالته، وهي هداية الناس؛ ولذلك حينما يلقي القرآن الضوء على الأنبياء، فإنه لا يلزم أن يذكرهم في تسلسل زمني، بقدر ما يلزم أن يصل إلى هدفه، وهو هداية الناس: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ (الإسراء). وبناءً على ذلك فإذا دعت دواعي العبرة نظم بعض الوقائع المتفرقة، والأسماء التي عاشت على فترات متباعدة في

---

١. الإسلام بدون حجاب، أبو عبد الله العربي، د. م، د. ن، د. ت.

(*) موقع المعرفة.

www.kalemasawaa.com

سلك واحد فإن هذا يحقق الهدف القرآني.

ثانيًا. كلام المفسرين والمؤرخين ليس حجة؛ لأنه كلام بشر، وكلٌّ يؤخذ من كلامه ويرد إلا النبي ﷺ:

كيف يذكر القرآن الأنبياء والرسل مرتبين ترتيبًا زمنيًّا وتاريخيًّا، وبعثتهم كانت متفرقة الزمان والمكان؟! فكان لكل نبي زمان معين، ومكان معين حسب مقتضى كل زمان ومكان وما يحتاجه، فالله ﷻ لم يبعثهم عبثًا، بل كان لكل نبي زمان، ولكل نبي مكان ابتعثه الله إلى أهل هذا المكان، فكيف يغفل القوم عن هذه النقطة ويطالبون القرآن بأن يذكرهم مراعيًا الفوارق الزمنية أو المكانية؟!

ولذلك فإن كلام البيضاوي لا يكون حجة على القرآن، وكذلك فإن القرآن حينما ذكر أيوب في جملة هؤلاء الأنبياء، لم يكن ذكره من أجل الإشارة إلى الناحية التاريخية أو الزمنية، بقدر ما كان يفيد المقصد والهدف القرآني من خلال ذكر هؤلاء الأنبياء، لبيان فضلهم للناس، وشرف أصلهم كما ورد في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أنه حال. وفائدة الحال التنويه بهؤلاء المعدودين بشرف أصلهم وبأصل فضلهم، والتنويه بإبراهيم أو بنوح بفضائل ذريته، والضمير المضاف إليه عائد إلى نوح لا إلى إبراهيم؛ لأن نوحًا أقرب مذكور[1]. وفي هذا إشارة إلى أن القرآن الكريم كان يقصد ذكرهم من جملة من شرفهم؛ لأنه لما ذَكَر سبحانه إنعامه على خليله من جهة الفرع، ثنَّى بذكر إنعامه عليه من جهة الأصل، فإن شرف الوالد سارٍ إلى الولد[2]. ولا يلزم ذلك أن ذكرهم مرتبين ترتيبًا زمنيًّا وتاريخيًّا، بل يَذكر ما يفيد المقام.

ثالثًا. الله ﷻ لم يبعث الأنبياء عبثًا، بل كان لكل نبي زمان ومكان:

العطف في الآية موطن الشاهد عند المتوهمين بالواو، وهي لا تفيد الترتيب، كما أن الترتيب لا يكون في كل الأحوال ترتيبًا زمنيًّا فقط، ولكنه قد يكون ترتيبًا في الفضل، وقد يكون ترتيبًا في الخصائص، والمزايا التي أكرم الله بها أنبياءه ورسله، وقد لمس هذا المعنى الإمام الرازي في تفسيره فقال: عندي فيه وجه من وجوه الترتيب؛ وذلك لأنه ﷻ خصَّ كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل.

فأول المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق: الملك، والسلطان، والقدرة، والله ﷻ قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيبًا عظيمًا.

المرتبة الثانية: البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وقد خصَّ الله أيوب بهذه المرتبة والخاصية.

المرتبة الثالثة: من كان مستجمعًا لهاتين الحالتين، وهو يوسف عليه السلام فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر.

المرتبة الرابعة: من فضائل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين، والمهابة العظيمة... وتخصيص الله ﷻ إياهم بالتقريب العظيم، والتكريم التام، وذلك كان في حق موسى وهارون عليهما السلام.

---

١. التفسير الوسيط، د. سيد طنطاوي، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط٤، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧م، ج٥، ص١٦٣.

٢. روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

www.kalemasawaa.com

المرتبة الخامسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وذلك كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ـ عليهم السلام ـ، ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين.

المرتبة السادسة: الأنبياء الذين لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع، وهم: إسماعيل واليسع ويونس ولوط ـ عليهم السلام ـ.

فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بحسب هذا الوجه الذي شرحناه[1].

الخلاصة:

- إن ما جاء في القرآن الكريم من قصص ووقائع حقٌّ لا ريب فيه، ومطابقة أخبار القرآن الكريم للواقع ـ أيًّا كان هذا الواقع ـ ماضيًا أو مستقبلًا حقٌّ لاريب فيه، ولقد توصّل العقلاء والعلماء عن طريق مناهج البحث العلمي الصحيحة إلى أن ما جاء في القرآن الكريم من تاريخ وأخبار؛ مطابق للواقع وذلك خير دليل على صدقه.
- إن القرآن الكريم كتاب هداية وليس كتاب تاريخ، وبناء على ذلك، فإذا دعت دواعي العبرة نظم بعض الوقائع المتفرقة والأسماء التي عاشت في فترات متباعدة في سلك واحد، فإن هذا يحقق الهدف القرآني.

١. انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

الشبهة السابعة والتسعون

الزعم أنه لا حكمة من إرسال الرسل والأنبياء(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أنه ليس هناك حكمة تُلمس من اختيار الرسل، كما أنه لا فائدة من إرسالهم، ويستدلون على ذلك بأن الله ﷻ قد خلق البشر على الفطرة السمحاء السليمة، كما أنه سوَّى بين البشر في كل شيء، ويتساءلون: ما الحكمة من إرسال الرسل؟! وعلى أي أساس تم اختيارهم؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الله ﷻ حكيم في أفعاله خبير باختياره، فلا يعقل أن تنفي الحكمة من إرسال الرسل؛ لأنها واضحة جلية لكل ذي بصيرة، فضلًا عن أنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

٢) الإنسانية في حاجة إلى الرسل والرسالات؛ ذلك لأن العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر، كما أن هناك بعض الأمور الغيبية التي لا يمكن معرفتها إلا عن طريق الوحي.

٣) الأنبياء والرسل هم السفراء بين الله وبين عباده؛ لذلك كانوا من البشر، إذ إن السفير لا بد أن يكون ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه.

٤) اقتضت حكمة الباري ﷻ أن يبعث إلى الخلائق الأنبياء الكرام، والرسل الأخيار؛ ليقطع على الناس معاذيرهم، ولئلا يبقى لإنسان حجة عند الله

(*) أسئلة بلا أجوبة، موقع نادي الفكر.

www.nadyelfiker.net
www.kalemasawaa.com

يوم القيامة، ولهؤلاء الرسل وظائف جليلة ومهام جسيمة.

٥) الرسل لم يركنوا إلى اختيار الله لهم فعمدوا إلى الراحة والاسترخاء، ولكنهم ضربوا المثل الأعلى في كل ميادين الجهاد والعمل والخير، فكانوا منارات الهدى وأعلام الاقتداء.

التفصيل:

أولا. الله ﷻ حكيم في أفعاله خبير باختياره، قال تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنبياء)، **وقال ﷻ:** ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص: ٦٨):

إن أفعال الله ﷻ وتدابيره في خلقه لا تخلو من حكمة، فهو الحكيم الخبير بشأن الرسل والرسالات؛ قال ردًّا على المعترضين على مثل ذلك: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (الأنعام). وعدم إدراكنا للحكمة لا ينفيها، ومهام النبوة والرسالة لا يقوم بها إلا أفذاذ الرجال، فمن خلال استقراء سيرهم، ومعرفة قصص كفاحهم وجهادهم نجد الواحد منهم جاهد وأوذي فصبر واحتمل، فعند النظر إلى كل نبي مرسل نجد أنه بعد إعلان الحق بمفرده، يعلنها كلمة مدوية على الملأ، والكل ضده يناصبه العداء، فلا يلين ولا يضعف، ولا يتراجع عن دعوته.

وإذا كان الله قد اختار رسله، واجتباهم فليس اختياره ﷻ اختيارًا عشوائيًّا ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولكنه اختيار حكيم، فهم وحدهم المؤهلون لحمل هذه المهام الجسام، والله تبارك وتعالى يصطفيهم، ويقيهم ويعدهم الإعداد الروحي والعقلي، والنفسي، والجسدي، والخلقي، الذي يتناسب مع المهام التي تنتظرهم، قال الله تبارك وتعالى في حق نبيه موسى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ (طه). وقال: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (طه). وقال ﷻ: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (ص).

ثانيًا. الإنسانية في حاجة إلى الرسل والرسالات؛ ذلك لأن العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر، ولا لمعرفة بعض الأمور الغيبية:

لم تخل أمة ذات شأن من رسالة كما قال: ﷻ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (فاطر). ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (النحل). والرسالات ضرورية للبشر، لا يغني عنها العقل؛ ذلك أن العقل وحده لا يستطيع أن يلم بكل حاجات الإنسان في حياته، فطاقته على الرغم من قوتها ضعيفة، ومجاله على الرغم من اتساعه محدود، وهو لا يملك من القوة ما يستطيع أن يكبح به جماح الشهوات، أو يصمد

www.kalemasawaa.com

أمام المغريات، وإلى جانب قصوره وضعفه لا يعلم ما سلف به الدهر، ولا ما يخبئه المستقبل، بل لا يستطيع أن يحدد ما يخفيه الغيب الذي ليس له وسيلة إلا السمع والوحي الذي يحمله الرسل.

ومن هنا كانت الرسالة رحمة لجميع بني الإنسان، تكمل نقصهم، وتقوي ضعفهم، وتصحح مفاهيمهم. وهؤلاء الرسل الذين اختارهم الله لهداية الخلق هم الصفوة الممتازة من عباده، كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ (الحج). وقال بعد ذكر الجماعة من الأنبياء: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ (ص).

وكان الرسل مصطفين أخيارًا؛ لأنهم حملة أكرم رسالة، ولا يليق بأكرم الرسالات إلا أكرم البشر، ولأنهم في مقام القادة الهداة، ولا يتصدر القوم إلا أكملهم وأرفعهم في هذه المهمة بالذات، ومن هنا قال العلماء: يجب أن يتصف الرسل بأربع صفات أساسية هي: الصدق والأمانة والتبليغ والفطنة.

لا بد للرسل أن يكونوا صادقين، في دعوى الرسالة، وفيما يبلغون، وليس أدل على صدقهم من تأييد الله لهم بالمعجزات التي هي بمثابة قوله ﷻ: "صدق عبدي فيما يبلغ عني"، ولو جاز عليهم الكذب، لكان تأييد الله لهم عبثًا وهو منزه عن ذلك، ولكان هناك تناقض مع حكمة إرسالهم وهو الهداية إلى الخير، والتناقض في أفعال الله محال. ومع صدق الرسل فهم أمناء ملتزمون بأوامر الله سبحانه، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولو لم يكونوا كذلك لسلب الله عنهم شرف الاصطفاء الذي ما كان ليعطيهم إياه لولا علمه بجدارتهم وأهليتهم له، وقد أجمع العلماء على عصمة الرسل الكرام من الزيغ في العقيدة، والانحراف عن الفطرة السوية، حتى قبل أن يحظوا بشرف الرسالة، كما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (الأنبياء).

ولا تقع منهم كبيرة حتى لا تهتز ثقة الناس بهم، بل ونجلهم عن الصغائر التي لا تليق بمقامهم، فقربهم من الله يجعل مقاييس سلوكهم أشد دقة وأقوى ضبطًا، وما كان من تصرف يغيب ظاهره عن إدراك حكمته فهو من باب "حسنات الأبرار سيئات المقربين"[1].

ثالثًا. الأنبياء والرسل هم السفراء بين الله وبين عباده؛ لذلك كانوا من البشر، حيث إن السفير لا بد أن يكون ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه:

لو كان الرسل من الملائكة لما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم، ولكان للناس حجة في عدم الاتباع للرسل، وهو أن يقولوا: هؤلاء الذين بعثهم الله إلينا، وأمرنا باتباعهم ليسوا من جنسنا. ليسوا بشرًا إنما هم ملائكة، وطبيعتنا تختلف عن طبيعتهم، فهم أسمى منا خُلُقًا، وأطهر منا عملًا، وأكرم مقامًا؛ لأن الملائكة الأطهار- كما أخبر عنهم رب العزة -: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (التحريم)، وأنهم دائمًا في عبادة لا ينقطعون عنها أبدًا: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأنبياء).

---

١. المصطفون الأخيار، عطية صقر، مرجع سابق، ص٨، ٩.

www.kalemasawaa.com

ثم إن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وليس فيهم شهوة أو ميل إلى المعصية؛ لأنهم عباد مكرمون. ومن ناحية أخرى لو كان الرسول الذي يبعث إلى الخلق مَلَكًا ما استطاع البشر أن يأخذوا عنه، أو يجتمعوا به؛ لأنه إن جاءهم بصورة ملكية فزعوا وصُعِقوا وولوا الأدبار هربًا وفزعًا منه؛ لأنهم لم يعهدوا مثل هذه الصورة، ولم يروا مثل هذا الخَلْق العظيم.

وجاء أن رسول الله ﷺ قال: "بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحِراء جاءني على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت، فقلت: زملوني زملوني، فأنزل ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ (المدثر)"[1].

ولو جاءهم بصورة بشرية ـ أي: تمثَّل لهم الملك بصورة إنسان ـ لشكّوا في أمره، والتبس عليهم الحال، هل هو ملك أو هو بشر؟

وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعنى في معرض الرد على المشركين، حين طلبوا أن يكون النبي المرسل من الملائكة لا من البشر، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ (الأنعام).

ومعنى الآية الكريمة: لو جعلنا النبي ملكًا كما اقترحوا لجعلناه في صورة رجل من البشر، ليمكن اجتماعهم به وأخذهم عنه، وحينئذٍ يلتبس عليهم الأمر، هل هو ملك أو بشر؟ فيشكون في أمره، ويعودون إلى سيرتهم الأولى في طلبهم أن يكون النبي من الملائكة. قال العلامة القرطبي في تفسيره لقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾، أي أنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يألف بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله ﷻ الرسول إلى البشر ملكًا لنفروا من مقابلته، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعم المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به، ويسكنوا إليه، لقالوا: لست ملكًا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم، حيث كانوا يقولون عن محمد ﷺ: إنه بشر، وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسون على الناس بهذا الشك ويشككونهم، فأعلمهم الله ﷻ أنه لو أنزل ملكًا في صورة رجل لوجدوا سبيلًا إلى اللبس ـ الشك ـ كما يفعلون[2].

وقد ذكر ﷻ في آية كريمة أخرى الحكمة من كون النبي من البشر، لا من الملائكة؛ وذلك أن المرسل ينبغي أن يكون من جنس المرسل إليهم. فلو كان الذين يسكنون الأرض من الملائكة لبعث الله إليهم نبيا ملكًا، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، بدء الوحي على رسول الله ﷺ (٤٢٥)، واللفظ للبخاري.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٦، ص٣٩٣، ٣٩٤.

www.kalemasawaa.com

إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (الإسراء)[1].

رابعًا. اقتضت حكمة الباري ﷻ أن يبعث إلى الخلائق الأنبياء الكرام، والرسل الأخيار؛ ليقطع على الناس معاذيرهم، ولئلا يبقى لإنسان حجة عند الله يوم القيامة:

لهؤلاء الرسل وظائف جليلة ومهمات جسيمة، وهي كما وضحها القرآن ما يلي:

١. **دعوة الخلق إلى عبادة الواحد القهار:** وهذه ـ في الحقيقة ـ هي الوظيفة الأساسية، بل هي المهمة الكبرى التي بعث من أجلها الرسل الكرام، وهي تعريف الخلق بالخالق والإيمان بوحدانيته، وتخصيص العبادة له دون سواه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء)، وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ (النحل: ٣٦).

٢. **تبليغ أوامر الله ﷻ ونواهيه إلى البشر:** فالأوامر الإلهية لا بد لها من مُبلِّغ، ولا بد أن يكون هذا المبلِّغ من البشر ليمكن الأخذ عنه، ولهذا فقد اختار الله ﷻ الرسل من البشر، للحكمة السابقة التي ذكرناها، وقد أدى الرسل الكرام هذه الوظيفة على أكمل الوجوه، فلم يتأخر واحد منهم عن تبليغ دعوة الله، وفيهم يقول القرآن الكريم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ (الأحزاب).

وقد جعل الله تعالى علامة الرسول تبليغ الرسالة، وخاطب سيد الأنبياء بقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (المائدة).

٣. **هداية الناس وإرشادهم إلى الصراط المستقيم:** وهذه الوظيفة مهمة كل رسول، كما قال الله تبارك وتعالى في شأن نبيه موسى عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ (إبراهيم).

وكما قال في شأن خاتم الرسل عليه السلام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأحزاب).

٤. **ليكون الرسل قدوة حسنة، وأسوة صالحة للبشر:** فالرسل الكرام ـ عليهم من الله أفضل الصلاة والتسليم ـ هم القدوة الحسنة والأسوة الصالحة لجميع البشر، وقد أمرنا الله تعالى بالاقتداء بهم، والسير على منهاجهم، وجعلهم نماذج للكمال، وعنوانًا للفضل؛ لأنهم أكمل الناس عقلًا وأطهرهم سلوكًا، وأشرفهم رتبة ومنزلة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب)، وقال ﷻ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ

---

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٩: ٢١.

www.kalemasawaa.com

﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠).

٥. التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال: قال الله ﷻ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ (الأنعام).

٦. تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية: فلقد بعث الله الرسل الكرام؛ ليحولوا أنظار البشر من هذه الحياة الزائلة إلى تلك الحياة الباقية الخالدة وهي الدار الآخرة، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنعام)، وكما قال جل ثناؤه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ (الحديد).

٧. إقامة الحجة على الخلق: فلا يبقى لإنسان حجة عند الله، كما قال ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥)[1].

لقد أثّر الأنبياء والرسل في المجتمعات التي ولدوا فيها، والأمم التي بُعثوا إليها، ونتج عن هذا التأثير تغيير في مفاهيم هذه الأمم وعقائدهم التي نُشِّئوا عليها، فقد انتقلوا بهم من الظلمات إلى النور، وأخرجوهم من الضلالة إلى الهدى. فكانت دعوة الأنبياء إنقاذًا للأمم من براثن الشرك والفوضى والاضطراب.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ (البقرة).

فأشارت هذه الآية إلى أن الناس كانوا على الهدى وعلى دين الحق، ولكنهم اختلفوا وتنازعوا وأفسدوا في الأرض، وحادوا عن الطريق القويم، فبعث الله تعالى لهم النبيين مبشرين ومنذرين، وجاء عن ابن عباس ﷺ أنه قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق. فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين، وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة"[2].

وأوضح الله ﷻ الغاية من بعثة الرسل، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥).

كما جعل كل رسول منقذًا لقومه من ظلمات الجهل والضلالة فقال الله جلت عظمته: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

---

١. المرجع السابق، ص٢٣: ٢٥.

٢. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم عسق (٣٦٥٣)، وصحح الحاكم إسناده وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

www.kalemasawaa.com

إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ (إبراهيم)[1]. لقد أرسل الله رسلًا حدد مهمتهم، وبيَّن حكمة إرسالهم في قوله ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء).

خامسًا. الرسل لم يركنوا إلى اختيار الله لهم فعمدوا إلى الراحة والاسترخاء، ولكنهم ضربوا المثل الأعلى في كل ميادين الجهاد والعمل والخير:

إن الرسل ـ عليهم السلام ـ لم يركنوا إلى أن الله تعالى اختارهم من بين خلقه فعمدوا إلى الراحة والاسترخاء، ولكنهم ضربوا المثل الأعلى في كل ميدان من ميادين الجهاد والعمل والخير، قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنبياء).

والله ﷻ لم يهبهم النبوة محاباة أو مجاملة، ولكنه حمَّلهم من الأمانة والأعباء ما لا يقوم به إلا أمثالهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الأنبياء). ووضعهم الله تبارك وتعالى ـ جميعًا ـ أمام مسئولياتهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الأنبياء).

وهم يخضعون للحساب والمساءلة كغيرهم من البشر: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ (الأعراف).

ونقول لهؤلاء: لو اختار قائد الجيش عددًا من ضباطه وجنوده لمهام قتالية متميزة، لَمَا وجد فيهم من حُسْن السيرة، واللياقة البدنية، ودفع بهم إلى مراكز التدريب ليزدادوا كفاءة على كفاءتهم، أكان لبقية الجند أن يحتجوا على ذلك؟! وصدق الله إذ يقول: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء).

الخلاصة:

- أفعال الله ﷻ واختياراته لا تخلو من حكمة، فهو ﷻ الحكيم الخبير، وعدم إدراكنا للحكمة لا ينفيها.
- الإنسانية في حاجة إلى الرسل والرسالات؛ وذلك لأن العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر، كما أن هناك بعض الأمور الغيبية التي لا يمكن أن يعرفها الإنسان إلا بالوحي أو عن طريق الشرع: كالإيمان بالله، وبصفاته العليّة، والإيمان بالملائكة؛ لذلك لم تخلُ أمة ذات شأن من رسالة، ومن هنا كانت الرسالة رحمة بالإنسان.
- الأنبياء والرسل هم السفراء بين الله وبين عباده، ولا بد للسفير أن يكون ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه، ولو كان الرسل من غير البشر لما استطاعوا أن يأخذوا عنهم أو يجتمعوا بهم.
- اقتضت حكمة الباري ﷻ أن يبعث إلى الخلائق رسلًا أخيارًا، ليقطع على الناس معاذيرهم، ولهؤلاء الرسل وظائف جليلة ومهمات

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص٧٢٧.

www.kalemasawaa.com

جسيمة منها:

- دعوة الخلق إلى عبادة الواحد القهار.
- تبليغ أوامر الله ﷻ ونواهيه إلى البشر.
- هداية الناس وإرشادهم إلى الصراط المستقيم.
- أن يكونوا قدوة حسنة، وأسوة صالحة للبشر.
- التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال.
- تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية.
- إقامة الحجة على الخلق فلا يبقى لإنسان حجة عند الله.
- تغيير مفاهيم الأمم الباطلة، وعقائدهم الفاسدة التي نشئوا عليها.

• الأنبياء والرسل ضربوا المثل الأعلى في كل ميدان من ميادين الجهاد والعمل والخير، كما أنهم يخضعون للحساب والمساءلة كغيرهم من الناس.

الشبهة الثامنة والتسعون

ادعاء تناقض القرآن حول تفضيل بعض الرسل على بعض (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن في القرآن الكريم تناقضًا حول مسألة تفضيل بعض الرسل الكرام على بعض، مستدلين على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣). وقوله ﷻ: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥). كما يزعمون أن المسلمين يتعصبون لنبيهم، ويفرقون بينه وبين سائر الأنبياء، ويستدلون على ذلك بقول المسلمين عن أي نبي غير نبيهم: عليه السلام، ويقولون عن نبيهم: صلى الله عليه وسلم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لا تناقض بين آيات القرآن الكريم؛ لأن هناك فرقًا كبيرًا بين التفضيل بين الأنبياء والتفريق بينهم، فالتفاضل بين الأنبياء جائز؛ لأنهم متفاوتون في درجاتهم وقربهم من الله، أما التفريق فيعني الإيمان ببعضهم دون بعض.

٢) لقد جعل الله الأنبياء درجات، وفضل بعضهم على بعض، وحق التفضيل هذا له وحده لا للمسلمين ولا لغيرهم.

٣) المسلمون لا يتعصبون لنبيهم ﷺ، ولكنهم يفضلون من فضله الله تعالى، وصيغة الصلاة والسلام على النبي إنما هي امتثال لأمر الله تعالى، ولم يبتدعها المسلمون من عند أنفسهم.

التفصيل:

أولا. لا تناقض بين آيات القرآن الكريم؛ لأن هناك فرقًا كبيرًا بين التفضيل بين الأنبياء والتفريق بينهم:

إن المتأمل قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وقوله ﷻ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن

(*) بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

www.kalemasawaa.com

رُسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) لا يجد هذا التناقض الذي يدعيه هؤلاء، فقوله ﷻ: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ إخبار أن الله ﷻ فضل بعض النبيين على بعض، فالتفضيل من الله وليس من غيره، فقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ﴾استئناف مشعر بالترقي: ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ بأن خصصنا بعضهم بمنقبة ليست لبعضهم الآخر.

وقيل: المراد التفضيل بالشرائع، فمنهم من شَرَّع ومنهم من لم يُشرِّع، وقيل: هو تفضيل بالدرجات الأخروية، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾تفصيل للتفضيل المذكور، وهذا التفضيل كان لموسى عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ أي: ومنهم من رفعه الله ﷻ على غيره من الرسل بمراتب متباعدة ومن وجوه متعددة، وتغيير الأسلوب لترتيب ما بينهم من اختلاف الحال في درجات الشرف.

إذن فهناك تفاوت بين الرسل ـ عليهم السلام ـ كتفاوتهم في قدمهم في الجهاد، والصبر على المحن والبلاء، ومتفاوتون في أعمارهم التي أفنوها في سبيل الله تعالى، فالتفضيل حسب جهد كل واحد منهم، وجهاده في الدعوة إلى دين الله، وتحمل المشاق والبلاء في سبيلها، كأولي العزم من الرسل، وليس التفضيل محاباة من الله ﷻ لأحد.

إذن فقد شاء الله ﷻ أن يكون الرسل والأنبياء الذين بعثهم على مر العصور متفاوتين في درجاتهم وقربهم من الله ﷻ.. والجامع المشترك بينهم أنهم جميعًا مؤيَّدون بالوحي من الله ﷻ، وأن على الناس أن يؤمنوا بهم جميعًا، أي: أن يؤمنوا بأنهم رسل أرسلوا إلى أقوامهم، وأنهم جميعًا بعثوا بعقيدة واحدة[1].

أما قوله ﷻ: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) فإن المراد بالتفريق بين الرسل هنا هو أن يؤمن الإنسان ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما فعل أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ حيث آمنوا برسالة بعض الأنبياء، وكفروا برسالة آخرين، ففرقوا بين الرسل، وقد وضح الله ﷻ هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ (النساء)[2].

إذن فليس المراد من النهي عن التفريق بين الرسل في القرآن هو النهي عن التفضيل بينهم؛ لأنه هناك فرق كبير بين التفريق بين الرسل والتفضيل بينهم؛ وعليه فيجوز التفضيل بين الأنبياء، ولكن لا يجوز بحال من الأحوال التفريق بينهم في الإسلام®.

ثانيًا. لقد جعل الله الأنبياء درجات، وفضل بعضهم على بعض، وحق التفضيل هذا لله وحده:

إن المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله،

---

١. لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧م، ص١٢٢.

٢. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٨ بتصرف.

® في "شمول إيمان المسلمين لجميع الأنبياء" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة والخمسين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد إليها).

www.kalemasawaa.com

وليست بمعلومة عند البشر، والتفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلًا، وهذا مفضولًا، لا العلم ببعضها، أو بأكثرها، أو بأقلها، فإن ذلك تفضيل بالجهل، وإقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له، وهو ممنوع منه، فلو فرضنا أنه لم يرد إلا في القرآن إخبارنا بأن الله فضل بعض أنبيائه على بعض ـ لم يكن فيه دليل على أنه يجوز للبشر أن يفاضلوا بين الأنبياء، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك؛ حيث يقول النبي ﷺ: "لا تفضلوا بين أنبياء الله".[١]

وجاء أن عفريتًا تفلَّت على النبي ﷺ ليقطع عليه الصلاة، وبعد زجره عِدَّة مرات أمكنه الله منه، وأراد أن يربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى ينظر إليه جميع الصحابة، فقال: "ثم ذكرت قول أخي سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ (ص:٣٥).[٢] وقال ﷺ: "لا ينبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى"[٣]. والقرآن يخبر أن الله فضل بعض الأنبياء على بعض، ويبين أن الإيمان بهم يكون بلا تفضيل؛ لأنهم جميعًا أنبياء الله ﷻ.

على أننا نريد أن ننبه أن نهي النبي ﷺ أصحابه ﷺ والمسلمين من بعدهم عن التفضيل بين الأنبياء في هذه الأحاديث، إنما هو التفضيل القائم على الحَمِيَّة والعصبية والانتقاص، أو التفضيل الذي يمكن أن يؤدي إلى خصومة أو فتنة بين المسلمين وأهل الكتاب، وعليه فهذا النهي ليس مطلقًا ولا يتعارض مع آيات القرآن التي جاء فيها ذكر لتفضيل بعض الأنبياء على بعض، فمن الثابت أن هؤلاء الأنبياء الأطهار ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة، بل بعضهم أفضل من بعض، وقد جعلهم الله ﷻ درجات، فأفضل الرسل هم أولو العزم، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فمنهم من فُضِّل بتكليم الله مباشرة؛ مثل موسى ﷺ على جبل الطور، ومحمد ﷺ في ليلة المعراج، قال الله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

قال المفسرون: أراد تعالى بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ محمدًا ﷺ؛ لأنه بُعث إلى الأحمر والأسود، أي: العرب والعجم، وظهرت على يديه المعجزات الكثيرة، وأُحِلَّت له الغنائم، ولم تُحَلَّ لأحد قبله، وليس أحد من الأنبياء أُعطي فضيلة أو كرامة إلا وقد أُعطي محمد ﷺ مثلها. ومن فضائله: أن الله ﷻ خاطب الأنبياء بأسمائهم مثل: يا آدم، ويا نوح، ويا إبراهيم، ويا موسى، ويا عيسى، وخاطب نبينا بالنبوة والرسالة في كلامه القديم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ و ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ (الصافات) (٣٢٣٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٦٣٠٠).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب المساجد، باب الأسير أو الغريم يُربط في المسجد (٤٤٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه (١٢٣٧).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾ (طه) (٣٢١٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر يونس ﷺ (٦٣١٠).

www.kalemasawaa.com

﴿ٱلرَّسُولُ﴾ وأمر الله المؤمنين بمخاطبته بوصف الرسالة في قوله ﷻ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (النور: ٦٣)[1].

وورد في القرآن الكريم جملة أخبار تبين عظم قدر النبي ﷺ وشريف منزلته وتفضيله على بقية الأنبياء، منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران).

قال أبو الحسن القابسي: اختص الله تعالى محمدًا ﷺ بفضل لم يؤته غيره، أبانه به وهو ما ذكره في هذه الآية. قال المفسرون: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبيًّا إلا ذكر له محمدًا ﷺ ونعته، وأخذ عليه ميثاقه: إن أدركه ليؤمنن به.

إن آيات كثيرة تضمنت فضل النبي ﷺ وفضائله من وجوه متعددة، منها قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ (الأحزاب). ومنها قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ (النساء).

قال عمر ﷺ في كلام أبكى به النبي ﷺ: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم، فقال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ (الأحزاب).

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودُّون أن يكونوا أطاعوك، وهم بين أطباقها يعذبون: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ (الأحزاب)، أي: فلم يصبنا هذا العذاب. تمنوا حيث لا ينفعهم التمني من جميع الأبواب[2]. قال أبو الليث السمرقندي: في هذا تفضيل نبينا محمد ﷺ؛ لتخصيصه بالذكر قبلهم، وهو آخرهم بعثًا.

والمعنى: أخذ الله ﷻ عليهم الميثاق إذ أخرجهم من ظهر آدم كالذَّرِّ[3] بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتبعوه.

دلت هذه النصوص القرآنية الكريمة على تفضيل النبي محمد ﷺ على جميع الأنبياء، وإن كان متأخرًا عنهم في الزمان، ويؤكدها أحاديث؛ منها: ما جاء عن أبي أُمامة الباهلي ﷺ أن النبي ﷺ قال: "إن الله ﷻ

١. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤٨.

٢. المرجع السابق، ص٤٩، ٥٠.

٣. الذَّر: هو صغار النمل.

www.kalemasawaa.com

فضلني على الأنبياء"[١].

ثالثًا. المسلمون لا يتعصبون لنبيهم، ولكنهم يفضلون من فضله الله:

المسلمون ينقلون بأمانة عن الله ﷻ فهم شهداء على الأمم، وحينما يذكرون أحدًا بالفضل، فليس ذلك راجعًا لأنفسهم وأهوائهم، ولكنهم يفضِّلون من فضله الله.

فالمسلمون لا يتعصبون لمحمد ﷺ ولكنهم ينقلون ما خصه الله تعالى به، وعندما يذكرونه بالفضل فما ذلك إلا لأن الله تعالى هو الذي فضَّله، وخصه بما لم يخص به أحدًا من خلقه: لا من الرسل ولا من الملائكة ولا غيرهم، والله تبارك وتعالى يقول عن أنبيائه الكرام: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النمل)، وقال ﷻ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الصافات)، وقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ (النمل)، وقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ (الصافات). فاكتفى الله سبحانه بالسلام على المرسلين فقط.

أما عن نبينا محمد ﷺ فقد قال الله تبارك وتعالى في حقه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ (الأحزاب)، والمسلمون لم يغيروا ولم يعدلوا، ولم يزيدوا ولم ينقصوا عما شرعه الله ﷻ.

وعليه فهم حينما يقولون عن أي نبي غير النبي محمد: عليه السلام، وحينما يقولون عنه: ﷺ، إنما يمتثلون لأمر الله تعالى لهم. والنبي ﷺ جدير بكل تكريم، وأهل لكل تفضيل، فمن مثله جاهد؟ ومن تحمل من الأعباء مثلما تحمل؟ ومن خاطب الأمم كلها كما خاطب؟ ومن عمَّ خيره ونفعه العالمين مثله؟ ومن أحدث تحوُّلًا في البشرية كلها كما فعل؟

فإذا نال النبي ﷺ من ربه من الفضل ما لم ينله غيره؛ فلأنه كُلِّف بما لم يُكلَّف به غيره، أو تجمَّل بالأخلاق الجامعة بما تفرق في غيره، ثم إنَّ الله ﷻ وضعه أمام مسئولياته، وسأله عن كل ما كلَّفه به، وهكذا فما من تشريف، إلا وهو مصحوب بتكليف.

الخلاصة:

- الإيمان بالرسل جميعًا واجب على المسلم؛ إذ لا يتم إيمان العبد إلا بالإيمان بهم جميعًا بدون تفرقة، فمن آمن ببعضهم وكفر ببعضهم، فقد كفر بالله ﷻ، ومن آمن بهم جميعًا إلا عيسى، أو موسى، أو محمد ﷺ، فهو كافر أيضًا، وأما التفضيل في قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فهذا التفضيل خاص بالله ﷻ، وليس لنا ـ نحن البشر ـ أن نفرق بينهم، إنما الواجب علينا أن نؤمن بهم جميعًا، لا نفرق بين أحد منهم.
- المسلمون لا يتعصبون لمحمد ﷺ ولكنهم ينقلون ما خصَّه الله ﷻ به، وعندما يذكرونه بالفضل، فما ذلك إلا لأن الله ﷻ هو الذي فضله وخصَّه، بما لم يخص به أحدًا من خلقه، لا من الرسل ولا من الملائكة ولا غيرهم، والله ﷻ قال عن أنبيائه: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

١. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٥٧) برقم (٨٠٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٠).

www.kalemasawaa.com

وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ (النمل: ٥٩)، وقال عن نبيه محمد: ﷺ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأحزاب)

الشبهة التاسعة والتسعون

ادعاء أن الرسل ينبغي ألا يأكلوا أو يتزوَّجوا؛ لأن هذا نقص في حقهم (*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن الأنبياء ليس لهم أن يكونوا من البشر العاديين الذين يأكلون ويتزوجون ويتناسلون؛ لأن ذلك يمثل هبوطًا وسقوطًا يشينهم، هادفين من وراء ذلك إلى نفي النبوة عن البشر.

وجوه إبطال الشبهة:

١) أهلية البشر لتحمل الرسالة الإلهية أمر أثبتته التجربة العملية والتاريخ الإنساني.

٢) أرسل الله إلى خلقه رسلًا من جنسهم؛ حتى تتحقق القدوة والأخذ عنهم؛ لأن في المخالفة ذريعة للناس في ألا يقتدوا بهم، متعللين بأنهم ليسوا من جنسهم، ولا يقوون على ما يقوى عليه هؤلاء الأنبياء.

٣) مقتضى بشرية الأنبياء والرسل تجعلهم: يأكلون ويشربون ويتزوجون ويولد لهم، ويتعرضون للبلاء، و يشتغلون بأعمال البشر.

٤) لا تعد تلبية الغرائز والشهوات المشروعة سقوطًا، وإنما فساد الأخلاق أن تُلَبّى في غير الحلال.

التفصيل:

أولا. أهلية البشر لتحمل الرسالة الإلهية:

إن الله ﷻ خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفضَّله وكرَّمه على سائر المخلوقات؛ قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الإسراء)، وكرمنا تعني: جعلنا لهم كرمًا؛ أي: شرفًا وفضلًا، وهذه الكرامة يدخل فيها خَلْقُهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة. وقيل: كرَّمهم بالنطق والتمييز. وقيل: بتسليطهم على الخلق وتسخير سائر الخلق لهم، وقيل: بالكلام والخط، وقيل: بالفهم.

والصحيح الذي يعوَّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت الرسل وأنزلت الكتب، فمثال الشرع الشمس ومثال العقل العين، فإذا فُتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء[1].

وشاءت حكمة العليم الخبير أن يكون الرسل الذين يرسلهم إلى البشر من البشر أنفسهم: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (الكهف: ١١٠)، أما الذين يستعظمون

(*) النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق.

® في "حكمة الله في بعثه بشرًا رسلا" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والخمسين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد إليها).

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ص٢٩٤.

www.kalemasawaa.com

ويستبعدون اختيار الله بعض البشر لتحمل الرسالة فلا يقدرون الإنسان قدره؛ فالإنسان مؤهل لتحمل الأمانة العظمى، التي أشفقت السموات والأرض والجبال من حملها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب).

وهؤلاء الذين استعظموا اختيار الله البشر رسلًا، نظروا إلى المظهر الخارجي للإنسان، نظروا إليه على أنه جسد: يأكل، ويشرب، وينام، ويمشي في الأرض لتلبية حاجاته: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الفرقان)، ولم ينظروا إلى جوهره وهو تلك الروح التي هي نفخة من روح الله ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الحجر)، وبهذه الروح تميز الإنسان، وصار إنسانًا، واستُخلِف في الأرض، وقد أودعه الله الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التي ميزته، فلا عجب أن يختار الله واحدًا من هذا الجنس، صاحب استعداد للتلقي، فيوحي إليه ما يهدي به إخوانه إلى الطريق كلما غام عليهم الطريق، وما يقدم به إليهم العون كلما كانوا بحاجة إلى العون: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ (إبراهيم).

ثم إن الأنبياء والرسل يُعَدُّون إعدادًا خاصًّا؛ لتحمل النبوة والرسالة، ويُصنعون صنعًا فريدًا: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ (طه)، واعتبر هذا بحال نبينا محمد ﷺ، كيف رعاه وأحاطه بعنايته على الرغم من يُتْمِه وفقره: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾﴾ (الضحى)، وقد زكَّاه وطهَّره، وأذهب عنه رجس الشيطان، وأخرج منه حظ الشيطان منذ كان صغيرًا، فعن أنس بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصَرَعَه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَة، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْت[1] من ذهب بماء زمزم ثم لَأَمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظِئْرَه[2] ـ فقالوا: إن محمدًا قد قُتل، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المَخِيط في صدره[3].

وحدث قريب من هذا عندما جاء جبريل عليه السلام يُهيِّئه للرحلة الكبرى للعروج به إلى السماوات العُلَا، ففي حديث الإسراء: "فُرِّج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل عليه السلام؛ ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه"[4][5].

---

١. الطَّسْت: إناء كبير مستدير مصنوع من نحاس وغيره.
٢. الظِّئْر: المرضعة غير ولدها، ويقع على الرجل والمرأة.
٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (٤٣١).
٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلوات، باب كيف فرضت الصلوت في الإسراء (٣٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (٤٣٣).
٥. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٦٣: ٦٥.

www.kalemasawaa.com

ثانيًا. أرسل الله ﷻ الرسل إلى خلقه مِنْ جنسهم حتى تتحقق القدوة والأخذ عنهم:

لقد كثر اعتراض أعداء الرسل على بعثتهم من البشر، وكان هذا الأمر من أعظم ما صدّ الناس عن الإيمان: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ (الإسراء)، وعدّوا اتباع الرسل بسبب كونهم بشرًا فيما جاءوا به من عقائد وشرائع أمرًا قبيحًا، وعدُّوه خسرانًا مبينًا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (المؤمنون). ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ (القمر)[1].

وقد اقترح أعداء الرسل أن يكون الرسل الذين يُبعثون إليهم من الملائكة يعاينونهم ويشاهدونهم، أو على الأقل يُبعث مع الرسول البشري رسول من الملائكة: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ (الإسراء)، ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الفرقان).

وعندما نتأمل النصوص القرآنية، يمكننا أن نرد عليهم من أربعة وجوه هي:

١. أن الله اختارهم بشرًا لا ملائكة؛ لأنه أعظم في الابتلاء والاختيار؛ ففي الحديث القدسي: "إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك"[2].

٢. أن في هذا إكرامًا لمن سبقت لهم منه الحسنى، فإن اختيار الله لبعض عباده ليكونوا رسلًا تكريمًا وتفضيلًا لهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ (مريم).

٣. أن البشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الذين يصلحون قدوة وأسوة، يقول سيد قطب في هذا: "وإنها لحكمة تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر، واحد من البشر يحس بإحساسهم، ويتذوق مواجدهم، ويعاني تجاربهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم... ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم، ويرجو في قوتهم واستعلائهم، ويسير بهم خطوة خطوة، وهو يفهم ويقدِّر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم؛ لأنه في النهاية واحد منهم، يرتاد بهم الطريق إلى الله بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق، وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة؛ لأنه بشر مثلهم، يتسامى بهم رويدًا رويدًا، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم، وأرادها منهم، فيكون بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم، ينقلونها سطرًا سطرًا، ويحققونها معنى معنى، وهم يرونها بينهم، فتهفوا نفوسهم إلى تقليدها؛ لأنها ممثلة في إنسان"[3].

---

١. المرجع السابق، ص٦٥.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٧٣٨٦).

٣. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٦٥: ٦٧.

www.kalemasawaa.com

ولو كان الرسل من الملائكة، ما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم أو يجتمعوا، ولكان للناس حجة في عدم اتباع الرسل أن يقولوا: هؤلاء الذين بعثهم الله إلينا وأُمرنا باتباعهم ليسوا من جنسنا.. ليسوا بشرًا إنما هم ملائكة، وطبيعتنا تختلف عن طبيعتهم، فهم أسمى منا خلقًا، وأطهر منا عملًا وأكرم مقامًا؛ لأن الملائكة أطهار كما أخبر عنهم رب العزة ﷻ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ (التحريم)، وأنهم دائمًا في عبادة لا ينقطعون عنها أبدًا: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ (الأنبياء)، ثم إن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وليس فيهم شهوة أو ميل إلى المعصية؛ لأنهم عباد مكرمون.. ولما كان الغرض من بعثة الأنبياء أن يكونوا سفراء بين الله وعباده حتى يبلغوا مراده إليهم، كان لا بد أن يكون السفير ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه، وأن يكون قدوة للبشر في سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم، ولا يكون ذلك إلا ممن اتحد معهم في الخصائص والصفات[1].

٤. صعوبة رؤية الملائكة، فالكفار عندما يقترحون رؤية الملائكة، وأن يكون الرسل إليهم ملائكة لا يدركون طبيعة الملائكة، ولا يعلمون مدى المشقة والعناء الذي سيلحق بهم من جراء ذلك.

فالاتصال بالملائكة ورؤيتهم أمر ليس سهلا، الرسول ﷺ مع كونه أفضل الخلق، وهو على جانب عظيم من القوة الجسمية وكذلك النفسية، عندما رأى جبريل عليه السلام على صورته أصابه هول عظيم ورجع إلى منزله يرجف فؤاده، وقد كان ﷺ يعاني من اتصال الوحي به شدةً، ولذلك قال في الرد عليهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٢٢﴾ (الفرقان)، وذلك أن الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت أو حين نزول العذاب، فلو قُدِّر أنهم رأوا الملائكة كان ذلك اليوم يوم هلاكهم.

فكان إرسال الرسل الكرام من البشر ضروريًّا؛ كي يتمكنوا من مخاطبتهم والفقه عنهم والفهم منهم، ولو بعث الله رسله إليهم من الملائكة ما أمكنهم ذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ (الإسراء).

فلو كان سكان الأرض ملائكة لأرسل الله تبارك وتعالى إليهم رسولًا من جنسهم، أما وإن الذين يسكنون الأرض بشر، فرحمة الله تعالى وحكمته تقتضي أن يكون رسولهم من جنسهم، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ (آل عمران).

وإذا كان البشر لا يستطيعون رؤية الملائكة والتلقي عنهم بيسر وسهولة، فإن ذلك يقتضي ـ لو شاء الله أن يرسل ملكًا رسولًا إلى البشر ـ أن يجعله رجلًا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ (الأنعام: ٩)، فالله يخبر أنه "لو بعث رسولًا ملكا"، لكان على هيئة رجل، يمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع السابق، ص١٩.

www.kalemasawaa.com

لاختلط الأمر عليهم[1]. وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعنى في معرض الرد على المشركين، حين طلبوا أن يكون النبي المرسل من الملائكة لا من البشر: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ (الأنعام).

ومعنى الآية: لو جعلنا النبي ملكًا كما اقترحوا، لجعلناه في صورة رجل من البشر؛ ليمكن اجتماعهم به وأخذهم عنه، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر، هل هو ملك أو بشر؟ فَيُشَكُّون في أمره، ويعودون إلى سيرتهم الأولى في طلبهم أن يكون النبي من الملائكة[2].

قال العلامة القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، أي: أنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يألف بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله ﷻ الرسول إلى البشر ملكًا لنفروا من مقابلته، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعم المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به، ويسكنوا إليه، لقالوا: لست ملكًا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم، حيث كانوا يقولون عن محمد ﷺ: إنه بشر، وليس بينه وبينهم فرق، فيلبسون على الناس بهذا ويشككونهم، فأعلمهم الله ﷻ أنه لو أنزل ملكًا في صورة رجل؛ لأوجدوا سبيلًا إلى اللبس ـ الشك ـ كما يفعلون.

ثالثًا. مقتضى كون الأنبياء بشرًا أن يتصفوا بالصفات التي لاتنفك البشرية عنها:

يوضح د. عمر الأشقر في كتابه "الرسل والرسالات" أبرز تلك الصفات على النحو التالي:

١. الرسل يأكلون ويشربون وينامون ويتزوجون ويولد لهم:

الرسل والأنبياء يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب، ويُحدِثون كما يحدث البشر؛ لأنَّ ذلك من لوازم الطعام والشراب: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾ (الأنبياء).

ومن ذلك أنهم ولدوا كما ولد البشر لهم آباء وأمهات، وأعمام وعمات، وأخوال وخالات، يتزوجون ويولد لهم، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ (الرعد).

ويصيبهم ما يصيب البشر من أعراض، فهم ينامون ويقومون، ويصحُّون ويمرضون، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر من الموت، فقد جاء في ذكر إبراهيم خليل الرحمن لربه تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ (الشعراء)، وقال الله تعالى لرسوله محمد بن عبد الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الزمر)،

١. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٦٨.

٢. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص٢٠.

www.kalemasawaa.com

وقال مبينًا أن هذه سنة في الرسل كلهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (آل عمران)[١]، وقد جاء في وصف رسول الله ﷺ عن الأسود قال: سألتُ عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مِهْنَة أهله ــ تعني خدمة أهله ــ فإذا حَضَرت الصلاة خرج إلى الصلاة[٢][٣].

٢. تعرض الأنبياء للابتلاء:

ومن مقتضى بشرية الرسل أنهم يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر، فقد يسجنون، كما سجن نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (يوسف)، وذكر الله أنه: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف: ٤٢)، وقد يصيبهم قومهم بالأذى وقد يدمونهم، كما أصابوا الرسول ﷺ في غزوة أحد؛ فأدموه وكسروا رُباعِيَتَه، وقد يخرجونهم من ديارهم، كما هاجر إبراهيم من العراق إلى الشام، وكما هاجر نبينا محمد ﷺ من مكة إلى المدينة، وقد يقتلونهم قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (البقرة)، وقد يصابون بالأمراض، كما ابتلى الله نبيه أيوب فصبر، وقد صحَّ عن الرسول ﷺ "أن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه"[٤].

وكان من ابتلائه أن ذهب أهله وماله، وكان ذا مال وولد كثير: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنبياء)، والأنبياء لا يصابون بالبلاء فحسب، بل هم أشدُّ الناس بلاء، فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاءً؟ قال ﷺ: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رِقَّة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة"[٥].

ودخل أبو سعيد الخدري على الرسول ﷺ وهو يُوعَك[٦]، فوضع يده على الرسول ﷺ فوجد حرّه بين يديه فوق اللحاف، فقال: يا رسول الله، ما أشدها عليك! قال: "إنا كذلك، يُضَعَّف لنا البلاء، ويُضَعَّف

---

١. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٦٨، ٦٩.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من كان في حاجة على أهله فأقيمت الصلاة فخرج (٦٤٤)، وفي مواضع أخرى.

٣. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٤٣.

٤. صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦/ ٢٩٩) برقم (٣٦١٧)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض (٢٨٩٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند سعد بن أبي وقاص ﷺ (١٦٠٧)، والترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة (١٤٣).

٦. يُوعَك: أصابه مرض من شدة الحُمَّى والتعب.

www.kalemasawaa.com

لنا الأجر"، قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ فقال: "الأنبياء"، قلت: يا رسول الله، ثم من؟ قال: "ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة التي يُحوِّيها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء"[1].

٣. اشتغال الأنبياء بأعمال البشر:

ومن مقتضى بشريتهم أنهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر، فمن ذلك اشتغال الرسول ﷺ بالتجارة قبل البعثة، ومن ذلك رعي الأنبياء للغنم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ نجني الكَباث[2]، وإن رسول الله ﷺ قال: "عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبه"، قالوا: أكنت ترعى الغنم ؟ قال: "وهل من نبي إلا وقد رعاها"[3].

ومن الأنبياء الذين نص القرآن على أنهم رعوا الغنم نبي الله موسى عليه السلام، فقد عمل في ذلك عدة سنوات، فقد قال له العبد الصالح: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ (القصص) . قال ابن حجر: والذي قاله الأئمة أن الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم؛ ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتعتاد قلوبهم بالخَلْوة، ويترقُّوا من سياستها إلى سياسة الأمم.

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام، فقد كان حدادًا يصنع الدروع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾ (الأنبياء)، وفي نفس الوقت كان ملكًا، وكان يأكل مما تصنعه يداه. ونبي الله زكريا كان يعمل نجَّارًا، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "كان زكريا نجارًا"[4] [5].

رابعًا. لا تعد تلبية الغرائز والشهوات المشروعة سقوطًا، وإنما فساد الأخلاق أن تلبّى في غير الحلال:

ليس الهبوط أن يشتهي المرء طعامًا أو امرأة، وإنما الهبوط أن يأكل المرء من سُحْت، أو يتصل بمن لا تحلُّ له. والعجب أن يعيب هؤلاء على بشر مثلهم، ثم يقلدونهم في قولهم، فأصحاب تلك الدعوات لم يكونوا خالقيها، وإنما اقتبسوا من غيرهم قولهم، فقد جاء النص:﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾ (فصلت) ، وتولى القرآن الرد: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ (الأنعام) ؛ لأنه لا يمكن أن يتعامل ملك على ملائكيَّته مع بشر على بشريته؛ وذلك لأمر أراده الإسلام في موضع النبوة، وذلك أن فيه الأسوة،

---

١. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٤٠٢٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٥٠).

٢. الكَبَاث: ثمر الأراك.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾ (الأعراف: ١٣٨) (٣٢٢٥)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب فضيلة الأسود من الكباث (٥٤٧٠)، واللفظ للبخاري.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل زكريا عليه السلام (٦٣١٢).

٥. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٦٨: ٧٢.

www.kalemasawaa.com

وكيف يتأسَّى بمن خالف طبيعته، فلو ذُكِر لمعاند قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب) ليقول: ومن أين لي وأنا بشر وهو ملك؟

لكنَّ الله لما شاء وجودهم أنبياء جعلهم بشرًا؛ حتى يسهل التأسي بهم ومتابعتهم، إن هذا الفهم السقيم بقية باقية من فهم الأمم السابقة، وخاصة أهل الكتاب في كتابهم المقدس، تلك المفاهيم الممتزجة بكل باطل، فالنبي عندهم أشبه بالكهنة والعرَّافين، وهم بين متخبطين في الرذائل ساقطين سقوط أدنى البشر أو متألِّهين، وهذا الخليط المترنِّح لا يستقر على وضع مستقيم حتى في الاعوجاج نفسه.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه نهى عن اجتناب ما أحله الله؛ ففي الحديث عن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء ثلاث رَهْط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أُصلِّي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أُفْطِر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأُصلِّي وأَرْقُد، وأتزوج النساء، فمن رَغِب عن سُنَّتي فليس مني"[1].

الخلاصة:

- شاءت حكمة العليم الخبير أن يكون الرسل الذين يرسلهم إلى البشر من البشر أنفسهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (الكهف: ١١٠)؛ لذا أعدهم الله إعدادًا خاصًّا؛ لتحمل أعباء النبوة والرسالة، وصنعهم صنعًا فريدًا: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ (طه)، واعتبر هذا بحال نبينا محمد ﷺ، كيف رعاه وأحاطه بعنايته على الرغم من يُتْمِه وفقره، وقد زكَّاه وطهره، ، وأخرج منه حظ الشيطان مُذْ كان صغيرًا.
- لم يرسل الله ﷻ إلى عباده رسلًا من الملائكة، ولكن أرسل إليهم رسلًا من البشر؛ كي تسهل مخاطبتهم، والأخذ عنهم، ولاتفاقهم في الخِلْقة والصفات؛ لأنهم ـ عليهم السلام ـ أسوة وقدوة للبشر جميعًا، فكيف يكون الأسوة والقدوة من غير جنسهم؟
- كون الرسل ـ عليهم السلام ـ بشرًا يقتضي أن يتصفوا بصفات البشر، كالأكل والشرب والزواج والنوم والابتلاء، وغيرها من صفات البشر؛ لأن هؤلاء الأنبياء لا بد أن تكون لهم سنن في كل متطلبات الحياة من مأكل ومشرب وزواج ونوم وغيرها؛ ليقتدي بها الناس في حياتهم، وهذا لا يتحقق إلا بكونهم بشرًا.
- لا تُعَدُّ تلبية الغرائز والشهوات المشروعة سقوطًا، وإنما فساد الأخلاق أن تلبَّى في غير الحلال، وهذا ما حرمه الله تعالى على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وغيرهم من البشر.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٤٧٧٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة (٣٤٦٩).

www.kalemasawaa.com

الشبهة المائة

دعوى ردّ ما جاء به الأنبياء والرسل؛ لعدم حاجة البشرية إليه(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين من العلمانيين أن البشرية ليست بحاجة إلى الأنبياء والرسل، مستدلين على ذلك بأن البشرية بلغت مبلغًا عظيمًا من التَّقدُّم والرُّقي عندما استغنت بالعقل ـ الذي يميز بين الصواب والخطأ ـ عن الرسل وتعاليمهم، هادفين من وراء ذلك إلى إسقاط الدين من الحياة بإنكار رسالة الأنبياء.

وجوه إبطال الشبهة:

١) البشرية بحاجة إلى الرسل؛ لإصلاح القلوب، وتهذيب النفوس، وهداية العقول، ومعرفة الوجهة الصحيحة في الحياة، وكذا معرفة أصول علاقة الإنسان بخالقه تعالى، وبأخيه الإنسان.

٢) الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة لا يكون إلا على أيدي الرسل وقيادتهم للبشرية؛ لأنهم مؤيدون من قِبل الله تعالى.

٣) حاجة البشرية إلى الشريعة والدين كحاجتها إلى الطب؛ فبالشريعة تصح القلوب والعقول، وبالطب تصح الأبدان.

٤) الوحي هو حلقة الوصل بين الله ﷻ ورسله، فلا يصح الاستغناء عنه بالعقل؛ لأن العقل قاصر عن الإحاطة بما يصلح للإنسان.

٥) الأنبياء هم حلقة الوصل بين الله وخلقه؛ فهم يعرِّفون العباد بخالقهم، ويبلغونهم ما أمرهم به من خير في دينهم ودنياهم.

التفصيل:

أولا. البشرية بحاجة إلى الرسل؛ لإصلاح القلوب، وهداية العقول، ومعرفة الوجهة الصحيحة للإنسان في الحياة، وعلاقة الإنسان بالحياة وخالقها:

إذا كان الناس في القديم يجادلون الرسل، ويرفضون علومهم، ويعرضون عنهم، فإن البشر اليوم في القرن الحادي والعشرين ـ حيث بلغت البشرية ذروة التقدم المادي، فغاصت في أعماق البحار، وانطلقت بعيدًا في أجواء الفضاء، وفجَّرت الذرة، وكشفت كثيرًا من القوى الكونية في هذا الوجود ـ أشد جدالًا للرسل، وأكثر رفضًا لعلومهم، وأعظم إعراضًا عنهم، وحال البشر اليوم من الرسل وتعاليمهم كحال الحُمُر المستنفرة حين ترى الأسد؛ فتفر لا تلوي على شيء، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ (المدثر).

والبشر اليوم يأبون ـ أكثر من ذي قبل ـ التسليم للرسل وتعاليمهم؛ اغترارًا بعلومهم، واستكبارًا عن متابعة رجال عاشوا في عصور متقدمة على عصورهم، قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ (التغابن)، واليوم ينفخ شياطين الإنس في عقول البشر

(*) سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق.

® في "حاجة البشرية إلى الأنبياء" طالع: الشبهة السابعة والتسعين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

يدعونهم إلى التمرد على الله تعالى وعلى شريعته ورفض تعاليم الرسل، بحجة أن في شريعة الله حجرًا على عقولهم، وتعطيلًا لرَكْب الحياة، وتجميدًا للحضارة والرقي، وقد أقامت الدول اليوم نظمها وقوانينها وتشريعاتها على رفض تعاليم الرسل، بل إن بعض الدول تضع الإلحاد مبدًا دستوريًّا، وهو ما يُسمى بالعلمانية، وكثير من الدول التي تتحكم في رقاب المسلمين تسير على هذا النهج، وقد تُرضي عوام الناس بأن تضع مادة في دستورها تقول: "دين الدولة الإسلام"، ثم تهدم هذه المادة بالمواد السابقة واللاحقة والتشريعات التي تحكم هؤلاء المستبعدين.

فهل صحيح أن البشرية بلغت اليوم مبلغًا يجعلها تستغني عن الرسل وتعاليم الرسل؟! وهل أصبحت البشرية اليوم قادرة على أن تقود نفسها بعيدًا عن منهج الرسل؟!

يكفي للإجابة عن هذا السؤال أن ننظر في حال تلك الدول التي نسميها "متقدمة مُتحضِّرة" ـ أمريكا، بريطانيا، فرنسا، روسيا ـ لنعلم مدى الشقاء الذي يغشاهم، فلا ننكر أنهم بلغوا في التقدم المادي شأوًا بعيدًا، ولكنهم في الجانب الآخر الذي جاء الرسل وجاءت تعاليمهم لإصلاحه انحدروا انحدارًا بعيدًا.

لا ينكر أحد أن الأوجاع الجسدية والعُقَد النفسية اليوم سمة العالم المتحضر، فالإنسان في العالم المتحضر اليوم فقد إنسانيته وخسر نفسه؛ ولذلك فإن الشباب هناك يتمردون على القيم والأخلاق والأوضاع والقوانين، أخذوا يرفضون حياتهم التي يعيشونها، وأخذوا يتبعون كل ناعق من الشرق أو الغرب يلوِّح لهم بفلسفة أو دروشة أو سفسطة يظنون فيها هناءهم، لقد تحوَّل عالم الغرب إلى عالم تنخر الجريمة عظامه، وتقوِّده الانحرافات والضياع، لقد زلزلت الفضائح أركان الدول الكبرى.

إن الذين يُسمَّون اليوم بـ "العالم المتحضر" يخربون بيوتهم بأيديهم وحضارتهم تقتلهم، تفرز سمومًا تسري فيهم فتقتل الأفراد، وتغرق المجتمعات. الذين نسميهم اليوم بـ "العالم المتحضر" كالطائر الجبار الذي يريد أن يحلق في أجواء الفضاء بجناح واحد. إننا بحاجة إلى الرسل وتعاليمهم لصلاح قلوبنا، وتهذيب نفوسنا، وهداية عقولنا. نحن بحاجة إلى الرسل كي نعرف وجهتنا في الحياة، وعلاقتنا بالحياة وخالق الحياة[1].

ثانيًا. الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة لا يكون إلا على أيدي الرسل وقيادتهم للبشرية:

يقول ابن القيم في بيان حاجة العباد إلى الرسل وتعاليمهم: "ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الخبيث والطيب على التفصيل إلَّا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله ألبتة إلَّا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق

١. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٢٩: ٣١ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرضت ليست بأهم من ضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير.

وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به ـ طرفة عين ـ شقيت وفسد قلبك حتى صار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المِقْلاة، إن حال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحبَّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين، ويدخل به في عِداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو فضل عظيم[1].

ثالثًا. حاجة البشرية إلى الشريعة كحاجتها إلى الطب؛ فبالشريعة تصح القلوب والعقول، وبالطب تصح الأبدان:

عقد ابن القيم مقارنة بيَّن فيها أن حاجة الناس إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع شدة حاجة الناس إليه؛ لصلاح أبدانهم، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من العلوم، قال: حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية، فوق حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها، ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة؟ وأما أهل البدو كلهم، وأهل الكفور كلهم، وعامة بني آدم ـ لا يحتاجون إلى طبيب، وهم أصح أبدانًا، وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب، ولعل أعمارهم متقاربة، وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم، واجتناب ما يضرهم، وجعل لكل قوم عادة وعرفًا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء، حتى إن كثيرًا من أصول الطب إنما أُخذت من عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم الخاصة.

وأما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها على الوحي المحض، والحاجة إلى التنفس فضلًا عن الطعام والشراب؛ لأن غاية ما يُقدَّر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن، وتعطل الروح عنه، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة، ففساد الروح والقلب جملة، وشتَّان بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسل ـ عليهم السلام ـ والقيام به والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك ألبتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسم[2].

رابعًا. الوحي هو حلقة الوصل بين الله تعالى ورسله، فلا يصح الاستغناء بالعقل عنه:

يزعم الناس في عالم اليوم أنه يمكنهم الاستغناء عن

١. المرجع السابق، ص٣١، ٣٢.

٢. المرجع السابق، ص٣٥، ٣٦ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

الرسل والرسالات بالعقول التي وهبهم الله إياها؛ ولذلك نراهم يسنون القوانين، ويحلون ويحرمون ويخططون ويوجهون، ومستندهم في ذلك كله أن عقولهم تستحسن ذلك أو تقبحه، وترضى به أو ترفضه، وهؤلاء لهم سلف قالوا مثل مقالتهم - هم البراهمة أحد طوائف المجوسية - حيث "زعموا أن إرسال الرسل عبث لا يليق بالحكيم، لإغناء العقل عن الرسل؛ لأن ما جاءت به الرسل إن كان موافقًا للعقل حسنًا عنده فهو يفعله، وإن لم يأت به، وإن كان مخالفًا قبيحًا فإن احتاج إليه فعله وإلَّا تركه".

ولا يجوز في مجال الحِجاج والنزاع أن يبادر المسلم إلى إنكار قدرة العقل على إدراك الحسن والقبح؛ "فإن الله قد فطر عباده على معرفة الفرق بين الحسن والقبيح، وركب في عقولهم إدراك ذلك، والتمييز بين النوعين، كما فطرهم على معرفة الفرق بين النافع والضار، والملائم لهم والمنافر، وركَّب في حواسهم إدراك ذلك، والتمييز بين أنواعه.

والفطرة الأولى: وهي فطرة الله العباد على التفريق بين الحسن والقبيح خاصة بالإنسان، وبها يتميَّز عن غيره من الحيوانات، **وأما الفطرة الثانية**: وهي فطرة الله عباده على التفريق بين النافع والضار، فهي مشتركة بين أصناف الحيوان، والذي ينبغي أن ينازع فيه أمور أربعة:

- أن هناك أمورًا هي مصلحة للإنسان لا يستطيع الإنسان إدراكها بمجرد عقله؛ لأنها غير داخلة في مجال العقل ودائرته "فمن أين للعقل معرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته؟ ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده؟ ومن أين له معرفة تفاصيل محبته ورضاه، وسخطه وكراهيته؟ ومن أين له معرفة الثواب والعقاب، وكيفيتهما، ودرجاتهما؟ ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يُظهر الله عليه أحدًا من خلقه إلَّا من ارتضاه من رسله، إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل، وبلغته عن الله، وليس في العقل طريق إلى معرفته".
- أن الذي يدرك العقل حسنه أو قبحه يدركه على سبيل الإجمال، ولا يستطيع أن يدرك تفاصيل ما جاء به الشرع، وإن أدرك التفاصيل فهو إدراك لبعض الجزئيات، وليس إدراكًا كليًّا شاملًا؛ فالعقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلًا أو ظلمًا، فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل".
- أن العقول قد تحار في الفعل الواحد، فقد يكون الفعل مشتملًا على مصلحة ومفسدة، ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أو مصلحته؛ فيتوقف العقل في ذلك، فتأتي الشرائع ببيان ذلك، وتأمر براجح المصلحة وتنهى عن راجح المفسدة، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره، والعقل لا يدرك ذلك، وتأتي الشرائع ببيانه، فتأمر به من كان الفعل مصلحة له، وتنهى عنه من كان الفعل مفسدة في حقه، وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر، وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدي إليها العقل، فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة، والمفسدة الراجحة.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الأنبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته، ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه، فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول".

www.kalemasawaa.com

وما يتوصل إليه العقل ـ وإن كان صحيحًا ـ فإنه ليس إلا فرضيات قد تجرفها الآراء المتناقضة والمذاهب المُلْحِدة. ولو استطاعت البقاء فإنها ـ في غيبة الوحي ـ ستكون تخمينات شتى، يلتبس فيها الحق بالباطل[1]. والذين يريدون أن يستغنوا عن الوحي بالعقل يظلمون العقل ظلمًا كثيرًا، ويُبدِّدون طاقة العقل في غير مجالها.

إن للعقل اختصاصه وميدانه وطاقته، فإذا اشتغل خارج اختصاصه جانبه الصواب، وحالفه الشطط والتخبط، وإذا أُجري في غير ميدانه كبَّ وتعثَّر، وإذا كُلّف فوق طاقته كان نصيبه العجز والكلال.

- إن العالم المادي المحسوس أو عالم الطبيعة هو ميدان العقل الفسيح الذي يصول فيه ويجول؛ فيستخرج مكنوناته، ويربط بين أسبابه وعلله، ومقدماته ونتائجه، فيكشف ويخترع، ويتبحر في العلوم النافعة في مختلف ميادين الحياة، وتسيير عجلة التقدم البشري إلى الأمام.

فالوحي الإلهي وجَّه العقول إلى النظر في الكون والتدبر فيه، وحثَّ الإنسان على استعمار هذه الأرض واستثمارها. وفي مجال العلوم المنزلة من الله وظيفة العقل أن ينظر فيها؛ ليستوثق من صحة نسبتها إلى الله ﷻ، فإن تبيَّن له صحة ذلك فعليه أن يستوعب وحي الله إليه، ويستخدم العقل الذي وهبه الله إياه في فهم وتدبر الوحي، ثم يجتهد في التطبيق والتنفيذ.

والوحي مع العقل كنور الشمس أو الضوء مع العين، فإذا حُجب الوحي عن العقل لم ينتفع الإنسان بعقله، كما أن المبصر لا ينتفع بعينه إذا عاش في ظلمة، فإذا أشرقت الشمس وانتشر ضَوْءُها انتفع بناظريه، وكذلك أصحاب العقول إذا أشرق الوحي على عقولهم وقلوبهم أبصرت واهتدت قال ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (الحج)[2].

"إن العقل ـ بدون هداية الرسل ـ ليس في وسعه أن يعرف عن الله ما يجب أن يعرف، ولا أن يدرك من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يدرك، ولا أن يصل بصاحبه إلى الحياة الطيبة في الدنيا، فضلًا عن الآخرة، فقد تأكد عندها أن الرسل والأنبياء هم الذين يُخرج الله بهم البشر من ظلمات الكفر والعصيان إلى نور الإيمان والطاعة"[3] ®.

خامسًا. الأنبياء هم حلقة الوصل بين الله وخلقه، فهم يعرِّفون العباد بخالقهم ويبلغونهم ما أمرهم به:

لا يمكن لعاقل ـ يفهم مهمة الرسل ـ أن يصفهم بعدم تبليغ ما أُرسلوا به، فهم لم يكونوا رسلًا إلا لأنهم أصحاب رسالات، وهم بهذه الرسالات واسطة بين الخالق والخلق، فلو لم يبلغوا رسالات الحق إلى الخلق، ما كانوا رسلًا بالمعنى الصحيح الكامل بهذا الوصف، والله ﷻ وصفهم بالبلاغ فقال ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ

١. المرجع السابق، ص٣٦: ٣٨ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص٤٠، ٤١.

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥.

® في "انتفاء التعارض بين المعقول والمنقول في الإسلام" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

www.kalemasawaa.com

رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾(الأحزاب: ٣٩)، وقال الله ﷻ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥)، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (المائدة).

وقال تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾(المائدة: ٩٩)، وقال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(النحل)، وكل رسول كان يقيم الحجة على قومه بالبلاغ.

يقول الله ﷻ على لسان رسله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾(الأعراف)، ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأعراف)، فالرسل أمناء على رسالات الله، ولو كتموا ما أمروا بتبليغه لما كانوا أمناء، ولو كتموا شيئًا لما قامت الحجة على أممهم، ولكان لهم عند الله حجة، والله تعالى أعذرهم إذ قال ﷻ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥).

واتهام الأنبياء بالتقصير في البلاغ جرأة على الأنبياء وعلى دين الله، ورميهم بما لا يليق بهم ولا يتفق وما يؤمنون به من فضائل ومبادئ، إذ كيف يؤمن عاقل برسالة يعلم أنها لم تصل إليه كاملة، وما قيمة إيمانه بها وهو لم يتمكن من العمل بمقتضاها حيث لم تصل إليه؟! إن هذا الاتهام والتحلل من الشريعة صنوان، بل هو تكأة لهذا الغرض.

إن الإنسان بدون الأنبياء فلك يدور في مجال التيه والضياع، لا يعرف غاية لحياته، ولا يستطيع أن يجيب عن العديد من الأسئلة التي تحاصره، ولا يجد منها مفرًّا، والتي لا يملك العقل إجابات عنها، لا يملك تلك الإجابات الشافية النافعة الصحيحة من الناس إلا الأنبياء والرسل.

الخلاصة:

- إن البشر في حاجة إلى الرسل وتعاليمهم، لصلاح قلوبهم، وإثارة نفوسهم، وهداية عقولهم، وتعريفهم بخالقهم وما خلقوا له، أما الزعم بأن العقل البشري يستطيع أن يهتدي إلى الخير والحق بدون الرسل والرسالات، فهذا أمر يأباه الواقع والتاريخ؛ لأن التجارب البشرية أثبتت أن الاهتداء إلى معرفة الله لا يتم إلا بالرسل الذين بعثهم الله ليُعرِّفوا الناس به.
- الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة لا يكون إلا على أيدي الرسل وقيادتهم للبشرية؛ لأنهم الميزان الذي توزن به الأخلاق والأعمال.
- إن حاجة الناس إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع شدة حاجة الناس إليه لصلاح أبدانهم، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من العلوم؛ لأن الرسالة غذاء للروح التي هي أهم من البدن، ولا يحيا البدن إلا بها، وإذا سُلبت منه فإن الجسم يموت.
- لقد وجه الوحي الإلهي العقول إلى النظر في الكون والتدبر فيه، وحث الإنسان على إعمار هذه الأرض، واستثمارها، وفي مجال العلوم المنزلة من عند

www.kalemasawaa.com

الله كانت وظيفة العقل أن ينظر فيها؛ ليستوثق من صحة نسبتها إلى الله ﷻ، فإن تبين له صحة ذلك فعليه أن يستوعب وحي الله إليه، ويستخدم العقل الذي وهبه الله إياه في فهم وتدبر الوحي، ثم يجتهد في التطبيق والتنفيذ.

- أصحاب العقول إذا أشرق الوحي على عقولهم وقلوبهم أبصرت واهتدت، قال ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (الحج).
- الأنبياء هم حلقة الوصل بين الله ﷻ وخلقه، فهم يُعرِّفون العباد بخالقهم وما أمرهم به، ولا يمكن لعاقل يفهم مهمة الرسل أن يصفهم بعدم تبليغ ما أُرسلوا به؛ فهم لم يكونوا رسلًا، إلَّا لأنهم أصحاب رسالات، وهم بهذه الرسالات واسطة بين الحق والخلق، قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٣٩).

الشبهة الحادية بعد المائة

الزعم أن حمارًا أفضل من نبي(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن الحمار أفضل من النبي، مستدلين على ذلك بأنه كان هناك نبي من الأنبياء أغراه أحد الملوك بالمال، فضَلَّ الطريق ولم يسمع لكلام الله، وسمع كلام المَلِك، فأرسل الله له ملاكًا، فلم يره النبي، وكان هناك حمار، فرأى الحمارُ الملاك ولم يره النبي. ويقول هؤلاء: ما المانع في أن يرى الحمارُ الملاك بقوة الله، ولم يره النبي؛ لأنه استجاب للشيطان، هادفين من وراء ذلك إلى الحطِّ من قدر الأنبياء ومكانتهم.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأنبياء ـ عليهم السلام ـ معصومون كلهم ومصطفون من قبل الله ﷻ، فكيف يضل نبي لدرجة أن يَفضُله حمار؟!!

٢) لا عجب أن يُفَضِّل هؤلاء الجهلة الحمار على النبي، فإرثهم الثقافي من الكتاب المقدس، ومعتقدهم الديني يسمحان لهم بذلك، فقد اتهمت التوراة الأنبياء بأخس الصفات.

التفصيل:

أولا. الأنبياء ـ عليهم السلام ـ معصومون ومصطفَون من قبل الله ﷻ، فكيف يضل نبي بهذه الدرجة حتى يفضله حمار؟!

إن العجب ليملأ العقول والقلوب والأذهان حينما يدَّعي هؤلاء القوم هذا الادعاء؛ إذ كيف يضلُّ نبي بسماعه كلام مَلِك مع علمه بأن الله هو ملك الملوك والملكوت، وكيف يزلُّ هذا النبي وهو معصوم؟! لأن كل الأنبياء معصومون، فلن تجد في حياة أي منهم أي انحراف مقصود؛ لأنهم ليسوا أخيارًا فحسب، بل إنهم مصطفون من بين أفضل الأخيار، وهؤلاء لا يقترفون ـ طوال حياتهم ـ أي شيء يلقي ظلًا على اصطفائهم هذا، وعلى قدسية المهمة التي بعثوا من أجلها.

وكذلك فإن الأنبياء يقومون في الوقت نفسه

(*) قناة الحياة الفضائية، زكريا بطرس، الحلقة ٨٨.

www.kalemasawaa.com

بوظيفة المرآة التي تعكس الأسرار الصادرة من الذات المقدَّسة إلينا؛ لذا وجب أن تكون هذه المرايا صافية ونقية؛ لكيلا تكون الحقائق التي تعكسها للقلوب خادعة؛ لذا يجب أن يرى الناس أفضل صورة متجلية للدين عند الأنبياء؛ لكي يتبعوهم ويصلوا إلى سعادة الدنيا والآخرة.

فكيف بعد كل هذا يقول أحد في نبي من الأنبياء هذا الكلام؟ إلَّا إذا طُمست عين هذا المتكلم، وران على قلبه وعقله، فلم يستطع التمييز أو التفكير؛ لأنه لو فكر لحظة؛ لعلم أن الأنبياء هم الصفوة، ولا يجوز في حقهم نقص، فقد توجد بقع على وجه القمر أو كلف على وجه الشمس، ولكنه لا يوجد حتى ظل للإثم في روح النبي، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ (الأنعام).

ثانيًا. لا عجب أن يُفضِّل هؤلاء الجهلة الحمار على النبي، فإرثهم الثقافي من الكتاب المقدس، ومعتقدهم الديني يسمح لهم بذلك، فقد اتهمت التوراة الأنبياء بأخس الصفات:

لا عجب أن يفضل هؤلاء الجهلة الحمار على النبي، فإرثهم الثقافي من الكتاب المقدس ومعتقدهم الديني يسمحان لهم بذلك، وبما هو أغرب من ذلك، فقد اتهمت التوراة سيدنا إبراهيم عليه السلام بالكذب، ولصقت به ـ عن قصد أو غير قصد ـ أخس الصفات وقبيح الفعال، من التحايل والسكوت على الفاحشة وعلى الاغتصاب، ومن الرضا بالمهانة والخوف من السلطان، ثم بالتفريط في العِرْض، وذلك أيام أن رحل إبراهيم فارًّا بعقيدته إلى فلسطين، ومعه زوجته سارة، وابن أخيه لوط، وامرأة لوط وحدثت، مجاعة وجدب، فانتقل إبراهيم عليه السلام إلى مصر مهاجرًا ومعه سارة زوجته، وفي الطريق إلى مصر أخبر إبراهيم عليه السلام زوجته سارة ـ كما تقول التوراة ـ بأنه يخشى عليها وعلى جمالها من المصريين إذا ما وقعت أعينهم عليها، وأنهم لن يتورَّعوا عن قتل زوجها إذا ما علموا أنها متزوجة، واتفق معها إبراهيم عليه السلام ـ لأجل أن تَسْلم حياته ـ أن توافقه في دعواه بأنها أخته.

ونص ذلك في الكتاب المقدس: "وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكن بين قَادِش وشُور، وتغرَّب في جرَار. وقال إبراهيم عن سارة امرأته: «هي أختي». فأرسل أَبِيمَالِك ملك جرار وأخذ سارة. فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل وقال له: «ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها، فإنها متزوِّجة بِبَعْل». ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها، فقال: «يا سيد، أَأُمَّة بارَّة تقتل؟ ألم يقل هو لي: إنها أختي، وهي أيضًا نفسها قالت: هو أخي؟ بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا». فقال له الله في الحلم: «أنا أيضًا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا. وأنا أيضًا أمسكتك عن أن تخطئ إلي، لذلك لم أَدَعْكَ تمسَّها. فالآن رُدَّ امرأة الرجل، فإنه نبي، فيُصلِّي لأجلك فتحيا. وإن كنت لست تردها، فاعلم أنك موتًا تموت، أنت وكل من لك». فبكَّر أبيمالك في الغد ودعا جميع عبيده، وتكلَّم بكل هذا الكلام في مسامعهم، فخاف الرجال جدًّا.

www.kalemasawaa.com

ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له: «ماذا فعلت بنا؟ وبماذا أخطأت إليك حتى جَلَبْتَ عليّ وعلى مملكتي خطيَّة عظيمة؟ أعمالًا لا تُعمل عملت بي». وقال أبيمالك لإبراهيم: «ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء؟» فقال إبراهيم: «إني قلت: ليس في هذا الموضع خوف الله أَلْبَتَّة، فيقتلونني لأجل امرأتي. وبالحقيقة أيضًا هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة. وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إلي: في كل مكان نأتي إليه قولي عني: هو أخي». فأخذ أبيمالك غنمًا وبقرًا وعبيدًا وإماءً وأعطاها لإبراهيم، ورد إليه سارة امرأته. وقال أبيمالك: «هوذا أرضي قُدَّامك. اسكن في ما حسن في عينيك». وقال لسارة: «إني قد أعطيت أخاك ألفًا من الفِضَّة. ها هو لك غطاء عين من جهة كل ما عندك وعند كل واحد، فأُنْصِفْتِ». فصلَّى إبراهيم إلى الله، فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فوَلَدْنَ. لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم". (التكوين ٢٠: ١ ـ ١٧).

ويا ليت الأمر انتهى عند هذا الحد، بل إن التوراة قد ذكرت أنبياء غير إبراهيم عليه السلام بأحطِّ الصفات، ومن ذلك أيضًا: قصة التوراة عن داود عليه السلام، قصة كلها زنا وفحش وإثم وتحايل؛ للتخلص من آثار جريمة خُلُقيَّة، واعتداء على حرمات الآخرين.

تلك هي القصة: "وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت المَلِك، فرأى من على السطح امرأة تستحمُّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: «أليست هذه بَثْشَبَع بنت أَلِيعام امرأة أُورِيَّا الحِثِّي؟». فأرسل داود رُسُلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طَمْثها. ثم رجعت إلى بيتها. وحَبِلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: «إني حُبْلَى». فأرسل داود إلى يُوآب يقول: «أرسل إلى أوريا الحثي». فأرسل يوآب أوريا إلى داود. فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب. وقال داود لأوريا: «انزل إلى بيتك واغسل رجليك»... فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده. ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل. وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب يقول: «اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت». وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه. فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، فسقط بعض الشعب من عبيد داود، ومات أوريا الحثي أيضًا. فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب. وأوصى الرسول قائلًا: «عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب، فإن اشتعل غضب الملك، وقال لك: لماذا دَنَوْتُم من المدينة للقتال؟ أما علمتم أنهم يرمون من على السور؟ من قتل أبيمالك بن يَرُبُّوشَث؟ ألم تَرْمِه امرأة بقطعة رَحًى من على السور فمات في تاباص؟ لماذا دنوتم من السور؟ فقل: قد مات عبدك أوريا الحثي أيضًا»... فقال داود للرسول: « هكذا تقول ليوآب: لا يَسُؤ في عينيك هذا الأمر، لأن

www.kalemasawaa.com

السيف يأكل هذا وذاك. شدِّد قتالك على المدينة وأَخْرِبها. وشدده». فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها، نَدَبَت بَعْلَها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمَّها إلى بيته، وصارت له امرأة، وولدت له ابنًا. وأما الأمر الذي فعله داود فقَبُح في عَيْنَي الرب". (صموئيل الثاني ١١: ٢ ـ ٢٧).

وحاشا لشخص مؤمن ـ فضلًا عن نبي مرسل ـ أن ينزل إلى هذا الدَّرَك من الغصب والاعتداء. ولكنه كتابهم المقدس ومعتقدهم الديني، الذي سمح لهم أن يدَّعوا هذا الادعاء على نبي من الأنبياء.

وكذلك فإنه يتهم لوطًا بأنه زنى بابنتيه، فقال: "وصعد لوط من صُوغَر وسكن في الجبل، وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البِكْر للصغيرة: «أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هَلُمَّ نسقي أبانًا خمرًا ونضطجع معه، فنُحْيِي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: «إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه «موآب»، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضًا ولدت ابنا ودعت اسمه «بن عَمِّي»، وهو أبو بني عمُّون إلى اليوم". (التكوين ١٩: ٣٠ ـ ٣٨).

وإذا كان النبي عند جميع مؤلِّفي الكتاب المقدس يصل إلى هذا الحد، بل إلى درجة الإقرار بالوثنية ـ كما ينسب الكتاب المقدس لهارون صناعته العجل لليهود ليعبدوه ـ فلا تستكثر على أصحاب هذه الدعوى أن يجعلوا الحمار يرى المَلَك، ويحظى بهذا الشرف الذي لا يرقى إليه نبي، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ (الجمعة)[1].

الخلاصة:

- أنبياء الله ﷻ ورسله هم المصطفون الأخيار من عباده ﷻ، وهم جميعًا معصومون، فمن صفاتهم الصدق والتبليغ والفطنة والأمانة، ويمتنع عليهم أضداد هذه الصفات الأربعة، فيستحيل عليهم الكذب، وكتمان شيء مما أمروا بتبليغه، والغفلة وعدم الفطنة والخيانة، ودليل ذلك الكتاب والسنة والإجماع.
- فأي اتهام لهم أو تطاول عليهم هو اتهام لله ﷻ؛ لأن الله ﷻ هو الذي اصطفاهم واختارهم من بين خلقه ليكونوا رسله، فعصمهم من الزلل والخطأ.
- أما ما جاء في الكتاب المقدس من اتهام الأنبياء بأخس الاتهامات، وأقبح الصفات، فإن هذا إنما وضعه أحبارهم ورهبانهم، لخدمة رغباتهم وقضاء شهواتهم، وهذا ما حدث بالفعل، فقد أباحوا

١. الأديان في القرآن، د. محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، د. ت، ص١٢٠: ١٢٨ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

لأنفسهم الزنا داخل بيوت العبادة عندهم، وشهد عليهم بذلك صديقهم قبل عدوهم.

الشبهة الثانية بعد المائة

ادِّعاء أن الأنبياء غير معصومين لوقوعهم في بعض الذنوب(*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغرضين أن الأنبياء بشر غير مفضَّلين، وليس لهم أي مَيْزة على غيرهم من البشر، وما عُرف عن العصمة، فهو من حديث المتكلِّمين عن السَّلب والاختيار. ويستدلون على زعمهم هذا بوقوع الأنبياء في بعض المخالفات من: الظلم والنسيان والشك، وارتكابهم بعض الذنوب، وطلب المنهي عنه. ويتساءلون: هل يتفق هذا مع ما يُقال عن عصمتهم وتفضيلهم على بقية البشر؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الأدلة العقلية والنقلية تثبت العصمة للأنبياء ويكفينا أن نعلم أن الله أرسلهم؛ ليكونوا قدوة للناس في امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

٢) مبدأ العصمة لم يكن من أفكار المتكلمين، وإنما هو مبدأ قرآني صرف.

٣) العصمة منحة ربانية يمنحها الله من يشاء من عباده، وقد خصها برسله المصطفين الأخيار، وهي لا تسلب الاختيار عن صاحبها الذي هو أساس التكليف.

التفصيل:

أولا. الأدلة العقلية والنقلية تثبت العصمة للأنبياء:

العصمة في اللغة هي: المنع. وفي الاصطلاح: حفظ الله لأنبيائه ورسله من الوقوع في الذنوب والمعاصي، فالعصمة ثابتة للأنبياء، وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله ﷻ وميَّزهم بها على سائر الخلق، فلم تكن لأحد إلا الأنبياء الكرام.

وهناك العديد من الأدلة العقلية، والأدلة النقلية من القرآن والسنة على عصمة الأنبياء:

١. **الأدلة العقلية على عصمة الأنبياء:**

- لو صدر الذنب عن الأنبياء لكان حالهم في استحقاق الذم في العاجل والعقاب في الآجل أشد من حال عصاة الأمة؛ وهذا باطل، فصدور الذنب عنهم باطل.

بيان ذلك: أن أعظم نعم الله تعالى على العباد نعمة الرسالة والنبوة، وكل من كانت نعم الله عليه أكثر وأعظم، كان صدور الذنب عنه أفحش، وصريح العقل يدل على ذلك، ويؤكده من النقل أيضًا:

- قول الله ﷻ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (الأحزاب: ٣٢)، وقول الله ﷻ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ (الأحزاب: ٣٠).

- أن المحصن يُرجم إذا زنا، وغير المحصن يجلد.

(*) النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق.

® في "عصمة الأنبياء في عقيدة المسلمين" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة والثمانين، من هذا الجزء.

www.kalemasawaa.com

○ أن العبد يُحَدُّ نصف حَدِّ الحر.

● طاعة الأنبياء واجبة، فلو صدرت منهم المعصية للزم أن تكون المعصية واجبة وحرامًا وهو باطل، وأما أن طاعتهم واجبة فلقوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ٦٤)، وأما أن المعصية لو صدرت منهم للزم أن تكون واجبة وحرامًا فلأنه يجب علينا الاقتداء بهم في تلك المعصية، فتصير تلك المعصية واجبة علينا، وكونها معصية يوجب كونها محرمة علينا، فيلتزم توارد الإيجاب والتحريم على الشيء الواحد في آن واحد، وهو باطل، فالأنبياء لم تصدر عنهم معصية[١].

● لو صدر ذنب عن الأنبياء - عليهم السلام - لوجب زجرهم وإيذاؤهم؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، ولكن زجر الأنبياء فيه إيذاء لهم، وإيذاء الأنبياء حرام لقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (الأحزاب). كما أن هذا فيه مُشاقَّة للرسول، ومشاقة الرسول محرَّمة لقول الله ﷻ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (النساء)، ومن ثم كان صدور الذنب عن الأنبياء ممتنعًا[٢].

● لو صدر الذنب عن الأنبياء ما كانوا مقبولي الشهادة لقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (الحجرات). فلو أقدم الأنبياء - عليهم السلام - الذنوب، ورُدَّت شهادتهم لكانوا أقل حالًا من عدول الأمة، فكيف يكون غيرهم أفضل حالًا منهم، وقد اصطفاهم الله تعالى وفضَّلهم على العالمين؟![٣]

● لو صدرت المعصية عن الأنبياء عليهم السلام لوجب أن يكونوا موعودين بعذاب الله؛ لقوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (النساء)، ولكانوا ملعونين لقوله ﷻ: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (هود)، وبإجماع الأمة هذا باطل فكان صدور المعصية عنهم باطلًا[٤].

● أنهم كانوا يأمرون بفعل الطاعات وترك المعاصي، ولو تركوا الطاعة وفعلوا المعصية لدخلوا تحت قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الصف)، وتحت قوله ﷻ: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (البقرة). ومعلوم أن هذا في غاية القبح، لكنهم منزَّهون عن القبح. وأيضًا أخبر ﷻ عن رسوله شعيب عليه السلام أنه برَّأ نفسه من ذلك، فقال: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ (هود: ٨٨).

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٣٣، ١٣٤.

٢. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص٤٢.

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٣٥ بتصرف.

٤. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص٤٣ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

• وصف الله تعالى أنبياءه بالاصطفاء والخيرية في كل الأمور، ومن كان موصوفًا بالاصطفاء والخيرية على هذا النحو لا تصدر المعصية عنه، أما أن الله ﷻ وصفهم بالاصطفاء والخيرية فجاء في آيات كثيرة منها: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الحج)، واختيار الله لهم لتبليغ شرائعه إلى الناس لا يكون إلا عن صلاحية منهم للقيام بما كُلِّفوا به على أكمل وجه مصداقًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

وقال ﷻ عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ (ص)، ولفظي (المصطفين، والأخيار) يتناولان جميع الأفعال، سواء المأمور بها أم المنهي عنها، فثبت بذلك أنهم كانوا من المصطفين الأخيار في كل الأمور[1]، ومن ثم فصدور المعصية عنهم غير وارد.

• قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾(الأنبياء)، والألف واللام في صيغة الجمع في كلمة "الخيرات" تدل على العموم، فأخبر الله ﷻ عن أنبيائه في هذه الآية بأنهم كانوا فاعلين لكل ما ينبغي فعله من الطاعات، تاركين لكل ما ينبغي تركه من المعاصي، وذلك يدل على عصمتهم من الذنوب والمعاصي.

• لو أذنب الأنبياء لكانوا غير مُخلِصين، وكونهم غير مخلصين باطل، فبطل كونهم مذنبين، وثبت نقيضه وهو عصمتهم من الذنب، قال ﷻ في حق إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (ص). وقال ﷻ في حق يوسف عليه السلام: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف). وإذا ثبتت العصمة في حق واحد ثبتت في حق الكل، أما أنهم لو أذنبوا لكانوا غير مخلصين؛ فلأن الذنب لا يقع إلا عن إغواء من الشيطان، وهو لا يغوي المخلَصين، بدليل قوله ﷻ حكاية عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحجر).

• قسم الله تعالى المكلَّفين إلى قسمين: حزب الشيطان، ويقول ﷻ فيهم: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (المجادلة)، وحزب الله كما قال ﷻ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (المجادلة)، ولا شك أن حزب الشيطان هو الذي يفعل ما يريد الشيطان ويأمره به، فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء؛ لصدق عليهم أنهم من حزب الشيطان، ولصدق عليهم قوله ﷻ: ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ولصدق على الزهاد من آحاد الأمة قوله ﷻ: ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، وحينئذ يلزم أن يكون واحد من آحاد الأمة أفضل بكثير من الأنبياء.

• قال ﷻ في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (البقرة: ١٢٤)، والإمام هو الذي يُقتدَى به،

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٣٦، ١٣٧.

www.kalemasawaa.com

فلو صدر الذنب عن إبراهيم عليه السلام لكان اقتداء الخلق به في ذلك الذنب واجبًا، وهذا باطل[١] لأمرين:

- أن وجوب الاقتداء بمن يفعل الذنب أَمْرٌ بذلك الذنب، والله لا يأمر بالفحشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ (الأعراف: ٢٨).
- الله لا يصطفي، ولا يجعل للناس إمامًا مَنْ يكون قدوة في فعل الذنب؛ لأن الاصطفاء إنما يكون لأجل القدوة في الهداية، فثبت أن الخليل عليه السلام لم يذنب، والأنبياء جميعًا مثله[٢].

- قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (البقرة). وثابت أن المذنب ظالم، وهذا العهد الذي حكم الله عز وجل بعدم وصوله للظالمين إما أن يكون عهد النبوة أو عهد الإمامة، فإن كان الأول ـ أي: عهد النبوة ـ فهو المقصود، وإن كان الثاني ـ أي: عهد الإمامة ـ فالمقصود أظهر؛ لأن عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبوة، فإذا لم يصل عهد الإمامة إلى الظالم ـ وهو المذنب العاصي ـ فالأولى ألا يصل عهد النبوة ـ وهو أجلُّ وأعظم ـ إلى ذلك العاصي[٣].

ومن ثم تثبت العصمة لهؤلاء الأنبياء، وتستحيل عليهم المعصية.

- من الثابت لدى العلماء أن الأنبياء أفضل من الملائكة، وبما أن الملائكة لم يقدموا على شيء من الذنوب، فالأولى أن يُحجِم الأنبياء عنها حتى تثبت لهم تلك الأفضلية.

- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (سبأ). فهؤلاء الذين لم يتبعوا إبليس إما أن يقال: إنهم الأنبياء أو غيرهم، فإن كانوا غيرهم لزم أن يكونوا أفضل منهم، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات)، وتفضيل غير النبي على النبي باطل بالإجماع؛ فوجب القطع بأن أولئك الذين لم يتبعوا إبليس هم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وكل من أذنب فقد اتبع إبليس، فدل هذا على أن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ما أذنبوا[٤].

٢. الأدلة النقلية على عصمة الأنبياء:

يستقصي د. أبو النور الحديدي هذه الأدلة التي تثبت عصمة الأنبياء ويفصل القول فيها، وننقل هذا التفصيل مختصرًا على النحو الآتي:

قد حفل القرآن الكريم بالكثير من الآيات التي تتحدث عن أنبياء الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وتثبت لهم كل كمال بشري يمكن أن تحويه كلمة "العصمة"، وتجعلهم فوق الدنايا والصغائر بما يدفع شبهات المفترين.

مع ملاحظة أن ما يُحكم به على واحد من أنبياء الله، ينطبق على بقية أنبيائه.

- فمن الآيات التي تحدثت عن أبي البشر آدم عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

١. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص٤٦.
٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٣٨.
٣. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص٤٦، ٤٧ بتصرف يسير.
٤. المرجع السابق، ص٤٥.

www.kalemasawaa.com

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (البقرة).

وعِلْمُ آدم بالأسماء مبرر لتفضيله، وإسجاد الملائكة له، ولكنه ليس المبرر الوحيد، فالعلم عندما لاتصاحبه طاعة الله، والكفُّ عن محارمه يفقد قيمته وثمرته، ولا يستحق صاحبه به تفضيلًا على غيره. فلا بد إذن أن آدم عليه السلام قد شابه الملائكة في التخلُّق بأخلاقهم من فعل المأمورات، وترك المنهيات، ثم امتاز عليهم بعلم الأسماء دونهم، فلهذا كله استحق آدم عليه السلام شرف إسجادهم له.

• أما عن نبي الله نوح عليه السلام فقد امتدحت آيات كريمة من القرآن الكريم نوحًا عليه السلام بأنه عبد شكور، قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإسراء)، وأما الهداية، فقد وصف الله تبارك وتعالى بها نوحًا عليه السلام في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنعام). أي: وهديناه إلى الدين الحق والمعرفة الصحيحة من قبل إبراهيم عليه السلام.

وأما الصلاح فقد وصفه الله تبارك وتعالى به هو ولوط ـ عليهما السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ ۖ﴾ (التحريم: ١٠).

وأما الاصطفاء بالرسالة ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (آل عمران). واصطفى: أي: اختار، فمعنى اصطفاهم: جعلهم صفوة خلقه تمثيلًا بالشيء الذي يُصفَّى وينقَّى من الكُدورة.

ويروي بعض العلماء قولًا يوضح اصطفاء آدم ونوح هو: اصطفى الله آدم عليه السلام بأن خلقه بيده في أحسن تقويم وبتعليم الأسماء له، وإسجاد الملائكة له، وإسكانه الجنة. واصطفى نوحًا عليه السلام بكونه أول من نسخ الشرائع، إذ لم يكن تزويج المحارم قبل بعثته حرامًا، وبإطالة عمره، وجعل ذريته هم الباقين، واستجابة دعوته في حق الكفرة والمؤمنين، وحمله على متن الماء.

ومن البدهي أن من اصطفاه الله، وجعله على هدى، وفضَّله على عباده، وجعله عبدًا شكورًا لا تصدر عنه معصية؛ لأن الله عز وجل لا يختار العصاة؛ ليهدي بهم خلقه، ثم إن النبوة أعظم النعم على الإنسان، والعاصي لا يقوم بشكر الله على نعمه، ونوح عبد شكور، فهو إذن لم يعص الله عز وجل[1]. وما يُحكم به على نبي من أنبياء الله، ينطبق على جميعهم.

• أما عن نبي الله إبراهيم عليه السلام فقد امتدحه القرآن الكريم بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، ونفى عنه ما ادعته كل من اليهود والنصارى والمشركين، من أنهم على ملته، بل أثبت القرآن أن أقرب الناس

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، ص١٤١ وما بعدها.

www.kalemasawaa.com

لخليل الله إبراهيم عليه السلام هم أتباعه ومحمد ﷺ والذين آمنوا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨ ﴾ (آل عمران).

كما امتدحه الله تعالى في آية أخرى فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ ﴾ (الأنبياء)، "والرشد" فسره بعض العلماء بالنبوة، استئناسًا بقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾؛ لأن الله تعالى لا يخص أحدًا بالنبوة إلا إذا علم من حاله أنه يقوم بها، ويجتنب ما لا يليق بها. وهذا الرشد الذي آتاه الله إبراهيم عليه السلام قد طهَّر قلبه، فجعله سليمًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ٨٤ ﴾ (الصافات). أي: إن الله عز وجل نقَّى قلبه من العقائد الفاسدة، والنيات السيئة، والصفات القبيحة.

ومن الآيات التي تحدثت عن حميد صفاته عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ ﴾ (هود)، فتضمنت هذه الآية وصفه عليه السلام بثلاث صفات:

- أنه حليم: أي: غير عجول في الانتقام من المسيء إليه.
- أنه أوَّاه: أي: كثير التضرع والدعاء من خوف الله.
- أنه منيب: أي: راجع إلى الله عز وجل.

وهي صفات تدل كلها على رقة القلب، والرأفة، والرحمة، وغير ذلك من الصفات والكمالات التي لا تجتمع لأحد من البشر، ولا توجد إلا متفرقة، في حين أنها اجتمعت لخليل الله إبراهيم عليه السلام حتى وصف بأنه أمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۦٓۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ﴾ (النحل).

فقد وصفه الله عز وجل في هذه الآية بأنه كان أمة وحده، أي: عنده من الخير ما عند أمة، أو أنه كان مؤمنًا وحده والناس كلهم كفار. كما وصفه بأنه كان قانتًا مطيعًا له، مائلًا عن الباطل إلى الحق، ولم يكن من المشركين، شاكرًا لنعم الله عليه، اجتباه واصطفاه ربه للنبوة، وهداه إلى الطريق الموصل إليه تعالى وذلك بهدايته إلى ملة الإسلام، كما جمع الله له خير الدنيا، وجعله في الآخرة في عِداد الصالحين في الدرجات العُلَا من الجنة.

فهل يصح أن يقال عن الذي رفع الله درجته، وأعلى في العالمين ذكره، وطهّر قلبه، وامتدحه بحميد الصفات: إنه غير معصوم من الذنوب التي تَشينه وتَحُطُّ من شأنه؟! قد قال الله تبارك وتعالى عنه أيضًا في وصفه بالصدق: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ ﴾ (مريم).

ولقد قام الخليل عليه السلام بحقوق النبوة والاصطفاء، فوفّاها وبلّغها، وأدّاها كلها على أكمل وجه، قال تعالى: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ ﴾ (النجم).

قال قتادة: إنه وفَّى طاعة الله، وأدَّى رسالته إلى

www.kalemasawaa.com

خلقه، واختار ابن جرير هذا القول؛ لأنه يشمل الذي قبله، وأيضًا يشهد له قول الله ﷻ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (البقرة).

فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلَّغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون إمامًا للناس، يُقتدى به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، وهذا يدل على أنه عليه السلام معصوم من الذنوب؛ لأنه ـ وقد جعله الله قدوة ـ لو صدرت المعصية منه لوجب الاقتداء به فيها، فيلزم وجوب فعل المعصية وهو باطل[1].

• لقد تحدث القرآن الكريم أيضًا عن نبي الله لوط عليه السلام بما يشهد بعصمته من الذنوب والمعاصي، فذكر ﷻ أنه عليه السلام قد آمن بإبراهيم عليه السلام قال ﷻ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ (العنكبوت). وأن الله تعالى قد آتاه حكمًا وعلمًا، وصلاحًا ورحمة، قال ﷻ: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الأنبياء). والحُكْم: فُسِّر بالحكمة، وهي: الإصابة في القول والعمل، وفسر بـ: الفصل بين الخصوم، وفسر بـ: النبوة. والعلم: هو العلم بكل ما ينبغي علمه للأنبياء ـ عليهم السلام. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ نجاه الله من أهل سدوم الذين كانوا يعملون الخبائث والسوء، والفسق من اللواط وقذف المارة بالحصى والسباب... وغير ذلك مما يدخل تحت الفاحشة والمنكر وقطع السبيل.

وكان لوط عليه السلام يكره أعمال قومه القبيحة: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ (الشعراء). أي: إني أبغض عملكم غاية البغض، وينهى قومه عن ارتكاب تلك الأفعال، ويصفهم بالجهل نتيجة أفعالهم تلك: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النمل)، ونتيجة لإنكاره عليهم ونهيه إياهم؛ ضاق قومه به ذرعًا، وتوعدوه إن لم يَكُفَّ عن هذا؛ ليخرجوه من بين أظهرهم بقوة وعنف، قال ﷻ: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ (الشعراء). فخوَّفهم لوط عليه السلام من العذاب، فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٩)، وعندئذ طلب من ربه أن ينجيه من شؤم عملهم، وعذابه فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (الشعراء)، فنجاه الله ﷻ ومن آمن معه، فأخرجهم من بين قومه وقت حلول العذاب بهم إلا امرأته لرضاها بفعل قومه، قال ﷻ: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ (الشعراء).

ومن أخلاقه رعايته لحق الضيف، فقد دافع عن أضيافه ولم يكن يعرف أنهم ملائكة ؛ حتى لا يُخْزَى في ضيفه، فقال القرآن حاكيًا عنه: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ (هود). وقد وصفه الله

١. المرجع السابق، ص١٤٨: ١٥٤ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

بالصلاح وأدخله في رحمته، قال الله: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الأنبياء)، لهذا كله فضله الله تبارك وتعالى مع غيره من الرسل ـ عليهم السلام ـ على العالمين: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (الأنعام).

فإذا كان لوط عليه السلام بهذه المثابة من التصديق بجميع ما أتى به إبراهيم عليه السلام، وقد أوتي حكمًا وعلمًا وصلاحًا ورحمة وفضلًا، فلا يُقبل التقوّل عليه بأنه عليه السلام التجأ إلى غير ربه، أو رضي أن يأتي قومه الفاحشة مع بناته، ولا يقبل أيضًا أن يشرب الخمر مهما كانت الحيلة إلى ذلك، ويضطجع مع ابنتيه تحت أي مؤثر كان ـ كما زعم المبطلون ـ مستندين إلى نصوص وردت في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين[1].

• يأتي الحديث عن يوسف عليه السلام فيثبت له القرآن الكريم مثلما أثبت لغيره من الأنبياء من الفضائل ومكارم الأخلاق والتنزّه عن المعاصي والذنوب، وفي شأنه يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ (يوسف). "ويجتبيك" أي: يصطفيك للنبوة، "وتأويل الأحاديث" أي: تعبير الرؤى، "ويتم نعمته عليك" أي: يجمع لك بين النبوة والملك، أو بين خيري الدنيا والآخرة.

ويمكن أن نلخص من أخلاق يوسف عليه السلام الطيبة ما يقطع بنزاهته عن كل ما نُسب إليه ـ كذبًا وافتراءً ـ من افتراءات، وهي:

- العِفَّة عن الشهوات، وضبط النفس عن السوء والفحشاء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف).
- الحِلْم عند الغضب، وضبط النفس عن مجازاة السيئة بمثلها، قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (يوسف).
- وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ (يوسف).
- ثقته بنفسه: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف).
- قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى عليه سنون حتى يضبط السياسات، ويعرف للناس أعمالهم: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يوسف).
- استعداده الكامل للعلم وحبه له، وتمكنه منه، قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (يوسف). وقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ

١. المرجع السابق، ص١٥٥: ١٥٧ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (يوسف). وقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ (يوسف).

○ شفقته على الضعفاء، وتواضعه مع جلال قدره، وعلو منصبه، فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ (يوسف)، وحادثهما في أمور دنياهما ودينهما، فالأول بقوله: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (يوسف: ٣٧)، والثاني بقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ (يوسف: ٣٨).

○ العفو مع القدرة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ (يوسف).

○ إكرام الأهل والعشيرة: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ (يوسف).

○ حسن التدبير: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (يوسف). ومن حسن تدبيره، وسديد سياسته في ملكه اجتذابه القلوب إليه باللين بالإحسان: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (يوسف). وتدبير الحيلة الذكية العجيبة بمسأله الصُّواع، واتهام إخوته جميعًا بالسرقة؛ ليضم أخاه إليه ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ (يوسف).

○ ومعاملة المحكومين بشرعهم وعادتهم رفقًا بهم، وليكون أدعى لامتثالهم: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (يوسف)[1].

● أما عن موسى عليه السلام فقد آتاه الله حكمًا وعلمًا؛ جزاء له على إحسانه قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ (القصص)، وقد تخلَّق عليه السلام بأخلاق طيبة؛ منها: الأمانة التي وصفته بها ابنة شيخ مدين: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ (القصص).

ومنها الحياء: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "إن موسى كان رجلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يُرى من جِلْده شيء استحياءً منه، فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستُّرَ إلَّا من عَيْب بجلده، إما بَرَصٌ وإما أُدْرَة[2] وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحَجَر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَرُ. ثوبي حجر. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون، وقام الحجرُ فأخذ ثوبه فلبسه، وطَفِق بالحجر ضربًا بعصاه.

---

١. المرجع السابق، ص١٥٨: ١٦٨ بتصرف.

٢. الأُدْرَة: الخِصْية المنتفخة.

www.kalemasawaa.com

فوالله إن بالحجر لنَدَبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا: فذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأحزاب)"[1].

ومنها: النجدة ونصرة المظلوم، ويتبين هذا من إغاثته للإسرائيلي الذي استعانه على ظالمه المصري الذي كان يسخره في حمل الحطب إلى مطبخ فرعون، ومنها: معاونة الضعيف.

ولهذه الصفات التي تحلَّى بها آتاه الله تعالى الهدى، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (غافر)، كما آتاه الله حكمًا: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الشعراء).

وكان نبي الله موسى عليه السلام ذا جاه وقدر عظيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأحزاب).

ومن وجاهته ومنزلته عند الله تعالى أنه يوم القيامة حين يُصعق الناس، ويكون نبينا ﷺ أول من يفيق، فإنه يرى موسى عليه السلام آخذًا بشيء من العرش بقوة، فلا يدري نبينا أكان موسى ممن صعق فأفاق قبله ـ وهذه فضيلة لموسى ظاهرة ـ أو كان موسى ممن استثنى الله فلم يُصعق، وهذه أيضًا فضيلة لموسى عليه السلام.

فهل بعد هذا يلتفت العقل إلى كلمة تطعن في موسى عليه السلام أو فرية تنتقص من قدره[2]؟

• أما عن داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ فقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن اختيار الله تبارك وتعالى لهما، وإيتائهما الملك والنبوة: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وأعطى سليمان عليه السلام ما أعطى داود: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ (النمل: ١٦)، ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (الأنبياء:٧٩)، وأثبت الله لهما ذكاء النبوة وتواضعها فقال: ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (النمل)، فهما لم يَدَّعيا التفضيل على جميع البشرية؛ لأنهما لم يستوعبا جميع النعم التي تفضل الله بها على عباده، فضلًا عن أن يدعيا استيعاب البشر أجمعين، فهو منطق راشد يتمثل فيه الذكاء والأدب، والتواضع والحياء.

وقد أمر الله ﷻ نبينا محمدًا ﷺ بالاقتداء بسيدنا داود عليه السلام في الصبر فقال: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (ص)، فلو كان نبي الله داود عليه السلام مرتكبًا للمعاصي لما كان من الحكمة أمر نبينا ﷺ بالاقتداء به؛ إذ كيف يقتدى في الصبر بمن لم يصبر عن المعصية؟!

وقد أخبر الحق ﷻ أن لكل من داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ عنده منزلة عالية، وحسن مرجع، فقال عن كل منهما: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (ص)، وكل هذا يدل على براءتهما مما نسب

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام (٣٢٢٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانًا في الخلوة (٧٩٦)، واللفظ للبخاري.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٦٩: ١٧٥.

www.kalemasawaa.com

إليهما زورًا وافتراءً، فإن الذي يستحق الزلفى وحسن المآب لا يتصور منه صدور المعصية أو الذنب.

هذه بعض أخلاق وخصال المُصْطَفَيْنَ الأخيار الذين صنعهم الله بيده، ورباهم، ليكونوا هداة ومثالًا لمن يرجو الله واليوم الآخر، فهل يقابل إحسان الله ﷻ لعبده بشيء من الإساءة؟ أو يتصور منه صدور معصية من المعاصي؟ هذا ما لا يقول به عاقل منصف.

ثانيًا. العصمة مبدأ قرآني، ليس من أفكار المتكلمين:

مبدأ العصمة مبدأ قرآني صرف؛ إذ إنه جاء ـ أول ما جاء ـ في القرآن الكريم؛ حيث يقول الله ﷻ في حق الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ (التحريم)، ولا يجد الإنسان كلمة أوضح من هذا القول في تحديد حقيقة العصمة وواقعها في مجال الامتثال، فالآية تدل على عصمة الملائكة في مجال التكليف.

وبإمعان النظر في هذه الآية يظهر أن العصمة بمفهومها القريب ـ أي: العصمة عن العصيان والخطأ ـ مع قطع النظر عن موصوفها ـ الملائكة ـ قد طرحها القرآن الكريم، ولفت نظر المسلمين إليها من دون أن يحتاج علماؤهم إلى أخذ هذه الفكرة من الأحبار، أو الرهبان، أو حتى المتكلمين.

فإن قيل: إن ذلك في حق الملائكة، وليس في حق الأنبياء، قلنا: ليس الشأن شأن المجيء في الملائكة أو الأنبياء، وإنما القضية هي وجود المبدأ نفسه، فقد وجد في القرآن الكريم في حق الملائكة. وإن كانت هذه الآية تتحدث عن الملائكة، فلقد صرّح القرآن الكريم بعصمة النبي محمد ﷺ في غير آية، ومنها: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ (النجم).

فالآيات تشير بوضوح صريح إلى عصمة النبي محمد ﷺ؛ فأنه لا ينطق عن هوى النفس، ولا تجيز الذات، وإنما كلامه وحي من الله تبارك وتعالى، ومن ثَمَّ يكون مصونًا معصومًا من الزلل في المرحلتين: مرحلة الأخذ، ومرحلة التبليغ، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ (النجم). وليس ذلك في حق النبي محمد ﷺ فحسب، بل إن العصمة ثابتة للأنبياء جميعًا.

ثالثًا. العصمة منحة ربانية، ولا تعني سَلْب الاختيار:

العصمة موهبة من مواهب الله ﷻ يتفضل بها على من يشاء من عباده، بعد وجود أرضيات صالحة وقابليات مصححة لإفاضتها عليهم.

فالله ﷻ يجتبي من يشاء من عباده؛ ليكونوا أسوة للخلق، ولما كان الأمر مع هؤلاء المُجتَبَيْنَ كذلك، كان لزامًا لهؤلاء أن يكونوا معصومين؛ حتى يقع كلامهم في القلوب موقعه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾ (الأنعام).

وعصمة الأنبياء لا تعني سلب اختيارهم في ارتكاب المعاصي والآثام، وإنما هم مع قدرتهم على إتيان المعاصي والذنوب، يبعدون ـ بعلمهم وخوفهم من الله وحفظ الله لهم ـ كل البعد عن هذه الرذائل.

www.kalemasawaa.com

وأيًّا كان تفسير معنى العصمة فهي لا تسلب اختيار النبي، فالنبي مخيَّر في فعله، في إمكانه إتيان المعاصي وتركها، ومثال ذلك في واقعنا: الإنسان العاقل العالم بوجود الطاقة الكهربائية في الأسلاك المنزوعة من جلدها لا يمسّها ـ مع قدرته على مسِّها ـ إلا أنه علم بعواقب المس فتجنبه، وكذلك الطبيب الذي يرى المسلول أو المجذوم يشرب من ماء؛ فإن هذا الطبيب ـ لعلمه بعواقب استعمال الماء بعد هذا المريض ـ يتنزه عن استعماله؛ خوفًا على نفسه، مع قدرته على استعماله.

وكذلك الأنبياء لما حصل لهم يقين العلم بالله، وعرفوا حقيقة أمره ونهيه، وما هو نعيمه وعذابه؛ تجنبوا، بل فروا من المآثم فرار الطبيب من المجذوم؛ ولذلك نجد النبي ﷺ يقول لأصحابه: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا"[1].

إن هذه الميزة ـ العصمة ـ لا تغير الطبيعة الإنسانية المختارة في أفعالها الإرادية، ولا تخرجها إلى ساحة الإجبار والاضطرار. كيف والعلم من مبادئ الاختيار؟ ومجرد قوة العلم لا يوجب إلا قوة الإرادة، كطالب السلامة إذا أيقن بكون هذا المائع الذي أمامه سُمًّا قاتلًا، فمن حين علمه بتلك الحقيقة، يمتنع عن شرب ذلك المائع باختياره.

تلك هي حقيقة عصمة الأنبياء، التي لا تسلبهم إرادتهم ـ كما زعم بعض المتوهمين ـ وإنما تحفظهم بحفظ الله ﷻ من الوقوع في رذائل الأمور؛ لأنه ﷻ إنما أرسلهم لهداية البشر، فليس من المعقول أبدًا أن يتركهم يتخبطون في ظلام الآثام والمعاصي كسائر البشر، فلا بد لهؤلاء الأنبياء ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ من خصائص فريدة، وميزات عديدة، تميز هؤلاء الأنبياء بين أقوامهم الذين أُرسلوا إليهم.

ويشهد لذلك القول قول الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنعام). وتفيد هذه الآية إمكانية وقوع الشرك من هؤلاء الرسل، إلا أن اجتباء الله، وهدايته لهم، وتعليمه إياهم بحقيقة العبادة، وأصول الاعتقاد، كل ذلك منعهم من الوقوع في الشرك.

وعليه فلا مجال للقول بأن عصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ تعني سلب الاختيار عنهم، أو إنها مجرد فكرة من أفكار المتكلمين عن السلب والاختيار.

الخلاصة:

- العقل والنقل يثبتان العصمة للأنبياء، حتى يسلم لهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ مبدأ الطاعة والاقتداء.
- العصمة مبدأ قرآني، ولم يكن من أفكار المتكلمين؛ لأن علم الكلام لم ينشأ أساسًا ـ إلا في ضوء الاختلافات المذهبية والفكرية في القرن الثاني الهجري.
- إن الله يجتبي من يشاء من عباده، ويعصمهم من الوقوع في الأخطاء؛ ليصح الاقتداء بهم، والعصمة منحة ربانية، يتفضل الله بها على أنبيائه؛ ليكونوا أسوة للخلق، وهي ليست أمرًا مكتسبًا.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف (٩٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف (٢١٢٧).

www.kalemasawaa.com

• العصمة لا تعني سلب الحرية، والجبر على الفعل، فهي لا تعني سلب حرية الأنبياء في ارتكاب المعاصي والآثام، وإنما هم مع قدرتهم على إتيان المعاصي والذنوب إلا أنهم ـ بعلمهم وخوفهم من الله، وحفظ الله لهم ـ يبعدون كل البعد عن هذه الرذائل والمعاصي.

الشبهة الثالثة بعد المائة

ادعاء أن القرآن يأتي بأحداث لا وجود لها في الحقائق التاريخية (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم يأتي بأحداث مبهمة لا وجود لها في الحقيقة، ويستدلون على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ (الفرقان). ويتساءلون: من هم أصحاب الرس؟ وفي أي البلاد كانوا؟ وفي أي الأزمان عاشوا؟ ولماذا لم يوضح لنا القرآن ذلك إن كان لهم وجود؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وأشملها وأكملها؛ حيث جمع الله فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، كما أن عدم العلم بالشيء ليس دليلًا على عدم وجوده.

٢) من قصص الأمم ما ذكرها القرآن مفصَّلًا وكرّرها، وفيها ما يختصر ذكرها، ومنها ما يشير إليها إشارة عابرة، ومنها ما يطوى ذكره؛ ليحتفظ علام الغيوب به عنده.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وأشملها وأكملها:

القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ الذي لم تمتد إليه يد البشر بالتحريف أو التبديل أو التغيير، فهو آخر الكتب السماوية وخاتمها، وأشملها، وأكملها؛ حيث جمع الله فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، ولهذا جعله الله تعالى مهيمنًا، أي: شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، فما وافق القرآن من الكتب السماوية فهو حق، وما خالفه فهو باطل[1].

كما أن عدم العلم بقصة أصحاب الرس ليس حكمًا بعدم وجودها، فلم يذكر التاريخ كل شيء حتى يُنكر ما لم يرد فيه، وعلى هذا فإن هؤلاء المشككين كان ينبغي عليهم فيما ورد من حقائق في القرآن لم يعلموها، أن يسألوا إذ جهلوا، ويطلبوا العلم من أهله، أمَّا أن يكون الإنسان جاهلًا بالشيء ثم يدَّعي عدم وجوده، لا لدليل قائم لديه يقوِّي زعمه أو بينة تدعم قوله، فهذا هو الجهل المركب.

ثم إننا نسألهم عن مقدار علمهم وما الذي قد علموه من أحداث البداية والنهاية في الخلق وشئون الحياة منذ أن أوجدها بارئها ﷻ.. إن موسى لما التقى

(*) موقع ابن مريم.

١. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ج١، ص٤٣٤ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

بالخضر ـ عليهما السلام ـ فسلم عليه، فردَّ الخضر عليه السلام وقال: "هل بأرضك من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم؛ قال: فما شأنك؟ قال: جئتُ لتعلمني مما عُلِّمْتَ رشدًا. قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك؟! يا موسى، إن لي علمًا لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علمًا لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال: والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله، إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر"[١] [٢].

فإذا كان ذلك علم الأنبياء والأولياء الذين وهبهم الله علمًا لم يعطه أحدًا غيرهم، فما بالنا بغيرهم من البشر العاديين، ماذا يساوي علمهم في جنب علم الله تبارك وتعالى؟!

ثانيًا. من قصص الأمم ما ذكرها القرآن مفصلا وكررها، وفيها ما يختصر ذكرها، ومنها ما يشير إليها إشارة عابرة، ومنها ما يطوى ذكره ليحتفظ علام الغيوب بعلمه:

الرسُّ في كلام العرب: البئر غير المطويَّة، والجمع رِساس[٣]، قال النابغة الجعدي: تنابلة يحفرون الرساسا، يعني: آبار المعادن. وأصحاب الرسِّ: قوم من بقايا ثمود؛ لذلك لم يذكر الله ﷻ قصتهم إلا عرضًا، فهم كقوم تُبّع الذين كانوا من قبائل سبأ، أغنى عن ذكرهم تفصيلًا ما ذكره الله عن سبأ[٤].

إن أصحاب الرس من بين الهالكين الذين لم تبق من بعدهم ذرية، ولم تبق لهم آثار، تدل عليهم والله ﷻ ينوِّع في ذكر الأمم الخوالي؛ ليبين لنا أن قدرته تناولت كل مقدور، فمن هذه الأمم من بقي من بعدها ذرية لا تزال موجودة، وهم قوم موسى، ومنهم من استؤصلوا ولم يترك من بعدهم نسل وهم عاد، وثمود، وأصحاب الرس، وهناك أمم كثيرة عاشوا في قرون متطاولة، على مدى التاريخ الإنساني طوي ذكرهم، فما أكثر الهالكين! كما قال ﷻ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ (الفرقان)، وهناك من الأمم من أهلكوا، وبقيت آثارهم تدل عليهم، كقوم لوط عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۖ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ (الفرقان). وهذا التنوع في ذكر قصص السابقين مقصود ملحوظ، وهل كل ما لم يعرفه الإنسان لا وجود له؟ وهل سُجِّل في التاريخ كل شيء حتى يُنكر ما لم يرد فيه؟

ثم إن القرآن يطلب من أتباعه، بل من البشرية جمعاء أن تسير في الأرض، وتبحث لتعرف ما خفي عنها، وإشارات القرآن مقصودة في ذاتها للبحث والتقصِّي، وما زال العلم يطلع علينا بما يكشف عن بعض الأمور التي تركها القرآن للإنسان؛ ليصل إليها بجهده وبحثه.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الكهف (٤٤٤٩).

٢. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢١٦.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٣، ص٣٢.

٤. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٤٠٦ بتصرف.

www.kalemasawaa.com

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن القصة في القرآن أنواع، فهناك القصة المطوَّلة التي يسردها القرآن ويفصلها كقصة يوسف وقصة موسى عليهما السلام، وهناك القصص القصيرة التي يختصر القرآن ذكرها كقصة ذي القرنين، وهناك القصة تتنزل بطلب من الناس كقصة أصحاب الكهف، وهناك القصة التي يشير إليها القرآن إشارة عابرة كقصة أصحاب الرس، وقوم تُبَّع، وهناك القصة التي يطوى ذكرها ليحتفظ علام الغيوب بعلمها[1].

الخلاصة:

- القرآن الكريم هو كتاب الله الذي لم تمتد إليه يد بالتحريف والتبديل، فهو خاتم الكتب السماوية وأشملها وأكملها، وهو الحاكم عليها كلها، فما وافق القرآن من الكتب السماوية والتاريخ فهو حق، وما خالفه فهو باطل، كما أن عدم العلم بالشيء لا يدل على عدم وجود هذا الشيء.
- أصحاب الرس هم قوم من بقايا ثمود؛ لذلك لم يذكر الله تعالى قصتهم إلا عَرَضًا.
- قصة أصحاب الرس من القصص التي أشار إليها القرآن إشارة عابرة، وهذا نوع من القصص القرآني فهناك القصة المطوَّلة كقصة يوسف عليه السلام، وهناك القصة القصيرة كقصة ذي القرنين، وهناك القصة التي يشار إليها إشارة عابرة.

١. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ج١، ص٨٣١.

www.kalemasawaa.com

محمد رسول الله ﷺ (*)

أشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله، لا مفر من هذه الشهادة، بل إنه لا تقبل ـ في الأوضاع المستقيمة ـ شهادة "أن لا إله إلا الله" دون شهادة "وأن محمدًا رسول الله" وهما إقرار متكامل بالإيمان، إقرار لا يتجزأ.

كيف نشهد أن محمدًا رسول الله؟

يقول الإمام الغزالي: "فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا، فلا يحصل لك اليقين إلا بمعرفة أحواله: إمَّا بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع، فإنك إذا عرفت الطب، والفقه، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمعرفة أحوالهم، وسماع أقوالهم، وإن لم تشاهدهم، ولا تعجز أيضًا عن معرفة كون الشافعي ـ رحمه الله ـ فقيهًا، وكون جالينوس طبيبًا، معرفة بالحقيقة، لا بالتقليد عن الغير، بل بأن تتعلم شيئًا من الفقه والطب، وتطالع كتبهما وتصانيفهما؛ فيحصل لك علم ضروري بحالتهما، فكذلك إذا فهمت معنى النبوة".

ونريد الآن أن نشرف بمرافقة الرسول ﷺ؛ لنشهد بعض سناء النبوة ولألائها فيه ﷺ:

إنه سليل أمجاد، يحدثنا التاريخ عن شرفهم وعراقة أصلهم، وعن المكرمات التي كانوا يقومون بها من أجل الإنسانية ومن أجل الخير:

وقُصَيّ ـ أحد أجداده ﷺ ـ ابتنى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت، وكانت دار الندوة هذه تسمَّى مجلس الشورى، وهي البرلمان، وهي المجلس التنفيذي، بل إنها كانت أوسع من ذلك كله، ففيها يكون أمر قريش كله وما أرادوا: من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم، ولا يعقدون لواء حرب لهم، ولا لقوم غيرهم إلا في دار الندوة يعقده لهم قصي.

ولا تخرج عير من قريش فيرحلون إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفًا لقصي وتيمنًا برأيه، ومعرفة بفضله، فكان أمره كالدين المتبع لا يُعْمَل بغيره في حياته، وبعد موته.

وتابَعَه ابنه عبد مناف: فاضل هو الآخر، في الذروة والسنام شرفًا في قومه.

وكذلك كان أمر هاشم بن عبد مناف: الذي أنقذ أهل مكة من الموت جوعًا في السنين الجدباء التي أصابتهم، والتي ذهبت بأموالهم.

أما عبد المطلب الجد المباشر للرسول ﷺ، فقد كان من حكماء العرب وكان من حكام قريش: وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها، كالمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة.

وإذا نظرنا إلى رسول الله ﷺ من ناحية والده أو من ناحية والدته فإنهما: خلقًا وعراقة أصل، من أشرف بيوت مكة وأكرمها، وأسماها بشهادة المؤرخين عن بكرة أبيهم، فكان الرسول ﷺ ـ كما يقول ابن هشام ـ أوسط قومه نسبًا،

(*) الرسول ﷺ، عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.

www.kalemasawaa.com

وأعظمهم شرفًا من قبل أبيه وأمه.

وَوُلِد ﷺ فأرَّخ ميلاده ابتداء التمهيد لما أرادته الحكمة الإلهية من إخراج البشرية من الظلمات إلى النور. كان ميلاده تمهيدًا لذلك بمعنى: أن الله ﷻ في هذه الفترة التي سبقت الرسالة أحاط رسول الإسلام برعايته وعنايته؛ ليكون أهلًا لأن يحمل أعظم رسالة؛ ولأن يبشِّر بالدين العام، ولأن يبيِّن للإنسانية أجمع عن المعنى الصحيح، فيما يتعلق بأمر الصلة بينها وبين الله، وفيما يتعلق بأمر سلوك كل شخص بالنسبة لنفسه وبالنسبة للآخرين؛ وليحدد مسئولية كل شخص في المجتمع: حاكمًا كان أو محكومًا، وزوجًا كان أو أبًا، أو ابنًا، أو أخًا، أو رئيسًا أو عاملًا إلى غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف: "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيَّته؛ الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته"[1].

ومنذ ميلاده ﷺ بدأت تتزلزل جميع أسس الضلال والانحراف، وترمز إلى ذلك السيرة النبوية برموز جميلة فتحدثنا: أنه في ليلة ميلاده غاضت بحيرة ساوى، وتصدَّع إيوان كسرى، وخَبَت نار الفرس، أما الأصنام التي كانت على ظهر الكعبة فإن مصيرها المحتوم، وتحطيمها المؤكد قد تحدّد موعده بالسنين والأيام.

إن أعمدة الشرك والضلال، والانحراف، والظلم، والاستعباد بدأت تتهاوى وتنهار منذ ميلاد الرسول ﷺ وأصبح أمر النور والهداية، والرشاد، وشيك الظهور والانتشار.

وسُمِّي المولود "محمدًا"، أما سبب هذه التسمية فهو من جانب أن آمنة أتاها ـ فيما يُروي ـ آت حين حَمَلت به، فقال لها: إنك قد حملت بسيِّد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سمِّيه "محمدًا".

ومن جانب آخر: فهو حينما جاء جده عبد المطلب؛ ليراه قيل له: ما سمَّيت ابنك؟ فقال: محمد. فقيل له: وكيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك؟ فقال: إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم، وذلك ـ حسبما يروي السهيلي ـ لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب، وقد ذكر حديثها على القيرواني في كتاب "البستان" قال: إن عبد المطلب قد رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وغدا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها، فقصَّها فعُبِّرت له بمولود يكون من صُلْبِه، يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض؛ فلذلك سماه "محمدًا".

وأخذت حليمة السَّعديَّة رسول المستقبل إلى بادية بني سعد، وليس هناك من غرابة في أن يكون رسول النور

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن (٨٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (٤٨٢٨)، واللفظ للبخاري.

www.kalemasawaa.com

هذا قد ملأ رحلتها من مكة إلى البادية، بالبهجة والنشاط والأمل والتفاؤل.

وإن الأبحاث الحديثة نفسها، وتجارب الإنسانية منذ أن وُجدت الإنسانية تؤيد أن هناك إشعاعات عند بعض الناس تضفي على المرافقين لهم بهجة ونشاطًا، فلا غرابة ـ إذن ـ أن تنشط حليمة وينشط زوجها، وتنشط دوابهما وأن تسير الرحلة رخاء، وأن يكون محمد في براءته وطهارته، وفي طفولته الباسمة ونضارته المتألقة هو سبب ذلك كله.

ويملأ محمد ﷺ بيت حليمة بهجة وسرورًا، ويَدِبُّ النشاط في جميع أرجاء البيت وسكانه، ويبارك الله في كل شيء فيه، وتنعم هذه الأسرة بحياة هنيئة، فيزيد عطفها على محمد ﷺ، ويزيد حنانها عليه؛ فينمو في جو من الرحمة والود والحنان، وينغرس كل ذلك في نفسه، ويمتلئ قلبه الناشئ ببذور أسمى العواطف والشيم.

وفي عامه الرابع ﷺ في هذه السن التي يبتدئ الإنسان فيها بنوع من التمييز حصَّنته رعاية الله بما تعبِّر عنه السيرة النبوية بـ "شقِّ الصدر"، فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغِلْمان، فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه؛ فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَة، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَه، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه، فقالوا: إن محمدًا قد قُتِل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون[1].

لقد استخرج جبريل حظ الشيطان من قلبه في هذه السن المبكرة، فكان كما تقول السيدة آمنة: والله ما للشيطان عليه من سبيل، وحقيقة أنه ﷺ لم يكن للشيطان عليه من سبيل، فقد عصمه الله عصمة تامَّة عن الرجس طِيْلَة حياته.

لقد كانت مكة ـ حينما كان رسول الله ﷺ شابًّا فتيًّا قويًّا ـ تعجُّ بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة، فكانت بيوت الخمر منتشرة فيها، وكذلك البيوت المُرِيبة، وفي هذه وتلك المغنيات والراقصات والماجنات، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه، وأراد الله أن يكون رسوله بمَنْأًى عن كل ذلك.

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما هممتُ بقبيح مما يهمُّ به أهل الجاهلية إلَّا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله منهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهلنا نرعاها: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دُفوف ومزامير، قلت: ما هذا؟ قالوا: فلانٌ تزوَّج فلانة لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلَهَوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غَلَبَتْني عيني فنِمْتُ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت ليلة أخرى مثل ذلك، فخرجت فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فسمعت كما سمعت حتى غلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال لي: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا"، قال رسول الله ﷺ: "فوالله ما هممت بعدهما بسوء مما يعمله أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته"[2].

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (٤٣١).

٢. حسن: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق (٦٢٧٢)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

www.kalemasawaa.com

وهذا الخبر الذي يفيدنا عصمة رسول الله ﷺ من شرور الجاهلية ومفاسدها، يعرِّفنا بأمر آخر، وهو: رعاية محمد ﷺ قبل بعثته للغنم، لقد كان ﷺ يرعاها في بادية بني سعد، وقد كان يرعاها في مكة، وقد أخبر ﷺ أنَّ موسى عليه السلام بعث وهو راعي غنم، وبعث داود عليه السلام وهو راعي غنم، وإنما جعل الله هذا في الأنبياء تقدمة لهم؛ ليكونوا رعاة الخلق، ولتكون أممهم رعاية لهم. ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكي.

وأشهد أن محمدًا رسول الله:

وصفه قومه بالأمين؛ لما رأوه ولاحظوه وحققوه، وأيقنوا به من صفات تتمثل فيها الأمانة واضحة وضَّاءة. لقد كان أمينًا على نفسه، فلم يسلمها إلى مهاوي الشرك، أو الشهوة، أو الرجس. وكان أمينًا على الناس، فلم ينتهك عرضًا، ولم يوقع بعض القوم في بعض بالنميمة ولم يَغْتَبْ. وكان أمينًا على الأموال التي تودع عنده؛ ليتاجر بها، أو ليحفظها، فلم يختلس، ولم يَغُشّ ولم يسرق. وكان أمينًا على الحديث إذا تحدث، فلا كذب، ولا مغالاة. وكان أمينًا على الأسرار؛ فلم يُفْشِها ولم يُذِعْها.

إنه الأمين.. أجمع عليها القرشيون، وقالوها حينما اختلفوا في رفع الحجر الأسود، واستلوا السيوف، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم، ثم استقر رأيهم على الاحتكام لأول آت، فغمرتهم الفرحة، حينما رأوا محمدًا، وصاحوا: إنه الأمين.

والأمين كلمة تعني: الصادق المخلص، فالصدق والإخلاص عنصران تتكون منهما الأمانة، وكانت هذه الأمانة معروفة عنه ﷺ في شبابه، وفي حياته كلها، وهو القائل فيما بعد: "لا إيمان لمن لا أمانة له"[1].

وعند بدء دعوته جهرًا؛ حينما نزل قوله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء).

صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: "يا بني فِهْر، يا بني عدي" ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغِير عليكم أكنتم مصدِّقيّ". قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صدقًا. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ (المسد)[2].

وإذا كان رسول الله ﷺ قد طرح الثِّقة بنفسه على قريش برفعه عَلَم الأمانة هذا في وجوههم، فإنه كان مطمئنًا واثقًا من أن حياته، هي من الصفاء بحيث لم يَشُبْها ما يجعل رأي قريش فيه قبيحًا. لقد كانت حياته البراءة الكاملة،

---

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٢٤٠٦)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان (١٩٤)، وحسنه الارنؤوط في تعليقه على المسند.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الشعراء (٤٤٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء)، واللفظ للبخاري.

www.kalemasawaa.com

والطُّهْر التام، وهذا ما دعاه إلى أن يتحدى في صراحة، وأن يعلن في وضوح أن حياته تُثْبِت صدق ما يقول.

ولو تمثَّلت الأمانة ـ الصدق والإخلاص ـ في كل من يحيطون به من المكيين، ما كان في حاجة إلى رفع عَلَمِه هذا، فقد كان يكفي الإخبار بأنه رسول فتكون الاستجابة. وقد آمن بمجرد هذا الإخبار كثيرون لما توفر فيهم من الصدق، والإخلاص لأنفسهم وللآخرين، أي: لما توفر فيهم من الأمانة، لقد آمنت خديجة، وآمن أبو بكر، وآمن ورقة وغيرهم، بمجرد أن أخبرهم بأمره، وآمنوا لما يعرفون فيه، ولما يعلمونه من حياته.

ولقد أقرَّ بهذه الصفة ـ صفة الأمانة ـ أبو سفيان في وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول ﷺ. سأله هرقل قائلًا: هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا. وكان استنتاج هرقل: إنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله. سأل هرقل أبا سفيان أيضًا: عمّا إذا كان قد أُثر عن محمد غدر؟ فأجاب أبو سفيان بالنفي. فقال له هرقل: سألتك: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا. كذلك الرسل لا تغدر.

وحديث هرقل هذا مع أبي سفيان جدير بالتأمل، فهو استنتاج عاقل، ومنطق مُتروٍّ، ونأخذ منه الآن ما يتصل بحياة الرسول ﷺ وندع ما يتصل بالرسالة لما بعد، يقول هرقل لأبي سفيان: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت: أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسَّى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من مَلِك؟ فذكرت: أن لا. قلت: لو كان من آبائه من ملك لقلت: رجل يطلب مُلْك أبيه[1].

وإذا نظرنا إذن إلى حياة الرسول ﷺ من ناحية الوراثة، أو من الناحية النفسية، فإننا نجد: أنها تحقق صدقه. لقد كانت حياته ﷺ شرحًا مستفيضًا، وتوضيحًا كاملًا، وتعبيرًا تامًّا لما ذكره ابن خلدون: وما يتفق عليه العقلاء، ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة: من أن علامات الأنبياء: "أنه يوجد لهم قبل الوحي خُلق الخير والذكاء، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها، وكأنها منافية لجبلته".

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول ﷺ مبينة لهذه القاعدة فيقول: وفي الصحيح أنه حمل الحجارة ـ وهو غلام ـ مع عمه العباس لبناء الكعبة، فجعلها في إزاره، فانكشف، فسقط مغشيًّا عليه حتى استتر بإزاره. ودُعِي إلى مجتمع وليمة فيها عُرْس ولعب؛ فأصابه غشي النوم، إلى أن طلعت الشمس، ولم يحضر شيئًا من شأنهم. بل لقد نزَّهه الله عن ذلك كله، حتى إنه بجِبلَّته يتنزه عن المطعومات المستكرهة، فقد كان ﷺ لا يقرب البصل والثوم، فقيل له في ذلك، فقال: "إنني أناجي من لا تناجي"[2].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب صفة الصلاة، باب ما جاء في الثوم النِّيء والبصل والكراث (٨١٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا أو كرَّاثًا أو نحوها عن حضور المسجد (١٢٨١).

www.kalemasawaa.com

ومن الملاحظات الدقيقة التي وجَّه ابن خلدون الأذهان إليها مشيرًا بها إلى أن الملابسات والظروف والجو الذي عاش فيه الرسول ﷺ وحياته قبل البعثة وبعدها، إنما كان كل ذلك خيرًا وفضيلة، سواء من ناحية سلوكه الشخصي، أو من ناحية صلته بملك الوحي، يقول ابن خلدون: وانظر لما أخبر النبي ﷺ خديجة ـ رضي الله عنها ـ بحال الوحي أول ما فاجأته وأرادت اختباره، فقالت: "اجعلني بينك وبين ثوبك، فلما فعلت ذلك ذهب عنه". فقالت: "إنه مَلَك وليس بشيطان". ومعناه: أنه لا يقرب النساء، وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها. فقال: "البياض والخضرة". فقالت: إنه ملك. يعني: أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة، والسواد من ألوان الشر والشياطين، وأمثال ذلك".

هذا النهج الذي نهجناه في هذا الحديث، والذي اتجه إليه ابن خلدون: واتجه إليه من قبله هرقل: هو نهج الفطرة، ونهج العقل، وهو النهج القرآني، إنه نهج الفطرة؛ ولذلك قالت السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ على البداهة للرسول ﷺ حينما فاجأها بخبر الوحي، وقال لها: "لقد خشيت على نفسي" قالت له: "كلا.. والله ما يخزيك الله أبدًا: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"[1].

ونحن حينما ننهج هذا النهج، فإنما نتأسى بالقرآن الذي بيَّن أن حياته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تقف دليلًا واضحًا على أنه صادق في كل ما يقول، فهو على خلق عظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم). ويقول ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[2].

وهذا الجانب الخلقي فيه: يعرفه قومه، ومواطنوه حق المعرفة، فقد كانوا يعرفون محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم وإخوتهم، لا تخفى عليهم من سلوكه خفية.

ويوجه القرآن تفكيرنا إلى أنه ﷺ كان أميًّا، فما كان يتلو من قبل من كتاب ولا يخطه بيمينه، إذن لارتاب المبطلون: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت).

ثم إن مما يلفت النظر في قوله: إنه مكث فيهم أربعين سنة، لا يتحدث عن رسالة ولا نبوة، ومضى عهد الشباب الطموح لم يعلن فيه شيئًا، ولم يتحدث فيه بزعامة، ولا مُلْك ولا نبوة، فلما اكتمل نضجًا وعقلًا تحدث عن اجتباء الله له واختياره لأداء الرسالة: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (يونس).

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤٢٢).

٢. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين، باب كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النبوة (٤٢٢١)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها (٢٠٥٧١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحية (٤٥).

www.kalemasawaa.com

ويتحدى القرآن المنكرين في صدقهم وإخلاصهم، وإن شئت فقل: في أمانتهم فيعرض عليهم أمرًا واحدًا سهلًا لا يشق عليهم تنفيذه. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ (سبأ).

وأشهد أن محمدًا رسول الله:

ما من شك في أن كل شخص مخلص يستمع إلى الدعوة الإسلامية، يقر مع النجاشي: أن الذي جاء به محمد ﷺ والذي جاء به عيسى عليه السلام يخرج من مشكاة واحدة. لقد كان النجاشي يؤمن بعيسى إيمانًا لا يخالجه فيه شك، فلما سمع وصفًا لموضوع الدعوة الإسلامية، آمن بمحمد ﷺ إيمانًا كإيمانه بعيسى عليه السلام في صدقه، وفي أنه يستمد دعوته من الله.

لقد قالها النجاشي حينما سمع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يقصُّ عليه أمر الجاهلية وأمر الإسلام، وقد عاش جعفر بن أبي طالب حياة الجاهلية، وعاش حياة الإسلام، وكل الأخبار والوثائق، تؤيده فيما يتعلق بالجاهلية، والقرآن الكريم والأحاديث الشريفة تؤيده فيما يتعلق بالإسلام، يقول جعفر: "أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسِيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه، وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا ـ من دونه ـ من الحجارة والأوثان. وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا..."[1]، فلما سمع النجاشي ذلك، وقر في قلبه يقين لا يتزعزع بصدق محمد ﷺ، فقال كلمته المشهورة السابقة.

أما هرقل فإنه حينما سأل أبا سفيان عن الدعوة الإسلامية، ذكر له أبو سفيان أن محمدًا يأمر الناس أن: "اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة، والصدق، والعفاف والصلة". فقال هرقل: "فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قَدَمَيّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أنني أخلصُ إليه، لتجشَّمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدمه"[2].

هذا النهج ـ الاستدلال بالدعوة على الصدق، وجعل النظر في الدعوة إحدى الوسائل التي تُسْلِم مع غيرها من

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٢٥٥١)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر بيان أن فرض الزكاة كان قبل الهجرة إلى أرض الحبشة (٢٢٦٠)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١١٥).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

www.kalemasawaa.com

الملابسات إلى اليقين بصدق الداعي ـ الذي اتخذه هرقل والنجاشي هو النهج الذي أقرَّه الإمام الغزالي، فإنك إذا: أكثرت النظر في القرآن والأخبار، يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة.

وأُعضِّد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب وكيف صدق في قوله: "من أعان ظالمًا بباطل ليدحض بباطله حقًّا فقد برئ من ذِمَّة الله وذمة رسوله"[1].

إن النظر إلى الدعوة الإسلامية في نظر الإمام الغزالي، هو إحدى الوسائل التي تثبت صدق الرسول ﷺ، وقد تابع هذا الاتجاه في الاستدلال العالم الاجتماعي الكبير ابن خلدون، وهو يستوعب ـ في نظرة عامة ـ الكثير من الاتجاهات المستقيمة في شأن النبوات، وننقل هنا ما كتبه خاصًّا بموضوع الاستدلال بالدعوة ـ حينما تكون الدعوة خيرًا محضًا كالدعوة الإسلامية ـ على صدق الرسول فيما يدعيه، يقول:

ومن علاماتهم أيضًا:

دعاؤهم إلى الدين والعبادة: من الصلاة، والصدقة، والعفاف، وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ بذلك، كذلك أبو بكر، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه، وفي الصحيح أن هرقل حين جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام أحضر من وجد في بلده من قريش، وفيهم أبو سفيان يسألهم عن حاله، فكان فيما سأل أن قال: بم يأمركم؟ فقال أبو سفيان: "بالصلاة، والزكاة، والصلة، والعفاف... إلى آخر ما سأل فأجابه، فقال: إن يكن ما تقوله حقًّا فهو نبي، وسيملك ما تحت قدمي هاتين". والعفاف الذي أشار إليه أبو سفيان: "هو العصمة".

فانظر كيف أخذ هرقل من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة، دليلًا على صحة نبوته ﷺ،ولم يحتج إلى معجزة، فدل ذلك على أن ذلك من علامات النبوة. والواقع أننا إذا نظرنا إلى موضوع الرسالة الإسلامية، فإننا نجده يحقق في صورة دقيقة الهدف الذي حدده الله من إنزالها، وهو الرحمة العامة، يقول تعالى لرسوله الكريم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء).

والرحمة إذن هي الطابع العام، لكل تعاليم الإسلام سواء في ذلك ما يختص بالمجتمع أو ما يختص بالفرد، وسواء في ذلك ما يتصل بالجانب العقلي أو الجانب الأخلاقي أو الجانب التشريعي. وهذه الرحمة تظهر في مختلف ميادين النشاط الإنساني بصور متعددة، فتظهر في المجتمع بمظهر العدالة والأخوة، وقد ربط الإسلام المجتمع بعضه ببعض برباط كرباط البناء المحكم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا"[2].

وبتماسك كتماسك الجسد الحي الذي يسعد جميعه أو يشقى جميعه، بسعادة أعضائه أو بشقائها، قال رسول الله:

---

١. حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٢١١) برقم (٢٩٤٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٤٨).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب المساجد، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره (٤٦٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم (٦٧٥٠).

www.kalemasawaa.com

"مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى"[١].

وهذا الإحكام وهذا الترابط إنما كان بسبب العدالة السارية التي تكبح شهوات الجموح، وتفيء بالمسرفين إلى سبيل الاعتدال.

والأخوة بجوار العدالة عامل ثان من عوامل الترابط والتماسك، والمؤمنون لوحدة أهدافهم، ولوحدة آمالهم هم إخوة متعاونون: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر: ٣).

وهذا الدين الخالص إنما هو العبودية الكاملة لله وحده، وإذا ما وجدت هذه العبودية، وُجِد الإيثار والتضحية، والبذل والفداء، ووُجِد كل خلق كريم، وكان البعد عن كل خلق ذميم، وأصبح الإنسان الذي يتمثل فيه ذلك رحمة أينما حلَّ وحيثما أقام، ولكنه هو نفسه يصبح أيضًا بعبوديته هذه في كنف الله ﷻ وفي رعايته، وكان آمنًا على نفسه وعلى ذويه سعيدًا بعناية الله ﷻ به وتوفيقه له، فهو إذن مغمور برحمة الله.

والمثل الأعلى الذي تمثلت فيه الرسالة الإسلامية خير تمثيل، إنما هو رسول الله ﷺ لقد كان خلقه القرآن ـ كما جاء على لسان عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ لقد خالط القرآن لحمه ودمه ﷺ، وتلألأ نور القرآن في روحه وبدنه، وامتزج ﷺ بالرسالة الإسلامية وامتزجت به، فكانت هي الرحمة المرسلة، وكان هو الرحمة المهداة.

وإذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية فإننا نشهد: أن محمدًا رسول الله، صلوات الله ورحمته عليه، وبركاته، وتحياته وسلامه عليه[٢].

الرسول ﷺ في مواجهة الشبهات:

وإن المتأمل لما أُثير حول النبي ﷺ يُدرك أنه لم تَحْظَ شخصية في التاريخ البشري العريض بمثل ما حَظِيت به شخصية النبي الكريم محمد ﷺ، سواء من الإشادة والتمجيد، وهذا هو التيار العام والغالب الذي ظل ولا يزال يسير بشكل يتوخَّى الإنصاف والموضوعية في ناحية التقدير الحقيقي لأثره ﷺ في تاريخ البشرية، ولفضل رسالته على الإنسانية. أو من الادعاءات والافتراءات والأباطيل، والطعن والتشكيك، وهذا هو التيار القليل الحاقد الذي يفتقد الموضوعية العلمية في البحث والتدقيق.

بتصدِّينا لهذا التيار منحرف الفكر والمنهج والغاية وجدنا نشاطه ـ بما يثيره عن نبينا الكريم المعصوم ـ من الكثرة والتنوع بحيث يجدر بنا أن نُفْرِد لإبطاله موسوعة مستقلة، ومن هنا لم نتردَّد في التوكل على الله، قاصدين هذه الغاية، وهي إنجاز موسوعة: "**الرسول ﷺ في مواجهة الشبهات**"، ماضين في سبيلها بجدٍّ وثبات، متبعين منهجًا جديدًا في

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٦٧٥١).

٢. انظر: الرسول ﷺ، عبد الحليم محمود، مرجع سابق.

www.kalemasawaa.com

تصنيف ما وُجِّه إليه ﷺ من شبهات وافتراءات، بغرض محاولة النيل من شخصه ﷺ: إنسانًا، ونبيًّا مرسلًا، وقائدًا، ثم عرضها وإبطالها بالحجة الدامغة، آخذين في الاعتبار كل الجهود التي بُذلت ـ ولا تزال تُبذَل ـ في هذا الصدد، سائلين المولى ﷻ أن يتقبله وينفع به.

www.kalemasawaa.com

المصادر والمراجع

- آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧م.
- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- الأدلة الكتابية على فساد النصرانية، د. أحمد حجازي السقا، دار الفضيلة، القاهرة، د. ت.
- الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الأديان في القرآن، د. محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، د. ت.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمود العمادي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت.
- أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- أساقفة كنيسة إنجلترا وألوهية المسيح، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، كتاب المختار، القاهرة، ١٩٩١م.
- استحالة تحريف الكتاب المقدس، القمص مرقص عزيز خليل، كنيسة القديسة العذراء والشهيدة دميانة المعلقة، مصر، ٢٠٠٣م.
- أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، جون هك، ترجمة: نبيل صبحي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٨م.
- الإسلام بدون حجاب، أبو عبد الله العربي، د. م، د. ن، د. ت.
- الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام والغرب، روم لاندو، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.
- أصول العقيدة الإسلامية دراسات وبحوث، د. محمد سلامة أبو خليفة، مكتبة دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- أضواء على أحاديث الإسراء والمعراج، د. سعد المرصفي، مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

www.kalemasawaa.com

- أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- إظهار الحق، قساوسة وعلماء مستشرقون أشهروا إسلامهم، محمد عبد الحليم عبد الفتاح، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي، تحقيق: عبد القادر عرفات، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٨م.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مطابع النصر الحديث، الرياض، ١٩٥٤م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- بنو إسرائيل من التاريخ القديم وحتى الوقت الحاضر، د. محمد الحسيني إسماعيل، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- البهريز في الكلام اللي يغيظ، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- البيان في تحليل وتوجيه الإشكالات التي تثار حول قصص القرآن، د. عاطف قاسم المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م.
- بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١م.
- تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي، جلال الدين المحلي، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٤١م.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد النسفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت.
- التفسير الوسيط، د. سيد طنطاوي، دار الرسالة، القاهرة، ط ٤، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

www.kalemasawaa.com

- تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، أبو الحسن علي بن أحمد السبتي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجنة والنار، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، د. ت.
- الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح، الألوسي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- جولة نقدية في نصوص الرواية التوراتية، محمد صالح توفيق، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- حائط البراق وليس حائط المبكى، د. عادل حسن غنيم، مجلة رؤية، السلطة الفلسطينية، د. ت.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥/ ٢٠٠٤م.
- الحوار دائمًا، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م.
- حياة وأخلاق الأنبياء، د. أحمد الصباحي عوض الله، مكتبة مدبولي، القاهرة، دار اقرأ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، د. محمد عوض الهزايمة، دار عمار، الأردن، ط٥، ١٩٩٧م.
- دراسات لغوية مقارنة، د. محمد صالح توفيق، مطبعة الزهراء، القاهرة، د. ت.
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دار المعارف الأمريكية، القاهرة، د. ت.
- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٢م.
- دلائل النبوة، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- رد القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة،

www.kalemasawaa.com

ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

- الرد الجميل على المشككين في الإسلام من القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، عبد المجيد صبح، دار المنارة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م.
- الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجموعة علماء، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الردود الجلية على من اتهم المسيح بالألوهية، جمع وترتيب: أبو بصير، دار الفرقان، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- رسالة للرد على رسالة تنصيرية شهيرة تزعم ألوهية المسيح من القرآن، إعداد وترتيب: محمود مهران، د. م، د. ن، د. ت.
- الرسل والرسالات، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الرسول ﷺ، عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
- روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- سُبُل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ٢٠٠٢م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٩٥م.
- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، شرح ابن العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ.
- الشرق الأدني القديم، عبد العزيز عثمان، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، ١٩٦٢م.
- شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- صيحات تحذير من دعاة التنصير، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- الطبقات الكبرى، ابن سعد، مطبعة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، د. ت.
- العالم الإسلامي والمكائد الدولية، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة،

www.kalemasawaa.com

١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، د. أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغبي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٨م.
- عيسى ليس المسيح الذي تفسيره المسيا، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- عيسى ومريم في القرآن والتفاسير، مجموعة مؤلفين، إشراف: يوسف قزما خوري، المعهد الملكي للدراسات الدينية، دار الشروق، الأردن، ط١، ١٩٩٦م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل، ابن حزم، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- قصة الهداية، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.
- القصة في القرآن، محمد قطب، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١م.
- قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق: محمد بن الملك الزغبي، دار المنار، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.
- قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، بيروت، د. ت.
- لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- اللقاء بين الإسلام والنصرانية، مناظرة بين الشيخ أحمد حجازي السقا والأنبا غريغوريوس، دار البشير للنشر

www.kalemasawaa.com

والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٤م.

- مؤلفات أحمد ديدات: المجموعة الثالثة، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، مطبعة كتاب المختار، القاهرة، د. ت.
- ما فرطنا في الكتاب من شيء، د. أحمد شوقي إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- المائة الأعظم أثرًا في التاريخ، ميخائيل هارث، ترجمة: علي الجوهري، مكتبة القرآن، القاهرة، د. ت.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- محاضرة عن ألوهية المسيح في كتب الآخرين، ميخائيل الإسكندر، تادرس يوسف، مؤتمر في شبين الكوم، المنوفية، مصر.
- محمد ﷺ خير البشر وأمته خير الأمم، محمد أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- محمد الرسالة والرسول، نظمي لوقا، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م.
- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل، دار المنار، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مطابع الوليد، مصر، ٢٠٠٣م.
- مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م.
- مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام الزين، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، رابطة العالم الإسلامي، مكة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- مشكل الحديث وبيانه، ابن فورك، تحقيق: د. موسى محمد علي، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
- المصطفون الأخيار، عطية صقر، دار مايو، القاهرة، ١٩٩٧م.
- مع الأنبياء والرسل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

www.kalemasawaa.com

- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
- المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، دار الشروق، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- المفردات، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة بيروت، د. ت.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، جامعة بغداد، العراق، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- المقصد الأسنى، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجندي، القاهرة، د. ت.
- مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، د. محمد بلتاجي، مكتبة الشباب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م.
- من إعجاز القرآن، رءوف أبو سعدة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣م.
- المناظرة الكبرى مع القمص زكريا بطرس حول ألوهية يسوع، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- مناظرة بين الإسلام والنصرانية لمناقشة العقيدة الدينية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، دار الحديث، القاهرة. ط٢، ١٤١٢هـ.
- مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥م.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق بحث من المستشرقين، ترجمة نخبة من الأساتذة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف: د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- النبوات، ابن تيمية، مكتبة فياض، المنصورة، ط١، ٢٠٠٥م.
- النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ.
- النبوة والأنبياء في والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.
- نسيم الرياض، الإمام أحمد شهاب الدين الخفاجي، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة، د. ت.
- نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، د. أحمد علي عجيبة، دار الآفاق العربية، القاهرة، د. ت.
- نظرات شرعية في فكر منحرف، سليمان الخراشي، مكتبة التوحيد، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، دار ابن القيم، القاهرة.

www.kalemasawaa.com

- هذا هو الحق، رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، مصر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٧م.
- الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي، د. محمود ماضي، دار الدعوة، القاهرة، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.
- يقولون عن الإسلام، د. عبد الحافظ سلامة حامد، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

www.kalemasawaa.com

موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد السادس

ج ١٠

شبهات حول الأنبياء والرسل (٢)

www.kalemasawaa.com